

التفسير المأثور

عَلَى مَنَهْجِ التَّنْزِيلِ وَالصَّحِيحِ الْمُسْنُونِ

تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ عَلَى مَنَاجِ الْأَصْلَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ
- الْوَحْيَيْنِ : الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ -
عَلَى فَرَمِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ

تَفْسِيرٌ مُنْجِيٌّ فَحْقِي شَامِلٌ مُعَاصِرٌ

الجزء الخامس

تأليف الأستاذ الدكتور
مأمون محمود

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

التفسير المأمون
على منهج النزول والصحيح المسنون

جميع حقوق الطبع والتصوير محفوظة للمؤلف
الطبعة الأولى
1428 هـ - 2007 م

موافقة وزارة الإعلام
رقم : 91092
ورقم : 91451
تاريخ : 16 / 7 / 2006 م
دمشق - سورية

يطلب من المؤلف
دمشق هاتف: 3218471

المدقق اللغوي
الدكتور أحمد راتب حموش

20



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (135).

أخرج الحاكم والطحاوي بإسناد حسن عن القاسم أبي عبد الرحمن عن أبي أمامة مرفوعاً: [اسمُ الله الأعظمُ في سور من القرآن ثلاث: في «البقرة» و«آل عمران» و«طه»]⁽¹⁾.

قال القاسم أبو عبد الرحمن: (فالتمست في «البقرة» فإذا هو في آية الكرسي: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ ، وفي «آل عمران» فاتحتها: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ ، وفي «طه»: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾).

موضوع السورة

قصة موسى وفرعون منهاج للجماعة المؤمنة في مجاهدة الطغاة والمجرمين ، وهذا القرآن سبيل السعادة للبشرية في الدارين .

- منهاج السورة -

1 - ثناء الله على القرآن ، نَزَلَهُ رَحْمَةً لِنَبِيِّهِ وَتَذَكُّرَةً لِلْأَنَامِ ، والله على العرش استوى ، ويعلم السر وأخفى ، وله الأسماء الحسنى .

(1) حديث حسن. أخرجه الحاكم (506/1) ، والطحاوي في «مشكل الآثار» (1/63) ، وإسناده حسن . وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (746).

- 2 - ذكر قصة موسى عليه السلام ، وتكليم الله له ورعايته وحمايته ، وإظهار آية العصا وآية اليد ، ليذهب مطمئناً بالقوة لدعوة فرعون وقد طغى .
- 3 - رجاء موسى ربه شرح صدره ، وتيسير أمره ، وإزالة العجمة من لسانه ، وجعل هارون وزيراً له ، وإجابة الله دعوته .
- 4 - امتنان الله على موسى حمايته ورعايته منذ طفولته إلى شبابه إلى وقت نبوته .
- 5 - خشية موسى بطش فرعون به وبأخيه ، وإنزال الله الطمأنينة على قلبه .
- 6 - إبلاغ موسى فرعون رسالة ربه ، ومحاولة فرعون التكذيب بالربوبية ، ومقابلة موسى له بقوارع الوحي وحجج الله البالغة .
- 7 - استكبار فرعون ، واتهامه لموسى بالسحر ، وانصرافه لجمع السحرة للمكر والكيد ، وتحذير موسى لهم مغبة الوعد والوعيد .
- 8 - بدء الاستعراض من السحرة بحبالهم وعصيهم ، وشعور موسى بالخوف من سحرهم ، وتثبيت الله له ليلقي عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون ، ونزول السحرة ساجدين ، معلنين أمام الملأ: أمنا برب موسى وهارون .
- 9 - استنفار فرعون لضبط نفوذه وسلطانه ، وتهديده السحرة بالقتل والصلب ، وإيثار السحرة ما عند الله .
- 10 - أمرُ الله موسى المسير بالمؤمنين ليلاً ثم اختراق البحر بهم ، واتباع فرعون له بجنوده وغرقهم عن آخرهم .
- 11 - امتنان الله على بني اسرائيل بالنعم الكبيرة ، ومواعدة موسى جانب الطور الأيمن وتكليمه ، وإنزال التوراة والمن والسلوى .
- 12 - قدوم موسى لميقات ربه ، وإضلال السامري القوم بعبادة العجل ، ورجوع موسى غضبان أسفاً يحذر قومه مغبة ما وقعوا به من الشرك بالله .
- 13 - نصيحة هارون لبني إسرائيل بطاعة الرحمان عز وجل ، وعدم الوقوع في هذه الوثنية القبيحة ، ورجوع موسى مؤنباً هارون ، وحواره مع السامري وتوعده له .
- 14 - تسلية الله نبيه ﷺ في ذكره أخبار ما قد سبق ، ونَعَتُْ المجرمين يوم القيامة في ذلهم وحوارهم ، ووصف أهوال الموقف يوم الحشر والحساب .

- 15 - ثناء الله على القرآن ، ووصيته لنبيه الإنصات لجبريل عليه السلام .
- 16 - عهدُ الله إلى آدم ونسيانه ، وأمره تعالى الملائكة السجود له ، وامتناع إبليس وتحذير الله عداوته ، ووسوسة الرجيم للأبوين حتى أكلا من الشجرة ، والتماس آدم التوبة من ربه حتى تاب عليه وهدى .
- 17 - هبوط آدم وحواء وإبليس إلى الأرض ، وإرسال الله الرسل ، وضمانه السعادة للمؤمنين ، والشقاء للكافرين ، وذلك في الدارين .
- 18 - ترتيب الله المعيشة الضنك على الإعراض عن ذكره ، وذكر حال الأمم التي زلزلها بكفرها ، وحث الله رسوله على الصبر والتسبيح .
- 19 - تنبيه الله لنبيه إلى ترك النظر إلى المستكبرين المترفين ، والانشغال باستنقاذ أهله من النار بإقام الصلاة والصبر على ذلك ، ورزق الله مقسوم والعاقبة للمتقين .
- 20 - سؤال المشركين الآيات والمعجزات ، وهذا القرآن أكبر معجزة ، وفي اتباع هذا النبي منهاج الهداية والنجاة .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

1 - 8. قوله تعالى: ﴿طه﴾ مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْفَى ﴿٢﴾ إِلَّا نَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى ﴿٣﴾ تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴿٦﴾ وَإِنْ يُجْهَرِ الْقَوْلُ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿٨﴾.

في هذه الآيات: ثناء الله تعالى على القرآن ، نَزَلَهُ نوراً ورحمة لنبىّه وتذكرة للأنام ، إنه الله تعالى على العرش استوى ، يعلم ما في السماوات وما في الأرض ويعلم السر وأخفى ، الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى .

فقوله تعالى: ﴿طه﴾ - هو من مثيل الحروف المقطعة التي سبقت في أوائل السور ، وأنها أفضل ما تدل على إعجاز هذا الكتاب الذي هو من جنس هذه الأحرف .

وقوله تعالى: ﴿طه﴾ مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْفَى ﴿٢﴾. انتصار مباشر لهذا القرآن ، بعد الافتتاح بتلك الحروف المقطعة ، وأنه كلام الله العظيم المعجز ، الذي فيه سرّ النجاة من شقاء الدنيا والآخرة ، وسرّ حصول سعادة الدارين .

قال قتادة: ﴿طه﴾ مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْفَى ﴿٢﴾ لا والله ما جعله الله شقياً ، ولكن جعله رحمة ونوراً ، ودليلاً إلى الجنة).

قال النسفي: ﴿طه﴾ لِتَشْفَى ﴿٢﴾ لتتعب لفرط تأسفك عليهم وعلى كفرهم ، وتحسرك على أن يؤمنوا ، أو بقيام الليل⁽¹⁾.

(1) أي كقوله تعالى: ﴿فَاقْرَأْ مَا يَنْسَرُّ رَيْنُهُ﴾ - كما قال مجاهد . وقد كان رسول الله ﷺ يصلي من الليل حتى تورمت قدماه .

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا نَذْكُرْهُ لِمَنْ يَخْشَى﴾.

قيل: هو استثناء منقطع ، أي: ولكن أنزلناه تذكرة. وقيل نصب ﴿نَذْكُرْهُ﴾ على المصدر ، أي أنزلنا لتذكّر به تذكرة. أو على المفعول لأجله ، والتقدير: ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى به ، ما أنزلناه إلا تذكرة. وكلها وجوه محتملة تدل على الإعجاز.

قال قتادة: (وإن الله أنزل كتبه ، وبعث رسله رحمة رحمة رحمة الله بها العباد ، ليتذكر ذاكر ، وينتفع رجل بما سمع من كتاب الله ، وهو ذكر له أنزل الله فيه حلاله وحرامه).

وقوله تعالى: ﴿تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى﴾ - فيه إشارة إلى صفة علو الله العلي العظيم ، فإنه تعالى فوق العرش يدبر الأمر ، وهو بائن من خلقه كما وصف سبحانه نفسه.

وقوله: ﴿تَنْزِيلًا﴾ مصدر ، أي نزلناه تنزيلاً. وقيل: بدل من ﴿نَذْكُرْهُ﴾.

وقرأ أبو حيوة الشامي ﴿تنزيل﴾ بالرفع ، والنصب أرجح وأشهر. والعلا: أي العالية الرفيعة ، وهي جمع العليا. والمعنى كما قال ابن كثير: (هذا القرآن الذي جاءك يا محمد تنزيلٌ من ربِّ كلِّ شيء ومليكه ، القادر على ما يشاء ، الذي خلق الأرض بانخفاضها وكثافتها ، وخلق السماوات العلا في ارتفاعها ولطافتها).

وقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ - أي علا وارتفع ، كما يليق بجلاله وكماله.

وقوله تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾.

قال القاسمي: (بيان لشمول قهره وملكته للكل. أي كلها تحت ملكته وقهره وسلطته وتأثيره. لا توجد ولا تتحرك ولا تسكن ولا تتغير ولا تثبت إلا بأمره).

وقال النسفي: ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ ما تحت سبع الأرضين أو هو الصخرة التي تحت الأرض السابعة).

وقوله تعالى: ﴿وَلِنْ يَجْهَرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾.

قال ابن عباس: (السّر: ما علمته أنت ، وأخفى: ما قذف الله في قلبك مما لم تعلمه).

وقال أيضاً: (يعني بأخفى: ما لم يعلمه ، وهو عامله ، وأما السّر: فيعني ما أسرّ

في نفسه). أو قال: (السِّر: ما أسرَّ ابن آدم في نفسه. وأخفى: قال: ما أخفى ابن آدم مما هو فاعله قبل أن يعمله ، فالله يعلم ذلك). أو قال: (وأخفى: ما لا يعلم الإنسان مما هو كائن). وعن مجاهد: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ قال: أخفى: الوسوسة). وقال عكرمة: (أخفى حديث نفسك). وقال سعيد بن جبیر: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ قال: السِّر: ما أسررت في نفسك ، وأخفى من ذلك: ما لم تحدث به نفسك). وقال أيضاً: (أنت تعلم ما تُسرُّ اليوم ، ولا تعلم ما تُسرُّ غداً ، والله يعلم ما تُسرُّ اليوم ، وما تُسرُّ غداً). قلت: وكلها أقوال مفيدة تثري المعنى وتزيد من بيان آفاه ومدلولاته وإعجاز لفظه.

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾.

قال القاسمي: ﴿اللَّهُ﴾ أي ذلك المُنزَل الموصوف بهذه الصفات هو الله ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ أي الفضلى ، لدلالاتها على معاني التقديس والتمجيد والتعظيم والربوبية والأفعال التي هي النهاية في الحسن).

9 - 16. قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ۖ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هُذًى ۖ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمْوَسَّى ۖ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۚ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۚ وَأَنَا أَخَذْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ۚ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ۚ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ۚ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ۚ﴾.

في هذه الآيات: قصة موسى عليه الصلاة والسلام وكيف كان ابتداء الوحي إليه وتكليم الله تعالى له ، وذلك بعدما قضى موسى الأجل الذي كان بينه وبين صهره في رعاية الغنم وسار بأهله قاصداً بلاد مصر بعدما غاب عنها أكثر من عشر سنين ، فخرج ومعه زوجته فأضل الطريق وكانت ليلة شاتية ، ونزل منزلاً بين شعاب وجبال في ذلك البرد والظلام ، فجعل يقدح برنيد معه ليوري نارا فلم يخرج شرر منه ، وهناك ظهر له من جانب الطور نارا ، من جانب الجبل الذي هناك عن يمينه ، فقال لأهله يبشرهم إني

أنست ناراً لعلني آتيكم منها بشهاب من نار أو أجد عندها ما يدلني على الطريق . فلما اقترب من النار ناداه ربه تعالى بأجمل العبارات ، وبشره بالنبوة وأمره بعبادته وإقام الصلوات ، وأكد له أمر الساعة ليحذر الناس من مغبة الوقوع في الشرك والآثام والموبقات .

فقوله تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾ . تسلية من الله لرسوله ﷺ عما يلقاه من أعدائه المشركين . أي هل أتاك - يا محمد - خبر موسى . قال النسفي : (ليتأسى به في تحمل أعباء النبوة بالصبر على المكارة ولينال الدرجة العليا كما نالها موسى) .

وقوله : ﴿ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا ﴾ . قال ابن عباس : (لما قضى موسى الأجل ، سار بأهله فضل الطريق . قال : كان في الشتاء ، ورفعت لهم نارٌ ، فلما رآها ظن أنها نار ، وكانت من نور الله ﴿ فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا ﴾) .

يروى ابن جرير عن ابن إسحاق ، عن وهب بن منبه اليماني : (لما قضى موسى الأجل ، خرج ومعه غنم له ، ومعه زنده له ، وعصاه في يده يهش بها على غنمه نهاراً ، فإذا أمسى اقتدح بزنده ناراً ، فبات عليها هو وأهله وغنمه ، فإذا أصبح غدا بأهله وبغنمه ، فتوكأ على عصاه ، فلما كانت الليلة التي أراد الله بموسى كرامته ، وابتدأه فيها بنبوته وكلامه ، أخطأ فيها الطريق حتى لا يدري أين يتوجه ، فأخرج زنده ليقتدح ناراً لأهله ليسيئوا عليها حتى يصبح ، ويعلم وجه سبيله ، فأصلد زنده فلا يوري له ناراً فقدح حتى أعياه ، لاحت النار فرآها ، ﴿ فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴾) .

وقوله : ﴿ لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ ﴾ . أي لعلني أجيئكم من النار بشعلة . والقبس في كلام العرب : النار في طرف القصبة أو العود .

وقوله : ﴿ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴾ . قال ابن عباس : (يقول : من يدل على الطريق) . وقال قتادة : (من يهديني إلى الطريق) .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَنَّهُمَا يُودَي يَمُوسَى ﴾ ﴿١١﴾ ﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ . أي : فلما أتى النار موسى ناداه ربه ، إني أنا ربك فاخلع نعليك وأفض بقدميك إلى بركة الوادي . قال مجاهد : (أمر أن يباشر بقدميه بركة الأرض) . وقال ابن أبي نجيج : (في قوله : ﴿ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ يقول : أفض بقدميك إلى بركة الوادي) . وعن ابن عباس : (قوله : ﴿ طُوًى ﴾ : هو اسم للوادي) .

وفي التنزيل: ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْشِيَ إِبْرَاهِيمُ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [القصص: 30].

وقوله تعالى: ﴿ وَأَنَا آخَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴾.

أي: إني اصطفتك للرسالة من بين جميع أهل زمانك فأصغ لهذا الوحي العظيم.
وفي التنزيل نحو ذلك: ﴿ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي ﴾ [الأعراف: 144].

وقوله: ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا ﴾.

قال ابن كثير: (هذا أول واجب على المكلفين أن يعلموا أنه لا إله إلا الله، وحده لا شريك له). قلت: وهذه الكلمة العظيمة هي أصل العبادة وهي دعوة الرسل جميعاً وسر سعادة الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: 52].

وفي صحيح مسلم عن عثمان رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة] (1).

وفي الصحيحين عن عتب بن مالك، عن النبي ﷺ قال: [إن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله عز وجل] (2).

وقوله: ﴿ فَاعْبُدْنِي ﴾. قال ابن جرير: (يقول: فأخلص العبادة لي دون كل ما عبد من دوني).

وقوله: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ - فيه أكثر من تأويل:

التأويل الأول: أقم الصلاة عند ذكرك لي. ذكره ابن كثير. قال مجاهد: (إذا ذكر عبد ربه).

التأويل الثاني: أقم الصلاة لتذكرني فيها. ذكره القرطبي.

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه - حديث رقم - (26). كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (206/11)، وأخرجه مسلم في الصحيح (33). كتاب الإيمان، من حديث عتب بن مالك رضي الله عنه مرفوعاً.

التأويل الثالث: أقم الصلاة لأذكرك بالمدح في عليين بها. قال القرطبي: (فالمصدر على هذا يحتمل الإضافة إلى الفاعل وإلى المفعول).

التأويل الرابع: أقم الصلاة إذا نسيتهما حين تذكرها. قال إبراهيم: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرٍ﴾: يصليها حين يذكرها).

التأويل الخامس: أي حافظ بعد التوحيد على الصلاة.

قلت: وكلها معان متكاملة يتسع لها اللفظ الإلهي المعجز ، وقد دلت السنة الصحيحة على بعضها في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ: [مَنْ نَسِيَ صَلَاةً فَلْيُصَلِّ إِذَا ذَكَرَ ، لَا كَفَّارَةَ لَهَا إِلَّا ذَلِكَ ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرٍ﴾] (1).

الحديث الثاني: أخرج مسلم في صحيحه ، وأحمد في مسنده ، عن قتادة ، عن أنس ، عن النبي ﷺ: [إِذَا رَقَدَ أَحَدُكُمْ عَنِ الصَّلَاةِ ، أَوْ غَفَلَ عَنْهَا ، فَلْيُصَلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرٍ﴾] (2).

الحديث الثالث: أخرج الترمذي في سننه بإسناد صحيح عن أبي هريرة قال: [لما قفل رسول الله ﷺ من خير أسرى ليلة حتى أدركه الكرى أناخ فعرّس ثم قال: «يا بلال اكأنا لنا الليلة». قال: فصلى بلال ، ثم تساند إلى راحلته مستقبل الفجر ، فغلبته عيناه فنام ، فلم يستيقظ أحد منهم ، وكان أولهم استيقاظاً النبي ﷺ فقال: «أي بلال» ، فقال بلال: بأبي أنت يا رسول الله ، أخذ بنفسي الذي أخذ بنفسك ، فقال رسول الله ﷺ: «اقتادوا» ، ثم أناخ فتوضأ فأقام الصلاة ، ثم صلى مثل صلاته في الوقت في تمكث ، ثم قال: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرٍ﴾] (3).

وقوله: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾. أي: إن الساعة جائية أكاد أخفيها لنفسي لا تأتیکم إلا بغتة. قال ابن عباس: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ يقول: لا أظهر عليها أحداً غيري).

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (597) - كتاب مواقيت الصلاة. وفي رواية: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِلذِّكْرِ﴾. ورواه مسلم (684)، وأبو داود (442)، والترمذي (178)، والنسائي (293/1)، وابن ماجه (696)، وأحمد (243/3)، وابن حبان (1555).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (684)، (316)، ورواه أحمد (184/3) من طريق المثنى به.

(3) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (3387) في التفسير ، سورة طه ، آية (14) ، وانظر صحيح سنن الترمذي (2530) ، وصحيح سنن أبي داود (420 - 421) ، وفي صحيح مسلم نحوه.

وقال: (لا تأتیکم إلا بغتة). وعن سعيد بن جبیر: ﴿أَكَاذُ أَخْفِيهَا﴾ قال: من نفسي).

وقال السُّدي: (ليس أحدٌ من أهل السماوات والأرض إلا قد أخفى الله عنه علم الساعة ، وهي في قراءة ابن مسعود: ﴿إني أكاد أخفيها من نفسي﴾ ، يقول: كتمتها من الخلاق ، حتى لو استطعت أن أكتُمها من نفسي لفعلت).

وقال قتادة: ﴿أَكَاذُ أَخْفِيهَا﴾ ، وهي في بعض القراءة ﴿أخفيها من نفسي﴾ ، ولعمري لقد أخفاها الله من الملائكة المقربين ، ومن الأنبياء والمرسلين).

وفي التنزيل نحو ذلك :

1 - قال تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: 65].

2 - وقال تعالى: ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْحًا إِلَّا هُوَ نُقِّلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف: 187].

3 - وقال تعالى: ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿١٢﴾ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا ﴿١٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا﴾ [النازعات: 42 - 44].

ومن صحيح السنة العطرة:

أخرج الإمام أحمد في المسند بسند صحيح عن بريدة ، عن النبي ﷺ قال: [خمسٌ لا يعلمهنَّ إلا الله: إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم ما في الأرحام ، وما تدري نفس ماذا تكسبُ غداً ، وما تدري نفس بأي أرض تموت ، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾⁽¹⁾].

وقوله: ﴿لِتَجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾. أي: لتثاب كل نفس قضى الله امتحانها في الدنيا بما تسعى. فمن يعمل صالحاً فلنفسه ، ومن يعمل غير ذلك فأثمه على نفسه.

وفي التنزيل: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: 7 - 8].

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (5/ 353)، وكذلك (2/ 24)، (2/ 52)، وهو في صحيح البخاري في كتاب التفسير من حديث ابن عمر - نحوه - ورواه مسلم وغيره.

وفي سنن ابن ماجه بسند صحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [إنما يبعث الناس على نياتهم]⁽¹⁾.

ورواه من حديث جابر بلفظ: [يحشر الناس على نياتهم].

وينحوه عند ابن حبان من حديث عائشة: [. . . ثم يبعثون على نياتهم وأعمالهم].

وقوله تعالى: ﴿ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴾.

أي: فلا يردنك عن التهيؤ للساعة يا موسى والتأهب لها من لا يؤمن بها ومضى خلف شهواته وأهوائه معظماً لها ، فتهلك بذلك وتشقى .

قال الزمخشري: (وفي هذا حث عظيم على العمل بالدليل ، وزجر بليغ عن التقليد ، وإنذار بأن الهلاك والردى مع التقليد وأهله).

17 - 24. قوله تعالى: ﴿ وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَمْسُكُ ﴾ ١٧ قَالَ هِيَ عَصَايَ

أَتَوَكَّلُ عَلَيْهَا وَأَهْشُ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِي فِيهَا مِثْرَابٌ أُخْرَى ١٨ قَالَ أَلْقَهَا يَمْسُكُ ١٩

فَأَلْقَهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ٢٠ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ٢١

وَأَضْمُمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيَضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوَاءٍ ٢٢ آيَةٌ أُخْرَى ٢٣ لِرَبِّكَ مِنْ ءَايَاتِنَا

الْكُبْرَى ٢٤ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ٢٥

في هذه الآيات: إبراز الله تعالى آية لموسى ، عصاه ألقاها فانقلبت بإذن الله حية تسعى ، قال خذها ولا تخف سنعيد لها سيرتها الأولى ، ثم أراه آية أخرى ، يده ضمها إلى جناحه فخرجت بيضاء بإذن ربه الأعلى . ليذهب محملاً باليقين ممثلاً أمر الله إلى فرعون الذي طغى .

فقوله تعالى: ﴿ وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَمْسُكُ ﴾ - استفهام تقرير .

أي هو تنبيه من الله سبحانه ليقرر بنفسه أنها خشبة يتوكأ عليها ويهش بها على غنمه ، ليعرفه قدرته تعالى على تحويلها إلى حية تسعى .

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجه في السنن (4229) ، (4230) - كتاب الزهد - باب في النية ، وانظر صحيح سنن ابن ماجه (3407) - (3408) ، ورواه ابن حبان في صحيحه نحوه ، وقد مضى .

قال النسفي: (والسؤال للتنبية لتقع المعجزة بها بعد التثبيت ، أو للتوطين لثلاث يهو له انقلابها حياة ، أو للإيناس ورفع الهيئة للمكالمة).

وقوله تعالى: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّوْا عَلَيْهَا وَاهْبُتْ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَنَازِبُ أُخْرَىٰ﴾. أي: فأجاب موسى أنها عصاه يعتمد عليها حال المشي ويهز بها الشجرة ليسقط ورقها لترعاه غنمه ، وأن له بها مصالح ومنافع أخرى.

قال قتادة: ﴿وَاهْبُتْ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾: أخبط بها الشجر). وقال: (كان نبي الله موسى ﷺ يهش على غنمه ورق الشجر). وقال السدي: (يقول: أضرب بها الشجر للغنم، فيقع الورق). وقال الضحاك: (يقول: أضرب بها الشجر حتى يسقط منه ما تأكل غنمي).

وعن ابن عباس: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَنَازِبُ أُخْرَىٰ﴾ قال: حوائج أخرى قد علمتها). وقال مجاهد: (حاجات). أي حاجات أخرى سوى ذلك.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَيْهَا يَمُوسَىٰ﴾ - ابتداء لأسباب ظهور المعجزة. قال ابن عباس: (لما قيل لموسى: ألقها يا موسى ، ألقاها) - أي العصا التي كانت في يده.

وقوله تعالى: ﴿فَالْقَنَاهَا فِإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾. أي: قلب الله أوصافها وأعراضها ، فصارت العصا حيّة بإذن الله ﴿تَسْعَى﴾ أي: تنتقل وتمشي وتتحرك. قال وهب بن منبه: (تهتز ، لها أنياب وهيئة كما شاء الله أن تكون ، فرأى أمراً فظيعاً ، فولى مدبراً).

وفي التنزيل: ﴿فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدِرًّا وَلَئِيْلَ يَعْقُبُ﴾ [النمل: 10]. فنودي: ﴿يَمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمَرْسُلُونَ﴾ [النمل: 10].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ﴾.

قال وهب بن منبه: (فولى مدبراً ، ولم يعقب ، فناداه ربه: يا موسى أقبل ولا تخف ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ﴾. قال: أي سندها عصاً كما كانت).

وعن ابن عباس: ﴿سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ﴾ يقول: حالتها الأولى). أي سندها إلى هيئتها الأولى عصاً كما كانت.

وقوله تعالى: ﴿وَأَضْمَمْنَا يَدَكَ إِيَّانَا فَخَرَجْتَ بِصَبَاحٍ مِّنْ غَيْرِ صَبَاحٍ أُخْرَىٰ﴾.

أي: أدخل يدك - يا موسى - في جيبك كما تفسره الآية الأخرى: ﴿وَأَدْخَلْنَا يَدَكَ فِي جَيْبِكَ فَخَرَجَ بِصَبَاحٍ مِّنْ غَيْرِ صَبَاحٍ﴾ [النمل: 12]. وكذلك الآية: ﴿أَسْلَكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ فَخَرَجَ

بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَنُوبَكَ بَرَهْنَانٍ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾ [القصص: 32]. فهذا برهان ثانٍ لموسى ﷺ إذ أمره ربه أن يدخل يده في جيبه تخرج بيضاء من غير سوء: أي من غير برص ولا أذى ولا شين.

وعن ابن عباس: ﴿تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ قال: من غير برص). قال الحسن: (أخرجها الله من غير سوء ، من غير برص ، فعلم موسى أنه لقي ربه). وقوله تعالى: ﴿لِرَبِّكَ مِنْ ءَايَاتِنَا الْكُبْرَى﴾.

قال ابن جرير: (كي نريك من أدلتنا الكبرى على عظيم سلطاننا وقدرتنا). وقوله تعالى: ﴿أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾. أي تجاوز قدره وحده ، وتمرد على ربه . قال ابن كثير: (أي: اذهب إلى فرعون ملك مصر ، الذي خَرَجْتَ فَارًّا مِنْهُ وَهَارِبًا ، فادعه إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، ومُرُهُ فليُحْسِنِ إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا يَعْذِِبْهُمْ ، فإنه قد طغى وبغى ، وآثر الحياة الدنيا ، ونسي الرب الأعلى).

25 - 35. قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَأَحْلِلْ عُقْدَةً مِن لِسَانِي ﴿٢٧﴾ يَقْفَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ أَشَدُّ بِهٖءَازَرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَىٰ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾.

في هذه الآيات: رجاء موسى عليه الصلاة والسلام ربّه ، أن يشرح صدره ، ويسر أمره ، ويزيل العقدة من لسانه ، ويجعل هارون وزيراً له يعينه في أمره ، رجاء إقامة منهج التعظيم لله وحده والإكثار من ذكره ، إنه هو السميع البصير .

فقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾﴾ - سؤال من موسى عليه السلام ربّه تبارك وتعالى ليشرح صدره فيما بعثه به ، إلى أكبر طغاة الأرض وأكثرهم جنوداً وأعمرهم ملكاً . وأن يكون له في مهمته عوناً ونصيراً وظهيراً .

قال ابن زيد: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ قال: (جرأة لي). وقال القرطبي: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ أي وسّعه ونوّره بالإيمان والنبوة ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ أي سهّل عليّ ما أمرتني به من

تبليغ الرسالة إلى فرعون). وقوله تعالى: ﴿وَأَحْلَلْ عُنُقَهُ مِنْ لَسَانِي﴾ ٢٧ ﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ - أي أزل العجمة التي في لساني يفقهوا عني ما أخاطبهم به بالكلام. قال ابن عباس: (كانت في لسانه رُتَّة). قيل: يعني العجمة التي كانت فيه من جمره النار التي أطفأها في فيه وهو طفل). وقيل غير ذلك ، والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي﴾ ٢٩ ﴿هَٰرُونَ أَخِي﴾ ٣٠ ﴿أَشَدُّ بِهِ أَزْرَى﴾ ٣١ ﴿وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي﴾. هو من تمام سؤال موسى ربه عوناً في تيسير مهمته لدعوة ذلك الطاغية المتجبر فرعون. فسأل ربه أن يجعل له عوناً من أهل بيته. قال النسفي: ﴿(وَزِيرًا)﴾ ظهيراً أعتمد عليه ، من الوزر الثقل ، لأنه يتحمل عن الملك أوزاره ومؤنته ، أو من الوزر الملجأ ، لأن الملك يعتصم برأيه ، ويلتجئ إليه في أموره ، أو معيناً من الموازنة وهي المعاونة).

أخرج النسائي بسند صحيح عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: [من ولي منكم عملاً فأراد الله به خيراً جعل له وزيراً صالحاً إن نسي ذكركه ، وإن ذكر أعانه]⁽¹⁾.

وفي صحيح البخاري عن أبي سعيد مرفوعاً: [ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان ، بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه ، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه ، فالمعصوم من عصمه الله]⁽²⁾.

وقوله: ﴿هَٰرُونَ﴾ عطف بيان لـ «وزيراً» ، وقوله ﴿أَخِي﴾ بدل أو عطف بيان آخر.

وعن ابن عباس: ﴿(أَشَدُّ بِهِ أَزْرَى)﴾ يقول: اشدد به ظهري). وقال ابن زيد: (يقول: اشدد به أمري ، وقوتي به ، فإن لي به قوة). وعن مجاهد: ﴿(أَشَدُّ بِهِ أَزْرَى)﴾ قال: (ظهري). وفي لغة العرب: أزر فلان فلاناً: إذا أعانه وشدّ ظهره. قال الرازي: (الأزر: القوة. وقوله تعالى: ﴿(أَشَدُّ بِهِ أَزْرَى)﴾ أي ظهري. و«أزره» أي عاونه).

قال ابن جرير: (وقوله: ﴿(وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي)﴾ يقول: واجعله نبياً مثل ما جعلتني نبياً ، وأرسله معي إلى فرعون). وقال ابن كثير: ﴿(وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي)﴾ أي: في مشاورتي).

وقوله تعالى: ﴿كَئِشْحَكَ كَثِيرًا﴾ ٣٢ ﴿وَنَذْرَكَ كَثِيرًا﴾ ٣٣ ﴿إِنَّكَ كُنْتَ نَبًا بَصِيرًا﴾.

أي: كي نعظمك بالذكر والتسبيح والدعاء ، فإنك العليم بأحوالنا البصير بحاجاتنا.

(1) حديث صحيح. أخرجه النسائي (159/7) من حديث القاسم عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، وإسناده صحيح ، ويشهد له الحديث الذي بعده.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (7198) ، وأخرجه أحمد (39/3) من حديث أبي سعيد ، ورواه أحمد (289/2) وأبو يعلى (6000) ، وصححه ابن حبان (6191) من حديث أبي هريرة.

قال القاسمي: (أي كي نتعاون على تسبيحك وذكرك. لأن التعاون - لأنه مهيج الرغبات - يتزايد به الخير ويتكاثر ﴿إِنَّكَ كُنْتَ بَصِيرًا﴾ أي عالماً بأحوالنا ، وبأن المدعو به مما يفيدنا).

وعن مجاهد قال: (لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيراً حتى يذكر الله قائماً وقاعداً ومضطجعاً).

36 - 40. قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَىٰ﴾ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَآقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُمْ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُمْ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَلَلْتَ نَفْسًا فَجَجَيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَنَّكَ فَتَوَنَّاهُ فَلَيْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾.

في هذه الآيات: إجابة الله تعالى دعوة موسى ﷺ ، وامتنانه عليه بإلهام أمه أيام طفولته قذفه بالتابوت في اليم ليلقيه الله إلى بيت عدوه ، ثم إرجاعه إلى أمه لإرضاعه أثناء سعي أخته في ذلك ، ثم ما كان من حماية الله له أثناء الشباب بعد قتله القبطي واختباره اختباراً كثيراً.

فقوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَىٰ﴾.

قال القرطبي: (لما سأله شرح الصدر ، وتيسير الأمر إلى ما ذكر ، أجاب سؤاله ، وأتاه طلبته ومرغوبه).

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ﴾ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَآقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾.

قال ابن كثير: (تذكير له بنعمه السَّالِفَةِ عليه ، فيما كان ألهم أمه حين كانت تُرضِعه ، وتحذر عليه من فرعون ومَلَيْهِ أَنْ يَقْتُلُوهُ ، لأنه كان قد وُلِدَ فِي السَّنَةِ الَّتِي يَقْتُلُونَ فِيهَا الْغُلَّامَانِ. فاتخذت له تابوتاً ، فكانت ترضِعه ثم تَضَعُهُ فِيهِ ، وَتُرْسِلُهُ فِي الْبَحْرِ - وهو النيل - وَتُمْسِكُهُ إِلَى مَازِلِهَا بِحَبْلِ ، فذهبت مرة لتربطه فانفلت منها وذهب به البحر ،

فَحَصَلَ لَهَا مِنَ الْغَمِّ وَالْهَمِّ مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ عَنْهَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَرِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ [القصص: 10] ، فذهب به البحر إلى دار فرعون ، ﴿فَالْفَقْطَةُ أَلْ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: 8] ، فَحَكَّمَ اللَّهُ - وله السلطان العظيم والقدرة التامة - أَنْ لَا يُرَبِّي إِلَّا عَلَىٰ فِرَاشِ فِرْعَوْنَ ، وَيُغْذِي بِطَعَامِهِ وَشَرَابِهِ ، مع مَحَبَّتِهِ وزوجته له . ولهذا قال تعالى : ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوِّي وَعَدُوْلَهُمْ وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةٌ مِنِّي﴾ . أي : عند عَدُوِّكَ ، جعلته يُحِبُّكَ . قال سلمة بن كهيل : ﴿وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةٌ مِنِّي﴾ قال : حَبِيبُكَ إلى عبادي .

وعن ابن إسحاق قال : (لما ولدت موسى أمه أرضعته ، حتى إذا أمر فرعون بقتل الولدان من سنته تلك عمدت إليه ، فصنعت به ما أمرها الله تعالى ، جعلته في تابوت صغير ، ومهدت له فيه ، ثم عمدت إلى النيل فقذفته فيه ، وأصبح فرعون في مجلس له كان يجلسه على شفير النيل كل غداة ، فيبينا هو جالس ، إذ مرَّ النيل بالتابوت فقذف به وآسية ابنة مَرْاحِمِ امْرَأَتِهِ جالسة إلى جنبه ، فقال : إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ فِي الْبَحْرِ ، فَأَتُونِي بِهِ ، فخرج إليه أعوانه حتى جاؤوا به ، ففتح التابوت فإذا فيه صبي في مهده ، فألقى الله عليه محبته ، وعطف عليه نفسه ، وعنى جل ثناؤه بقوله : ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوِّي وَعَدُوْلَهُمْ﴾ فرعون هو العدو ، كان لله ولموسى) .

وعن السدي : ﴿فَأَقْذِفْهُ فِي الْيَمِّ﴾ وهو البحر ، وهو النيل) .

وقوله : ﴿وَلْيُصْنَعْ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ .

قال قتادة : (هو غذاؤه ، ولتغذى على عيني) . وقال ابن جريج : (أنت بعيني إذ جعلتك أملك في التابوت ، ثم في البحر) . وقال أبو نهيك : (ولتعمل على عيني) . قال ابن جرير - شيخ المفسرين - : (معناه : ولتغذى وتربى على محبتي وإرادتي) .

والمقصود : أَنَّ تربية موسى عليه الصلاة والسلام إنما كانت برعاية الله سبحانه ، لأنَّ العرب حين تقول : (فلان يسير على عيني) يعنون : برعايتي . و(رَبَّيْتُهُ على عيني) أي : تحت نظري ومراقبتي وإشرافي .

قلت : فلفظ «العين» في التنزيل قد يفيد الصفة التي لا بد من إثباتها لله سبحانه ، وقد يفيد العناية والرعاية ، والله المستعان .

وقوله: ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ﴾.

إخبار من الله تعالى أنه لما استقر موسى عليه السلام رضيعاً في بيت فرعون ، عَرَضُوا عليه المراضع فأبأها ، وهو قوله سبحانه: ﴿وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ ۚ فَجَاءَتْ أُخْتُهُ وَقَالَتْ: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِيحُونَ﴾ [القصص: 12]. أي: هل أدلكم على مرضعة ترضعه لكم بالأجرة؟ فذهبت به وهم معها إلى أمه ، فعرضت عليه نذيتها ، فقبله ، فردّ الله موسى إلى أمه وأدخل عليها السرور والفرح من جديد ، وأزال عنها الهم والحزن ، ونالها إضافة إلى سرورها أجر الإرضاع ، ولثواب الله في الآخرة أطيب وأكمل .

وقوله: ﴿وَقُلْتَ نَفْسًا فَجَيْكَ مِنَ الْعَمِّ وَقَتْنَا فُتُونًا ۚ﴾.

قال ابن جرير: ﴿وَقُلْتَ نَفْسًا﴾ يعني جل ثناؤه بذلك: قتله القبطي الذي قتله حين استغاثه عليه الإسرائيلي ، فوكزه موسى). وقال مجاهد: ﴿فَجَيْكَ مِنَ الْعَمِّ﴾: من قتل النفس). أي: نجيناك ممّا نزل بك من غم ذلك القتل وما تبعه من محاولة القوم أن يقتلوك بما صدر منك ، فخلصناك منهم ، حتى هربت إلى أهل مدين ، فلم يبلغوا إلى قتلك أو قودك سيلاً. ثم لجأت إلى ذلك الرجل الصالح فطمأنك وقال لك: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: 25].

وعن ابن عباس: (قوله: ﴿وَقَتْنَا فُتُونًا﴾ يقول: اختبرناك اختباراً). أو قال في رواية أخرى: (ابتليت بلاء). والمقصود: استعراض تلك المحن والبلايا التي قضى الله لموسى أن يمرّ بها حتى يكتمل ويصلب ويواجه حمل أمانة الوحي والنبوة.

وفي صحيح مسلم عن سالم بن عبد الله بن عمر قال: [يا أهل العراق ما أسألكم عن الصغيرة وأركبكم للكبيرة؟! سمعت أبي عبد الله بن عمر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الفتنة تجيء من ها هنا» ، وأوماً بيده نحو المشرق من حيث يطالع قرنا الشيطان ، وأنتم يضرب بعضكم رقاب بعض ، وإنما قتل موسى عليه السلام الذي قتل من آل فرعون خطأ فقال الله عز وجل له: ﴿وَقُلْتَ نَفْسًا فَجَيْكَ مِنَ الْعَمِّ وَقَتْنَا فُتُونًا﴾⁽¹⁾.

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في صحيحه (2905) (50) . كتاب الفتن . باب الفتنة نحو المشرق .

وقوله: ﴿فَلَيْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَمْوَسَّى﴾.

قال ابن عباس: (يقول: لقد جئت لميقات يا موسى). وقال مجاهد: (على ذي موعد). وقال قتادة: (قدر الرسالة والنبوة).

والمقصود: لقد لبثت يا موسى تلك السنين مقيماً في أهل مدين فاراً من فرعون وملئه، وكنت ترعى على صهرك، حتى انتهت المدة وانقضى الأجل، لتأتي من جديد إلى مصر على قدر الله وإرادته لتبدأ مرحلة جديدة، وهي مرحلة القيام بأعباء الرسالة والنبوة ومواجهة الطواغيت.

44- 41. قوله تعالى: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ ﴿٤١﴾ أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا نَبِيًّا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴿٤٤﴾.

في هذه الآيات: امتنان الله تعالى على موسى ﷺ في لبثه سنين في أهل مدين آمناً من فرعون، ثم مجيئه إلى مصر على موعد لبدء مرحلة جديدة هي القيام بأعباء النبوة، ليذهب مع أخيه هارون بأمر الله لمقابلة الطاغية فرعون ودعوته إلى الحق بقول لين لعله يتذكر أو يخشى.

وقوله تعالى: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ - أي اخترتك نبياً، واجتيتك رسولاً، واصطفيتك لنفسى كما أريد وأشاء للقيام بأمرى ونهبي.

وفي صحيح البخاري - عند تفسير هذه الآية - عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: [التقى آدم وموسى، فقال موسى لآدم: أنت الذي أشقيت الناس وأخرجتهم من الجنة؟ قال له آدم: أنت الذي اضطفاك الله برسالتيه، واضطفاك لنفسيه، وأنزل عليك التوراة؟ قال: نعم، قال: فوجدتها كتبت عليّ قبل أن يخلقني؟ قال: نعم، فحج آدم موسى⁽¹⁾].

وقوله تعالى: ﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا نَبِيًّا فِي ذِكْرِي﴾.

أي: اذهب أنت وهارون بأدلتى وحججى إلى فرعون الذي تمرّد في ضلاله وعتا في غيّه وظلمه، فادعوا إلى الحق ولا تضعفا في ذكري فإن في ذكركما لي قوة وعزيمة لكما.

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه - حديث رقم - (4736) - كتاب التفسير - سورة طه - آية (41)، ورواه مسلم في الصحيح - حديث رقم - (2652).

قال ابن عباس: ﴿وَلَا نَبِيًّا﴾ يقول: لا تبطنأ). وقال: (يقول: ولا تضعفا في ذكرى).

قال ابن زيد: (الواني: هو الغافل المفرط ذلك الواني).

والمقصود: استحضر عظمة الله عز وجل بذكره عند لقاء الطاغية أو الظالم ، فإن ذلك ممّا يهوّن على المؤمن أمر العتاة والبلغاة وأهوال اقتحام حواجز الكبر التي يصنعها أئمة الكفر في الأرض ليحولوا دون وصول دعوة الله إلى الناس في الأرض .

وقوله تعالى: ﴿ أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۖ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيْسَ لَكَ بِذِكْرٍ أَوْ يُخْشَىٰ ۖ ۝١٣﴾ .

أي اذهبا إلى فرعون الذي تمرّد وعتا ، وتَجَهَّرَم على الله وعصا ، ودعا الناس إلى عبادته وتعظيمه من دون الله ، ومع ذلك استميلاه بلّين القول ولطيفه لعله يتذكر أو يخشى.

قال ابن كثير: (هذه الآية فيها عبرة عظيمة ، وهو أن فرعون في غاية العُتُو والاستكبار ، وموسى صَفْوَةُ الله من خَلْقِهِ إذ ذاك ، ومع ذلك أَمِرَ ألا يخاطبَ فِرْعَوْنَ إلا بالملاطفة واللين ، كما قال يَرِيدُ الرَّقَاشِيُّ عند قوله: ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيْسَ ﴾ : يَأْمَنُ يَتَحَبَّبُ إلى من يعاديه ، فكيف بمن يتولاه ويُنَادِيهِ؟).

ويروى هنا من شعر زيد بن عمرو بن نُفَيْل ، أو أمية بن أبي الصَّلْت فيما ذكره ابن إسحاق:

وَأَنْتَ الَّذِي مِنْ فَضْلٍ مَنْ وَرَحْمَةٍ	بَعَثْتَ إِلَىٰ مُوسَىٰ رَسُولًا مُنَادِيًا
فَقُلْتَ لَهُ: فَادْهَبْ وَهَارُونَ فَادْعُوا	إِلَى اللَّهِ فِرْعَوْنَ الَّذِي كَانَ بَاغِيًا
فَقُولَا لَهُ: هَلْ أَنْتَ سَوِيَّتْ هَذِهِ	بَلَا وَتَدِ حَتَّى اسْتَقَلَّتْ كَمَا هِيَا؟
وقولا له: آأَنْتَ رَفَعْتَ هَذِهِ	بَلَا عَمَدٍ؟ أَرْفَقُ إِذْنَ بِكَ بَانِيًا
وقولا له: آأَنْتَ سَوِيَّتْ وَسَطَهَا	مُنِيرًا إِذَا مَا جَنَّهُ اللَّيْلُ هَادِيًا؟
وقولا له: مَنْ يُخْرِجُ الشَّمْسَ بُكْرَةً	فَيُضْبَحُ مَا مَسَّتْ مِنَ الْأَرْضِ ضَاحِيًا؟
وقولا له: مَنْ يُثَبِّتُ الْحَبَّ فِي الثَّرَى	فَيُصْبَحُ مِنْهُ الْبَقْلُ يَهْتَرُّ رَابِيًا؟
وَيُخْرِجُ مِنْهُ حَبَّهُ فِي رَوْسِهِ	فَفِي ذَاكَ آيَاتٌ لِمَنْ كَانَ وَاعِيًا

45 - 48. قوله تعالى: ﴿ قَالَا رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطَّعِنَا ۖ ۝١٤﴾ قَالَ لَا

تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴿٤٦﴾ فَأَنبَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعْذِِبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿٤٨﴾ .

في هذه الآيات : خشية موسى بطش فرعون به وبأخيه ، وطمأنته الله له بأنهما تحت رعايته وحمايته - جلّت عظمته - ، وأمره تعالى لهما بلقاء فرعون وإخباره أنهما رسولا الله تعالى إليه ليطلق بني إسرائيل من الاستعباد ، وقد أتيناك بحجة على صدق دعوانا ، والسلام من عذاب الله على من أسلم واتبع الهدى . فإن العذاب - كما أوحى إلينا من ربنا - على من كذب بكتاب الله وتولى عن طاعته .

فقوله تعالى : ﴿ قَالَا رَبَّنَا إِنَّا تَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى ﴾ .

الإفراط : الإسراف والإسقاط والتعدي . والتفريط : التواني .

قال ابن زيد : ﴿ إِنَّا تَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى ﴾ قال : نخاف أن يعجل علينا إذ نبلغه كلامك أو أمرك ، يفرط ويعجل . وعن مجاهد : ﴿ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا ﴾ قال : عقوبة منه . وعن ابن عباس : ﴿ أَوْ أَنْ يَطْغَى ﴾ : يعتدي .

والمقصود : خشية موسى وهارون عليهما السلام من اعتداء فرعون عليهما عند سماعه كلام الحق ، فيحمله ذلك على الشطط في الطغيان والعقوبة والبغي . فهما يستجيران بالله من حدوث ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ .

طمأنة من الله سبحانه لرسولي موسى وهارون عليهما السلام من أن ينالهما أذى من فرعون ، فهو تعالى معهما بسمعه وبصره ، والمراد بحفظه ونصره وتأيدته .

قال ابن عباس : (أسمع دعاءكما فأجيبه ، وأرى ما يراد بكما فأمنع ، لست بغافل عنكما فلا تهتما) .

قلت : وجميع آيات المعية مُفسّرة بما قبلها أو بعدها ، وهذه الآية العظيمة واحدة من تلك الآيات ، فالله سبحانه معنا بصفاته لا بذاته ، فذاته الكريمة فوق العرش وهو يدبر الأمر في هذا الكون ، كما قال سبحانه : ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [السجدة : 5] .

وقوله تعالى: ﴿فَأَنبَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا نُعَذِّبَهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَاتٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾.

أي: فأتيا فرعون فأخبراه أنكما رسولا الله تعالى إليه أن أطلق بني إسرائيل من الاستعباد والاسترقاق ، ولا تعذبهم بتكليف المشاق ، وقد أتيناك بحجة على صدق دعوانا ، وقد سلم من عذاب الله من أسلم واتبع الهدى .

وبنحو ذلك كتب رسول الله ﷺ إلى هرقل عظيم الروم كتاباً - كما روى البخاري في صحيحه من حديث ابن عباس - وفيه: [بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين . .] الحديث (1).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾.

قال قتادة: (- أي - كذب بكتاب الله ، وتولى عن طاعة الله).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1- قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾. [النازعات: 37 - 39].

2 - وقال تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [الليل: 14 - 16].

3- وقال تعالى: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَٰى ﴿٣١﴾ وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [القيامة: 31-32].

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: [كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن أَبَىٰ. قالوا: يا رسول الله ، وَمَنْ أَبَى؟ قال: من أطاعني دخل الجنة ، ومن عصاني فقد أبى] (2).

49 - 56. قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في صحيحه (7) - كتاب بدء الوحي ، في أثناء حديث طويل .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح (7280) - كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة .

رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴿٥٢﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى ﴿٥٣﴾ كُلُّوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى ﴿٥٤﴾ مِنَّا خَلَقْنَكُمْ فِيهَا نُعِيدُكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى ﴿٥٦﴾ .

في هذه الآيات: محاولة فرعون أثناء لقائه موسى وهارون إنكار وجود الصانع الخالق ، وتأكيده موسى على ربوبية الله عز وجل الذي خلق كل شيء فَقَدَّرَهُ تقديرًا ، فهو تعالى الذي مهد الأرض وجعل فيها السبل وأنزل الماء وأخرج النبات متاعًا للإنسان والأنعام ثم المرجع إليه تعالى ، فإليه يصرف التعظيم وجميع أعمال العبادة ، فما كان من فرعون إلا أن استكبر وكذب وأبى .

فقوله تعالى: ﴿ قَالَ فَمَنْ رَّبُّكُمْ يَا مُوسَى ﴾ . في الكلام محذوف تقديره: فَأَتِيَاهُ فَأَبْلَغَاهُ رسالة ربهما عز وجل فقال: من ربكما يا موسى . قال النسفي: (خاطبهما ثم نادى أحدهما لأن موسى هو الأصل في النبوة وهارون تابعه) . وقد أراد فرعون بذلك إنكار وجود الصانع الخالق ، رب كل شيء وإلهه ومليكه .

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ .

هو جواب موسى البليغ المفحم . قال ابن عباس: (يقول: خلق لكل شيء زوجة ، ثم هداه لمنكحه ومطعمه ومشربه ومسكنه ومولده) . وقال مجاهد: (أعطى كل شيء صورته ثم هدى كل شيء إلى معيشته) . وقال أيضاً: (سوى خلق كل دابة ثم هداهما لما يصلحها وعلمها إياه ، ولم يجعل الناس في خلق البهائم ، ولا خلق البهائم في خلق الناس ، ولكن خلق كل شيء فقدره تقديراً) . وقال حميد عن مجاهد: (هداه إلى حيلته ومعيشته) .

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 - قال تعالى: ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَوَّى ﴿٦١﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ [الأعلى: 2-3] .

2 - وقال تعالى: ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴾ [السجدة:

[7]

قلت: وهذه الهداية هي هداية الخالق لجميع خلقه لمصالحهم ، وهي النوع الأول

من مراتب الهداية : الهداية العامة للخلق . فإن الله سبحانه قد هدى الأشياء والمخلوقات لأسلوب حياتها ولوظيفتها منذ أن خلقها . كما روى الإمام مسلم في صحيحه ، والإمام أحمد في مسنده ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : [خلق الله التربة يوم السبت ، وخلق فيها الجبال يوم الأحد ، وخلق الشجر يوم الاثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء ، وخلق النور يوم الأربعاء ، وبث فيها الدواب يوم الخميس ، وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة ، في آخر الخلق ، في آخر ساعة من ساعات الجمعة ، فيما بين العصر إلى الليل] (1) .

قال الراغب الأصبهاني رحمه الله : (كُلُّ ما أوجده الله تعالى فإنه هداه لما فيه مصلحته كما نبّه عليه بقوله : ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ . لكن هدايته للجمادات بالتسخير فقط ، كالأشياء الأرضية التي إذا تركت تنحون نحو الأسفل ، وكالنار التي تنحون نحو العلو . وهدايته للحيوانات إلى أفعال تتعاطاها بالتسخير والإلهام ، كالنحل فيما يتعاطاه من السياسة ومن عمل العسل ، وكالشُرْفة (2) فيما تبنيه من الأبنية ، وكالعنكبوت في نسجه) (3) .

وقوله تعالى : ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ .

محاولة ماكرة من فرعون لصرف المسألة الأولى - مسألة الربوبية - وإبعادها ، لَمَّا واجهَهُ موسى عليه الصلاة والسلام بتلك الحجة الدامغة : ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ . فأعاده موسى بذكاء وحنكة إلى المسألة التي يهرب منها : ﴿قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَصِلُ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ .

قال ابن كثير : (أصح الأقوال في معنى ذلك أن فرعون لما أخبره موسى بأن ربّه الذي أرسله هو الذي خلق ورزق وقَدَّرَ فهدى ، شَرَعَ يحتج بالقرُون الأولى ، أي : الذين لم يَعْبُدُوا الله ، أي : فما بالهم إذا كان الأمر كما تقول لم يَعْبُدُوا ربَّكَ ، بل عبدوا غيره؟ فقال له موسى في جواب ذلك : هم وإن لم يعبدوه ، فإن عَمَلَهُمْ عند الله مضبوطٌ

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم (2789) ، وأحمد (327/2) ، والنسائي في الكبرى (11010) ،

وأخرجه البيهقي في «الصفات» (124/2 - 125) .

(2) الشُرْفة : دويبة تتخذ لنفسها بيتاً مربعاً من دقاق العيدان ، تضم بعضها إلى بعض باللعب ، ثم تدخل فيه وتموت .

(3) ذكره الراغب في كتابه : «تفصيل النشاطين وتحصيل السعادتين» . وانظر تفصيل البحث في كتابي :

أصل الدين والإيمان (2/ 893 - 907) في بحث القدر ، مراتب الهداية والضلال .

عليهم ، وسيجزئهم بعملهم في كتاب الله ، وهو اللوح المحفوظ وكتاب الأعمال ، ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ ، أي : لا يَشُدُّ عنه شيء ، ولا يفوته صغيرٌ ولا كبيرٌ ، ولا ينسى شيئاً . يَصِفُ علمه تعالى بأنه بكل شيء محيطٌ ، وأنه لا ينسى شيئاً ، تبارك وتعالى وتقدس ، فإن علم المخلوق يعتريه نقصانان ، أحدهما : عدم الإحاطة بالشيء ، والآخر نسيانه بعد علمه ، فنزه نفسه عن ذلك).

وقوله تعالى : ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى ۖ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَمَكُمُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾ .

متابعة من موسى عليه الصلاة والسلام في ذكر بعض صفات الرب سبحانه : إنه - تعالى - الذي جعل لكم الأرض قراراً تستقرون عليها وتمشون في حوائجكم وتسافرون على ظهرها ، وجعل لكم فيها طرقاً ومسالك⁽¹⁾ تسلكون فيها لأعمالكم وأسفاركم ، وأنزل من السماء ماء فأخرج لكم به من ألوان النباتات والثمار المختلفة الأكل والطعوم والأنواع . كلوا منها وأطعموا بهائمكم ، وفي ذلك آيات كبيرة لأصحاب العقول وأولي الألباب .

قال القرطبي : ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَمَكُمُ﴾ أمر إباحة . ﴿وَارْعَوْا﴾ من رعت الماشية الكلاً ، ورعاها صاحبها رعاية ، أي أسامها وسرحها ، لازم ومتعد ، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾ أي العقول . الواحدة نُهْيَةٌ . قال لهم ذلك ، لأنهم الذين يُتَنهى إلى رأيهم . وقيل : لأنهم ينهون النفس عن القبائح . وهذا كله من موسى احتجاج على فرعون في إثبات الصانع جواباً لقوله : ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَى﴾ . وبين أنه إنما يستدل على الصانع اليوم بأفعاله).

وقوله تعالى : ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ .

أي : من الأرض خلقنا أبائكم آدم عليه السلام ثم كنتم من بعد ذلك الأصل ، ثم نعيدكم بعد مماتكم إلى الأرض ، ثم تخرجون منها للبعث والحساب .

قال ابن زيد : ﴿تَارَةً أُخْرَى﴾ قال : مرة أخرى الخلق الآخر).

أخرج الإمام أحمد والحاكم بسند صحيح من حديث البراء عن النبي ﷺ قال : [إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا خَرَجَتْ رُوحُهُ صَعِدَتْ بِهِ الْمَلَائِكَةُ فَلَا يَمْرُونَ بِهَا عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ

(1) كقوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لِّمَنْ يَهْتَدُونَ﴾ [الأنبياء : 31] .

إلا قالوا: ما هذه الروح الطيبة؟! فيقولون: فلان ابن فلان ، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا ، فيستفتحون لها فيفتح ، فيشيّعه من كل سماء مقرّبوها إلى السماء التي تليها حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة ، فيقول الله عز وجل : اكتبوا لعبدي كتابا في عِلّين ، وأعيدوه إلى الأرض ، فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى ، فتعاد روحه في جسده... [الحديث (1)] .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى ﴾ .

قال ابن جرير : (يقول تعالى ذكره : ولقد أرينا فرعون آياتنا ، يعني أدلّنا وحججنا على حقيقة ما أرسلنا به رسولنا موسى وهارون إليه كلها ﴿ فَكَذَّبَ وَأَبَى ﴾ أن يقبل من موسى وهارون ما جاء به من عند ربهما من الحق استكباراً وعتواً) .

57 - 64 . قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمْؤُسَى ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا تُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِّرَ النَّاسُ صُحُيَّ ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْجِتَكُمْ بَعْدَ حَبَابٍ مِمَّنْ أَفْتَرَى ﴿٦١﴾ فَتَنْزِعُوا عَنْهُمْ يَبْتَلِيهِمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرُ بَرِيدٍ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَ بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْنَى ﴿٦٣﴾ فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى ﴿٦٤﴾ ﴾ .

في هذه الآيات : اتهام فرعون موسى بالسحر ومحاولة تقويضه بسحر مثله ، واجتماع الناس لرؤية مشهد السحرة في مبارزتهم موسى ، وتحذير موسى القوم من مغبة الكذب على الله وإنكار الحق أمام تشجيع فرعون لهم .

فقوله تعالى : ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمْؤُسَى ﴾ .

محاولة من فرعون للتخلص من سلطان حجج موسى وقوة أدلته بالاتهام بالسحر واللجوء إلى المكر والحيلة .

(1) حديث صحيح . أخرجه أحمد (4/ 287)، والحاكم (37/ 1)، والآجري في «الشرعية» ص (367) - (370) من حديث البراء ، وله شواهد عند ابن ماجة والطيالسي وأبي داود وغيرهم .

قال النسفي : (فيه دليل على أنه خاف منه خوفاً شديداً ، وقوله : ﴿سِحْرِكَ﴾ تعلل ، وإلا فأَي ساحر يقدر أن يخرج ملكاً من أرضه؟!).

وقوله تعالى : ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ سِحْرٌ مِّثْلُهُ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى﴾ .

أي : فلنعارضنك بسحر مثل سحرك ، فاختر لذلك مكاناً موعداً على النصف بيننا وبينك . قال مجاهد : ﴿مَكَانًا سُوًى﴾ : منصفاً بينهم). وقال قتادة : (نصفاً بيننا وبينك ، أي عادلاً بيننا وبينك).

قلت : وأصل قوله ﴿سُوًى﴾ من الاستواء ، كما قال ابن زيد : ﴿مَكَانًا سُوًى﴾ : مكاناً مستوياً يتبين للناس ما فيه ، لا يكون ضوَبٌ ولا شيءٌ فيغيب بعضُ ذلك عن بعض ، مُستَوٍ حين يُرى).

وقوله تعالى : ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ .

أي : في يوم عيدهم ذلك . قال ابن عباس : (فإنه يوم زينة يجتمع الناس إليه ويحشر الناس له).

وعن ابن جريج قال : (يوم زينة لهم ، ويوم عيد لهم) ﴿وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ إلى عيد لهم).

وقال السدي : ﴿يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾ وذلك يوم عيد لهم). وقال ابن زيد : (يوم العيد ، يوم يتفرغُ الناس من الأعمال ، ويشهدون ويحضرُونَ ويرون). قال ابن كثير : ﴿ضُحًى﴾ أي : ضُحوة من النهار ليكونَ أظهرَ وأجلَى وأبينَ وأوضحَ . وهكذا شأنُ الأنبياء ، كُلُّ أمرهم واضحٌ بَيِّنٌ ، ليس فيه خفاءٌ ولا ترويج . ولهذا لم يقل : ليلاً ، ولكن نهاراً ضُحًى).

وقوله تعالى : ﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى﴾ - فيه إشارة إلى انتفاض فرعون لمواجهة ما أشغله وأهمه ، فشرع يجمع الكيد والسحر والسحرة الماهرين من جميع مدائن مملكته ، ثم حضر بقوة سلطانه وأبتهته وكيده وسحرته .

وقوله تعالى : ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى﴾ . أي : بادأهم موسى عليه الصلاة والسلام حين اجتمعوا بالتحذير من بطش الله إن عاندوا حججه وآياته سبحانه بالكذب والافتراء يقول ذلك للسحرة .

وعن ابن عباس: ﴿فَيُسْحِتْكُمْ بِعَذَابٍ﴾ يقول: فيهلككم). وقال قتادة (فيستأصلكم بعذاب فيهلككم). وقال ابن زيد: (يهلككم هلاكاً ليس فيه بقية ، قال: والذي يسحت ليس فيه بقية).

قلت: وأصل السحت في كلام العرب الاستئصال. قال الرازي: (أسحته: استأصله).

وقوله تعالى: ﴿فَنَنْزِعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى﴾.

قال قتادة: (قال السحرة بينهم: إن كان هذا ساحراً فإننا سنغلبه ، وإن كان من السماء فله أمر). وقال وهب بن منبه: (فتراد السحرة بينهم ، وقال بعضهم لبعض: ما هذا بقول ساحر).

أي: تشاجر السحرة فيما بينهم أن هذا ليس بكلام ساحر ، إنما هذا كلام نبي ، وتناجوا فيما بينهم .

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَى﴾.

قال وهب بن منبه: (أشار بعضهم إلى بعض بتناج: ﴿إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا﴾). وقال قتادة: (موسى وهارون صلى الله عليهما).

والمعنى: قال السحرة فيما بينهم: هذان الرجلان - يعنون موسى وهارون - فيما يبدو ساحران خبيران بصناعة السحر ، فحذار أن يغلباكم اليوم ويستوليا على قلوب الناس ويستبدوا بطريقة السحر لهما ينتفعان بها دونكم ، بعدما كان لكم منها رزق وعيش ومكانة وصدارة. فإذا كان ذلك وانتصرا وتبعهما العامة قاتلا فرعون وجنوده فانتصرا عليه وأخرجاكم من أرضكم.

وعن ابن عباس: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَى﴾ يعني: مُلْكُهُم الذي هم فيه والعيش).

وعن مجاهد: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَى﴾ قال: أولي العقل والشرف والأنساب).

قال قتادة: (وطريقتهم المثلى يومئذ كانت بنو إسرائيل ، وكانوا أكثر القوم عدداً وأموالاً وأولاداً. قال عدو الله: إنما يريدان أن يذهبا بهم لأنفسهما).

قلت: والمقصود أنهم خافوا على طريقتهم التي كانوا عليها من إتقانهم السحر

وأساليبه والتي كانت تدرّ عليهم الأموال والمناصب والصدارة بين بني إسرائيل وعند فرعون وملئه .

وقوله تعالى : ﴿ فَاجْتَمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ اتُّخَوِّصُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى ﴾ .

أي : اجتمعوا صفاً واحداً ، ثم ألقوا ما في أيديكم مرةً واحدة ، فإنكم إذا فعلتم ذلك كان أهيب في صدور الرائيين ، ومن ثم تكون لكم الغلبة على هذين الرجلين .

وعن وهب بن منبه قال : (جمع فرعون الناس لذلك الجمع ، ثم أمر السحرة فقال : ﴿ اتُّخَوِّصُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى ﴾ أي قد أفلح من أفلح اليوم على صاحبه) .

والمقصود : إن كانت لكم الغلبة فقد أفلحتم اليوم بعبايا فرعون ، وتمكّن فرعون من رياسته العظيمة وملكه العجيب .

65 - 70 . قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ﴾ ١٥ قَالَ

بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا جِأَهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُا تَسْعَى ١٦ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ١٧ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ١٨ وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ١٩ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ٢٠ ﴾

في هذه الآيات : بدء الاستعراض من السحرة بحبالهم وعصيتهم أمام موسى وأعين الناس ، وشعور موسى بالخوف من رهبة ما رأى ، وتثبيت الله تعالى له بأمره إلقاء ما في يمينه لتحصد سحرهم وكذبهم ، وانتهاء المشهد بسجود السحرة لله قائلين آمنا برب هارون وموسى .

فقوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ﴾ ١٥ قَالَ بَلْ أَلْقُوا .

أي : قال السحرة لموسى لما استعدوا لبدء اللقاء والسجال إما أن تلقي أنت أولاً وإما أن نبداً نحن بالإلقاء . فأجابهم موسى - عليه الصلاة والسلام - بل أنتم ألقوا . قال ابن كثير : (أي : أنتم أولاً لنرى ماذا تصنعون من السحر ، وليظهر للناس جليّة أمرهم) .

وقوله : ﴿ فَإِذَا جِأَهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُا تَسْعَى ﴾ .

في الكلام متروك ، والتقدير : فألقى السحرة ما معهم من الحبال والعصي .

71 - 76. قوله تعالى: ﴿ قَالَ ءَامَنْتُمْ لِي قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا تَقْطَعْنَ أَيِّدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا تَصْلَبْنَكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلْتَعْمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴾ (٧١) قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ (٧٦) إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَاتِنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنْ

السِّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَبَاقٍ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴿٧٤﴾ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ﴿٧٥﴾ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴿٧٦﴾ .

في هذه الآيات: استنفار فرعون لضبط سلطانه أمام زعزعة الحق لمكره وكيده ، وتهديده السحرة بالقتل والتقطيع والصلب ، وإثارة السحرة المؤمنين ما عند الله .

فقوله: ﴿ قَالَ ءَامَنْتُمْ لِمُوقَلِّ أَنْ ءَادَنْ لَكُمْ ﴾ - هو من كفر فرعون وعناده وكبره وغروره حين شعر بالهزيمة وانحسار السلطان . قال القرطبي: (إنكار منه عليهم ، أي تعديتم وفعلتم ما لم أمركم به) .

وقوله: ﴿ إِنَّهُ لَكَيْدٌ كُذِّبَ ﴾ . قال القاسمي: (أي فاتفقتم معه ليكون لكم الملك) . وقال ابن كثير: (قال قولاً يعلم هو والسحرة والخلق كلهم أنه بهت وكذب: ﴿ إِنَّهُ لَكَيْدٌ كُذِّبَ ﴾ ، أي: أنتم إنما أخذتم السحر عن موسى ، واتفقتم أنتم وإياه علي وعلى رعييتي لتظهموه ، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: 123] .

وقال القرطبي: ﴿ إِنَّهُ لَكَيْدٌ كُذِّبَ ﴾ . أي رئيسكم في التعليم ، وإنما غلبكم لأنه أحذق به منكم . وإنما أراد فرعون بقوله هذا ليشبهه على الناس حتى لا يتبعوهم فيؤمنوا كإيمانهم ، وإلا فقد علم فرعون أنهم لم يتعلموا من موسى ، بل قد علموا السحر قبل قدوم موسى وولادته) .

وقوله: ﴿ فَلَا قُطْعَانَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا صَلْبَتَكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾ .

قال وهب بن منبه: (يقول: فلا قطعن أيديكم وأرجلكم مخالفاً بين قطع ذلك ، وذلك أن يقطع يميني اليدين ويسرى الرجلين ، أو يسرى اليدين ويمنى الرجلين ، فيكون ذلك قطعاً من خلاف) .

قال ابن جرير: (وقوله: ﴿ وَلَا صَلْبَتَكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾ يقول: ولاصلبناكم على جذوع النخل) .

قال السدي: (فقتلهم وقطعهم ، كما قال عبد الله بن عباس حين قالوا: ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ [الأعراف: 126] . وقال: كانوا في أول النهار سحرة ، وفي آخر النهار شهداء) .

وقوله: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾.

قال ابن جرير: (يقول: ولتعلمن أيها السحرة أيُّنا أشدَّ عذاباً لكم ، وأدوم ، أنا أو موسى).

وقال النسفي: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا﴾ أنا على ترك إيمانكم بي أو رب موسى على ترك الإيمان به . وقيل يريد نفسه لعنه الله وموسى صلوات الله وسلامه عليه بدليل قوله: ﴿ءَامَنْتُمْ لَكُمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْآيَاتِ﴾.

أي: لن نختارك على ما أكرمنا الله به من الهدى والإيمان بعظيم الحجج والبرهان.

وقوله: ﴿وَالَّذِي فَطَرْنَا﴾ يحتمل تأويلين عند المفسرين:

التأويل الأول: أن يكون معطوفاً على البيئات . والتقدير: لن نختارك على ما جاءنا من الإيمان ، ولا على فاطرنا وخالقنا الرحمان ، فهو المستحق للعبادة وحده العزيز المتان .

التأويل الثاني: أن يكون قسماً ، وجوابه لن نؤثرك مقدّم على القسم . والتقدير: والله الذي فطرنا لن نختارك على ما جاءنا من الحق والهدى والإيمان .

وقوله: ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ . أي من القتل والصلب وألوان التعذيب . قال وهب بن منبه: (أي اصنع ما بدا لك).

وقوله: ﴿إِنَّمَا نَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ . قال وهب: (أي ليس لك سلطان إلا فيها . ثم لا سلطان لك بعده).

وقوله: ﴿إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَتَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾.

أي إنا أقررنا لربنا بتوحيده ، وصدقنا بوعدده ووعيده ، ونحن نرجو بذلك أن يغفر لنا خطايانا وما تعلمناه من السحر وعلمناه ، وتجربنا به على مواجهة الحق ومعارضة آيات الله بإكراهك لنا على ذلك .

وقوله: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ . قال ابن إسحاق: (خير منك ثواباً ، وأبقى عذاباً). وعن محمد بن كعب ، ومحمد بن قيس في قول الله: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ قالوا: (خيراً منك إن أطيع ، وأبقى منك عذاباً إن عصي).

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُمْ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴾ .

قال ابن كثير: (الظاهر من السياق أن هذا من تمام ما وعظ به السحرة لفرعون ، يحذرونه من نِقْمَةِ الله وعذابه الدائم السَّرمِدي ويرغبونه في ثوابه الأبدي المخلد ، فقالوا: ﴿ إِنَّهُمْ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُمْ مُجْرِمًا ﴾ ، أي: يلقي الله يوم القيامة وهو مجرم ، ﴿ فَإِنَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴾ . كقوله: ﴿ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴾ [فاطر: 36] ، وقال: ﴿ وَنَجْنِيهَا الْأَشْفَى ﴾ ﴿ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ﴾ ﴿ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴾ [الأعلى: 11 - 13] . وقال تعالى: ﴿ وَكَادُوا يَمْلِكُكَ لِيَقْضِيَ عَلَيْكَ رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَعَكُوثٌ ﴾ [الزخرف: 77] .

وفي الصحيحين عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: [إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، يجاء بالموت كأنه كبش أملح ، فيوقف بين الجنة والنار ، فيقال: يا أهل الجنة هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون فينظرون ويقولون: نعم هذا الموت وكلهم قد رآه ، ثم ينادى: يا أهل النار هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون فينظرون ويقولون: نعم هذا الموت وكلهم قد رآه ، فيؤمر به فيذبح ، ويقال: يا أهل الجنة خلود ولا موت ، ويا أهل النار خلود ولا موت]⁽¹⁾ .

وفي لفظ عند البخاري: [فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم ، ويزداد أهل النار حُزناً إلى حُزنهم] .

وفي صحيح مسلم ومسند أحمد من حديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: [أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ، ولكن أناسٌ تُصيبهم النار بذنوبهم فتميتهم إماتةً ، حتى إذا صاروا فحماً أُذِنَ في الشفاعة ، فجاء بهم ضبايرٌ ، فبُثُوا على أنهار الجنة ، فيقال: يا أهل الجنة ، أفيضوا عليهم ، فينبتون نباتَ الحَبَّةِ تكون في حَمِيلِ السَّيلِ]⁽²⁾ .

وقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَأْتِهِ مَوْماً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ﴾ .

أي: ومن يأت ربه يوم القيامة صادق الإيمان صحيح الدين قد عمل ما أمره الله واجتنب ما نهاه عنه ، فأولئك لهم البشارة ببلوغ درجات الجنة العُلا .

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (6548) - كتاب الرقاق ، وأخرجه مسلم في الصحيح (8/ 153) .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح (185) ، وأحمد في المسند (3/ 11) ، (3/ 78) ، وابن ماجة في السنن (4309) ، وغيرهم .

وقد حفلت السنة الصحيحة بذكر بعض هذه الدرجات العاليات ، وبديع الغرف الآمات ، والروضات الفاتنات ، وذلك في أحاديث :

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَتَرَاءُونَ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ ، كَمَا تَتَرَاءُونَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الْغَابِرَ فِي الْأَفْقِ مِنَ الْمَشْرِقِ أَوْ الْمَغْرِبِ لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ . قالوا: يا رسول الله ، تلك منازلُ الأنبياء لا يبلغها غيرُهم؟ قال: بلى ، والذي نفسي بيده رجالٌ آمنوا بالله وصدَّقوا المرسلين⁽¹⁾ .

الحديث الثاني: أخرج الترمذي بسند صحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [في الجنة مئة درجة ما بين كلِّ درجتين مئة عام]⁽²⁾ .

الحديث الثالث: أخرج أحمد والترمذي بسند صحيح عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: [في الجنة مئة درجة ، ما بين كلِّ درجتين كما بين السماء والأرض ، والفردوس أعلاها درجة ، ومنها تُفَجَّرُ أنهارُ الجنة الأربعة ، ومن فوقها يكون العرش ، فإذا سألتُم الله فاسألوهُ الفردوس]⁽³⁾ .

الحديث الرابع: أخرج الترمذي بسند صحيح عن معاذ بن جبل ، أن رسول الله ﷺ قال: [مَنْ صَامَ رَمَضَانَ وَصَلَّى الصَّلَاةَ وَحَجَّ الْبَيْتَ ، لَا أُدْرِي أَذَكَرَ الزَّكَاةَ أَمْ لَا . إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُغْفِرَ لَهُ إِنْ هَاجَرَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مَكَثَ بِأَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ بِهَا . قَالَ مُعَاذُ: أَلَا أَخْبِرُ بِهَا النَّاسَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ذَرِ النَّاسَ يَعْمَلُونَ فَإِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِئَةَ دَرَجَةٍ مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، وَالْفِرْدَوْسُ أَعْلَى الْجَنَّةِ وَأَوْسَطُهَا وَفَوْقَ ذَلِكَ عَرْشُ الرَّحْمَنِ ، وَمِنْهَا تُفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ]⁽⁴⁾ .

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (3256) - كتاب بدء الخلق ، وكذلك (6556) ، وأخرجه مسلم (2831) ، وأحمد (340/5) ، وأخرجه ابن حبان (7393) .

(2) حديث صحيح . أخرجه الترمذي (2662) - أبواب صفة الجنة . باب ما جاء في صفة درجات الجنة .

(3) حديث صحيح . أخرجه أحمد (292/2) ، (316/5) ، والترمذي (2664) - واللفظ له - وانظر صحيح سنن الترمذي (2056) - أبواب صفة الجنة ، الباب السابق .

(4) حديث صحيح . أخرجه الترمذي بسند صحيح من حديث معاذ . انظر صحيح سنن الترمذي (2055) - أبواب صفة الجنة . وسلسلة الأحاديث الصحيحة - حديث رقم - (921) .

وقوله تعالى: ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾.

أي: جنات إقامة تتخللها الأنهار ماكثين فيها أبداً ، وهو جزاء من تزكى بالإيمان والعمل الصالح ، فطهر نفسه من الشرك وعمله من الرياء ، وصدق المرسلين وتابعهم على منهاجهم .

77 - 79. قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ۖ فَاَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ۚ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى ۚ﴾.

في هذه الآيات: وَخِيَّ اللهُ تعالى إلى موسى ﷺ المسير بالمؤمنين ليلاً - للخلاص من قبضة فرعون وبطشه - واختراق البحر بهم ، واتباع فرعون وجنوده لهم ، وخوضهم في البحر الذي أطبق مياهه عليهم ، ليغرق فرعون وجنده بكفرهم .

فقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى﴾.

قال مجاهد: ﴿يَبَسًا﴾: يابساً. وعن ابن عباس: ﴿لَا تَخَفْ﴾ من آل فرعون ﴿دَرَكًا وَلَا تَخْشَى﴾ من البحر غرقاً. قال قتادة: (يقول: لا تخاف أن يدركك فرعون من بعدك ولا تخشى الغرق أمامك).

فإنه حين أبى فرعون أن يرسل مع موسى بني إسرائيل ، أوحى الله إلى موسى أن يسري بهم في الليل ويخلصهم من قبضة فرعون وبطشه ، فخرج بهم ليلاً فأصبحوا وليس منهم بمصر لا داع ولا مجيب ، فغضب فرعون وأرسل يجمع الجند من أرجاء بلاده ويقول: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۖ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَايُطُونَ﴾⁽¹⁾ ، ثم مضى في الجند والعتاد ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾ - أي: عند طلوع الشمس. ﴿فَلَمَّا تَرَاءَ الْجَمْعَانِ﴾ أي: نظر كل فريق إلى الآخر ، ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمَدْرُكُونَ﴾⁽²⁾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ . ووقف موسى ببني إسرائيل ، البحر أمامهم ، وفرعون وراءهم ، فأوحى الله تعالى إلى موسى: ﴿أَنْ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ فضربه: ﴿فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ أي: كالجبل

(1) انظر سورة الشعراء ، الآيات [54 - 63].

العظيم. قال ابن كثير: (وأرسل الله الريح على أرض البحر فلفحته حتى صار يابساً كوجه الأرض ، ولهذا قال: ﴿ فَأَضْرَبَ لَهُمُ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا ﴾ ، أي: من فرعون ، ﴿ وَلَا تَخْشَى ﴾ ، يعني من البحر أن يغرق قومك).

وقوله تعالى: ﴿ فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ .

أي: فلحقهم فرعون بمن معه فخاض وراءهم حين قطعوا البحر ، فغشي فرعون وجنده من اليم - أي من البحر - ما غشيهم فغرقوا جميعاً. وسلك فرعون بذلك بقومه طريق الضلال وسبيل أهل النار. قال القاسمي: ﴿ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ أي علاهم منه وغمرهم ، ما لا يحاط بهوله ﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴾ أي أوردتهم الهلاك ، بعتوه وعناده في الدنيا والآخرة. وما هداهم سبيل الرشاد.

80 - 82. قوله تعالى: ﴿ يَبْنَئِ إِسْرَءِيلَ قَدْ أَجَعْنَاكَ مِنْ عَدُوِّكَ وَوَعَدْنَاكَ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْمَنَ وَالسَّلْوى ﴾ ﴿ ٨١ ﴾ كَلُّوا مِنْ طَبِئَتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلِّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿ ٨٢ ﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴿ ٨٣ ﴾ .

في هذه الآيات: يمتن سبحانه وتعالى على بني إسرائيل ببعض النعم الكبيرة ، والآلاء الوفيرة ، وأعظمها ما كان من نجاتهم من فرعون وجنده أهل الآثام والشرور الخطيرة ، وهم ينظرون إلى مصارعهم إذ غرقوا عن آخرهم في صبيحة واحدة ، وما نجا منهم أحد. ومواعدة الله موسى وبني إسرائيل إلى جانب الطور الأيمن وتكليمه تعالى موسى وإنزال التوراة واليمن والسلوى ليحمدوه تعالى ويعظموه ويتوبوا إليه ، وهو الغفار لمن تاب وعمل صالحاً ثم اهتدى .

فقوله: ﴿ يَبْنَئِ إِسْرَءِيلَ قَدْ أَجَعْنَاكَ مِنْ عَدُوِّكَ ﴾ - أي فرعون وجنوده ، فقد كانوا يسومونكم سوء العذاب ، يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم. فأقر أعينكم برؤية مصارعهم. قال تعالى: ﴿ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ ﴾ .

ومن ثم فكان من شكر تلك النعمة على بني إسرائيل أن يعظموا التوراة ولا يخالفوا نبي الله موسى ، وأن يحمدوا الله دوماً على الخلاص من ذلك الطاغية الفاجر .

أخرج البخاري في صحيحه عن ابن عباس قال: [لما قدم رسول الله ﷺ المدينة واليهودُ تصومُ عاشوراءَ ، فسألهم فقالوا: هذا اليومُ الذي أظهر الله فيه موسى على فرعونَ. فقال: نحن أولى بموسى ، فصوموه]⁽¹⁾.

وفي رواية: [أنتم أحقُّ بموسى منهم فصوموا].

وفي صحيح مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما: [أن رسول الله ﷺ قدِمَ المدينة ، فوجدَ اليهودَ صياماً ، يومَ عاشوراءَ. فقال لهم رسول الله ﷺ: ما هذا اليوم الذي تصومونه؟ قالوا: هذا يومٌ عظيم ، أنجى الله فيه موسى وقومه ، وغرق فرعونَ وقومه ، فصامه موسى شكراً ، فنحن نصومه. فقال رسول الله ﷺ: فنحن أحقُّ وأولى بموسى منكم. فصامه رسول الله ﷺ وأمرَ بصيامه]⁽²⁾. وفي لفظ للبخاري: [قالوا: هذا يوم صالح ، هذا يوم نجى الله بني إسرائيل من عدوهم ، فصامه موسى. قال: فأنا أحق بموسى منكم. فصامه وأمرَ بصيامه].

وفي صحيح البخاري عن أبي مسعود رضي الله عنه قال: [كانَ يومَ عاشوراءَ تعذُّهُ اليهودُ عيداً ، قال النبي ﷺ: فصوموه أنتم]⁽³⁾.

وقوله: ﴿وَوَعَدْنَاكَ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾.

وذلك بعد هلاك فرعون ، فقد واعد الله تعالى موسى وبني إسرائيل إلى جانب الطور الأيمن ، فكلم موسى وأعطاه التوراة ، وهناك سأل موسى الرؤية ، وسقط بنو إسرائيل أثناء ذلك في عبادة العجل.

وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الَمْنَ وَالسَّلْوى﴾. أي: رحمة من الله تعالى بهم ، فيأخذون حاجتهم إلى الغد. والمن: حلوى كانت تنزل عليهم من السماء. والسَّلوى: طائر يسقط عليهم. وهذا امتنان عظيم من الله سبحانه على بني إسرائيل وآية من آيات الثبات على الحق ولكن أكثرهم لا يعلمون.

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه - حديث رقم - (2004) ، كتاب الصوم ، وأخرجه كذلك برقم (4680) ، (4337) ، ورواه مسلم في الصحيح (1130) ح (127) ، وأخرجه أبو داود (2444) ، وأحمد (291/1) وغيرهم.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1130) ح (128) ، كتاب الصيام ، باب صوم يوم عاشوراء.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (2005) - كتاب الصوم - باب صوم يوم عاشوراء.

وقوله: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾.

قال ابن عباس: ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ﴾ يقول: ولا تظلموا. وقال قتادة: ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ يقول: فينزل عليكم غضبي.

قال القرطبي: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أي من لذيذ الرزق. وقيل: من حلاله إذ لا صنع فيه لآدمي فتدخله شبهة. وقال ابن كثير: ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ﴾ ، أي: كلوا من هذا الذي رزقكم ، ولا تطغوا في رزقي فتأخذوه من غير حاجة ، وتخالفوا ما أمركم به. وقوله: ﴿فَيَحِلَّ﴾ منصوب بالفاء في جواب النهي. وقرأها الأعمش: ﴿فَيَحِلَّ﴾ ، ﴿ومن يحلل﴾ من الحلول أي الوقوع. وهي بالكسر ﴿فَيَحِلَّ﴾ من حلَّ يحل إذا وجب وهما قراءتان والكسر أشهر.

وقوله: ﴿وَمَنْ يَحِلَّلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾. قال ابن عباس: (أي فقد شقي). وقال الزجاج: (فقد هلك).

وقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَحَمَلَ صَلِحَاتِهِمُ أَهْتَدَى﴾.

هو باب عظيم من أبواب رحمة الله تعالى فتحه لعباده إلى قبيل قيام الساعة ، فكل من تاب من ذنبه مهما كان - من الشرك حتى الصغائر - وأتبعه بالعمل الصالح وثبت على الإيمان ، فإنه سيصير بإذن الله إلى المغفرة والجنان.

وعن ابن عباس: ﴿ثُمَّ أَهْتَدَى﴾ يقول: لم يشكك. وقال قتادة: (يقول: ثم لزم الإسلام حتى يموت عليه). وعن الربيع بن أنس: ﴿ثُمَّ أَهْتَدَى﴾ قال: أخذ بسنة نبيه ﷺ. وقال ابن زيد: (أصحاب العمل). وقال سعيد بن جبير: (أي: استقام على السنة والجماعة).

قلت: وجميعها تفيد المعنى وتزيده وضوحاً وجلاء وتكشف آفاقه وأبعاده.

83 - 89. قوله تعالى: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى﴾ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولَاءِ

عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمُ

مَوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حُمِلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجَلًا جَسَدًا لَّهُمْ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ .

في هذه الآيات: قدوم موسى لميقات ربه ، وإضلال السامري بني إسرائيل بعبادة العجل ، ورجوع موسى غضبان أسفاً محذراً قومه عبادة من لا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً.

فقوله تعالى: ﴿٨٨﴾ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمْوَسَّىٰ ﴿٨٩﴾ .

أي: وأي شيء أعجلك عن قومك يا موسى ، فتقدمتهم وخلفتهم وراءك .

فإنه بعد هلاك فرعون ، مضى موسى ببني إسرائيل: ﴿فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَمْكُونُونَ عَلَىٰ أَصْنَانٍ لَهُمْ قَالُوا يَمْوَسَّىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا هُمْ فِيهِ وَيَطْلُبُوا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ [الأعراف: 138-139] . وواعده ربه ثلاثين ليلة ثم أتمها بعشر ، واختار من قومه سبعين رجلاً لميقات ربه - كما مر في سورة الأعراف .

قال النسفي: (مضى معهم إلى الطور على الموعد المضروب ثم تقدمهم شوقاً إلى كلام ربه وأمرهم أن يتبعوه ، قال الله تعالى: ﴿٨٨﴾ وَمَا أَعْجَلَكَ ﴿٨٩﴾ أي: أي شيء أوجب عجلتك؟ استفهام إنكار ، وما مبتدأ وأعجلك الخبر).

وقوله تعالى: ﴿٨٨﴾ قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٩﴾ .

قال ابن جرير: (يقول: قومي على أثري يلحقون بي . يقول: وعجلت أنا فسبقتهم رب ، كيما ترضى عني).

وقوله تعالى: ﴿٨٨﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٩﴾ .

أي: فإننا يا موسى قد ابتلينا قومك من بعدك بعبادة العجل الذي دعاهم إليه السامري ، فأطاعوه حين استخفهم بذلك ، وعصوا أمرك وأمر أخيك هارون وركبوا الأهواء .

وقوله: ﴿٨٨﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ﴿٨٩﴾ . أي: يجمع بين الغضب والحزن على ما صدر. قال ابن عباس: (يقول: حزينا). وقال قتادة: (أي حزينا على ما صنع قومه من بعده).

وقوله: ﴿قَالَ يَنْقُورُ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًا حَسَنًا﴾. قال القرطبي: (وعدهم عز وجل الجنة إذا أقاموا على طاعته ، ووعدهم أن يسمعهم كلامه التوراة على لسان موسى ، ليعملوا بما فيها فيستحقوا ثواب عملهم. وقيل: وعدهم النصر والظفر. وقيل: وعده قوله: ﴿وَأَنِّي لَفَقَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَاَمَنَ﴾ الآية).

وقوله: ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ﴾. أي: فهل نسيتم بسبب طول العهد وحصلت الغفلة.

وقوله: ﴿أَمْ أَرَدْتُمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾.

قال النسفي: (أي أردتم أن تفعلوا فعلاً يجب به عليكم الغضب من ربكم: ﴿فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾ وعدوه أن يقيموا على أمره وما تركهم عليه من الآيات فأخلفوا موعده باتخاذ العجل).

وقوله: ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا﴾. قال ابن عباس: (بأمرنا). وقال قتادة: (بطاقتنا).

وقال ابن زيد: (يقول: بهوانا ، قال ولكنه جاءت ثلاثة ، قال ومعهم حلي استعاروه من آل فرعون وثياب).

قال الزمخشري: (أي ما أخلفنا موعده ، بأن ملكنا أمرنا. أي لو ملكنا أمرنا ، وخلينا وراءنا ، لما أخلفناه. ولكن غلبنا من جهة السامري وكيده).

والمقصود: اعتراف منهم بالضعف وحصول الخطأ ، والوقوع في الفتنة.

وقوله: ﴿وَلَكِنَّا جُمْلُنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقُورِ فَقَدَفْنَهَا فَكْذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾.

أي: حملنا أثقالاً وأحمالاً من حلي القبط - قوم فرعون - ، وهو حلي نسائهم ﴿فَقَدَفْنَهَا﴾ أي في النار لسبكها فكان هذا إلقاء السامري.

وقوله: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُورٌ﴾.

أي: أخرج لهم من تلك الحلي المذابة عجلاً جسداً له خوار - أي صوت عجل. والمقصود أنه صنع منه شكل عجل يخور كما يخور العجل وجعل فيه منافذ ومخارق ، بحيث تدخل فيها الرياح فيخرج من جراء ذلك صوت يشبه صوت العجل.

وقوله: ﴿فَقَالُوا هَٰذَا إِلَهُكُمُ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾.

أي: فقال السامري والضلال الذين افتتنوا به هذا إلهكم وإله موسى نسيه هاهنا

وزهب يتطلبه. وعن ابن عباس: ﴿فَنَسِيَ﴾ ، أي: نسي أن يذكركم أن هذا إلهكم).
وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: (فقالوا: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى﴾ ، قال:
فعكفوا عليه وأحبوه حباً لم يحبوا شيئاً قط يعني مثله ، يقول الله: ﴿فَنَسِيَ﴾ ، أي: ترك
ما كان عليه من الإسلام ، يعني السامري).

قلت: وكلها تأويلات محتملة تدل على ضلال السامري ومن اتبعه وانخراطهم في
سخافة عبادة العجل ، ولذلك سقاه الله أحلامهم وعاب عليهم الجهل الذي وقعوا فيه
كما تدل على ذلك الآية الآتية.

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾.

أي: أفلا يرون أن العجل الذي عبدوه لا يجيبهم إذا سألوه أو خاطبوه ولا يملك لهم
في دنياهم ولا في آخرهم ضراً ولا نفعاً. قال ابن عباس: (لا والله ما كان خواره إلا أن
يدخل الريح في دبره فيخرج من فيه ، فيسمع له صوت).

90-98. قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقَوْمُ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ

رَبَّكُمْ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴿٩١﴾
قَالَ يَهْرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِيَ ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا
تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾
قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يُسْمِرُ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ
أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي
الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ
عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ
إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾.

في هذه الآيات: نصيحة هارون لبني إسرائيل بطاعة الرحمان عز وجل وعدم
السقوط في هذه الوثنية القبيحة ، وإصرار القوم على أمرهم ، ورجوع موسى مؤنباً
هارون ، وحواره مع السامري وتوعده له ، وتأكيده لقومه أن إلههم الحق هو الله الذي
لا إله غيره قد وسع كل شيء علماً.

فقوله: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقَوْمُ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ﴾. هو تحذير هارون لعبدة العجل من بني إسرائيل قبل رجوع موسى إليهم. قال السدي: (يقول: إنما ابتليتكم به ، يقول: بالعجل).

قال ابن جرير: (يقول: إنما اختبر الله إيمانكم ومحافظتكم على دينكم بهذا العجل ، الذي أحدث فيهم الخوار ، ليعلم به الصحيح الإيمان منكم من المريض القلب الشاك في دينه).

وقوله: ﴿وَإِنْ رَبِّكُمْ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾.

أي: وإن ربكم الرحمان خالق كل شيء ومليكه ، وهو وحده المستحق للعبادة ، فاتبعوني فيما أأمركم به واجتنبوا ما أنهاكم عنه .

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا﴾.

هو من عَنَادٍ ضَلَّالٍ بني إسرائيل. قال ابن كثير: (أي: لا نترك عبادته حتى نسمع كلام موسى فيه . وخالفوا هارونَ في ذلك وحاربوه ، وكادوا أن يقتلوه).

وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَهُرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩١﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾.

قال ابن عباس: (لما قال القوم: ﴿لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ أقام هارون فيمن تبعه من المسلمين ممن لم يُفْتَن ، وأقام من يعبد العجل على عبادة العجل ، وتخوف هارون إن سار بمن معه من المسلمين أن يقول له موسى ﴿فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ وكان له هائباً مطيعاً).

والمعنى: لما رجع موسى ورأى ما وقع به القوم من الفتنة امتلاً غيظاً وألقى ما كان بيده من الألواح الإلهية ، وراجعهم في ذلك وعاتبهم ، ثم أخذ برأس أخيه هارون يستخبر منه: أي شيء منعك إذ رأيتهم ضلوا عن دينهم ألا تتبعني فتخبرني بالأمر أول ما وقع .

وعن ابن جريج: (قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ قال: أمر موسى هارون أن يصلح ، ولا يتبع سبيل المفسدين ، فذلك قوله: ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ بذلك).

وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾.

في الكلام محذوف ، والتقدير: ثم أخذ موسى بلحية أخيه هارون ورأسه يجزّه إليه. فاعتذر إليه هارون أن تأخر عليه ولم يلحقه فيخبره خشية أن يقول له موسى: لم تركتهم وحدهم وفرقت بينهم ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾.

قال ابن عباس: ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾: لم تحفظ قولي).

قال ابن كثير: (- في قوله -: ﴿يَبْنَؤُمْ﴾ ، ترفّق له بذكر الأمّ ، مع أنه شقيقه لأبويه ، لأنّ ذكر الأم هاهنا أرقّ وأبلغ في الحنو والعطف).

وقوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يُسْمِرُ﴾. هو قول موسى للسامري: أن ما شأنك وما الذي دعاك إلى ما صنعت. قال ابن زيد: (ما أمرك؟ ما شأنك؟ ما هذا الذي أدخلك فيما دخلت فيه). وقال السدي: (مالك يا سامري).

وقوله: ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾. أي علمت أمراً لم يعلموه فصرت به بصيراً.

وقوله: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾.

قال ابن عباس: (قبض قبضة منه من أثر جبريل ، فألقى القبض على حليهم فصار عجلاً جسداً له خوار ، فقال: هذا إلهكم وإله موسى).

وعن سعيد بن جبیر ، عن ابن عباس ، قال: (لما قذفت بنو إسرائيل ما كان معهم من زينة آل فرعون في النار ، وتكسّرت ورأى السامريّ أثر فرس جبرئيل عليه السلام ، فأخذ تراباً من أثر حافره⁽¹⁾ ، ثم أقبل إلى النار فقذفه فيها. وقال: كن عجلاً جسداً له خوار ، فكان للبلاء والفتنة).

وقال ابن زيد: ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ قال: كذلك حدثني نفسي). أي: زينت لي نفسي. قلت: والمقصود أن الله تبارك وتعالى أراد ما كان من التقاء التراب من أثر حافر فرس جبريل ، مع الحليّ في النار ليخرج من ذلك عجل له خوار ليفتن الناس به ويمتنحوا في صدق إيمانهم بالله. وهذا كما يحصل اليوم من خرق العادة على يد

(1) قيل: رأى السامري أثر جبريل يوم فلق البحر ، وقيل: وقت ذهابه بموسى إلى الطور. والله أعلم.

بعض الناس الذين يتعاملون مع الجن ، فيكون منهم بإذن الله ما يفتن الناس ، فيثبت الصادق على دينه ويسقط المنافق .

وقوله: ﴿ قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَوةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسٌ ﴾ .

قال ابن كثير: (أي: كما أخذت ومسيست ما لم يكن لك أخذه ومسه من أثر الرسول، فعقوبتك في الدنيا أن تقول: لا ميساس، أي: لا تماس الناس ولا يمسونك). وعن قتادة: ﴿ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسٌ ﴾ قال: عقوبة لهم ، وبقياتهم اليوم يقولون: لا ميساس).

قلت: والمقصود عقوبة السامري أن لا يمس ولا يمس ، والمراد منعه من الناس ومخالطتهم .

وقوله: ﴿ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ ﴾ . قال الحسن: (لن تغيب عنه). والمراد: يوم القيامة .

وقوله: ﴿ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴾ .

أي: وانظر إلى ذلك العجل الذي أقمت على عبادته لنحرقه بالنار قطعة قطعة ، ثم لنذريه في البحر تذرية يغيب معها ذلك الوثن .

قال ابن عباس: ﴿ ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ﴾ الذي أقمت عليه . ﴿ لَنُحَرِّقَنَّهُ ﴾ فحرقه ثم ذراه في اليم). وقال: ﴿ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴾ يقول: لنذريه في البحر). قال: (واليم: البحر).

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ إِلَهُهُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ .

هو من قول موسى لقومه . أي: مالكم أيها القوم من إله إلا الله ، فهو وحده الذي تصلح العبادة له . قال قتادة: ﴿ وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ يقول: ملأ كل شيء علماً تبارك وتعالى).

ونصب ﴿ عِلْمًا ﴾ على التمييز ، أي هو عالم بكل شيء ، كما قال سبحانه: ﴿ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق: 12]. وكقوله: ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [الأنعام: 59].

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ

يقول: [كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، قال: وعزّشهُ على الماء]⁽¹⁾.

99 - 104. قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءٍ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ۖ مَن أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ۖ خَلِيدٍ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا ۖ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمِئِذٍ زُرْقًا ۖ يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ۖ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ۖ﴾.

في هذه الآيات: تسليّة من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ في ذكره أخبار ما سبق ، وأن من أعرض عن قبول هذا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة يحمل إثماً عظيماً. وفي النار يكون من الخالدين ، فبئس الحمل وبئس المستقر. إنه يوم ينفخ في القرن نفخة القيام تحشر الملائكة المجرمين يومئذ زرق العيون من شدة الأهوال ، فيقول بعضهم لبعض ما لبثتم في الدنيا إلا قليلاً ، عشرة أيام أو نحوها. فيقول أوفاهم عقلاً بل لبثتم يوماً واحداً. فقلوه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءٍ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ۖ﴾.

قال القرطبي: (أي كما قصصنا عليك خبر موسى ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ قصصاً كذلك من أخبار ما قد سبق ، ليكون تسليّة لك ، وليدل على صدقك. ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ يعني القرآن. وسمى القرآن ذكراً ، لما فيه من الذكر كما سمي الرسول ذكراً ، لأن الذكر كان ينزل عليه. وقيل: ﴿آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ أي شرفاً ، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّمَا لِدُكْرُكَ﴾ [الزخرف: 44] أي شرف وتنويه باسمك).

وقوله تعالى: ﴿مَن أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ۖ﴾. قال مجاهد: (إثماً). والمعنى: من تولى وأدبر عن قبول هذا القرآن وجعله منهجاً له في حياته فإنه يأتي يوم القيامة يحمل إثماً عظيماً.

وقوله تعالى: ﴿خَلِيدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا ۖ﴾. أي: خالدين في النار بأوزارهم فبئسما حملوا. قال ابن عباس: (﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا﴾ يقول: بئسما حملوا. قال:

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2653) - كتاب القدر ، وبنحوه في مسند أحمد بلفظ (قَدَّرَ الله المقادير) ، وفي معجم الطبراني بلفظ: (فرغ الله من المقادير وأمور الدنيا).

يعني بذلك: ذنوبهم). أي بشس الحمل حملهم الذي آل بهم إلى الخلود في العذاب.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾.

أي: يوم يُنْفَخُ إسرافيل في الصور نفخة الفزع ثم الصعق ثم نفخة القيام بين يدي رب العالمين للحساب والجزاء ، وتحشر الملائكة المجرمين يومئذ زرق العيون من شدة ما هم فيه من الأهوال .

والصور قرْن يُنْفَخُ إسرافيل فيه بأمر الله تعالى ، وما زال يحمله ينتظر إشارة الأمر له بذلك .

ففي سنن أبي داود بإسناد صحيح عن عبد الله بن عمرو ، عن النبي ﷺ قال: [الصور قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ] (1).

وأخرج الإمام أحمد والترمذي بسند حسن عن ابن عباس في قوله: ﴿فَإِذَا نُفِرَ فِي الْأُنْفُورِ﴾ قال: قال رسول الله ﷺ: [كيف أنعمُ وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته ، يسمع متى يؤمر فينفخ؟ فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فما نقول؟ قال: قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل ، على الله توكلنا] (2).

وقوله تعالى: ﴿يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾.

قال ابن عباس: ﴿يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ يتسارون بينهم). أي: يقول بعضهم لبعض: ما لبثتم في الدنيا إلا قليلاً. عشرة أيام أو نحوها.

وقوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾.

قال شعبة: ﴿أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾: أوفاهم عقلاً. وقال ابن كثير: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ ، أي: في حال تناجيهم بينهم ، ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ ، أي: العاقل الكامل فيهم ، ﴿إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ ، أي: لِقَصْرِ مُدَّةِ الدُّنْيَا فِي أَنْفُسِهِمْ يَوْمَ الْمَعَادِ ، لِأَنَّ الدُّنْيَا كُلَّهَا وَإِنْ تَكَرَّرَتْ أَوْقَاتُهَا وَتَعَاقَبَتْ لَيَالِيهَا وَأَيَّامُهَا وَسَاعَاتُهَا كَانَتْ يَوْمًا وَاحِدًا ، وَلِهَذَا يَسْتَقْصِرُ الْكَافِرُونَ مَدَّةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ . وَكَانَ غَرَضُهُمْ فِي ذَلِكَ دَرَاءَ قِيَامِ

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (4742) - كتاب السنة - باب في ذكر البعث والصور. وأخرجه الترمذي (3243) ، (3244) ، وأحمد (312/2) ، وصححه ابن حبان (7312) ، والحاكم (436/2) ، وكذا الذهبي. وانظر صحيح سنن أبي داود (3968).

(2) حديث حسن. أخرجه أحمد (7/3) ، (73/3) ، والترمذي (2431) ، والحاكم (559/4).

الحجة عليهم ، لِقِصَرِ الْمَدَّةِ ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴾ [٥٥] وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الروم : 55-56] . وقال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴾ [فاطر : 37] . وقال تعالى : ﴿ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴾ [١١٦] قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَتَنَّاكَ الْوَدَّاعِينَ ﴾ [١١٧] قَدْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [المؤمنون : 112-114] . أي : إنما كان لبثكم فيها قليلاً ، ولو أنكم كنتم تعلمون لآثرتم الباقي على الفاني ، ولكن تصرّفتم فأسأتم التصرّف ، قدّمتم الحاضر الفاني على الدائم الباقي .

105 - 112 . قوله تعالى : ﴿ وَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴾ [١٠٥] فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴾ [١٠٦] لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴾ [١٠٧] يَوْمَذِي يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُمْ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ [١٠٨] يَوْمَذِي لَا نَنْفَعُ الشَّفْعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴾ [١٠٩] يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ [١١٠] وَنَعَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِ الْقِيُومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ [١١١] وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ [١١٢] .

في هذه الآيات : نَسَفُ الله الجبال يوم القيامة فلا منخفض ولا مرتفع ، واتباع الناس صوت داعي الله إلى موقف الحشر مسرعين لا انحراف لهم عنه ، وسكون الأصوات لله تعالى من هيبه الموقف ، والشفاعة لا تكون إلا بإذن الله العليم الحكيم ، الذي خشعت له الوجوه وقد خسر من حمل ظلماً ، وربح المؤمن فلا يخاف لعمله هضماً .

فقوله تعالى : ﴿ وَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴾ .

قال ابن جرير : (يقول تعالى ذكره : ويسألك يا محمد قومك عن الجبال ، فقل لهم : يذريها ربي تذرية ، ويطيها بقلعها واستئصالها من أصولها ، ودك بعضها على بعض ، وتصيرها إياها هباء منبثاً) .

وقوله : ﴿ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴾ . قال ابن عباس : (يقول : مستويًا لانبثاقها فيه) . وقال ابن زيد : (الصفصف : المستوي) . والمقصود أنه سبحانه يذهب الجبال يوم

القيامة عن أماكنها ويمحقها ويُسِيرها ويذر الأرض بساطاً واحداً. قال ابن كثير: (القاع: هو المستوي من الأرض. والصفصف تأكيدٌ لمعنى ذلك. وقيل: الذي لا نبات فيه. والأول أولى. وإن كان الآخر مُراداً أيضاً باللازم).

وقوله: ﴿لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾. أي: لا ترى يومئذ في الأرض منخفضاً ولا مرتفعاً، ولا وادياً ولا محدباً. قال ابن عباس: ﴿لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ يقول: وادياً، ولا أمتاً: يقول: رابية). وعن مجاهد: ﴿لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ قال: ارتفاعاً، ولا انخفاضاً).

وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُمْ﴾. أي: يومئذ يتبع الناس صوت داعي الله إلى موقف المحشر مسرعين لا انحراف لهم عنه. قال القاسمي: (أي يجيبون الداعي إلى المحشر، فينقلبون من كل صوب إليه). وقال النسفي: ﴿لَا عِوَجَ لَهُمْ﴾ أي لا يعوج له مدعو، بل يستوون إليه من غير انحراف متبعين لصوته).

وقوله: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾. أي: سكنت الأصوات لله تعالى من هيبة الموقف فلا كلام لأحد إلا من أذن الله له قولاً.

قال ابن عباس: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾، يقول: سكنت. ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ قال: وطء الأقدام). أو قال: (همس الأقدام، وهو الوطء). وفي رواية قال: (يقول: الصوت الخفي). وعن مجاهد: ﴿هَمْسًا﴾ قال: خفض الصوت. أو قال: تخافتاً، قال: كلام الإنسان لا تسمع تحرك شفثيه ولسانه). وقال ابن جريج: (هو صوت وقع الأقدام بعضها على بعض إلى المحشر). وعن سعيد بن جبير: ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ قال: الحديث وسره، ووطء الأقدام).

وخلاصة المعنى: وسكنت الأصوات وذلت يومئذ للرحمان هيبة وإجلالاً، فلا تسمع إلا صوتاً خفيفاً لتحريك الشفاه أو وقع الأقدام لتأخذ أماكنها في أرض المحشر.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أِذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾.

أي: لا يستطيع أن يتقدم - يومئذ - بالشفاعة أحد إلا أن يأذن الله تعالى لمن يشاء ويرضى.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 - قال تعالى: ﴿وَلَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبا: 23].

- 2- وقال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: 255].
- 3- وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبا: 38].
- 4- وقال تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: 26].

وفي الصحيحين عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: [إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم في بعض ، فيأتون آدم فيقولون: اشفع إلى ربك ، فيقول: لست لها ولكن عليكم بإبراهيم فإنه خليل الرحمن. فيأتون إبراهيم فيقول: لست لها ولكن عليكم بموسى فإنه كليم الله. فيأتون موسى فيقول: لست لها ولكن عليكم بعيسى فإنه روح الله وكلمته. فيأتون عيسى فيقول: لست لها ولكن عليكم بمحمد. فيأتوني فأقول: أنا لها فأستأذن على ربي فيؤذن لي ويلهمني محامداً أحمده بها لا تحضرني الآن ، فأحمده بتلك المحامد وأخبر له ساجداً. فيقال: يا محمد ارفع رأسك وقل تسمع وسل تعطه واشفع تشفع. فأقول يا رب أمتي أمتي. فيقال: انطلق فأخرج من كان في قلبه مثقال شعيرة من إيمان ، فأنطلق فأفعل ، ثم أعود فأحمده بتلك المحامد ثم أخبر له ساجداً فيقال: يا محمد ارفع رأسك وقل تسمع وسل تعطه واشفع تشفع ، فأقول: يا رب أمتي أمتي ، فيقال: انطلق فأخرج من كان في قلبه أدنى أدنى مثقال حبة خردلة من إيمان فأخرج من كان في قلبه أدنى أدنى مثقال حبة خردلة من إيمان فأخرجه من النار ، فأنطلق فأفعل. ثم أعود الرابعة فأحمده بتلك المحامد ثم أخبر له ساجداً ، فيقال: يا محمد ارفع رأسك وقل تسمع وسل تعطه واشفع تشفع ، فأقول: يا رب! ائذن لي فيمن قال لا إله إلا الله! قال: ليس ذلك لك ، ولكن وعزتي وجلالي وكبريائي وعظمتي لأخرجن منها من قال لا إله إلا الله⁽¹⁾.

وفي صحيح مسلم من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً:
[حتى إذا خلاص المؤمنون من النار ، فوالذي نفسي بيده! ما من أحدٍ منكم بأشدَّ

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في «التوحيد» من حديث أنس ، انظر: مختصر صحيح البخاري - حديث رقم - (2133) ، وأخرجه مسلم في الإيمان (193).

مُنَاشِدَةً لِّلَّهِ فِي اسْتِيفَاءِ الْحَقِّ ، مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لِهَذَا يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ فِي النَّارِ يَقُولُونَ: رَبَّنَا كَانُوا يَصُومُونَ مَعَنَا وَيُصَلُّونَ وَيُحُجُّونَ ، فيقال لهم: أخرجوا مَنْ عَرَفْتُمْ - فَتَحَرَّمْ صُورُهُمْ عَلَى النَّارِ - فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا قَدْ أَخَذَتِ النَّارُ إِلَى نِصْفِ سَاقِيهِ وَإِلَى رُكْبَتَيْهِ. ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا! مَا بَقِيَ فِيهَا أَحَدٌ مِّمَّنْ أَمَرْتَنَا بِهِ. فيقول: ارجعوا ، فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأُخْرِجُوهُ ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ، ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا! لَمْ نَذَرْ فِيهَا أَحَدًا مِّمَّنْ أَمَرْتَنَا بِهِ. ثُمَّ يَقُول: ارجعوا ، فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ نِصْفِ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأُخْرِجُوهُ ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ، ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا! لَمْ نَذَرْ فِيهَا مِثْمَنٌ أَمَرْتَنَا أَحَدًا ، ثُمَّ يَقُول: ارجعوا ، فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ فَأُخْرِجُوهُ ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ، ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا خَيْرًا. فيقول الله تعالى: شَفَعَتِ الْمَلَائِكَةُ وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ، فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ ، قَدْ عَادُوا حُمَمًا فَيُلْقِيهِمْ فِي نَهْرٍ فِي أَفْوَاهِ الْجَنَّةِ يُقَالُ لَهُ نَهْرُ الْحَيَاةِ ، فَيُخْرِجُونَ كَمَا تَخْرُجُ الْحَبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ . . . [الحديث (1)] .

وقوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ .

قال قتادة: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ من أمر الساعة ﴿ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ من أمر الدنيا) .

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: يعلم ربك يا محمد ما بين أيدي هؤلاء الذين يتبعون الداعي من أمر القيامة ، وما الذي يصيرون إليه من الثواب والعقاب ﴿ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ يقول: ويعلم أمر ما خلفوه وراءهم من أمر الدنيا) .

وقال النسفي: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ أي بما أحاط به علم الله). أي لا يحيط الخلق بربهم علماً ، بل الله تعالى قد أحاط بكل شؤون خلقه علماً .

وقوله تعالى: ﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ﴾ . قال ابن عباس: (يقول: ذلت). وقال مجاهد: (خشعت). وقال ابن زيد: (استأسرت الوجوه للحَيِّ القيوم. صاروا أسارى كلهم له. قال: والعاني: الأسير) .

والمقصود: خضعت الوجوه يومئذ وذلت ، فاستسلمت الخلائق جميعها لجبارها

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في صحيحه - حديث رقم - (183) - كتاب الإيمان ، باب معرفة طريق الرؤية ، في أثناء حديث طويل .

الحيّ: الذي لا يموت ، القيوم: الذي لا ينام ، الذي هو قيّم على كل شيء بالحفظ والتدبير ولا قِوام لشيء إلا به .

وقوله: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ . قال قتادة: (من حمل شركاً) . وقال ابن زيد: (الظلم هاهنا: الشرك) .

قلت: بل الظلم يشمل عند الإطلاق الشرك والمعاصي وأكل الحقوق والبغي ، ومن ثمّ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، يصيب صاحبه من الخيبة يومئذ حسب مظلّمته .
ففي التنزيل :

1 - قال تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ [الحج: 71] .

2 - وقال تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: 18] .

وفي صحيح السنة المطهرة في التخويف من الظلم أحاديث :

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن جابر ، أن رسول الله ﷺ قال : [اتقوا الظلم ، فإن الظلم ظلماتٌ يوم القيامة ، واتقوا الشَّحَّ فَإِنَّ الشَّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم] (1) .

الحديث الثاني: خرّج مسلم - كذلك - في الصحيح عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : [لتؤدّن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة ، حتى يُقَادَ للشاة الجَلْحَاء - التي لا قرن لها - من الشاة القرناء] (2) .

الحديث الثالث: أخرج البخاري عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال : [مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهَا ، فَإِنَّهُ لَيْسَ ثَمَّ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُؤْخَذَ لِأَخِيهِ مِنْ حَسَنَاتِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ أَخِيهِ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ] (3) .

وفي لفظ: [من كانت له مظلمةٌ لأخيه مِنْ عِزِّهِ أَوْ شَيْءٍ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ قَبْلَ أَنْ لَا يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ] .

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في صحيحه (2578) - كتاب البر والصلة .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح (2582) - كتاب البر والصلة - الباب السابق .

(3) حديث صحيح . أخرجه البخاري في صحيحه - حديث رقم - (2449) - كتاب المظالم ، وأخرجه كذلك (6534) - كتاب الرقاق .

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾.

أي: ومن يكن في حياته الدنيا على منهج الإيمان والعمل الصالح فإنه يأتي يوم القيامة آمناً لا يظلم من عمله شيئاً ولا ينقص من حق عمله.

والآية هي الصورة المقابلة للصورة السابقة صورة الظالمين ، فإنه تعالى بعد أن ذكّر حالهم ثنى بذكر المتقين ومآلهم.

قال قتادة: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ وإنما يقبل الله من العمل ما كان في إيمان). وعن ابن عباس: ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ قال: لا يخاف ابن آدم يوم القيامة أن يظلم ، فيزداد عليه في سيئاته ، ولا يظلم فيهضم في حسناته).

وعن حبيب بن أبي ثابت قال: (الهضم: الانتقاص). قال قتادة: ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ قال: لا يخاف أن يظلم ، فلا يجزى بعمله ، ولا يخاف أن ينتقص من حقه ، فلا يوفى عمله).

وقال الحسن: (لا ينتقص الله من حسناته شيئاً ، ولا يحمل عليه ذنب مسيء . وأصل الهضم: النقص).

113 - 114. قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ

لَعَلَّهُمْ يَنْقَوْنَ أَوْ يُحَدِّثْ لَهُمْ ذِكْرًا ۖ فَنَعْلَىٰ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ۖ﴾.

في هذه الآيات: ثناء الله على هذا القرآن العربي المبين ، الذي قد فُصِّل فيه الوعد والوعيد فهو ذكرى للذاكرين ، فتقدّس الله الملك الحق العليم الحكيم . وأمر الله نبيه الإنصات لجبريل عند تلاوته القرآن ، ثم ليقبل عليه بالحفظ ورجاء الله زيادته في العلم والإيمان.

فقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾. أي بلسان عربي مبين فصيح ، وهو لسانكم أيها العرب . قال القرطبي: (أي كما بينا لك في هذه السورة من البيان ، فكذلك جعلناه ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أي بلغة العرب).

وقوله: ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ﴾. أي خوفناهم فيه بضروب من الوعيد. قال

القاسمي: (أي بعبارات شتى ، تصريحاً وتلويحاً ، وضروب أمثال ، وإقامة براهين).

وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾. قال قتادة: (ما حُذِّروا به من أمر الله وعقابه ، ووقائعه بالألم قبلهم).

وقوله: ﴿أَوْ يُحَدِّثْ لَهُمْ ذِكْرًا﴾. أي موعظة وتذكراً ، أو مقاماً وشرفاً. قال قتادة: ﴿أَوْ يُحَدِّثْ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ قال: جداً وورعاً. وقد قال بعضهم - معناه -: أو يحدث لهم شرفاً بإيمانهم به).

وقوله: ﴿فَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾. أي تنهى سبحانه في العلو والعظمة ، وتنزه وتقدس.

قال ابن كثير: (أي: تنزهه وتقدس الملك الحق ، الذي هو حق ، ووعدته حق ، ووعدته حق ، ورسله حق ، والجنة حق ، والنار حق ، وكل شيء منه حق. وعدله تعالى ألا يُعَذِّبَ أحداً قبل الإنذار وبعثه الرسل والإعذار إلى خلقه ، لئلا يبقى لأحد حجة ولا شبهة).

وقوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾.

أي: بل أنصت - يا محمد - لجبريل وهو يتلوه عليك ، فإذا فرغ الملك من قراءته فاقراه بعده.

والآية كقوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۚ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۚ فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَلَيِّعْ قُرْآنَهُ ۚ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: 16-19].

قال القاسمي: (وقد كان رسول الله ﷺ إذا لقنه جبريل الوحي ، يتبعه عند تلفظ كل حرف وكل كلمة ، لكمال اعتنائه بالتلقي والحفظ. فأرشد إلى أن لا يساوقه في قراءته ، وأن يتأنى عليه ريثما يسمعه ويفهمه. ثم ليقبل عليه بالحفظ بعد ذلك).

قلت: بل ضمن الله تعالى له حفظه في صدره بقوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ [القيامة: 17]. أي نحن سنجمعه لك في صدرك لئلا تنشغل بعناء حفظه عن مهام الدعوة والجهاد ، وإنما تقرأه على الناس من غير أن تنسى منه شيئاً.

فقد أخرج البخاري في صحيحه عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس رضي الله عنهما

قال: [كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ حَرَّكَ بِهِ لِسَانَهُ يَرِيدُ أَنْ يَحْفَظَهُ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَتَّبِعَ بِهِ﴾ [القيامة: 16]]⁽¹⁾.

وفي الباب بعده قال البخاري: حدثنا عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ مُوسَى عَنْ إِسْرَائِيلَ ، عَنْ مُوسَى بْنِ أَبِي عَائِشَةَ : أَنَّهُ سَأَلَ سَعِيدَ بْنَ جَبْرِ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ﴾ قَالَ: وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: [كَانَ يُحَرِّكُ شَفَتَيْهِ إِذَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ ، فَقِيلَ لَهُ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ﴾ - يَخْشَى أَنْ يَتَفَلَّتَ مِنْهُ - ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ﴾: أَنْ نَجْمَعَهُ فِي صَدْرِكَ ﴿وَقُرْآنَهُ﴾ أَنْ تَقْرَأَهُ ، ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ﴾ يَقُولُ: أُنْزِلَ عَلَيْهِ ﴿فَالْتَفِعْ قُرْآنَهُ﴾ ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ أَنْ نُبَيِّنَهُ عَلَى لِسَانِكَ]⁽²⁾.

وفي رواية قال: [فَكَانَ إِذَا أَتَاهُ جَبْرِيلُ أَطْرَقَ ، فَإِذَا ذَهَبَ قَرَأَهُ كَمَا وَعَدَهُ اللَّهُ]. وقوله: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾. أَي رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا إِلَى مَا عَلَّمْتَنِي. قَالَ ابْنُ عَيْنَةَ: (وَلَمْ يَزَلْ ﷺ فِي زِيَادَةِ مِنَ الْعِلْمِ حَتَّى تَوَفَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ).

وفي صحيح مسلم عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: [أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ تَابَعَ الْوَحْيَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ وَفَاتِهِ ، حَتَّى تُؤْفَى ، وَأَكْثَرُ مَا كَانَ الْوَحْيُ يَوْمَ تَوَفَّى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ]⁽³⁾.

115 - 122. قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَى وَلَمْ يُجِدْ لَهُ عِزْمًا﴾ (١١٥) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَنْبَأُكَ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِرِجْلِكَ فَلَا يُخْرِجُكَ مِنْ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَنْبَأُكَ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةٍ الْخُلْدِ وَمَلِكٍ لَا يَبُلَى ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴿١٢١﴾ ثُمَّ اجْنَبَا رَبَّكُمَا فَإِنْ كُنْتُمْ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿١٢٢﴾ وَهَدَى ﴿١٢٣﴾.

في هذه الآيات: عهد الله تعالى إلى آدم ونسيانه ، وأمره تعالى الملائكة السجود لآدم

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (4927) - كتاب التفسير - سورة القيامة، آية (16).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4928) - كتاب التفسير ، وانظر كذلك (4929) للرواية بعده.

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (3016) - كتاب التفسير ، وانظر مسند أحمد (236/3) ، وكذلك

النسائي في «فضائل القرآن» (8) من حديث أنس.

وجحود إبليس ، وتحذير الله آدم وزوجته عداوته ، ووسوسة الرجيم لهما حتى أكلا من الشجرة وبدت سوآتهما ، والتماس آدم التوبة من ربه حتى تاب عليه وهدى .

فقوله : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسَىٰ ۚ ﴾ . قال مجاهد : (ترك أمر ربه) .

وعن ابن عباس قال : (إنما سُمِّيَ الإنسان لأنه عَهِدَ إليه فَنَسَى) .

والمقصود : لقد وصينا آدم من قبل وجود هؤلاء أن لا يقرب الشجرة فخالف إلى ما نُهيَّ عنه . وهكذا النسيان في ذرية آدم وحدث الغفلة ، فأساس أمر بني آدم قائم على ذلك . وإنما خير الخطائين التوابون .

وقوله : ﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ۚ ﴾ . قال قتادة : (صبراً) . وقال عطية : (حفظاً لما أمرته به) .

وقال ابن زيد : (العزم : المحافظة على ما أمره الله تبارك وتعالى بحفظه ، والتمسك به) .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكِ كَسَجِدُوا لِلْآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ۚ ﴾ .

أي امتنع واستكبر . وكان ذلك الأمر من الله لملائكته بالسجود لآدم تشريفاً له وتكريماً - كما مضى في سورة البقرة - . وإنما اعترى إبليس بخلقة النار ، واستوهن خلق الصلصال ، واعتوته الحمية ، وغلبت عليه الشقوة .

وقوله تعالى : ﴿ فَقُلْنَا يَنَادُهُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجُكَمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ۚ ﴾ .

قال الحسن : ﴿ فَتَشْقَى ﴾ شقاء الدنيا ، لا يرى ابن آدم إلا ناصباً) .

أي : هذا الشيطان - يا آدم - عدو لك ولزوجك حواء - عليهما السلام - حيث لم يسجد لك ولم ير فضلك ، وأظهر لك العداوة والحسد ، فلا يكون سبباً لإخراجكما من الجنة .

قال النسفي : ﴿ فَتَشْقَى ﴾ فتتعب في طلب القوت ، ولم يقل فتشقى مراعاة لرؤوس الآي ، أو دخلت تبعاً ، أو لأن الرجل هو الكافل لنفقة المرأة) . وقال القرطبي : (وإنما خصه بذكر الشقاء ولم يقل فتشقيان : يعلمنا أن نفقة الزوجة على الزوج ، فمن يومئذ جرت نفقة النساء على الأزواج) .

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۖ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ﴾.

أي: إن لك في الجنة: الكسوة والطعام والشراب والمسكن ، فاحذر من التفريط في ذلك .

وعن ابن عباس: ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ﴾ يقول: لا يصيبك فيها عطش ولا حرّ). أو قال: (يقول: لا يصيبك حرّ ولا أذى). وقال سعيد بن جبیر: (لا تصيبك الشمس). قال القرطبي: (أعلمنا في هذه الآية: أن النفقة التي تجب للمرأة على زوجها هذه الأربعة: الطعام والشراب والكسوة والمسكن ، فإذا أعطاهها هذه الأربعة فقد خرج إليها من نفقتها ، فإن تفضل بعد ذلك فهو مأجور ، فأما هذه الأربعة فلا بد لها منها ، لأن بها إقامة المهجة).

وقوله تعالى: ﴿فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَنَادِمُ هَلْ أَدْلَكَ عَلَى شَجَرَةٍ أَخْلَدَ وَمَلَكَ لَا يَبْلَىٰ﴾.

قال قتادة: (يقول: فألقى إلى آدم الشيطان وحّدته. يقول: قال له: هل أدلك على شجرة إن أكلت منها خلدت فلم تمت ، وملكت ملكاً لا ينفضي فيبلى).

وقوله: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَّتْ لُحْمًا سَوَاءً تُهُمَا﴾.

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: فأكل آدم وحواء من الشجرة التي نُهيّا عن الأكل منها ، وأطاعا أمر إبليس ، وخالفا أمر ربهما ﴿فَبَدَّتْ لُحْمًا سَوَاءً تُهُمَا﴾ يقول: فانكشفت لهما عوراتهما ، وكانت مستورة عن أعينهما).

قلت: وفي الآية دليل أن موافقة إبليس تفضي إلى ظهور العورة والعيوب ، وكشف الستر والفضيحة ، وما فيه أذى على النفوس وفي واقع الحياة.

وقوله: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾. أي أقبلا يغطيان عليهما من ورق شجر الجنة. قال قتادة: (يقول: يوصلان عليهما من ورق الجنة).

وقوله: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾. أي: ففسد عليه عيشه بنزوله إلى الدنيا. وقيل معناه: جهل موضع رشده ، وسلامة أمنه واستقراره. والغنى الجهل.

أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال: [حاجّ موسى آدم فقال له: أنت الذي أخرجت الناس من الجنة بذنبك فأشقيتهم؟ قال آدم: يا موسى أنت

الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه ، أتلومني على أمرٍ كتبه الله عليّ قبل أن يخلُقني؟ أو قدَرَهُ عليّ قبل أن يخلُقني؟ قال رسول الله ﷺ: فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى⁽¹⁾.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [احتجَّ آدم وموسى عليهما السلام عند ربِّهما ، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى ، قال موسى: أنت آدم الذي خلَقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكتُهُ ، وأسكنك في جنَّتِهِ ، ثم أهبَطتِ الناس بَخْطِيئَتِكَ إلى الأرض؟ قال آدم عليه السلام: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه ، وأعطاك الألواح فيها تبيانُ كل شيء ، وقَرَّبَكَ نَجِيًّا ، فبكم وجدتُ الله كتبَ التوراة قبل أن أُخلَق؟ قال موسى: بأربعين عاماً. قال آدم: فهل وجدت فيها: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾. قال: نعم. قال: أتَلومني على أن عملتُ عملاً كتبه الله عليّ أن أَعْمَلَهُ ، قبل أن يخلُقني بأربعين سنة؟ قال رسول الله ﷺ: فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى⁽²⁾.
وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَجَبْنَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾.

قال ابن جرير: (يقول: اصطفاه ربه من بعد معصيته إياه فرزقه الرجوع إلى ما يرضى عنه ، والعمل بطاعته ، وذلك هو كانت توبته التي تابها عليه. وقوله ﴿وَهَدَى﴾ يقول: وهدهاء للتوبة ، فوقَّفه لها).

123 - 126. قوله تعالى: ﴿قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَأَمَّا يَأْتِلَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ أَتَيْنَا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْسِي﴾.

في هذه الآيات: هبوط آدم وحواء وإبليس إلى الأرض بأمر الله ، وإرسال الله الرسل والأنبياء للبيان والهدى ، وضمائه تعالى للمؤمنين السعادة في الدارين ، وللمعرضين عن هديه وذكره الشقاء في الدارين.

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4738) - كتاب التفسير ، سورة طه ، آية (117). وأخرجه البخاري (6614) ، ومسلم (2652) ، وأحمد (248/2) ، وبعض أهل السنن.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (2652) ح (15) - كتاب القدر ، باب حجاج آدم وموسى صلى الله عليهما وسلم ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فقوله: ﴿ قَالَ أَهِيَطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ .

هو كقوله تعالى: ﴿ قُلْنَا أَهِيَطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ﴾ [البقرة: 38] . يعني آدم وحواء وإبليس . قال ابن كثير: ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ ، قال: آدم وذريته ، وإبليس وذريته) .

وقوله: ﴿ فَأَمَّا يَا لِنَّفْسِ الْكافِرَةِ ﴾ . قال أبو العالية: (الأنبياء والرسل والبيان) . وقال القرطبي: (يعني الرسل) .

وقوله: ﴿ فَمَنْ أَتَّبَعْ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ . قال ابن عباس: (لا يضل في الدنيا ، ولا يشقى في الآخرة) . وقال ابن عباس: (ضمن الله تعالى لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه ، ألا يضل في الدنيا ، ولا يشقى في الآخرة ، وتلا الآية) . وعنه قال: (من قرأ القرآن واتبع ما فيه هداه الله من الضلالة ، ووقاه يوم القيامة سوء الحساب ، ثم تلا الآية) .

وقوله: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ﴾ .

قال ابن عباس: (يقول: الشقاء) . وقال مجاهد: ﴿ ضَنْكًا ﴾ : ضيقة) . وقال قتادة: (الضنك: الضيق) . قال ابن كثير: (قوله: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي ﴾ ، أي: خالف أمري وما أنزلته على رسولي ، أَعْرَضَ عنه وتناساه وأخذ من غير هداه ، ﴿ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ﴾ ، أي في الدنيا ، فلا طمأنينة له ، ولا انشراح لصدره ، بل صدره ضيقٌ خرج لضلاله ، وإن تنعم ظاهره ، ولبس ما شاء ، وأكل ما شاء ، وسكن حيث شاء ، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى ، فهو في قلق وحيرة وشك . فلا يزال في ريبة يتردد ، فهذا من ضنك المعيشة) . وبعض المفسرين ذهب إلى أن المعيشة الضنك في عذاب القبر ، وجعلوا هذه الآية أحد الأدلة على عذاب القبر . قلت: والآية تعم في عمومها شقاء الدنيا وحياة البرزخ .

وقوله: ﴿ وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴾ . قال مجاهد: (يحشر أعمى البصر) . وقال أبو صالح: (ليس له حجة) . قال ابن جرير: (والصواب من القول في ذلك ما قال الله تعالى ذكره ، وهو أن يحشر أعمى عن الحجة ورؤية الشيء كما أخبر جل ثناؤه ، فعم ولم يخصص)⁽¹⁾ .

(1) قلت: وقد يراد أن الكافر يحشر أعمى ، ثم يبصر مقعده في جهنم فيكون أعمى في حال المحشر وبصيراً فيما بعده . والله تعالى أعلم .

وفي التنزيل نحو ذلك: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَٰ وَبَكَاءُ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: 97].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾.

قال القرطبي: (بأي ذنب عاقبتني بالعمى). ﴿وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ أي في الدنيا ، وكأنه يظن أنه لا ذنب له).

وقوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَلِكَ أَنتَكَ ءَايَتُنَا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْسِي﴾.

قال قتادة: (نسي من الخير ، ولم ينس من الشر). وقال مجاهد: (وكذلك اليوم تترك في النار). والمقصود مقابلة الجزاء للعمل ، فإن تناسي آيات الله وحججه وأوامره في الدنيا يقابله يوم القيامة تناسي صاحبه في عذاب جهنم.

أخرج الترمذي بسند صحيح عن أبي هريرة ، وعن أبي سعيد قالا: قال رسول الله ﷺ: [يُوتَى العبد يوم القيامة فيقول له: أَلَمْ أَجْعَلْ لَكَ سَمْعًا وَبَصَرًا وَمَالًا وَوَلَدًا وَسَخَّرْتُ لَكَ الْأَنْعَامَ وَالْحَرْثَ ، وَتَرَكْتُكَ تَزَاسُ وَتَرْبَعُ فَكُنْتَ تَظُنُّ أَنَّكَ مُلَاقِي يَوْمَكَ هَذَا؟ فيقول: لا. فيقول له: اليوم أنساك كما نسيتني]⁽¹⁾.

قال أبو عيسى: (ومعنى قوله: «اليوم أنساك كما نسيتني»: اليوم أترك في العذاب ، وكذا فسّر بعض أهل العلم هذه الآية: ﴿فَالْيَوْمَ نَنْسَهُمْ﴾ [الأعراف: 51] قالوا: معناه: اليوم نتركهم في العذاب).

وأصله في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال - ﷺ -: [فيلقى العبد فيقول: أَيُّ فُلٍّ⁽²⁾! أَلَمْ أَكْرِمَكَ وَأَسَوِّدَكَ وَأَرْوِّجَكَ وَأَسَخَّرَ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ وَأَذْرَكَ تَزَاسُ وَتَرْبَعُ؟ فيقول: بلى أي رب ، قال: فيقول: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِي؟ فيقول: لا. فيقول: فَإِنِّي أَنَسَاكَ كَمَا نَسَيْتَنِي]⁽³⁾.

127 - 130. قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِثَابِتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (2558) ، أبواب صفة القيامة. انظر صحيح الترمذي (1978).

(2) معناه: يا فلان ، وهو ترخيم على خلاف القياس .

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه (216/8) ، كتاب التوبة وقبولها ، من حديث أبي هريرة. وانظر مختصر صحيح مسلم - حديث رقم - (1932).

الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَبَقِيَ ﴿١٢٧﴾ أَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِرِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴿١٣٠﴾ .

في هذه الآيات: ترتيبُ الله المعيشة الضنك على الإعراض عن ذكره ، ولعذاب الآخرة أشدُّ ألمًا وأدوم زمانًا. وتنبيهه تعالى على حال الأمم التي زلزلها بآثامها لتكون عبرة وبيانًا. واستحقاق مشركي العرب العذاب لكن قد جعل الله لذلك أجلاً وزماناً ومكاناً. وحثُّ الله نبيه على الصبر والتسبيح قبل طلوع الشمس وقبل غروبها والأخذ من الليل والنهار قنوتاً وقياماً.

فقوله: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ . أي: من العذاب الضنك في الدنيا والبرزخ. قال ابن القيم في «الجواب الكافي»: (وفسرت المعيشة الضنك بعذاب القبر ، ولا ريب أنه من المعيشة الضنك . والآية تتناول ما هو أعم منه ، وإن كانت نكرة في سياق الإثبات ، فإن عمومها من حيث المعنى . فإنه سبحانه رتب المعيشة الضنك على الإعراض عن ذكره . فالمعرض عنه له من ضنك المعيشة بحسب إعراضه ، وإن تنعم في الدنيا بأوصاف النعم ، ففي قلبه من الوحشة والذل والحسرات التي تقطع القلوب ، والأمانى الباطلة والعذاب الحاضر ما فيه . وإنما تواريه عنه سكرات الشهوات والعشق وحب الدنيا والرياسة ، إن لم ينضم إلى ذلك سكر الخمر . فسكر هذه الأمور أعظم من سكر الخمر . فإنه يفيق صاحبه ، ويصحو . وسكر الهوى وحب الدنيا لا يصحو صاحبه إلا إذا سكر في سكر الأموات . فالمعيشة الضنك لازمة لمن أعرض عن ذكر الله الذي أنزله على رسوله ﷺ في الدنيا وفي البرزخ ويوم المعاد . ولا تقر العين ولا يهدأ القلب ولا تطمئن النفس إلا باللهها ومعبودها الذي هو حق ، وكل معبود سواه باطل ، فمن قرّت عينه بالله ، قرّت به كل عين . ومن لم تقر عينه بالله ، تقطعت نفسه على الدنيا حسرات).

وفي التنزيل: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ [الرعد: 34].

وأخرج الطبراني في «الصغير» بسند صحيح عن البراء ، عن النبي ﷺ قال :
[ما اختلج عرق ولا عينٌ إلا بذنب ، وما يدفع الله عنه أكثر]⁽¹⁾.

وقوله : ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴾ . أي أشد ألماً وأدوم زمناً .

وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ﴾ .

قال النسفي : (يريد أن قريشاً يمشون في مساكن عاد وثمود وقوم لوط ويعاينون آثار هلاكهم ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ﴾ لذوي العقول ، إذا تفكروا علموا أن استئصالهم لكفرهم فلا يفعلون مثل ما فعلوا) .

وفي التنزيل نحو ذلك :

1 - قال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج : 46] .

2 - وقال تعالى : ﴿ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : 40] .

3 - وقال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي السَّمْعِ ﴾ [السجدة : 26] .

وخلاصة المعنى : أنَّ الأمة إذا عصت ربها وأصرت على مخالفة أوامره سلَّط الله عليها ألوان الذل والعذاب وهانت عليه ، كما كان حال الأمم السالفة التي زلزلها الله بآثامها .

أخرج الطبراني والحاكم بسند صحيح عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال : [إذا ظهر الزنا والرِّبَا في قرية ، فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله]⁽²⁾ .

وأخرج البيهقي في «شعب الإيمان» ، وأبو نعيم في «الحلية» بسند صحيح عن عائشة مرفوعاً : [إذا ظهر السوء في الأرض أنزل الله عز وجل بأسه بأهل الأرض ، وإن

(1) حديث صحيح . رواه الطبراني في «المعجم الصغير» رقم (1053) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة - حديث رقم - (2215) .

(2) حديث صحيح . أخرجه الحاكم والطبراني . انظر صحيح الجامع الصغير - حديث رقم - (692) .

كان فيهم صالحون ، يصيبهم ما أصاب الناس ، ثم يرجعون إلى رحمة الله⁽¹⁾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ . بيان لحكمة تأخير عذابهم مع ما ورد من الإشارة في الآية السابقة لاستحقاقهم ذلك العذاب .

قال ابن كثير : (أي : لولا الكلمة السابقة من الله ، وهو أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه - والأجل المسمى الذي ضربه الله تعالى لهؤلاء المكذبين إلى مدة مُعَيَّنة - لجاءهم العذاب بغتة) .

وقوله : ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ .

أي : فاصبر - يا محمد - على تكذيب قومك واتهامهم لك بالسحر والجنون وكلام الشعر ، وعظم ربك بالثناء عليه والتسبيح والحمد قبل طلوع الشمس - وذلك صلاة الصبح - وقبل غروبها - وتلك صلاة العصر - .

وقد جاءت السنة الصحيحة بتأكيد هذا المعنى في أحاديث ، منها :

الحديث الأول : أخرج البخاري ومسلم وأكثر أهل السنن عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال : [كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر ، فقال : إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر ، لا تضامون في رؤيته ، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، فافعلوا ، ثم قرأ : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴾ [ق : 39]]⁽²⁾ .

الحديث الثاني : أخرج مسلم في صحيحه ، وأحمد في مسنده ، عن أبي بكر بن عمار بن ربيعة ، عن أبيه : قال : [سمعت رسول الله ﷺ يقول : «لن يلج النار أحدٌ صَلَّى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها» يعني الفجر والعصر . فقال له رجل من أهل البصرة : أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال : نعم . قال الرجل : وأنا أشهد أنني

(1) حديث صحيح . أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (2/441/2) ، وأبو نعيم في الحلية (218/10) ، ورواه أحمد في المسند (294/6) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1372) .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (554) ، كتاب مواقيت الصلاة ، باب فضل صلاة العصر ، وأخرجه كذلك (4851) ، ورواه مسلم (633) ، وأبو داود (4729) ، والترمذي (2551) ، وابن ماجه (177) ، وأحمد (360/4) ، وابن حبان (7442) .

سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، سَمِعْتُهُ أُذْنَايَ وَوَعَاهُ قَلْبِي⁽¹⁾ .

وقوله : ﴿وَمِنْ أُنَايَ الْيَلِّ فَسَبَّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ .

قال ابن عباس : (﴿وَمِنْ أُنَايَ الْيَلِّ فَسَبَّحْ﴾ قال : آناء الليل : جوف الليل) . وقال الحسن : (من أوله ، وأوسطه ، وآخره) . والمقصود : ومن ساعات الليل فتعبد به ، ومن أطراف النهار فسبِّح كذلك لعلك ترضى بثواب الله لك .

وعن قتادة : (﴿وَسَبَّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ قال : هي صلاة الفجر ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ قال : صلاة العصر . ﴿وَمِنْ أُنَايَ الْيَلِّ﴾ قال : صلاة المغرب والعشاء . ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ قال : صلاة الظهر) . وعن ابن زيد : (﴿لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ قال : الثواب ، ترضى بما يشيك الله على ذلك) .

قال النسفي : (﴿لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ أي اذكر الله في هذه الأوقات رجاء أن تنال عند الله ما به ترضى نفسك ويسر قلبك) .

قلت : والخطاب وإن كان للنبي ﷺ بالصبر وإقامة الصلوات المكتوبة ، والتماس الصلوات النافلة - مما يعين على مواجهة الأذى والمحن - ، فهو للأمة من باب الأولى . والعاقبة رضوان الله تعالى .

ففي الصحيحين والمسند من حديث أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : [إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ : يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ ، فَيَقُولُونَ : لِيكَ رَبَّنَا وَسَعْدِيكَ ، فَيَقُولُ : هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ : وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى وَقَدْ أُعْطِينَا مَا لَمْ نُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ؟ فَيَقُولُ : أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ ، قَالُوا : يَا رَبِّ وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ : أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أُسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا]⁽²⁾ .

131 - 132 . قوله تعالى : ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح - حديث رقم - (634) ، كتاب المساجد ، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما . ورواه أبو داود (427) ، والنسائي (1/235) ، وأحمد (136/4) ، وابن حبان (1740) .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (6549) ، كتاب الرقاق ، وكذلك (7518) ، وأخرجه مسلم (2829) ، وأحمد (88/3) ، والترمذي (255) ، وأبو نعيم في «صفة الجنة» (282) .

الْحَيَوَةُ الدُّنْيَا لِنَفْسِهِمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٣١﴾ وَأَمْرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴿١٣٢﴾ .

في هذه الآيات : حث الله نبيه على ترك النظر إلى المترفين أهل الاستكبار ، فما هم فيه من متاع الحياة الدنيا صائر إلى الزوال ، وإنما هم في امتحان واختبار . وأمره له تعالى باستنقاذ أهله من النار ، بإقام الصلاة والصبر على ذلك ، ورزق الله مقسوم والعاقبة للمتقين .

فقوله : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ ﴾ . قال مجاهد : (يعني الأغنياء ، فقد آتاك الله خيراً مما آتاهم) . وعن أبي رافع : (يعني بقوله : ﴿ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ ﴾ رجالاً منهم أشكالا) . قال القاسمي : (﴿ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ ﴾ أي أصنافاً من الكفرة) . وقال ابن كثير : (يقول تعالى لنبيه محمد - صلوات الله وسلامه عليه - : لا تنظر إلى ما مَتَّعْنَا بِهِ هَؤُلَاءِ المترفين وأشباههم ونُظَرَاءَهُمْ ، وما هم فيه من النعيم ، فإنما هو زهرة زائلة ، ونعمة حائلة ، لَنُخْتَبِرَهُمْ بِذَلِكَ ، وقليل من عبادي الشكور) .

وقوله : ﴿ زَهْرَةُ الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا ﴾ . أي زيتها . وهو منصوب على أنه بدل من ﴿ أَزْوَاجًا ﴾ أو نُصِبَ بـ ﴿ مَتَّعْنَا ﴾ على تضمينه معنى : أعطينا وخولنا .

وقوله : ﴿ لِنَفْسِهِمْ فِيهِ ﴾ . قال قتادة : (لنبتليهم فيه) .

وقوله : ﴿ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ . أي مما مَتَّعْنَا بِهِ هَؤُلَاءِ في هذه الدنيا .

قال ابن جرير : (﴿ وَرِزْقُ رَبِّكَ ﴾ الذي وعدك أن يرزقك في الآخرة حتى ترضى ، وهو ثوابه إياه ﴿ خَيْرٌ ﴾ لك مما مَتَّعْنَا بِهِ من زهرة الحياة الدنيا . ﴿ وَأَبْقَى ﴾ يقول : وأدوم ، لأنه لا انقطاع له ولا نفاد) .

قلت : والآية وإن كانت خطاباً للنبي ﷺ ، فإنها منهاج حياة لكل مسلم ، لثلا يغتر بما فتن الله به الطغاة في الأرض وهم يعيشون فيها فساداً ويحاربون دينه وأوليائه . بل إن النبي ﷺ خشي على هذه الأمة من زهرة الدنيا وزينتها وما يفتح عليهم فيها من ذلك . فإلى ذكر بعض هذه الأحاديث من سنته العطرة :

الحديث الأول : أخرج البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ جلس ذات يوم على المنبر ، وجلسنا حوله فقال : [إن مما أخاف عليكم

من بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها. . [الحديث (1)].

الحديث الثاني: أخرج الشيخان من حديث ابن عباس عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - في حديث اعتزال النبي ﷺ لنسائه - قال: [ثم رفعت بصري في بيته فوالله ما رأيت فيه شيئاً يرّد البصر عن أهبة ثلاثة ، فقلت: يا رسول الله ادع الله فليوسع على أمتك ، فإن فارسَ والرومَ وسّعَ عليهم وأعطوا الدنيا ، وهم لا يعبدون الله ، وكان متكئاً فقال: أو في شك أنت يا ابن الخطاب! أولئك قومٌ عَجَلْتُ لهم طيبأتهم في الحياة الدنيا. . [الحديث (2)].

وفي رواية مسلم: [فقال: يا ابن الخطاب ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا. قلت: بلى].

الحديث الثالث: أخرج الترمذي في «الشمائل» بسند صحيح عن مالك بن دينار قال: [ما شبع رسول الله ﷺ من خُبِرٍ قط ، ولا لحمٍ إلا على ضفف (3)] (4).

قال مالك: (سألت رجلاً من أهل البادية: ما الضفف؟ قال: أن يتناول مع الناس).

الحديث الرابع: أخرج ابن ماجة بسند حسن عن أبي الدرداء قال: [خرج علينا رسول الله ﷺ ، ونحن نذكر الفقر ونتخوفه ، فقال: آلفقر تخافون؟ والذي نفسي بيده لَتَصْبِرَنَّ عليكم الدنيا صَبّاً ، حتى لا يُرِغَ قلب أحدكم إن أزاغهُ إلا هي ، وإيْمُ الله ، لقد تركتكم على مثل البيضاء ، ليلها ونهارها سواء] (5).

وقوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلْكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾.

أي: استنقذ أهلك من عذاب الله بإقام الصلاة والصبر على ذلك ، واعلم أن رزقك

- (1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه - حديث رقم - (1465) - كتاب الزكاة ، ورواه مسلم (1052) في أثناء حديث طويل.
- (2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (89) - كتاب العلم ، و (378) كتاب الصلاة. وكذلك (2468) - كتاب المظالم. ورواه مسلم (1479) - كتاب الطلاق.
- (3) قال عبد الله بن عبد الرحمن شيخ الترمذي: (قال بعضهم: هو كثرة الأيدي).
- (4) حديث صحيح. انظر: «مختصر كتاب الشمائل» (109) ، باب ما جاء في عيش رسول الله ﷺ.
- (5) إسناده حسن ، رجاله ثقات. أخرجه ابن ماجة (5) - باب اتباع سنة رسول الله ﷺ. وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة - حديث رقم - (688).

مقسوم في دنياك فلا يشغلك عن إقامة أمر دينك ودين أهلِكَ ، ثم العاقبة الصالحة لأهل التقوى .

فربط سبحانه تعالى العبادة بمفهوم الرزق ، فإن الشيطان يهم بالعبد كلما حاول تفريغ جزء من وقته لأهله ، فجاءت الآية تطمئن المؤمن أن الصبر على تعليم الأهل والولد الحق والصلاة وحب الله ورسوله والجهاد في سبيله لا يؤخر من الرزق شيئاً .

ففي التنزيل :

1 - قال تعالى : ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ [التحریم : 6] .

2 - وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق : 3-2] .

3 - وقال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۚ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ [الذاريات : 56-58] .

ومن كنوز صحيح السنة في ذلك أحاديث :

الحديث الأول: يروي الإمام أحمد في المسند ، والترمذي في السنن ، عن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : [لو أنكم توكلون على الله تعالى حقَّ توكله ، لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً]⁽¹⁾ .

الحديث الثاني: أخرج أحمد والترمذي وابن حبان بسند جيد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : [إن الله تعالى يقول : يا ابنَ آدم تفرَّغ لعبادتي أملاً صدرك غنى وأسُدَّ ففرك ، وإن لا تفعل ملأت يديك شغلاً ولم أسُدَّ ففرك]⁽²⁾ .

الحديث الثالث: أخرج الترمذي بسند صحيح عن أنس عن النبي ﷺ قال : [من كانت الآخرة همَّه ، جعل الله غناه في قلبه ، وجمع له شمله ، وأتته الدنيا وهي راغمة .

(1) حديث صحيح . أخرجه الترمذي في السنن (2461) . انظر صحيح سنن الترمذي (1911) ، وتخریج : «مشكاة المصابيح» (23) . ورواه أحمد .

(2) إسناد جيد . أخرجه الترمذي (2466) ، وأحمد (2/358) ، وابن ماجه (4017) ، والحاكم (4432) ، وابن حبان (393) . وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1359) .

ومن كانت الدنيا همّه ، جعل الله فقره بين عينيه ، وفرّق عليه شمله ، ولم يأتِه من الدنيا إلا ما قُدِّرَ له⁽¹⁾ .

133 - 135 . قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةٌ مَّا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلُّ مُرْتَبَضٍّ فَرْتَبِصُوا فَمَسْتَعْلَمُونَ مَن أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾ ۚ .

في هذه الآيات : سؤال المشركين رسول الله ﷺ الآيات والمعجزات ، وإنما أهلك الله القرون السالفة بعد وضوح البينات وظهور الدلالات . ولو أهلك هؤلاء قبل إرسال هذا الرسول الكريم ، وتنزيل هذا الكتاب العظيم ، لاحتجوا على إهلاكهم معترضين . فقل لهم يا محمد : كل منا منتظر ، فانظروا فستعلمون من أصحاب الصراط المستقيم ، وأتباع المنهج القويم ، منهاج النجاة والهداية للعالمين .

فقوله : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ ﴾ . هو من قيل المشركين لرسول الله ﷺ .

قال ابن جرير : (يقول تعالى ذكره : قال هؤلاء المشركون الذين وصف صفتهم في الآيات قبل هلا يأتينا محمد بآية من ربه ، كما أتى قومه صالح بالناقة وعيسى بإحياء الموتى ، وإبراء الأكمه والأبرص) .

وقوله : ﴿ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةٌ مَّا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴾ . قال مجاهد : (التوراة والإنجيل) . وقال قتادة : (الكتب التي خلت من الأمم التي يمشون في مساكنهم) .

والمقصود : أولم يأتهم في هذا القرآن العظيم أخبار القرون قبلهم والأمم التي سلفتهم من أهل الكتاب وغيرهم .

وفي التنزيل نحو ذلك : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِرَادٌ فِي ذَٰلِكَ لِرَحْمَةٍ وَذِكْرٍ لِّلْقَوْمِ يَوْمُئِثٍ ﴾ [العنكبوت : 50 - 51] .

(1) إسناده صحيح . أخرجه الترمذي (2596) ، وانظر صحيح سنن الترمذي - حديث رقم - (2005) .

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : [ما مِنَ الأنبياء نبيٍّ إلا أُعطيَ مِنَ الآيات ما مثله أومِنَ - أو آمَنَ - عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليَّ ، فأرجو أني أكثرهم تابِعاً يومَ القيامة] (1).

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا إِنَّا رَبُّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَنْ نُنْزِلَ وَنَخْزِيكَ ﴾ .

أي : لو أنا أهلكنا هؤلاء المعاندين المتكبرين قبل أن نرسل إليهم هذا الرسول الكريم ، وننزل عليهم هذا الكتاب العظيم ، لاحتجوا بأنهم كيف يهلكون ولما يرسل إليهم رسول يدعوهم إلى الإيمان ، وما يجب عليهم في حق الله تعالى من اتباع شرعه وتعظيم دينه .

قال النسفي : ﴿ مِن قَبْلِ أَنْ نُنْزِلَ ﴾ بنزول العذاب ﴿ وَنَخْزِيكَ ﴾ في العقبي .

وفي التنزيل نحو ذلك :

1 - قال تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١٠٩) وَنُقَلِّبُ أَفْسَدَتَهُمْ وَابْنَصِرُهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام : 109 - 110] .

2 - وقال تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنَ الْإِهْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا تَقْوَرًا ﴾ [فاطر : 42] .

3 - وقال تعالى : ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (١٥٥) أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴾ (١٥٦) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴾ [الأنعام : 155 - 157] .

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (7274) - كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة . ورواه مسلم في صحيحه - حديث رقم - (152) كتاب الإيمان .

وإنما يحتج يوم القيامة فتقبل حجته عند ربه من لم تبلغه دعوة الرسل ، أو حال دونه ودون فهمها وبلوغها حائل .

فقد أخرج الطبراني بسند صحيح عن الأسود بن سريع مرفوعاً: [أربعة يوم القيامة يدلون بحجة: رجل أصم لا يسمع ، ورجل أحمق ، ورجل هرم ، ومن مات في الفترة. فأما الأصم فيقول: يا رب جاء الإسلام وما أسمع شيئاً. وأما الأحمق فيقول: جاء الإسلام والصبيان يقذفونني بالبعر. وأما الهرم فيقول: لقد جاء الإسلام وما أعقل. وأما الذي مات على الفترة فيقول: يا رب ماأتاني رسولك ، فيأخذ مواليقهم ليطعنه ، فيرسل إليهم رسولاً أن ادخلوا النار. قال: فوالذي نفسي بيده لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً⁽¹⁾ .

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ كُلُّ مُرْتَضٍ فَرِيضٌ فَسَتَعْلَمُونَ مَنِ أَصْحَبُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى ﴾ .

أي: قل - يا محمد - لهؤلاء المكذبين من قومك: كل منا منتظر لمن يكون له الفلاح والعاقبة والظفر ، فانتظروا وترقبوا ، فستعلمون من أصحاب الطريق المستقيم ومن المهتدي الذي قد أصاب منهاج الهداية والنجاة .

وفي التنزيل نحو ذلك :

1 - قال تعالى: ﴿ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان : 42] .

2 - وقال تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [الفصص : 56] .

3 - وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَّ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ ﴿ ٢٦ ﴾ قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا تَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿ ٢٧ ﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾ [سبأ : 24 - 26] .

4 - وقال تعالى: ﴿ سَيَعْلَمُونَ عَذَابَ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ ﴾ [القمر : 26] .

(1) حديث صحيح. أخرجه الطبراني (2/79) ، وأحمد (4/24) ، وابن حبان (1827) ، وأخرجه الدليمي (1/171) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1434).

وفي سنن ابن ماجة ومعجم الطبراني من حديث سهل بن سعد عن النبي ﷺ قال :
 [عند الله خزائن الخير والشر مفاتيحها الرجال ، فطوبى لمن جعله الله مفتاحاً للخير
 مغلقاً للشر ، وويل لمن جعله الله مفتاحاً للشر مغلقاً للخير]⁽¹⁾.

تم تفسير سورة طه
 بعون الله وتوفيقه ، وواسع منه وكرمه



(1) حديث حسن . انظر تخريج السنة (296-219) ، وصحيح الجامع الصغير - حديث رقم - (3987).

- دروس ونتائج وأحكام -

- 1- الرحمن على العرش استوى ، وكل أسماء الله حسنى .
- 2- موسى ﷺ كليم الله ، ومحمد ﷺ خليله وكليمه .
- 3- إذا أراد الله بالأمير خيراً جعل له وزير صدق ، إن نسي ذكّره ، وإن ذكّر أعانه . وإذا أراد الله به غير ذلك جعل له وزير سوء ، إن نسي لم يذكّره ، وإن ذكّر لم يُعنه .
- 4- معية الله لعباده بصفاته لا بذاته ، فهو تعالى يدبر الأمر من فوق عرشه .
- 5- استنفار فرعون لحماية سلطانه من الزوال ، وقد أراه سحرته إيماناً كالجبال .
- 6- الشرك أخفى في الأمة من ديب النمل ، والله يذهبه بالتوكل .
- 7- استصغار الكفار مدة مكثهم في هذه الحياة الدنيا إلى يوم واحد .
- 8- من أعرض عن ذكر الله فإن له معيشة ضنكاً ، ويحشره ربه يوم القيامة أعمى .
- 9- انظروا إلى من هو أسفل منكم ، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم ، فهو أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم . والعاقبة للمتقين ، والخسران للمتربين المستكبرين .
- 10- القرآن الكريم أكبر معجزة خالدة في الأرض إلى يوم القيامة .



21



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (112)

أخرج البخاري في صحيحه عن عبد الله قال: [بنو إسرائيل ، والكهف ، ومريم ، وطه ، والأنبياء هُنَّ من العِتاقِ الأولِ ، وهُنَّ من تلادي]⁽¹⁾.

موضوع السورة

قصص الأنبياء منهاج النجاة للمؤمنين ، وسبيل الشقاء والخزي للكافرين

- منهاج السورة -

- 1 - إعلام الله تعالى عن اقتراب الساعة ، والناس في غفلة عن الذكر يلعبون .
- 2 - استبعاد الناس النبوة لبشر مثلهم ، شأن الأمم السالفة قبلهم .
- 3 - إثبات بشرية الرسول ، ووجوب الرجوع في فهم الدين لأهل العلم والفضل .
- 4 - إثبات العاقبة والنصر للمرسلين ، والخزي والذل على الكافرين ، وهذا الكتاب شرف للعرب فيه ذكرهم لو كانوا يعقلون .

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في صحيحه - حديث رقم - (4739) - كتاب التفسير - ، سورة الأنبياء ، من حديث عبد الله بن مسعود .

- 5 - محاولة المجرمين الفرار عند تطويق الله لهم بالعذاب المهين ، واعترافهم أنهم كانوا ظالمين ، حتى صاروا حصيداً خامدين .
- 6 - تأكيد الله خلقه السماوات والأرض بالحق لا باللهو واللعب ، وتقرير سته في رفع كلمة الحق وإسكات كلمة أهل الكذب ، فله ما في السماوات والأرض والملائكة في عبادتهم له لا يستحسرون ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون .
- 7 - استخفاف الله بآلهة قوم لا تضر ولا تنفع ولا تحيي ولا تميت فهو الإله الحق الأحد الصمد ، ولو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا .
- 8 - ثناء الله على الملائكة ، وإبطاله دعوى الكفار اتخاذه الولد منهم .
- 9 - لفت أنظار الكفار إلى عظيم قدرته تعالى ، وواسع نعمه وكرمه عليهم .
- 10 - تولي الله نصر دينه ، وكل نفس ذائقة الموت وإنما الناس في اختبار ثم إلى ربهم يرجعون .
- 11 - استهزاء المشركين بالرسول ، وخلق الإنسان من عجل ، وتقرير العذاب على المشركين المستهزئين .
- 12 - تسلية الله نبيه عما يلقاه من أذى المشركين ، وتقريره تعالى نعمه على الكافرين .
- 13 - إقرار المكذبين بذنوبهم عند حلول العذاب ، والوزن يكون بالعدل يوم الحساب .
- 14 - اشتمال التوراة على الفرقان بين الحق والباطل ، وهذا القرآن في غاية الإعجاز والجلاء والوضوح وهو الكتاب الكامل .
- 15 - إلهام الله تعالى إبراهيم عليه السلام الحق من صغره ، وثناؤه تعالى عليه في محاجة قومه .
- 16 - تحطيم إبراهيم الأصنام واستخفافه بعقول قومه ، ونجاته من النار بإذن ربه .
- 17 - نجات إبراهيم ولوط - عليهما الصلاة والسلام - إلى بلاد الشام ، وإكرام الله تعالى إبراهيم بإسحاق ويعقوب أئمة من الصالحين ، وحماية الله نبيه لوطاً من القوم الفاسقين .
- 18 - نجاة نوح عليه السلام بإذن الله من الكرب العظيم ، وإغراق الله قومه المكذبين .
- 19 - ثناؤه تعالى على داود وسليمان ، وتفهميه سليمان مسألة الكرم وغنم القوم ، وتسخير الجبال والطير وعمل الدروع لداود ، والريح والشياطين لسليمان .

- 20 - ثناء الله تعالى على صبر أيوب عليه السلام ، وكشفه ضره رحمة به وذكرى للأنام .
- 21 - ثناء الله تعالى على إسماعيل وإدريس وذو الكفل في الصابرين ، وإدخالهم في رحمته إنهم من عباده الصالحين .
- 22 - تضيق الله تعالى على يونس عليه السلام وإدخاله في بطن الحوت ، ودعوته ربه من ذلك السجن بخير الدعاء ، الذي كشف به غمه وجعله للمؤمنين من خير الرجاء .
- 23 - ثناء الله تعالى على زكريا عليه السلام ، وإجابة دعوته بأن وهب له يحيى وأصلح له زوجه . وذكر قصة مريم وابنها عيسى عليهما السلام عقب قصة زكريا وابنه يحيى عليهما السلام ، وثناء الله على مريم ورفع ذكرها في الأنام .
- 24 - وحدة منهج الأنبياء ، واختلاف الناس عليهم ، وكتابة الملائكة أعمال الأولياء .
- 25 - تأكيد هلاك الأمم المكذبة ، وفتح سد يأجوج ومأجوج قبيل الساعة ، وإسرار الكفار الندامة عند معاينة أهوال القيامة .
- 26 - تأكيد وقوع المشركين وألتهتهم في نار العذاب ، والبشرى للمؤمنين يوم الحساب ، وهذا النبي الكريم رحمة لجميع العالمين .
- 27 - وحي الله تعالى إلى نبيه عليه الصلاة والسلام ، أنه تعالى الإله الحق الذي لا ينبغي أن يعبد غيره الأنام .
- 28 - إعلان البراءة من القوم المشركين ، إن أصروا على الجاهلية والمكر بالإسلام والمسلمين .
- 29 - إخبار الله تعالى نبيه ليعلم قومه أن حلول وقت عقابهم قد يكون قريباً ، وإنما هم في فتنة والله يمكر بهم مكرأ شديداً .
- 30 - لا يعلم السر وأخفى إلا الرحمان ، فله الحكم وهو الرب الإله الحق المستعان .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

1 - 6. قوله تعالى: ﴿ أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ (١) مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ تُحَدِّثُ إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَا هِيَ قُلُوبُهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوا أَضْغَثُ أَحْلَمَ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْنِئْنَا بِتَايَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَا ءَامَنْتُ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرِيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ .

في هذه الآيات: إعلامُ الله اقتراب قيام الساعة والناس في غفلتهم لاهون ، وما يأتِيهم من قرآن يذكرهم سبيل نجاتهم إلا استقبلوه وهم يلعبون ، ويستبعدون النبوة لبشر مثلهم ويتهمونه بالسحر أو الشعر أو الجنون ، والله تعالى يهددهم وبالقياس على الأمم السالفة الهالكة فهم لا يؤمنون .

فقوله تعالى: ﴿ أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ .

تنبيه من الله تعالى عباده على دنو قيام الساعة وهم غائبون في غفلتهم ، لاهون في دنياهم ، معرضون عن آخرهم .

وفي التنزيل نحو ذلك :

1 - قال تعالى: ﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النحل : 1] .

2 - وقال تعالى: ﴿ أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَعْتَبٌ ﴾ [القمر : 1 - 2] .

ومن كنوز صحيح السنة في ذلك :

الحديث الأول: أخرج البخاري في صحيحه من حديث أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ: [قرأ: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ [مريم: 39] - قال: وهؤلاء في غفلة أهل الدنيا ، - ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾] (1) .

الحديث الثاني: أخرج النسائي بسند صحيح عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي سعيد ، عن النبي ﷺ: [﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ قال: في الدنيا] (2) .

الحديث الثالث: أخرج الحاكم والطبراني بإسناد صحيح عن ابن مسعود مرفوعاً: [اقتربت الساعة ، ولا يزدادُ الناسُ على الدنيا إلا حرصاً ، ولا يزدادون من الله إلا بُعداً] (3) .

وقوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ (٢) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ .

أي: ما ينزل من قرآن يذكرهم به ربهم ويعظمهم ويرشدهم فيه إلى ما فيه سعادتهم إلا استمعوه ثم تابعوا لعبهم ومضوا في لهوهم .

قال قتادة: (يقول: ما ينزل عليهم من شيء من القرآن إلا استمعوه وهم يلعبون . ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ يقول: غافلة قلوبهم) .

وقوله: ﴿مُحَدَّثٍ﴾ أي جديد إنزاله ، حديث أمر الله لرسوله ببلاغه . قال ابن عباس: (مالكم تسألون أهل الكتاب عما بأيديهم وقد حرّفوه وبدّلوه ، وزادوا فيه ونقصوا منه ، وكتابكم أحدثُ الكتب بالله تقرأونه مخضاً لم يشُب) - رواه البخاري بنحوه .

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (4730) ، كتاب التفسير ، سورة كهيعص ، في أثناء حديث طويل .

(2) حديث صحيح . أخرجه النسائي في «التفسير» (352) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه ، وانظر صحيح مسلم (2849) ح (41) نحوه .

(3) صحيح الإسناد . أخرجه الحاكم (324/4) ، والطبراني في «المعجم الكبير» (9787) ، وأبو نعيم في «الحلية» (242/7) ، (315/18) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1510) .

وقوله: ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾.

أي: أظهر هؤلاء المعرضون المناجاة فيما بينهم يقولون: هل محمد إلا بشر مثلكم فكيف اختص بالوحي دونكم ، فهم يستبعدون كونه نبياً لأنه بشر.

وقوله: ﴿أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ﴾. قال ابن زيد: (قاله أهل الكفر لنبيهم لما جاء به من عند الله ، زعموا أنه ساحر ، وأن ما جاء به سحر ، قالوا: أتأتون السحر وأنتم تبصرون).

قال ابن كثير: (أي: أفتتبعونه فتكونون كمن يأتي السحر وهو يعلم أنه سحر).

وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

تهديد ووعيد لأولئك المعرضين الذين يفترون الكذب ويختلقون الشبهات. وقراء مكة قرءوا أول الآية: ﴿قَالَ رَبِّي﴾ على وجه الخبر. وأما قراء المدينة والبصرة وبعض الكوفيين فقرءوا ذلك: ﴿قُلْ رَبِّي﴾ على وجه الأمر. وهما قراءتان مشهورتان في الأمصار. والمعنى كما قال النسفي: (قال محمد - أو قل يا محمد - للذين أسروا النجوى) ﴿رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي يعلم قول كل قائل هو في السماء أو الأرض سراً كان أو جهراً ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالهم ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما في ضمائرهم).

وقوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ بَلْ افْتَرَيْنَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْنِتْنَا بِشَايَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأُولُونَ﴾.

إخبار عن تردد القوم في افتراءهم وشكهم. فأضربوا عن قولهم هو سحر إلى أنه تخاليط أحلام مما يعتري المرء في نومه فظنها وحياً ، ثم عدلوا عن ذلك فقالوا: بل هو كلام مفترى من عنده ، ثم بدا لهم أنه شاعر. وهذه هي طبيعة الباطل يترنح ويتأرجح ويتخبط أهله. قال ابن جرير: ((فَلْيَأْنِتْنَا)) يقول: قالوا فليجئنا محمد إن كان صادقاً في قوله ، أن الله بعثه رسولاً إلينا ، وأن هذا الذي يتلوه علينا وحي من الله أوحاه إلينا ﴿بِشَايَةٍ﴾ يقول: بحجة ودلالة على حقيقة ما يقول ويدعي ﴿كَمَا أُرْسِلَ الْأُولُونَ﴾ يقول: كما جاءت به الرسل الأولون من قبله من إحياء الموتى ، وإبراء الأكمه والأبرص وكنافة صالح ، وما أشبه ذلك من المعجزات التي لا يقدر عليها إلا الله ، ولا يأتي بها إلا الأنبياء والرسل).

وقوله تعالى: ﴿ مَا آمَنْتَ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرِيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

أي: قياساً على السنن الماضية في الأمم السالفة ، لا يتوقع سلوك هؤلاء مع رسولهم بغير ما قابل الأوائل أنبياءهم لما رأوا الآيات ، لقد قابلوهم بالتكذيب والتنطع والعداء حتى نزل بهم الهلاك والعذاب ، وهذا ما يبدو من هؤلاء كذلك .

وفي التنزيل :

1 - قال تعالى: ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنٌّ ﴾ ﴿٥٦﴾ أَنْوَاصًا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ [الذاريات : 52 - 53] .

2 - وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يونس : 96 - 97] .

3 - وقال تعالى: ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوفُونَ ﴾ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْفُوسٍ ﴾ [هود : 109] .

ومن كنوز صحيح السنة في ذلك :

الحديث الأول: أخرجه البخاري في صحيحه ، وأحمد في مسنده ، عن أبي سعيد ، عن النبي ﷺ قال: [يجيء نوح وأُمَّته ، فيقول الله: هل بَلَغْتَ؟ فيقول: نعم أي رب! فيقول لأُمَّته: هل بَلَغَكم؟ فيقولون: لا ، ما جاء لنا من نبي ، فيقول لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأُمَّته ، وهو قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ والوسط: العدل ، فيُدعون ، فيشهدون له بالبلاغ ، ثم أشهد عليكم] ⁽¹⁾ .

الحديث الثاني: أخرجه أحمد في المسند والنسائي في السنن بسند صحيح عن أبي سعيد رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجل ، والنبي ومعه الرجلان ، والنبي ومعه الثلاثة ، وأكثر من ذلك ، فيُقال له: هل بلغت قومك؟ فيقول: نعم ، فيدعى قومه ، فيقال لهم: هل بَلَغَكم هذا؟ فيقولون: لا ، فيقال له: من يشهد لك ، فيقول محمد وأُمَّته . .] الحديث ⁽²⁾ .

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (286/6) ، (139/8) ، وأحمد (32/3) . وانظر: صحيح الجامع الصغير - حديث رقم - (7890) .

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد (58/3) ، وابن ماجه (573/2 - 574) ، والنسائي وغيرهم ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة - حديث رقم - (2448) .

فالتكذيب سمة ظاهرة في أقوام الرسل جميعهم ، وهذا ما كان من قريش أيضاً في بادئ الأمر حين أظهر النبي ﷺ دعوته .

الحديث الثالث: أخرج البخاري ومسلم - واللفظ للبخاري - عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: [لما نزلت: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الصِّفَا فَجَعَلَ ينادي: يا بني فِهْر ، يا بني عَدِيّ لبطون قريش حتى اجتمعوا ، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو ، فجاء أبو لهب وقريش ، فقال: أرأيتم لو أخبرتكم أنّ خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم ما جربنا عليك إلا صدقاً. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. فقال أبو لهب: تبّاً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا؟ فترلت: ﴿تَبَّتْ يَدَايَ لِهَبٍ وَتَبَّ ۖ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾⁽¹⁾.

7 - 10. قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٧) وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ^(٨) ثُمَّ صَدَقْتَهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ^(٩) لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ^(١٠).

في هذه الآيات: إثبات الله بشرية ورجولة الأنبياء ، وضرورة الرجوع عند الخلاف وسوء الفهم لأهل العلم ، وإثبات العاقبة والنصر للمرسلين ، والخزي والذل على الكافرين . وهذا الكتاب فيه ذكركم - معشر العرب - أفلا تعقلون .

فقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ﴾ . ردُّ على من استبعد كون الرسل من البشر .

أي: لقد سبق - يا محمد - في الأمم التي خلت قبل أمتك رسل أوحى الله إليهم لينذروا قومهم ، فما الذي دعاهم لإنكار إرسال الله إليك لهم .

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح (4770) ، كتاب التفسير . وانظر تفصيل البحث في كتابي: السيرة النبوية على منهج الوحيين (1/ 186 - 188) .

وفي التنزيل نحو ذلك :

- 1 - قال تعالى: ﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف : 9].
- 2 - قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾ [يوسف : 109].

3 - وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ [الفرقان : 20].

وإنما يصدر من هؤلاء ما صدر من سفهاء الأقوام فيما مضى من قولهم لرسولهم: ﴿ أَبَشِّرْهُدُونَا ﴾ .

وقوله: ﴿ فَتَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ - فيه ضرورة الرجوع لأهل العلم لفهم أمور الدين ونفي شبه المبطلين .

قال قتادة: (يقول: فاسألوا أهل التوراة والإنجيل - قال أبو جعفر: أراه أنا قال: - يخبروكم أن الرسل كانوا رجالاً يأكلون الطعام ، ويمشون في الأسواق) .

وقال ابن زيد: ﴿ فَتَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ قال: أهل القرآن ، والذكر: القرآن ، وقرأ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ .

وقد ورد في فضل العلم وطلبه والسؤال عنه أحاديث من السنة الصحيحة :

الحديث الأول: في صحيح سنن ابن ماجه من حديث أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [. . .] وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ، إن العلماء ورثة الأنبياء . إن الأنبياء لم يُورثوا ديناراً ولا درهماً . إنما وُرثوا العلم . فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافر[⁽¹⁾].

الحديث الثاني: وفي الباب عن زر بن حبیش قال: أتيت صفوان بن عَسَّال المُرادي ، فقال: ما جاء بك ؟ قُلْتُ: أنبط العلم . قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: [ما مِنْ خَارِجٍ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ إِلَّا وَصَّعَتْ لَهُ الْمَلَائِكَةُ أَجْنَحَتَهَا ، رِضًا بِمَا يَصْنَعُ]⁽²⁾ .

(1) حديث صحيح . أخرجه ابن ماجه (223) ، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم . انظر صحيح سنن ابن ماجه - حديث رقم - (182) ، وهو جزء من حديث أطول .

(2) حديث صحيح . أخرجه ابن ماجه (226) في الباب السابق . وانظر صحيح ابن ماجه (185) .

الحديث الثالث: روى الطبراني في الأوسط ، والبزار في المسند ، بإسناد حسن عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: [فضل العلم خير من فضل العبادة ، وخير دينكم الورع]⁽¹⁾. وفي رواية: [فضل العلم أحب إلي من فضل العبادة ، وخير دينكم الورع].

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴾ .

أي: لم نجعلهم ملائكة لا يأكلون الطعام ، بل جعلناهم - مثلك يا محمد - أجساداً يطعمون ويموتون .

قال الضحاك: (يقول: لم أجعلهم جسداً ليس فيهم أرواح لا يأكلون الطعام ، ولكن جعلناهم جسداً فيها أرواح يأكلون الطعام) .

وعن قتادة: (قوله: ﴿ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴾ : أي لا بد لهم من الموت أن يموتوا) .

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴾ .

هو إشارة من الله سبحانه إلى المهم في أمر الرسل: أنهم نُصروا على المكذبين من أقوامهم ، وكانت لهم العاقبة في نهاية الأمر ، وأهلك الله المعاندين المسرفين .

قال قتادة: (والمسرفون: هم المشركون) .

وقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .

قال ابن عباس: ﴿ فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ : شرفكم) .

وقال مجاهد: ﴿ فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ قال: حديثكم) . وقال الحسن: (دينكم) .

وقال سفيان: (نزل القرآن بمكارم الأخلاق ، ألم تسمعه يقول: ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .

قلت: وكل ما سبق يحتمله التأويل ، وإن كان المقصود الأعلى في هذه الآية التنبيه على شرف هذا القرآن ، وتحريض قريش والعرب على معرفة قدره ورفعته وسموه .

قال ابن كثير: ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ، أي: هذه النعمة وتلقونها بالقبول ، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ [الزخرف: 44] .

(1) حديث حسن. رواه البزار والطبراني عن حذيفة ، والحاكم عن سعد. انظر الروض النضر

(440/1) وتخريج العلم (13/112) ، وصحيح الجامع الصغير (4090) .

11 - 15. قوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ (١١) فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسَنَّا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُشْتَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَبُولْنَا إِنْأَ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴿١٥﴾ .

في هذه الآيات: تصوير الله تعالى هلاك المجرمين ، ومحاولتهم الهرب عند نزول العذاب المهين ، ثم اعترافهم أنهم كانوا ظالمين ، حتى أُسكتوا عن آخرهم وصاروا خامدين .

فقوله: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا﴾ . قال مجاهد: (وكم أهلكنا). وأصل القَصْم في كلام العرب: الكسر. وقوله: ﴿مِنْ قَرْيَةٍ﴾ المراد أهل القرية التي ﴿كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ ، وظلمها هو نقضها العهد مع الله سبحانه ، نقضها «لا إله إلا الله» .

وقوله: ﴿وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ . أي: أنشأنا بعد إهلاكها أمة أخرى.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسَنَّا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ أي محاولين الفرار.

قال ابن جرير: (- يقول -: فلما عاينوا عذابنا قد حَلَّ بهم إذا هم يهربون سراعاً عجلئ يَغْدُونَ منهزمين).

وقوله: ﴿لَا تَرْكُضُوا﴾ . أي لا تفروا . - خطاب على وجه الاستهزاء وقد فاتهم قطار النجاة.

وقوله: ﴿وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ﴾ . قال قتادة: (ارجعوا إلى دنياكم التي أترفتم فيها).

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُشْتَلُونَ﴾ . قال مجاهد: (لعلكم تفقهون). وقال قتادة: (لعلكم تُسألون من دنياكم شيئاً استهزاء بهم).

أي لا تركضوا ولا تفروا لعلكم تسألون عن أنواع الخمر التي تعرفونها وعن أصناف المعازف والمسكرات التي كنتم تتقنونها. لا تركضوا وارجعوا لعلكم تسألون عن أسماء نجوم اللهو والفجور والمجون التي كنتم تفقهون بها. لا تركضوا لعلكم تسألون عن فقه استعمال وسائل نقل المنكرات وكشف العورات. لا تركضوا وارجعوا

لعلكم تسألون عن الحيل التي كنتم تتعاملون بها في بيعكم وشرائكم وتجارتكم ، وعن طرق التلاعب بالأسعار وسبل الرشوة والاحتكار .

أخرج الطبراني بسند حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : [خمسٌ بخمس : ما نقض قوم العهد إلا سُلِّطَ عليهم عدوهم ، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر ، ولا ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت ، ولا طُفِّفُوا المكيال إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين ، ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم القطر] ⁽¹⁾ .

وله شاهد عن ابن ماجة والبخاري - واللفظ له - بسند صحيح من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : [يا معشر المهاجرين خصال خمس إن ابتليتم بهن ونزلن بكم أعوذ بالله أن تدركوهن : لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الأوجاع التي لم تكن في أسلافهم ، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان ، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا ، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سُلِّطَ عليهم عدو من غيرهم فيأخذ بعض ما في أيديهم ، ومالم تحكم أئمتهم بكتاب الله إلا جُعل بأسهم بينهم] ⁽²⁾ .

وقوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ . اعتراف منهم بما كانوا عليه من الذنوب والآثام ، ولكن بعدما فات وقت الندم وحق بهم الخسران .

وقوله تعالى : ﴿ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَتُهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴾ .

قال قتادة : (يقول : حتى هلكوا) . والمقصود : ما زال ذلك الاعتراف والتائب لأنفسهم حتى سكنت حركتهم ، وانطفأت شرارتهم ، وصاروا هموداً لا حراك لهم .

16 - 20 . قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا

أَنْ نَّتَّخِذَ لَهُمْ لَا تَخَذَنَّهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ

(1) حديث حسن . رواه الطبراني في الأوسط (1/85/1) ، وبنحوه الحاكم (2/126) ، (4/540) ، وانظر صحيح الجامع - حديث رقم - (3235) .

(2) حديث صحيح . رواه ابن ماجة (4019) ، والبيهقي (3/346) ، وأبو نعيم في «الحلية» (8/333 - 334) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (106) .

فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُمْ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ أَثِيلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ .

في هذه الآيات: تأكيد الله خلقه السماوات والأرض بالحق لا باللهو واللعب ، وتقدير سنته تعالى في رفع كلمة الحق وإسكات كلمة أهل الكذب ، فله سبحانه ما في السماوات والأرض والملائكة في عبادتهم له لا يستحسرون ، ينزهونه الليل والنهار لا يفترون .

فقوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِلْعَيْنِ ﴾ .

قال قتادة: (يقول: ما خلقناهما عبثاً ولا باطلاً) .

والمقصود: أن الله تبارك وتعالى خلق السماوات والأرض بالعدل والقسط وخلق العباد لتعظيمه وحده لا شريك له وإفراده بالعبودية .

وفي التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: 56] .

2 - وقال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا قَوِيلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ [ص: 27] .

3 - وقال تعالى: ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك: 2] .

وقوله تعالى: ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُمْ لَا تَتَّخِذْنَهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ .

قال مجاهد: ﴿ لَا تَتَّخِذْنَهُ مِنْ لَدُنَّا ﴾ من عندنا ، وما خلقنا جنة ولا ناراً ، ولا موتاً ولا بعثاً) .

قال القاسمي: ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُمْ لَا تَتَّخِذْنَهُ مِنْ لَدُنَّا ﴾ استثناء مقرر لما قبله من انتفاء اللعب واللهو . أي لو أردنا أن نتخذ ما يتلهم به ويلعب لا نتخذناه من عندنا) .

وقال قتادة: ﴿ إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾: أي ما كنا فاعلين) . وقال مجاهد: (كل شيء في القرآن ﴿ إِنْ ﴾ فهو إنكار) .

وقوله: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ .

قال قتادة: (والحق كتاب الله القرآن ، والباطل: إبليس ، فيدمغه فإذا هو زاهق: أي ذاهب) . أو قال: ﴿ زَاهِقٌ ﴾: هالك) .

والمقصود: أن آيات الله فيها بيان الحق الذي يدحض الباطل فإذا هو ذاهب مضمحل هالك.

وقوله: ﴿وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ﴾. أي: ولكم الويل أيها المفترون مما تشركون فتنسبون لله الولد وتكذبون. قال ابن جريج: ﴿وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ﴾ قال: تشركون. وقال قتادة: ﴿مِمَّا نَصِفُونَ﴾: أي تكذبون.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾.

إخبار عن عبودية الملائكة لله تعالى مالك السماوات والأرض ، وهم بذلك لا يَتَعَبُونَ ولا يَمَلُّون ، بل هم في سجود وذكر وتعظيم لله هم فيه دائبون.

قال ابن عباس: ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ لا يرجعون. وقال مجاهد: (لا يحسرون). وقال قتادة: (لا يغيثون). وقال ابن زيد: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾. قال: لا يستحسرون ، لا يملئون ذلك الاستحسار ، قال: ولا يفترون ، ولا يسأمون. وقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾. أي هم في تسبيح دائم لا ينقطعون عنه.

قال ابن عباس عن كعب: (إنهم ألهموا التسبيح كما ألهمتم الطُرف والنَّفس). وقال كعب الأحبار أيضاً: (إنهم جعل لهم التسبيح ، كما جعل لكم النفس ، ألسن تأكل وتشرب وتقوم وتقع ، وتجيء وتذهب ، وأنت تَنَفَّس ؟ قلت⁽¹⁾: بلى ، قال: فكَذَلِكَ جعل لهم التسبيح). وفي التنزيل ونحو ذلك:

1 - قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُسَبِّحْ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: 30].

2 - وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر: 7].

وفي مسند الإمام أحمد وجامع الترمذي بسند حسن عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [إني أرى ما لا ترون ، وأسمع ما لا تسمعون ، أظن السماء وحق لها

(1) القائل: عبد الله بن الحارث ، الراوي عن كعب الأحبار - كما ذكر ابن جرير بسنده إليه.

أَنْ تَنْطُ ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته لله تعالى ساجداً ، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ، ولبكيتم كثيراً ، وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصُّعُدَاتِ تَجَارُونِ إِلَى اللَّهِ⁽¹⁾ .

وله شاهد عند ابن نصر في « الصلاة » من حديث عائشة مرفوعاً : [ما في السماء الدنيا موضع قدم ، إلا عليه ملك ساجد ، أو قائم ، فذلك قول الملائكة : ﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ ، ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ﴾ ، ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴾] .

وشاهد آخر عنده من حديث حكيم بن حزام رضي الله عنه قال : (بينما رسول الله ﷺ مع أصحابه رضي الله عنهم إذ قال لهم : هل تسمعون ما أسمع ؟ قالوا : ما نسمع من شيء . قال : إني لأسمع أطيط السماء ، وما تُلَامُ أَنْ تَنْطُ ، وما فيها موضع شبر إلا وعليه ملك ساجد ، أو قائم .

21 - 25 . قوله تعالى : ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْسِرُونَ ﴾ ﴿ ٢١ ﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَ اللَّهِ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ ﴿ ٢٢ ﴾ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ ﴿ ٢٣ ﴾ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِّن مَّعِيَ وَذِكْرٌ مِّن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ ﴿ ٢٤ ﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ ﴿ ٢٥ ﴾ .

في هذه الآيات : استخفاف الله بآلهة القوم لا تحيي ولا تميت ، فلو كان في السماء والأرض آلهة غير الله معبودون لفسدتا ، والله تعالى لا يُسأل عما يفعل وجميع خلقه يُسألون . فالمشركون مدعوون لإثبات استحقاق آلهتهم التي لا تضر ولا تنفع أن تُعبد ولكنهم بعبادتهم جاهلون . والله تعالى هو الذي بيده النفع والضرر وحده ، فهو المستحق للعبادة ولكن أكثرهم لا يعلمون .

فقوله تعالى : ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْسِرُونَ ﴾ - استهزاء بآلهة لا تحيي ولا تميت .

(1) حديث صحيح . أخرجه أحمد والترمذي وابن نصر في « الصلاة » (2 / 43) ، و (1 / 44) من حديث عائشة ، وحكيم بن حزام ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1059) - (1060) .

قال مجاهد: (ينشرون: يُحيون). وقال ابن زيد: (يقول: أفي آلهتهم أحد يحيي ذلك ينشرون). قال القرطبي: (أنشر الله الميت فنُشِرَ أي أحياه فحيي).

وربما قال قائل: لقد كانوا يقرون الله عز وجل أنه خالق السماوات والأرض وأنه القادر على المقدورات كلها وعلى النشأة الأولى، إلا أنهم ينكرون البعث - وما كانوا ينسبون لآلهتهم ذلك!! فكيف يكون توجه الآية؟. الجواب: اسم القادر - عز وجل - يقتضي ذلك.

قال الزمخشري: (لكنهم بادعائهم لها الإلهية، يلزمهم أن يدعوا لها الإنشار، لأنه لا يستحق هذا الاسم إلا القادر على كل مقدور. والإنشاء من جملة المقدورات. ثم قال: وفيه باب من التهكم بهم والتوبيخ والتجهيل، وإشعار بأن ما استبعدوه من الله لا يصح استبعاده، لأن الإلهية لما صحت صَحَّ معها الاقتدار على الإبداء والإعادة).

وقال القاسمي: (سر قوله تعالى ﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾ هو التحقير، أي تحقير الأصنام بأنها أرضية سفلية).

وقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

أي: لو كان في السماء، والأرض آلهة غير الله معبودون لفسدتا. تنزه الله سبحانه عن أن يكون له شريك أو ولد، وتقدس عما يفترى الظالمون والأفاكون علواً كبيراً.

وفي التنزيل:

﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [المؤمنون: 91].

أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: [يا أبا المنذر، أي آية في كتاب الله أعظم؟ - قلت: الله ورسوله أعلم، فرددها مراراً ثم قال أبي: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ - فضرب صدري وقال: ليهنك العلم أبا المنذر، والذي نفسي بيده أن لهذه الآية لساناً وشفقتين تقدس الملك عند ساق العرش]⁽¹⁾.

وقوله تعالى: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾.

قال ابن جريج: (المعنى لا يسأله الخلق عن قضائه في خلقه، وهو يسأل الخلق عن

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (5/ 141 - 142) من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه مرفوعاً، وانظر صحيح مسلم (2/ 199) نحوه.

عملهم ، لأنهم عبيد). وقال قتادة: (لا يسأل عما يفعل بعباده ، وهم يسألون عن أعمالهم).

وفي الأثر عن علي رضي الله عنه: (أن رجلاً قال له: يا أمير المؤمنين: أيا أحب ربنا أن يعصى؟ قال: أيعصى ربنا قهراً؟ قال: أرايت إن منعني الهدى ومنحني الردى أحسن إلي أم أساء؟ قال: إن منعك حقل فقد أساء ، وإن منعك فضله فهو فضله يؤتيه من يشاء. ثم تلا الآية: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾).

وفي التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿وَهُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون: 88].

2 - وقال تعالى: ﴿قَوْلِكَ لَسْتَلْنَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٩١﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ [الحجر:

92 - 93].

وفي سنن الترمذي بسند صحيح من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [يجمع الله الناس يوم القيامة في صعيد واحد ، ثم يطلع عليهم رب العالمين ، فيقول: ألا يتبع كل إنسان ما كان يعبد...] الحديث (1).

وقوله: ﴿أَمْ أَخَذْنَا مِنْ دُونِهِ إِلهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي﴾.

أي: أم اتخذ هؤلاء المشركون من دون الله آلهة تنفع وتضر ، وتخلق وتحيي وتميت ، قل لهم - يا محمد - هاتوا دليلكم على ما تزعمون ، فهذا القرآن فيه خبر من معي مما وعدهم الله به من الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية ، وخبر من قبلي من الأمم السالفة في الكتب المتقدمة.

وعن قتادة: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ يقول: هاتوا بينتكم على ما تقولون. ﴿هَذَا ذِكْرٌ مَنْ مَعِيَ﴾ يقول: هذا القرآن فيه ذكر الحلال والحرام. ﴿وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي﴾ يقول: ذكر أعمال الأمم السالفة وما صنع الله بهم وإلى ما صاروا).

وعن ابن جريج: ﴿هَذَا ذِكْرٌ مَنْ مَعِيَ﴾ قال: حديث من معي ، وحديث من قبلي).

وقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾.

أي: بل أكثر هؤلاء المشركين يجهلون الحق فهم يعرضون عنه ولا يصغون إليه.

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (2695) - كتاب السنن - أبواب صفة الجنة ، باب ما جاء في خلود أهل الجنة ، وأهل النار ، وانظر صحيح سنن الترمذي (2072).

وعن قتادة: ﴿فَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ قال: عن كتاب الله).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾.

فيه: وحدة دعوة الرسل ، ووحدة منهاج النبوة ، فهو يتلخص بكلمة النجاة وسر السعادة في الدارين: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾.

قال قتادة: (أرسلت الرسل بالإخلاص والتوحيد ، لا يقبل منهم عمل حتى يقولوه ويقرّوا به ، والشرائع مختلفة في التوراة شريعة ، وفي الإنجيل شريعة ، وفي القرآن شريعة ، حلال وحرام . وهذا كله في الإخلاص لله والتوحيد له).

وفي التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: 36].

2 - وقال تعالى: ﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: 45].

ومن كنوز صحيح السنة في ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [أنا أولى الناس بعيسى بن مريم في الدنيا والآخرة ، والأنبياء إخوة لعلات ، أمهاتهم شتى ودينهم واحد]⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: [كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى حِمَارٍ ، فَقَالَ لِي: يَا مَعَاذُ ، أَتَدْرِي مَا حَقَّ لِلَّهِ عَلَى الْعِبَادِ ، وَمَا حَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ: حَقَّ لِلَّهِ عَلَى الْعِبَادِ: أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ: أَنْ لَا يَعْزُبَ مِنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَفَلَا أُبَشِّرُ النَّاسَ ؟ قَالَ: لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَكَلَّوْا]⁽²⁾.

الحديث الثالث: أخرج مسلم في الصحيح عن عتبان بن مالك عن النبي ﷺ قال:

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (3442)، (3443)، كتاب أحاديث الأنبياء ، ورواه مسلم وغيره .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري في صحيحه (300/13)، كتاب التوحيد ، وأخرجه مسلم في الصحيح - حديث رقم - (30)، كتاب الإيمان .

[إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَتَنَغَّى بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ] (1).

26 - 29. قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْـَٔفُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهٖ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّنْ دُونِهِ فَذَلِكُنَّ نَجْزِي جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

في هذه الآيات: إبطال ادعاء الكفار أن الله اتخذ ولداً من ملائكته ، وثناء من الله تعالى على الملائكة فهم لا يتكلمون ولا يشفعون إلا بإذنه ، وهم من ربهم مشفقون .
فقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ .

قال قتادة: (قالت اليهود: إن الله تبارك وتعالى صاهر الجنّ، فكانت منهم الملائكة، قال الله تبارك وتعالى تكذيباً لهم وردّاً عليهم: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ وإن الملائكة ليس كما قالوا ، إنما هم عباد أكرمهم الله بعبادته).

والمقصود: دحض ادعاء الكفار أن الله اتخذ ولداً من ملائكته ، تنزه سبحانه وتعالى عما يفترى الظالمون علواً كبيراً ، وتبرئة الملائكة مما ينسبون لهم ، وأنهم: ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ .

وقوله: ﴿لَا يَسْـَٔفُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ - ثناء من الله تعالى على الملائكة ، فهم لا يتكلمون إلا بما يأمره سبحانه .

وقوله: ﴿وَهُمْ بِأَمْرِهٖ يَعْمَلُونَ﴾ . قال قتادة: (لا يتكلمون إلا بما يأمرهم به ربهم ، ولا يعملون عملاً إلا به).

وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ . قال ابن عباس: (يقول: يعلم ما قدّموا وما أضاعوا من أعمالهم).

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: يعلم ما بين أيدي ملائكته مالم يبلغوه ،

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح (33)، كتاب الإيمان، من حديث عتبان بن مالك رضي الله عنه مرفوعاً . وانظر صحيح البخاري (206/11).

ما هو ، وما هم فيه قائلون وعاملون ، وما خلفهم : يقول : وما مضى من قبل اليوم مما خلفوه وراءهم من الأزمان والدهور ما عملوا فيه .

وقوله : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى ﴾ . أي : لا تشفع الملائكة إلا لمن رضي الله عنه .

قال ابن عباس : (يقول : الذين ارتضى لهم شهادة أن لا إله إلا الله) .

وقال مجاهد : (لمن رضي عنه) .

وفي التنزيل :

قوله سبحانه : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة : 255] . وكذلك قوله : ﴿ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنِ أَذِنَ لَهُ ﴾ [سبا : 23] .

وقوله : ﴿ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ . قال قتادة : (يقول : وهم من خوف الله وحذار عقابه أن يحلّ بهم مشفقون . يقول : حذرون أن يعصوه ويخالفوا أمره ونهيه) .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنْ إِلَهُ مِّنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ .

قال ابن كثير : (أي : مَنْ ادّعى منهم أنه إله من دون الله ، أي : مع الله ، ﴿ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ ، أي : كُلٌّ من قال ذلك . وهذا شرط ، والشرط لا يلزم وقوعه ، كقوله : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ ﴾ ، وقوله : ﴿ لَنْ أَشْرَكَ لِيَحْبِطَنَّ عَنْكَ ﴾ [الزمر : 65] .

30 - 33 . قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٣٠) وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣) .

في هذه الآيات : يلفت الله تعالى أنظار الكفار إلى عظيم جبروته وكمال سلطانه ، وقهره لجميع المخلوقات ، فهل رأى الجاحدون ألوهيته أو المشركون بعبادته كيف

كانت السماوات والأرض في التصاق ففتق هذه من هذه ، فجعل السماوات سبعاً ، وفصل بين سماء الدنيا والأرض بالهواء ، فإذا السماء تمطر بإذنه تعالى ، وإذا الأرض تنبت بإذنه ، وقد جعل من الماء حياة كل شيء من خلقه أفلا يؤمنون .

وجعل في الأرض الجبال تثبيتاً لها وكذلك المسالك بين الجبال يهتدون عليها في أسفارهم ومعاشهم ، والسماء سقفاً مرفوعاً محفوظاً من الشياطين ، وكثير من الناس عن هذه الآيات والنعم الكبيرة معرضون . وهو الذي خلق الليل والنهار وكذلك الشمس والقمر وكل في دوران منتظم يجرون .

فعن ابن عباس : (قوله : ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ ... الآية ، يقول : كانتا ملتصقتين ، فرفع السماء ووضع الأرض). قال : (كانتا ملتزقتين ، ففتقهما الله). وقال قتادة : (كانتا جميعاً ، ففصل الله بينهما بهذا الهواء).

قال القاسمي : (وقال بعض علماء الفلك في تفسير هذه الآية : ﴿وَهِيَ دُخَانٌ﴾⁽¹⁾ أي ذرات ، أي غازات أي سديم . ثم تجاذبت كما يتجمع السحاب فصارت كتلة واحدة . مصداقاً لقوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا﴾ أي كتلة واحدة . فدارت ثم تقطعت وتفصلت بالقوة الدافعة ، فتكونت الأرض والسماوات ، تصديقاً لقوله تعالى : ﴿فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ أي فصلناهما ، فصارتا كرات من الماء في يومين . ثم قال : وفي هذا الوقت كان عرشه على الماء . أي كان ملكه وسلطانه على الماء والله أعلم).

وقوله : ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ .

أي : وأحيينا بالماء كل شيء يروونه في هذه الحياة الدنيا من البشر والبهائم والزرع والثمار والأشجار وغير ذلك . أفلا يدعوهم ذلك إلى أن يصدقوا ربهم تعالى بالإيمان ؟!

وعن قتادة : (﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ قال : كل شيء حي خلق من الماء).

(1) والآية بتامها : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت :

قال ابن جرير: (وقوله: ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ يقول: أفلا يصدقون بذلك ، ويقرون بالوَهْم من فعل ذلك ويفردونه بالعبادة).

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾.

أي: وكذلك جعلنا في الأرض الجبال الشامخات الثابتات كيلا تتكفأ الأرض بالناس. والرواسي: جمع راسية ، وهي الثابتة. قال قتادة: (رواسي: أي جبالاً). قال: (كانوا على الأرض تمور بهم ، لا تستقرّ ، فأصبحوا وقد جعل الله الجبال ، وهي الرواسي أوتاداً للأرض).

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾. الفجاج: المسالك ، واحدها فجّ. أي: وكذلك جعلنا في الأرض مسالك بين الجبال يتحركون عليها لحاجاتهم ومعاشهم ، ويهتدون أثناء السير فيها إلى أسفارهم.

قال ابن عباس: (﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا﴾ سبلاً ، قال: بين الجبال). وقال قتادة: (﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا﴾: أي أعلاماً. وقوله: ﴿سُبُلًا﴾ أي طرقاً ، وهي جمع السبيل).

قال ابن كثير: (وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا﴾ ، أي: ثغراً في الجبال يَسْلُكُونَ فيها طُرُقاً من قُطْرٍ إلى قُطْرٍ ، وإقليم إلى إقليم ، كما هو المشاهد في الأرض ، يكون الجبلُ حائلاً بين هذه البلاد وهذه البلاد ، فيجعل الله فيه فَجْوةً لغيره ، لِيَسْلُكَ النَّاسُ فيها من هاهنا إلى هاهنا ، ولهذا قال: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾).

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾. قال مجاهد: (مرفوعاً). وقال قتادة: (سقفاً مرفوعاً ، وموجاً مكفوفاً). والمقصود: ومن آياتنا كذلك أن جعلنا السماء سقفاً على الأرض كالقبة عليها ﴿مَحْفُوظًا﴾ عالياً محروساً من أن يُنَال. قال ابن جرير: (يقول: حفظناها من كل شيطان رجيم).

وقوله: ﴿وَهُمْ عَنْ عَائِلَتِهَا مُعْرِضُونَ﴾. قال مجاهد: (الشمس والقمر والنجوم آيات السماء). أي: وهم عن هذه الآيات العظيمة التي تحويها السماء ذات الاتساع الكبير والارتفاع الشاهق المثير ، من كواكب ونجوم ، وشمس وقمر ، ومجرات وأفلاك ، ذات حركة ودوران ، ومسارات لها انتظام ، لا يتفكرون في بارئها وصانعها ،

ولا يعتبرون بمبدعها ومُسَيِّرِها ، ولا ينتبهون للوازم ذلك كله من أفراد الله - تعالى -
العظيم القهار بالعبادة والمحبة والطاعة والإخبات .

وفي التنزيل :

1 - قال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴾ [ق : 6].

2 - وقال تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا ﴾ [الشمس : 5].

3 - وقال تعالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف : 105].

وفي مسند الطيالسي وسنن البيهقي بسند حسن عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما
أن رسول الله ﷺ قال : [تفكروا في آلاء الله ، ولا تفكروا في الله] ⁽¹⁾.

ورواه أبو نعيم من حديث ابن عباس بلفظ : [تفكروا في خلق الله ، ولا تفكروا في
الله] .

وله شاهد آخر عند أبي نعيم في «الحلية» من حديث عبد الله بن سلام مرفوعاً ،
بلفظ : [لا تفكروا في الله ، وتفكروا في خلق الله ، فإن ربنا خلق ملكاً ، قدماه في
الأرض السابعة السفلى ، ورأسه قد جاوز السماء العليا ، ما بين قدميه إلى ركبتيه مسيرة
ست مئة عام ، وما بين كعبيه إلى أخمص قدميه مسيرة ست مئة عام ، والخالق أعظم
من المخلوق] ⁽²⁾.

وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ .

أي : وهو سبحانه خالق الليل بسكونه وظلامه ، وخالق النهار بضياءه وأنسه ،
ويطوّل هذا تارة ويقصّره أخرى ، والثاني كذلك ، وخلق الشمس وحركتها وضياءها ،
وخلق القمر ومنازله وحركته ، وكل في فلك يسبحون . قال مجاهد : (يَجْرُونَ) .

(1) حديث حسن . أخرجه البيهقي في «الشعب» (75 / 1) ، والطبراني في «الأوسط» (6456) ، ورواه
الطيالسي وغيره . انظر السلسلة الصحيحة (1788) ، وصحيح الجامع (2972) - (2973) .
(2) إسناده حسن في الشواهد . أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (66 / 6 - 67) من حديث عبد الله بن سلام
مرفوعاً ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ، حديث رقم ، (1788) وشواهد .

وقال ابن عباس: (يدورون). والفلك في لغة العرب: كل شيء دائر.

قال القرطبي: (أي يجرون ويسيرون بسرعة كالسباح في الماء).

وفي التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا آتِلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: 40].

2 - وقال تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَمَلَ آتِلُ سَكَا وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: 96].

34 - 35. قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرٍّ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ ﴿٣٥﴾.

في هذه الآيات: تولى الله نصر دينه فهو الحي الذي لا يموت والأنبياء والرسل يموتون. وكل نفس ذائقة الموت وإنما الناس في اختبار ثم إلى ربهم يرجعون.

فقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرٍّ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾. ردُّ على المشركين الذين كانوا يدفعون نبوته - عليه الصلاة والسلام - ويقولون: شاعر نتربص به ريب المنون. قال القرطبي: (فقال الله تعالى: قد مات الأنبياء من قبلك ، وتولى الله دينه بالنصر والحيطة ، فهكذا نحفظ دينك وشرعك).

وفي التنزيل:

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٣٦﴾ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: 26 - 27].

وقوله: ﴿أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ أي: أفإن مت يا محمد فهؤلاء يؤمّلون أن يعيشوا بعدك أو يخلدوا في الأرض بعد غيابك؟! لا، لن يكون هذا ، بل هم ميتون بكل حال عشت أو مت ، والكل إلى فناء.

وقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾. قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: كل نفس منقوسة من خلقه ، معالجة غصص الموت ، ومتجرعة كأسها).

وقوله: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ قال ابن عباس: (بالرخاء والشدة ، وكلاهما بلاء). وقال قتادة: (يقول: نبلوكم بالشر بلاء والخير فتنة).

وقال ابن زيد: (نبلوهم بما يحبون وبما يكرهون ، نختبرهم بذلك لننظر كيف شكرهم فيما يحبون ، وكيف صبرهم فيما يكرهون). وعن علي عن ابن عباس: (قوله: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ﴾ يقول: نبتليكم بالشدة والرخاء ، والصحة والسقم ، والغنى والفقر ، والحلال والحرام ، والطاعة والمعصية ، والهدى والضلالة ، وقوله: ﴿وَاللَّيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ يقول: وإلينا يُردّون فيجازون بأعمالهم ، حسناتها وسيئها).

36- 40. قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْكُمْ فَإِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ﴾ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُوفُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾.

في هذه الآيات: استهزاء المشركين بالرسول وهم أحق أن يُستهزأ بهم. والإنسان خُلِقَ مِنْ عَجَلٍ والكفار المستعجلون للعذاب سيرون ما ينزل بهم. وتقريباً من الله لهؤلاء المنكرين البعث والعذاب ما هم مقبلون عليه من العذاب المهيّن. فقولته: ﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْكُمْ فَإِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾.

قال القاسمي: (عُنِيَ بهذه الآية مستهزئو قريش ، كأبي جهل وأضرابه ممن كان يسخر من رسالته صلوات الله عليه ، ويتغيط لسبّ آلِهَتِهِمْ وتسفيه أحلامهم).

وقوله: ﴿وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ﴾. أي: فهم أحق أن يستهزأ بهم.

قال ابن جرير: (يقول: فيعجبون من ذكرك يا محمد آلِهَتِهِم التي لا تضرّ ولا تنفع بسوء ﴿وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ﴾ الذي خلقهم وأنعم عليهم ، ومنه نفعهم ، ويده ضَرَّهم ، وإليه مرجعهم بما هو أهلهم منهم أن يذكره به كافرون).

وفي التنزيل نحو ذلك:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِذَا يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ ﴿٤١﴾ إِنْ كَادَ

لِيُضِلَّنَا عَنْ إِلَهِتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤١﴾
[الفرقان: 41 - 42].

وقوله: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾. قال قتادة: (خلق عجولاً).

قال النسفي: (والظاهر أن المراد الجنس ، وأنه ركب فيه العجلة ، فكأنه خلق من العجل ، ولأنه يكثر منه).

قلت: والذي يبدو من السياق أن المقصود تسرع الإنسان في الجنابة على نفسه قبل الثاني والبحث ، فيستجيب لوسوسة شيطانه في نفخه فيه الكبر والاستهزاء بغيره ولو كان غيره يدعو إلى الحق ، وهذا حال المشركين حين قابلوا الوحي والنبوة بالعجب والتنتع واللعجلة وركبوا موجة الكبر التي حركها إبليس في نفوسهم حتى ران على قلوبهم وكان الهلاك بإصرارهم.

وقوله: ﴿سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾.

هو جواب الله تعالى لأولئك المتعجلين نزول العذاب بهم والانتقام منهم . وهنا نكتة لطيفة كما قال ابن كثير رحمه الله: (والحكمة في ذكر عجلة الإنسان هاهنا أنه لما ذكر المستهزئين بالرسول صلوات الله وسلامه عليه وقع في النفوس سرعة الانتقام منهم واستعجلت ذلك فقال الله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ لأنه تعالى يُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، يُوجَلْ ثم يُعَجَلْ ، وَيُنْظَرُ ثم لا يُؤْخَرُ ، ولهذا قال: ﴿سَأُورِيكُمْ آيَاتِي﴾ ، أي: نَقِمي وحُكْمي واقتداري على مَنْ عصاني ، ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾).

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

إخبار من الله سبحانه عن سلوك هؤلاء المشركين كَمَنْ قبلهم في استعجال الرسل بوقوع العذاب بهم ، تكذيباً منهم بذلك وجحوداً واستبعاداً.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُوتُ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾.

تقريب من الله سبحانه لهؤلاء المنكرين البعث والحساب والعذاب لما هم مقبلون عليه من النكال بوصفه أحوالهم وهم في غمرات الجحيم ، لا يستطيعون رد النار عن وجوههم ولا عن ظهورهم ولا سبيل لهم يومئذ إلى فرج أو نصر أو خلاص مما هم فيه .

وفي التنزيل :

- 1 - قال تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ قَوْفِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: 16].
- 2 - وقال تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ قَوْفِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: 41].
- 3 - وقال تعالى: ﴿سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطَرَانٍ وَتَفْشَىٰ وُجُوهُهُمْ النَّارُ﴾ [إبراهيم: 50].

وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: [يقول الله تبارك وتعالى لأَهْوَنَ أهل النار عذاباً: لو كانت لك الدنيا وما فيها أكنت مفتدياً بها؟ فيقول: نعم، فيقول: قد أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب آدم أن لا تشرك ولا أدخلك النار، فأبيت [إلا الشرك]⁽¹⁾.

وفي لفظ آخر: [يقول الله لأهون أهل النار عذاباً يوم القيامة: يا ابن آدم! كيف وجدت مضجعك؟ فيقول: شر مضجع...] الحديث.

وفي جامع الترمذي ومسنند أحمد بسند حسن عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: [يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال، يغشاهم الذل من كل مكان، يُساقون إلى سجن في جهنم يسمى بولس، تعلوهم نار الأنيار، يُسْقَوْنَ من عُصَاةِ أهل النار، طينة الخبال]⁽²⁾.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾.

أي: بل تأتيهم النار فجأة كما تأتيهم الساعة بغتة فلا يجدون أنفسهم إلا وقد أحيط بهم في سكير النار ولهبها وسمومها فلا حيلة حينئذ لردّها ولا هم يمهلون أو يؤخرون لتوبة واعتذار، فقد فات أوان التوبة والاستغفار.

قال الفراء: (فتبتهتهم: أي تحيرهم). وقيل: فتفجؤهم. وقال الجوهري: (بَهْتَهُ بَهْتًا أخذه بغتة). والمقصود: أن النار تغشاهم فجأة وتلفح وجوههم حتى تحيرهم في اندفاعها نحوهم، ولا حيلة عندهم لردّها أو دفعها. ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ أي: ولا يؤخر عنهم هذا الحال السيئ ساعة واحدة. وقال القرطبي: (أي: لا يمهلون ويؤخرون لتوبة واعتذار).

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (134/8)، وانظر مختصر صحيح مسلم (1955) - كتاب صفة القيامة، من حديث أنس بن مالك.

(2) حديث حسن. رواه أحمد في المسند، والترمذي في السنن - حديث رقم - (2492). انظر صحيح سنن الترمذي (2025)، وصحيح الجامع (7896). وقد مضى تخريجه.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : [نارُكم هذه التي يوقد ابنُ آدم ، جزء من سبعين جزءاً من حر جهنم . قالوا : والله إن كانت لكافية يا رسول الله ، قال : فإنها فضّلتَ عليها بتسعة وستين جزءاً كلها مثل حرها] (1).

41- 45. قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ (٤١) قُلْ مَن يَكْلُوْكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ (٤٢) أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِّنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ ﴾ (٤٣) بَلْ مَنَعَنَا هَؤُلَاءُ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ (٤٤) قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴾ (٤٥).

في هذه الآيات: تثبيت الله تعالى نبيه ﷺ بأن له في طريق الأنبياء قبله أسوة ، فالمكر سيحقيق بالمستهزئين . قل لهؤلاء المشركين - يا محمد -: من الذي يحفظكم بالليل والنهار من أمر الرحمن إذا نزل بكم ، بل أنتم عن ذكر ربكم وشكره معرضون . فهل لكم آلهة تمنع نزول العذاب بكم ؟ أم هي هزيلة لا تستطيع نصر أنفسها ولا هي مصحوبة بالنصر والتأييد ؟ ! إنما غر هؤلاء متاع الحياة الدنيا فهلاً نظروا إلى أطراف البلاد كيف يفتحها الله للمسلمين ، ويتعظوا بهذا الوحي الكريم ، وإنما الصم لا يسمعون ولا يعقلون ما ينذرون .

فقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ .

تسلية من الله تعالى لرسوله ﷺ عما يلقاه من إيذاء المشركين واستهزائهم وتكذيبهم .

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح (8/ 149 - 150) . وانظر مختصر صحيح مسلم - حديث رقم - (1976) - كتاب صفة النار .

قال النسفي: (سلى رسول الله ﷺ عن استهزائهم به بأن له في الأنبياء أسوة ، وأن ما يفعلونه به يحق بهم كما حاق بالمستهزئين بالأنبياء ما فعلوا).

وفي التنزيل:

﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنَّهُمْ نَصَرْنَا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبِيِّ الْأُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: 34].

وقوله: ﴿قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾.

قال ابن عباس: (يحرسكم). وقال قتادة: (قل من يحفظكم بالليل والنهار من الرحمن).

والخطاب لهؤلاء المشركين المستعجلين العذاب. أي: قل لهم يا محمد ، من يحفظكم ويحرسكم بالليل إذا نمت ، وبالنهار إذا انتشرت من أمر الرحمان إن نزل بكم ، ومن عذابه إن وقع عليكم .

وقوله: ﴿بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُّعْرِضُونَ﴾. قال ابن كثير: (أي: لا يعترفون بنعمة عليهم وإحسانه إليهم ، بل يُعرضون عن آياته وآلائه). وقال القرطبي: ﴿بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي عن القرآن. وقيل: عن مواعظ ربهم. وقيل: عن معرفته. ﴿مُّعْرِضُونَ﴾ (لا هم غافلون).

وقوله: ﴿أَمَرَهُمُ الْهَيَّةُ تَمْنَعُهُمْ مِّنْ دُونِنَا﴾.

أي: أم لهؤلاء المشركين آلهة تقدر على نصرهم إذا نزل بهم عذابنا وحل بهم سخطنا ونقمتنا.

وقوله: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ﴾. قال قتادة: (يعني الآلهة).

أي: بل هم من الضعف والمهانة والعجز بحيث لا تستطيع آلهتهم الهزيلة المخلوقة الدفاع عنهم ولا عن نفسها إذا قضى الله تعالى نزول العذاب بهم .

وقوله: ﴿وَلَا هُمْ مِنَّا يَصْحَبُونَ﴾. قال مجاهد: (لا ينصرون). أو قال: (ولا هم يحفظون).

وعن ابن عباس: (يقول: ولا هم منا يُجارون). وقال قتادة: (لا يُصحبون من الله بخير).

قال القاسمي: (ومعناه: كيف تستطيع آلهتهم التي يدعونها من دوننا أن تمنعهم

منا ، وهي لا تستطيع نصر أنفسها ولا هي بمصحوبة منا بالنصر والتأييد).

وقوله: ﴿ بَلْ مَنَعْنَا هَؤُلَاءَ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۚ ۞ ﴾ .

قال ابن كثير: (يقول تعالى مخبراً عن المشركين: إنما غرَّهم وحملهم على ما هم فيه من الضلال أنهم مُتَّعُوا في الحياة الدنيا ونُعْمُوا ، وطال عليهم العُمر فيما هم فيه ، فاعتقدوا أنهم على شيء).

وقوله: ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ ۞ ﴾ .

قال الحسن البصري: (يعني بذلك ظهور الإسلام على الكفر). أي: أفلا يرى هؤلاء المشركون - يا محمد - كيف نخرب البلاد في النواحي المجاورة والأرجاء المختلفة بقهرنا أهلها وغلبهم وإجلالهم. قال القاسمي: (أي نقص أرض الكفر فنخرَّبُها من نواحيها بقهرنا أهلها وغلبتنا لهم وإجلالهم عنها بالسيوف ، فيعتبروا بذلك ويتعظوا به ويحذروا منا أن نزل من بأسنا بهم نحو الذي قد أنزلنا بمن فعلنا ذلك به من أهل الأطراف).

وقوله: ﴿ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ۚ ۞ ﴾ - تقريرٌ للمشركين بغرورهم وجهلهم بالله وقدرته وجبروته. قال قتادة: (يقول: ليسوا بغالبين، ولكن رسول الله ﷺ هو الغالب).

وقوله: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ ۚ ۞ ﴾ . أي بهذا التنزيل العظيم. قال قتادة: (أي بهذا القرآن).

وقوله: ﴿ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ ۚ ۞ ﴾ . أي لا يجدي هذا الإنذار عمن ختم الله على قلبه وطمس على سمعه وجعل على بصره غشاوة.

قال سعيد ، عن قتادة: (يقول: إن الكافر قد صمَّ عن كتاب الله لا يسمعه ، ولا ينتفع به ولا يعقله ، كما يسمعه المؤمن وأهل الإيمان).

46 - 47. قوله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَوَلَيْنَا

إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ۞ .

في هذه الآيات: إقرار المكذبين بذنوبهم عند حلول العذاب بهم ، والوزن يوم القيامة هو الحق فلا تظلم نفس مثقال ذرة وكفى بالله حفيظاً.

فقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا مَسَّتْهُمُ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.

النفحة: النصيب والحظ. قال الرازي: (ونفحة من العذاب: قطعة منه). وقال قتادة: (يقول: لئن أصابتهم عقوبة). والمعنى: ولئن نزل بهؤلاء المكذبين قطعة من عذاب الله لرأيتهم يعترفون بذنوبهم ويقرّون أنهم كانوا في هذه الحياة الدنيا ظالمين. وقوله: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾.

قال ابن كثير: (أي: ونضع الموازين العادل ليوم القيامة. الأكثر على أنه إنما هو ميزان واحد، وإنما جمع باعتبار تعدّد الأعمال الموزونة فيه).

قلت: ويؤيد هذا ما روى الحاكم بسند صحيح عن سلمان، عن النبي ﷺ قال: [يوضع الميزان يوم القيامة فلو وزن فيه السماوات والأرض لوسعت، فتقول الملائكة: يا رب لمن وزن هذا؟ فيقول الله تعالى: لمن شئت من خلقي، فتقول الملائكة: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك، ويوضع الصراط مثل حد موسى، فتقول الملائكة: من تجيز على هذا؟ فيقول: من شئت من خلقي، فيقولون: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك]⁽¹⁾.

وفي جامع الترمذي بسند صحيح عن عائشة: [أن رجلاً قعد بين يدي رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله: إن لي مملوكين، يكذبونني، ويخونونني، ويعصونني، وأشتهم وأضربهم، فكيف أنا منهم؟ قال: «يُحْسَبُ مَا خَانُوكَ وَعَصَوْكَ وَكَذَّبُوكَ، وَعِقَابُكَ إِيَّاهُمْ، فَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ بِقَدْرِ ذُنُوبِهِمْ كَانَ كِفَافاً لَّكَ وَلَا عَلَيْكَ، وَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ دُونَ ذُنُوبِهِمْ كَانَ فَضْلاً لَّكَ، وَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ فَوْقَ ذُنُوبِهِمْ أَقْتَصَّ لَهُمْ مِنْكَ الْفَضْلُ».

قال: فتنحى الرجل، فجعل يبكي ويهتف، فقال رسول الله ﷺ: «أما تقرأ كتاب الله: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً﴾ الآية.

فقال الرجل: والله يا رسول الله، ما أجد لي ولهم شيئاً خيراً من مفارقتهم، أشهدك أنهم أحرار كلهم]⁽²⁾.

(1) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (586/4)، والآجري في «الشرعة» (382)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة - حديث رقم - (941).

(2) صحيح الإسناد. انظر صحيح سنن الترمذي (2531) - كتاب التفسير - سورة الأنبياء.

وقوله: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾.

أي: فلا يظلم الله نفساً وإن كان الذي له من عمل الحسنات أو السيئات وزن حبة من خردل جئنا بها فأحضرناها. قال ابن زيد: (كتبناها وأحصيناها له وعليه).

وقال: (يؤتى بها لك وعليك، ثم يعفو إن شاء أو يأخذ، ويجزي بما عمل له من طاعة). وعن مجاهد: ((أَتَيْنَا بِهَا)) قال: (جَازَيْنَا بِهَا).

وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَسِيسِينَ﴾. أي عالمين حافظين، ولا أحد أسرع حساباً منا.

وفي التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 40].

2 - وقال تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: 49].

3 - وقال تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: 46].

4 - وقال تعالى: من قيل لقمان - : ﴿يَبْنَىٰ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَكِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: 16].

ومن كنوز السنة العطرة في آفاق ذلك أحاديث:

الحديث الأول: روى مسلم في صحيحه عن أبي ذر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: [يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا] الحديث (1).

الحديث الثاني: أخرج الترمذي وابن ماجة بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله - عز وجل - يستخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشُرُ عليه تسعة وتسعين سجلاً، كُلُّ سَجَلٍ مَدُّ البصر، ثم يقول: أُنْكِرُ من هذا شيئاً؟ أَظْلَمْتُكَ كَتَبْتِي الحَافِظُونَ؟ قال: لا، يارب. قال: أفلك عُذْرٌ أو حسنة؟ قال: فَيُبْهَتُ الرجلُ فيقول: لا، يا رب. فيقول: بلى، إِنَّ لك عندنا حسنة واحدة، لا ظلم اليوم عليك. فَيُخْرِجُ له بطاقة فيها: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله»، فيقول: أَخْضِرْوه.

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (17/8)، وأخرجه أحمد في المسند (5/160).

فيقول: يا ربِّ ، ما هذه البطاقةُ مع هذه السِّجَلاتُ! فيقال: إنك لا تُظلم .
 قال: فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة ، قال: فطاشت السجلات وثقلت
 البطاقة . قال: ولا يثقل شيءٌ باسم الله الرحمن الرحيم⁽¹⁾ .
 الحديث الثالث: أخرج الشيخان وأحمد والترمذي عن أبي هريرة قال: قال
 رسول الله ﷺ: [كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى
 الرحمن: سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم]⁽²⁾ .

48 - 50. قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءَ وَذِكْرًا
 لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَذَا ذِكْرٌ
 مُّبَارَكٌ أُنزِلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَمْ تُنْكِرُونَهُ ﴾ .

في هذه الآيات: اشتمال التوراة على الفرقان بين الحق والباطل ، والهدى
 والضلال ، والذكرى للمؤمنين الذين هم من الساعة مشفقون . وهذا القرآن كذلك كتاب
 مبارك في غاية الإعجاز والجلء والوضوح فعجب من قوم له ينكرون .
 فقوله: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ ﴾ . قال مجاهد: (الكتاب) .
 وقال قتادة: (الفرقان: التوراة حلالها وحرامها ، وما فرق الله به بين الحق
 والباطل) .

وقال ابن زيد: (الفرقان: الحق آتاه الله موسى وهارون ، فرق بينهما وبين فرعون ،
 قضى بينهم بالحق ، وقرأ: ﴿ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ ﴾ [الأنفال: 41] قال: يوم
 بدر) . قال: (يعني النصر) .

والآية كغيرها من الآيات يقرن الله تعالى بين ذكر موسى ومحمد عليهما الصلاة
 والسلام وبين كتابيهما .

(1) حديث صحيح . أخرجه الترمذي (2639) ، وابن ماجه (4300) ، وأحمد (213/2) ، والحاكم
 (1/6 - 529) ، وابن حبان (225) ، ورجاله ثقات .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (6406) ، (7563) ، ومسلم (2694) ، والترمذي (3467) ، وابن
 ماجه (3806) ، وأحمد (232/2) ، وابن حبان (831) .

قال ابن كثير: (وجامعُ القول في ذلك أن الكتب السماوية تشتملُ على التفرقة بين الحق والباطل ، والهُدَى والضلال ، والغَيِّ والرشاد ، والحلال والحرام ، وعلى ما يحصلُ نوراً في القلوب ، وهدايةً وخوفاً وإنباءً وخشية ، ولهذا قال: ﴿الْفُرْقَانُ وَضِيَاءٌ وَذِكْرٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: تذكيراً لهم وعظة).

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾.

يشتمل على ركني النجاة: خشية الله بالغيب ، والعمل والاستعداد للقاءه يوم القيامة. فالإيمان: قول وعمل. والقول قولان: قول القلب وقول اللسان. والعمل عملان: عمل القلب وعمل الجوارح.

وفي التنزيل:

1- قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: 12].

2- وقال تعالى: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ [ق: 33].

وقوله: ﴿وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾. أي: خائفون وجلون حذرون.

أخرج أبو نعيم في «الحلية» بسند حسن في الشواهد عن شداد بن أوس أن رسول الله ﷺ قال: [قال الله عز وجل: وعزتي وجلالي لا أجمع لعبدي أمنين ولا خوفين ، إن هو آمنني في الدنيا أخفته يوم أجمع فيه عبادي ، وإن هو خافني في الدنيا أمنت يوم أجمع فيه عبادي]⁽¹⁾.

وقوله تعالى: ﴿وَهَذَا ذِكْرُ مُبَارَكٍ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾. قال قتادة: (أي هذا القرآن).

أي: أفأنتم معشر العرب منكرون لهذا القرآن المبارك الذي أنزله الله تعالى على محمد ﷺ كما أنزل التوراة من قبل على موسى عليه الصلاة والسلام ، وهو الكتاب المعجز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وفيه ذكر أخبار الأمم وأخبار ما يجري وما سيكون إلى يوم القيامة ، وأخبار كل شيء ، فكيف تنكرونه وهو في هذه الغاية من الجلاء والوضوح والبيان والإعجاز.

51 - 56. قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ

(1) حسن لشواهد. أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (98/6) ، والبخاري كما ذكر الهيثمي في «المجمع» (308/10) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (742).

عَلَمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا
 آبَاءَنَا لَهَا عِبَادِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا
 بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ
 مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ .

في هذه الآيات: إلهام الله تعالى إبراهيم ﷺ الحق من صغره ، وثناؤه تعالى عليه في
 قوة محاججته لأبيه وقومه في عكوفهم على عبادة الأوثان والأصنام ، وترك عبادة
 الرحمان ، فاطر السماوات والأرض ، وله الخلق والأمر ، وهو رب جميع الأنام .

فقوله : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ . قال مجاهد : (هديناه صغيراً) .

وعن قتادة قال : (يقول: آتيناه هداة) . والمقصود: هداه الله من صغره وألهمه الحق
 وقوة الحجة ليفيد منها عند جداله قومه .

كما في التنزيل :

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾
 [الأنعام : 83] .

وقوله : ﴿ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾ . قال ابن جرير : (يقول: وكنا عالمين به أنه ذو يقين
 وإيمان بالله وتوحيد له ، لا يشرك به شيئاً) . والمقصود: أنه كان أهلاً لهذا الاختصاص
 من الله تعالى .

وقوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ .

قال مجاهد : (الأصنام) . قال ابن كثير : (هذا هو الرُّشد الذي أوتي به من صغره ،
 الإنكار على قومه عبادة الأصنام من دون الله عز وجل ، فقال : ﴿ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ
 لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ ، أي : مُعْتَكِفُونَ على عبادتها) .

وقوله تعالى : ﴿ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عِبَادِينَ ﴾ .

احتجاج فاسدٌ من القوم إذ اعتبروا صنيع الآباء الضلال حجة تُسَوِّغُ لهم عبادتهم
 الأوثان من بعدهم .

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ .

إخبارٌ من الله تعالى عن قول إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - مجيباً لهم في

احتجاجهم الفاسد على عبادة الأوثان بصنيع الآباء: لقد كنتم أنتم وآباؤكم في منهاج عبادتكم في ذهاب عن سبيل الحق وجور عن قصد السبيل ، لا يخفى ذلك على عاقل ، بل هو ظاهر بين .

وقوله تعالى: ﴿ قَالُوا أَجِئْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ ﴾ .

قال النسفي: (أي أجاد أنت فيما تقول أم لاعتب ، استعظماً منهم إنكاره عليهم ، واستبعاداً لأن يكون ما هم عليه ضلالاً) .

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ .

أي: بل ربكم أيها القوم رب السماوات والأرض الذي خلقهم وخلق ما فيهن من المخلوقات ، ومن جعلتها أصنامكم وآلهتكم الضعيفة التافهة التي تصرفون لها العبادة بسبب خفة عقولكم وفراغ قلوبكم من الإيمان بالله الخالق العظيم الواحد الأحد ، وأنا أشهد أنه لا إله غيره ، ولا رب سواه ، وإليه كل الخلق والأمر وله صحيح العبادة .

57 - 70. قوله تعالى: ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ۖ ﴾

فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مِنْ فَعَلِ هَٰذَا يَا إِلَهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَىٰ عَيْنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَٰذَا يَا إِلَهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَتَشَلُّوهُمْ إِن كَانَُوا يُنْطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلَ الْهَتَكُم إِن كُنْتُمْ فَعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ .

في هذه الآيات: تحطيم إبراهيم عليه السلام أصنام قومه ، واستخفافه بعقولهم عند

محاكمتهم له ، واجتماعهم على تحريقه فأنجاه الله - قال : يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم - ، وَرَدَّ كَيْدَهُمْ فِي نَحْرِهِمْ وَجَعَلَهُمُ الْآخِسِينَ .

فقوله تعالى : ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْبِرِينَ ﴾ .

قال النسفي : ﴿ وَتَاللَّهِ ﴾ أصله والله ، وفي التاء معنى التعجب من تسهيل الكيد على يده مع صعوبة وتعذره لقوة سلطة نمرود . وقال ابن كثير : (أقسم الخليل قسماً أَسْمَعُهُ بعض قومه : ليكيدَنَّ أصنامَهُمْ ، أي : ليحرصَنَّ على أذاهم وتكسيرهم بعد أن يُولُوا مُدْبِرِينَ ، أي : إلى عيدهم . وكان لهم عيدٌ يخرجون إليه) .

قال السُّدِّيُّ : (لما اقترب وقتُ ذلك العيد قال أبوه : يا بُنَيَّ ، لو خَرَجْتَ معنا إلى عيدنا لأعجبك ديننا ! فخرج معهم ، فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه إلى الأرض وقال : إني سقيم . فجعلوا يمشون عليه وهو صريرٌ فيقولون : مه ! فيقول : إني سقيم . فلما جاز عاَمَتَهُمْ وَبَقِيَ ضَعْفَاؤُهُمْ ، قال : ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ ﴾ ، فسمعه أولئك) .

وقوله : ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَاً ﴾ . قال ابن عباس : (يقول : حُطاماً) . وقال مجاهد : (كالصَّريم) .

وقال قتادة : (أي قطعاً) . والمقصود : فكسر أصنامهم وجعلهن قطعاً - من الجذ وهو القطع ، جمع جذاة - .

وقوله : ﴿ إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ .

قال ابن عباس : (إلا عظيماً لهم عظيم آلهتهم) . وقال مجاهد : (جعل إبراهيم الفأس التي أهلك بها أصنامهم مسندة إلى صدر كبيرهم الذي ترك) . قال قتادة : (كادهم بذلك لعلهم يتذكرون أو يبصرون) .

والمقصود : تَرَكَ كَبِيرَ الأصنام قاصداً لعلهم يرجعون إليه فيسألونه عن كاسرها فيتبين لهم عجزه ، أو لعلهم يظنون أنه هو غار لنفسه وَأَنْفَ أَنْ تُعْبَدَ معه هذه الأصنام الصَّغَارُ فكسرها . وقيل : لعلهم يرجعون إلى إبراهيم أو إلى الله . والتفسير الأول أنسب للسياق ومكيدة إبراهيم ﷺ بهم .

وقوله تعالى : ﴿ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُمْ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

قال القاسمي : ﴿ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا ﴾ أي هذا الفعل الفظيع ﴿ بِآلِهَتِنَا إِنَّهُمْ لَمِنَ

الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾ أي لجرأته على إهانتها وهي الجديرة عندهم بالتعظيم. أو لإفراطه في التجديذ والحطم ، وتماديه في الاستهانة بها. أو بتعريض نفسه للهلكة. والاستفهام للإنكار والتوبيخ والتشنيع).

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾. أي: سمعنا فتى يعيبيهم يقال له إبراهيم.

قال ابن جريج: (يذكرهم يعيبيهم). وقال ابن إسحاق: (سمعناه يسبها ويعيبيها ويستهزئ بها ، لم نسمع أحداً يقول ذلك غيره ، وهو الذي نظن صنع هذا بها).

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا قَاتُوا بِهِ عَلَىٰ آعِينَ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾. أي: أحضروه على مرأى الناس ليشهدوا عقوبته.

قال ابن إسحاق: ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾: أي ما يصنع به). قال ابن كثير: (وكان هذا هو المقصود الأكبر لإبراهيم عليه السلام ، أن يُبَيِّنَ في هذا المحفل العظيم كثرة جهلهم وقلة عقولهم في عبادة هذه الأصنام ، التي لا تدفع عن نفسها ضرراً ، ولا تستطيع لها نصراً ، فكيف يُطَلَّبُ منها شيء من ذلك).

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا يَا إِلَهَنا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ ﴿٥٨﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُمُ كِبَرُهُمْ هَذَا فَشَلُّوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْظِقُونَ﴾.

أي: سألوهم في مشهد الناس أحقاً أنت الذي فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم؟! - وإنما أرادوا إقامة البينة عليه ثم عقوبته أمام الملأ ليكون عبرة لمن يعتبر - فكادهم صلوات الله وسلامه عليه بإجابة ذكية بأن نسب الفعل إلى كبيرهم ليضعهم أمام تفاهة منهجهم في التفكير والعبادة. قال قتادة: (قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُمُ كِبَرُهُمْ هَذَا﴾... الآية ، وهي هذه الخصلة التي كادهم بها). وقال ابن إسحاق: (غضب من أن يعبدوا معه هذه الصغار وهو أكبر منها ، فكسروهم).

قال القرطبي: (إن كانوا ينطقون فاسألوهم. فعلق فعل الكبير بنطق الآخرين ، تنبيهاً لهم على فساد اعتقادهم. كأنه قال: بل هو الفاعل إن نطق هؤلاء. وقيل: بين أن من لا يتكلم ولا يعلم لا يستحق أن يعبد).

ولا شك أن قول إبراهيم ﷺ ذلك من المعاريض ، وفي المعاريض مندوحة عن الكذب.

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ إِلَّا ثَلَاثًا]⁽¹⁾.

وفي الصحيحين والمسند عنه مرفوعاً: [لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَّا ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ: ثِنْتَيْنِ مِنْهُنَّ فِي ذَاتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، قَوْلُهُ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: 89]، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُمْ كَيْدُكُمْ هَذَا﴾ [الأنبياء: 63]، وقال: بَيْنَا هُوَ ذَاتَ يَوْمٍ وَسَارَةً إِذْ أَتَى عَلَى جَبَّارٍ مِنَ الْجَبَابِرَةِ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّ هَذَا رَجُلٌ مَعَهُ امْرَأَةٌ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَسَأَلَهُ عَنْهَا، فَقَالَ: مَنْ هَذِهِ؟ قَالَ: أُخْتِي، فَأَتَى سَارَةً فَقَالَ: يَا سَارَةُ، لَيْسَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مُؤْمِنٌ غَيْرِي وَغَيْرُكَ، وَإِنَّ هَذَا سَأَلَنِي عَنْكَ فَأَخْبَرْتَهُ أَنَّكَ أُخْتِي فَلَا تُكَذِّبِي، فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا، فَلَمَّا دَخَلَتْ عَلَيْهِ ذَهَبَ يَتَنَاوَلُهَا بِيَدِهِ فَأَخَذَ، فَقَالَ: ادْعِي اللَّهَ لِي وَلَا أَضْرُكَ، فَدَعَتِ اللَّهَ فَأُطْلِقَ ثُمَّ تَنَاوَلَهَا الثَّانِيَةَ فَأَخَذَ مِثْلَهَا أَوْ أَشَدَّ، فَقَالَ: ادْعِي اللَّهَ لِي وَلَا أَضْرُكَ، فَدَعَتِ اللَّهَ فَأُطْلِقَ، فَدَعَا بَعْضَ حَجَبَتَيْهِ فَقَالَ: إِنَّكَ لَمْ تَأْتِي بِنَاسٍ، إِنَّمَا أَتَيْتَنِي بِشَيْطَانٍ، فَأَخَذَمَهَا هَاجِرَ، فَاتَتْهُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فَأَوْمَأَ بِيَدِهِ: مَهْمٌ؟ قَالَتْ: رَدَّ اللَّهُ كَيْدَ الْكَافِرِ - أَوْ الْفَاجِرِ - فِي نَحْرِهِ وَأَخَذَمَ هَاجِرَ. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: تِلْكَ أُمُّكُمْ يَا بَنِي مَاءِ السَّمَاءِ]⁽²⁾.

وقوله تعالى: ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾. أي بترك حراستكم الآلهة. أو كما قال النسفي: (فرجعوا إلى عقولهم وتفكروا بقلوبهم لما أخذ بمخانقهم ﴿فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ على الحقيقة بعبادة ما لا ينطق لا من ظلمتموه حين قلمت من فعل هذا بالهتنا إنه لمن الظالمين، فإنه من لا يدفع عن رأسه الفاس، كيف يدفع عن عابديه الباس).

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَكْسُوْا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾.

أي: ثم أطرقوا في الأرض وأصابتهم حيرة من أمرهم، ثم قالوا لإبراهيم: كيف تقول لنا سلوهم وهم لا ينطقون وأنت تعلم أنها لا تنطق! قال قتادة: ﴿ثُمَّ نَكْسُوْا عَلَى رُءُوسِهِمْ﴾ أدركت الناس حيرة سوء).

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3357)، كتاب أحاديث الأنبياء، وانظر كذلك (2217) منه.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3358)، كتاب أحاديث الأنبياء، وكذلك (5084)، وأخرجه مسلم (2371)، وأبو داود (2212)، ورواه أحمد (403/2)، وابن حبان (5737).

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾ .

قال ابن إسحاق: (يقول: ألا ترون أنهم لم يدفعوا عن أنفسهم الضر الذي أصابهم ، وأنهم لا ينطقون فيخبرونكم من صنَع ذلك بهم ، فكيف ينفعونكم أو يضرون).

والمقصود: أنَّ إبراهيم ﷺ استفاد من حيرتهم وعجزهم عن تفسير الموقف بأنَّ واجههم بفساد المنهج الذي هم عليه: كيف تعبدون من لا ينطق ولا يضر ولا ينفع؟! .

وقوله تعالى: ﴿ أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .

قال ابن جرير: (يقول: قُبْحاً لكم وللآلهة التي تعبدون من دون الله ، أفلا تعقلون قبح ما تفعلون من عبادتكم ما لا يضر ولا ينفع ، فتركوا عبادته ، وتعبدوا الله الذي فطر السماوات والأرض ، والذي بيده النفع والضر).

وقوله تعالى: ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ .

قال ابن إسحاق: (أجمع نمرود وقومه في إبراهيم فقال: ﴿ حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ أي: لا تنصروها منه إلا بالتحريق بالنار إن كنتم ناصرها).

فبنوا له بنياناً ، وأوقدوا فيه ناراً ، ثم ألقوه في النار. فقال إبراهيم عند ذلك: «حسبي الله ونعم الوكيل» .

ففي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعَمَ الْوَكِيلُ ﴾ ، قالها إبراهيم ﷺ حين ألقى في النار ، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فزادهم إيماناً وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل⁽¹⁾ .

وفي رواية له عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: [كَانَ آخِرَ قَوْلِ إِبْرَاهِيمَ ﷺ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعَمَ الْوَكِيلُ] .

وقوله تعالى: ﴿ قُلْنَا يَنَّاؤُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ .

قال ابن جريج: (قوله: ﴿ بَرْدًا ﴾ قال: بردت عليه ﴿ وَسَلَامًا ﴾ لا تؤذيه).

قلت: وهذه كرامة عظيمة من الله تعالى لنبِيِّه وخليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، ومعجزة باقية في ذكراها تتلوها الأجيال المتعاقبة على مرِّ الدهور والأزمان. فإن الصدق

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (172/8)، حديث رقم (4563) - (4564) - كتاب التفسير .

مع الله في نصر دينه لا بد أن يقابله خرق للعادات ونصر من الله لأوليائه وعباده الصالحين .

وفي التنزيل :

﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق : 2 - 3] .

وفي سنن ابن ماجة وجامع الترمذي بسند صحيح عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : [لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خِمَاصاً وتروح بِطَاناً⁽¹⁾].

ولفظ الترمذي : [لو أنكم كنتم تَوَكَّلُونَ على الله حقَّ تَوَكُّلِهِ لَرُزِقْتُمْ كما تُرْزَقُ الطَّيْرُ ، تغدو خِمَاصاً ، وتروح بِطَاناً] .

وقوله تعالى : ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ .

أي : أراد القوم بمكرهم إيقاع الكيد والنكال والعذاب بإبراهيم عليه الصلاة والسلام ، فردَّ الله تعالى المكر ليحيق بأهله ، وجعلهم من المغلوبين الأسفلين الخاسرين .

71 - 75 . قوله تعالى : ﴿وَنَجِّنُهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا

لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴿٧٢﴾ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٣﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴿٧٤﴾ وَلُوطًا إِتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجِّنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْفَحْشَى إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَلْسَقِينَ ﴿٧٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾ .

في هذه الآيات : نجاة إبراهيم ولوط - عليهما الصلاة والسلام - إلى بلاد الشام . وإكرام الله إبراهيم بإسحاق ويعقوب أئمة من الصالحين ، يدعون إلى الدين الحق

(1) حديث صحيح . أخرجه ابن ماجة (4164) ، والترمذي (2461) . انظر صحيح الترمذي (1911) .

وَيَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَكَانُوا اللَّهُ عَابِدِينَ . وَإِعْطَاهُ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ لُوطًا عَلَيْهِ السَّلَامُ عِلْمًا وَحُكْمًا وَحِمَايَةً مِنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ، وَإِدْخَالَهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الصَّالِحِينَ .
فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَبَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ .

قال قتادة: (كانا بأرض العراق ، فأنجيا إلى أرض الشام ، وكان يقال للشَّام عماد دار الهجرة ، وما نقص من الأرض زيد في الشَّام ، وما نقص من الشَّام زيد في فلسطين ، وكان يقال: هي أرض المحشر والمنشر ، وبها مجمع الناس ، وبها ينزل عيسى بن مريم ، وبها يهلك الله شيخ الضلالة الكذاب الدجال) .

والمقصود: أن الله تبارك وتعالى لما سلَّم إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - من نار قومه ، أخرجهم من بين ظهرانيهم إلى بلاد الشام ، إلى الأرض المقدسة منها .
قلت: والشَّام مُهاجِرُ الأمة من الفتن إلى قيام الساعة ، وفيها بقية المؤمنين والماء .
وقد حفلت السنة الصحيحة بأفاق هذا المعنى ، وذلك في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الحاكم في «المستدرک» بسند صحيح عن عبد الله موقوفاً -في حكم المرفوع-: [يُوشِكُ أَنْ تَطْلُبُوا فِي قُرَاكُم هَذِهِ طُسْتًا مِنْ مَاءٍ فَلَا تَجِدُونَهُ ، يَنْزَوِي كُلُّ مَاءٍ إِلَى عُنْصُرِهِ ، فَيَكُونُ فِي الشَّامِ بَقِيَّةُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَاءِ] (1) .

الحديث الثاني: أخرج الترمذي بسند صحيح عن زيد بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه قال: [سمعت رسول الله ﷺ يقول: يا طوبى للشَّام ! يا طوبى للشَّام ! يا طوبى للشَّام ! قالوا: يا رسول الله وبم ذلك ؟ قال: تلك ملائكة الله باسطو أجنحتها على الشَّام] .

وفي رواية: [طوبى للشَّام ، إن ملائكة الرحمن باسطة أجنحتها عليه] (2) .

وفي لفظ: [لَأَنَّ ملائكة الرحمن باسطة أجنحتها عليه] .

الحديث الثالث: أخرج أحمد في المسند عن أبي الدرداء مرفوعاً: [بينما أنا نائم إذ رأيتُ عمودَ الكتابِ احتمل من تحت رأسي ، فظننت أنه مذهب به فأتبعته بصري ، فعمدَ به إلى الشَّام . ألا وإن الإيمان حين تقع الفتن بالشَّام] .

(1) حديث صحيح . أخرجه الحاكم في «المستدرک» (4/ 504) بسند صحيح من حديث عبد الله موقوفاً -في حكم المرفوع- ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (3078) .

(2) حديث صحيح . أخرجه الترمذي (2/ 33) ، والحاكم (2/ 229) ، وأحمد (5/ 184) . وسنده صحيح .

وله شاهد عند الطبراني من حديث عبد الله بن عمر أن النبي ﷺ قال: [رأيتُ في المنام أخذوا عمودَ الكتاب فعمدوا به إلى الشام ، فإذا وقعتِ الفتنةُ فالأمن بالشام] وسنده حسن⁽¹⁾.

وقوله تعالى: ﴿ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ۚ ﴾.

قال ابن عباس: (يقول: ووهبنا له إسحاق ولدًا ، ويعقوب ابن ابنه نافلة).

وقال قتادة: (والنافلة: ابن ابنه يعقوب). أي أعطاه الله إسحاق وزاده يعقوب نافلة ، كما قال تعالى: ﴿ فَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ ۖ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ۚ ﴾ [هود: 71]. وعن أبي بقره: ﴿ وَكُلًّا ۚ ﴾ إبراهيم وإسحاق ويعقوب. ﴿ جَعَلْنَا صَالِحِينَ ۚ ﴾ - أي أهل صلاح وتقوى وعمل بطاعة الله عز وجل.

وقوله: ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ۚ ﴾. هو تحصيل الصبر واليقين بالله عز وجل والعمل بطاعته. كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ۚ لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِعَابِدِنَا يُوَفِّقُونَ ۚ ﴾. فبالصبر واليقين ، تُنال الإمامة في الدين.

قال قتادة: (جعلهم الله أئمة يقتدى بهم في أمر الله. وقوله: ﴿ يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ۚ ﴾ يقول: يهدون الناس بأمر الله إياهم بذلك ، ويدعونهم إلى الله وإلى عبادته).

وقوله: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَنِيدِينَ ۚ ﴾.

أي: وأوحينا إليهم فيما أوحينا إليهم من الشرائع إقام الصلاة بحدودها وأركانها وواجباتها وخشوعها ، والإنفاق في سبيل الله زكاة للأموال والخيرات ، فكانوا عند حسن الظن في صدق الإيمان وحسن العبادة. قال قتادة: ﴿ وَكَانُوا لَنَا عَنِيدِينَ ۚ ﴾ يقول: كانوا لنا خاشعين ، لا يستكبرون عن طاعتنا وعبادتنا).

وقوله: ﴿ وَلَوْ طَاءَ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ ﴾.

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: وآتيناه لو طاء حكمًا ، وهو فصل القضاء بين الخصوم ، وعلمًا: يقول: وآتيناه أيضاً علماً بأمر دينه ، وما يجب عليه من فرائضه).

(1) حديث حسن. انظر تخريج «فضائل الشام» - الألباني. وكتابي: أصل الدين والإيمان (1/ 1008-1016). - لتفصيل البحث في فضائل الشام.

وقوله: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْفَبْسِثَ﴾.

أي: ونجينا من العذاب الذي أنزلناه بأهل قرية سدوم التي انتشر في أهلها فعل الفواحش - من إتيانهم الذكور في أدبارهم - وكان لوط عليه السلام قد بعث إليهم .

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوَءٍ فَسَقِينَ﴾ . أي: أصحاب سوء من العمل خارجين عن طاعة الله .

وقوله: ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا﴾ . قال ابن زيد: (في الإسلام).

قال القرطبي: ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا﴾ في النبوة . وقيل: في الإسلام . وقيل: الجنة . وقيل: عنى بالرحمة إنجاءه من قومه ﴿إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ .

76 - 77. قوله تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ

وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوَءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾ .

في هذه الآيات: نجاه نوح عليه السلام بإذن الله من الكرب العظيم ، وإغراق الله تعالى القوم الذين كذبوه وكانوا ظالمين .

فقوله: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ﴾ . أي: واذكر يا محمد نوحاً إذ نادى ربه من قبلك ، ومن قبل إبراهيم ولوط ، لئلهلك من كذبه من قومه وأسرف في العتو والطغيان .

وفي التنزيل:

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْنِي يَاسْلُوْا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: 26 - 27] .

وقوله: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ .

أي: فاستجبنا له دعاءه وأهلكنا القوم الظالمين . ونجيناه وأهله أهل الإيمان من ولده وحلائلهم ومن مضى على منهاج الإيمان ، من أهوال ذلك الطوفان .

وفي التنزيل:

﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴿١١﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١٢﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى

أَلَمَاءٌ عَلَى أَمْرٍ قَدَرٌ ﴿١٢﴾ وَحَمَلَتْهُ عَلَى ذَاتِ الْوَجِّ وَدُسِّرَ ﴿١٣﴾ تَجْرَى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَن كَانَ كُفْرًا ﴿١٤﴾ [القمر: 10 - 14].

وقوله: ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾. قال أبو عبيدة: ﴿من﴾ بمعنى على. وقيل: المعنى فانتقمنا له.

قال النسفي: (مَنْعَاهُ مِنْهُمْ أَي مِنْ أَذَاهُمْ). والمقصود: أن النصر كان لنوح ﷺ - ومن مضى على منهاجه - في آخر الأمر وحين الفصل ، وكان الهلاك والغرق من نصيب أهل التكذيب والطغيان ، وأهل الاستهزاء والعصيان .

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾. أي: إنهم كانوا على منهاج سوء فاستأصلهم الغرق أجمعين .

قال ابن كثير: (أي: أهلكهم الله بعامّة ، ولم يبق على وجه الأرض منهم أحداً ، إذ دعا عليهم نبيهم).

78 - 82. قوله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِنُخْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَفِظِينَ ﴿٨٢﴾ .

في هذه الآيات: تفهيم الله سليمان في مسألة الكرم وغنم القوم ، وتسخير الجبال مع داود يسبحن والطير ، وتعليمه عمل الدروع الملبوسة ، وتسخير الريح والشياطين لسليمان ، عليه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين الصلاة والسلام .

فقوله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ .

قال أشعث عن أبي إسحاق عن مرة عن ابن مسعود: (كان ذلك الحرث كرماً قد نبتت عناقيده). وعن مرة: (كان الحرث نبتاً).

والمقصود: أنه من حرث الأرض من غرسه أو نباته .

قال ابن عباس: ﴿إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ قال: رعت). وقال ابن إسحاق: (النفش: الرعية تحت الليل). وعن قتادة: (النفش بالليل ، والهمل بالنهار).

قلت: وفي لغة العرب: لا يكون النفش إلا بالليل ، والهمل يكون ليلاً ونهاراً. قال الرازي: (و ﴿نَفَسَتْ﴾ الإبل والغنم أي رَعَت لَيْلاً بلا راع. قال: وأنفَشَها غيرها تركها ترعى ليلاً بلا راع).

وتفصيل الخبر كما رواه ابن جرير من طريق أشعث عن أبي إسحاق عن مرة ، عن ابن مسعود - في قوله ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ - قال: (كَزَم قد أَثْبَتَ عناقيدَه ، فأفسدته. قال: فقضى داود بالغنم لصاحب الكَزَم. فقال سليمان: غيرُ هذا يا نبيَّ الله ! قال: وما ذاك ؟ قال: تدفعُ الكَزَم إلى صاحب الغنم فيقومُ عليه حتى يعودَ كما كان ، وتدفعُ الغنمَ إلى صاحب الكرم فيصيب منها ، حتى إذا كان الكَزَم كما كان دَفَعَت الكَزَم إلى صاحبه ، ودَفَعَت الغنم إلى صاحبها ، فذاك قوله: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾).

وله شاهد عند ابن أبي حاتم عن خديج عن أبي إسحاق عن مُرَّة عن مَسْرُوق قال: (الحَرْثُ الذي نَفَسَتْ فيه الغنم إنما كان كَزَمًا نَفَسَتْ فيه الغنم ، فلم تدع فيه ورقة ولا عُقوداً من عَنَب إلا أَكَلَتْه ، فأتوا داود فأعطاهم رِقَابَها. فقال سليمان: لا ، بل تؤخذ الغنمُ فَتُعْطَى أهل الكَزَم ، فيكون لهم لَبَنُها ونفْعُها ، ويُعطى أهل الغنم الكَزَم فيَعْمُرُوهُ ويَصْلِحُوهُ ، حتى يعودَ كالذي كان ليلة نَفَسَتْ فيه الغنم ، ثم يُعطى أهل الغنم غَنَمُهُم ، وأهل الكرم كَزَمُهُم).

قلت: وأما في شرعنا ، فعلى أصحاب الحوائط حفظ حيطانهم وزروعهم بالنهار ، وعلى أصحاب المواشي حفظ مواشيهم بالليل. فإن فرط صاحب الماشية في ضبط وحبس ماشيته ليلاً فانتشرت وأفسدت شيئاً من زروع الناس فعليه ضمان ذلك .

وأدلة ذلك كثيرة:

1 - الدليل الأول: أخرج ابن ماجة وأبو داود بسند صحيح عن مُحَيِّصَةَ: [أَنَّ نَاقَةَ لِلْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ ، دَخَلَتْ حَائِطَ رَجُلٍ فَأَفْسَدَتْه ، فَقَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، عَلَى أَهْلِ

الأموال حفظها بالنهار ، وعلى أهل المواشي حفظها بالليل⁽¹⁾. وفي لفظ ابن ماجة : [فقضى أن يحفظ الأموال على أهلها بالنهار. وعلى أهل المواشي ما أصابت مواشيهم بالليل].

2 - الدليل الثاني : أخرج أبو داود بسند صحيح عن حرام بن مُحَيَّصَةَ الأنصاري ، عن البراء بن عازب ، قال : [كانت له ناقة ضارية ، فدخلت حائطاً فأفسدت فيه ، فكُلَّم رسول الله ﷺ فيها ، فقضى : أن يحفظ الحوائط بالنهار على أهلها ، وأن يحفظ الماشية بالليل على أهلها ، وأن على أهل الماشية ما أصابت ماشيتهم بالليل]⁽²⁾.

وقوله : «ضارية» أي التي تعتاد رعي زرع الناس . والحائط : البستان . وقوله : «أن يحفظ الأموال» أي البساتين . فما أتلقت الماشية بالنهار فالتقصير من صاحب البستان ، فلا ضمان ، وما أتلقت بالليل فالتقصير من صاحبها ، وعليه الضمان .

3 - الدليل الثالث : يروي ابن جرير بإسناده عن عامر - أي الشعبي ، وكذلك عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن الشعبي : [أن شاة وقعت في غزل حائك فاختصموا إلى شريح ، فقال الشعبي : انظروه فإنه سيسألهم ليلاً وقعت فيه أو نهاراً ، ففعل . ثم قال : إن كان بالليل ضمن ، وإن كان بالنهار لم يضمن ، ثم قرأ شريح : ﴿إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ قال : والنفس بالليل والهمل بالنهار].

وفي لفظ ابن جرير ، قال عامر : (جاء رجلان إلى شريح ، فقال أحدهما : إن شياه هذا قطعت غزلاً لي ، فقال شريح : نهاراً أم ليلاً ؟ قال : إن كان نهاراً فقد برئ صاحب الشياه ، وإن كان ليلاً فقد ضمن ، ثم قرأ : ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ قال : كان النفس ليلاً⁽³⁾.

وهذا التفريق بين الليل والنهار حكمته ظاهرة ، كما قال القرطبي رحمه الله : (وذلك أن أهل المواشي لهم ضرورة إلى إرسال مواشيهم ترعى بالنهار ، والأغلب عندهم أن من عنده زرع يتعاهده بالنهار ويحفظه عن أراده ، فجعل حفظ ذلك بالنهار على أهل

(1) حديث صحيح . أخرجه ابن ماجة في السنن - حديث رقم - (2332) - كتاب الأحكام ، وأخرجه أبو داود (3569) - كتاب الإجازة . وانظر صحيح سنن أبي داود (3047) .

(2) حديث صحيح . أخرجه أبو داود في السنن - حديث رقم - (3570) - كتاب الإجازة ، باب المواشي تفسد زرع قوم ، انظر صحيح سنن أبي داود (3048) ، وصحيح سنن ابن ماجة (1888) - باب الحكم فيما أفسدت المواشي .

(3) أخرجه ابن جرير في «التفسير» (24701) ، ويشهد لهذا القضاء من شريح الدليلان قبله .

الزروع ، لأنه وقت التصرف في المعاش ، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبا: 11]. فإذا جاء الليل فقد جاء الوقت الذي يرجع كل شيء إلى موضعه وسكنه ، كما قال الله تعالى: ﴿مَنْ لَدُنْهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ [القصص: 72] وقال: ﴿وَجَعَلَ أَيْلَ سَكَنًا﴾ [الإنعام: 96] ، ويرد أهل المواشي مواشيهم إلى مواضعهم ليحفظوها ، فإذا فرط صاحب الماشية في ردّها إلى منزله ، أو فرط في ضبطها وحبسها عن الانتشار بالليل حتى أتلفت شيئاً فعليه ضمان ذلك).

فائدة: أما قوله ﷺ: [العَجَمَاءُ جُرْحُهَا جُبَارٌ]⁽¹⁾ ، فالمقصود ما انفردت به البهيمة فأتلفت دون سائق أو قائد. أو يقال: هو حديث عام ، ثم خصّ منه الزرع والحوائط بحديث البراء السابق. والله تعالى أعلم.

وقد ذهب مالك والجمهور إلى القول بحديث البراء ، وذهب أبو حنيفة وأصحابه وبعض الكوفيين إلى أن هذا الحكم منسوخ ، فما أفسدت البهائم ليلاً أو نهاراً لا يلزم صاحبها شيء ، واستدلوا بحديث: «جُرْحُ الْعَجَمَاءِ جُبَارٌ» ، والراجح قول مالك والجمهور وأنه عموم ورد فيه التخصيص ، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾. أي: لا يخفى علينا من ذلك الحكم شيءٌ ، ولا يغيب عنا علمه. وفي الآية دليل على أن أقل الجمع اثنان.

وقوله: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَنًا﴾. أي: ألهمنا سليمان صحة الحكم في المسألة ودقة الفتوى.

قال الحسن: (أثنى على سليمان ولم يذم داود).

قلت: والآية تشير إلى أن الصواب كان مع سليمان عليه الصلاة والسلام ، ولكن داود مأجور كذلك في اجتهاده. وبذلك جاءت سنة نبينا محمد ﷺ ، في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم وأصحاب السنن عن عمرو بن العاص أنه

(1) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ: [العَجَمَاءُ جُرْحُهَا جُبَارٌ] ، والبيتر جُبَارٌ ، والمَعْدِنُ جُبَارٌ ، وفي الرُّكَازِ الحُمْسُ]. انظر صحيح البخاري (6912) - كتاب الديات. وأخرجه مسلم (1710). والعجماء البهيمة ، وسميت بذلك لأنها لا تتكلم ، جبار: أي جانيها هدر ليس فيها ضمان. و«المعدن جبار» أي لا زكاة فيما يستخرج منه. و(الرَكَاز) الكنوز المدفونة قبل الإسلام ، وفيها الخمس.

سمع رسول الله ﷺ يقول: [إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر]⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرج أبو داود وابن ماجه والحاكم بسند صحيح عن بريدة ، عن النبي ﷺ قال: [القضاة ثلاثة: واحد في الجنة ، واثنان في النار ، فأما الذي في الجنة ، فرجل عرف الحق ففضى به . ورجل عرف الحق ، فجار في الحكم ، فهو في النار ، ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار]⁽²⁾.

الحديث الثالث: أخرج البخاري ومسلم وأحمد والنسائي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [كانت امرأتان معهما ابناهما ، جاء الذئب فذهب بابن إحداهما ، فقالت صاحبتهما: إنما ذهب بابنيك ، وقالت الأخرى: إنما ذهب بابنيك ، فتحاكما إلى داود ففضى به للكبرى ، فخرجنا على سليمان بن داود عليهما السلام فأخبرناه ، فقال: اتسوني بالسكين أشقه بينهما ، فقالت الصغرى: لا تفعل يرحمك الله ، هو ابنتها ، ففضى به للصغرى]⁽³⁾. قال أبو هريرة: (والله إن سمعت بالسكين إلا يومئذ وما كنا نقول إلا المذبة).

وقوله: ﴿وَكُلَّاءَآئِنَّا حُكَمَاوَعِلْمًا﴾.

قال النسفي: ﴿حُكْمًا﴾ نبوة ، ﴿وَعِلْمًا﴾ معرفة بموجب الحكم).

وقوله: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرُ﴾.

قال ابن كثير: (وذلك لطيب صوته بتلاوة كتابه الزبور ، وكان إذا ترتَّم به تَفَقَّ الطيرُ في الهواء فتجاوبه ، وتردُّ عليه الجبال تأويباً).

قلت: والصوت الحسن يزيد القرآن حسناً وجمالاً ، ويزداد المستمع له تأثراً ، فيزداد القلب بذلك تعلقاً وخشية ، وقد جاء ذلك في صحيح السنة في أحاديث:

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (7352) ، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، وأخرجه مسلم (1716) ، وأبو داود (3574) ، والترمذي (1326) ، والنسائي (223/8) ، وابن ماجه (2314) ، وأحمد (198/4).

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن - حديث رقم - (3573) ، كتاب الأقضية ، وابن ماجه (2315) ، والحاكم (90/4).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3427) ، كتاب أحاديث الأنبياء ، وأخرجه مسلم (1720) ، وأحمد (322/2) ، والنسائي (234 - 236) ، وبوب عليه في كتاب القضاء: «باب الحاكم يومهم خلاف الحكم ليستعلم الحق».

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنّى بالقرآن يجهر به] (1).

وهو بمعنى: ما استمع الله لشيء من كلام الناس كما استمع لمن تغنى بالقرآن ، إشارة إلى الرضى والقبول .

الحديث الثاني: أخرج مسلم وأحمد والنسائي عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: [أن رسول الله ﷺ قال له: لو رأيته وأنا أستمع لقراءتك البارحة ، لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود. فقال أبو موسى: لو علمت مكانك لحبّرت لك تحبيراً] (2).

وأصل الزمر الغناء ، والمراد الصوت الحسن ، وآل داود هو داود نفسه ، وقوله «لحبّرت»: يريد تحسين الصوت وتحزينه .

الحديث الثالث: أخرج أبو داود بسند صحيح عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [زينوا القرآن بأصواتكم ، فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حسناً] (3).

وقوله: ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾. أي: قضينا ذلك في أم الكتاب من تسخير الجبال والطير مع داود ﷺ.

قال القاسمي: (إشارة إلى أنه ليس ببدع في جانب القدرة الإلهية ، وإن كان عند المخاطبين عجباً).

وفي التنزيل نحو ذلك: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (٧) إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسِيحْنَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: 17 - 19].

وقوله: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُؤْسٍ لَكُمْ﴾. أي: عمل الدروع الملبوسة ، فقد كانت قبل ذلك صفائح فجعلها حلقاً وسردها ، أي أدخل بعضها في بعض .

قال قتادة: (كانت صفائح ، فأول من سردها وحلّقها داود عليه السلام).

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (7544) ، كتاب التوحيد ، وانظر مختصر صحيح مسلم (2111).

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم (793) ، والنسائي في «فضائل القرآن» (83) ، وأحمد (349/5).

(3) حديث صحيح . انظر صحيح سنن أبي داود (1320) ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (772).

وفي التنزيل :

﴿وَالنَّالُ لَهُ الْخَديْدُ ﴿١١﴾ اِنْ اَعْمَلَ سَيِّئَاتٍ وَقَدِرْ فِي السَّرِّ ﴾ [سبأ : 10 - 11].

أي لا تُدَقُّ المسمار فيقلَق في الحلقة ، ولا تُغْلِظُهُ فيفصمها ، واجعله بِقَدَر .

قال الحكم بن عتيبة : (لا تُغْلِظُهُ فيفصم ، ولا تُدَقُّ فيقلَق) .

وقوله : ﴿ لِئُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ ﴾ . أي : لتحفظكم من جراحات قتالكم ، وتحرز أجسامكم عند لقاء عدوكم .

وقوله : ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ . أي : لنعم ربكم عليكم ، وتسخيره من الوسائل ما فيه مصلحتكم .

قال القرطبي : (أي على تيسير نعمة الدروع لكم . وقيل : ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ بأن تطيعوا رسولي) .

وقوله : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحُ عَاصِفَةٌ تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ .

قال قتادة : (ورث الله سليمان داود ، فورثه نبوته وملكه وزاده على ذلك أن سخر له الريح والشياطين) .

وقال ابن زيد : (﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحُ عَاصِفَةٌ تَجْرِي بِأَمْرِهِ ﴾ قال : عاصفة شديدة تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها ، قال : الشام) .

وقد جاء في التفاسير أنه كان لسليمان عليه الصلاة والسلام بساط من خشب يوضع عليه الخيل والجند والمتاع ، فيأمر الريح فترفعه ، فما يدري القوم إلا وقد أظلمهم بسلطانه وهيبته عليه الصلاة والسلام .

وفي التنزيل :

1 - قال تعالى : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحُ غُدُوهاً شَهْرٌ وَرَوْحاً شَهْرٌ ﴾ [سبأ : 12].

2 - وقال تعالى : ﴿ فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَاب ﴾ [ص : 36].

وقوله : ﴿ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ ﴾ . أي : لا يخفى علينا شيء .

وقوله : ﴿ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ ﴾ .

قال ابن جرير : (يقول تعالى ذكره : وسخرنا أيضاً لسليمان من الشياطين من يغوصون له في البحر ، ويعملون عملاً دون ذلك من البنيان والتمائيل والمحارب) .

وفي التنزيل:

﴿وَالشَّيَاطِينُ كُلُّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ ﴿٣٧﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ [ص: 37 - 38].

أي بعض الشياطين في غوص في أعماق البحار ، يستخرجون له الجواهر واللائي ، وبعضهم في البناء ، وبعضهم في الصناعة ، والكل تحت أمره وسلطانه .

وقوله: ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَفِظِينَ﴾ . أي: لأعدادهم وتحركاتهم وأعمالهم .

قال ابن كثير: (أي: يحرسه الله أن يناله أحد الشياطين بسوء بل كل في قبضته وتحت قهره ، لا يتجاسر أحد منهم على الذنوب إليه والقرب منه ، بل هو يحكم فيهم إن شاء أطلق ، وإن شاء حبس منهم من يشاء . ولهذا قال: ﴿وَأَخْرَجَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾).

83 - 84. قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ

أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذَكَرَ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ .

في هذه الآيات: يقول جل ثناؤه: واذكريا محمد أيوب إذ نادى ربه إثر الضر والبلاء الذي نزل به ، ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ، فاستجاب الله له وكشف ما مسه من ضر وجهد وبلاء ، وأكرمه بأن آتاه أهله في الآخرة ومثلهم معهم في الدنيا رحمة منه سبحانه وعبرة لأهل الصبر على الحق وآلام الطريق .

وعن نوف البكالي قال: ﴿وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾ قال: أوتي أجرهم في الآخرة ، وأعطى مثلهم في الدنيا).

أخرج أبو يعلى في «المسند» وأبو نعيم في «الحلية» بسند جيد عن أنس بن مالك مرفوعاً: [إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَبِثَ بِهِ بِلَاوَةٌ ثَمَانِ عَشْرَةَ سَنَةً ، فَرَفَضَهُ الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ ، إِلَّا رَجُلَيْنِ مِنْ إِخْوَانِهِ كَانَا يَغْدُوَانِ إِلَيْهِ وَيُرَوِّحَانِ ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ ذَاتَ يَوْمٍ: تَعْلَمُ وَاللَّهِ لَقَدْ أَذْنَبَ أَيُّوبُ ذَنْبًا مَا أَذْنَبُهُ أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: مِنْذُ ثَمَانِ عَشْرَةَ سَنَةً لَمْ يَرْحَمَهُ اللَّهُ فَيَكْشِفْ مَا بِهِ ، فَلَمَّا رَاحَا إِلَى أَيُّوبَ لَمْ يَصْبِرِ الرَّجُلُ حَتَّى ذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ ، فَقَالَ أَيُّوبُ: لَا أَدْرِي مَا تَقُولَانِ غَيْرَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ أَمْرًا بِالرَّجُلَيْنِ يَتَنَازَعَانِ ، فَيَذْكُرَانِ اللَّهَ فَأَرْجِعُ إِلَى بَيْتِي فَأُكْفَرُ عَنْهُمَا كِرَاهِيَةً أَنْ يَذْكُرَ اللَّهُ إِلَّا فِي حَقٍّ ، قَالَ: وَكَانَ يَخْرُجُ إِلَى حَاجَتِهِ فَإِذَا قَضَى حَاجَتَهُ أَمْسَكَتُهُ امْرَأَتُهُ بِيَدِهِ حَتَّى يَبْلُغَ ،

فلما كان ذات يوم أبطأ عليها وأوحى إلى أيوب أن ﴿أَرِضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ فاستبطأته ، فتلقته تنظر وقد أقبل عليها وقد أذهب الله ما به من البلاء وهو أحسن ما كان ، فلما رآته قالت : أي بارك الله فيك ، هل رأيت نبي الله هذا المبتلى ، والله على ذلك ما رأيت أشبه منك إذ كان صحيحاً ، فقال : فإني أنا هو : وكان له أندران - أي بيدران - أندر للقمح وأندر للشعير ، فبعث الله سحابتين ، فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض ، وأفرغت الأخرى في أندر الشعير الورق حتى فاض⁽¹⁾.

85 - 86. قوله تعالى : ﴿وَلِإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ

الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾ .

في هذه الآيات : ثناء الله تعالى على إسماعيل وإدريس وذي الكفل في الصابرين ، وإدخالهم في رحمته إنهم من الصالحين .

قال النسفي : ﴿وَلِإِسْمَاعِيلَ﴾ بن إبراهيم ﴿وَلِدْرِيسَ﴾ بن شيث بن آدم ﴿وَذَا الْكِفْلِ﴾ أي اذكرهم ، وهو إلياس أو زكريا أو يوشع بن نون وسمي به لأنه ذو الحظ من الله ، والكفل الحظ ، ﴿كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ﴾ أي هؤلاء المذكورون كلهم موصوفون بالصبر).

قال ابن كثير : (وأما ذو الكفل فالظاهر من السياق أنه ما قرن مع الأنبياء إلا وهو نبي).

وقوله : ﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا﴾ . قال القاسمي : (أي في النبوة أو في نعمة الآخرة).

وقوله : ﴿إِنَّهُمْ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ . أي من أهل الخير والصلاح والرشاد .

87 - 88. قوله تعالى : ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ

(1) حديث صحيح . أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (1/176 - 1/177) ، وأبو نعيم في «الحلية» (3/374 - 375) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة - حديث رقم - (17).

فَكَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾
فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَبَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُشَوِّجُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ .

في هذه الآيات: تضيق الله على يونس وإدخاله في بطن الحوت ، ودعوته ربه من ذلك السجن بخير الدعاء ، الذي كشف الله به غمّه وهو لجميع المؤمنين من خير الرجاء .

فقوله: ﴿ وَذَا التَّوْنِ ﴾ - يعني الحوت. أي: اذكر يا محمد صاحب النون ، أي صاحب الحوت ، وهو يونس بن متى ، عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام .

وقوله: ﴿ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا ﴾ . قال ابن عباس: (يقول: غضب على قومه).

وقوله: ﴿ فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ . أي: فظن أن لن نعاقبه بالتضييق عليه ببطن الحوت .

وقال مجاهد: (ظن أن لن نعاقبه بذنبه). وقال قتادة: (ظن أن لن نقضي عليه العقوبة). وكلا المعنيين محتمل: التضيق أو التقدير والقضاء .

ومثال الأول: قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُفْسَقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: 7] .

ومثال الثاني: قوله تعالى: ﴿ فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدَرٍ ﴾ [القمر: 12] .

وإنما كان ذلك حين بعث الله يونس عليه الصلاة والسلام إلى أهل «نِنْوَى» بالموصل ، فدعاهم إلى الله ، فأبوا وتمادوا على كفرهم ، فخرج من بين أظهرهم مغاضباً لهم متوعداً بالعذاب بعد ثلاث ، فخافوا بعد خروجه وعلموا أن دعوة النبي حق ، فخرجوا بذرايرهم وأنعامهم إلى الصحراء يستغفرون ويجأرون فرفع الله عنهم العذاب ، وامتنح يونس عليه السلام في ركوب السفينة ونزول القرعة به ليلتقمه الحوت .

وقوله: ﴿ فَكَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

هو من أعظم الدعاء عند الكرب والمصيبة ، وقد جعله الله شرعاً ماضياً في أمة محمد ﷺ إلى قيام الساعة .

فقد أخرج الإمام أحمد في المسند ، والترمذي في السنن ، بسند صحيح ، عن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: [دعوة ذي النون إذ دعا بها وهو في بطن الحوت ، ﴿ لَا

إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١﴾ ، لم يدعُ بها رجلٌ مسلمٌ في شيء قط إلا استجابَ اللهُ له [١] .

وعن ابن مسعود (﴿فَكَادَى فِي الظُّلُمَاتِ﴾. قال: ظلمة بطن الحوت ، وظلمة البحر ، وظلمة الليل).

وقوله: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَبَيَّنَّا لَهُ مِنَ الْغَمِّ﴾. أي: فاستجبنا دعاءه إذ دعانا في بطن الحوت ، ونجيناها من غمِّ الذنب والحبس .

وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُنْشِئُ الْمُؤْمِنِينَ﴾. أي: من هول المصائب والشدائد إذا جأروا إلى الله تعالى بالدعاء وجوامع الكلم من ذلك .

أخرج أبو يعلى بسند حسن عن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: [من دعا بدعاء يونس استُجيبَ له] (٢) .

قال أبو سعيد الأشج - أحد رواة الحديث -: (يُرِيدُ بِهِ ﴿وَكَذَلِكَ نُنْشِئُ الْمُؤْمِنِينَ﴾).

89 - 90. قوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَلِيعِينَ ﴿٩٠﴾ .

في هذه الآيات: يقول جل ثناؤه: واذكر يا محمد زكريا حين جأ إلى ربه بالدعاء فقال: رب لا تذرني وحيداً لا ولد لي ولا عقب ، وارزقني وارثاً من آل يعقوب يرثني ويقوم بالأمر من بعدي في الناس إنك أنت خير الوارثين . يقول جل ذكره: فاستجبنا لزكريا دعاءه وآتيناه سؤلَهُ فوهبنا له يحيى ولداً ووارثاً ، وأصلحنا له امرأته إذ كانت عقيماً لا تلد - فجعلها الله ولوداً - . يقول تعالى: إِنَّ الَّذِينَ سَمِينَاهُمْ لَكَ يَا مُحَمَّد

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (3752) وأحمد والحاكم. انظر تخريج الترغيب (275/2)، و(43/3)، وصحيح الجامع الصغير (3378)، وصحيح سنن الترمذي (2785).

(2) حديث حسن. أخرجه أبو يعلى (707)، ورجاله ثقات. ويشهد له ما قبله.

- زكريا وزوجه ويحيى - كانوا يسارعون في الطاعات والقربات ويعبدون ربهم رغبا ورهبا ، وكانوا أهل إكبات ورقة وخشوع .

فقوله : ﴿ وَكَرِيحًا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ ﴾ .

قال ابن كثير : (﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ ﴾ . أي : خفية من قومه) .

وقوله : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا ﴾ . قال ابن جرير : (لا ولد لي ولا عقب) .

وقوله : ﴿ وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ . قال القرطبي : (أي خير من يبقى بعد كل من يموت) . وهو ثناء ودعاء ورجاء مناسب للمسألة .

وقوله : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى ﴾ . أي ولداً ووارثاً .

وقوله : ﴿ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ﴾ . قال ابن عباس : (وهبنا له ولدها) .

وقال قتادة : (كانت عاقراً ، فجعلها الله ولوداً ، وهب له منها يحيى) .

قال ابن جرير : (إن الله أصلح لزكريا وزوجه ، كما أخبر تعالى ذكره بأن جعلها ولوداً حسنة الخلق) .

وقوله : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ - ثناء على مسارعتهم إلى الطاعات واستقامة منهج عبادتهم .

قال ابن جريج : (رغبا في رحمة الله ، ورهبا من عذاب الله) . وقال ابن زيد : ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ قال : خوفاً وطمعاً ، قال : وليس ينبغي لأحدهما أن يفارق الآخر) .

وقوله : ﴿ وَكَانُوا أَلْفًا خَاشِعِينَ ﴾ . قال النسفي : (متواضعين خائفين) .

قال قتادة : ﴿ خَاشِعِينَ ﴾ أي : متذللين لله عز وجل) . وقال أبو العالية : (خائفين) .

وقال مجاهد : (مؤمنين حقاً) . وكلها معان متقاربة متكاملة .

91. قوله تعالى : ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا

وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ .

في هذه الآية : ذكر قصة مريم وابنها عيسى عليهما السلام عقب ذكر قصة زكريا وابنه يحيى عليهما السلام - كما تكرر ذلك في غير موضع من القرآن - لمناسبة ذلك . فإخراج

ولد من شيخ كبير وعجوز عاقر لم تلد في شبابها تمهيد مناسب لإخراج ولد من أم بلا أب ، والله على كل شيء قدير .

فقوله : ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ - يعني مريم عليها السلام ، كما قال جل ثناؤه في سورة التحريم : ﴿وَمَرْيَمُ ابْنْتِ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ [التحريم : 12] . والمراد الثناء على عفتها وتأكيد طهارتها وبراءتها من كل ما نُسب إليها من المبطلين .

وقوله : ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ .

قال النسفي : (أجرنا فيها روح المسيح ، أو أمرنا جبريل فنفخ في جيبِ درعها فأحدثنا بذلك النفخ عيسى في بطنها ، وإضافة الروح إليه تعالى لتشريف عيسى عليه السلام) .

وقوله : ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَأَبْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ . قال ابن عباس : (العالمين الجن والإنس) . قال القاسمي : ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَأَبْنَاهَا﴾ أي نبأهما ﴿آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ أي في كمال قدرته واختصاصه من شاء بما شاء . وقد كان من آيتهما إتيان الرزق لمريم في غير أوانه ، وتثمير النخل اليابس ، وإجراء العين ، ونطق ابنها في المهد ، وإحياء الموتى . وإبراء الأكمه والأبرص) .

92 - 94 . قوله تعالى : ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ ﴿٩٢﴾ وَنَقُطُّوْا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَهِنَا رَاجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَنُوبُونَ ﴿٩٤﴾ .

في هذه الآيات : إثباتُ الله تعالى لوحدة منهاج النبوة ، فإن الأنبياء الذين ذكرهم قبل ذلك يخرجون في أصول دينهم من مشكاة واحدة ، واختلاف الناس على أنبيائهم بين مصدق لهم ومكذب وكلهم إليه تعالى راجعون ، والملائكة لأعمال أهل الإيمان والسعي الدؤوب في الصحف كاتبون .

فعن ابن عباس ومجاهد : ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ ، يقول : دينكم دينٌ واحد) .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : [أنا أولى الناس بعيسى

ابن مريم ، في الأولى والآخرة. قالوا: كيف؟ يا رسول الله! قال: الأنبياء إخوة من علات ، وأمهاتهم شتى ، ودينهم واحد ، فليس بيننا نبي⁽¹⁾.

قال الزجاج: (انتصب ﴿أُمَّة﴾ على الحال ، أي في حال اجتماعها على الحق ، أي هذه أمتكم ما دامت أمة واحدة واجتمعتم على التوحيد ، فإذا تفرقتم وخالفتم فليس من خالف الحق من جملة أهل الدين الحق).

وقوله: ﴿وَأَنَارِيكُمْ فَاَعْبُدُونِ﴾. أي: أفردوني بالعبادة والتعظيم.

وفي التنزيل: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: 51 - 52].

وقوله: ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾. قال ابن زيد: (تقطعوا: اختلفوا، في الدين).

قال ابن كثير: (أي: اختلفت الأمم على رسلها، فمن بين مُصَدِّق لهم ومكذِّب).

وقوله: ﴿كُلُّ إِلَهِنَا رَجُوعٌ﴾. نَوَعْدُ لأهل الزيغ والضلال ، وأهل العناد وتكذيب الرسل بعذاب النكال. فالمرجع إلى الله تعالى يوم القيامة فيجازي كلًا بعمله ، فيسعد المحسن ويشقى المسيء.

وقوله: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيهِ﴾.

أي: من عمل الصالحات وقد جاء مؤمنًا على منهاج الإيمان لا اعوجاج فيه ولا انحراف ، فإن الله تعالى يشبهه ويبارك له سعيه فلا يظلم مثقال ذرة.

وفي التنزيل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: 30].

وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: [إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مُؤْمِنًا حَسَنَةً ، يُعْطِي بِهَا فِي الدُّنْيَا وَيُجْزِي بِهَا فِي الْآخِرَةِ ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُطْعَمُ بِحَسَنَاتٍ مَا عَمِلَ بِهَا اللَّهُ فِي الدُّنْيَا ، حَتَّى إِذَا أَفْضَى إِلَى الْآخِرَةِ ، لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُجْزَى بِهَا]⁽²⁾.

وقوله: ﴿وَإِنَّا لَكُمُ كَنُيُوتٌ﴾. أي: نكتب عمله الصالح كله ، صغيره وكبيره ، وقليله وكثيره ، لينعم بثوابه وتضاعف أجره يوم القيامة.

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2365) (145)، كتاب الفضائل ، باب فضائل عيسى عليه السلام.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2808) - كتاب صفات المنافقين. حديث (56)، (57).

وفي كنوز السنة الصحيحة من آفاق هذا المعنى الكثير الكثير ، ومن ذلك :

الحديث الأول : أخرج أحمد ومالك والحاكم بسند صحيح في الشواهد من حديث بلال بن الحارث المزني أن رسول الله ﷺ قال : [إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ، ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت ، يكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه..] الحديث (1).

الحديث الثاني : أخرج الترمذي بسند حسن لغيره عن أبي ذر مرفوعاً : [تبشّمك في وجه أخيك لك صدقة ، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة ، وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة ، وبصرك الرجل الرديء البصر لك صدقة ، وإمطتك الحجر والشوكة والعظم عن الطريق لك صدقة ، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة] (2).

الحديث الثالث : أخرج ابن ماجه وأحمد بسند حسن عن أبي هريرة مرفوعاً : [إن الرجل ليرفعُ درجته في الجنة ، فيقول : أنى لي هذا؟ فيقال : باستغفار ولدك لك] (3).

95 - 97. قوله تعالى : ﴿ وَحَرَّمٌ عَلَى قَرِيْبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ (٩٥) حَقٌّ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴾ (٩٦) وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُواِ يَتَوَلَّوْنَآ قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلَّ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ (٩٧).

في هذه الآيات : تأكيدُ هلاك الأمم التي دمرها الله ، وفتحُ سد يأجوج ومأجوج علامة من علامات اقتراب الساعة ، وإسرار الكفار الندامة عند رؤية أهوال القيامة .

فقوله : ﴿ وَحَرَّمٌ عَلَى قَرِيْبَةٍ ﴾ . قال ابن عباس : (وجب) . والتقدير : حرام على أهل

(1) حديث صحيح . أخرجه مالك (2/985/5) ، والترمذي (2/52) ، وابن ماجه (3969) ، وأحمد (469/3) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (888) .

(2) حسن لغيره . أخرجه الترمذي (1/354) ، وابن حبان (864) ، وانظر الصحيحة (572) .

(3) حديث حسن . أخرجه ابن ماجه (3660) ، وأحمد (2/509) ، وانظر صحيح الجامع (1613) .

قرية أمتناهم أن يرجعوا إلى الدنيا. قال عكرمة: ﴿وَحَرَّمْ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ قال: لم يكن ليرجع منهم راجع ، حرام عليهم ذلك).

وفي رواية عن ابن عباس: (فلا يرجع منهم راجع ، ولا يتوب منهم تائب).

والمقصود: كتب الله تعالى على كل أمة أهلكتها أنهم لا يرجعون إلى الدنيا قبل يوم القيامة ، ومن ثم فلا يرجعون إلى التوبة بعد فوات أوانها.

وقوله تعالى: ﴿حَقَّ إِذَا فَتَحَتْ يَا جُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّن كَلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾.

أي: حتى إذا فتح سد يأجوج ومأجوج الذي بناه ذو القرنين وحجبهم به عن الناس وخرجوا مسرعين من كل مرتفع من الأرض يعيشون في أرجائها فساداً.

فالحذب المرتفع من الأرض. قال ابن عباس: ﴿وَهُمْ مِّن كَلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ أي يسرعون في المشي إلى الفساد).

ويأجوج ومأجوج قوم من نسل نوح عليه الصلاة والسلام من أولاد يافث ، تركوا وراء السد الذي بناه ذو القرنين - كما مر ذكره في سورة الكهف مفصلاً -.

أخرج البخاري في صحيحه عن زينب بنت جحش رضي الله عنها ، أنها قالت: [استيقظ النبي ﷺ من النوم مُخْمِراً وَجْهَهُ يقول: لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه ، وعقد سفيان تسعين أو مئة . قيل: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم ، إذا كثر الخبث]⁽¹⁾.

فهم يحفرون كل يوم في محاولة منهم للخروج من ذلك السجن الذي كتبه الله عليهم قسطاً وعدلاً ، إلا أنهم يمكرون ويمكر الله بهم وهو خير الماكرين .

فقد أخرج الإمام أحمد في المسند عن أبي هريرة مرفوعاً: [إن يأجوج ومأجوج يحفرون كُلَّ يوم ، حتى إذا كادوا يَرَوْنَ شعاعَ الشمس قال الذي عليهم: ارجعوا فسنحفره غداً ، فيعيده الله أشدَّ ما كان ، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم ارجعوا فسنحفره غداً إن شاء الله تعالى ، واستثنوا ، فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه فيحفرونه ويخرجون على الناس ، فيَنشِفُونَ الماء ويتحصن الناس منهم في حصونهم . فيرمون بسهامهم إلى السماء ، فترجع عليها الدُم الذي احفظ ، فيقولون:

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (9/13 - 10) ، وأخرجه مسلم (8/165 - 166).

قهرنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء، فيبعث الله نَعْفًا في أقفائهم فيقتلون بها. قال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده، إن دواب الأرض لتَسْمَنُ وتَشْكُرُ شُكْرًا من لحومهم⁽¹⁾.

وقوله: ﴿وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾. قال ابن زيد: (اقترب يوم القيامة منهم).

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج، اقترب الوعد الحق، وذلك وعد الله الذي وعد عباده أن يبعثهم من قبورهم للجزاء والثواب والعقاب). والمقصود: أن خروج يأجوج ومأجوج علامة اقتراب يوم النشور والحساب.

وقوله: ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾. أي: من شدة ما يشاهدونه من الأهوال والأمور العظام. والتقدير: فإذا جاء الوعد الحق بأهواله ودنت الساعة بعلاماتها وحقائقها شخصت أبصار الذين كفروا.

قال النسفي: ﴿شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي مرتفعة الأجفان لا تكادُ تطرف من هول ما هم فيه).

وقوله: ﴿يَوَلُّنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ - أي في الدنيا.

قال القاسمي: (أي لم نعلم أنه حق). والمقصود: أن الكفار لما رأوا أهوال يوم الحساب وعابنوا عظيم البلاء أيقنوا أنهم كانوا في لهو وغفلة عن هذه الحقائق ولم يستعدوا لها وأسرؤا الندامة.

وقوله: ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾. قال القرطبي: (يقولون: يا ويلنا إنا كنا ظالمين بمعصيتنا، ووضعنا العبادة في غير موضعها).

والمقصود: أن الكفار أيقنوا يومئذ برؤية سجلات أعمالهم وفيها جبال آثامهم ومعاصيهم.

أخرج البخاري ومسلم عن عائشة، أن النبي ﷺ قال: [ليس أحدٌ يحاسب يوم القيامة إلا هلك. قلت: أوليس يقول الله: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾] فقال: إنما ذلك العرض، ولكن من نوقش في الحساب يهلك⁽²⁾.

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (510/2 - 511)، والترمذي (197/2)، والحاكم (488/4)، وابن حبان (1908)، وانظر كتابي: أصل الدين والإيمان (1056/2)، لتفصيل البحث.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4939)، وأخرجه مسلم (2876)، من حديث عائشة.

98 - 103. قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَتْ هَؤُلَاءِ إِلَهًا مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَلَاقَتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾.

في هذه الآيات: خطابُ الله تعالى لأهل مكة من مشركي قريش ومن مضى على منهاجهم في عبادة الأوثان وتعظيم الأصنام بأن ما تعبدونه من دون الله من الآلهة إنما هم وقود جهنم التي أنتم إليها داخلون. وأن لهؤلاء المشركين وألتهم زفيراً في نار جهنم وهم فيها لا يسمعون. والذين سبق لهم من الله السعادة هم فيما اشتهدت أنفسهم خالدون، فلا فزع ولا نصب وتستقبلهم الملائكة بالبشرى: هذا يومكم الذي كنتم توعدون.

فقوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾. قال ابن عباس: (شجر جهنم).

أو قال: (وقودها). وقال مجاهد: (حطبها). وقال قتادة: (حطب جهنم يقذفون فيها).

وفي التنزيل: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 24].

وقوله: ﴿أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾. أي: فيها داخلون.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَتْ هَؤُلَاءِ إِلَهًا مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

قال ابن زيد: (الآلهة التي عبد القوم، قال: العابد والمعبود).

والمعنى: لو كان هؤلاء آلهة كما زعمتم ما دخلوا النار، وكل من العابد والمعبود في النار خالدون.

وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾.

أي: لهؤلاء المشركين واليهتهم زفير في نار جهنم وهم في النار لا يسمعون.
قال النسفي: ﴿لَهُمْ﴾ للكفار ﴿فِيهَا زَفِيرٌ﴾ أنين وبكاء وعويل ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ شيئاً ما ، لأنهم صاروا صماً وفي السماع نوع أنس فلم يعطوه).
وفي التنزيل: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ [هود: 106]. والزفير: خروج أنفاسهم ،
والشهيقي: ولوج أنفاسهم .

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾.
قال عكرمة: ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ الرحمة. وقال غيره: السعادة .

أخرج الطبراني والحاكم بسند صحيح عن ابن عباس قال: [لما نزلت: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرِدُّونَ﴾]. قال عبد الله ابن الزُّبَيْرِ: أنا أخصم لكم محمداً، فقال: يا محمد! أليس فيما أنزل عليك: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرِدُّونَ﴾؟ قال: نعم. فهذه النصراني 'تعبد عيسى' وهذه اليهود تعبد عزيزاً وهذه بنو نعيم تعبد الملائكة فهؤلاء في النار؟! فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾⁽¹⁾.

وعن عطاء، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: [لما نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ الآية ، قال المشركون: عيسى يعبد، وعزير والشمس والقمر! فأنزل سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾]⁽²⁾.

والخلاصة: إن الذين سبق لهم من الله السعادة أحسن الله مآلهم وثوابهم بما أسلفوا من الأعمال الصالحة في الدنيا ، فنجاهم سبحانه من العذاب وحصل لهم رفيع الثواب .
وفي التنزيل نحو ذلك :

1 - قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: 26].

2 - وقال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن: 60].

وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري ، أن النبي ﷺ قال: [إن الله عز وجل

(1) أخرجه الطبراني عن ابن عباس ، والحاكم من طريق آخر وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي . انظر: «الصحيح المسند من أسباب النزول» - سورة الأنبياء - الآيات: «98 - 101» .

(2) أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» بسند صحيح . وانظر المرجع السابق .

يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة! فيقولون: لَبَّيْكَ ، ربنا وَسَعْدَيْكَ ، والخيرُ في يديكَ ، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى؟ يا رَبِّ! وقد أعطيتنا ما لم تُعْطِ أحداً مِنْ خَلْقِكَ . فيقول: ألا أعطيكم أفضلَ من ذلك؟ فيقولون: يا رَبِّ! وأيُّ شيء أفضلُ من ذلك؟ فيقول: أُحِلُّ عليكم رِضواني ، فلا أَسْخَطُ عليكم بعده أبداً⁽¹⁾ .

وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ .

قال ابن عباس: (يقول: لا يسمع أهل الجنة حسيس النار إذا نزلوا منزلهم من الجنة . قال: وهم فيما تشتهي نفوسهم من نعيمها ولذاتها ما كانوا فيها، لا يخافون زوالاً عنها ، ولا انتقالاً عنها).

قال ابن جرير: (ويعني بالحسيس: الصوت والحس).

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [قال الله عز وجل: أَعَدَدْتُ لعبادي الصالحين ما لا عَيْنٌ رَأَتْ ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، ولا خَطَرَ على قلبِ بشرٍ]⁽²⁾ . زاد في رواية: (ذُخْراً ، بَلَّةً⁽³⁾ ما أطلعكم الله عليه).

ومصدق ذلك قول الله تعالى في كتابه: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: 17] .

وقوله: ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ . قال ابن عباس: (يعني النفخة الآخرة).

وقال سعيد بن جبیر: (النارُ إذا أطبقت على أهلها). وقال الحسن: (انصراف العبد حين يؤمر به إلى النار). وقيل: الموت ، وقيل غير ذلك .

قلت ، وفي التنزيل: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزَعٌ مِّن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾ . فيكون الفزع للحشر وأهواله ، فأهل الإيمان يأمنون ذلك الفزع يومئذ بفضل رحمة الله بهم .

وقوله: ﴿وَنَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ .

أي: وتستقبلهم الملائكة يهتئونهم ويبشرونهم قائلين لهم: ﴿هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في صحيحه - حديث رقم - (2829) - كتاب الجنة ، وصفة نعيمها وأهلها ، من حديث أبي سعيد رضي الله عنه .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم (2824) - كتاب الجنة ، وصفة نعيمها وأهلها .

(3) بَلَّةٌ : بمعنى 'دع أو سوى' ، أي سوى ما ذكر في القرآن . والتقدير: دع ما أطلعتم عليه فإنه يسيرٌ في جنب ما أُذْخِرَ لهم .

كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿ فيه عظيم الثواب ، وجزيل التكريم ، ورفيع الجِباء ، مقابل ما صبرتم في الدنيا على طاعة الله وتعظيم أمره ، واجتناب نهيه وحراسة دينه في الأرض . وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : [حُقَّتْ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ ، وَحُقَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ] ⁽¹⁾ .

104 - 107 . قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ يُعِيدُهُمْ وَعَدَّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَعَالِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَالِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ .

في هذه الآيات : طُيَّ الله السماء يوم القيامة كطي الصحف ، وثبوت البشري للمؤمنين الصابرين على منهاج النبوة بملك الدنيا وسياستها وعز الآخرة . وهذا النبي الكريم ، إنما هو رحمة لجميع العالمين .
فقوله : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾ .

قال ابن عباس : (يقول : كطي الصحيفة على الكتاب) . وفي رواية : (كطي الصحف) .

وقال مجاهد : (السَّجَلُ الصحيفة) . والمقصود : كطي الصحف على ما فيها من المكتوبات .

وقوله : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ يُعِيدُهُمْ ﴾ . أي : كما بدأ سبحانه الخلق فهو القادر على إعادتهم وإحيائهم من قبورهم ليوم البعث والحساب . قال مجاهد : (حُفَاةٌ غُرَاةٌ غُرْلَاةٌ) .

وفي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : [خطب النبي ﷺ فقال : إنكم محشورون إلى الله حُفَاةٌ غُرَاةٌ غُرْلَاةٌ ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ يُعِيدُهُمْ وَعَدَّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَعَالِينَ ﴾ ، ثم إِنَّ أَوَّلَ مَنْ يَكْسَى يوم القيامة إبراهيم ، ألا إِنَّهُ يُجَاءُ بِرِجَالٍ مِنْ أُمَّتِي ، فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول : يا رب أصحابي ، فيقال : لا تَذْري مَا أَخَذُوا

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم (2822) - كتاب الجنة ، وصفة نعيمها وأهلها .

بَعْدُكَ. فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿شَهِيدٌ﴾ فيقال: إِنَّ هَؤُلَاءِ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ مُنْذُ فَارَقْتَهُمْ⁽¹⁾.

وقوله: ﴿وَعَدَّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾. أي: ذلك واجب الوقوع، فهو من جملة وعد الله الذي لا يُخلف ولا يُبَدِّل ولا بد من وقوعه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾.

قال مجاهد: ﴿الزَّبُورِ﴾ الكتاب ﴿وَمِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ قال: أم الكتاب عند الله). وقال سعيد: (كتبنا في القرآن من بعد التوراة).

قال القاسمي: ﴿الصَّالِحُونَ﴾: أي العاملون بطاعته. المنتهون إلى أمره ونهيه. دون العاملين منهم بمعصيته، المؤثرين طاعة الشيطان على طاعته. و﴿الزَّبُورِ﴾ علم على كتاب داود عليه السلام، ويقال: المراد به كل كتاب منزل. والذكر - قالوا - التوراة أو أم الكتاب. يعني اللوح الذي كتب فيه كل شيء قبل الخلق، والله أعلم).

قلت: والآية تحمل البشري للمؤمنين الصابرين على إقامة منهج الله تعالى بملك الدنيا وسياستها وعز الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَكِيدِينَ﴾. قال ابن عباس: (يقول: عاملين). وقال كعب: (لأمة محمد).

قال ابن كثير: (أي: إن في هذا القرآن الذي أنزلناه على عبدنا محمد ﷺ لبلاغاً: لَمَنْفَعَةً وكفاية لقوم عابدين، وهم الذين عبدوا الله بما شرَّعه وأحبَّه ورَضِيه، وآثروا طاعة الله على طاعة الشيطان وشهوات أنفسهم).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾. أي: رحمة مهداة من الله لجميع خلقه.

قال النسفي: (لأنه جاء بما يسعدهم إن اتبعوه، ومن لم يتبع فإنما أتى من عند نفسه حيث ضيَّع نصيبه منها. وقيل: هو رحمة للمؤمنين في الدارين وللكافرين في الدنيا

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4740) - كتاب التفسير - سورة الأنبياء، آية (104)، وأخرجه مسلم (2860)، ح (57)، وأخرجه أحمد في المسند (235/1)، (253/1).

بتأخير العقوبة فيها. وقيل: هو رحمة للمؤمنين والكافرين في الدنيا بتأخير عذاب الاستئصال والمسح والخسف).

وبعض أهل اللغة يذهبون إلى نصب ﴿رَحْمَةً﴾ على الحال، والتقدير: «ذا رحمة». ومنهم من يجعلها مفعولاً له. فيكون «إلا» للحصر، و«رحمة»: مفعول لأجله منصوب، وهذا وجه قوي.

وفي التنزيل: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 128].

ومن كنوز السنة الصحيحة في ذلك أحاديث كثيرة، منها:

الحديث الأول: أخرج ابن سعد في «الطبقات» والحاكم في «المستدرک» بسند صحيح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [يا أيها الناس، إنما أنا رحمة مهداة]⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرج ابن عساكر بسند صحيح لشواهد عن علي مرفوعاً: [إن الله بعثني إلى كل أحمَرٍ وأسود، ونُصرت بالرُّعب، وأُحِلَّ لي المغنم، وجُعِلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأعطيت الشفاعة للمذنبين من أمتي يوم القيامة]⁽²⁾.

الحديث الثالث: روى مسلم في صحيحه عن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: [قيل يا رسول الله! ادْعُ على المشركين، قال: إني لم أبعث لعناً، وإنما بُعِثْتُ رحمةً]⁽³⁾.

الحديث الرابع: روى مسلم عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [اللهم إنما أنا بشرٌ، فأئِمْنا رجُلٍ من المسلمين سببته، أو لعنته، أو جلدته، فاجعلها له زكاةً ورحمةً]⁽⁴⁾.

الحديث الخامس: أخرج أبو داود بسند صحيح عن عمرو ابن أبي قرعة قال: [كان

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (1/192) عن أبي صالح بإسناد صحيح مرسل، والحاكم في «المستدرک» ووصله عن أبي هريرة. انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (490).

(2) حديث صحيح. أخرجه ابن عساكر، وله شواهد كثيرة. انظر «مجمع الزوائد» (8/258 - 259)، وصحيح الجامع الصغير - حديث رقم - (1724).

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (2599) - كتاب البر والصلة، وأبو يعلى (6174).

(4) حديث صحيح. رواه مسلم في الصحيح - حديث رقم - (2601) - كتاب البر والصلة، وانظر: (2602)، (2600) من الباب نفسه.

حذيفة بالمداين ، فكان يذكر أشياء قالها رسول الله ﷺ لأناس من أصحابه في الغضب ، فينطلق ناسٌ ممن سمع ذلك من حذيفة ، فيأتون سلمان فيذكرون له قول حذيفة . فيقول سلمان: حذيفة أعلم بما يقول ، فيرجعون إلى حذيفة فيقولون له قد ذكرنا قولك لسلمان ، فما صدقك ولا كذبك!

فأتى حذيفة سلمان وهو في مَبَقْلَةٍ فقال: يا سلمان ، ما يمنعك أن تصدقني بما سمعتُ من رسول الله ﷺ؟ فقال سلمان: إن رسول الله ﷺ ، كان يغضب فيقول في الغضب لناس من أصحابه ، ويرضى فيقول في الرضا لناس من أصحابه . أما تنتهي! حتى تورث رجالاً حب رجال ، ورجالاً بغض رجال ، وحتى توقع اختلافاً وفرقة؟ ولقد علمت أن رسول الله ﷺ ، خطب فقال: «إِثْمَا رَجُلٌ مِنْ أُمِّي سَبَّيْتُهُ سَبَّةً ، أَوْ لَعَنْتُهُ لَعْنَةً فِي غَضِي ، فَإِنَّمَا أَنَا مِنْ وَلَدِ آدَمَ ، أَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُونَ ، وَإِنَّمَا بَعَثَنِي رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ، فَاجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ صَلَاةَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ». والله لتنتهين! أو لأكتبن إلى عمر⁽¹⁾.

108 - 112. قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ۚ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقْرَبُ أَمَ بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ۚ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ۚ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّكُمْ فَتَنَةٌ لَّكُمْ وَمَنْعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۚ قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ۚ﴾.

في هذه الآيات: وَخِي اللهُ تعالى إلى نبيه عليه الصلاة والسلام ، أَنَّهُ تعالى الإلهُ الحقُّ الأحد الصمد الذي لا ينبغي أن يعبدَ غيره الأنام ، وإعلانُ البراءة من القوم إن أصرّوا على الجاهيلة واجتناب الإسلام ، وإخبارُ الله نبيّه لِيَعْلَمَ قَوْمَهُ أن حلول وقت عقابهم إنما هو بيد الرحمان ، فهو يعلم السر وأخفى وله الحكم وهو المستعان .

فقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَحِدٌ ۖ﴾ .

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره لنبيّه محمد ﷺ: قل يا محمد: ما يوحى إلي ربي

(1) حديث صحيح . أخرجه أبو داود (4659) ، وأحمد (437/5) بإسناد حسن . وانظر صحيح سنن أبي داود (3894) - كتاب السنّة ، باب في النهي عن سب أصحاب رسول الله ﷺ .

إِلَّا أَنَّهُ لَا إِلَهَ لَكُمْ يَجُوزُ أَنْ يُعْبَدَ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ ، لَا تَصْلُحُ الْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ ، وَلَا يَنْبَغِي ذَلِكَ لِغَيْرِهِ . ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ يقول : فهل أنتم مذعنون له أيها المشركون ، العابدون الأوثان والأصنام بالخضوع لذلك ، ومتبرئون من عبادة ما دونه من آلهتهم .

وقوله : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ . قال ابن جريج : (فإن تولوا: يعني قريشاً) . قال القرطبي : (أي إن أعرضوا عن الإسلام ﴿ فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ أي أعلمتكم على بيان أنا وإياكم حرب لا صلح بيننا) .

والمقصود : إعلان البراءة من القوم إن أصرروا على الجاهلية واجتناب الإسلام .

وفي التنزيل :

1 - قال تعالى : ﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيْعُونَ مِمَّا آَعَمَلُوا وَأَنَا بَرِيْعٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس : 41] .

2 - قال تعالى : ﴿ وَإِمَّا تَخَافُ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْذِرْهُمْ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ [الأنفال : 58] .

وقوله : ﴿ وَلَئِنْ أَذْرَيْتَ أَقْرَبَ أَمْ يُعِيدُ مَا تُوْعِدُونَ ﴾ . قال ابن جريج : (الأجل) .

والمقصود : إخبار الله تعالى نبيه ﷺ ليقول لقومه المعاندين : إن الوقت والأجل الذي يحل به عقاب الله بكم لا أعلمه ، وربما كان قريباً أو يؤخره تعالى بحكمته إلى أجل أبعد ، فالأمر راجع إلى مشيئته وحكمته جلت عظمته وقدرته ، وإنما أنا لكم نذير .

وفي الصحيحين عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال : [مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قوماً ، فقال : يا قوم إني رأيت الجيش بعيني ، وإني أنا النذير الثريان ، فالنساء النجاء ، فأطاعه طائفة من قومه ، فأدلىجوا ، وانطلقوا على مهلبهم فنجوا ، وكذبت طائفة منهم ، فأصبحوا مكانهم ، فصبّحهم الجيش ، فأهلكهم واجتاحهم ، فذلك مثل من أطاعني فاتبع ما جئت به ، ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من الحق] (1) .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّتُمْ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴾ .

أي : إنه تعالى يعلم السر وأخفى ، ويعلم الغيب وما سيكون ، ويعلم ما تخفي

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (6482) ، كتاب الرقاق . وأخرجه مسلم (2283) ، كتاب الفضائل ، من حديث أبي موسى رضي الله عنه .

الصدور ، ويعلم ما يسرون وما يعلنون ، فلا يغيبُ عنه شيء من أمر خلقه .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَدْرَىٰ لَعَلَّهُمْ فِتْنَةً لَّكُمْ وَمَنَعَ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ .

قال ابن عباس : (يقول : لعل ما أقرب لكم من العذاب والساعة ، أن يؤخر عنكم لمدتكم ، ومتاع إلى حين ، فيصير قولي ذلك لكم فتنة) .

وقال ابن جرير : (لعل تأخيرهُ ذلك عنكم مع وعده إياكم ، لفتنة يريدُها بكم ، ولتتمتعوا بحياتكم إلى أجل قد جعله لكم تبلغونه ، ثم ينزل بكم حيثنذ نعمته) .

وقوله : ﴿ قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ ﴾ . أي : قل يا محمد : يا رب افصل بيني وبين قومي ممن كذبني بالحق . قال ابن عباس : (لا يحكم بالحق إلا الله ، ولكن إنما استعجل بذلك في الدنيا ، يسأل ربه على قومه) . قلت : وهذه الدعوة قد مضى عليها الأنبياء من قبل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

ففي التنزيل نحو ذلك : ﴿ رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ [الأعراف : 89] .

وقوله : ﴿ وَرَبَّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ . أي : قل يا محمد : وربنا الرحمن الذي وسعت رحمته كل شيء ، وغمرت نعمته كل عباده ، أستعينُ به على تكذيبكم وعنادكم وجحودكم آلاءه ورحمته بكم بإرساله لي بالنبوة ومنهج النجاة لكم .

قال النسفي : ﴿ وَرَبَّنَا الرَّحْمَنُ ﴾ العاطف على خلقه ﴿ الْمُسْتَعَانُ ﴾ المطلوب منه المعونة ﴿ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ - قال : كانوا يصفون الحال على خلاف ما جرت عليه ، وكانوا يطمعون أن تكون الشوكة لهم والغلبة فكذب الله ظنونهم وخيب آمالهم ونصر رسول الله ﷺ والمؤمنين ، وخذلهم - أي الكفار - وهو المستعان على ما يصفون) .

تم تفسير سورة الأنبياء

بعون الله وتوفيقه ، وواسع منه وكرمه



دروس ونتائج وأحكام

- 1 - اقتربت الساعةُ ولا يزداد الناس على الدنيا إلا حرصاً ، ولا يزدادون من الله إلا بعداً.
- 2 - شرف العرب بهذا القرآن والنبى عليه الصلاة والسلام ، ووجوب الرجوع لفهم الدين إلى أهل العلم والإيمان .
- 3 - تعاقب سنن الله في أمم المكذبين ، واعتراف القوم بظلمهم حين نزول العذاب المهين .
- 4 - سنة الله رفع لواء الحق وأهله ، وتنكيس لواء الباطل وإزهاقه .
- 5 - الله تعالى هو الإله الحق الأحد الصمد ، ولو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا .
- 6 - الميزان يوم القيامة له كفتان ، والوزن يومئذ بالحق فلا تظلم نفس شيئاً .
- 7 - التوراة والإنجيل والقرآن فرقان بين الحق والباطل ، والقرآن ناسخٌ لكل الشرائع قبله وهو الكتاب الكامل .
- 8 - سنة الله تعالى في تأييد ونجاة المرسلين ومن معهم من المؤمنين ، وإنزالُ الهلاك والعذاب على الملأ الكافر وأتباعهم من المجرمين .
- 9 - وحدة منهاج الأنبياء ، فإن الأنبياء إخوة لعلات ، دينهم واحد وأمهاتهم شتى .
- 10 - خروج يأجوج ومأجوج آخر الزمان ، بعد هلاك الدجال على يد المسيح عيسى عليه السلام .

22

سُورَةُ الْحَجِّ

آيَاتُهَا
٧٨تَرْتِيبُهَا
٢٢

قال الجمهور: (السورة مختلطة ، منها مَكِّي ومنها مَدَنِي). وعدد آياتها (78).

موضوع السورة

تشريع الحج إلى بيت الله الحرام
وإحياء ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام

- منهاج السورة -

- 1- الأمر بصدق التقوى لمواجهة أحداث زلزلة الساعة وأحوال القيامة.
- 2- ذم المكذبين بالبعث والنشور ، والمتبعين في مناهجهم كل شيطان مريد.
- 3- الاستدلال على البعث ببدء الخلق ، ومراحل خلق الإنسان حتى البعث من القبر.
- 4- نعت أرباب الضلال بعد وصف الضلال ، فهم يجمعون بين قلة العلم وحب الجدل.
- 5- نعت حال أكثر الناس في تأرجح صلتهم بالله ، فهم يعبدونه على شرط العافية والرزق ، فإن نزل بهم بعض الآلام والمصائب تغير حالهم.
- 6- ذكر أهل السعادة بعد ذكر أهل الشقاوة ، فهم في روضات الجنات ناعمون.
- 7- دعوة للحاقددين على نصر هذا الدين أن يموتوا بغیظهم ، فإن الله ناصر رسوله ودينه.

- 8 - الفصل بين الملل يوم القيامة ، واشتراك جميع المخلوقات في السجود لله ، وامتناع الكافرين وقد حقّ عليهم الخزي والعذاب .
- 9 - اختصام الفريقين يوم القيامة : فريق الأولياء ، وفريق الكفرة الأعداء . فالفريق الأول أهل النعيم ، والفريق الثاني أهل الشقوة والجحيم .
- 10 - ذمُّ الله الصّادّين عن سبيله والمسجد الحرام ، وأمرُ الله إبراهيم بعمارة البيت ومناداة الناس للحج من جميع البلدان .
- 11 - تعظيمُ الحرمات وتعظيم الشعائر من تقوى القلوب ، والبُذْن فيها منافع ثم محلها إلى البيت العتيق ، وذبحُ المناسك على اسم الله أمرٌ للمؤمنين المختبتين ، والله تعالى يناله التقوى من المؤمنين .
- 12 - دفاع الله تعالى عن المؤمنين ، وسخطه على الخائنين الكافرين ، وتشريع القتال لإقامة هذا الدين ، ودفعُ الله الناس بعضهم ببعض لنصرة الحق المبين .
- 13 - الوعد للمؤمنين الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويأمرّون بالمعروف وينهون عن المنكر بالشوكة والتمكين .
- 14 - إخبار الله تعالى عن تكذيب الأمم المرسلين ، ونزول الدمار والهلاك على القوم المسرفين المستكبرين .
- 15 - استعجال المشركين العذاب وليسوا بمعجزين ، ولهم في الآخرة عذاب الجحيم ، والمؤمنون موعودون بالنصر في الدنيا ولهم في الآخرة جنات النعيم .
- 16 - إبطال الله وساوس وأماني الشيطان ، ونسخ الله بحكمته بعض الأحكام .
- 17 - استمرار الكفار في الشك والريب من هذا القرآن ، حتى تنزل بهم ساعة الانتقام .
- 18 - ثناء الله على المهاجرين والمجاهدين ، ووعدهم بالنصر المبين والرزق الكريم .
- 19 - ربطُ النصر بأمر الله ، والله هو الحق وماذا بعد الحق إلا الضلال .
- 20 - إخبار الله عن عجائب آياته في هذا الكون ، ولكن الإنسان كفور .
- 21 - تقرير الله الشرائع في كل أمة ، وجعل شريعة محمد ﷺ ناسخة لكل شريعة ، وتهديد ووعد للذين جعلوا منهاجهم جدال المرسلين .

22 - إخبارُ الله عن كمال قدرته وكتابته كل شيء ، ونعتُ سلوك المجرمين تجاه المؤمنين ، والنار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير .

23 - تسفيهُ آلهة المشركين ، فهي عاجزة عن خلق ذباب واحد ، وهم عاجزون عن الانتصار لها لو سلبها الذباب شيئاً ، فضعف الطالب والمطلوب ، والله هو القوي العزيز .

24 - اجتباءُ الله الرسل وعلمه بأعمالهم وما هم قادمون عليه ، ومردّ جميع الأمور ومصير جميع العباد إلى الله تعالى .

25 - أمرُ الله تعالى عباده المؤمنين بالصلاة والجهاد وبذل وسعهم لخدمة هذا الدين ، ملة أبيهم إبراهيم الذي سمّاهم المسلمين .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

1 - 2. قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾.

في هذه الآيات: أمر الله عباده أن يصدّقوه التقوى فإن زلزلة أهوال القيامة شيء عظيم. فهناك ترك الأم ولدها لشدة الكرب وتُسقط كل حامل حملها وترى الناس سكارى من شدة الخوف وليس من الشراب ، فلقد عظم ما يعاينونه من الأهوال .
فقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾.

ترغيب وترهيب ، وتطميع وتخويف ، يحث الله تعالى بذلك عباده على است فراغ وسعهم في تقواه ، والاستعداد لمواجهة أحداث يوم ع صيب ، وأهوال قيام الساعة .
وأصل الزلزلة شدة الحركة ، فهي من زَلَّ عن الموضع إذا زال عنه وتحرك .
والجمهور على أنها الزلزلة المعروفة التي هي إحدى شرائط الساعة ، والتي تكون في الدنيا قبل يوم القيامة .

قلت: والراجع أن هذه الزلزلة تشمل إضافة لذلك أهوال يوم الحشر وما يكون فيه من أمور عظيمة ، فإن لفظة «الزلزلة» تستعمل في تهويل الشيء ، وقد جاءت السُّنة الصحيحة بتفصيل زلزلة ذلك اليوم في أحاديث :

الحديث الأول: أخرج الترمذي بسند صحيح عن عمران بن حصين قال: [كنا مع النبي ﷺ في سفر فتفاوت بين أصحابه في السير ، فرفع رسول الله ﷺ صوته بهاتين الآيتين: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ - إلى قوله - ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾. فلما سمع ذلك أصحابه حثوا المطي وعرفوا أنه عند قول يقوله. فقال:

«هَلْ تَذُرُونَ أَيَّ يَوْمٍ ذَلِكَ؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «ذلِكَ يَوْمٌ يُنَادِي اللهُ فِيهِ آدَمَ فِينَادِيهِ رَبُّهُ فَيَقُولُ: يَا آدَمُ ابْعَثْ بَعْثَ النَّارِ. فَيَقُولُ: أَيُّ رَبٍّ وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ فَيَقُولُ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعٌ مِئَةٌ وَتِسْعَةٌ وَتَسْعُونَ إِلَى النَّارِ، وَوَاحِدٌ إِلَى الْجَنَّةِ». فَيَسِّرُ الْقَوْمُ حَتَّى مَا أَبْدُوا بِضَاحِكَةٍ. فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ اللهِ ﷺ الَّذِي بِأَصْحَابِهِ قَالَ: «اعْمَلُوا وَأَبْشُرُوا، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنَّكُمْ لَمَعَ خَلِيقَتَيْنِ مَا كَانَتَا مَعَ شَيْءٍ إِلَّا كَثُرَتَا: يَأْجُوجُ وَمَاجُوجُ، وَمَنْ مَاتَ مِنْ بَنِي آدَمَ، وَبَنِي إِبْلِيسَ».

قال: فَسُرِّيَ عَنِ الْقَوْمِ بَعْضُ الَّذِي يَجِدُونَ، قال: «اعْمَلُوا وَأَبْشُرُوا فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا أَنْتُمْ فِي النَّاسِ إِلَّا كَالشَّامَةِ فِي جَنْبِ الْبَعِيرِ أَوْ كَالرَّقَمَةِ فِي ذِرَاعِ الدَّابَّةِ»⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري قال: قال النبي ﷺ: [يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ. فَيُنَادِي بِصَوْتٍ: إِنَّ اللهَ بِأَمْرِكَ أَنْ تُخْرِجَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ. قال: يَا رَبَّ وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قال: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ - أَرَاهُ قَالَ - تِسْعٌ مِئَةٌ وَتِسْعَةٌ وَتَسْعِينَ، فَحِينَئِذٍ تَضَعُ الْحَامِلُ حَمْلَهَا وَيَشِيبُ الْوَلِيدُ ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكْرَى وَمَا هُمْ بِسُكْرَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾. فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ حَتَّى تَغَيَّرَتْ وُجُوهُهُمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مِنْ يَأْجُوجَ وَمَاجُوجَ تِسْعٌ مِئَةٌ وَتِسْعَةٌ وَتَسْعِينَ وَمِنْكُمْ وَاحِدٌ. ثُمَّ أَنْتُمْ فِي النَّاسِ كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جَنْبِ الثَّوْرِ الْأَبْيَضِ أَوْ كَالشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جَنْبِ الثَّوْرِ الْأَسْوَدِ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ: «ثُلُثُ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ: «شَطْرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فَكَبَّرْنَا⁽²⁾.

الحديث الثالث: أخرجه أبو يعلى وابن حبان والحاكم بسند حسن من حديث أنس قال: [يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ] - إِلَى - ﴿وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ قال: نزلت على النبي ﷺ وهو في مَسِيرٍ لَهُ، فَرَفَعَ بِهَا صَوْتَهُ حَتَّى ثَابَ إِلَيْهِ أَصْحَابُهُ فَقَالَ: «أَتَدْرُونَ أَيَّ يَوْمٍ هَذَا؟ هَذَا يَوْمٌ يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَأَدَمَ ﷺ يَا آدَمُ قُمْ فَابْعَثْ بَعْثَ أَهْلِ النَّارِ، مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعٌ مِئَةٌ وَتِسْعَةٌ وَتَسْعُونَ إِلَى النَّارِ وَوَاحِدٌ

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (3394) - في التفسير، سورة الحج، الآيات: «1 - 2». وانظر صحيح سنن الترمذي - حديث رقم - (2534)، وصحيح مسلم (1/139).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4741)، كتاب التفسير، سورة الحج، باب قوله: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكْرَى﴾ [الحج: 2]، وانظر صحيح مسلم (222)، ومسند أحمد (3/32).

إلى الجنة». فَكَبَّرَ ذلك على المسلمين ، فقال النبي ﷺ: «سَدُّوا وقاربوا وأبشروا فوالذي نفسي بيده ما أنتم في الناس إلا كالشَّامة في جنب البعير أو كالزُّرْقة في ذراع الحمار وإن معكم خليقتين ما كانتا مع شيء إلا كثرتهن يأجوج ومأجوج ومن هلك من كفره الجن والإنس»⁽¹⁾.

وعن ابن زيد: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ قال: ترك ولدها للكرب الذي نزل بها). وقال الحسن: (ذهلت عن أولادها بغير فطام). والمقصود: شدة الهول يوم الحشر ومتاعب النفوس القادمة على الحساب.

وعن الحسن: ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ ، يقول: وتسقط كل حامل من شدة كرب ذلك حملها). قال: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى﴾ من الخوف ﴿وَمَا هُمْ بِسُكَارَى﴾ من الشراب).

وعن ابن جريج: ﴿وَمَا هُمْ بِسُكَارَى﴾ قال: ما هم بسكارى من الشراب ﴿وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾).

وعن ابن وهب قال: (قال ابن زيد ، في قوله: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى﴾ قال: ما شربوا خمراً ﴿وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ يقول تعالى ذكره: ولكنهم صاروا سكارى من خوف عذاب الله عند معاينتهم ما عاينوا من كرب ذلك وعظيم هوله ، مع علمهم بشدة عذاب الله).

والمقصود: أن الناس يصيرون يومئذ في دهشة في عقولهم ، فتغيب أذهانهم من شدة الهول حتى يحسبهم من ينظر إليهم سكارى وما هم كذلك على الحقيقة.

3 - 4. قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ۖ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَتَهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾.

في هذه الآيات: ذمُّ الله تعالى مُكَذِّبِي البعث والنشور ، ومنكري قدرة الله تعالى على إحياء مَنْ في القبور ، وَهُمْ بذلك مُتَّبِعُونَ كل شيطان مريد من أهل الجن أو الإنس

(1) حديث حسن. أخرجه أبو يعلى (3122) ، وصححه ابن حبان (7354) ، والحاكم (29/1) ، (566/4) ووافقه الذهبي ، وإسناده على شرطهما ، وهو متصل الإسناد ، وتقديم شهادته.

أصحاب العتو والغلو والشُرور. لقد قضى على الشيطان وكتب عليه أن أتباعه يقتبسون من ضلاله المفضي إلى عذاب السعير.

فعن ابن جريج: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ قال: النضر بن الحارث. ويعني بقوله: ﴿مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ من يخاصم في الله، فيزعم أن الله غير قادر على إحياء من قد بلي وصار تراباً، بغير علم يعلمه، بل بجهل منه بما يقول، ﴿وَيَتَّبِعُ﴾ في قلبه ذلك وجداله في الله بغير علم ﴿كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾.

ولا شك أن هذا حال كثير من أهل البدع والضلال، فهم يعرضون عن اتباع الحق بدليل صحيح، ويمضون خلف أهوائهم وما ألفوا عليه آباءهم ومشايخهم، فيقعون في الغلو أو الابتداع أو تحكّم المردة من الشياطين.

ففي مسند الإمام أحمد بسند صحيح عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: [إياكم والغلو، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو]⁽¹⁾.

وفي الصحيحين عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: [من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد]⁽²⁾.

وقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ﴾. قال قتادة: (كتب على الشيطان، أنه من اتبع الشيطان من خلق الله). وقال مجاهد: ﴿أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ﴾ قال: الشيطان اتبعه. وقوله: ﴿فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ﴾ يقول: فإن الشيطان يضلّه، يعني: يُضِلُّ من تَوَلَّاهُ).

والمقصود: قضى على الشيطان وسبق أن كتب عليه أنه يُضلُّ أتباعه ولا يهديهم الحق.

وقوله: ﴿وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾.

قال ابن جرير: (يقول: ويسوق من اتبعه إلى عذاب جهنم الموقدة، وسياقه إياه إليه بدعائه إياه إلى طاعته ومعصية الرحمن، فذلك هدايته من تبعه إلى عذاب جهنم).

قلت: والآية تجمع بين مراتب الضلال الثلاث:

أ - الضياع والانحراف.

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (1/215) من حديث عبد الله بن عباس، وسنده صحيح. انظر تحقيق: «فتح المجيد» (249 - 250).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5/221) - في الصلح، وأخرجه مسلم (1718) - في الأقضية.

ب - الترك والإهمال والتناسي والخذلان .

ج - الهداية إلى النار يوم القيامة .

وفي التنزيل :

1 - قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ يَجْعَلْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ [النساء : 168 - 169] .

2 - وقال تعالى: ﴿ أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَنَّةِ ﴾ [الصافات : 22 - 24] .

وفي جامع الترمذي بسند حسن عن عبد الله بن عمرو ، عن النبي ﷺ قال : [يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال ، يغشاهم الذل من كل مكان ، يساقون إلى سجن في جهنم يسمى بولس ، تعلوهم نار الأنيار ، يسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال]⁽¹⁾ .

5- 7 . قوله تعالى: ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ثَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرِّفَ الْأَرْحَامَ مَا شَاءَ إِلَٰهٌ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُؤَوَّقُ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٦﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتِ وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾ .

في هذه الآيات : استدلالٌ على البعث ببدء الخلق ، فالله تعالى بدأ خلق الإنسان من طين ، ثم من نطفة من ماء مهين ، ثم سواه علقة فمضغة لِتَتَابَعِ تشكيله وتخطيطه أو يُوقَفَ فيكون الإسقاط ، فتارة يستقر في الرحم وتارة لا يستقر ، ثم يخرج الجنين طفلاً

(1) حديث حسن . انظر صحيح سنن الترمذي (2025) ، وتخریج المشكاة (5112) ، وصحيح الجامع الصغير - حديث رقم - (7896) .

فيرعاه ليصبح شاباً يمدّه بالهمة والقوة ، ثم قد يُقبضُ في حالة الشباب ، وقد يمدّ له في العمر إلى الشيخوخة والهرم ، وظهور علامات العجز وضعف العقل والفهم ، وكذلك الأرض تتحرك بالنبات بنزول المطر عليها ، وتخرج الأصناف من الثمار والزرع . كل ذلك بسبب أن الله هو الحق وحده المحيي والمميت ، فهو الذي يبعث من في القبور ليوم الحشر والحساب .

فقوله : ﴿ يَكَايْهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ ۞ ﴾ .

ردُّ على المنكرين للبعث والمعاد ، بذكره سبحانه إحاطته بأحوال العباد ، فهو خلقهم أول مرة من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة ﴿ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ ۚ ۞ ﴾ . قال قتادة : (تامة وغير تامة) . وقال مجاهد : (السَّطْرُ مخلوق وغير مخلوق) .

قال النسفي : (يعني إن ارتبتم في البعث فمزيل ريحكم أن تنظروا في بدء خلقكم وقد كنتم في الابتداء تراباً وماء ، وليس سبب إنكاركم البعث إلا هذا وهو صيرورة الخلق تراباً وماء ﴿ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ ۚ ۞ ﴾ أي أباكم ﴿ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ ۚ ۞ ﴾ خلقتم ﴿ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ۚ ۞ ﴾ أي قطعة دم جامدة ﴿ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ ۚ ۞ ﴾ أي لحمية صغيرة قدر ما يمزج ﴿ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ ۚ ۞ ﴾ المخلقة المسواة للمساء من النقصان والعيب ، كأن الله عز وجل يخلق المضغة متفاوتة منها ما هو كامل الخلقة أملس من العيوب ومنها ما هو على عكس ذلك ، فيتبع ذلك التفاوت تفاوت الناس في خلقهم وصورهم وطولهم وقصرهم وإتمامهم ونقصانهم ، وإنما نقلناكم من حال إلى حال ومن خلقة إلى خلقة ﴿ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ ۞ ﴾ بهذا التدرج كمال قدرتنا وحكمتنا ، وأن من قدر على خلق البشر من تراب أولاً ثم من نطفة ثانياً ولا مناسبة بين التراب والماء ، وقدر أن يجعل النطفة علقة والعلق مضغة والمضغة عظماً قادراً على إعادة ما بدأه) .

وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال : [حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - وهو الصادق المصدوق - قال : إِنَّ أَحَدَكُمْ يَجْمَعُ خَلْقَهُ فِي بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله إليه ملكاً ، ويؤمر بأربع كلمات ، ويقال له : اكتب عمله ورزقه وأجله وشقي أو سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح] ⁽¹⁾ .

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (3208) ، ومسلم (2643) ، وأبو داود (4708) ، والترمذي (2137) ، وابن ماجه (76) ، وأحمد (382/1) ، وابن حبان (6174) .

قال ابن كثير: (وذلك أنه إذا استقرت النطفة في رحم المرأة ، مكثت أربعين يوماً كذلك ، يُضاف إليه ما يجتمع إليها ، ثم تنقلب علقة حمراء بإذن الله ، فتمكث كذلك أربعين يوماً ، ثم تستحيل فتصير مضغة : قطعة من لحم لا شكل فيها ولا تخطيط ، ثم يشرع في التشكيل والتخطيط ، فيصوّر منها رأس ويدان ، وصدر وبطن ، وفخذان ، ورجلان ، وسائر الأعضاء . فتارة تسقطها المرأة قبل التشكيل والتخطيط ، وتارة تلقاها وقد صارت ذات شكل وتخطيط ، ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ ، أي كما تشاهدونها).

وقوله: ﴿وَنَقَرُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ . قال مجاهد: (التمام).

وقال ابن زيد: (الأجل المسمى: إقامته في الرحم حتى يخرج).

والمقصود: أنه تارة يستقر الحمل في الرحم وتارة لا يستقر . قال القرطبي: (والأجل المسمى يختلف بحسب جنين وجنين ، فثَمٌّ من يسقط وثَمٌّ من يكمل أمره ويخرج حيّاً).

وقوله: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ . أي: في حالة من الضعف في البدن والحواس يحتاج إلى رعاية الأهل وحنان الأبوين . قال القرطبي: (﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ أي أطفالاً ، فهو اسم جنس . وأيضاً فإن العرب قد تسمي الجمع باسم الواحد).

وقوله: ﴿ثُمَّ لَتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ﴾ . أي: في كمال الشباب واستواء العقل وحسن المنظر.

قال ابن جرير: (يقول: ثم لتبلغوا كمال عقولكم ونهاية قواكم بعمركم).

وقوله: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُوَفَّ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً﴾ .

أي: ومنكم من يقبض في حالة شبابه وقوته ، ومنكم من يُمدد له في العمر إلى حالة الشيخوخة والهرم ، وظهور علامات العجز وضعف العقل والفهم .

وفي التنزيل:

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: 54].

قلت: ومن بلغه الله من العمر ستين سنة فقد أقام حجته تعالى عليه في العمر،

فيكون بذلك قد أخذ حذّه الكامل ليختار طريق الإيمان أو طريق الكفر ، وإنما الناس في غفلة عن ذلك .

ومن كنوز صحيح السنة في آفاق هذا المعنى أحاديث :

الحديث الأول: أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال :
[أعذر الله إلى امرئ أخر أجله حتى بلغ ستين سنة]⁽¹⁾ .

الحديث الثاني: أخرج الحاكم بسند صحيح عن أبي هريرة مرفوعاً: [إذا بلغ الرجل من أمتي ستين سنة ، فقد أعذر الله إليه في العمر]⁽²⁾ .

ورواه عبد بن حميد من حديث سهل بن سعد بلفظ: [إذا بلغ الله العبد ستين سنة فقد أعذر إليه ، وأبلغ إليه في العمر] .

الحديث الثالث: أخرج الحاكم بسند صحيح عن سهل بن سعد مرفوعاً: [من عمّر من أمتي سبعين سنة ، فقد أعذر الله إليه في العمر]⁽³⁾ .

وله شاهد في المسند من طريق سعيد المقبري عن أبي هريرة بلفظ: [لقد أعذر الله إلى عبد أحياء حتى بلغ ستين أو سبعين سنة ، لقد أعذر الله إليه]⁽⁴⁾ .

الحديث الرابع: أخرج الترمذي وابن ماجه بسند حسن لذاته عن أبي هريرة مرفوعاً: [أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين ، وأقلهم من يجوز ذلك]⁽⁵⁾ .

وقوله: ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً ﴾ . قال ابن جريج: (لا نبات فيها) .

وقوله: ﴿ فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾ . قال قتادة: (حسنّت ، وعُرف الغيث في ربوها) .

والمقصود: تحركت بالنبات بنزول المطر عليها ، ﴿ وَرَبَتْ ﴾ . أي: ضاعفت النبات

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (11/ 200 - فتح) ، وانظر مسند أحمد (2/ 275) .

(2) حديث صحيح . أخرجه الحاكم (2/ 427 - 428) ، والخطيب في «التاريخ» (1/ 290) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1089) . وانظر لرواية عبد بن حميد - بعده - صحيح الجامع (408) .

(3) حديث صحيح . أخرجه الحاكم (2/ 428) ، وقال: «صحيح على شرط الشيخين» ووافقه الذهبي . قال الألباني في السلسلة الصحيحة (3/ 80) - عقب الحديث 1089 - (وهو كما قال) .

(4) حديث صحيح . أخرجه أحمد في المسند (2/ 275) ، وانظر مستدرک الحاكم (2/ 427 - 428) .

(5) حسن لذاته ، صحيح لغيره . أخرجه الترمذي (2/ 272) ، وابن ماجه (4236) ، وابن حبان في «صحيحه» (96/ 2) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (757) .

واشتد ثمرها ، فأنبت ما فيها من الألوان والفنون من أصناف الثمار والزروع وأنواع النباتات المختلفة الطعوم والروائح والأشكال والمنافع والألوان .

وقوله : ﴿ وَأَنْبَتَ مِنْ كُلِّ ذَوْجٍ بِهَيْجٍ ﴾ . قال قتادة : (حسن) . والبهيج : ما هو حسن المنظر طيب الريح .

وقوله : ﴿ ذَلِكَ يَأْنِ لِلَّهِ هُوَ الْحَقُّ ﴾ . قال القاسمي : (أي ذلك الذي ذكر من خلق الإنسان على أطوار مختلفة ، وتصريفه في أحوال متباعدة ، وإحياء الأرض بعد موتها ، حاصل بسبب أن الله هو الحق وحده في ذاته وصفاته وأفعاله . المحقق لما سواه من الأشياء . فهي من آثار ألوهيته وشؤونه الذاتية وحده ، وما سواه مما يعبد باطل ، لا يقدر على شيء من ذلك) .

وقوله : ﴿ وَأَنْتُمْ يُحْيِ الْمَوْتَى ﴾ . أي : كما أحيا النطفة والأرض الميتة ، فهو سبحانه القادر على ذلك .

وفي التنزيل :

1 - قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَحْيَاها لَمُحْيِ الْمَوْتِ إِنَّهُمْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فصلت : 39] .

2 - وقال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَغَيِّمْ خَلْقَهُنَّ بِقَدْرِ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتِ بَلَى إِنَّهُمْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأحقاف : 33] .

3 - وقال تعالى : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس : 79] .

ومن صحيح السنة العطرة في آفاق ذلك المعنى أحاديث :

الحديث الأول : أخرج أبو نعيم في «الحلية» بسند حسن في الشواهد ، عن عبد الله بن سلام مرفوعاً : [لا تفكروا في الله ، وتفكروا في خلق الله ، فإن ربنا خلق ملكاً ، قدماه في الأرض السابعة السفلى ، ورأسه قد جاوز السماء العليا ، ما بين قدميه إلى ركبتيه مسيرة ست مئة عام ، وما بين كعبيه إلى أخمص قدميه مسيرة ست مئة عام ، والخالق أعظم من المخلوق] (1) .

الحديث الثاني : روى الطبراني في «الأوسط» بسند حسن لشواهد ، عن عبد الله بن

(1) حسن لشواهد . أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (66/6 - 67) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة - حديث رقم - (1788) ، وما في حاشيته من التحقيق .

عمر مرفوعاً: [تفكروا في آلاء الله ، ولا تفكروا في الله عز وجل] (1).

وله شاهد من حديث أبي هريرة مرفوعاً به . وزاد: [فإنكم لن تدركوه إلا بالتصديق].

وشاهد من حديث ابن عباس بلفظ: [تفكروا في خلق الله ، ولا تفكروا في الله] (2).

الحديث الثالث: أخرج أبو داود وابن ماجه بسند حسن عن أبي رزين ، قال موسى العقبلي ، قال: [قلت: يا رسول الله ، أكلنا يرى ربه ؟ مخلياً به يوم القيامة ، وما آية ذلك في خلقه ؟ قال: يا أبا رزين ، أليس كلكم يرى القمر ليلة البدر مخلياً به ؟ قلت: بلى ! قال: فالله أعظم فإنما هو خلق من خلق الله ، فالله أجل وأعظم] (3).

وقوله: ﴿وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. أي: لا يمتنع على قدرته العجيبة شيء.

وقوله: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾. أي: قادمة لا شك في ذلك ولا ريب.

وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾. أي: من الأموات ، لموقف الحشر ، ونوال الثواب والعقاب.

8 - 10. قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّثِيرٍ﴾

﴿ثَانِي عَظِيمٍ﴾ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَمَّا فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

في هذه الآيات: وَضُفُّ أَرْبَابِ الضَّلَالِ بعد نَعْتِ الضَّلَالِ ، فَهُمْ فِي حَالَةِ تَنْطَعٍ وَغُرُورٍ ، وَقِلَّةٍ فِي الْعِلْمِ وَالْحِجَّةِ ، وَإِنَّمَا يَدْفَعُهُمُ لِلْكَلامِ بِغَيْرِ عِلْمٍ حُبُّ الرِّيَاسَةِ وَالظُّهُورِ ، أَوْلَئِكَ سَيَلْقَوْنَ الْخِزْيَ وَالنَّكَالَ يَوْمَ النُّشُورِ.

فقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّثِيرٍ﴾.

قال ابن كثير: (لما ذكر تعالى حال الضَّلَالِ الْجُهَّالِ الْمُقَلِّدِينَ في قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ

(1) حسن في الشواهد. أخرجه الطبراني في «الأوسط» (6456) من حديث ابن عمر ، والبيهقي في «الشعب» (75/1) ، وانظر للشاهد ابن عساكر في «المجلس» (139) من الأمالي (1/50) ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة - حديث رقم - (1788).

(2) حديث حسن. أخرجه أبو نعيم في «الحلية» من حديث ابن عباس. انظر صحيح الجامع (2973).

(3) حديث حسن. رواه ابن ماجه (180) ، وأبو داود (4731) - كتاب السنة - باب في الرؤية. وانظر صحيح سنن أبي داود - حديث رقم - (3957).

مَنْ يُجَادِلْ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعْ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ ﴿[الحج: 3]﴾ ، ذكر في هذه حال الدُّعَاة إلى الضلال من رؤوس الكفر والبدع ، فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ ، أي بلا عقل صحيح ، ولا نقل صحيح ، بل بمجرّد الرأي والهوى).

والمقصود: وصف حال طائفة من المدّعين أهل التنطع والغرور بأن جدالهم لا يكون ببرهان وحجة ، ولا ببيّنة وبصيرة ، ولا بوحى من كتاب أو سنة ، وإنما هو التعالم أو حب الظهور ، الذي يفسد ويقطع الظهور.

وفي التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: 110].

2 - وقال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: 144].

وفي سنن أبي داود وابن ماجّة بسند صحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله تعالى ، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا ، لم يجد عَرْفَ الجنة يوم القيامة]⁽¹⁾. يعني ربحها.

وفي سنن ابن ماجّة بإسناد صحيح عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: [لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء ، ولا تماروا به السفهاء ، ولا تخيروا به المجالس ، فمن فعل ذلك فالنار النار]⁽²⁾.

وقوله: ﴿ثَانِي عَطْفِهِ﴾. قال المبرّد: (العطف ما انثنى من العنق). وقال المفّصل: (والعطف الجانب ، ومنه قولهم: فلان ينظر في أعطافه: أي في جوانبه). وعطفاً الرجل من لدن رأسه إلى وركبته. والعرب تقول: ثنى فلان عني عطفه إذا أعرض واستكبر. والمقصود بالآية وصف المعرض عن الحق في جداله واستكباره.

فقوله: ﴿ثَانِي عَطْفِهِ﴾ - قال ابن عباس: (يقول: مستكبراً في نفسه). أو قال: (يعرض عن ذكرى). وقال مجاهد وقتادة ومالك عن زيد بن أسلم: ﴿ثَانِي عَطْفِهِ﴾ ،

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (3664) ، وابن ماجّة وغيرهما. وانظر صحيح أبي داود (3112).

(2) حديث صحيح. رواه ابن ماجّة وابن حبان والحاكم. انظر صحيح الجامع الصغير (7247).

أي: (لاوي عُنْفِهِ ، وهي رقبته). وقال ابن زيد: (لاوياً رأسه ، معرضاً مولياً ، لا يريد أن يسمع ما قيل له). قلت: والعطف الجانب.

وفي التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّأُ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ [المنافقون: 5].

2 - وقال تعالى: ﴿وَإِذَا نُنَادِي عَلَيْهِ أَيْنَنَا وَلِيٍّ مُسْتَكْبِرًا﴾ [لقمان: 7].

3 - وقال تعالى: ﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٦٨﴾ فَقَالَ بِرَبِّكُمْ وَقَالَ سِحْرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: 38 - 39].

4 - وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ [النساء: 61].

ومن كنوز صحيح السنة في آفاق معنى الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال: [بينما رجل يمشي في حلة تُعَجِّبُهُ نفسه ، مُرَجِّلُ رأسه ، يختال في مشيته ، إذ خسف الله به ، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة]⁽¹⁾.

الحديث الثاني: خَرَجَ مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: [لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر. فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة ؟ قال: إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق وغمط الناس]⁽²⁾.

الحديث الثالث: أخرج الشيخان عن حارثة بن وهب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [ألا أخبركم بأهل النار ؟ كُلُّ عَتَلٌ جَوَاطٍ مُسْتَكْبِرٍ]⁽³⁾.

وقوله: ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾. أي: ليصد المؤمنين بالله عن دينهم ، ويقف عثرة دون دخول الناس في الدين الحق.

وقوله: ﴿لَكُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾. قال ابن جرير: (يقول جل ثناؤه: لهذا المجادل في الله

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (221/10) ، (222/10) ، وأخرجه مسلم (2088).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (91) ، وأخرجه أبو داود (4091) ، والترمذي (1999).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (507/8 - 508) ، (408/10) ، وأخرجه مسلم (2853).

بغير علم ، في الدنيا خزي وهو القتل والدّل ، والمهانة بأيدي المؤمنين ، فقتله الله بأيديهم يوم بدر).

وقوله: ﴿وَنَذِيقُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾. أي: نسلط عليه في الآخرة عذاب الحرق في جهنم. ويكون بذلك قد جمع له عذاب الدارين.

وقوله: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ﴾. تقرير وتوبيخ ، أي إنما صليت هذا العذاب بما اجترحت يداك وبما اكتسبت من عمل. قال النسفي: (أي السبب في عذاب الدارين هو ما قدمت نفسه من الكفر والتكذيب ، وكنت عنها باليد لأن اليد آلة الكسب).
وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لَّعِيدٍ﴾.

أي: هو المُفْسِط سبحانه والعاقل في حكمه بين عباده فلا يظلم تعالى أحداً.

وفي صحيح مسلم من حديث أبي ذر ، عن رسول الله ﷺ ، فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال: [يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا. .] الحديث⁽¹⁾.

11 - 13. قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِّن نَّفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾.

في هذه الآيات: نَعَتُْ حال كثير من الناس يعبدون الله على شرط القوة والرزق والعافية ، فإن نزل بهم من المصائب والفتن انقلبوا إلى الجادة الثانية ، وأشركوا بالله وجحدوا نعمه الباقية.

فعن مجاهد: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ قال: على شك ، ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ﴾ رخاء وعافية ﴿اطْمَأَنَّ بِهِ﴾: استقر ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ عذاب ومصيبة ﴿انْقَلَبَ﴾ ارتد ﴿عَلَى وَجْهِهِ﴾ كافراً.

وعن قتادة: ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ﴾ يقول: أكثر ماله، وكثرت ماشيته اطمأناً وقال: لم

(1) حديث صحيح. رواه مسلم في الصحيح (8/17) ، ورواه أحمد في المسند (5/160).

يصبني في ديني هذا منذ دخلته إلا خير ﴿وَأِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ﴾ يقول: وإن ذهب ماله ، وذهبت ماشيته ﴿أَنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾.

وعن ابن زيد قال: (هذا المنافق ، إن صلحت له دنياه أقام على العبادة ، وإن فسدت عليه دنياه ، وتغيرت انقلب ، ولا يقيم على العبادة إلا لما صلح من دنياه. وإذا أصابته شدة أو فتنة ، أو اختبار أو ضيق ، ترك دينه ورجع إلى الكفر).

وفي صحيح البخاري - عند تفسير هذه الآية - عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ قال: كان الرجل يقدم المدينة ، فيسلم ، فإن ولدت امرأته غلاماً وتنجت خيله قال: هذا دين صالح ، وإن لم تلد امرأته ولم تنتج خيله قال: هذا دين سوء⁽¹⁾.

وقوله: ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾. أي: ما أصاب من الدنيا ولا سعاد في الآخرة ، فالكفر بالله ونعمه يورث الشقاء والإهانة في الدار الآخرة.

قال القرطبي: (وخسرانه الدنيا بأن لا حظ له في غنيمة ولا ثناء ، والآخرة بأن لا ثواب له فيها).

وقال النسفي: (والخسران في الدنيا بالقتل فيها ، وفي الآخرة بالخلود في النار).

وقوله: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾. أي: هذا الخسران في الدارين ، هو أبلغ الخسارة وأظهرها. قال القاسمي: (أي الواضح الذي لا يخفى على ذي بصيرة).

وقوله: ﴿يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَمَا لَا يَنْفَعُهُمْ﴾. قال ابن زيد: (يكفر بعد إيمانه).

وقال أبو السعود: ﴿يَدْعُوا﴾: استئناف مبين لعظيم الخسران). والمقصود: أنه يستنصر الأوثان والأنداد ويسترزقها ويستغيث بها وهي لا تنفعه ولا تضره ، بل سيكون هذا التوجه الفاسد سبب خسارته في الدنيا وشقائه في الآخرة.

وقوله: ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾. أي: ذلك المنهج هو منهج الشقاء الأبعد عن الاستقامة.

قال ابن جرير: (يقول: ارتداده ذلك داعياً من دون الله هذه الآلهة هو الأخذ على غير استقامة ، والذهاب عن دين الله ذهاباً بعيداً).

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (4742) - كتاب التفسير - سورة الحج ، آية (11).

وقوله: ﴿يَدْعُوا لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾. قال ابن كثير: (أي: ضَرُّهُ في الدنيا قبل الآخرة أقرب من نفعه فيها ، وأما في الآخرة فَضَرُّهُ مُحَقَّقٌ مَتَيْقُنٌ).

وقوله: ﴿لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْعَشِيرُ﴾. قال مجاهد: (يعني الوثن).

وقال ابن زيد: (العشير: هو المعاصر الصاحب ، وقد قيل: عني بالمولى في هذا الموضع: الولي الناصر).

قلت: وعموم الآية يشمل كل ما عبد من دون الله وصرفت له العبادة والتعظيم ، من الأوثان وطواغيت الإنس والجن ، فإنه بش المولى: أي الناصر الصاحب ، وبش العشير: أي المعاصر المصاحب.

14. قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.

في هذه الآية: عَطْفٌ على ذكر أهل الشقاوة ، بذكر أهل النجاة والسعادة ، فإن أهل الإيمان والعمل الصالح سيرثون جنات النعيم ، تجري من تحتها الأنهار في سرور مقيم ، فإنه تعالى هدى هؤلاء وأشقى أولئك: بعلمه وحكمته وكمال عدله ، فهو سبحانه أعلم بالساكرين ، وهو تعالى يفعل ما يريد.

أخرج ابن أبي عاصم في «السنة» ، بسند صحيح عن سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب أنه قال: [قلت يا رسول الله: أرأيت عملنا هذا على أمر قد فرغ منه أم على أمر نستقبله؟ فقال رسول الله ﷺ: بل على أمر قد فرغ منه. قال عمر: ففيم العمل؟ فقال رسول الله ﷺ: كلا ، لا يُنَالُ إلا بعمل. فقال عمر: إذن نجتهد]⁽¹⁾.

وكذلك روى الآجري ، والبيهقي في «الأسماء والصفات» ، عن هشام بن حكيم: [أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله: أبتدئ الأعمال أم قد قُضِيَ القضاء؟ فقال: إِنَّ اللَّهَ تعالى أخذ ذرية آدم من ظهورهم وأشهدهم على أنفسهم ، ثم أفاض بهم في كفيه ، فقال: هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار ، فأهل الجنة ميسرون لعمل أهل

(1) رجاله ثقات. أخرجه ابن أبي عاصم في «كتاب السنة» (161). قال الألباني: حديث صحيح. ورجال إسناده ثقات. انظر «تخريج كتاب السنة» ص (71).

الجنة ، وأهل النار ليسون لعمل أهل النار⁽¹⁾.

قال الإمام الطحاوي رحمه الله: (وقد علم الله تعالى فيما لم يزل عدد من يدخل الجنة وعدد من يدخل النار ، جملة واحدة ، فلا يزداد في ذلك العدد ولا ينقص منه ، وكذلك أفعالهم فيما علم منهم أن يفعلوه ، وكل ميسر لما خُلِقَ له ، والأعمال بالخواتيم ، والسعيد من سعد بقضاء الله ، والشقي من شقي بقضاء الله)⁽²⁾.

15 - 16. قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَتْ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ يَذَرُ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾.

في هذه الآيات: دَعْوَةُ الحاقدين على نَصْرِ اللَّهِ نَبِيِّهِ أَنْ يَمُوتُوا بغيظهم ، ويخنقوا أنفاسهم ، فَإِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ بِالْحَقِّ ، ووَعَدَهُ النَصْرَ ، وهو تعالى يوفق ويهدي من يريد .

فعن قتادة: ﴿مَنْ كَانَتْ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ قال: من كان يظن أن لن ينصر الله نبيّه ﷺ ، ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ﴾ يقول: بحبل إلى سماء البيت ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ يقول: ثم ليخنق ثم لينظر هل يذهب كيده ما يغيظ.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾ ، أي: ليتوصل إلى بلوغ السماء ، فَإِنَّ النَصْرَ إِنَّمَا يَأْتِي مُحَمَّدًا مِنَ السَّمَاءِ ، ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ ذلك عنه ، إِنْ قَدَّرَ عَلَى ذَلِكَ).

وعن السدي: ﴿فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾: يعني من شأن محمد ﷺ).

وقال عطاء: (فليَنظُرْ هل يَشْفِي ذلك ما يجد في صدره من الغيظ).

وغاية المعنى: من ظن أن الله سيخذل محمداً وكتابه ودينه فليذهب فليقتل نفسه ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى تَكْفُلُ بِنَصْرِهِ وتأييده وإظهاره على عدوه ، فمن لم يعجبه ذلك فليخنق نفسه وليحترق غيظاً. فهو كما قال ابن عباس: (من كان يظن أن لن ينصر الله محمداً ، فليربط حبلاً في سقف ، ثم ليخنق به حتى يموت).

(1) سنده صحيح . أخرجه الآجري (ص 172) ، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص 326).

(2) متن العقيدة الطحاوية . وانظر تفصيل البحث في كتابي: أصل الدين والإيمان (2/ 803 - 907).

وفي التنزيل نحو ذلك :

1 - قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ﴾ [غافر: 51].

2 - وقال تعالى: ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبُ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة: 21].

وقد حصل لنبينا محمد ﷺ من التأيد العجيب والنصر البليغ يوم بدر ، حتى أراه الله مصرع أعدائه أمام عينه ، وشاركته الملائكة ذلك الظفر .

ففي صحيح البخاري ومسند أحمد عن رفاة عن النبي ﷺ قال : [جاء جبريل فقال : ما تعدون من شهد بدرأ فيكم ؟ قلت : خيارنا . قال : وكذلك من شهد بدرأ من الملائكة هم عندنا خيار الملائكة] (1) .

وقوله: ﴿ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ ءَايَاتٍ يَتَذَكَّرُ ﴾ - يعني هذا القرآن . أنزله الله تعالى آيات واضحات في اللفظ والمعنى ، معجزات في البيان والآفاق ، ليكون حجة منه سبحانه على عباده .

وقوله: ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ ﴾ . أي : يوفق لإصابة الحق من شاء فهو أعلم بالشاكرين .

17 - 18 . قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (٧) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُنِ اللَّهَ فَمَا لَهُ مِن مَّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٨﴾ .

في هذه الآيات : فصلُ الله بين الطوائف في اختلاف منهاج عبادتها وتوجهاتها يوم القيامة والله على كل شيء شهيد . إِنَّ اللَّهَ تعالى يسجد له من في السماوات ومن في

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في المغازي (3992)، باب شهود الملائكة بدرأ ، ورواه أحمد وابن ماجه وابن حبان من طريق رافع بن خديج . انظر صحيح الجامع (3081) .

الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب والمؤمنون ، وأبى السجود الكافرون ، فحق عليهم العذاب ، فما يصح الخروج عن طاعة رب الأرباب .

فعن قتادة: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصْرَانِيَّ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ . قال : (الصابئون : قوم يعبدون الملائكة ، ويصلون للقبلة ، ويقرءون الزبور . . والمجوس : يعبدون الشمس والقمر والنيران . والذين أشركوا : يعبدون الأوثان . والأديان ستة : خمسة للشيطان ، وواحد للرحمن) .

وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ .

أي : إن الله تعالى يحكم بينهم بالعدل يوم القيامة فيجازي كلًّا منهم ما يستحق ، فمن آمن به تعالى وأقام أركان الإيمان أدخله الجنة ، ومن كفر به وكذب بالوحي أدخله النار ، إنه سبحانه شهيد على أعمالهم جميعاً ، حفيظ لأقوالهم ، عليم بسرائرهم ، ولا يُظلمُ عنده أحد من عباده .

وقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ ﴾ . قال مجاهد : (ظلال هذا كله) .

والمعنى : ألم تر - يا محمد - بقلبك ، أن كل شيء في هذا الكون الفسيح يسجد لله العظيم ، فالملائكة في السماوات ، والحيوانات في جميع الجهات ، من الإنس والجن والدواب والطيور ، كل قد علم صلاته وتسبيحه . قال ابن كثير : (وقوله : ﴿ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ ﴾ ، إنما ذكر هذه على التنصيص ، لأنها قد عُبِدَت من دون الله ، فَبَيَّنَ أنها تسجد لخالقها ، وأنها مربية مُسَخَّرَةٌ ، ﴿ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [فصلت : 37]) .

وفي التنزيل نحو ذلك :

1 - قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَنْفَعِيهِمْ أَظَلُّوا عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ [النحل : 48] .

2 - وقال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [النحل : 49] .

3 - وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَفْتًا كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ [النور : 41] .

ومن صحيح السنة العطرة في آفاق معنى الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه ، وأحمد في مسنده ، والنسائي وابن حبان في صحيحه ، عن أبي ذر الغفاري قال: [سألت رسول الله ﷺ عن قول الله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَحْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾] [يس: 38] قال: مستقرها تحت العرش].

وفي رواية أخرى: قال أبو ذر: [دَخَلْتُ المسجدَ ورسول الله ﷺ جالسٌ ، فلما غابت الشمس قال: يا أبا ذر ! هل تدري أين تذهب هذه الشمس ؟ قال: قلتُ: الله ورسوله أعلم. قال: فإنها تذهب فتستأذن في السجود ، فيؤذن لها ، وكأنها قد قيل لها: ارجعي من حيث جئت ، فتطلع من مغربها] (1).

الحديث الثاني: أخرج ابن ماجة والترمذي بسند حسن - واللفظ لابن ماجة - عن ابن عباس قال: [كنت عند النبي ﷺ فأتاه رجل فقال: إني رأيت البارحة ، فيما يرى النائم ، كأنني أصلي إلى أصل شجرة. فقرأت السجدة فسجدت. فسجدت الشجرة لسجودي. فسمعتها تقول: اللهم احطط عني بها وزراً ، واكتب لي بها أجراً ، واجعلها لي عندك ذخراً. قال ابن عباس: فرأيت النبي ﷺ قرأ السجدة فسجد. فسمعته يقول في سجوده مثل الذي أخبره الرجل عن قول الشجرة] (2).

وفي لفظ الترمذي: [قال الحسن بن محمد بن عبيد الله بن أبي يزيد: قال لي ابن جريج: يا حسن ! أخبرني عبيد الله بن أبي يزيد عن ابن عباس قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ، إني رأيتني الليلة وأنا نائم ، كأنني أصلي خلف شجرة ، فسجدت فسجدت الشجرة لسجودي ، فسمعتها وهي تقول: «اللهم اكتب لي بها عندك أجراً ، وضع عني بها وزراً ، واجعلها لي عندك ذخراً ، وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود».

قال الحسن: قال لي ابن جريج: قال لي جدك: قال ابن عباس: فقرأ النبي ﷺ

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (159)، كتاب الإيمان ، والنسائي في «الكبرى» (11176) ، وأحمد في المسند (5/ 177) ، وابن حبان (6153) - (6154) ، وغيرهم.

(2) حديث حسن. أخرجه ابن ماجة (1053) في الصلاة ، باب سجود القرآن ، وأخرجه الترمذي (584). وانظر صحيح سنن ابن ماجة (865) ، وصحيح سنن الترمذي (473).

سجدة ثم سجد. فقال ابن عباس: فسمعتة وهو يقول مثل ما أخبره الرجل عن قول الشجرة[.

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد في المسند، والترمذي في الجامع، وابن ماجة في السنن، بسند حسن عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أظت السماء وحق لها أن تظط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته لله تعالى ساجداً، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً، وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله]⁽¹⁾.

وقوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾. قال مجاهد: (المؤمنون). قال ابن جرير: (يقول: ويسجد كثير من بني آدم، وهم المؤمنون بالله).

وقوله: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾. قال مجاهد: (وكثير أبي السجود، لأن قوله ﴿حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ يدل على معصية الله وإيائه السجود، فاستحق بذلك العذاب). وقال أيضاً: (وكثير من بني آدم حق عليه عذاب الله، فوجب عليه بكفره به، وهو مع ذلك يسجد لله كله).

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [إذا قرأ ابنُ آدم السَّجْدَةَ فسَجَدَ، اعتزل الشيطانُ يبكي، يقول: يا وَيْلَهُ - وفي رواية: يا وَيْلِي! - أُمِرَ ابْنُ آدَمَ بالسُّجُودِ فسَجَدَ فله الجَنَّةُ، وأُمِرْتُ بالسُّجُودِ فَأَبَيْتُ فَلِيَ النَّارُ]⁽²⁾.

وفي رواية: «فعصيت فلي النار».

وقوله: ﴿وَمَن يَهِنِ اللَّهُ فَمَا لَمُ مِنَ مُّكْرِمٍ﴾.

أي: ومن يهن الله بالشقاوة فماله من مكرم بالسعادة.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾. قال النسفي: (من الإكرام والإهانة وغير ذلك، وظاهر هذه الآية والتي قبلها ينقض على المعتزلة قولهم، لأنهم يقولون شاء أشياء ولم يفعل، وهو يقول يفعل ما يشاء).

(1) حديث حسن. أخرجه أحمد في المسند، والترمذي في الجامع (2428)، وابن ماجة في السنن (4190). انظر صحيح سنن الترمذي (1882).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (81)، كتاب الإيمان. ورواه ابن ماجة (1052)، وأحمد (443/2).

19 - 22. قوله تعالى: ﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ أَخَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُمْ مَقَمِعٌ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ ۞ .

في هذه الآيات: اختصاص الفريقين عند ربهم يوم القيامة: فريق الأولياء ، وفريق الكفرة الأعداء. فالكفار في نار العذاب يصب على رؤوسهم الحميم ، فيصهر به ما في بطونهم والجلود ، ويضربون بسياط من جديد ، ويمنعون من الخروج ليتضاعف عليهم العذاب الشديد.

أخرج البخاري في صحيحه عن أبي ذر رضي الله عنه قال: [نزلت: ﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ أَخَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ۞ ﴾ في ستة من قريش: علي وحمزة وعبيدة بن الحارث ، وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة] (1).

وفي رواية: عن قيس بن عباد ، عن أبي ذر رضي الله عنه أنه كان يُقسم قسماً: [إن هذه الآية: ﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ أَخَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ۞ ﴾ نزلت في حمزة وصاحبه ، وعُتْبَةُ وصاحبه يوم بُرْزُوا في يوم بدر] (2).

وأخرج البخاري في الصحيح ، والنسائي في التفسير ، عن قيس بن عباد ، عن علي رضي الله عنه قال: [أنا أولُ مَنْ يَجُثُّ بَيْنَ يَدَيِ الرَّحْمَنِ لِلْخُصُومَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، قال قيس: وفيهم نزلت: ﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ أَخَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ۞ ﴾. قال: هم الذين بارزوا يوم بدر: علي وحمزة وعبيدة ، وشيبة بن ربيعة وعُتْبَةُ بن ربيعة والوليد بن عتبة] (3).

والمقصود: إخبار من الله تعالى عن الفريقين المتخاصمين الذين خرجوا للمبارزة يوم بدر ، الفريق الأول: أهل الإيمان حمزة وعلي وعبيدة رضي الله عنهم. والفريق الثاني: أهل الكفر من أبناء عمومته عتبة وشيبة والوليد بن عتبة عليهم سخط الله

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3966)، كتاب المغازي. وانظر كذلك (3968).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4743)، كتاب التفسير ، سورة الحج ، آية (19).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4744)، كتاب التفسير ، وأخرجه النسائي في «التفسير» (362).

وغضبه. قال مجاهد: (مثل الكافر والمؤمن اختصما في البعث). وقال عطاء: (هم المؤمنون والكافرون). قلت: وخصام الفريقين كان في الإيمان بالوحي وتصديق النبوة.

وقوله: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ﴾. أي: فُصِّلَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ ملتهبة من النار.

قال مجاهد: (الكافر قطعت له ثياب من نار ، والمؤمن يدخله الله جنات تجري من تحتها الأنهار).

وقال سعيد: ﴿ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ﴾: ثياب من نحاس ، وليس شيء من الآنية أحمى وأشدَّ حرًّا منه).

وقوله: ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾. قال مجاهد: (يقول: يصب على رؤوسهم ماء مغلي).

وقال سعيد: (هو النحاس المذاب ، أذاب ما في بطونهم من الشحم والأعضاء). وقوله تعالى: ﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾. أي يذيب هذا السائل المغلي شحومهم وأعضاءهم وكذلك يشوي جلودهم حتى تتساقط.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ مَقْعٌ مِّنْ حَدِيدٍ﴾. المقامع: جمع مقمعة. قال النسفي: (سياط مختصة بهم يضربون بها). وقيل: المقامع المطارق ، وهي المرازب.

وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِّ﴾. أي: كُلَّمَا هموا بالخروج من النار أُعيدوا فيها بالضرب من الملائكة بالمقامع والإهانة وغير ذلك ، وقيل لهم: ذوقوا عذاب الحريق المؤلم الموجه.

قال الفضيل بن عياض: (والله ما طمعوا في الخروج ، إِنَّ الأَرْجُلَ لَمُقَيَّدَةٌ ، وإن الأيدي لموثقة ، ولكن يرفعهم لَهَا ، وتردُّهم مقامِعُها).

وفي التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوِيهِمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: 20].

2 - وقال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُخْرِجُوكَ مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: 37].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أَنَّ رسول الله ﷺ قال: [نَارُكُمْ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ. قيل: يا رسول الله ، إن كانت لكافية ، قال: فَضَّلْتُ عَلَيْهِنَّ بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّهَا] (1).

23 - 24. قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ يَدْخُلُ اللَّذِيكَ ءَامِنُونَ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهَدُّوْا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهَدُّوْا إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾.

في هذه الآيات: ذكُرُ الصورة المقابلة للصورة السابقة ، فأهل الجنة في النعيم المقيم ، في الوقت الذي فيه أهل النار في أشد الجحيم ، فالمؤمنون تجري من تحتهم الأنهار ويحلون من أساور الذهب واللؤلؤ ويلبسون الحرير وينعمون بتمام المِنَّة . وقد هداهم الله إلى طيب القول وإلى منازلهم في الجنة .

فقوله: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ يَدْخُلُ اللَّذِيكَ ءَامِنُونَ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.

قال ابن كثير: (أي: تتَخَرَّقُ في أكنافها وأرجائها وجوانبها ، وتحت أشجارها وقُصورها ، يَصْرَفُونَهَا حيث شَاءُوا وأَيْنَ شَاءُوا).

وقوله: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾. الأساور: جمع أسورة ، وأسورة واحدها سوار. قال القرطبي: (قال المفسرون: لما كانت الملوك تلبس في الدنيا الأساور والتيجان جعل الله ذلك لأهل الجنة ، وليس أحد من أهل الجنة إلا وفي يده ثلاثة أسورة: سوار من ذهب ، وسوار من فضة ، وسوار من لؤلؤ. قال هنا وفي فاطر: ﴿مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ [فاطر: 33]. وقال في سورة الإنسان: ﴿وَحَلَّوْا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾ [الإنسان: 21].

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3265)، كتاب بدء الخلق. وانظر مختصر صحيح مسلم (1976).

وقوله: ﴿وَلَوْلَا﴾ - منصوب بفعل محذوف دلّ عليه الأول. أي: ويحلون لؤلؤاً.

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة قال: سمعت خليلي ﷺ يقول: [تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء]⁽¹⁾.

وفي التنزيل:

﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: 21].

قال ابن القيم: (جمل البواطن بالشراب الطهور ، والسواعد بالأساور ، والأبدان بثياب الحرير).

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [أَوَّلُ زُمرَةٍ تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر ، لا يتصقون فيها ولا يمتخطون ، ولا يتغوطون ، أنيتهم فيها الذهب ، أمشاطهم من الذهب والفضة ، ومجامرهم الألوة ، ورشحهم المسك ، ولكل واحد منهم زوجتان يرى مئخ سوقهما من وراء اللحم من الحسن ، لا اختلاف بينهم ولا تباغض ، قلوبهم قلب واحد ، يسبحون الله بكرة وعشيا]⁽²⁾.

وقوله: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾.

قال ابن جرير: (يقول: ولبوسهم التي تلي ألباسهم فيها ثياب حرير).

فكما أن ثياب أهل الشقاء قد فصلت لهم من نار ، فكذلك - في مقابلة ذلك - ثياب أهل النعيم من الحرير بنوعيه - السندس والإستبرق - قد فصلت لهم.

وفي التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ [الإنسان: 21].

2 - وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ [الدخان: 51 - 53].

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (250)، كتاب الطهارة ، باب تبلغ الحلية حيث يبلغ الوضوء.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3245)، كتاب بدء الخلق، ورواه مسلم (1956) - (1957).

3 - وقال تعالى: ﴿يُحَلَّلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَشَكِّينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نَعَمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: 31].

والسندس مَارَقٌ من الديباج ، والإستبرق ما غلظ منه . قال الزجاج : (هما نوعان من الحرير).

وقوله في آية «الإنسان» - «عليهم»:- يفيد أن ذلك اللباس ظاهر بارز للزينة والجمال .

ومن كنوز صحيح السنة في آفاق معنى الآية أحاديث :

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أنس بن مالك قال: [أهدي أكيذر⁽¹⁾ دومة إلى النبي ﷺ جبة من سندس ، فتعجب الناس من حسننها ، فقال: لمناديل سعد في الجنة أحسن من هذا]⁽²⁾.

وله شاهد فيهما من حديث البراء قال: [أهدي لرسول الله ﷺ ثوب حرير فجعلوا يعجبون من لينه ، فقال رسول الله ﷺ: تعجبون من هذا ؟ لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا]⁽³⁾.

الحديث الثاني: أخرج البخاري في صحيحه عن عمر بن الخطاب ، أن رسول الله ﷺ قال: [إنما يلبس الحرير في الدنيا مَنْ لا خلاق له في الآخرة]⁽⁴⁾.

ويشهد له رواية أخرى فيه عنه قال: قال النبي ﷺ: [مَنْ لبس الحرير في الدنيا لم يَلْبَسْهُ في الآخرة].

الحديث الثالث: خرَّج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال: [من يدخل الجنة ينعم ولا يبأس ولا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه ، في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر]⁽⁵⁾.

(1) أي: أميرها.

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (3248)، كتاب بدء الخلق ، وكذلك (2615) - (2616) ، ورواه مسلم (2468) ، كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل سعد بن معاذ ، رضي الله عنه .

(3) حديث صحيح . أخرجه البخاري (5836)، كتاب اللباس ، باب مَنْ مَسَّ الحرير من غير بُسٍ ، ورواه مسلم . انظر صحيح مسلم (2469)، الكتاب السابق ، الباب السابق .

(4) حديث صحيح . أخرجه البخاري (5835)، كتاب اللباس . وانظر للشاهد حديث (5834) منه .

(5) حديث صحيح . أخرجه مسلم (2836)، كتاب الجنة ونعيمها . باب في دوام نعيم أهل الجنة .

وقوله: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ - فيه أقوال متقاربة متكاملة .

1 - قال ابن عباس: (ألهموا). وقيل: الطيب من القول: القرآن ، وقيل: لا إله إلا الله . وقيل: الأذكار المشروعة .

2 - قال ابن زيد: (هدوا إلى الكلام الطيب: لا إله إلا الله ، والله أكبر ، والحمد لله ، قال الله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: 10]).

3 - قال ابن جرير: (وهذا هم ربهم في الدنيا إلى شهادة أن لا إله إلا الله).

4 - قال ابن كثير: (فهؤدوا إلى المكان الذي يسمعون فيه الكلام الطيب) - يعني في الجنة. ولا شك أن الكلام الطيب يشمل تحية أهل الجنة، وتحية الملائكة لهم «السلام»، وكذلك التسبيح والتحميد.

ففي التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿وَأَدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [إبراهيم: 23].

2 - وقال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٢﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: 23 - 24].

3 - وقال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ [الواقعة: 25 - 26].

وفي صحيح مسلم عن جابر قال: سمعت النبي ﷺ يقول: [إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ، ولا يَنْفَلُونَ ولا يبولون ، ولا يتغوْطون ولا يمتخِطون. قالوا: فما بال الطعام؟ قال: جُشَاءٌ وَرَشْحٌ كَرَشْحِ الْمُسْكِ ، يُلْهَمُونَ التسبيح والتحميد ، كما يُلْهَمُونَ النَّفْسَ⁽¹⁾. وفي رواية: (ويُلْهَمُونَ التسبيح والتكبير ، كما يُلْهَمُونَ النَّفْسَ).

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة مرفوعاً: [قلوبهم قلبٌ واحدٌ ، يسبحون الله بُكْرَةً وَعَشِيًّا]⁽²⁾.

وقوله: ﴿وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾. أي: في الدنيا والآخرة. والحميد فعيل بمعنى

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم (2835) - كتاب الجنة ونعيمها .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (3245) ، وأخرجه مسلم (2834) ح (17) ، وقد مضى بتمامه .

مفعول: أي محمود. قال النسفي: (أي أرشد هؤلاء في الدنيا إلى كلمة التوحيد وإلى صراط الحميد أي الإسلام ، أو هداهم الله في الآخرة وألهمهم أن يقولوا الحمد لله الذي صدقنا وعده ، وهداهم إلى طريق الجنة. والحمد لله المحمود بكل لسان).

قلت: والهداية المذكورة في هذه الآية هي النوع الرابع من أنواع الهداية. فالهداية كما وردت في القرآن والسنة تقسم إلى الأقسام الآتية:

1 - هداية الخالق العامة لجميع خلقه لمصالحهم. كما قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: 2 - 3].

2 - هداية الدلالة والإرشاد. وهي هداية البيان وإقامة الحجة من الرسل على أممهم. قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: 165]. وقال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِنَّمَا شَاكَرَ وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الدھر: 3].

وفي صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً: [إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم وينذرهم شر ما يعلمه لهم..] الحديث⁽¹⁾.

3 - هداية التوفيق والإلهام. وهي هداية خاصة بالمؤمنين الذين أخلصوا دينهم لله. قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: 11]. وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: 69].

وفي جامع الترمذي بسند صحيح عن قتادة بن النعمان ، أن رسول الله ﷺ قال: [إذا أحبب الله عبداً حمّاه في الدنيا كما يظّل أحدكم يخمي سقيمه الماء]⁽²⁾.

4 - هداية الله المؤمنين يوم القيامة إلى الجنة. وهي هداية في الدار الآخرة إلى مساكن النعيم والخلود. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ الْغَيْرِ﴾ [يونس: 9]. قال مجاهد: (يهديهم ربهم بإيمانهم: يكون لهم نوراً يمشون به). وقال ابن جرير: (يرشدهم ربهم بإيمانهم إلى الجنة).

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح، وأحمد في المسند. انظر مختصر صحيح مسلم (1199).

(2) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (2123) - أبواب الطب. انظر صحيح سنن الترمذي (1659).

وعن مجاهد: ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ ﴿[محمد: 5 - 6]. قال: يهتدي أهلها إلى بيوتهم ومساكنهم لا يخطئون كأنهم ساكنوها منذ خلقوا ، لا يستدلون عليها أحداً). وقال ابن عباس: (هم أعرف بمنزلهم من أهل الجمعة إذا انصرفوا إلى منازلهم).

وفي صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري أن نبي الله ﷺ قال: [إذا خَلَصَ المؤمنون من النار حبسوا على قطرة بين الجنة والنار ، يتقاضون مظالم كانت بينهم في الدنيا ، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم بدخول الجنة ، والذي نفسي بيده إن أحدهم بمنزله في الجنة أدل منه بمسكنه كان في الدنيا]⁽¹⁾.

وله شاهد فيه من حديث أبي هريرة مرفوعاً: [والذي بعثني بالحق ما أنتم في الدنيا بأعرف بأحوالكم ومساكنكم من أهل الجنة بأزواجهم ومساكنهم إذا دخلوا الجنة].

25 - 29. قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَكْفِ فِيهِ وَالْبَاءُ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَامِ يُظْلَمْ نُذُقُهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٢٥) وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ فِي شَيْئًا وَطَهَّرَ بَيْتَ اللَّطَائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعَ السُّجُودَ (٢٦) وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَةٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْفَقِيرِ (٢٨) ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُدْوَرَهُمْ وَلِيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩).

في هذه الآيات: ذمُّ الله الكفار الذين يصدون عن سبيله ويمنعون المؤمنين من المسجد الحرام الذي جعله الله للصلاة والطواف والعبادة يقصده الناس من جميع الأمصار. وتوعد من يهّم في الحرم بأمر فظيع من الشرك أو المعاصي الكبار بعذاب أليم. وتعين الله تعالى لخليله إبراهيم مكان البيت للعمارة والعبادة ، وأمره مناداة

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2440) - كتاب المطالم. وانظر مسند أحمد (13/3)، (74/3).

الناس بالحج إليه من جميع الأقطار. ليجمعوا أثناء حجهم من المنافع الأخروية والدينية ويشكروا الله على كتابتهم في الحجاج والعُمار.

فقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾. قال النسفي: (أي يمنعون عن الدخول في الإسلام). وقال ابن كثير: ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ ، أي: ومن صفتهم مع كفرهم أنهم يصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام ، أي: ويصدون عن المسجد الحرام مَنْ أَرَادَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ هُمْ أَحَقُّ النَّاسِ بِهِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ).

فقوله: ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ حال من فاعل كفروا ، والتقدير: وهم يصدون ، أي هي صفة استمرار منهم ، فقد جمعوا بين الكفر والصد عن سبيل الله والمسجد الحرام ، احتكاراً وكبراً وعلواً في الأرض بالظلم والإفساد.

وقوله: ﴿الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾. أي: جعله الله للصلاة والطواف والعبادة لجميع الناس حاضريهم وباديهم. والعاكف: المقيم الملازم. والبادي: أهل البادية وَمَنْ يَقْدُمُ عَلَيْهِمْ.

قال القرطبي: (يقول: سواء في تعظيم حرمة وقضاء التسك في الحاضر والذي يأتيه من البلاد ، فليس أهل مكة أحق من النازح إليه).

فائدة: دور مكة توهب وتورث وتباع وتملك بخلاف الأرض.

وهذا مأخوذ من فعله ﷺ يوم الفتح إذ لم يقسم أراضي مكة بين الغانمين.

وذهب الإمام أحمد إلى أن الإمام مخير بين وقفها وقسمتها ، وبنحوه ذهب أبو حنيفة. ولكن هناك فرق بين الأرض وبين الدور ، فأرض مكة وقف من الله على العالمين فهي أرض لا تقسم كسائر القرى المفتوحة ، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ الآية.

قال ابن القيم: (وأما مكة ، فإن فيها شيئاً آخر يمنع من قسمتها ولو وجبت قسمة ما عداها من القرى ، وهي أنها لا تُملك ، فإنها دارُ النسك ، ومتعبدُ الخلق ، وحرَّمُ الرب تعالى الذي جعله للناس سواء العاكفُ فيه والباد ، فهي وقف من الله على العالمين)⁽¹⁾.

(1) انظر: «زاد المعاد» (3/ 434)، وكتابي: السيرة النبوية (1300 - 1312) لتفصيل البحث.

وقال في موضع آخر: (فإن الأرض ليست داخلية في الغنائم التي أمر الله بتخمسها وقسمتها ، ولهذا قال عمر: إنها غير المال). ثم قال: (فالصواب القول بموجب الأدلة من الجانبين ، وأن الدور تملك ، وتوهب ، وتورث وتُباع ، ويكون نقل الملك في البناء لا في الأرض والعروة ، فلو زال بناؤه ، لم يكن له أن يبيع الأرض ، وله أن يبنها ويُعيدها كما كانت ، وهو أحقُّ بها يسكنها ويسكن فيها من شاء)⁽¹⁾.

وإليه ذهب الشافعي رحمه الله: إلى أن رِباع مكة تملك وتورث وتؤجر ، واحتج بما روى البخاري ومسلم عن أسامة بن زيد قال: [قلت يا رسول الله ، أنزل غداً في دارك بمكة ؟ فقال: وهل ترك لنا عقيلٌ من رِباع ؟ وفي رواية: (يا رسول الله أين ننزل غداً ؟ قال النبي ﷺ: «وהל ترك لنا عقيلٌ من منزلي؟»)]. ثم قال: لا يرث المؤمن الكافر ، ولا الكافر المؤمن⁽²⁾.

وكذلك احتج بما ثبت أن عمر بن الخطاب اشترى من صفوان بن أمية داراً بمكة ، فجعلها سجناً بأربعة آلاف درهم ، وهو أول من حبس في السجن في الإسلام.
وقوله: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَامِ يُظْلَمِ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾.

قال ابن عباس: (يعني أن تستحل من الحرام ما حرم الله عليك من لسان أو قتل ، فتظلم من لا يظلمك ، وتقتل من لا يقتلك ، فإذا فعل ذلك فقد وجب له عذاب أليم).
وعن ابن عباس أيضاً: ﴿يُظْلَمِ﴾ بشرك). وقال مجاهد: (هو أن يعبد فيه غير الله).
وكذلك عن مجاهد: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَامِ يُظْلَمِ﴾ قال: يعمل فيه عملاً سيئاً).
وقال ابن زيد: (الإلحاد: الظلم في الحرم).

والخلاصة: إنَّ مَنْ يَهُمُّ فِي الْحَرَمِ بِأَمْرِ فَطِيعٍ مِنَ الشَّرْكِ أَوْ الْمَعَاصِي الْكِبَارِ عَامِداً قاصداً الظلم غير متأول فقد وجب له عذاب أليم.

وذهب بعض علماء العربية أن الباء في قوله تعالى: ﴿بِالْحَكَامِ﴾ زائدة ، والتقدير: ومن يرد فيه إلحاداً. ومثله قوله تعالى: ﴿تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ﴾ [المؤمنون: 20] ، والتقدير: تَنْبُتُ الدُّهْنُ.

(1) انظر: «زاد المعاد» (3/ 437) ، وانظر المرجع السابق ص (1311 - 1312) - المجلد الثالث.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4282) - (4283) ، كتاب المغازي ، ورواه مسلم (1351) ، وأبو داود (2910) ، وابن ماجه (2730) ، وأحمد (201/5) ، والبيهقي (34/6) ، وغيرهم.

وفي مسند الإمام أحمد بإسناد على شرط الشيخين عن سعيد بن عمرو قال: [أتى عبد الله بن عمرو ابن الزبير: وهو جالس في الحجر فقال: يا ابن الزبير، إياك والإلحاد في الحرم، فإني أشهد لسمعتُ رسول الله ﷺ يقول: يُحْلَلُهَا وَيُحْلَلُ بِهِ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ، لَوْ وُزِنَتْ ذُنُوبُهُ بِذُنُوبِ الثَّقَلَيْنِ لَوَزَنَتْهَا. قال: فانظر لا تكون هو⁽¹⁾].

وفي رواية: [يا ابن الزبير، إياك والإلحاد في حرم الله، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنه سَيُلْحَدُ فِيهِ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ، لَوْ تَوَزَنَ ذُنُوبُهُ بِذُنُوبِ الثَّقَلَيْنِ لَرَجَحَتْ، فانظر لا تكونه⁽²⁾].

وقوله: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ - أي عَيَّنَّا له موضعه وأريناه أصله لبنيه.

قال ابن جرير: (بوأنا: وطأنا له مكان البيت). وقال النسفي: (واذكر يا محمد حين جعلنا لإبراهيم مكان البيت مباءة أي مرجعاً يرجع إليه للعمارة والعبادة، وقد رفع البيت إلى السماء أيام الطوفان وكان من ياقوتة حمراء، فأعلم الله إبراهيم مكانه بريح أرسلها فكنست مكان البيت فبناه على أساسه القديم) - وبنحوه ذكر القرطبي.

قلت: والذي ذكره القرطبي والنسفي له ما يشهد له من حديث أبي قلابة - كما ذكر الذهبي - قال: (لما أهبط الله تعالى آدم قال: «يا آدم إني مهبط معك بيتاً يطاف حوله كما يطاف حول عرشي، ويصلي عنده كما يصلي عند عرشي». فلم يزل كذلك حتى كان الطوفان رفع، فكانت الأنبياء تحجه، يأتونه فلا يعرفون موضعه، حتى بوأه الله تعالى لإبراهيم عليه السلام). قال الذهبي: (وهو ثابت عن أبي قلابة، وأين مثل أبي قلابة في الفضل والجلالة؟ هرب من تولية القضاء من العراق إلى الشام)⁽³⁾.

وفي التنزيل ما يؤيد ذلك:

1 - قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ فِيهِ أَيْدُ بُيُوتٍ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ [آل عمران: 96 - 97].

(1) إسناده على شرطهما. أخرجه أحمد (2/ 196 - 219)، ورجاله رجال الصحيح كما قال الهيثمي في «المجمع» (3/ 284 - 285).

(2) أخرجه أحمد (2/ 136)، وذكره الهيثمي في «المجمع» (3/ 285) وقال: رجاله ثقات. وكون الحجاج هو المراد بالحديث أقرب من كونه ابن الزبير، فالحجاج لم يقتصر على رمي الكعبة بالمنجنيق، بل قتل الآلاف من المسلمين، فجزاه الله بما كسبت يده.

(3) انظر: مختصر العلو (129)، وكتابي: أصل الدين والإيمان (1/ 189) - الأثر (5).

2 - وقال تعالى: ﴿وَعَهْدَنَا إِلَيْكَ بِرَهْمِهِمْ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهْرًا يَبْقَى لِلطَّائِفِينَ وَالْمُكَفِّرِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: 125].

3 - وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: 127].

فالأساسات التي قام عليها البيت موجودة من قبل ، وإنما رفع البناء عليها وجدده إبراهيم بمعاونة ابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام .

وفي صحيح البخاري عن أبي ذر رضي الله عنه قال: [قلت: يا رسول الله ، أيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ فِي الْأَرْضِ أَوَّلُ ؟ قال: «المسجد الحرام» ، قال: قلت: ثم أيُّ ؟ قال: المسجد الأقصى]. قلت: كم كان بينهما ؟ قال: أربعون سنة ، ثم أينما أَدْرَكْتُكَ الصَّلَاةُ بَعْدُ فَصَلِّهِ فَإِنَّ الْفَضْلَ فِيهِ⁽¹⁾. وفي رواية: (ثم قال: حَيْثُمَا أَدْرَكْتُكَ الصَّلَاةَ فَصَلِّ وَالْأَرْضُ لَكَ مَسْجِدٌ).

قلت: وإنما جدد سليمان عليه الصلاة والسلام بناء بيت المقدس بعد خرابه كما هو معلوم . وقوله: ﴿أَنْ لَا تُشْرِكَ فِي شَيْئًا﴾ . - «أَنْ» - هي التفسيرية . أي المفسرة للقول ، والتقدير: قائلين له ﴿لَا تُشْرِكَ فِي شَيْئًا﴾ - أي ابنه خالصاً على اسمي وحدي ، لتكون العبادة لله وحده .

وقوله: ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي﴾ . قال مجاهد: (من الشرك) . وقال قتادة: (من الشرك وعبادة الأوثان) .

وقوله: ﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ .

قال ابن زيد: (القائم والراكم والساجد هو المصلي ، والطائف هو الذي يطوف به .

وقوله: ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ يقول: والركع السجود في صلاتهم حول البيت) .

قال ابن كثير: (أي: اجعله خالصاً لهؤلاء الذين يعبدون الله وحده لا شريك له ، فالطائف به معروف ، وهو أخصُّ العبادات عند البيت ، فإنه لا يفعل ببقعة من الأرض سواها ، والقائمين ، أي: في الصلاة ، ولهذا قال: ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ ، فقرن الطواف بالصلاة ، لأنهما لا يُشْرَعَانِ إِلَّا مُخْتَصِمِينَ بِالْبَيْتِ ، فالطواف عنده ، والصلاة

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (3366) ، كتاب أحاديث الأنبياء ، وانظر (3425) منه .

إليه في غالب الأحوال ، إلا ما استثنى من الصلاة عند اشتباه القبلة وفي الحرب ، وفي النافلة في السفر ، والله أعلم).

قلت: والطواف في البيت صلاة ، فيجب لها الوضوء والتطهر من الجنابة ، إلا أنه أبيع فيها الكلام. وللطائف أن يقرأ القرآن ويدعو ويسبح ويهلل وغير ذلك مما هو مشروع في الذكر.

فقد أخرج الترمذي بسند صحيح عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال: [الطواف بالبيت صلاة ، ولكن الله أحل فيه النطق ، فمن نطق فلا ينطق إلا بخير. وفي رواية: فأقلوا فيه الكلام]⁽¹⁾.

وقوله: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾.

أي: ناد في الناس داعياً لهم إلى إقامة هذه المناسك العظيمة بحج بيت الله الحرام. وعن سعيد بن جبير قال: (لما فرغ إبراهيم من بناء البيت أوحى الله إليه أن أذن في الناس بالحج. فخرج فنادى في الناس: يا أيها الناس إن ربكم قد اتخذ بيتاً وأمركم أن تحجوه. قال: قال ابن عباس: فسمعه ما بين السماء والأرض ، ألا ترى الناس يجيئون من أقصى الأرض يلبنون).

وقوله: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾.

قال ابن عباس: ﴿رِجَالًا﴾ على أرجلهم ، ﴿وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾ قال: (الإبل). فجمع لأنه أريد بكل ضامر: النوق. ولذلك قال: ﴿يَأْتِينَكَ مِنْ كُلِّ فِجٍّ عَمِيقٍ﴾. قال ابن عباس: (من مكان بعيد).

وفي التنزيل:

﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: 37]. قال ابن كثير: (فليس أحد من أهل الإسلام إلا وهو يحنُّ إلى رؤية الكعبة والطواف ، والناس يقصدونها من سائر الجهات والأقطار).

وقوله: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾. قال مجاهد: (الأجر في الآخرة، والتجارة في الدنيا).

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في السنن (960). انظر صحيح سنن الترمذي (767) ، ورسالتني: الحج والعمرة ص (32) لتفصيل أكبر.

وقوله: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَةٍ﴾. قال قتادة: (أيام العشر ، والمعدودات أيام التشريق).

وقوله: ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ - أي الهدايا والبُذُن التي أهدوها من الإبل والبقر والغنم.

وقوله: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ - أمر بإباحة لا وجوب. قال مجاهد: (إنما هي رخصة).

وقوله: ﴿وَأَطْعَمُوا الْأَسْفَلِيَّةَ﴾.

قال عكرمة: (هل المضطرُّ الذي عليه البؤس ، والفقير: المتعفف). وقال مجاهد: (هو الذي لا يبسط يده). وقال قتادة: (هو الزَّمنُ). وقال مقاتل: (هو الضَّرير).

قلت: وقد ذكر البخاري في «كتاب العيدين» من صحيحه ، باباً سمّاه: باب فضل العمل في أيام التشريق ، وقال ابن عباس: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَةٍ﴾ [الحج: 28]: أيام العشر ، والأيام المعدودات: أيام التشريق ، وكان ابنُ عمر وأبو هريرة يخرجان إلى السوق في أيام العشر يكبران ويكبرُ الناس بتكبيرهما ، وكبّر محمد بن علي خلف النافلة.

ثم روى البخاري في الباب عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ أنه قال: [ما العملُ في أيام (العشر) أفضلُ منها في هذه. قالوا: ولا الجهاد؟ قال: ولا الجهادُ ، إلا رجلٌ خرج يُخاطرُ بنفسه وماله فلم يرجع بشيء]⁽¹⁾.

وقوله: ﴿ثُمَّ لَيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾. قال ابن عمر: (التفثُ: المناسكُ كُلُّها).

وقال مجاهد: (حلق الرأس وحلق العانة وقص الأظفار وقص الشارب ورمي الجمار). وزاد ابن جريج: (والأخذ من اللحية).

قلت: والراجح ما ذكره ابن عمر من أن التفث جميع المناسك ، لحديث عروة بن مضر مرفوعاً: [من شهد صلاتنا هذه ، ووقف معنا حتى يذفع ، وقد وقف بعرفة قبل ذلك ليلاً أو نهاراً ، فقد تمَّ حَجُّه وقضى تَفَثُهُ]⁽²⁾.

وقوله: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ - وهو ما نذر المرء على نفسه في الحج من شيء مشروع أو مباح. فإن كان غير مشروع أو غير مباح فلا وفاء به.

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (969) ، والترمذي (757) ، وأحمد (1/224) ، وغيرهم.

(2) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (891) ، وابن ماجه (3016). انظر صحيح الترمذي (707).

فقد أخرج البخاري عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: [من نذر أن يُطِيعَ اللهَ فَلْيُطِعهُ ، وَمَنْ نَذَرَ أن يعصي الله فلا يعصه] (1).

وفي سنن النسائي بسند صحيح عن عمران بن حصين ، عن النبي ﷺ قال: [النذر نَذْران ، فما كان مِنْ نَذْرٍ في طاعة الله فذلك لله ، وفيه الوفاء . وما كان من نذر في معصية الله فذلك للشيطان ، ولا وفاء فيه ، ويكفره ما يكفر اليمين] (2).

وقوله: ﴿وَلَيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾.

قال ابن الزبير: (إنما سمي البيت العتيق ، لأن الله أعتقه من الجبابة).

وفي الصحيحين عن ابن عباس أنه قال: [أمر الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت الطواف ، إلا أنه خُفِّفَ عن المرأة الحائض] (3).

فيودع المسلم البيت بطواف ، كما استقبله بطواف ، فإن قضى حجه واستطاع أن يتابع بعد فترة بعمره كان ذلك خيراً كبيراً.

فقد أخرج الترمذي والنسائي بسند صحيح عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال: [تابعوا بين الحج والعمرة ، فإنهما ينفيان الفقر والذنوب ، كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة ، وليس للحجة المبرورة ثواب إلا الجنة] (4).

وأخرج البزار بسند صحيح عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: [الحُجَّاجُ والعُمَّارُ وَفَدَّ اللهَ ، دعاهم فأجابوه ، سألوه فأعطاهم] (5).

30 - 33. قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَمْ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْآَنَافُ إِلَّا مَا يَتَلْنِ عَلَيْكُمْ فَأَجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْآَوْتِنِ وَأَجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ حَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (504 / 11) - في الإيمان والنذور .

(2) حديث صحيح . أخرجه النسائي - كما في صحيح الجامع (6680) - وانظر كتابي: أصل الدين والإيمان . (1 / 460) لتفصيل البحث .

(3) حديث صحيح . أخرجه البخاري (1755) ، ومسلم (1328) ، والبيهقي (161 / 5) .

(4) حديث صحيح . أخرجه الترمذي (807) ، والنسائي (115) ، وانظر صحيح الجامع (2901) .

(5) حديث صحيح . أخرجه البزار (1153) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1820) .

خَرَمَ السَّمَاءَ فَتَخَفَطُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيحٍ ﴿٣١﴾ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ
شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى
الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ .

في هذه الآيات: تعظيمُ الحرمات تعظيمٌ للدين ، والشرك أكبر الآثام وعقابه أليم .
وتعظيمُ الشعائر من تقوى القلوب ، ولكم في البدن منافع في الشرب والركوب ، إلى
وقت وجوب نحرها عند البيت العتيق .

فعن مجاهد ، في قوله : ﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ ﴾ قال : (الحرمة : مكة
والحجّ والعمرة ، وما نهى الله عنه من معاصيه كلها) . وقال الليث : (حرمات الله
ما لا يحل انتهاكها) .

وقال قوم : (الحرمات هي الأمر والنهي) . وقال الزجاج : (الحرمة ما وجب القيام به
وحرّم التفريط فيه) .

قلت : وكل ما سبق داخل في مفهوم حرمات الله ، فإن تعظيم الشرع الممثل بالقرآن
والسنة العطرة وما جاء فيهما من أحكام يورث الخير في الدنيا والآخرة .

قال ابن القيم : (وأول التعظيم تعظيم الأمر والنهي ، وهو أن لا يعارضا بترخص
جاف ، ولا يُعَرَّضَا لتشدد غال) .

أخرج الترمذي بسند صحيح عن ابن شهاب ، أن سالم بن عبد الله حَدَّثَهُ : [أنه سمع
رجلاً من أهل الشام ، وهو يسأل عبد الله بن عمر : عن التمتع بالعمرة إلى الحج ، فقال
عبد الله بن عمر : هي حلال . فقال الشامي : إِنَّ أَبَاكَ قد نهى عنها . فقال عبد الله بن
عمر : أرايت إن كان أبي نهى عنها وصنعها رسول الله ﷺ ! أمرُ أبي يُبَيِّعُ ، أم أمر
رسول الله ﷺ ؟ فقال الرجل : بل أمر رسول الله ﷺ . فقال : لقد صنعها
رسول الله ﷺ] (1) .

وقوله : ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكَ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ . أي هذا التعظيم لأحكام هذا الدين يتبعه عند الله
يوم القيامة ثوابٌ جزيل وخير وفير .

(1) حديث صحيح . أخرجه الترمذي في السنن (830) ، أبواب الحج . باب ما جاء في التمتع . انظر
صحيح سنن الترمذي - حديث رقم - (658) .

﴿وَأَحَلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامَ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾.

قال ابن جرير: (يقول جل ثناؤه: وأحلّ الله لكم أيها الناس الأنعام ، أن تأكلوها إذا ذكّيتموها ، فلم يحرم عليكم منها بحيرة ، ولا سائبة ، ولا وصيلة ، ولا حامياً ، ولا ما جعلتموه منها لألهتكم ﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ يقول: إلا ما يتلى عليكم في كتاب الله ، وذلك: الميتة ، والدم ، ولحم الخنزير ، وما أهل لغير الله به ، والمنخنقة ، والموقوذة ، والمتردية ، والنطيحة ، وما أكل السبع ، وما ذبح على النصب ، فإن ذلك كله رجس).

وقوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾. قال ابن عباس: (يقول تعالى ذكره: فاجتنبوا طاعة الشيطان في عبادة الأوثان). أي: فعبادة الأوثان هي الرجس من ذلك.

وقوله: ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾. أي: واحذروا قول الكذب وما هو افتراء على الله.

وعن ابن عباس: ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ ﴿حُفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ يعني: الافتراء على الله والتكذيب).

وعن عاصم ، عن وائل بن ربيعة ، عن عبد الله ، قال: (تعديل شهادة الزور بالشرك ، وقرأ: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾).

وفي الصحيحين وسنن الترمذي عن أبي بكره قال: قال رسول الله ﷺ: [أَلَا أُنبِئُكُمْ بِأكْبَرِ الْكِبَائِرِ؟ قُلْنَا: بلى] ، يا رسول الله. قال: الإشراك بالله وعقوق الوالدين - وكان مُتَكِنًا فَجَلَسَ - فقال: ألا وقول الزور ، ألا وشهادة الزور. فما زال يكررها ، حتى قلنا: ليته سكت⁽¹⁾.

وقوله: ﴿حُفَاءَ لِلَّهِ﴾. أي مستقيمين على الإخلاص لله وتوحيده وتعظيم شرعه. و﴿حُفَاءَ﴾ نصب على الحال.

وقوله: ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾. أي: لا تدعون مع الله إلهاً غيره. فله العبادة وله الكبرياء وحده لا شريك له.

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5976) ، وأخرجه مسلم (87) ، وأخرجه الترمذي (1901).

وقوله: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾.

قال قتادة: (هذا مثل ضربه الله لمن أشرك بالله في بعده من الهدى وهلاكه).

وعن مجاهد: ((في مكانٍ سَحِيقٍ قال: بعيد).

والمقصود: أنَّ مثل المشرك بالله في بعده عن الهدى وإصابة الحق وهلاكه وذهابه عن ربه كمثل ذلك الذي خَرَّ من السماء فتخطفه الطير في الهواء وتقطعه وتمزقه، فهلك، أو هوت به الريح في مكان بعيد فلقي مصيره الفاجع.

وفي حديث البراء - في المسند وسنن أبي داود ومستدرک الحاكم - في صعود ملائكة العذاب بروح الكافر وخروج الريح الخبيثة منها، قال رسول الله ﷺ: [فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟ فيقولون: فلان بن فلان - بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا -، حتى ينتهي به إلى السماء الدنيا، فيستفتح له، فلا يفتح له، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾. فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتابه في سجين، في الأرض السفلى، ثم يقال: أعيدوا عبدي إلى الأرض فإني وعدتهم أنني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى، فتطرح روحه من السماء طرْحاً حتى تقع في جسده، ثم قرأ: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحديث⁽¹⁾].

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعْكِرَ اللَّهُ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾.

يشمل تعظيم أوامر الله جميعها، ومن ذلك استحسان البدن واستسمانها، وأداء مناسك الحج كما جاءت في القرآن وصحيح السنة، دون ترخص جاف أو تشدد غال.

قال مجاهد: ((وَمَنْ يُعْظَمْ شَعْكِرَ اللَّهُ: الاستسمان والاستعظام).

أو قال: (استعظام البدن، واستسمانها، واستحسانها).

وقال ابن زيد: (الشعائر: الجمار، والصفاء والمروة من شعائر الله، والمشعر الحرام، والمزدلفة).

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (281/2)، والحاكم (37/1 - 40)، وأحمد (287/4 - 288)، وكذلك (295/4 - 296) في أثناء حديث طويل، وقد مضى بتمامه.

وقال محمد بن أبي موسى: (الوقوف بعرفة من شعائر الله ، وِجَمْعُ⁽¹⁾ من شعائر الله ، ورمي الجمار من شعائر الله ، والبُذْن من شعائر الله ، ومن يعظمها فإنها من شعائر الله في قوله: ﴿وَمَنْ يُعْظَمْ شَعْرُ اللَّهِ﴾ فمن يعظمها فإنها من تقوى القلوب).

وفي كنوز صحيح السنة العطرة من ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج أبو داود بسند صحيح عن يزيد بن شيان قال: أتانا ابن مربع الأنصاري ونحن بعرفة فقال: أما إني رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إليكم ، يقول لكم: [قفوا على مشاعركم ، فإنكم على إرث من إرث أبيكم إبراهيم]⁽²⁾.

الحديث الثاني: أخرج البخاري عن أنس: [أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ضَحَى بِكَبْشَيْنِ أَمْلَحَيْنِ أَقْرَنَيْنِ]⁽³⁾.

الحديث الثالث: أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن عائشة وعن أبي هريرة: [أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَضْحِيَ ، اشْتَرَى كَبْشَيْنِ عَظِيمَيْنِ سَمِينَيْنِ أَقْرَنَيْنِ أَمْلَحَيْنِ مَوْجُوعَيْنِ . فَذَبَحَ أَحَدَهُمَا عَنْ أَمَّتِهِ ، لِمَنْ شَهِدَ اللَّهَ بِالتَّوْحِيدِ ، وَشَهِدَ لَهُ بِالْبَلَاغِ . وَذَبَحَ الْآخَرَ عَنْ مُحَمَّدٍ وَعَنْ آلِ مُحَمَّدٍ ﷺ]⁽⁴⁾.

الحديث الرابع: أخرج أحمد وأبو داود بسند صحيح عن البراء قال: قال رسول الله ﷺ: [أَرْبَعٌ لَا تَجُوزُ فِي الْأَضْحَايِ: الْعَوْرَاءُ الْبَيِّنُ عَوْرُهَا ، وَالْمَرِيضَةُ الْبَيِّنُ مَرَضُهَا ، وَالْعَرْجَاءُ الْبَيِّنُ ظَلْعُهَا ، وَالْكَسِيرَةُ الَّتِي لَا تُنْقَى]⁽⁵⁾.

والظلع: هو العرج ، والكسيرة: المنكسرة الرجل التي لا تقدر على المشي .

وقوله: «لا تنقي» من أنقى إذا صار ذا نقي . فالمعنى: التي ما بقي لها مخ من غاية العجف .

(1) جَمْع: المزدلفة.

(2) حديث صحيح . أخرجه أبو داود (1919) - كتاب المناسك . باب موضع الوقوف بعرفة .

(3) حديث صحيح . أخرجه البخاري (5558) ، ومسلم (1966) ، وأبو داود (1794) ، وأخرجه أحمد في المسند (170/3) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

(4) حديث صحيح . أخرجه ابن ماجة (3122) ، كتاب الأضاحي . وانظر صحيح ابن ماجة (2531) .

(5) حديث صحيح . أخرجه أبو داود (2802) ، والترمذي (1497) ، والنسائي (215/7) ، وابن ماجة (3144) ، وأحمد (284/4) ، ورجاله ثقات .

وقوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحْلُهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾.

أي: لكم في هذه البدن منافع من الركوب عند الحاجة وشرب ألبانها عند الضرورة إلى أن تنحر ، وهو الأجل المسمى ، ثم محلها - وهو وقت وجوب نحرها - انتهاءه إلى البيت العتيق ، وهو الكعبة . وأقوال أئمة التفسير حول هذا المعنى:

1 - قال ابن عباس: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قال: ما لم يسم بدناً).

2 - قال مجاهد: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قال: الركوب واللبن والولد ، فإذا سميت بدنة أو هدياً ذهب كله). وقال: (لكم في ظهورها وألبانها وأوبارها ، حتى تصير بُدْنًا). أو قال: (في أشعارها وأوبارها وألبانها ، قبل أن تسميها بدنة). وفي لفظ: (قبل أن تسمى هدياً).

3 - وعن عطاء قال: (منافع في ألبانها وظهورها وأوبارها ، إلى أجل مسمى: إلى أن تقلد).

4 - وقال آخرون: بل له أن ينتفع بها وإن كان هدياً ، إذا احتاج إلى ذلك.

ومن كنوز صحيح السنة في ذلك أحاديث:

الحديث الأول: في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه: [أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى رَجُلًا يَسُوقُ بَدَنَةً ، قَالَ: «ارْكَبْهَا» ، قَالَ: إِنَّهَا بَدَنَةٌ. قَالَ: «ارْكَبْهَا» ، قَالَ: إِنَّهَا بَدَنَةٌ ، قَالَ: «ارْكَبْهَا» ثلاثاً⁽¹⁾ . وفي لفظ: [فقال في الثالثة أو في الرابعة: ارْكَبْهَا وَيْلَكَ أَوْ وَيْحَكَ].

الحديث الثاني: روى مسلم عن أنس قال: [مَرَّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بَدَنَةٌ أَوْ هَدِيَّةٌ ، فَقَالَ: «ارْكَبْهَا» قَالَ: إِنَّهَا بَدَنَةٌ أَوْ هَدِيَّةٌ ، فَقَالَ: «وَأِنْ»⁽²⁾ .

الحديث الثالث: خرّج مسلم في الصحيح عن أبي الزبير قال: سمعت جابر بن عبد الله سئلَ عَنْ رُكُوبِ الْهَدْيِ ؟ فقال: سمعت النبي ﷺ يقول: [ارْكَبْهَا بِالْمَعْرُوفِ إِذَا أُلْجِئْتَ إِلَيْهَا ، حَتَّى تَجِدَ ظَهْرًا]⁽³⁾ . وفي لفظ: [ارْكَبْهَا بِالْمَعْرُوفِ ، حَتَّى تَجِدَ ظَهْرًا].

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1690)، كتاب الحج ، وكذلك (2754) - (2755) ، كتاب

الوصايا ، ورواه مسلم (2323) ، والترمذي (911) ، والنسائي (176/5) ، وغيرهم .

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1323) ، كتاب الحج ، في روايات مختلفة .

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1324) ، كتاب الحج ، باب جواز ركوب البدنة المهداة لمن احتاج

إليها ، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما .

34 - 35. قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِنَّهُمْ كَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِلَّا اللَّهَ وَحْدَهُ اسْلُمُوا وَمَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّادِقِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

في هذه الآيات: ذُبِحَ المناسك وإراقة الدماء على اسم الله أمرُ الله في جميع الأمم والبشرى للمخبتين. الذين ذَلَّتْ قلوبهم لله بالخشوع وجوارحهم بأداء الصلاة وإيتاء الزكاة والصدقات وكانوا مع الصابرين.

فعن مجاهد: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا﴾ قال: إهراق الدماء ﴿لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾ (عليها).

وعن ابن عباس: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا﴾ ، قال: عيداً. وقال عكرمة: (ذَبْحاً).

قال ابن كثير: (يخبر تعالى أنه لم يزل ذُبِحَ المناسك وإراقة الدماء على اسم الله مشروعاً في جميع الملل).

وقوله: ﴿لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِنَّهُمْ كَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِلَّا اللَّهَ وَحْدَهُ﴾.

قال القرطبي: (أي على ذبح ما رزقهم. فأمر تعالى عند الذبح بذكره وأن يكون الذبح له ، لأنه رازق ذلك. ثم رجع اللفظ من الخبر عن الأمم إلى إخبار الحاضرين بما معناه: فالإله واحد لجميعكم ، فذلك الأمر في الذبيحة إنما ينبغي أن تخلص له).

وفي الصحيحين عن أنس قال: [ضَحَّى النبي ﷺ بِكَبْشَيْنِ أَمْلَحَيْنِ ، فرَأَيْتُهُ وَاضِعاً قَدَمَهُ عَلَى صِفَاحِهِمَا يُسَمِّي وَيَكْبِّرُ فَذَبَحَهُمَا بِيَدِهِ] (1).

فالسنة أن يذبح الرجل بیده إن تيسَّر ، وأن يستقبل بذيبحته القبلة.

فقد روى عبد الرزاق بسند صحيح عن ابن عمر: [أنه كان يكره أن يأكل ذبيحة ذبحت لغير القبلة] (2).

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5558) ، كتاب الأضاحي ، وأخرجه مسلم (1966) ، وغيرهما.

(2) حديث صحيح. أخرجه عبد الرزاق (8585) بإسناد صحيح عنه. وانظر كتابي: الحج والعمرة على منهج الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة (ص 50 - 52) لتفصيل أكبر.

فيضعها على جانبها الأيسر ويضع قدمه اليمنى على جانبها الأيمن . قال الحافظ في الفتح «16/10»: (ليكون أسهل على الذابح في أخذ السكين باليمين ، وإمساك رأسها بيده اليسار).

وأما الإبل فالسنة أن ينحرها وهي قائمة معقولة اليسرى قائمة على ما بقي من قوائمها ووجهها قبل القبلة ، ويقول عند الذبح: (بسم الله والله أكبر ، اللهم إن هذا منك ولك ، اللهم تقبل مني).

وقوله تعالى: ﴿مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ ، لأن من البهائم ما ليس من الأنعام ، كالخيل والبغال والحمير . وقيل: إنما قيل للبهائم بهائم لأنها لا تتكلم - ذكره ابن جرير .
وقوله: ﴿فَلَهُ أَسْلِمُوا وَيَشِرَ الْمُخْتَبِينَ﴾ .

أي فله إلهكم الحق اخضعوا وذلوا له بالعبودية والطاعة ، وبشر - يا محمد - المنيين لربهم المتواضعين لأمره المذعنين لطاعته ، الخاشعين لذكره .

وعن مجاهد: ﴿وَيَشِرَ الْمُخْتَبِينَ﴾ قال: المطمئنين). أو قال: (المطمئنين إلى الله).
وقال قتادة: (المتواضعين). وقال عمرو بن أوس: (المختبون: الذين لا يظلمون ، وإذا ظلموا لم ينتصروا). وقال السدي: (الوجلين). وقال الثوري: ﴿وَيَشِرَ الْمُخْتَبِينَ﴾ ، قال: المطمئنين الراضين بقضاء الله ، المستسلمين له).

وقوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ . أي: خافت من تذكر عظمتهم قلوبهم ، وهو أحسن التفسير للآية السابقة ﴿وَيَشِرَ الْمُخْتَبِينَ﴾ .

وقوله: ﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ﴾ . قال ابن زيد: (من شدة في أمر الله ، ونالهم من مكروه في جنبه).

وقوله: ﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ﴾ . أي بأركانها وواجباتها ووضوئها وشروطها .

وقوله: ﴿وَعَمَّارِ زَقْنَتِهِمْ يَنْفِقُونَ﴾ .

قال ابن زيد: ﴿وَعَمَّارِ زَقْنَتِهِمْ﴾ من الأموال ﴿يَنْفِقُونَ﴾ في الواجب عليهم إنفاقها فيه في زكاة ، ونفقة عيال ، ومن وجبت عليه نفقته ، وفي سبيل الله).

36 - 37. قوله تعالى: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ إِذَا أُوجِبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ

سَخَّرَهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ .

في هذه الآيات: تشريع ذبح البدن وذكر اسم الله عليها مصطفة ، وتذليل لحومها ولبنها وركوبها إنما هو فضل الله عليكم - أيها المؤمنون - لعلكم تشكرون . إنه لن يصل إلى الله لحمها ودمها وإنما يناله التقوى منكم ، ومن ذلك إتمام مناسككم ، والبشرى للمحسنين .

فعن عطاء: (﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ قال: البقرة ، والبعير). وقال مجاهد: (إنما البدن من الإبل). قلت: فالبدن يشمل البقر والإبل ، وهو من أفضل ما يهدى إلى بيت الله الحرام. وقد صح أن النبي ﷺ جعل البقرة في الأضاحي عن سبعة ، وكذلك البدنة ، وإليه ذهب الإمام الشافعي ، وكذلك الإمام أحمد في المشهور عنه .

ففي صحيح مسلم عن ابن عباس قال: [نحرننا مع رسول الله ﷺ عامَ الحديبية ، البدنة عن سبعة ، والبقرة عن سبعة]⁽¹⁾.

وأما إسحاق وغيره من الفقهاء فقد ذهبوا إلى أن البدنة تجزئ عن عشرة .

وفي التحقيق فإن البدنة تجزئ عن سبعة أو عشرة حسب حجمها. وعليه تدل مجموع الأحاديث ، ومن ذلك :

الحديث الأول: أخرج البخاري عن رافع بن خديج: [أن رسول الله ﷺ قَسَمَ بينهم الغنائم ، فعدل الجزور بعشر شياه]⁽²⁾.

الحديث الثاني: أخرج مسلم عن جابر قال: [خرجنا مع رسول الله ﷺ مُهْلِينَ بالحج معنا النساء والولدان ، فلما قدمنا مكة ، طُفْنَا بالبيت وبالصفاء والمروة ، وأمرنا رسول الله ﷺ أن نشترك في الإبل والبقر كُلُّ سبعة منا في بدنة]⁽³⁾.

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد والنسائي بسند حسن عن ابن عباس قال: [كُنَّا

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم (1318) ، كتاب الحج ، ورواه البخاري وغيره من أهل السنن .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (2507) ، كتاب الشركة ، باب من عدل عشرة من الغنم في القسم . وانظر كتابي: السيرة النبوية (3/ 1723) لتفصيل البحث .

(3) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح (1318) ، كتاب الحج . باب الاشتراك في الهدى .

مع النبي ﷺ في سفر ، فحضر الأضحى ، فاشتركتنا في البقرة سبعة ، وفي الجزور عشرة⁽¹⁾.

وواضح أن أحاديث السبعة أكثر وأصح . قال ابن القيم : (وإما أن يقال : عدل البعير بعشرة من الغنم ، تقويم في الغنائم لأجل تعديل القسمة ، وأما كونه عن سبعة في الهدايا ، فهو تقدير شرعي ، وإما أن يقال : إن ذلك يختلف باختلاف الأزمنة ، والأمكنة ، والإبل ، ففي بعضها كان البعير يعدل عشر شياه ، فجعله عن عشرة ، وفي بعضها يعدل سبعة ، فجعله عن سبعة ، والله أعلم)⁽²⁾.

وقوله : ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ . قال مجاهد : (أجرٌ ومنافع) . وقال إبراهيم النخعي : (يركبها ويحلبها إذا احتاج إليها) .

وقوله : ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٌ﴾ . قال ابن عباس : (قياماً على ثلاث قوائم ، معقولة يدها اليسرى ، يقول : «باسم الله والله أكبر ، اللهم منك ولك»).

وقال مجاهد : (إذا عقلت رجلها اليسرى قامت على ثلاث) . قال : ﴿صَوَافٌ﴾ : (تُصَفُّ بين يديها) .

وفي قراءة لابن مسعود : «صوافن» - قال قتادة : (أي : مُعَقَّلَةٌ قياماً) . وفي قراءة طاووس والحسن : ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْهَا صَوَافِي﴾ ، يعني خالصة لله عز وجل ، وكذلك رواه مالك عن الزهري . وقال عبد الرحمن بن زيد : «(صوافي) : ليس فيها شِرْكٌ كَشِرْكِ الجاهلية لأصنامهم» .

واختار ابن جرير القراءة المشهورة : ﴿صَوَافٌ﴾ بمعنى مصطفىة ، واحداً : صافة ، وقد صفت بين أيديها وهي المعقولة إحدى قوائمها .

وقال القرطبي : ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٌ﴾ أي انحروها على اسم الله ، و﴿صَوَافٌ﴾ أي قد صُفَّت قوائمها . والإبل تُنَحَرُ قياماً معقولة . وأصل هذا الوصف في الخيل ، يقال : صَفَنَ الفرس فهو صافن إذا قام على ثلاث قوائم وثني سُنْبُكِ الرابعة ، والسُنْبُكُ طرف الحافر) .

(1) حديث حسن . أخرجه أحمد (1/ 275) ، والنسائي (7/ 222) ، والترمذي (905) .

(2) انظر : «زاد المعاد» (2/ 266 - 267) ، وكتابي : السيرة النبوية (3/ 1724) .

وقد جاءت السنة العطرة بهذا المعنى في أحاديث :

الحديث الأول: أخرج البخاري في صحيحه عن زياد بن جبير قال: [رَأَيْتُ ابْنَ عَمَرَ رضي الله عنهما أتى على رَجُلٍ قد أَنَاخَ بَدَنَتُهُ يَنْحَرُهَا ، قال: ابْعَثْهَا قِيَاماً مُقَيَّدَةً ، سُنَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ] (1).

قال البخاري في كتاب الحج من صحيحه - باب نحر البُذْنِ قائمة - وقال ابن عمر رضي الله عنهما: سنة محمد ﷺ. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿صَوَّافٌ﴾: قياماً.

الحديث الثاني: أخرج أبو داود بسند حسن عن جابر: [أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابَهُ كَانُوا يَنْحَرُونَ الْبُذْنَ مَعْقُولَةَ الْيُسْرَى ، قائمة على ما بقي من قوائمها] (2).

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد بسند جيد عن أبي رافع: [أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا ضَحَّى اشْتَرَى كَبْشَيْنِ سَمِينَيْنِ أَقْرَيْنِ أَمْلَحَيْنِ ، فَإِذَا صَلَّى وَخَطَبَ النَّاسَ أَتَى بِأَحَدِهِمَا وَهُوَ قَائِمٌ فِي مُصَلَّاهُ فَذَبَحَهُ بِنَفْسِهِ بِالْمُدَّةِ ، ثُمَّ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ ، هَذَا عَنْ أُمِّي جَمِيعَهَا ، مَنْ شَهِدَ لَكَ بِالتَّوْحِيدِ وَشَهِدَ لِي بِالْبَلَاغِ». ثُمَّ يُؤْتِي بِالْآخِرِ فَيَذْبَحُهُ بِنَفْسِهِ ، ثُمَّ يَقُولُ: «هَذَا عَنْ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ» فَيَطْعُمُهَا جَمِيعاً الْمَسَاكِينَ ، وَيَأْكُلُ هُوَ وَأَهْلُهُ مِنْهَا] (3).

وقوله: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾. أي: إذا سقطت على جنوبها ميتة. فكُنِيَ عن الموت بالسقوط. قال مجاهد: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ سقطت إلى الأرض).

أو قال: (نحرت). وقال ابن زيد: (فإذا ماتت). وقال ابن إسحاق: (إذا فرغت ونُحِرَتْ).

والمقصود: لا يجوز الأكل من البدنة إذا نحرت حتى تموت وتبرد حركتها ، ولا بد من الإسراع في الذبح وتحديد الشفرة لئلا تُعَذَّبَ البهيمة.

ففي صحيح مسلم عن شداد بن أوس قال: [ثِنْتَانِ حَفِظْتُهُمَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1713)، كتاب الحج. باب نحر الإبل مقيدة. وأخرجه مسلم (1320)، وأبو داود (1768)، وأحمد (2/3)، وابن حبان (5903) من حديث ابن عمر.

(2) حديث حسن. أخرجه أبو داود في السنن (1767)، ويشهد له ما قبله.

(3) أخرجه أحمد (8/6)، (391/6 - 392)، وأخرجه ابن ماجة كما مضى، والحديث صحيح.

الذَّبْحَ ، وَلِيُحَدِّثْ أَحَدَكُمْ شَفَرَتَهُ ، فَلْيُرِخْ ذَبِيحَتَهُ⁽¹⁾.

وفي سنن أبي داود وابن ماجه بسند حسن عن أبي واقد الليثي قال: قال رسول الله ﷺ: [مَا قُطِعَ مِنَ الْبَهِيمَةِ وَهِيَ حَيَّةٌ فَهُوَ مَيْتَةٌ]⁽²⁾.

وقوله: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾. قال مالك: (يستحب ذلك). فهو أمر بإباحة لا وجوب.

وعن مجاهد: (هي رخصة. وقال: إن شاء أكل ، وإن شاء لم يأكل).

وقوله: ﴿وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ - فيه أقوال متقاربة متكاملة:

1 - قال ابن عباس: (القانع: المستغني بما أعطيته ، وهو في بيته. والمعتَر: الذي يتعرَّض لك ، ويلم بك أن تطعمه من اللحم ولا يسأل ، وهؤلاء الذين أمر أن يطعموا من البدن).

2 - قال مجاهد: (القانع: جارك الذي يقنع بما أعطيته. والمعتَر: الذي يتعرَّض لك ولا يسألك). وقال: (القانع: أهل مكة. والمعتَر: الذي يعتريك فيسألك).

3 - قال قتادة: (القانع: المتعفف الجالس في بيته ، والمعتَر: الذي يعتريك فيسألك).

وقد استدلل بعض أهل العلم بهذه الآية: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ أَنَّ الْأَصْحِيَّةَ تُجَزَّأُ ثَلَاثَةً أَجْزَاءً ، فثُلُثٌ لِمَوْلَاهَا يَأْكُلُهُ ، وَثُلُثٌ يَهْدِيهِ لِأَصْحَابِهِ ، وَثُلُثٌ يَتَصَدَّقُ بِهِ عَلَى الْفُقَرَاءِ .

وفي صحيح البخاري من حديث سلمة بن الأكوع قال: قال النبي ﷺ: [مَنْ ضَحَّى مِنْكُمْ فَلَا يُضْبِحَنَّ بَعْدَ الثَّلَاثَةِ وَبَقِيَ فِي بَيْتِهِ مِنْهُ شَيْءٌ. فَلَمَّا كَانَ الْعَامُ الْمَقْبَلُ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، نَفَعَلُ كَمَا فَعَلْنَا الْعَامَ الْمَاضِيَ ؟ قَالَ: كُلُوا وَأَطْعِمُوا وَادَّخِرُوا ، فَإِنْ ذَلِكَ الْعَامُ كَانَ بِالنَّاسِ جَهْدٌ فَأَرَدْتُ أَنْ تُعِينُوا فِيهَا]⁽³⁾.

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح - حديث رقم - (1955) ، كتاب الصيد والذبائح. باب الأمر بإحسان الذبح والقتل ، وتحديد الشفرة.

(2) حسن صحيح. أخرجه أبو داود (2858) ، وابن ماجه (3216) ، والترمذي (1480) ، وأخرجه أحمد (218/5) ، والحاكم (239/4) وصححه ووافقه الذهبي.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (5569) - كتاب الأصاحي. وأخرجه ابن حبان في صحيحه (5929).

وفي لفظ مسلم: (فكلوا وادّخروا وتصدقوا)⁽¹⁾. وفي رواية: (كلوا وتزودوا وادّخروا).

وفي لفظ آخر: (كلوا وأطعموا واخسوا أو ادّخروا)⁽²⁾.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

أي: هذا التذليل من الله تعالى لهذه البدن لكم: في ركوبها ولحومها ولبنها إنما هو فضل الله وكرمه عليكم لعلكم تحسنون شكره وعبادته.

وفي التنزيل نحو ذلك:

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مِنْفَعٌ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: 71 - 73].

ولكن: قليل من عباد الله هم الشاكرون ، وأكثر الناس في غفلة عن نعم الله التي تنعمهم.

ففي المسند للإمام أحمد بسند صحيح عن عتبة بن عبد ، عن النبي ﷺ قال: [لو أن رجلاً يُجرى على وجهه من يوم ولد إلى يوم يموت هرماً في مرضاة الله تعالى لَحَقَرَهُ يوم القيامة]⁽³⁾.

وفي جامع الترمذي بسند صحيح عن أبي هريرة وعن أبي سعيد قالاً: قال رسول الله ﷺ: [يؤتى بالعبد يوم القيامة فيقول له: ألم أجعل لك سمعاً وبصراً ومالاً وولداً وسخّرت لك الأنعام والحرث ، وتركتك ترأساً وتربع ، فكنت تظن أنك ملاقي يومك هذا ؟ فيقول: لا . فيقول له: اليوم أنساك كما نسيتني]⁽⁴⁾.

وقوله: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ الْقُلُوبُ مِنْكُمْ﴾.

قال إبراهيم: (ما أريد به وجه الله). وهو كما قال ابن زيد: (إن اتقيت الله في هذه

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم (1971) - كتاب الأضاحي . وانظر للرواية الأخرى (1972) منه .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم (1973) - كتاب الأضاحي ، في ختام حديث أطول .

(3) حديث حسن . انظر صحيح الجامع (5125) ، وكتابي: أصل الدين والإيمان (675/1) ، وكتابي: تحصيل السعادتین علی منهج الوحیین (98 - 99) لتفصيل هذا البحث .

(4) حديث صحيح . أخرجه الترمذي (2558) . أبواب صفة القيامة . انظر صحيح سنن الترمذي - حديث رقم - (1978) ، وأصله في صحيح مسلم .

البدن ، وعملت فيها لله ، وطلبت ما قال الله تعظيماً لشعائر الله ، ولحرمات الله).

وعن ابن جريج قال: (كان أهل الجاهلية ينضحون البيت بلحوم الإبل ودمائها ، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فنحن أحق أن ننضح. فأنزل الله تعالى: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ﴾).

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ، ولا إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم]⁽¹⁾.
وفي رواية: [إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم].

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِشُكْرِئِ اللَّهِ عَلَىٰ مَا هَدَيْتُمْ وَيُبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾.

أي: كذلك سخر الله لكم هذه البدن وذلها كي تعظموا الله على ما هداكم له من أمر دينكم وإتمام مناسك حجكم.

قال ابن زيد: ﴿لِشُكْرِئِ اللَّهِ عَلَىٰ مَا هَدَيْتُمْ﴾ قال: على ذبحها في تلك الأيام ﴿وَيُبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ يقول: وبشر يا محمد الذين أطاعوا الله فأحسنوا في طاعتهم إياه في الدنيا بالجنة في الآخرة).

38 - 41. قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ

خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٢٨﴾ أُوذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَلَدَمَتِ صَوْمِعُ وَيَبْعُ وَصَلَوَاتُ وَمَسْجِدُ يُذَكِّرُ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيْسَ صَرْبُ اللَّهِ مِنْ يَنْصُرُهُ ﴿٣٠﴾ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٣٢﴾﴾.

في هذه الآيات: دفاع الله عن المؤمنين ، وسخطه على الخائنين الكافرين ، وتشريع

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2564) (33) ، وأخرجه أيضاً برقم (34) - وهي الرواية الأخرى.

القتال لإقامة هذا الدين ، ودفعُ الله الناس بعضهم ببعض لنصرة الحق المبين .
والمؤمنون الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويأمنون بالمعروف وينهون عن المنكر
موعودون بالشوكة والتمكين .

فقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ .

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: إن الله يدفع غائلة المشركين عن الذين آمنوا بالله
وبرسوله ، إن الله لا يحب كل خَوَّانٍ يخون الله ، فيخالف أمره ونهيه ويعصيه ، ويطيع
الشیطان ﴿ كَفُورٍ ﴾ يقول: جحود لنعمه عنده ، لا يعرف لمنعمها حقه فيشكره عليها) .

وفي التنزيل :

1 - قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ [الطلاق : 3] .

2 - وقال تعالى: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ [الزمر :
36] .

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله
تعالى قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إليّ
مما افترضته عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت
سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي
بها ، وإن سألني لأعطينه ، وإن استعاذني لأعيذنه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله
ترددي عن قبض نفس المؤمن ، يكره الموت وأنا أكره مساءته] ⁽¹⁾ .

فمن كان ولياً لله آذن الله تعالى من عاداه بالحرب ، وكان في عناية الله وحراسته .

وفي صحيح مسلم عن جندب قال: قال رسول الله ﷺ: [مَنْ صَلَّى صَلَاةَ الصُّبْحِ فَهُوَ
فِي ذِمَّةِ اللَّهِ ، فَلَا يَطْلُبُكُمُ اللَّهُ مِنْ ذِمَّتِهِ بِشَيْءٍ ، فَإِنَّهُ مَنْ يَطْلُبُهُ مِنْ ذِمَّتِهِ بِشَيْءٍ يُدْرِكُهُ ، ثُمَّ
يَكْبِتُهُ عَلَى وَجْهِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ] ⁽²⁾ .

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح (6502) - كتاب الرقاق ، باب التواضع .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح (657) - كتاب المساجد - باب فضل صلاة العشاء
والصبح في جماعة ، من حديث جندب رضي الله عنه .

وقوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾.

أخرج أحمد في المسند ورجاله رجال الصحيح ، وكذلك الترمذي في السنن بسند صحيح عن ابن عباس قال: [لَمَّا خَرَجَ النَّبِيُّ - ﷺ - مِنْ مَكَّةَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَخْرَجُوا نَبِيَّهُمْ ! إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، لَيَهْلِكَنَّ . قَالَ : فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَكُونُ قِتَالٌ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : (وَهِيَ أَوَّلُ آيَةٍ نَزَلَتْ فِي الْقِتَالِ) ⁽¹⁾.

وقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾. قال ابن كثير: (أي: هو قادرٌ على نصر عباده المؤمنين من غير قتال ، ولكن هو يريد من عباده أن يبذلوا جُهدَهُم في طاعته ، كما قال: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَنتَحِسْتُمُوهُمْ فَاسُدُّوا ثَوَابَهُمْ فَمَا بَعْدَ ذَلِكَ نَعَصَ الْحَرْبُ أَوَّلَآهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١٥﴾ سَيَجْزِيهِمْ وَصْلِهِم بِالْمَالِ ﴿١٦﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ [محمد: 4 - 6].

وعن ابن عباس: (﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ قال: وقد فعل).

وفي التنزيل أيضاً:

1 - قال تعالى: ﴿فَقَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ مِنْكُمْ وَيُهْزِجَهُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبَ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَتُؤْتَىٰ آلُ مَرْيَمَ أَهْلَهُنَّ بِمَا نَسَبْنَ لَهُنَّ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 14 - 15].

2 - وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: 16].

3 - وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الْقَادِرِينَ﴾ [آل عمران: 142].

4 - وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوَنَّكُمْ أَلْخَبَارَ﴾ [محمد: 31].

أخرج الخطيب في «التاريخ» وبنحوه الإمام أحمد والحاكم بسند صحيح عن أنس

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (3170)، والنسائي في «الكبرى» (11345)، وأخرجه ابن جرير (25254) - (25255)، وإسناده صحيح، ورواه أحمد والحاكم وغيرهم.

مرفوعاً: [التَّصَرُّعُ مَعَ الصَّبْرِ ، وَالْفَرَجُ مَعَ الْكَزْبِ ، وَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا⁽¹⁾].

وقوله: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾.

قال ابن عباس: (أُخْرِجُوا مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ بِغَيْرِ حَقٍّ ، يَعْنِي مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ).

وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ﴾.

أي: ما كان لهم من ذنب حين أخرجهم الكفار واضطروهم إلى الهجرة إلا أنهم أخلصوا التوحيد لله بقولهم: ربنا الله وحده لا شريك له ، وأفردوه بالعبادة والتعظيم.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 - قال تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [الممتحنة: 1].

2 - وقال تعالى: ﴿وَمَا نَقْمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: 8].

وفي صحيح البخاري من حديث أسامة بن زيد أنه قال زمن الفتح: يا رسول الله أين تنزل غداً؟ قال النبي ﷺ: [وهل ترك لنا عقيل من منزل]⁽²⁾.

وقوله: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتَّ مَسَاجِدُ صَوَامِعُ وَبِيعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾.

الصوامع: المعابد الصُّغَارُ التي تخصَّ الرهبان. قال مجاهد: (صوامع الرهبان). وقال الضحاك: ﴿لَفُتَّ مَسَاجِدُ صَوَامِعُ﴾ وهي الصوامع الصغار بينونها).

والبيع أوسع من الصوامع ، وأكثر عابدين فيها ، وهي خاصة بالنصارى أيضاً. وقيل بل هي كنائس اليهود.

قال الضحاك: (البيع: بيع النصارى). وقال مجاهد: ﴿وَبِيعٌ﴾ قال: وكنائس).

وقال ابن زيد: (البيع: الكنائس). وروي عن ابن عباس: (أنها كنائس اليهود).

والصلوات: قال ابن عباس: (يعني بالصلوات الكنائس). وقال الضحاك: ﴿وَصَلَوَاتٌ﴾ كنائس اليهود ، ويسمون الكنيسة صلواتاً. وقال أبو العالية: (هي مساجد الصابئين).

(1) حديث صحيح. أخرجه الخطيب في «التاريخ» (287/10) ، والدليمي (4/111 - 112) ، وانظر مسند أحمد (307/1) ، ومستدرک الحاكم (3/541 - 542) ، والسلسلة الصحيحة (2382).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4282) - كتاب المغازي. وانظر تفصيل البحث في كتابي: السيرة النبوية. (3/1276) - في أثناء فتح مكة.

وقال مجاهد: ﴿وَصَلَوْتُ﴾ مساجد لأهل الكتاب ، ولأهل الإسلام بالطرق) ، والله تعالى أعلم .

وقوله: ﴿وَمَسْجِدُ﴾ قال رفيع: (مساجد المسلمين). وقال قتادة: (المساجد: مساجد المسلمين يذكر فيها اسم الله كثيراً) .

وقوله: ﴿يَذْكُرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ . قال الضحاك: (الجميع يذكر فيها اسم الله كثيراً) .

وقيل: بل الضمير في قوله ﴿فِيهَا﴾ عائد إلى المساجد لأنها أقرب المذكورات .

قال ابن جرير: (الصواب لَهْدَمَتْ صوامع الرهبان وبيع النصارى وصلوات اليهود ، وهي كنائسهم ، ومساجد المسلمين التي يذكر فيها اسم الله كثيراً ، لأن هذا هو المستعمل المعروف في كلام العرب). وقال بعض أهل العلم: (هذا تَرْقُّ من الأقل إلى الأكثر إلى أن ينتهي إلى المساجد ، وهي أكثر عُمَاراً وأكثر عِبَاداً ، وهم ذوو الْقَصْدِ الصحيح).

والخلاصة: هذه سنة من سنن الله تعالى في خلقه وعباده ، فإنه لولا أنه سبحانه يدفع عن قوم بقوم ، ويكشف شرَّ أناس عن غيرهم بما يخلقه ويقدره من الأسباب والتصرف لشؤون وأحوال العباد ، لفسدت الأرض ، وأهلك القوي الضعيف ، ولَبَالَغَ المتجبرون والطغاة في عتوهم وبطشهم ، ولكن إرادة الله وأقداره تكسرهم وتمنعهم .

وقوله: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ﴾ .

سنة أخرى من سنن الله تعالى ، وهي في أوليائه وأتباع أنبيائه ورسله . فإنهم إن صدقوا الله تعالى نصر دينه ، صدقهم الله جل ثناؤه النصر والتمكين .

ففي التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ [غافر: 51] .

2 - وقال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: 21] .

3 - وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن نَّصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُخْرِجْ أَيْدِيَ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالُهُمْ﴾ [محمد: 7 - 8] .

وفي مسند الإمام أحمد بإسناد صحيح على شرط الشيخين عن عبد الرحمن بن

كعب بن مالك عن أبيه مرفوعاً إلى النبي ﷺ: [إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه]⁽¹⁾.

وفي صحيح مسلم عن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ على المنبر يقول: [وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ] ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي]⁽²⁾.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾. أي: هو القوي فيمكن المؤمنين بقوته وجبروته ليقهروا عدوهم ، وهو العزيز فكل الطغاة مقهورون بعزته مهزومون بكبريائه أذلاء تحت حكمه وقضائه .

وقوله: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾. هو غاية التمكين ، ومنهاج المؤمنين ، فإن في إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إقامة للدين .

قال أبو العالية: (كان أمرهم بالمعروف أنهم دعوا إلى الإخلاص لله وحده ، لا شريك له ، ونهيههم عن المنكر ، أنهم نهوا عن عبادة الأوثان ، وعبادة الشياطين ، قال: فمن دعا إلى الله من الناس كلهم ، فقد أمر بالمعروف ، ومن نهى عن عبادة الأوثان وعبادة الشيطان ، فقد نهى عن المنكر).

وفي التنزيل:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى﴾ [النور: 55].

وقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾. قال زيد بن أسلم: (وعند الله ثواب ما صنعوا).

قال ابن جرير: (يقول: والله آخر أمور الخلق ، يعني: أن إليه مصيرها في الثواب عليها ، والعقاب في الدار الآخرة).

وفي التنزيل:

﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: 83] ، ﴿وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:

35].

وفي صحيح البخاري من حديث عبد الله بن مسعود مرفوعاً: [من أحسنَ في

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (6/387) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1631).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم والترمذي. انظر مختصر صحيح مسلم - حديث رقم - (1102).

الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية ، ومن أساء في الإسلام أُخِذَ بالأول والآخر⁽¹⁾.

42 - 46. قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبُورُ مَعْطَلَةٌ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُون لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ۝ .

في هذه الآيات: إخبارُ الله تعالى عن تكذيب الأمم المرسلين ، كقوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم ، وقوم لوط وكذلك كُذِّبَ موسى رغم الحجج البينات ، والأدلة القاطعات الواضحات ، فأملَى تعالى للكافرين ، ثم أخذهم بعذاب مهين . إنه كم من قرية كُذِّبَ أهلها فنزل بها العذاب ، فإذا هي خراب ، وبئر لا يُستسقى منها ولا يردها أحد ، وقد كانت تعج بالواردين ، وقَصْرٍ محكم البنيان ، لم يمنع أهله من الخزي والخذلان . أفلم يبصر هؤلاء المكذبون أثناء تحركهم في الأرض مصارع أمثالهم من الأمم المكذبة الزائلة ، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور .

فقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى ۝ الآية .

تسلية من الله سبحانه لنبيه محمد ﷺ عما يلقيه من أذى قومه وتكذيبهم له ، وإخباره أن هذا الموقف الساقط الذي يواجه به قومه ما يأتيهم من الحق والحجة والبرهان إنما هو سنة إخوانهم من الأمم الخالية المكذبة مع رسل الله إليهم .

وقوله: ﴿ فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۝ .

قال ابن جرير: (يقول: فأمهلت لأهل الكفر بالله من هذه الأمم ، فلم أعاجلهم

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (6921) - كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم - ، ورواه مسلم في الصحيح (120) ح (190) - كتاب الإيمان - باب هل يؤاخذ بأعمال الجاهلية .

بالنقمة والعذاب ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ يقول: ثم أحللت بهم العقاب بعد الإملاء ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ يقول: فانظر يا محمد كيف كان تغييرى ما كان بهم من نعمة ، وتنكري لهم عما كنت عليه من الإحسان إليهم ، ألم أبدلهم بالكثرة قلة ، وبالحياة موتاً وهلاكاً ، وبالعمارة خراباً ؟ يقول: فكذلك فعلي بمكذبيك من قريش ، وإن أملت لهم إلى آجالهم ، فإني مُنْجِزُكَ وعدي فيهم ، كما أنجزت غيرك من رسلي وعدي في أمهم ، فأهلكناهم ، وأنجيتهم من بين أظهرهم).

وفي الصحيحين عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ. قال: ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: 102]]⁽¹⁾.

وقوله: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾.

أي: وكم - يا محمد - من قرية أهلكتها وهي مكذبة لرسولها ، وتقوم على الكفر وفعل المعصية.

وقوله: ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾. قال الضحاك: (خاؤها: خرابها ، وعروشها: سقوفها).

وقال قتادة: ﴿(خَاوِيَةٌ): خربة ليس فيها أحد﴾.

وقوله: ﴿وَيَبِثُّ مَعْطَلَةً﴾. أي: لا يُسْتَقَى منها ، ولا يردها أحد بعد أن كانت تعج بكثرة الواردين لها ، والمزدحمين على السقاية منها.

وعن عطاء عن ابن عباس: ﴿(وَيَبِثُّ مَعْطَلَةً) قال: التي تُرِكَت ، وقال غيره: لا أهل لها﴾.

وعن قتادة قال: (عطلها أهلها ، تركوها).

وقوله: ﴿وَقَصْرِ مَشِيدٍ﴾ - فيه أقوال متقاربة:

1 - عن عكرمة: ﴿(وَقَصْرِ مَشِيدٍ) قال: مُبْصَصٌ﴾. قال: (والجصّ بالمدينة يسمى الشيد).

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4686) ، ومسلم (2583) ، والترمذي (3110) ، والبيهقي (94/6) ، وأخرجه ابن ماجة (4018) ، وابن حبان (5175).

2- وعن مجاهد: ﴿وَقَصِّرْ مَشِيدَ﴾ قال: بالقِصَّة أو الفضة). وقال: (بالقِصَّة يعني بالجِص).

3 - قال قتادة: (كان أهله شيدوه وحصَّنوه ، فهلكوا وتركوه). وقال الضحاك: ﴿وَقَصِّرْ مَشِيدَ﴾ يقول: طويل).

وكلها أقوال محتملة ، وإنما العبرة من كل ما سبق أن شدة البناء والإحكام والتحصين والارتفاع لم تحم أهل القصر والبنیان من حلول بأس الله ونقمته بهم لما جاء أجلهم وحاد وقت عذابهم مقابل تكذيبهم وبغيهم .
 وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾.

أي: أفلم يسيروا - هؤلاء المكذبون رسلهم الجاحدون قدرة ربهم على إحداث التغيير والدمار - فينظروا إلى مصارع ضربائهم وأمثالهم من الأمم الماضية المكذبة الزائلة .

وقوله: ﴿فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ .

قال النسفي: (أي يعقلون ما يجب أن يعقل من التوحيد ونحوه ، ويسمعون ما يجب سماعه من الوحي) .

وقوله: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ .

قال ابن كثير: (أي: ليس العمى عمى البصر ، وإنما العمى عمى البصيرة ، وإن كانت القوة الباصرة سليمة فإنها لا تنفذ إلى العبر ، ولا تدري ما الخبر) .

فائدة: القلب مركز التفكير والفقه ، وليس العقل الذي في الدماغ .

1 - قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاقِلُونَ﴾ [الأعراف: 179] .

2 - وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: 46] .

والحق أن الدماغ هو متأثر بالقلب الذي هو من جهة: مركز حياة الأبدان وموجه حركتها ، وتبطله تتعطل الحياة. ومن جهة ثانية: فهو مركز الفكر والعقل والفقه والوعي والفهم .

وفي الصحيحين من حديث النعمان بن بشير مرفوعاً: [ألا وإن في الجسد مضغة ، إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسد فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب] (1).

47- 51. قوله تعالى: ﴿وَسْتَغْلِبُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَتَّبِعُنَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾.

في هذه الآيات: استعجالُ المشركين العذاب ولن يخلف الله وعده في الانتقام منهم ، وإن مقدار ألف سنة عند خلقه كيوم واحد عنده بالنسبة إلى حكمه . إنه كم من قرية طغى أهلها فكان إنظارهم ثم نزول العذاب بهم وإلى الله المصير . قل - يا محمد - معلناً للناس أنك نذير مبين ، فالؤمنون لهم مغفرة لذنوبهم وهم في جنات النعيم ، والكافرون ليسوا معجزين ولهم عذاب الجحيم .

فقوله: ﴿وَسْتَغْلِبُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ . أي: استهزاء وكبراً . والمقصود: طغاة مكة الذين كذبوا النبوة وجحدوا الدار الآخرة .

وفي التنزيل نحو ذلك :

1 - قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مَا تُبَدِّلْ عَلَيْنَا جِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: 32].

2 - وقال تعالى: ﴿وَسْتَغْلِبُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [العنكبوت: 53].

3 - وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا جَعَلْنَا قُلُوبَنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: 16].

وفي مسند الإمام أحمد بإسناد قوي عن عقبة بن عامر مرفوعاً: [إذا رأى الله يعطي

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (52) ، كتاب الإيمان . وكذلك (2051) ، ورواه مسلم . وانظر تفصيل البحث - العلاقة بين الروح والقلب والنفس والعقل - في كتابي: تحصيل السعادتین علی منهج الوحیین (198 - 212) .

العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج . ثم تلا : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمَ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ [1].

وقوله : ﴿ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ - عام في أوليائه وأعدائه .

قال ابن جرير : (ولن يخلف الله وعده الذي وعدك فيهم ، من إحلال عذابه ونقمتهم بهم في عاجل الدنيا ، ففعل ذلك ، ووفى لهم بما وعدهم ، فقتلهم يوم بدر) .

قلت : ووعد الله تعالى في الانتقام من أعدائه لا يقتصر على الدنيا ، بل يشمل خزي يوم القيامة .

وقوله : ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ .

قال ابن عباس : (من الأيام التي خلق الله فيها السماوات والأرض) . وقال النسفي : (أي كيف يستعجلون بعذاب من يوم واحد من أيام عذابه في طول ألف سنة من سنينكم لأن أيام الشدائد طوال) .

قال ابن كثير : (أي : هو تعالى لا يعجل ، فإنَّ مقدار ألف سنة عند خلقه كيوم واحد عنده بالنسبة إلى حكمه ، لعلمه بأنه على الانتقام قادر ، وأنه لا يفوته شيء ، وإنَّ أجل وأنظر وأملى) .

وفي جامع الترمذي ومسند أحمد بسند حسن عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : [يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم ، خمس مئة عام] (2) .

وفي سنن أبي داود بسند صحيح عن سعد بن أبي وقاص : [أن النبي ﷺ قال : إني لأرجو ، أن لا تعجز أمتي عند ربها أن يؤخرهم نصف يوم . قيل لسعد : وكم نصف ذلك اليوم ؟ قال : خمس مئة سنة] (3) .

وله شاهد عنده من حديث أبي ثعلبة الخشني قال : قال رسول الله ﷺ : [لَنْ يُعْجَزَ اللَّهُ هَذِهِ الْأُمَّةَ مِنْ نِصْفِ يَوْمٍ] (4) .

(1) حديث صحيح . أخرجه أحمد (4/ 145) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (414) .

(2) حديث حسن . أخرجه الترمذي في الجامع (2353) - (2354) ، وأحمد في المسند (2/ 296) ، والنسائي في «الكبرى» (11348) ، وابن حبان (676) .

(3) حديث صحيح . أخرجه أبو داود (4350) ، كتاب الملاحم . وانظر صحيح سنن أبي داود (3656) .

(4) حديث صحيح . أخرجه أبو داود (4349) ، كتاب الملاحم ، باب قيام الساعة ، من حديث أبي ثعلبة الخشني . انظر صحيح سنن أبي داود - حديث رقم - (3655) .

وأخرج ابن جرير بسنده إلى أبي نَضْرَةَ ، عن سُمَيْرِ بْنِ نَهَارٍ قَالَ : قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ :
(يَدْخُلُ فَقَرَاءُ الْمُسْلِمِينَ الْجَنَّةَ قَبْلَ الْأَغْنِيَاءِ بِمِقْدَارِ نِصْفِ يَوْمٍ . قُلْتُ : وَمَا نِصْفُ يَوْمٍ ؟
قَالَ : أَوْ مَا تَقْرَأُ الْقُرْآنَ ؟ قُلْتُ : بَلَى . قَالَ : ﴿ وَلَيْتَ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا
تَعُدُّونَ ﴾ ⁽¹⁾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ ﴾ .

قال النسفي : (أي : وكم من أهل قرية كانوا مثلكم ظالمين قد أنظرتهم حيناً ﴿ ثُمَّ
أَخَذْتُهَا ﴾ بالعذاب ﴿ وَإِلَى الْمَصِيرِ ﴾ أي المرجع إلي فلا يفوتني شيء) .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَتَّخِذُهَا النَّاسُ إِمَامًا أَنَا لَكُمُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ .

ردُّ على كفار مكة حين سألوا رسول الله ﷺ تعجيل العذاب ، فأخبرهم أنه إنما عليه
النذارة وليس إليه أمر العقاب ، فالله يحكم ﴿ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ . وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾
[الرعد : 41] .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ .

قال ابن جريج : (الجنة) . فإن أهل الإيمان والعمل الصالح موعودون من ربهم بستر
ذنوبهم ومضاعفة حسناتهم .

قال محمد بن كعب القرظي : (إذا سمعت الله تعالى يقول : ﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ ، فهو
الجنة) .

وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ .

1 - قرأ قراء المدينة والكوفة «معاجزين» .

قال ابن عباس : («معاجزين» : مشاقين) ، أو قال : (مراغمين) . وعن قتادة قال :
(كذبوا بآيات الله ، فظنوا أنهم يُعجزون الله ، ولن يعجزوه) .

2 - قرأ بعض قراء مكة والبصرة : «مُعْجِزِينَ» أي عَجَزُوا الناس وَتَبَطَّوْهُمْ عَنْ اتِّبَاعِ
رسول الله ﷺ وعن الإيمان بالقرآن . قال مجاهد : (قوله : «مُعْجِزِينَ» : مُبْطِئِينَ ،
يُبْطِئُونَ النَّاسَ عَنْ اتِّبَاعِ النَّبِيِّ ﷺ) .

والقراءتان مشهورتان في الأمصار ، والمعنى متقارب ، فإن المكذبين بآيات الله

(1) موقوف في حكم المرفوع . رواه ابن جرير في «التفسير» ، ويشهد له حديث الترمذي (2353) .

ووعده ووعيده يحسبون أنهم يفلتون من حكم الله ويحاربون أوليائه ويصدون الناس عن سبيل الله ، ونار الجحيم تنتظرهم لتكون مستقرهم ومآلهم .

52 - 54. قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَعَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ ۝ .

في هذه الآيات: إبطال الله وساوس وأماني الشيطان من دعوة الرسل ، وجعل تلك الأماني والوساوس فتنة للشاكرين المنافقين والقاسية قلوبهم ، ففي إنزال الله آيات القرآن ونسخ ما ألقى الشيطان تثبيت للمؤمنين ، ودحض لأمنيات المبطلين ، والله يهدي المؤمنين إلى صراط مستقيم .

فقوله: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَعَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ۝ ﴾ الآية .

قال البخاري: (وقال ابن عباس في ﴿ إِذَا تَمَعَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ۝ ﴾ : إِذَا حَدَّثَ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي حَدِيثِهِ ، فَيُنْطَلُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ وَيُحْكِمُ آيَاتِهِ ، وَيُقَالُ أُمْنِيَّتُهُ قِرَاءَتُهُ ، ﴿ إِلَّا أَمَانِي ﴾ [البقرة: 78]: يقرؤون ولا يكتبون⁽¹⁾ .

وقال القاسمي: ﴿ (إِلَّا إِذَا تَمَعَّى) أَي رَغِبَ فِي انْتِشَارِ دَعْوَتِهِ ، وَسُرْعَةَ عُلُوِّ شَرْعَتِهِ ﴾ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ۝ أَي بِمَا يَصْدُ عَنْهَا ، وَيَصْرِفُ الْمَدْعُودِينَ عَنْ إِجَابَتِهَا ﴾ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ۝ أَي يَبْطِلُهُ وَيَمْحَقُهُ ﴾ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ۝ أَي يَثْبِتُهَا ﴾ فَأَمَّا الزُّبْدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمُكِّتُ فِي الْأَرْضِ ۝ . وَاللَّهُ عَلِيمٌ ۝ يَعْلَمُ الْإِلْقَاءَاتِ الشَّيْطَانِيَّةَ ، وَطَرِيقَ نَسْخِهَا مِنْ وَجْهِ وَحْيِهِ ﴿ حَكِيمٌ ﴾ يَحْكُمُ آيَاتِهِ بِحُكْمَتِهِ) .

قلت: وأما ما ذكر المفسرون عند هذه الآية من قصة الغرانيق: أن رسول الله ﷺ

(1) انظر صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، سورة الحج ، الحاشية .

مدح أصنام الكفار بقوله: «تلك الغرائق العُلا ، وإن شفاعتهن لترتجى» فهو كذب وافتراء وباطل . ويبدو أنه من صنع المشركين الذين لم يتمالكوا عند سماع سورة النجم يتلوها رسول الله ﷺ عند الكعبة إلا أن خزوا ساجدين .

فقد أخرج البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما: [أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَجَدَ بِالنَّجْمِ ، وَسَجَدَ مَعَهُ الْمُسْلِمُونَ وَالْمَشْرِكُونَ وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ] (1) .

وكذلك أخرج البخاري من طريق عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: [قرأ النبي ﷺ النجم بمكة ، فسجد فيها وسجد من معه غير شيخ ، أخذ كفاً من حصي ، أو تراب ، فرفعه إلى جبهته ، وقال يكفيني هذا ، فرأيته بعد ذلك قُتِلَ كافراً] (2) .

والذي يظهر في التحقيق أنه لما توالى على الذين سجدوا من المشركين اللوم والعتاب ممن لم يحضر من رفاقهم وعشائهم ، لجؤوا إلى الكذب والافتراء وزعموا أن رسول الله ﷺ مدح أصنامهم فسجدوا لذلك . ثم إن القصة لا تثبت من الجهة الحديثية ، فإن أسانيدھا مظلمة يحطم بعضها بعضاً (3) ، فضلاً عن أنها مرفوضة متناً لاصطدامها مع العصمة النبوية ، في قضية الوحي والتوحيد والأمور الإيمانية الشرعية .

وقوله: ﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم ﴾ .

قال ابن جريج: (يقول: وللذين قست قلوبهم عن الإيمان بالله ، فلا تلين ولا ترعوي، وهم المشركون بالله). وقال: ﴿ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾: هم المنافقون .

والآية تشير إلى بعض مقتضيات حكمته تعالى من ذلك أنه يجعل هذا الإلقاء

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (1071) - كتاب الكسوف ، وكذلك في كتاب سجود القرآن .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (1070) - الكتاب السابق . وانظر تفصيل البحث في كتابي: السيرة النبوية على منهج الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة (1/ 310 - 311) .

(3) قال ابن كثير: (وكلها مرسلات ومنقطعات). فالزنادقة - فيما يبدو - ركبوا الأسانيد إلى التابعين بل وصل به بعضهم إلى ابن عباس . وقد حكم بطلان قصة الغرائق ، أبو بكر بن العربي ، والشوكاني ، والبيهقي ، وابن إسحاق صاحب السيرة حيث سئل عن هذه القصة فقال: هذا من وضع الزنادقة . نقله عنه أبو حيان في البحر . وقال أبو منصور الماتريدي: (هذا الخبر من إيهام الشيطان إلى أوليائه الزنادقة). وجمع الألباني رسالة في بطلان طرق هذا الخبر سماها: «نصب المجانيق في نسف قصة الغرائق» .

الشیطاني فتنة للشاكين المنافقين والقاسية قلوبهم عن قبول الحق ، ابتلاء لهم ليزدادوا عتواً وإثماً ، ورحمة للمؤمنين ليزدادوا يقيناً وثباتاً .

وقوله : ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ . أي : في ضياع وضلال ومخالفة وعناد عن قبول الحق والإذعان إليه .

وقوله : ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُمْ قُلُوبُهُمْ﴾ . هو إخبار من الله تعالى عن بعض حكمته من إنزال آيات القرآن ، في دحض أُمُنيات الشيطان . قال ابن جريج : ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ : يعني القرآن .

قال ابن جرير : (يقول تعالى ذكره : وكي يعلم أهل العلم بالله أن الذي أنزله الله من آياته التي أحكمها لرسوله ، ونسخ ما ألقى الشيطان فيه ، أنه الحق من عند ربك يا محمد ، ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ : يقول : فيصدقوا به ، ﴿فَتُخْبِتَ لَهُمْ قُلُوبُهُمْ﴾ : يقول : فتخضع للقرآن قلوبهم ، وتدعن بالتصديق به ، والإقرار بما فيه) .

وقوله : ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُدَايَةُ التَّوْفِيقِ وَالْإِلَهَامِ ، لِلثَّبَاتِ عَلَى الْحَقِّ وَالْإِيمَانِ ، ضِدَّ مُحَاوَلَاتِ كَيْدِ الشَّيْطَانِ .

قال النسفي : (فيتأولون ما تشابه في الدين بالتأويلات الصحيحة ، ويطلبون لما أشكل منه المحمل الذي تقتضيه الأصول المحكمة حتى لا تلحقهم حيرة ولا تعثرهم شبهة) .

أخرج البيهقي بسند حسن عن إبراهيم بن عبد الرحمن العذري قال : قال رسول الله ﷺ : [يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين] (1) .

55 - 57 . قوله تعالى : ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ ﴿٥٥﴾ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ

(1) الحديث روي موصولاً من طريق جماعة من الصحابة ، وصحح بعض طرقه الحافظ العلائي . انظر تفصيل ذلك في كتابي : أصل الدين والإيمان (1/ 269) .

فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ .

في هذه الآيات: استمرار الكفار في الشك والريب من هذا القرآن حتى تنزل بهم ساعة النعمة فجأة أو عذاب يوم القيامة. إنه في ذلك اليوم يتفرد الله تعالى بالملك والحكم فالمؤمنون في جنات النعيم ، والكفار في شقاء الجحيم .

فعن ابن جريج: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مَرِيقَتِهِمْ﴾ قال: من القرآن).

أي: لا يزال الكفار في شك وريب من هذا القرآن الذي أحكم الله آياته. واختاره ابن جرير .

وقوله: ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾. أي حتى تأتيهم ساعة النعمة فجأة ، فيحل بهم بأس الله وسخطه. قال مجاهد: ﴿بَغْتَةً﴾: فجأة). وقال قتادة ﴿بَغْتَةً﴾ ، بَغَتِ القوم أمر الله ، وما أخذ الله قوماً قط إلا عند سكرتهم وعرّتهم ونعمتهم ، فلا تغتروا بالله ، إنه لا يغترُّ بالله إلا القوم الفاسقون).

وقوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾. قال مجاهد: (قال أبي بن كعب: هو يوم بدر) - واختاره ابن جرير. وقال مجاهد - في رواية أخرى - وعكرمة: (هو يوم القيامة لا ليلة له).

قلت: والسياق يدل على القول الثاني ، وهو وعيد القيامة وما يكون من الهول والمصيبة على الكفار في ذلك اليوم العقيم ، ولذلك قال تعالى في الآية بعدها: ﴿الْمَلَكُ يَوْمَئِذٍ يَخْتَكُمُ بَيْنَهُمْ﴾. واختاره الحافظ ابن كثير وقال: (وهذا القول هو الصحيح - يشير إلى قول عكرمة ومجاهد - وإن كان يوم بدر من جملة ما أوعدوا به).

وقوله: ﴿الْمَلَكُ يَوْمَئِذٍ يَخْتَكُمُ بَيْنَهُمْ﴾. أي السلطان والحكم لله يوم يحشر الناس ، ويوضع الميزان ، ويكون القصاص .

وفي التنزيل نحو ذلك :

1 - قال تعالى: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: 4].

2 - وقال تعالى: ﴿الْمَلَكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان:

ومن كنوز السنة العطرة في ذلك أحاديث :

الحديث الأول: أخرج الحاكم بسند جيد عن سلمان ، عن النبي ﷺ ، قال: [يوضع الميزان يوم القيامة ، فلو وزن فيه السماوات والأرض لو سعت ، فتقول الملائكة: يا رب: لِمَنْ يَرُنْ هذا ؟ فيقول الله تعالى: لمن شئت من خلقي. فتقول الملائكة: سبحانه ما عبدناك حقَّ عبادتك. ويوضع الصراط مثل حد موسى فتقول الملائكة: من تجيز على هذا ؟ فيقول: من شئت من خلقي. فيقولون: سبحانه ما عبدناك حق عبادتك]⁽¹⁾.

الحديث الثاني: خرّج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة مرفوعاً: [لتؤدَّن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة ، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء]⁽²⁾.

الحديث الثالث: أخرج أحمد في المسند بسند صحيح عن أبي هريرة مرفوعاً: [يقتص الخلق بعضهم من بعض حتى الجماء من القرناء ، وحتى الذرة من الذرة]⁽³⁾.

ورواه من طريق أبي حنيفة عنه مرفوعاً بلفظ: [ألا والذي نفسي بيده ، ليختصمن كل شيء يوم القيامة حتى الشاتان فيما انتطحتا]⁽⁴⁾.

وفيه من حديث أبي ذر قال: [رأى رسول الله ﷺ شاتين تنتطحان ، فقال: يا أبا ذر ! أتدري فيمَ تنتطحان ؟ قلت: لا ، قال: ولكن ربك يدري ، وسيقضي بينهما يوم القيامة]⁽⁵⁾.

الحديث الرابع: أخرج الشيخان عن عائشة: [أن النبي ﷺ قال: ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك. قلت: أوليس يقول الله: ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ فقال: إنما ذلك العرض ، ولكن من نوقش في الحساب يهلك]⁽⁶⁾.

(1) حديث صحيح . رواه الحاكم (4/ 586) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (941).

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم وبعض أهل السنن . انظر مختصر صحيح مسلم (1837).

(3) حديث صحيح . أخرجه أحمد (2/ 363) ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (1967).

(4) إسناده حسن . أخرجه أحمد في المسند (2/ 290) ، وانظر الصحيحة ج (3) ص (609).

(5) أخرجه أحمد (5/ 162) ، وانظر تفصيل البحث في كتابي: أصل الدين والإيمان (2/ 742).

(6) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4939) ، وأخرجه مسلم (2876) ، وغيرهما.

وقوله: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾.

نَعَتْ لِمُسْتَحَقِّي جنات الخلد والنعيم المقيم ، إنهم المؤمنون على منهاج النبوة ، أهل العمل الصالح والمسابقة في الخيرات .

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

نَعَتْ لِمُسْتَحَقِّي صلي الجحيم والعذاب المهين ، إنهم الذين كفروا بالوحي وكذبوا النبوة . فإن جَزَاء الاستكبار عن الإيمان بالله وحده ومتابعة الرسل هو نار جهنم .

وفي التنزيل :

1 - قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَلَّمًا تَنْضَجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلَتْهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: 56].

2 - وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: 60].

وفي جامع الترمذي بسند حسن عن عبد الله بن عمرو ، عن النبي ﷺ قال: [يُحْشَر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال ، يغشاهم الذل من كل مكان ، يُسَاقُونَ إلى سجن في جهنم يسمى بولس ، تعلوهم نار الأنبار ، يُسْقَوْنَ من عُصَاة أهل النار ، طينة الخبال]⁽¹⁾.

58 - 60. قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا

لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٥٨﴾ لِيَدْخُلَنَّهُمْ مَدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾﴾.

في هذه الآيات: ثناء الله تعالى على المهاجرين والمجاهدين ووعدهم الرزق الحسن وخير المنازل إذا قضاوا في سبيل الله والله خير الرازقين . ووعدٌ لِمَنْ بُغِيَ عليه من المؤمنين فأخرجوا من ديارهم بانتصار الله لهم من المشركين الظالمين .

(1) حديث حسن. أخرجه الترمذي وأحمد. انظر صحيح سنن الترمذي (2025) ، وتخريج المشكاة (5112) ، وصحيح الجامع الصغير - حديث رقم - (7896).

فقوله: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾.

فيه أجر مفارقة العشائر والأوطان ، والأهلين والخلان ، لإعلاء كلمة الحق ودين الرحمن ، ولو كان ثمن ذلك الأرواح والأبدان.

قال النسفي: (﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ خرجوا من أوطانهم مجاهدين ﴿ثُمَّ قُتِلُوا﴾ في الجهاد ﴿أَوْ مَاتُوا﴾ حتف أنفسهم ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ قيل الرزق الحسن الذي لا ينقطع أبداً).

وقد حفلت السنة العطرة بأفاق هذا الرزق الحسن في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: [تَكْفَلُ اللَّهُ لِمَنْ جَاهَدَ فِي سَبِيلِهِ ، لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ وَتَصَدِيقُ كَلِمَاتِهِ ، بَأَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ أَوْ يَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكِنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ مَعَ مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ] (1).

الحديث الثاني: أخرج البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [انتدب الله لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا إِيمَانُ بِي وَتَصَدِيقُ بُرْسُلِي أَنْ أَرْجِعَهُ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ أَوْ أَدْخِلَهُ الْجَنَّةَ ، وَلَوْ لَا أَنْ أَشَقَّ عَلَى أُمَّتِي مَا قَعَدْتُ خَلْفَ سَرِيَةٍ ، وَلَوْ دِدْتُ أَنِّي أَقْتُلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، ثُمَّ أُحْيَا ، ثُمَّ أُقْتَلُ ثُمَّ أُحْيَا ثُمَّ أُقْتَلُ] (2).

الحديث الثالث: أخرج أبو داود بسند صحيح عن أبي أمامة الباهلي ، عن رسول الله ﷺ قال: [ثلاثة كلهم ضامنٌ على الله عز وجل ، رجلٌ خرج غازياً في سبيل الله ، فهو ضامن على الله حتى يتوفاه فيدخله الجنة ، أو يرده بما نال من أجر وغنيمة ، ورجل راح إلى المسجد فهو ضامن على الله حتى يتوفاه فيدخله الجنة أو يرده بما نال من أجر وغنيمة ، ورجل دخل بيته بسلام فهو ضامن على الله عز وجل] (3).

وقوله: ﴿وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ خَيْرُ الرِّزْقِ﴾.

قال ابن جرير: (يقول: وإن الله لهو خير من بسط فضله على أهل طاعته وأكرمهم).

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (7457) ، كتاب التوحيد ، ورواه مسلم وغيره.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (36) ، كتاب الإيمان ، باب: الجهاد من الإيمان. وانظر الحديث (2787) ، (2797) ، (7227) منه.

(3) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (2494) ، كتاب الجهاد ، وانظر صحيح سنن أبي داود (2178).

وقال النسفي: ﴿وَلَيْكَ اللَّهُ لَّهُوَ خَيْرُ الرَّزَاقِينَ﴾ لأنه المخترع للخلق بلا مثال ، المتكفل للرزق بلا ملال).

يروى ابن جرير في التفسير ، وكذلك ابن أبي حاتم - واللفظ له - قال: (حَدَّثَنَا أَبُو رَزْعةٌ ، حَدَّثَنَا زَيْدُ بْنُ بِشْرٍ ، أَخْبَرَنِي هَمَامٌ ، أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا قَبِيلٍ وَرَبِيعَةَ بْنَ سَيْفٍ الْمَعَاذِرِيَّ يَقُولَانِ: كُنَّا بِرُودِسَ ، وَمَعَنَا فَضَالَةُ بْنُ عُبَيْدٍ الْأَنْصَارِيُّ صَاحِبُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَمُرَّ بِجَنَازَتَيْنِ ، إِحْدَاهُمَا قَتِيلٌ وَالْأُخْرَى مُتَوَفَّى ، فَمَالَ النَّاسُ عَلَى الْقَتِيلِ ، فَقَالَ فَضَالَةُ: مَا لِي أَرَى النَّاسَ مَالُوا مَعَ هَذَا وَتَرَكُوا هَذَا؟ فَقَالُوا: هَذَا قَتِيلٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى. فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا أَبَالِي مِنْ أَيِّ حُفْرَتَيْهِمَا بُعِثْتُ ، اسْمَعُوا كِتَابَ اللَّهِ: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَلَئِنَّكَ اللَّهُ لَهُوَ خَيْرُ الرَّزَاقِينَ﴾).

وقوله: ﴿لَيَدْخِلْنَهُمْ مُدْخَلَ رِضْوَنَهُ﴾ - أي الجنان. وفيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وقوله: ﴿وَلِئِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾. قال ابن عباس: (عليم بنياتهم ، حلیم عن عقابهم).

وقوله: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرْنَهُ اللَّهُ﴾.

وعُدَّ من الله تعالى المؤمنين بالنصر على المشركين الذين بغوا عليهم فأخرجوهم من ديارهم.

قال القرطبي: ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ﴾ أي بالكلام والإزعاج من وطنه، وذلك أن المشركين كذبوا نبيهم وأدّوا مَنْ آمَنَ به وأخرجوه وأخرجوهم من مكة ، وظاهروا على إخراجهم ﴿لَيَنْصُرْنَهُ اللَّهُ﴾ أي لينصرن الله محمداً ﷺ وأصحابه، فإن الكفار بغوا عليهم).

وقوله: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾.

أي: إنه تعالى ذو عفو وصفح عمن انتصر من ظالمه ، غفور لما صدر من انتصاره مِن ظَلَمَته مثل ما فُعل به من الظلم.

61 - 62. قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَأْتِكَ اللَّهُ يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ

النَّهَارَ فِي الْإِيلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَتَى مَا
يَكْذُبُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَتَى اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿١٢﴾ .

في هذه الآيات: رَبُّطُ نصر الله الغائب الموعود ، بقدرته في هذا الكون المشهود ،
والله هو الحق وماذا بعد الحق إلا الضلال ، سبحانه هو السميع البصير العلي الكبير .
فقوله: ﴿ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ يُولِجُ الْإِيلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي الْإِيلِ﴾ .

أي: ذلك النصر للمظلوم ممن بغى عليه هو بعض ما يجريه الله تعالى في هذا الكون
من التدبير ، فهو القادر على كل شيء ، ومن آيات قدرته إيلاج الليل في النهار ،
والنهار في الليل: أي إدخاله من هذا في هذا ، ومن هذا في هذا ، فتارة يطول الليل
ويقصر النهار كما هو في الشتاء ، وتارة يطول النهار ويقصر الليل كما هو في الصيف ،
ذلك بأنه خالق الليل والنهار ومصرفهما .
وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ .

قال النسفي: (فلا يخفى عليه ما يجري فيهما على أيدي عباده من الخير والشر
والبغي والإنصاف ، وأنه سميع لما يقولون ولا يشغله سمع عن سمع ، وإن اختلفت في
النهار الأصوات بفنون اللغات ، بصير بما يفعلون ولا يستتر عنه شيء بشيء في
الليالي ، وإن توالى الظلمات) .

وقوله: ﴿ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ﴾ . أي: الإله الحق الذي لا تصلح العبادة إلا
له ، ولا ينبغي التعظيم إلا إليه ، فهو الخالق الواحد الأحد المهيمن القهار .
وقوله: ﴿وَأَتَى مَا يَكْذُبُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ .

أي: إن كل ما عُبدَ مِنْ غير الله باطل ، من الأصنام والأوثان والطواغيت
والشياطين .

وقوله: ﴿وَأَتَى اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ .

قال ابن جرير: ﴿(الْعَلِيُّ) ذو العلو على كل شيء ، هو فوق كل شيء ، وكل شيء
دونه.﴾ (الْكَبِيرُ) يعني العظيم ، الذي كل شيء دونه ، ولا شيء أعظم منه) .

وفي التنزيل من أدلة العلو:

1 - قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا

يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٤﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿١٥﴾ [النحل : 49 - 50].

2 - وقال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر : 10].

3 - وقال تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْمَلَكِ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج : 4].

ومن صحيح السنة العطرة في ذلك أحاديث :

الحديث الأول: أخرجه البخاري عن أنس: أن زينب بنت جحش كانت تفخر على أزواج النبي ﷺ تقول: [رَوَّجَكُنْ أَهَالِيكُنْ ، وزوجني الله من فوق سبع سماوات]. وفي لفظ: [إِنَّ اللَّهَ أَنْكَحَنِي فِي السَّمَاءِ].

وفي رواية: [زوجنيك الرحمن من فوق عرشه] (1).

الحديث الثاني: خَرَجَ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: [أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينٌ مَنْ فِي السَّمَاءِ؟ يَأْتِنِي خَبَرُ السَّمَاءِ صَبَاحاً وَمَسَاءً] (2).

الحديث الثالث: أخرجه الحاكم بسند صحيح عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: [اتَّقُوا دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ ، فَإِنَّهَا تَصْعَدُ إِلَى اللَّهِ كَأَنَّهَا شِرَارَةٌ] (3).

وأما ﴿الْكَبِيرُ﴾: فهو الموصوف بالجلال وكبر الشأن:

1 - قال تعالى: ﴿عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد : 9].

2 - وقال تعالى: ﴿فَلْيُحْكَمْ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ [غافر : 12].

فالله تعالى هو الكبير لأنه أكبر من كل شيء ، والمتعال: لأنه علا كل شيء وقهره وأحاط بكل شيء علماً ، فهو الذي خضعت له الرقاب ودان له العباد طوعاً وكرهاً.

63 - 66. قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أُنزِلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ

الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ لَمْ يَأْتِ السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَيْتَ

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في «التوحيد» ، والترمذي (2/ 210) ، وأحمد (3/ 226).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري ومسلم في أثناء حديث طويل. انظر مختصر صحيح مسلم - حديث رقم - (514) ص (140).

(3) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (1/ 29) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (871).

اللَّهُ لَهُوَ الْغَفِيُّ الْحَكِيمُ ﴿١٩﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ، وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٢٠﴾ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴿٢١﴾ .

في هذه الآيات: إخبارُ الله تعالى عن عجائب آياته في هذا الكون ، من إنزاله الماء واخضرار الزرع ، وتسخير ما في الأرض والفلك تجري في البحر ، وحمله السماء أن تقع على الأرض وإحياء الموتى ، ولكن الإنسان كفور .

فقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾ .

دلالة جديدة على قدرة الله وعظيم سلطانه ، فهو الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً ، فينزل الماء على الأرض اليابسة المحلة فتصبح خضراء عُقِيب المطر قد أخرجت نباتها بإذن ربها .

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ ﴾ [الزمر: 21] .

وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ . أي: لطيف باستخراج النبات من الأرض ، خبير بحاجة العباد وفاقتهم .

قال ابن عباس: ﴿ خَبِيرٌ ﴾ بما ينطوي عليه العبد من القنوط عند تأخير المطر . ﴿ لَطِيفٌ ﴾ بأرزاق عباده) .

وقوله: ﴿ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ . قال القرطبي: (خلقاً وملكاً ، وكل محتاج إلى تدبيره وإتقانه) .

وقوله: ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَفِيُّ الْحَكِيمُ ﴾ . أي: الغني في كل شيء ، المحمود على كل حال .

وقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ ﴾ .

ذُكِّرَ لنعمة أخرى مما امتن الله به على عباده ، فقد سَخَّرَ لعباده ما يحتاجون إليه من الدواب والشجر والأنهار وغير ذلك .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: [خلق الله

التربة يوم السبت ، وخلق فيها الجبال يوم الأحد ، وخلق الشجر يوم الاثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء ، وخلق النور يوم الأربعاء ، وبثّ فيها الدواب يوم الخميس ، وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة ، في آخر الخلق ، في آخر ساعة من ساعات الجمعة ، فيما بين العصر إلى الليل⁽¹⁾.

وقوله: ﴿وَالْفَلَكَ تَجَرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾.

أي: وكذلك سَخَّرَ لكم الفلك تجري في البحر بأمره ، ولكم من جزيها منافع كثيرة ، في النقل والتجارة والأسفار.

وقوله: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ - هو كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَا إِذِ انَّمَسَ كُفُهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: 41].

قال ابن كثير: (أي: لو شاء لأذن للسماء فسقطت على الأرض ، فهلك مَنْ فيها ، ولكن من لُطْفِهِ ورحمته وقدرته ، يُمْسِكُ السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه).
وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

أي: إنه تعالى رحيم بعباده رغم ذنوبهم وظلمهم ، فكل ما سبق بعض أفضاله وآلائه فيهم: من ألوان التسخير الكثيرة ، وإمساك السماوات لثلاث تقع عليهم ، وغير ذلك من النعم وألوان الرزق التي تدل على رأفته سبحانه بهم.
وفي التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: 6].

2 - وقال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [النحل: 16].

وفي صحيح البخاري عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [لَيْسَ أَحَدٌ أَصْبَرَ عَلَى أذى سَمِعَهُ مِنَ اللَّهِ ، إِنْهُمْ لِيدْعُونَ لَهُ وَلِذَا ، وَإِنَّهُ لِيَعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ]⁽²⁾.

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح - حديث رقم - (2789) ، كتاب صفات المنافقين . باب ابتداء الخلق ، وخلق آدم عليه السلام.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (6099) ، كتاب الأدب ، باب الصبر في الأذى ، من حديث أبي موسى. وكذلك (7378).

وفي صحيح مسلم من حديث أبي ذر مرفوعاً إلى النبي ﷺ - فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى - قال: [يا عبادي ! إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم] الحديث (1).

وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴾.

قال النسفي: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ﴾ في أرحام أمهاتكم ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ عند انقضاء آجالكم ﴿ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ لإيصال جزائكم ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴾ لجحود لما أفاض عليه من ضروب النعم ، ودفع عنه من صنوف النقم ، أو لا يعرف نعمة الإنشاء المبدئ للوجود ، ولا الإفناء المقرب إلى الموعود ، ولا الإحياء الموصل إلى المقصود؟!.

67 - 69. قوله تعالى: ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْزِعُ عَنْكَ

فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٧﴾ وَإِنْ جَدَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَتَحَكَّمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ ﴿٦٩﴾.

في هذه الآيات: تقريرُ الله الشرائع في كل أمة وجعل شريعة نبينا محمد ﷺ ناسخة لجميع الشرائع قبلها. وتهديد ووعد للذين جعلوا منهاجهم جدال المرسلين ، ويوم الفصل يعلمون ما كانوا فيه يمترون.

فقوله: ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾. قال ابن عباس: (يقول: عيداً).

وقال مجاهد: (إراقة الدم بمكة). وقال قتادة: ﴿ مَنْسَكًا ﴾: ذبحاً وحجاً).

وأصل المنسك الموضع الذي يعتاده الإنسان ويتردد إليه لخير أو شر ، ولكنه غالباً ما يربط بالتعبد وأعمال العبادة. ومنه مناسك الحج. قال الرازي: (و«المنسك» بفتح السين وكسرها الموضع الذي تُذبح فيه النسائك ، وقرئ بهما قوله تعالى: ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا ﴾).

قلت: والراجح من سياق الآية أن المقصود أعم من الذبح ، فقوله: ﴿ مَنْسَكًا هُمْ

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (8/ 17) ، وأحمد (5/ 160) في أثناء حديث طويل.

نَاسِكُوهُ ﴿٦٧﴾ أي شرعاً هم عاملون به مأمورون باتباع تفاصيله . وهذا متكرر في كل أمة مضت من الأمم ، حتى ختم الله الرسالات ونسخ الشرائع بشريعة محمد ﷺ التي لا يقبل اليوم غيرها .

وقوله : ﴿ فَلَا يَنْزِعُ عَنْكَ فِي الْآخِرَةِ ﴾ . قال الزجاج : (أي فلا يجادلنك) . قال القرطبي : (أي لا ينازعك أحد منهم فيما يشرع لأمتك ، فقد كانت الشرائع في كل عصر) .
وقوله : ﴿ وَأَدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

أي : لا تلتفت - يا محمد - إلى جدال المشركين ، وامض في دعوتك إلى التوحيد والدين الحق ، فإنك أنت على الدين القويم الذي لا اعوجاج فيه .
وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ . أي : إن جادلوك بالباطل فأعرض عن مماراتهم .

قال مجاهد : ﴿ وَإِنْ جَادَلُوكَ ﴾ قال : قول أهل الشرك : أما ما ذبح الله بيمينه ﴿ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ لنا أعمالنا ولكم أعمالكم) .
والآية فيها تهديد ووعد ، فإن جدال الأنبياء والمرسلين ليس كجدال أحد من الناس .

وقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ .

قال النسفي : (هذا خطاب من الله للمؤمنين والكافرين ، أي يفصل بينكم بالثواب والعقاب ، ومسألة لرسول الله ﷺ مما كان يلقي منهم) .

وقال القرطبي : (في هذه الآية أدب حسن علمه الله عباده في الرد على من جادل متعنتاً ومراء ألا يجاب ولا يُناظر ويدفع بهذا القول الذي علمه الله لنبيه ﷺ) .

وفي التنزيل نحو ذلك :

1 - قال تعالى : ﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس : 41] .

2 - وقال تعالى : ﴿ فَلِللَّهِ فَادَعُ وَأَسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالٌ وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ [الشورى : 15] .

3 - وقال تعالى : ﴿ وَلِنَا أَوْ لِيَاكُمْ لَعَلَّ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ ﴿٢١﴾ قُلْ لَا تَسْتَلُوبُوا عَمَّا

أَجْرَمْنَا وَلَا تُنْسَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٦٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٦٦﴾ [سبأ : 24 - 26].

4 - وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَفَرَيْتُمْ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الأحقاف : 8].

وفي مستدرك الحاكم بسند صحيح عن ابن سابط عن عمرو بن ميمون الأودي قال : قام فينا معاذ بن جبل فقال : يا بني أود ! إني رسولُ رسولِ الله ﷺ : [تعلمون المعاد إلى الله ، ثم إلى الجنة أو إلى النار ، وإقامة لا ظعن فيه ، وخلود لا موت ، في أجساد لا تموت] (1).

70 - 72. قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ ذُكِّرُوا النَّارَ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبَشَرٌ الْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾.

في هذه الآيات : إخبارُ الله تعالى عن كمال علمه وقدرته وكتابته كل شيء وما هو كائن إلى الأبد ، والمشركون على مدار الزمان يعبدون آلهة لا تضر ولا تنفع وينسون الواحد الأحد. وإذا تُتْلَىٰ على مشركي قريش - وأمثالهم - آيات القرآن الواضحة الدلالة والحجة علت وجوههم الكراهة لما يسمعون ، وجوارحهم الهَمَّ بالبطش بالذين يؤمنون ، فقل لهم - يا محمد - : أفأنبئكم أيها المشركون بأكره إليكم من ذلك : النار وعدها الله الذين كفروا وبشَرُ المصير .

فقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

إخبار عن كمال علمه سبحانه وإحاطته بخلقه وتمام تقديره ، وكتابته تفاصيل كل

ذلك في اللوح المحفوظ ، فلا ينفذ قضاء في هذا الكون إلا قد عَلِمَهُ وَكَتَبَهُ ، وأن كل شيء عليه تعالى يسير .

وفي التنزيل نحو ذلك :

1 - قال تعالى : ﴿ يَبْقَىٰ إِلَٰهَهَا إِن تَكُ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان : 16] .

2 - وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَىٰ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المجادلة : 7] .

وفي كنوز السنة العطرة من آفاق ذلك أحاديث :


الحديث الأول: خرج الإمام مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : [إن الله كتب مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة . وكان عرشه على الماء]⁽¹⁾ .

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد في المسند بإسناد صحيح من حديث عبادة بن الصامت قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : [إن أول ما خلق الله القلم ، ثم قال له : اكتب ، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة]⁽²⁾ .

وفي رواية : [إن أول ما خلق الله القلم فقال له : اكتب . قال : يا رب وما أكتب ؟

قال : اكتب القدر وما هو كائن إلى الأبد] .

وفي لفظ : [اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة] .

الحديث الثالث: أخرج الإمام مسلم في صحيحه ، والإمام أحمد في مسنده ، عن أبي هريرة قال : [جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله ﷺ في القدر . فنزلت : ﴿ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾  إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر : 48 - 49]]⁽³⁾ .

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم (51/8) - في القدر باب : كتب المقادير قبل الخلق . وانظر مختصر صحيح مسلم (1841) بلفظ : (كتب الله مقادير الخلائق . . .) .

(2) حديث صحيح . أخرجه أحمد في المسند (317/5) ، والترمذي في التفسير (232/2) ، وانظر تخريج : «مشكاة المصابيح» (94) ، وكتابي : أصل الدين والإيمان (806/2) لتفصيل البحث .

(3) حديث صحيح . أخرجه أحمد ومسلم وبنحوه البخاري . انظر مختصر صحيح مسلم (1838) .

وقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾.

إخبار عن حال المشركين على مدار الزمان ، فإنهم يدعون آلهة لا تضر ولا تنفع ، ولا علم لهم فيما اختلقوه واثقفوه ، وإنما هو تعظيم مسلك الآباء والأجداد بلا دليل ولا حجة ولا برهان ، ولا يليق التعظيم والكبرياء إلا بالله عز وجل .

وفي التنزيل :

1 - قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ يَغْيِرْهُدَىٰ مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص : 50].

2 - وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون : 117].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ : [قال الله تعالى: الكبرياء ردائي ، والعِزُّ إزارِي ، فمن نازعني في شيء منهما عَذَّبْتُهُ]⁽¹⁾.

ورواه أحمد عنه بلفظ: [قال الله تعالى: الكبرياء ردائي ، والعظمة إزارِي ، فمن نازعني واحداً منهما قذفتُهُ في النار].

وقوله: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾. أي: من ناصر ينصرهم ويدفع عنهم ما كتب الله عليهم من الشقاء والنكال والعقاب.

وقوله: ﴿وَإِذَا نُنَادِيهِمْ ءَايَتُنَا بِآيَاتِنَا تَعْرِفْ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرُ﴾.

أي: وإذا تتلى على مشركي قريش آيات القرآن الواضحة الدلالة والحجة تتبين في وجوههم - يا محمد - العبوس والكراهة لما يسمعون من الحق ، شأن المشركين مع الوحي على مدار الزمان .

وقوله: ﴿يَكَادُوكَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَتِنَا﴾.

قال ابن عباس: ﴿يَكَادُوكَ يَسْطُونَ﴾ يقول: يبطشون. أو قال: (يقعون بمن ذكرهم).

وقال مجاهد: (يكادون يقعون بهم).

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (35/8 - 36) ، والبخاري في «الأدب المفرد» (552) نحوه ، ورواه أحمد باللفظ الآخر ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (540).

قال النسفي: ﴿يَكَاذِبُونَ يَسْتُوبُونَ﴾ يبطشون ، والسطو الوثب والبطش ﴿بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ هم النبي ﷺ وأصحابه .

وقوله: ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّتُكُمْ بِشَرِّينَ ذَلِكَمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَسَّ الْمَصِيرُ﴾ .

قال الضحاك: (يقول: أفأنبئكم أيها المشركون بأكره إليكم من هؤلاء الذين تتكبرون قراءتهم القرآن عليكم ، هي ﴿النَّارُ﴾ ، وعدها الله الذين كفروا) .

فقوله: ﴿النَّارُ﴾ خبر لمبتدأ محذوف تقديره هي . والمقصود: ستكون النار أغيظ عليكم - معشر المشركين - من غيظكم من التالين الذكر ، وأشد عليكم مما تجدونه من جزاء ذلك من الضجر والكرهية ، بل ستكون النار يوم القيامة مصدر تعاستكم وشقائكم ، فبئست النار المستقر والمنزل والمقام لكم .

73- 74. قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاَسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ .

في هذه الآيات: تسفيه آلهة المشركين بضرب مثل لعجزها ، فهي عاجزة عن خلق ذباب واحد ، وهم عاجزون عن الانتصار لها لو سلبها الذباب شيئاً ، وضعف الطالب والمطلوب . إنهم لم يقدروا الله حق قدره حين أشركوا به والله هو القوي العزيز .

فقوله: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاَسْتَمِعُوا لَهُ﴾ .

أي: ضرب مثل لسخافة وحقارة الأصنام التي يعبدها المشركون فأنصتوا له وتفهموا مغزاه . قال ابن زيد: (هذا مثل ضربه الله لآلهتهم) .

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ .

أي: إن الذين تدعون وتعبدون من دون الله من الأوثان والطواغيت والسادة والشياطين وغيرهم مما يدعى ويعبد من الآلهة الباطلة لن يقدروا على خلق الذباب المعروف في صغره وضعفه ولو اجتمعوا من أجل ذلك .

قال القرطبي: (الذباب اسم واحد للذكر والأنثى ، والجمع القليل أَدْبَة والكثير ذَبَان).

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ قال: [قال الله عز وجل: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي؟ فليخلقوا ذرةً ، أو ليخلقوا حبةً أو شعيرة⁽¹⁾].

وفي مسند الإمام أحمد بسند حسن في الشواهد عن أبي زُرعة عن أبي هريرة - رفع الحديث - قال: [ومن أظلم ممن خَلَقَ كخلقي! فليخلقوا مثلَ خلقي ذرةً ، أو ذُبابةً ، أو حَبَّةً]⁽²⁾.

وقوله: ﴿وَأَن يَسْأَلُهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾.

قال ابن كثير: (أي: هم عاجزون عن خلق ذبابٍ واحدٍ ، بل أبلغ من ذلك عاجزون عن مقاومته والانتصار منه ، لو سَلَبَهَا شيئاً من الذي عليها من الطيب ، ثم أرادت أن تستنقذه منه لما قدرت على ذلك. هذا والذباب من أضعف مخلوقات الله وأحقرها ، ولهذا قال: ﴿ضَعْفُكَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾).

وعن ابن عباس: ﴿ضَعْفُكَ الطَّالِبُ﴾ قال: آلهتهم ﴿وَالْمَطْلُوبُ﴾: الذباب.

أي عجز الطالب وهو الصنم أو الآلهة الباطلة أن تستنقذ من الذباب شيئاً سلبه ، كالطيب وما أشبهه ، فالذباب هو المطلوب ، والصنم أو الوثن هو الطالب .

وقوله: ﴿مَا فَكَّرُوا اللَّهَ حَقَّ فَكْرِهِمْ﴾. قال ابن زيد: (حين يعبدون مع الله ما لا ينتصف من الذباب ولا يمتنع منه).

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾. أي: هو القوي سبحانه الذي كل شيء دونه ضعيف فقير محتاج إلى عونه وقوته ، وهو العزيز الذي قد عزَّ كل شيء فَفَهَرُهُ وغلبه ، ولا يليق الكبر إلا به سبحانه .

أخرج الإمام أحمد بسند رجاله ثقات عن أبي هريرة مرفوعاً: [قال الله عز وجل:

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (7559) ، كتاب التوحيد ، وكذلك (5953) ، وأخرجه مسلم (2111) ، وابن حبان (5859) ، وأخرجه البيهقي (268/7).

(2) حديث حسن. أخرجه أحمد في المسند (391/2) ح (8839) ، وسنده حسن في الشواهد.

الكبرياء ردائي ، والعزة إزاري ، فمن نازعني واحداً منهما ألقيه في النار⁽¹⁾ .

ورواه أبو داود بلفظ: [قال الله عز وجل: الكبرياء ردائي ، والعظمة إزاري ، فمن نازعني واحداً منهما ، قذفته في النار]⁽²⁾ .

75 - 78. قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (٧٥) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ .

في هذه الآيات: اجتباء الله الرسل ، وعلمه بأعمالهم وما هم قادمون عليه وبعد فنائهم ، ومرد الأمور والعباد كله إلى الله . وأمر الله تعالى عباده المؤمنين بإقامة ركوعهم وإتمام سجودهم والتذلل الكامل لربهم وفعل الخيرات لعلهم يفلحون . وأمره لهم بالجهاد في سبيل الله بأموالهم وألستهم وأنفسهم وبذل وسعهم في ذلك ، فهو اختارهم لدينه واصطفاهم لحرب أعدائه والجهاد في سبيله ، وما أراد بهم الحرج والتضييق ، بل ملة أبيهم إبراهيم الذي سماهم المسلمين ، ليكونوا بذلك شهداء مع نبيهم على بلاغ الرسل ضد أممهم المكذبة بذلك يوم القيامة ، فليقابلوا شكر هذه النعمة العظيمة بالقيام بحقها من الصلاة والزكاة وإقامة الدين وتمكين الصلة بالله نعم المولى ونعم النصير .

فقوله: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ .

إخبار منه تعالى أنه يختار من الملائكة رسلاً - كجبريل وميكائيل - يرسلهم إلى

(1) حديث صحيح . أخرجه أحمد (248 / 2) ورجاله ثقات . وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (541) .

(2) حديث صحيح . أخرجه أبو داود في السنن - حديث رقم - (4090) ، كتاب اللباس . باب ما جاء في الكبر . وانظر صحيح سنن أبي داود (3446) .

أنبيائه ومن شاء من عباده ، ويختار من الناس من شاء أنبياء يرسلهم إلى الناس لإبلاغ رسالاته .

وقد حفلت السنة العطرة بذكر آفاق ذلك في أحاديث ، منها :

الحديث الأول : أخرج الإمام أحمد في المسند ، عن أبي زُرعة عن أبي هريرة قال :
[جلس جبريل إلى النبي ﷺ فنظر إلى السماء ، فإذا ملك ينزل ، فقال له جبريل : هذا
الملك ما نزل منذ خُلِقَ قبل الساعة ، فلما نزل قال : يا محمد أرسلني إليك ربك : أملكاً
أجعلك أم عبداً رسولاً ؟ قال له جبريل : تواضع لربك يا محمد ! فقال رسول الله ﷺ :
لا ، بل عبداً رسولاً⁽¹⁾ .

الحديث الثاني : أخرج أحمد وأبو يعلى والبزار بسند صحيح عن علي قال : [قال لي
النبي ﷺ ولأبي بكر يوم بدر : مع أحكما جبريل ومع الآخر ميكائيل ، وإسرافيل ملك
عظيم يشهد القتال ، أو يكون في الصف]⁽²⁾ .

وقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ . أي : سميع لأقوال عباده ، بصير بأعمالهم
وشؤونهم .

وقوله تعالى : ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ .

أي : يعلم أفعال ملائكته ورسله من قبل أن يخلقهم ومن قبل أن يرسلهم ، ويعلم
ما يكون مما لم يأت مما هم قادمون عليه وبعد فنائهم ، ومَرَدَ الأمور والعباد كله إلى الله
سبحانه .

وفي التنزيل :

﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ۖ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ
وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ۖ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾
[الجن : 26 - 28] .

(1) حديث صحيح . أخرجه أحمد (231/2) ، وسنده صحيح على شرط مسلم . انظر سلسلة الأحاديث
الصحيحة - حديث رقم - (1002) .

(2) إسناده صحيح . أخرجه أحمد في المسند (147/1) ، وأبو يعلى (340) . وانظر كتابي : أصل الدين
والإيمان (540/1) - لتفصيل البحث .

قال النسفي : (والذي هو بهذه الصفات لا يسأل عما يفعل ، وليس لأحد أن يعترض عليه في حكمه وتدابيره واختيار رسله) .

وقوله تعالى : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اَرْكَعُوا وَاَسْجُدُوا وَاَعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَاَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ .

أمر منه سبحانه لعباده المؤمنين بإقامة ركوعهم وإتمام سجودهم - لله تعالى - في صلاتهم ، والتذلل لربهم والخضوع له بالطاعة في أعمالهم كلها ، وفعل الخيرات التي يرحم من ورائها النجاح والفلاح .

وقوله : ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ . أي : بأموالكم وألستكم وأنفسكم ، ابذلوا ما بوسعكم .

قال ابن عباس : (لا تخافوا في الله لومة لائم) .

وبنحوه قوله تعالى : ﴿اَتَقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ . أي عظموا أمره وخافوه سبحانه حق الخوف .

وقوله : ﴿هُوَ اَجْتَبَاكُمْ﴾ . قال ابن زيد : (هو هداكم) .

قال ابن جرير : (يقول : هو اختاركم لدينه ، واصطفاكم لحرب أعدائه ، والجهاد في سبيله) .

وقال ابن كثير : ﴿هُوَ اَجْتَبَاكُمْ﴾ . أي : يا هذه الأمة ، الله اصطفاكم واختاركم على سائر الأمم ، وفضلكم وشرفكم وخصكم بأكرم رسول ، وأكمل شرع) .

وفي التنزيل :

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾
[آل عمران : 110] .

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : [ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وخياً أوحاه الله إلي ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة] (1) .

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4981) ، كتاب فضائل القرآن ، وانظر (7274) ، ورواه مسلم .

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾.

قال ابن عباس: (الحرج: الضيق ، فجعل الله الكفارات مخرجاً من ذلك).

وقال أبو العالية: (إن الله لم يضيق عليكم ، لم يجعل عليكم في الدين من حرج).

وقال الضحاك: (جعل الدين واسعاً ، ولم يجعله ضيقاً).

قلت: ويشمل هذا على ما رخص الله لعباده في حالات الحرج من مرض أو ضيق أو عجز أو بعض ما يكون من ذلك في الحضر والسفر.

وأمثلة ذلك كثيرة: في الاستنجاء والوضوء أو التيمم والصلاة وما يكون في السفر من قصر وجمع ، وكذلك جمع في الحضر حالة الضيق أو الحرج ، وفي الصيام والحج وبعض أنواع البيوع والمعاملات والتي تدل بمجموعها على مرونة هذا الدين واستيعابه لكل أحوال العباد.

ومن أحاديث السنة العطرة في ذلك:

الحديث الأول: روى النسائي عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: [إذا ذهب أحدكم إلى الغائط فليذهب معه بثلاثة أحجار فليستطب بها فإنها تجزئ عنه]⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرج الترمذي والنسائي بسند حسن عن صفوان قال: [كان رسول الله ﷺ يأمرنا إذا كنا سفرأ ألا ننزع خفافنا ثلاثة أيام ولياليهن إلا من جنابة ، لكن من غائط وبول ونوم]⁽²⁾.

الحديث الثالث: أخرج مسلم وأبو داود والنسائي عن ابن عباس قال: [جمع رسول الله ﷺ بين الظهر والعصر ، والمغرب والعشاء بالمدينة في غير خوف ولا مطر]⁽³⁾.

قيل لابن عباس: ما أراد إلى ذلك ؟ قال: (أراد أن لا يحرج أمته).

الحديث الرابع: أخرج النسائي والطبراني بسند حسن عن ابن عمر قال: قال

(1) حديث صحيح . أخرجه النسائي (42/1) ، وأبو داود (1/61/40) ، وانظر صحيح النسائي (43).

(2) حديث حسن . أخرجه الترمذي (1/65/96) ، والنسائي (1/84) ، وسنده حسن .

(3) حديث صحيح . أخرجه مسلم في صحيحه (1/489/705) ، والنسائي في السنن (1/290) ، وأخرجه كذلك أبو داود في السنن (4/77/1198).

رسول الله ﷺ: [إذا حضر أحدكم الأمر يخشى فوته فليصل هذه الصلاة. (يعني الجمع بين الصلاتين)]⁽¹⁾.

الحديث الخامس: أخرج أبو داود بسند صحيح عن أسامة بن شريك قال: [خرجت مع النبي ﷺ حاجاً ، فكان الناس يأتونه ، فَمَنْ قال: يا رسول الله سعت قبل أن أطوف أو قدمت شيئاً أو أخرت شيئاً فكان يقول: لا حرجَ لا حرجَ] الحديث⁽²⁾.

الحديث السادس: أخرج أبو داود بسند صحيح عن أبي بكر بن عبد الرحمن ، عن بعض أصحاب النبي ﷺ قال: [لقد رأيت رسول الله ﷺ بالعِزَج يصب على رأسه الماء وهو صائم من العطش أو من الحر]⁽³⁾.

الحديث السابع: أخرج الإمام مسلم عن عائشة قالت: [دَخَلْتُ هِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ امرأة أبي سفيان على رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني من الثَّقَفِ ما يكفيني ويكفي بَنِيَّ إلا ما أخذتُ من ماله بغير علمه ، فهل عليَّ في ذلك مِنْ جُنَاحٍ ؟ فقال رسول الله ﷺ: خذي من ماله بالمعروف ما يكفيك ويكفي بنيك]⁽⁴⁾.

إلى غير ذلك من المرونة العالية في منهاج الفقه الإسلامي المستنبط من سيرته العطرة - صلوات الله وسلامه عليه .

وقوله: ﴿ قِيلَ أَيُّكُمْ أَزْهَمُ ۖ ﴾ . قال الزجاج: (المعني اتبعوا ملة أبيكم). وقال الفراء: (انتصب على تقدير حذف الكاف ، كأنه قال كِمَلَة). وبنحوه أفاد ابن جرير حيث قال: (نصب ﴿ قِيلَ ﴾ بمعني: وما جعل عليكم في الدين من حرج ، بل وسَّعه ، كِمَلَة أبيكم ، فلما لم يجعل فيها الكاف اتصلت بالفعل الذي قبلها فنصب ، وقد يحتمل نصبها أن تكون على وجه الأمر بها ، لأن الكلام قبله أمر ، فكأنه قيل: اركعوا واسجدوا ، والزموا ملة أبيكم إبراهيم).

(1) حديث حسن. أخرجه النسائي (98/1) ، والطبراني في «الكبير» (3/194 - 1/2) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1370).

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (2014) ، كتاب المناسك ، وسنده صحيح.

(3) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن (2348). وانظر صحيح سنن أبي داود (2072). والعِزَج: قرية على أيام من المدينة.

(4) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه - حديث رقم - (1714) ، كتاب الأقضية. وانظر تفصيل ذلك في كتابي: السيرة النبوية (3/1301 - 1320).

وقال النسفي: (أي اتبعوا ملة أبيكم ، أو نصب على الاختصاص ، أي: أعني بالدين ملة أبيكم).

وقوله: ﴿هُوَ سَمَنَكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ - فيه تأويلان محتملان:

1 - قال ابن عباس: (يقول: الله سماكم المسلمين من قبل). وقال مجاهد: (الله سماكم).

2 - قال ابن زيد: ﴿هُوَ سَمَنَكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ ، يعني إبراهيم ، وذلك لقوله: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ [البقرة: 128].

واختار الأول ابن جرير رحمه الله ، وإن كان التأويل الثاني سالكاً بإعادة الضمير إلى إبراهيم.

ويمكن أن يقال: الله تعالى سمانا المسلمين - كما جاء في النص الآتي من حديث الحارث الأشعري - وكذلك صدر ذلك في كلام ودعاء إبراهيم ، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

وقوله: ﴿وَفِي هَذَا﴾ - يعني القرآن.

قال مجاهد: (الله سماكم المسلمين من قبل في الكتب المتقدمة ، وفي الذكر).

وفي مسند أحمد وسنن الترمذي والنسائي بسند صحيح من حديث الحارث الأشعري مرفوعاً: [ومن دعا بدعوة الجاهلية فهو من جُثاء جهنم ، وإن صامَ وصلىَ وزعمَ أنه مسلم ، فادعوا بدعوة الله التي سماكم بها المسلمين المؤمنين عبادَ الله]⁽¹⁾.

وفي رواية: [ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من جُثى جهنم. قالوا: يا رسول الله وإن صلى وصام ؟ فقال: وإن صلى وصام ، وزعم أنه مسلم ، فادعوا المسلمين بأسمائهم التي سَمَّاهم الله عز وجل: المسلمين المؤمنين ، عباد الله].

وقوله: ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾.

قال مجاهد: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ قال: في الكتب كلها والذكر ﴿وَفِي هَذَا﴾ يعني القرآن ، وقوله: ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ يقول تعالى ذكره اجتباكم الله وسماكم أيها المؤمنون بالله وآياته ، من أمة محمد ﷺ مسلمين ، ليكون محمد

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (4/ 202) ، والترمذي (2867) ، (2868) في الأمثال ، وأخرجه النسائي عند تفسير هذه الآية ، ورواه ابن حبان والحاكم. انظر فتح المجيد (494 - 495).

رسول الله شهيداً عليكم يوم القيامة ، بأنه قد بلغكم ما أرسل به إليكم ، وتكونوا أنتم شهداء حينئذٍ على الرسل أجمعين ، أنهم قد بلغوا أمهم ما أرسلوا به إليهم) .

قلت : وهذا المعنى قد ورد في القرآن وصحيح السنة .

ففي التنزيل :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾

[البقرة : 143] .

ومن كنوز السنة العطرة :

الحديث الأول : أخرج البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما - في خطبته ﷺ في حجة الوداع أيام التشريق - قال : [ألا إن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا ، ألا هل بلغت ؟ قالوا : نعم . قال : اللهم اشهد ثلاثاً⁽¹⁾]

وله شاهد في صحيح مسلم من حديث جابر بن عبد الله : [أن رسول الله ﷺ قال في خطبته يوم عرفة : ألا هل بلغت ؟ قالوا : نعم . وفي لفظ : (وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به : كتاب الله ، وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون ؟ قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت)] .

الحديث الثاني : أخرج البخاري في صحيحه ، وأحمد في مسنده عن أبي سعيد ، عن النبي ﷺ قال : [يجيء نوحٌ وأمته ، فيقول الله : هل بلغت ؟ فيقول : نعم ، أي رب ! فيقول لأمته : هل بلغكم ؟ فيقولون : لا ، ما جاء لنا من نبي ؟ فيقول لنوح : من يشهد لك ؟ فيقول : محمدٌ وأمته ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ والوسط : العدل ، فيدعون ، فيشهدون له بالبلاغ ، ثم أشهد عليكم⁽²⁾]

الحديث الثالث : أخرج الإمام أحمد في المسند والنسائي وابن ماجه في السنن ، بسند صحيح عن أبي سعيد رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : [يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجل ، والنبي ومعه الرجلان ، والنبي ومعه الثلاثة ، وأكثر من ذلك ، فيقال

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4402) ، كتاب المغازي ، باب حجة الوداع . وانظر للشاهد بعده

مختصر صحيح مسلم - حديث رقم - (707) ص (188) .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (286/6) ، (139/8) ، وأحمد (32/3) ، وغيرهما .

له: هل بلغت قومك؟ فيقول: نعم، فيُدعى قومه، فيقال لهم: هل بلغكم هذا؟ فيقولون: لا، فيقال له: من يشهد لك؟ فيقول: محمدٌ وأُمته، فيدعى محمدٌ وأُمته، فيقال لهم: هل بلغ هذا قومه؟ فيقولون: نعم، فيقال: وما علمكم بذلك؟ فيقولون: جاءنا نبينا، فأخبرنا أن الرسل قد بلغوا فصدّقناه، فذلك قوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾⁽¹⁾.

وقوله: ﴿فَأَقِمْوُا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾. أي: فأقيموا الإسلام في حياتكم، وأخصّ ذلك صلاتكم وزكاتكم. قال ابن كثير: (أي: قابِلوا هذه النعمة العظيمة بالقيام بِشُكْرِها، وأدوا حقَّ الله عليكم في أداء ما افترض، وطاعة ما أوجِبَ، وترك ما حَرَّمَ. ومن أهمّ ذلك إقامُ الصلاة وإيتاء الزكاة، وهو الإحسان إلى خلق الله بما أوجب للفقير على الغني، من إخراج جزءٍ نَزَرَ من ماله في السَّنة للضعفاء والمحاويج).

وقوله: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِاللهِ﴾. قال ابن جرير: (يقول: وثقوا بالله، وتوكلوا عليه في أموركم).

وقوله: ﴿هُوَ مَوْلَاكُمْ﴾. أي: حافظكم ومؤيدكم ومعينكم وناصركم على أعدائكم.

وقوله: ﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾. أي: فنعم الولي ونعم الناصر المعين.

وفي المعجم «الأوسط» للطبراني بسند حسن، من حديث أنس، أن رسول الله ﷺ كان يقول: [يا وليَّ الإسلام وأهله، مسكني بالإسلام حتى ألقاك]⁽²⁾.

تم تفسير سورة الحج

بعون الله وتوفيقه، وواسع منه وكرمه



(1) حديث صحيح. انظر مسند أحمد (32/3)، وصحيح البخاري (286/6)، وصحيح الجامع الصغير - حديث رقم - (7889).

(2) حديث حسن. رواه الطبراني في «الأوسط» ورجاله ثقات. انظر: «مجمع الزوائد» (10/186)، وكذلك سلسلة الأحاديث الصحيحة (1476).

دروس ونتائج وأحكام

- 1 - يوم زلزلة الساعة يوم عظيم ، يأمر الله فيه آدم أن يخرج بعث النار : من كل ألف تسع مئة وتسعة وتسعون - واحد إلى الجنة من المؤمنين ، والبقية إلى النار من يأجوج ومأجوج - .
- 2 - المؤمنون في الناس كالشعرة السوداء في جنب الثور الأبيض ، أو كالشعرة البيضاء في جنب الثور الأسود .
- 3 - مراتب الضلال : أ - الضياع والانحراف .
ب - الترك والإهمال والتناسي والخذلان .
ج - الهداية إلى النار يوم القيامة .
- 4 - الملك الموكل بالرحم يؤمر بكتابة أربع كلمات : العمل والرزق والأجل والمستقر .
- 5 - أعمار هذه الأمة بين الستين والسبعين ، وأقلهم من يتجاوز ذلك .
- 6 - تفكروا في آلاء الله ، ولا تفكروا في الله عز وجل .
- 7 - التعامل وحب الرياسة والظهور ، يفسد المجتمع ويقطع الظهور .
- 8 - أهل النار : كل عُتِلَ جَوَازٍ مستكبر ، والكبر بَطْرُ الحق وَعَمْطُ الناس .
- 9 - المنافق يعبد الله على حرف ، والمؤمن يعبد الله في كل حال .
- 10 - علم الله فيما لم يزل عدد أهل الجنة وعدد أهل النار ، فلا زيادة ولا نقصان .
- 11 - يُقال للمستكبرين الذين يصدون عن سبيل الله ويكيدون لمنع حصول الشوكة والقوة لأهله : موتوا بغیظكم ، إن الله ناصر دينه وأوليائه .
- 12 - كل ما خلق الله من شيء فهو يتفيؤ ظلاله عن اليمين والشمائل سجداً لله وهم داخرون . والله يسجد ما في السماوات والأرض ، وكل قد علم صلاته وتسبيحه .

- 13 - من يُهن الله بالشقاوة فماله من مكرم بالسعادة .
- 14 - نار الدنيا جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم ، كلهن مثلاً حَرَّها .
- 15 - المؤمنون في الجنة جَمَل الله بواطنهم بالشراب الطهور ، وسواعدهم بالأساور ، وأبدانهم بثياب الحرير .
- 16 - مراتب الهداية : أ - هداية الخلق العامة .
ب - هداية الدلالة والإرشاد .
ج - هداية التوفيق والإلهام .
هـ - هداية المؤمنين يوم القيامة إلى الجنة .
- 17 - دور مكة توهب وتورث وتباع وتملك بخلاف الأرض .
- 18 - الهم في الحرم بأمر أثيم ، يوجب له من الله العذاب الأليم .
- 19 - المسجد الحرام أول مسجد وضع في الأرض ثم المسجد الأقصى .
- 20 - الطواف بالبيت صلاة ، ولكن الله أحل فيه النطق ، فمن نطق فلا ينطق إلا بخير ، فأقلوا فيه الكلام .
- 21 - ما من أيام العمل الصالح أحب فيهن إلى الله من أيام العشر .
- 22 - التفث : المناسك كلها . ومن نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه ، ويكفره ما يكفر اليمين .
- 23 - الحجاج والعمار وفدُ الله ، دعاهم فأجابوه ، سألوه فأعطاهم .
- 24 - الحرمة ما وجب القيام به وحرمة التفريط فيه ، وأول التعظيم تعظيم الأمر والنهي ، وهو أن لا يُعارضاً بترخص جاف ، ولا يُعَرِّضاً لتشدّد غال .
- 25 - أكبر الكبائر : الإشراف بالله وعقوق الوالدين وشهادة الزور .
- 26 - منافع البدن : الركوب عند الحاجة ، والشرب من ألبانها عند الضرورة .
- 27 - السنة ذبحُ الرجل بيده ، وأن يستقبل القبلة بذبيحته ، وأن يحدّ شفرته ، ويريح ذبيحته .
- 28 - إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم .
- 29 - إن الله يدافع عن المؤمنين ، ويمكر بالكافرين ، ويفضح المنافقين .

- 30 - القتال شوكة للمؤمنين ، والنصر مع الصبر ، والفرج مع الكرب ، وإن مع العسر يسراً ، إن مع العسر يسراً .
- 31 - الصوامع للرهبان ، والبيع والصلوات لأهل الكتاب ، والمساجد للمسلمين .
- 32 - التمكين في الأرض لإقامة الدين ، ومحاصرة الشرك والفسق والمجرمين .
- 33 - إن الله تعالى ليملي للظالم ويستدرجه ، فإذا أخذه لم يفلته .
- 34 - ليس العمى عمى البصر ، إنما العمى عمى البصيرة .
- 35 - القلب مركز العقل والفقه ، والدماغ مركز المحاكمات والتفكير .
- 36 - يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم : خمس مئة عام .
- 37 - قصة الغرائيق من أمانى الشيطان ، والله يبطل الباطل ويحق نصرته الحق والرسول وأهل الإيمان .
- 38 - يقتص الخلق بعضهم من بعض يوم القيامة ، حتى الجماء من القرناء .
- 39 - أجر مفارقة العشائر والأوطان ، والأهلين والخلآن ، لإعلاء كلمة الرحمان ، هو دخول الجنان .
- 40 - من راح إلى المسجد فهو ضامن على الله ، ومن دخل بيته بسلام فهو ضامن على الله ، والمجاهد في سبيل الله ضامن على الله : الغنيمة أو الجنة .
- 41 - لكل أمة شريعة ومنسك ، وشريعة محمد ناسخة للشرائع قبلها .
- 42 - أول ما خلق الله القلم فقال له : اكتب القدر وما هو كائن إلى الأبد .
- 43 - المشركون يحاولون البطش بأهل الحق ، والله ناصر أوليائه ولو كره الكافرون .
- 44 - الحرج : الضيق ، والله تعالى لم يجعل علينا في الدين من حرج .
- 45 - مَنْ دعا بدعوة الجاهلية فهو من جُثاء جهنم ، وإن صامَ وصلى وزعم أنه مسلم ، فادعوا بدعوة الله التي سماكم بها المسلمين المؤمنين عباد الله .

23



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (118).

موضوع السورة

وصف المؤمنين والثناء عليهم والانتصار لهم في الدارين

- منهاج السورة -

- 1 - الثناء على المؤمنين في خشوعهم في صلاتهم وإعراضهم عن اللغو في كلامهم وعلاقاتهم ، وأدائهم لزكاة أموالهم ، وحفظهم لفروجهم وأماناتهم وعهودهم ، وضمان جنات الفردوس لمستقرهم .
- 2 - خلق الإنسان من نطفة فعلقه فمضغة ، ثم تشكيل العظام واللحم ، فالحياة فالموت فالبعث فالحساب فالمستقر .
- 3 - خلق السماوات وإنزال المطر وإخراج الزرع والثمر وخلق الأنعام وذكر منافعها .
- 4 - إرسال الله تعالى الرسل : خبر نوح وقومه واستهزائهم ، وأمر الله تعالى له بصناعة السفينة وقصة النجاة للمؤمنين ، والغرق للكافرين .
- 5 - تتابع الرسل في الأمم ، واستمرار التكذيب والعناد حتى نزول النِّم .
- 6 - قصة موسى وهارون مع فرعون وقومه ، وانتهاء التكذيب بإهلاكه وجنده .

- 7 - أمرُ الله تعالى الرسل وعباده المؤمنين بأكل الحلال ، وامتنال الصالح من الأعمال .
- 8 - سنة الله في استدراج القوم الظالمين ، ثم استئصالهم من حيث لا يشعرون .
- 9 - ثناء الله على الخاشعين المحسنين ، المسارعين في الخيرات لعلهم يفلحون .
- 10 - التكاليف الشرعية متحملة ، وكتاب الأعمال دقيق ينطق بالصغائر والكبائر ، والقوم في غفلة عن مصيرهم ، وإنما يستجيرون عند نزول الهلاك بهم .
- 11 - ذم أهل الهوى في منهاج عبادتهم ، فهم في ضلالة وطغيان يعمهون .
- 12 - إنزال المصائب على المشركين لعلهم يذكرون ، وتنبههم إلى نعم الله عليهم لعلهم يشكروا ، وصرهم لرؤية عجائب قدرته تعالى لعلهم يعقلون .
- 13 - اقتضاء الإيمان بالربوبية الإيمان بتوحيد الألوهية ، والمشركون هم الكاذبون .
- 14 - نفي الولد والشريك عن الله ، وتعدد الآلهة يقتضي خراب العالم .
- 15 - الأمر بالدفع بالتي هي أحسن والاستعاذة بالله من همزات الشياطين أو أن يحضروا .
- 16 - طلب المحتضر من الكفار الرجعة إلى الدنيا ليعمل صالحاً ، وعذاب القبر حق .
- 17 - انعدام الانتفاع بالأنساب والقربى عند النفخ في الصور ، والأعمال على الميزان : فمن ثقلت موازينه كان من المفلحين ، ومن خفت موازينه كان من الخاسرين .
- 18 - اعتراف أهل الشقاء يوم القيامة بشقوتهم ، وتمنيهم الخروج من النار ، فيخرسهم الجبار ، وينتصر لأولياؤه ، ويخزي أعداءه .
- 19 - اعتراف المشركين يوم الحشر بمكثهم في الحياة الدنيا يوماً أو بعض يوم .
- 20 - أهل الشرك يومئذ في الأشقياء ، وأهل الإيمان هم أهل الدعاء والابتغال إلى الله والرجاء ، وسيكونون من المرحومين وفي منازل السعداء .

﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ ، فقالت الملائكة : طوبى لك ، منزل الملوك⁽¹⁾ .

وخرّجه البيهقي موقوفاً بلفظ : [إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَحَاطَ حَائِطُ الْجَنَّةِ لَبَنَةً مِنْ ذَهَبٍ وَلَبَنَةً مِنْ فُضَّةٍ ، ثُمَّ شَقَّقَ فِيهَا الْأَنْهَارَ ، وَغَرَسَ فِيهَا الْأَشْجَارَ ، فَلَمَّا نَظَرَتْ الْمَلَائِكَةُ إِلَى حَسَنِهَا قَالَتْ : طُوبَى لَكَ مَنَازِلَ الْمُلُوكِ] .

وقوله تعالى : ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ . أي : الذين هم في صلاتهم متذللون خائفون وجلون . قال ابن عباس : (يقول : خائفون ساكنون) . وقال مجاهد : (السكون فيها) . وقال الزهري : (سكون المرء في صلاته) . وقال الحسن : (كان خشوعهم في قلوبهم ، فغضوا بذلك البصر ، وخفضوا به الجناح) . وقال أيضاً : ﴿خَاشِعُونَ﴾ : خائفون . وقال قتادة : (الخشوع في القلب) . قال ابن كثير : (والخشوع في الصلاة إنما يحصل لمن فرّغ قلبه لها ، واشتغل بها عما عداها ، وآثرها على غيرها ، وحينئذ تكون راحة له وقوة عين) .

أخرج أحمد وأبو داود بسند جيد عن سالم بن أبي الجعد ، أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ الْحَنَفِيَّةِ قَالَ : دَخَلْتُ مَعَ أَبِي عَلِيٍّ صَهْرٍ لَنَا مِنَ الْأَنْصَارِ ، فَخَضَرَتِ الصَّلَاةُ ، فَقَالَ : يَا جَارِيَّةُ ، ائْتِنِي بِوَضُوءٍ لِعَلِّي أَصَلِّي فَأَسْتَرِيحَ . فَرَأَانَا أَنْكُرْنَا عَلَيْهِ ذَلِكَ ، فَقَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : [قُمْ يَا بِلَالُ ، فَأَرِحْنَا بِالصَّلَاةِ]⁽²⁾ .

وفي رواية عن سالم بن أبي الجعد أيضاً قال : قال رجل : [ليتني صليت فاسترحت ، فكأنهم عابوا عليه ذلك ، فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : يا بلالُ أقم الصلاة ، أريحنا بها] .

وفي المسند وسنن النسائي بسند صحيح عن أنس ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : [حُبِّبْ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ : النِّسَاءُ وَالطِّيبُ ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ]⁽³⁾ .

وقوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ . يشمل الشرك ، واللغو من القول ،

(1) صحيح موقوف ومرفوع . أخرجه البزار (3508) ، وأبو نعيم (204/6) ، وفي «صفة الجنة» (1/137/140) ، والبيهقي في «البعث» (236) من حديث أبي سعيد . وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة - حديث (2662) - ولا شك أن الموقوف هنا له حكم المرفوع .


(2) حديث صحيح . أخرجه أبو داود (4985) - (4986) . وأحمد (371/5) ، والطحاوي في «المشكّل» (5549) ، وانظر صحيح سنن أبي داود (4171) - (4172) .

(3) حديث صحيح . أخرجه النسائي (61/7) ، وأحمد (128/3) ، (285/3) ، وأخرجه أبو يعلى (3482) من حديث أنس . وانظر صحيح الجامع (3119) .

والباطل ، والمعاصي . قال ابن عباس : (يقول : الباطل) . وقال الحسن : ﴿عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ قال : عن المعاصي . وقال قتادة : (أتاهم - والله - من أمر الله ما وقدهم عن ذلك) . يعني عن كل ما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال .

وقوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ .

يشمل زكاة النفس من الشرك والدنس ، وزكاة الأموال والصدقات الواجبة ، فقد فرضت الزكاة بمكة مجملة عامة ثم حُدِّدَتْ أَنْصَبَتْهَا فِي الْمَدِينَةِ ، فَالْآيَةُ وَإِنْ كَانَتْ مَكِيَّةً فَهِيَ تَدُلُّ عَلَى مَا وَجِبَ عَلَيْهِمْ بِادِّئِ الْأَمْرِ مِنْ مَطْلَقِ الزَّكَاةِ .

وقوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾  إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ . قال ابن عباس : (يقول : رضي الله لهم إتيانهم أزواجهم وما ملكت أيمانهم) .

والمقصود : أَنَّ حَفْظَ الْفُرُوجِ عَنْ مَوَاقِعَةِ الزَّانَا وَاللُّوَاطِ وَمَا حَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى هُوَ مِنْ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَبُورِكَ لَهُمْ فِي مَوَاقِعَةِ الْحَلَالِ مِنَ الزَّوْجَاتِ وَمَا مَلَكَتِ الْإِيمَانُ .

أخرج أحمد بسند حسن عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده ، عن النبي ﷺ قال : [احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك ، قيل : إذا كان القوم بعضهم في بعض؟ قال : إن استطعت أن لا يرينها أحد فلا يرينها . قيل : إذا كان أحداً خالياً؟ قال : الله أحق أن يُستحيا منه من الناس] ⁽¹⁾ .

قال ابن عروة الحنبلي في «الكواكب» (1/29/575) : (ومباح لكل واحد من الزوجين النظر إلى جميع بدن صاحبه ولمسه حتى الفرج لهذا الحديث ، ولأن الفرج يحل له الاستمتاع به فجاز النظر إليه ولمسه كبقية البدن) .

قلت : وهذا الذي ذكره ابن عروة الحنبلي رحمه الله داخل في آفاق مفهوم قوله تعالى : ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ .

قال ابن عباس : (نهاهم الله نهياً شديداً ، فقال : ﴿فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ فسمى الزاني من العادين) . وقال ابن زيد : ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ : الذين

(1) رواه أصحاب السنن إلا النسائي ففي «العشرة» (76/1) ، ورواه أحمد (4 - 3/5) ، والبيهقي (199/1) ، واللفظ لأبي داود (171/2) وسنده حسن .

يتعدون الحلال إلى الحرام). وقال عطاء ، عن أبي عبد الرحمن : (من زنى فهو عاد).

قال ابن جرير : (وقوله : ﴿فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ يقول : فمن التمس لفرجه منكحاً سوى زوجته وملك يمينه ، ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ يقول : فهم العادون حدود الله ، المجاوزون ما أحل الله لهم ، إلى ما حرّم عليهم).

وقد استدلل الإمام الشافعي رحمه الله على تحريم الاستمناء باليد بهذه الآية الكريمة وقال : (فهذا الصنيع خارج عن هذين القسمين - يعني الأزواج وما ملكت الأيمان -). وقوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾.

أي : ومن صفات هؤلاء المؤمنين الوفاء بالعهود وحفظ الأمانات ، وأداؤها إلى أصحابها.

قال القرطبي : (والأمانة والعهد يجمع كل ما يحمله الإنسان من أمر دينه ودنياه قولاً وفعلاً ، وهذا يعم معاشرة الناس والمواعيد وغير ذلك ، وغاية ذلك حفظه والقيام به . والأمانة أعم من العهد ، وكل عهد فهو أمانة فيما تقدم فيه قول أو فعل أو معتقد). قلت : وقد جاءت نصوص الوحيين بالوفاء بالعهود وتحريم الخيانة والغدر.

ففي التنزيل :

1 - قال تعالى : ﴿يَتْلُوهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة : 1].

2 - وقال تعالى : ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء : 34].

وقال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء : 58].

وفي صحيح السنة المطهرة في ذلك أحاديث :

الحديث الأول : أخرج أبو داود بسند صحيح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : [المسلمون على شروطهم]⁽¹⁾.

ورواه الطبراني من حديث رافع بن خديج بلفظ : [المسلمون عند شروطهم فيما أحل].

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن - حديث رقم - (3594) من حديث أبي هريرة. وانظر للروايات بعده صحيح الجامع (6590) - (6592).

وله شاهد عند الحاكم من حديث أنس بلفظ: [المسلمون عند شروطهم ، ما وافق الحق من ذلك].

الحديث الثاني: أخرجه البخاري ومسلم عن أنس قال: قال النبي ﷺ: [لكل غادر لواء يوم القيامة ، يقال: هذه غدره فلان]⁽¹⁾.

وفي لفظ لمسلم من حديث أبي سعيد: [لكل غادر لواء عند استه يوم القيامة يُرْفَعُ له بقدر غدره ، ألا ولا غادر أعظم غدرًا من أمير عامة]⁽²⁾.

الحديث الثالث: أخرجه الترمذي بسند صحيح من حديث أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال: [المسلم أخو المسلم ، لا يَخُونُهُ ، ولا يَكْذِبُهُ ، ولا يَخْذُلُهُ ، كل المسلم على المسلم حرام ، عِرْضُهُ ، وماله ودمه]⁽³⁾.

الحديث الرابع: خرَّج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال: [آية المنافق ثلاث: إذا حَدَّثَ كَذَبَ ، وإذا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وإذا أُؤْتِمِنَ خَانَ]⁽⁴⁾.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾.

أي: يحافظون على أداؤها في أوقاتها ، تامة بأركانها وواجباتها وشروطها.

وفي الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه: [قلت: يا رسول الله ، أيُّ العمل أفضل؟ قال: الصلاة على وقتها. قلت: ثم أيُّ؟ قال: برُّ الوالدين. قلت: ثم أيُّ؟ قال: الجهاد في سبيل الله]⁽⁵⁾.

وفي جامع الترمذي بإسناد صحيح عن القاسم بن غنام ، عن عمته أم فروة ، وكانت ممن بايعت النبي ﷺ قالت: سئل النبي ﷺ: أي الأعمال أفضل؟ قال: [الصلاة لأول وقتها]⁽⁶⁾.

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (464/10) ، (299/12) ، وأخرجه مسلم (1735).

(2) حديث صحيح. أخرجه الإمام مسلم في الصحيح (1738) (16) - من حديث أبي سعيد.

(3) حديث صحيح. انظر صحيح الترمذي (1572) ، وصحيح الجامع الصغير (6582).

(4) حديث صحيح. أخرجه مسلم (59) - كتاب الإيمان ، باب خصال المنافق.

(5) حديث صحيح. أخرجه البخاري (527) ، (5970) ، ومسلم (85) ، وأحمد (451/1).

(6) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (170) - في الصلاة. باب ما جاء في الوقت الأول من الفضل.

وانظر صحيح سنن الترمذي (144) ، وصحيح أبي داود (452).

وفي الباب عن عائشة قالت: [ما صلى رسول الله ﷺ صلاة لوقتها الآخر مرتين حتى قبضه الله]⁽¹⁾.

قال الشافعي: (والوقت الأول من الصلاة أفضل. ومما يدل على فضل أول الوقت على آخره: اختيار النبي ﷺ وأبي بكر، وعمر، فلم يكونوا يختارون إلا ما هو أفضل، ولم يكونوا يدعون الفضل، وكانوا يصلون في أول الوقت).

وفي المسند وسنن ابن ماجة عن ثوبان مرفوعاً: [استقيموا ولن تُحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يُحافظ على الوضوء إلا مؤمن]⁽²⁾.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾  الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ.

هو غاية البشرى في نهاية المطاف، فإن تعظيم حرمان الله وشعائره يورث أجمل الجنان - جنة الفردوس تحت عرش الرحمان.

وفي التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: 63].

2 - وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: 72].

أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

[ما منكم من أحد إلا له منزلان، منزل في الجنة، ومنزل في النار. فإذا مات، فدخل النار، ورث أهل الجنة منزله. فذلك قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾]⁽³⁾.

وله شاهد في صحيح مسلم عن أبي بردة بن أبي موسى، عن أبيه، عن النبي ﷺ قال: [يجيء يوم القيامة ناس من المسلمين بذنوب أمثال الجبال، فيغفرها الله لهم، ويضعها على اليهود والنصارى]⁽⁴⁾.

وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة مرفوعاً: [فإذا سألت الله فاسأله

(1) حديث حسن. أخرجه الترمذي (174) - الباب السابق. وانظر صحيح الترمذي (146).

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد (5/276)، (5/282)، وابن ماجة (277)، والحاكم (1/130).

(3) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (4341)، آخر كتابه السنن. باب صفة الجنة، وانظر صحيح سنن ابن ماجة (3503)، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (2279).

(4) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (2767) ح (51).

الفردوس فإنه أوسط الجنة ، وأعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تَفَجَّرُ أنهارُ الجنة⁽¹⁾.

قال مجاهد: (الفردوس: بستان بالرومية). وقال ابن جرير: ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ﴾ البستان ذا الكَرَم ، وهو ﴿الْفَرْدَوْسُ﴾ عند العرب ، والله تعالى أعلم.

قلت: وجنان الله تعالى في الدار الآخرة ثمان ، أعلاها جنة الفردوس وأجملها.

فقد أخرج البخاري عن أنس: [أن حارثة بن سراقة قتل يوم بدر ، وكان في النظارة ، أصابه سهم طائش فقتله ، فجاءت أمه فقالت: يا رسول الله ، أخبرني عن حارثة؟ فإن كان في الجنة صبرت ، وإلا فليزَيْنَ الله ما أصنع. فقال: ويحك أهبلت؟! أو جنة واحدة هي؟ إنها جنان كثيرة ، وإنه في جنة الفردوس⁽²⁾.

وفي رواية: [إنها جنان ثمان ، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى].

12 - 16. قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ ^(١٦) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ^(١٧) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ^(١٨) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ^(١٩) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ ^(٢٠).

في هذه الآيات: تقريرُ الله تعالى خلق الإنسان الأول من قبضة جمعها من تراب الأرض ، ثم تتابع النسل من نطفة فعلقه فمضغة ، ثم كان تشكيل العظام وكسوته باللحم ، فتبارك الله أحسن الخالقين. ثم يكون الموت بعد اكتمال السعي في هذه الحياة الدنيا ، ثم القيام للحساب بين يدي رب العالمين.

فقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾.

قال قتادة: (استل آدم من الطين). وقال أيضاً: (استل آدم من طين ، وخلقت ذريته من ماء مهين).

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (2790) - كتاب الجهاد والسير ،

وأحمد في المسند (2/ 335) ، وابن حبان (4611) - في أثناء حديث طويل.

(2) حديث صحيح. انظر فتح الباري (7/ 304) ، شرح صحيح البخاري - حديث رقم - (3982).

والمقصود: أن خلق آدم كان من سلالة - وهي المستلة - من كل تربة من ترب الأرض المختلفة ، قبضها الله تعالى وأوجد منها آدم عليه السلام .

أخرج أبو داود والترمذي بسند صحيح عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : [إن الله خلق آدم من قُبْضَةٍ قَبْضُهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض : جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك ، وَالسَّهْلُ وَالْحَزَنُ وَالْخَبِيثُ وَالطَّيِبُ] (1) .

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ .

أي : ثم جعلنا النسل المتتابع بعد الخلق الأول نطفة تتوضع في الرحم في مكان مُعَدٍّ لذلك ، قد هُيِّئَ ليستقر فيه الجنين إلى بلوغ أمره . فالضمير في قوله ﴿ جَعَلْنَاهُ ﴾ عائد على جنس الإنسان .

وفي التنزيل نحو ذلك :

1 - قال تعالى : ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴾ [السجدة : 7 - 8] .

2 - وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [المرسلات : 20 - 23] .

والعرب تسمي ولد الرجل ونطفته : سليله وسلالته ، لأنهما مسلولان منه .

قال مجاهد : ﴿ مِنْ سُلَالَةٍ ﴾ من مَنِيٍّ (آدم) . والماء المهين : هو الماء الضعيف ، والمراد المني .

وقوله : ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النَّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ﴾ .

إخبار عن انتقال من حال إلى حال ، حتى يتشكل الإنسان في أحسن تقويم ، فالنطفة - وهي الماء الدافق الذي يخرج من صُلب الرجل ، وهو ظهره ، وترائب المرأة ، وهي عظام صدرها ما بين الترقوة إلى السرة - تصير علقة حمراء . قال عكرمة : (وهي دم) . أي : قطعة من دم ، ثم تصير مضغة ، أي : قطعة من لحم ، لا شكل فيها

(1) حديث صحيح . أخرجه أبو داود (4693) ، والترمذي (2955) ، وأحمد (400/4) ، (406/4) ، والحاكم (261/2 - 262) ، وابن حبان (6160) . وانظر صحيح أبي داود (3926) .

ولا تخطيط ، ثم تصير بإذن الله عظاماً ، ثم يلبس الله تعالى العظام لحماً .

وأول عظم يتشكل من الإنسان هو عجب الذنب ، قال ابن عباس : (وهو عظم الصلب) .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : [لَيْسَ مِنَ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَتَلَى ، إِلَّا عِظْماً وَاحِداً وَهُوَ عَجْبُ الذَّنْبِ ، وَمَنْ يَرْكَبِ الْخُلُقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ] (1) .

وفي لفظ لمسلم وأبي داود وابن ماجه : [كل ابن آدم يأكله التراب إلا عَجْبَ الذَّنْبِ ، مِنْهُ خُلِقَ ، وَمَنْ يَرْكَبُ] (2) .

وقوله : ﴿ ثُمَّ أُنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴾ . يشمل نفخ الروح فيه ، ثم إخراجة إلى الحياة لينتقل فيها من الطفولة إلى الشباب فالكهولة فالشيخوخة .

قال ابن عباس : (نفخ الروح فيه) . وقال الضحاك : (يعني الروح تنفخ فيه بعد الخلق) . وقال ابن عباس أيضاً : (خرج من بطن أمه بعدما خلق ، فكان من بدء خلقه الآخر أن استهلّ ، ثم كان من خلقه أن دُلَّ على ثدي أمه ، ثم كان من خلقه أن علم كيف يسطر رجله ، إلى أن قعد ، إلى أن حبا ، إلى أن قام على رجله ، إلى أن مشى إلى أن فُطِمَ ، فعلم كيف يشرب ويأكل من الطعام ، إلى أن بلغ الحلم ، إلى أن بلغ أن يتقلب في البلاد) .

وفي الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : [إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْماً نَظْفَةً ، ثُمَّ يَكُونُ عِلْقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يَكُونُ مَضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ إِلَيْهِ مَلَكاً ، وَيُؤَمِّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ ، وَيُقَالُ لَهُ : اكْتُبْ عَمَلَهُ ، وَرِزْقَهُ ، وَأَجَلَهُ ، وَشَقِي أَوْ سَعِيدٌ ، ثُمَّ يَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ ، فَإِنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، حَتَّى لَا يَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ ، فَيَدْخُلُ النَّارَ . وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4935) - كتاب التفسير ، وكذلك (4814) ، وأخرجه مسلم (2955) ، والنسائي (4/ 111 - 112) .

(2) انظر صحيح مسلم (2955) ، وسنن أبي داود (4743) ، وابن ماجه (4266) ، ومسنند أحمد (322/2) ، (428/2) ، وصحيح ابن حبان (3139) .

ذراع فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل الجنة ، فيدخل الجنة⁽¹⁾.

وله شاهد فيهما وفي المسند بسند صحيح عن أنس رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَكُلٌّ بِالرَّحْمِ مَلَكًا يَقُولُ: أَيُّ رَبِّ نَظْفَةٍ ، أَيُّ رَبِّ عِلْقَةٍ ، أَيُّ رَبِّ مَضْغَةٍ ، فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَقْضِيَ خَلْقَهَا قَالَ: أَيُّ رَبِّ شَقِيٍّ أَمْ سَعِيدٍ؟ ذَكَرَ أَوْ أُنْثَى؟ فَمَا الرِّزْقُ؟ فَمَا الْأَجَلُ؟ فَيَكْتُبُ كَذَلِكَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ]⁽²⁾.

وقوله: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.

أي: فتعالى أمره سبحانه في قدرته وعلمه ، وهو خير المقدرين وخير الصانعين. قال مجاهد: (يصنعون ويصنع الله ، والله خير الصانعين).

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾.

أي: ثم إنكم بعد ما ذكر من مراحل إنشائكم لمفارقون لهذه الحياة الدنيا ، وذلك عند انقضاء آجالكم.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ﴾. أي: من قبوركم للحساب والمجازاة. قال النسفي: (تحيون للجزاء). ثم يُوفَى كل عامل عمله ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر.

قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: 7-8].

وفي مستدرك الحاكم بسند صحيح من حديث معاذ بن جبل مرفوعاً: [تعلمون المعاد إلى الله ، ثم إلى الجنة أو إلى النار ، وإقامة لا ظعن فيه ، وخلود لا موت في أجساد لا تموت]⁽³⁾.

17 - 22. قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ

غَافِلِينَ﴾ ﴿١٧﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ ﴿١٨﴾

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3208) ، ومسلم (2643) ، وأبو داود (4708) ، وغيرهم.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6595) ، ومسلم (2646) ، وأحمد (148/3) ، وغيرهم.

(3) صحيح الإسناد. أخرجه الحاكم (83/1) ، وله شواهد كثيرة. انظر «المجمع» (396/10) ، وكذلك سلسلة الأحاديث الصحيحة - حديث رقم - (1668).

فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّحِيلٍ وَأَعْنَبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاحِشُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةٌ تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدَّهْنِ وَصَبِغٍ لِّلْأَكْلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُسْقُوا مِنَّا بِطُورِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ .

في هذه الآيات: عَظُفٌ على خلق الإنسان ، بِذِكْرِ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ الْعِظَامِ ، وإنزال المطر من السماء وإسكانه في جوف الأرض وإخراج الزرع والفواكه والنخيل والثمار. وفي خلق الأنعام عبرة ومنافع لكم أيها الناس ومنها تأكلون ، وتركبون عليها وكذلك على الفلك تُحملون .

فقوله: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ ﴾ . قال ابن عباس: (الطرائق: السماوات). وقال مجاهد: (يعني: السماوات السبع).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 - قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴾ [نوح: 15].

2 - وقال تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق: 12].

وقوله: ﴿ وَمَا كُنَّا مِنَ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴾ .

قال ابن جرير: (يقول: وما كنا في خلقنا السماوات السبع فوقكم عن خلقنا الذي تحتها غافلين ، بل كنا لهم حافظين من أن تسقط عليهم فتهلكهم).

فالمعنى كما في التنزيل: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الحديد: 4].

قال ابن كثير: (أي: وهو سبحانه لا يحجب عنه سماء سماء ، ولا أرض أرضاً ، ولا جبل إلا يعلم ما في وغره ، ولا بحر إلا يعلم ما في قعره ، يعلم عدد ما في الجبال والتلال والرمال ، والبحار ، والقفار والأشجار ، ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام: 59].

وقوله: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدَرُ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ ﴾ . قال ابن جريج: (ماء هو من السماء).

والمقصود: ذِكْرُ حِكْمَتِهِ سبحانه بإنزال ماء المطر بحسب الحاجة ، لينتفع به العباد

وتحيا به البلاد ، وقد سلكه ينابيع في الأرض لتحصل الفائدة منه عند طلبه .

وقوله : ﴿وَلِنَا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَدْ رُؤِنَا﴾ .

قال النسفي : (أي كما قدرنا على إنزاله نقدر على إذهابه ، فقيّدوا هذه النعمة بالشكر) .

وقوله تعالى : ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَكُكُهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ .

قال ابن جرير : (يقول تعالى ذكره : فأحدثنا لكم بالماء الذي أنزلناه من السماء ، بساتين من نخيل وأعناب ، ﴿لَّكُمْ فِيهَا﴾ يقول : لكم في الجنات فواكه كثيرة ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ يقول : ومن الفواكه تأكلون) .

وخصّ سبحانه بالذكر النخيل والأعناب لأنها أشرف الثمار وأهمها عند العرب ، وخاصة أهل الحجاز . فالنخيل لأهل المدينة ، والأعناب لأهل الطائف ، فذكرهم سبحانه بأجل ما يعرفون من نعم الله عليهم في طعامهم ليفردوه سبحانه بالشكر والتعظيم .

قال القرطبي : ﴿لَّكُمْ فِيهَا﴾ أي في الجنات . ﴿فَوَكُكُهُ﴾ من غير الرطب والعنب . ويحتمل أن يعود على النخيل والأعناب خاصة إذ فيها مراتب وأنواع ، والأول أعم لساائر الثمرات) .

وقوله : ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ﴾ .

المقصود بالشجرة هنا : شجرة الزيتون . والطور : الجبل . و﴿سَيْنَاءَ﴾ و﴿سِينَاءَ﴾ قراءتان مشهورتان . فأهل الكوفة قرؤوها بفتح السين ، وأهل المدينة والبصرة بكسرها . وطور سيناء هو طور سينين ، وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام ، وما حوله من جبال الزيتون .

قال ابن عباس : ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ﴾ : هو جبل بالشام مبارك . قال : الجبل الذي نودي منه موسى ﷺ . وقال قتادة : (هو جبل حسن) . قال الضحاك : (الطور : الجبل بالنبطية ، وسيناء : حسنة بالنبطية) .

وقوله : ﴿تَبَّتْ يُالدُّهْنِ﴾ أي تنبت ومعها الدهن . قال مجاهد : (بشمره) . وعن ابن عباس : ﴿تَبَّتْ يُالدُّهْنِ﴾ يقول : هو الزيت يؤكل ويُدَّهَن به) . وقيل : الباء زائدة

والتقدير: تُنبت الدهن. وقيل: التقدير: تنبت جناها ومعه الدهن ، فالمفعول محذوف.

وقوله: ﴿وَصَبِغْ لِلْأَكْلِينَ﴾. قال ابن زيد: (هذا الزيتون صبغ للأكليين ، يأتمدون به ويصطبغون به).

قال القاسمي: ﴿تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ﴾ أي ملتبسة بالدهن المستصبح به ﴿وَصَبِغْ لِلْأَكْلِينَ﴾ أي وبإدام يغمس فيه الخبز فـ ﴿الصبغ﴾ كالصباغ ما يصطبغ به من الإدام. ويختص بكل إدام مائع ، يقال: «صبغ اللقمة: دهنها وغمسها» وكل ما غمس فقد صبغ. كذا في «المصباح» و«التاج».

قلت: وفضل الزيت وارد في القرآن الكريم كذلك في سورة النور.

قال تعالى: ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾.

وأما السنة العطرة فقد جاء في فضائل الزيت والادهان به أحاديث صحيحة ، منها:

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد والترمذي بسند حسن عن أبي أسيد رضي الله عنه ، قال: قال رسول الله ﷺ: [كلوا الزيت وادّهنوا به ، فإنه يخرج من شجرة مباركة]⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرج ابن ماجة والترمذي بسند حسن في الشواهد عن عمر أن رسول الله ﷺ قال: [ائتدما بالزيت وادّهنوا به ، فإنه يخرج من شجرة مباركة]⁽²⁾.

الحديث الثالث: أخرج الطبراني بسند حسن عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال: [ائتدما من هذه الشجرة ، يعني الزيت ، ومن عُرِضَ عليه طيبٌ فَلْيُصِبْ منه]⁽³⁾.

قال ابن القيم في «زاد المعاد»: (الزيت حار رطب في الأولى ، وغلط من قال: يابس ، والزيت بحسب زيتونه ، فالمعتصر من النضيج أعدله وأجوده ، ومن الفج فيه برودة ويؤوسة ، ومن الزيتون الأحمر متوسط بين الزيتين ، ومن الأسود يُسخن ويرطب

(1) حديث صحيح لشواهد. أخرجه أحمد (3/ 497) ، والحاكم (2/ 397) وصححه ووافقه الذهبي .

(2) حديث حسن. أخرجه الترمذي (1851) ، وابن ماجة (3319) ، ورجاله ثقات. وانظر صحيح الجامع (18) ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (379).

(3) حديث حسن. أخرجه الطبراني بسند حسن. وأورده الهيثمي في «المجمع» (5/ 43) ، وانظر صحيح الجامع الصغير - حديث رقم - (19) ، والمرجع السابق.

باعتدال ، وينفع من السموم ، ويطلق البطن ، ويخرج الدود ، والعتيق منه أشد تسخيناً وتحليلاً ، وما استُخرجَ منه بالماء فهو أقل حرارة ، والطف وأبلغ في النفع ، وجميع أصنافه مليئة للبشرة ، وتبطفئ الشيب . قال : وماء الزيتون المالح يمنع من تنفط حرق النار ، ويشد اللثة ، وورقه ينفع من الحمرة والتملة ، والقروح الوسخة ، والشرى ، ويمنع العرق ، ومنافعه أضعاف ما ذكرنا⁽¹⁾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۚ نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ (٢١) وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَالِكِ تَحْمَلُونُ ۚ .

ذكر بعض نعم الله تعالى في تسخير الأنعام للناس ، فطريقة خلقها تشد إلى التأمل في عظيم قدرته سبحانه ، واللبن الخارج من بين الفرث والدم آية كبرى ، وبعض الأنعام كالإبل يُحمل عليها ويُركب ظهرها ويشرب دُرّها ، آية أخرى . ثم يضاف إلى كل ذلك تذليل لحومها للأكل ، وما يكون من غذائها من عظيم الفائدة للأبدان ، آيات لقوم يتفكرون .

قال ابن جرير : (وقوله) : ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَالِكِ تَحْمَلُونُ ﴾ يقول : وعلى الأنعام وعلى السفن تحملون ، على هذه في البر ، وعلى هذه في البحر) .

23 - 25 . قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ عِزَّةٌ فَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (٢٣) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾ (٢٤) هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ فَرَتَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ (٢٥) .

في هذه الآيات : إرسال الله تعالى نبيّه نوحاً ﷺ يدعو قومه لإفراد الله سبحانه بالعبادة والتعظيم ، ومقابلة الملائكة الكافر له بالاستهزاء وأنه بشر ليس بملك كريم ، وأنهم ما سمعوا بمثل ذلك في آبائهم الأولين ، ثم اتهمهم له بالجنون وتواصيهم بانتظار اقتراب استراحتهم منه وريب المنون .

(1) انظر تفصيل البحث في كتابي : منهج الوحيين في معالجة زلل النفس وتسلط الجن (303) .

فقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ عِتْرَةً﴾ .

إخبار من الله تعالى عن إرساله لنبيه نوح عليه الصلاة والسلام لينذر قومه عذاب الله وانتقامه ممن أشرك به ولم يفرد بالعبادة والتعظيم .

وقوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ . قال ابن كثير: (أي: ألا تخافون من الله في إشراكم به؟!).

وقوله: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ﴾ . يعني السادة والأشراف والأكابر منهم . ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ﴾ . قال النسفي: (أي يطلب الفضل عليكم ويتراأس).

وقال القرطبي: (أي يسودكم ويشرف عليكم بأن يكون متبوعاً ونحن له تبع).

وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلْ مَلَكًا﴾ .

أي: لو شاء الله إرسال رسول لأرسل ملكاً من عنده ولم يكن بشراً.

وقوله: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ . أي: ما سمعنا ببعثه البشر في أجدادنا والأمم قبلنا . قال النسفي: (أي: بإرسال بشر رسولاً ، أو بما يأمرنا به من التوحيد وسب آلهتنا ، والعجب منهم أنهم رضوا بالألوهية للحجر ولم يرضوا بالنبوة للبشر).

وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾ . أي: ما بنوح إلا الجنون ، إذ يزعم أن الله اختاره من بينكم لرسالته ، واختصه بالوحي من دونكم .

وقوله: ﴿فَرَرْتُمْ بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ . قال ابن جرير: (يقول: فتلبثوا به ، وتنظروا به حتى حين). وقال ابن كثير: (أي: انتظروا به رب المنون ، واصبروا عليه مدة حتى تستريحوا منه).

26 - 30. قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كُنتُ بِنِعْمَتِكَ عَلَيْهِ﴾ .

أَصْنَعَ الْفَلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا أَسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفَلَكَ فَقُلْ أَلْحَدُ لِلَّهِ الَّذِي بَجَنَّا مِنَ الْقَوْمِ

الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَلِإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ .

في هذه الآيات: استنصارُ نوح ﷺ بالله من تكذيب قومه المجرمين ، وَوَحْيُ الله تعالى إليه بصناعة السفينة وإدخال فيها من كل زوجين وأهله المؤمنين ، وحمدُ الله عند ركوبها على النجاة من القوم الظالمين ، ودعائه تعالى عند النزول منها اختيار خير المنازل لعباده الصالحين .

فقوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي بِمَا كُنتُ بِنَاءً ﴾ .

فيه إعلام بانسداد الطريق بين نوح عليه الصلاة والسلام وقومه الذين أصروا على التكذيب والعناد ، وعدم الانتفاع بأي بلاغ . فهناك استنصر نوح ربه عليهم كما قال تعالى في سورة القمر : ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴾ .

وقوله : ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا ﴾ . هو جواب الله تعالى دعاء نوح ﷺ ، فأمره بصنع السفينة وإحكامها وإتقانها .

وفي سورة هود : ﴿ وَأَصْنَعْ الْفُلَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا ﴾ . قال ابن عباس : (بعين الله) . وقال قتادة : (بعين الله ووحيه) . وقال ابن جرير - في آية القمر المشابهة - : ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ : (تجري السفينة التي حملنا نوحاً فيها بمرأى منا ومنظر) .

قلت : فلفظ «العين» في التنزيل يفيد الصفة التي لا بد من إثباتها لله عز وجل ، وقد يفيد العناية والرعاية - كما هو هنا - وقد يفيد الأمرين معاً ، والله تعالى أعلم .

وقوله : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ فَاسْلُفْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ ﴾ .

قال القاسمي : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ أي عذابنا ﴿ وَفَارَ التَّنُورُ ﴾ كناية عن الشدة . كقولهم «حمي الوطيس» . و﴿ التَّنُورُ ﴾ كانون الخبز حقيقة . وأطلقه بعضهم على وجه الأرض ومنبع الماء ، للآية مجازاً ﴿ فَاسْلُفْ فِيهَا ﴾ أي فأدخل في الفلك ﴿ مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ أي من كل أمة ﴿ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ .

قال ابن كثير : (أمره تعالى بصناعة السفينة وإحكامها وإتقانها ، وأن يحمل فيها من كل زوجين اثنين ، أي : ذكراً وأنثى من كل صنف من الحيوانات والنباتات والثمار وغير ذلك ، وأن يحمل فيها أهله ﴿ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ ﴾ ، أي : من سبق فيه القول

من الله بالهلاك ، وهم الذين لم يؤمنوا به من أهله ، كابنه وزوجته ، والله أعلم) .
وقوله : ﴿ وَلَا تَخْطِئُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴾ .

قال ابن عباس : (يقول : ولا تسألني في الذين كفروا بالله أن أنجيهم ﴿ إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴾) يقول : فإني قد حتمت عليهم أن أغرق جميعهم) .

والمقصود : لا يكن بك شفقة عليهم إذا رأيتهم حوصروا بالماء وحلّ بهم الغرق والهلاك ، فإن الله تعالى قد قضى إغراق قومك الذين كفروا وكانوا مجرمين .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا أَسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْمَعْدِلُ لِلَّهِ الَّذِي يَخْتَارُ مِنَ الْقَوْمِ الْقَلِيلِينَ ﴾ .

يعني : إذا اعتدلت يا نوح أنت ومن معك من المؤمنين في السفينة فاحمدوا الله العظيم أن نجاكم من القوم المشركين . وهذا ما فعله نوح ﷺ حين أمر قومه بذلك .

ففي التنزيل نحو ذلك :

1 - قال تعالى : ﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَعَلْنَاكِ مَافِيهَا سَفِينًا وَفَرَسَهَا ﴾ [هود : 41] . فذكر نوح ربه أمراً قومه بذلك عند ابتداء سيره وعند انتهائه .

2 - وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾ ﴿ لَتَسَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَكُمْ مُّقْرِنِينَ ﴾ ﴿ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴾ [الزخرف : 12 - 14] .

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : [أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا اسْتَوَىٰ عَلَىٰ بَعِيرِهِ خَارِجاً إِلَىٰ سَفَرٍ كَثَرَ ثَلَاثاً ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَكُمْ مُّقْرِنِينَ ﴾ ﴿ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴾ . اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البرِّ والتقوى ، ومن العمل ما ترضى ، اللهم هَوِّنْ عَلَيْنَا سَفَرَنَا هَذَا ، وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ ، اللهم أنت الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ . اللهم إني أعوذ بك من وَغْثَاءِ السَّفَرِ ، وَكَآبَةِ الْمُنْظَرِ وَسَوْءِ الْمُنْقَلَبِ فِي الْمَالِ وَالْأَهْلِ . وإذا رجع قالهنَّ وزاد فيهن : آيئون تائبون عابدون لربنا حامدون] ⁽¹⁾ .

وفي جامع الترمذي بسند صحيح عن علي بن ربيعة قال : [شهدت علياً أتى بدابة ليركبها ، فلما وضع رجله في الركاب قال بسم الله ، فلما استوى على ظهرها قال : الحمد لله . ثم قال : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَكُمْ مُّقْرِنِينَ ﴾ ﴿ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح (2/ 998) ، وانظر صحيح سنن الترمذي (2743) .

لَمَقْلُبُونَ». ثم قال: الحمد لله ثلاثاً ، الله أكبر ثلاثاً ، سبحانك إني قد ظلمت نفسي فاغفر لي ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، ثم ضحك . فقلت : من أي شيء ضحكت يا أمير المؤمنين؟ قال : رأيت رسول الله ﷺ صنع كما صنعت ، ثم ضحك فقلت : من أي شيء ضحكت يا رسول الله؟ قال : إِنَّ رَبَّكَ لَيَعْجَبُ مَنْ عِبْدِهِ إِذَا قَالَ : رَبِّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي ، إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ غَيْرَكَ⁽¹⁾ . وقوله تعالى : ﴿ وَقُلْ رَبِّ أُنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴾ .

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره لنبية نوح عليه السلام: وقل إذا سلمك الله وأخرجك من الفلك ، فنزلت عنها ﴿ رَبِّ أُنزِلْنِي مُنزَلاً ﴾ من الأرض ﴿ مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ ﴾ من أنزل عباده المنازل).

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾ .

أي : إن في إنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين لدلالات بينات على صدق الأنبياء في دعوتهم ، وصدق الله لهم في نصرهم على عدوهم ، وإنما قضى الله تعالى ابتلاء القوم بعضهم ببعض ليميز الخبيث من الطيب ، ثم يحق الحق ويزهق الباطل .

وفي التنزيل :

1 - قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران : 179] .

2 - وقال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة : 16] .

وقال تعالى : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء : 18] .

ومن كنوز صحيح السنة في ذلك أحاديث :

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد بسند حسن عن أبي عبيدة بن حذيفة عن عمته فاطمة أنها قالت : [أتينا رسول الله ﷺ ، نعوذه في نسائه ، فإذا سقاء معلق نحوه يقطر

(1) حديث صحيح . أخرجه الترمذي (3691) - أبواب الدعوات - باب ما يقول : إذا ركب دابة ، انظر صحيح سنن الترمذي (2742) ، وصحيح أبي داود (2267) .

ماؤه عليه من شدة ما يجد من حرّ الحمى ، قلنا: يا رسول الله لو دعوت الله فشفاك . فقال رسول الله ﷺ: إنّ من أشدّ الناس بلاء الأنبياء ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم [1].

الحديث الثاني: أخرجه الترمذي وابن ماجة بسند حسن عن أنس ، عن النبي ﷺ قال: [إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم ، فمن رضي فله الرضا ، ومن سخط فله السخط] [2].

الحديث الثالث: يروي الدارمي وأحمد بسند صحيح عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب قال: [بينا رسول الله ﷺ قاعد مع أصحابه إذ ضحك ، فقال: ألا تسألوني مم أضحك؟ قالوا: يا رسول الله! ومم تضحك؟ قال: عجبت لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير ، إن أصابه ما يحب حمد الله وكان له خير ، وإن أصابه ما يكره فصبر كان له خير ، وليس كل أحد أمره كله خير إلا المؤمن] [3].

31- 41. قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ [٣١] فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [٣٢] وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا الْآخِرَةِ وَآتَرَفْنَاهُم فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴾ [٣٣] وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَسِرُونَ ﴾ [٣٤] أَعِدُّكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا إِنَّكُمْ تُخْرَجُونَ ﴾ [٣٥] هِيَاتَ هِيَاتَ لِمَا تُوْعَدُونَ ﴾ [٣٦] إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ [٣٧] إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [٣٨] قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ [٣٩] قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لِّيُصْبِحَنَّ نَدِيمِينَ ﴾ [٤٠] فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [٤١].

في هذه الآيات: تتابعُ الرسل في الأمم وتكذيب الملاء الكافر بالنبوة في كل زمان

- (1) حديث حسن. أخرجه أحمد (6/ 369) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (145).
- (2) إسناده حسن. أخرجه الترمذي (2/ 64) ، وابن ماجة (4031) ، وانظر المرجع السابق (146).
- (3) صحيح على شرط مسلم. أخرجه الدارمي (2/ 318) ، وأحمد (6/ 16) من حديث عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب. وانظر صحيح مسلم (8/ 227).

وحين ، والتشكيك في أمر المعاد والبعث من القبور والقيام لرب العالمين ، واستنصار كل رسول بالله العظيم ، لينزل العذاب فيحيط بالقوم الظالمين .

فقوله تعالى : ﴿ تَرَأْسَانَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنَاءَ آخَرِينَ ﴾ .

أي : ثم أوجدنا من بعد مهلك قوم نوح قوماً آخرين . قيل المراد عاد ، وقيل ثمود وهو الراجح لذكر مهلكهم في آخر الآيات بالصيحة ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَنْفَقُونَ ﴾ .

أي : فبعث الله فيهم رسولاً من بينهم يحذرهم مغبة الشرك وعبادة الأوثان ، ويحثهم على إفراد الله تعالى بالعبادة والتعظيم ، وينذرهم بأسه تعالى وبطشه إن أصروا على الكفر وما هم عليه من الانحراف والجحود .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَآتَرَفْتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا نَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَلْسِرونَ ﴾ .

قال ابن جرير : (يقول تعالى ذكره : وقالت الأشراف من قوم الرسول الذي أرسلنا بعد نوح ، وعننى بالرسول في هذا الموضع : صالحاً ، ويقومه : ثمود ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ ﴾ يقول : الذين جحدوا توحيد الله ، وكذبوا بلقاء الآخرة : يعني كذبوا بلقاء الله في الآخرة . وقوله : ﴿ وَآتَرَفْتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ يقول : ونعمناهم في حياتهم الدنيا ، بما وسعنا عليهم من المعاش ، وبسطنا لهم من الرزق ، حتى بطروا وعتوا على ربهم ، وكفروا . قال : وقوله : ﴿ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ يقول : قالوا : بعث الله صالحاً إلينا رسولاً من بيننا وخصه بالرسالة دوننا وهو إنسان مثلنا يأكل مما نأكل منه من الطعام ويشرب مما نشرب ، وكيف لم يرسل ملكاً من عنده يبلغنا رسالته) .

قال ابن كثير : (فكذبوه وخالفوه ، وأبوا من اتباعه لكونه بشراً مثلهم ، واستنكفوا عن اتباع رسول بشري ، فكذبوا بلقاء الله في القيامة ، وأنكروا المعاد الجُثماني ، وقالوا : ﴿ أَيْدُكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَنْتُمْ تُخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴾ أي بعيد بعيد ذلك) .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ .

كقول كفار مكة : ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ [الجاثية :

وكقيلهم وهم يقسمون كذباً - كما حكى الله عنهم في سورة النحل - : ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَى وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّا أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل : 38]. مما يدل أن منهج الكفر واحد منذ القرون الأولى إلى قيام الساعة .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ .

قال النسفي : (أي ما هو إلا مفتر على الله فيما يدعيه من استنبائه وفيما يعدنا من البعث ، ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ بمصدقين) .

وقوله تعالى : ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُون﴾ . أي : استفتح الرسول وطلب النصر من الله على قوم أصروا على كفرهم وتكذيبهم .

وقوله تعالى : ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ .

إجابة الله دعوة رسوله بأن الندم سيحيط بهم مصبحين نتيجة استهزائهم بالوحي والنبوة .

وقوله : ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ﴾ .

أي : وقع بهم انتقام الله تعالى باستحقاقهم العقاب منه بكفرهم وتماديهم .

وقوله : ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُصَاءً﴾ . أي صيرناهم كالغشاء لا قيمة له . والغشاء ما ارتفع على السيل ونحوه . قال ابن عباس : (جعلوا كالشيء الميت البالي من الشجر) .

وقال مجاهد : (كالرميم الهامد ، الذي يحتمل السيل) .

قال النسفي : (شبههم في دمارهم بالغشاء ، وهو حميل السيل ما بلي واسودّ من الورق والعيذان) .

وقوله : ﴿فَبَعْدًا لِلظَّالِمِينَ﴾ . أي : هلاكاً لهم . أو بُعْدًا لهم من رحمة الله . والفاء عاطفة ، و﴿بعداً﴾ مفعول مطلق لفعل محذوف والتقدير : ابعادوا بعداً .

أي : أبعد الله القوم الظالمين بإهلاكهم إذ أصروا على الكفر بربههم وتكذيب رسله ووحيه .

42 - 44 . قوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ﴾ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ

أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلًّا مَّا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا

وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبَعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ .

في هذه الآيات: استمرار إرسال الله تعالى الرسل في القرون المتتابعة ، واستمرار تكذيب الملائكة الكافر وأتباعهم في الأمم المتلاحقة ، وختام ذلك نزول نقمة الله على المكذبين وتصييرهم أحاديث للأجيال القادمة .

فقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴾ .

أي: ثم أوجدنا من بعد هلاك هؤلاء أمماً وأقواماً آخرين .

قال ابن عباس: (يريد بني إسرائيل). قال القرطبي: (وفي الكلام حذف: فكذبوا أنبياءهم فأهلكناهم).

وقوله تعالى: ﴿ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَجِرُّونَ ﴾ .

قال ابن كثير: (يعني: بل يؤخذون حسب ما قدر لهم تعالى في كتابه المحفوظ وعلمه قبل كونهم ، أمة بعد أمة وقرناً بعد قرن ، وجيلاً بعد جيل ، وخلفاً بعد سلف).

وقوله: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولَنَا تَتْرًا ﴾ . معنى ﴿ تَتْرًا ﴾ تتواتر. قال ابن عباس: (يعني يتبع بعضهم بعضاً).

والمقصود: ثم واطرنا رسلنا على أجيال الخلق يتبع بعضهم بعضاً ترغيباً وترهيباً.

وقوله: ﴿ كُلَّ مَاجَاءٍ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا ﴾ . أي: بالهلاك .

وقوله: ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ﴾ . أي أخباراً وأحاديث للناس لِضَرْبِ المثل والتعجب .

قال الأخفش: (إنما يقال هذا في الشر ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ﴾ ولا يقال في الخير ، كما يقال: صار فلان حديثاً أي عبرة ومثلاً ، كما قال في آية أخرى: ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ [سبأ: 19] .

وقوله: ﴿ فَبَعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

قال ابن جرير: (يقول: فأبعد الله قوماً لا يؤمنون بالله ، ولا يصدقون برسوله).

45 - 49. قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٤٥﴾

إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوا أَنْتُمْ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا

لَنَا عِيدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ .

في هذه الآيات: إخباره تعالى أنه تابع الرسالة فبعث موسى وأخاه هارون - عليهما السلام - إلى فرعون وقومه بحجة الحق البالغة وسلطان الوحي العظيم . فقابلوا ذلك بالكبر والبغي والعلو في الأرض واتباع سبيل الشياطين ، وعاملوهما كما عاملت الأمم السابقة الهالكة رسلها مستنكرين بشريتهما محتجين بانقياد الناس - بالإكراه والظلم - لهم ، فجاء العذاب وقصم الله فرعون والقبط ، وأكرم الله موسى والمؤمنين معه بهدي التوراة ليكون لهم نوراً في الدنيا ونجاة في الآخرة .

قال النسفي: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ يعملون بشرائعها ومواعظها).

وقال ابن كثير: (وأنزل على موسى الكتاب - وهو التوراة - فيها أحكامه وأوامره ونواهيهِ ، وذلك بعدما قَصَمَ الله فرعونَ والقبط ، وأخذهم أخذَ عزيز مقتدر . وبعد أن أنزل الله التوراة لم يهلك أمة بعامَّة ، بل أمر المؤمنين بقتال الكافرين ، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: 43]).

50. قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ ﴿٥٠﴾ .

في هذه الآية: يخبر تعالى أنه جعل عيسى وأمه مريم - عليهما السلام - حجة على أهل ذلك الزمان ، في إظهار قدرته جل ذكره بإنشاء الأجسام من غير أصل ، فهو كآدم خلقه من تراب وقال له كن فكان ، وهذه الآية باقية إلى قيام الساعة ، وأنه تعالى برحمته آوى عيسى وأمه إلى أرض منبسطة مرتفعة ذات خصب وماء .

فعن قتادة: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ﴾ قال: ولدته من غير أب هو له ، ولذلك وُحِّدَت الآية ، وقد ذكر مريم وابنها).

وقال ابن عباس: (الرَبْوَةُ: المكان المرتفع من الأرض ، وهو أحسن ما يكون فيه النبات).

قال: (وقوله: ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ يقول: ذات خصب ﴿وَمَعِينٍ﴾ يعني ماء ظاهراً). وقال (المعين الماء الجاري ، وهو النهر الذي قال الله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلْنَا لَكَ رَبِّكَ نَهْرًا﴾ [مريم: 24]).

وقال مجاهد: (رَبْوَةٌ مستوية). وقال سعيد بن جبیر: ﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ استوى الماء فيها). وقال قتادة: ﴿وَمَعِينٍ﴾ الماء الجاري). وقال: (هو بيت المقدس).

وخلاصة القول: لقد آوى الله تعالى عبده عيسى بن مريم ﷺ وأمه إلى أرض مرتفعة خصبة تحفل بالنبات والثمر والماء رحمة منه تعالى بهما. وظاهر آيات القرآن أن ذلك كان في بيت المقدس ، والله تعالى أعلم.

51 - 56. قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۖ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ۖ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۖ فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۖ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ ۖ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ۖ﴾.

في هذه الآيات: أمرُ الله تعالى الرسل وعباده المؤمنين بأكل الحلال ، وامتنال الصالح من الأعمال ، والدعوة إلى الدين الحق ، واجتناب الفرقة أو الانزلاق إلى الشبهات والشهوات ، والتنبيه إلى سنة الله في استدراج القوم الظالمين ، ثم استئصالهم من حيث لا يشعرون.

فقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۖ﴾.

أمرٌ من الله سبحانه لعباده المرسلين بأكل الحلال وترك الحرام وامتنال صالح الأعمال ، وهو - تعالى - عليم بأعمالهم ومجازيهم بجميعها أحسن الثواب. قال الحسن: ﴿كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ ، يعني: (الحلال). والخطاب وإن كان موجهاً للرسل فهو لأتباعهم من باب أولى ، وإنما خص المرسلين بالكلام لأنهم قدوة العباد وأسوة البشرية جميعاً.

ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [يا أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال:

﴿يَتَأْتِيَ الرُّسُلَ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ . وقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُّوْا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: 172]. ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ، يمدُّ يديه إلى السماء ، يا ربِّ! يا ربِّ! ومَطْعَمُهُ حرامٌ ، ومَشْرَبُهُ حرامٌ ، وملْبَسُهُ حرامٌ ، وغُذِيَ بالحرام ، فأَنَّى يُسْتَجَابُ لذلك؟⁽¹⁾

وقوله تعالى: ﴿وَلِئِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ .

يعني: وإن ملتكم معشر الأنبياء ملة واحدة ، ودينكم دين واحد ، وهو دين التوحيد: أفراد الله تعالى بالعبادة والتعظيم ، فاتقوا الله ربكم وادعوا الخلق إلى هذا الدين القويم .

قال ابن جريج: ﴿(وَلِئِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ قال: الملة والدين).

وقد نصب قوله: ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ على الحال .

وقوله تعالى: ﴿فَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ .

أي: تمزقت أُمم الرسل فيما بينهم ، وجعلوا دينهم أدياناً ، واتبعوا الشبهات والشهوات . و﴿زُبُرًا﴾: جمع زبور . أي كتباً مختلفة . قيل: تفرقوا في دينهم فرقاً كل فرقة تنتحل كتاباً . وعن الحسن قال: (قطعوا كتاب الله قطعاً وحرفوه) .

وقوله: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ . أي كل فريق بما هم عليه من الهوى والضلال معجبون .

قال النسفي: (كل فرقة من فرق هؤلاء المختلفين المتقطعين دينهم ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ من الكتاب والدين أو من الهوى والرأي ﴿فَرِحُونَ﴾ مسرورون معتقدون أنهم على الحق) .

وقوله تعالى: ﴿فَذَرَهُمْ فِي عَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ . تهديد ووعيد . أي: فدع يا محمد هؤلاء القوم الذين انغمسوا في غيهم وضلالهم إلى حين حلول عذابهم أو انقضاء آجالهم . قال مجاهد: ﴿(فِي عَمَرَتِهِمْ﴾: في ضلالهم) .

وقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُدْعُهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ ۖ سُبْحَٰنَ لَّهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

قال مجاهد: ﴿(أَنَّمَا نُدْعُهُمْ﴾: نعطيهم ، نسارع لهم ، قال: نزيدهم في الخير ، نُملِّي لهم ، قال: هذا لقريش) .

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح - حديث رقم - (1015) - كتاب الزكاة ، ورواه الترمذي في الجامع (2989) ، وأحمد في المسند (328/2) .

قال ابن كثير: (يعني: أظن هؤلاء المغرورون أن ما نعطيههم من الأموال والأولاد لكرامتهم علينا ومعزتهم عندنا؟! كلا، ليس الأمر كما يزعمون في قولهم: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّيْنَ﴾ [سبأ: 35]، لقد أخطؤوا في ذلك وخاب رجاؤهم، بل إنما نفعل بهم ذلك استدراجاً وإنظاراً وإملاءً، ولهذا قال: ﴿بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 - قال تعالى ﴿فَلَا تَتَجَبَّكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: 55].

2 - وقال تعالى: ﴿قَدْ زُفِيَ وَمَنْ يَكْذِبْ بِهَذَا الْمُدِثِّ سَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأَمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم: 44 - 45].

3 - وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: 178].

ومن صحيح السنة المطهرة في ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرجه الإمام أحمد بسند قوي عن عقبة بن عامر مرفوعاً: [إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج، ثم تلا: ﴿فَلَمَّا تَسَاءَلُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾] (1).

الحديث الثاني: أخرجه البخاري ومسلم عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: [إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ، قال: ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهُوَ ظَلِيمٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَكْبَرُ شِدْدٍ﴾ [هود: 102]] (2).

الحديث الثالث: خرَّج مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: [إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مُؤْمِنًا حَسَنَةً، يُعْطِي بِهَا فِي الدُّنْيَا وَيَجْزِي بِهَا فِي الْآخِرَةِ، وَأَمَّا

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (4/ 145)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (414).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4686)، ومسلم (2583)، والترمذي (3110)، وابن ماجه (4018)، وأخرجه ابن حبان (5175)، والبيهقي (94/6).

الكَافِرُ فَيُطْعَمُْ بِحَسَنَاتِ مَا عَمِلَ بِهَا اللَّهُ فِي الدُّنْيَا ، حَتَّى إِذَا أَفْضَى إِلَى الْآخِرَةِ ، لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُجْزَى بِهَا⁽¹⁾ .

57 - 61. قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ يَثَابَتْ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً تَوْأَمًا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَافِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ .

في هذه الآيات: ثناء الله تعالى على عباده المؤمنين ، الذين جمعوا إلى إيمانهم إحساناً وشفقة من يوم الدين ، والذين يسارعون في الخيرات وقلوبهم وجلة أن لا يقبل منهم يوم يعرضون على رب العالمين .

فقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ .

قال الحسن البصري: (إن المؤمن جمع إحساناً وشفقة ، وإن الكافر جمع إساءة وأماً) .

فالمؤمنون بالله وجلون خائفون مع إحسانهم وإيمانهم ومبادرتهم إلى الطاعات والقربات .

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ يَثَابَتْ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ . يشمل الآيات الكونية والشرعية .

قال النسفي: ((وَالَّذِينَ هُمْ يَثَابَتْ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي بكتب الله كلها ، لا يفرقون بين كتبه كالذين تقطعوا أمرهم بينهم وهم أهل الكتاب) .

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ .

أي: يفردون ربهم سبحانه بالعبادة والتعظيم ، ويوحدونه في أسمائه وصفاته ومحامده لا شريك له .

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً تَوْأَمًا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ .

أي: يعطون الصدقات ويتقربون بالطاعات وهم خائفون أن لا يقبل منهم . قال ابن عباس: (المؤمن ينفق ماله ويتصدق وقلبه وجل أنه إلى ربه راجع) . وقال سعيد بن

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم (2808) - كتاب صفات المنافقين ، باب جزاء المؤمن بحسناته في الدنيا والآخرة ، وتعجيل حسنات الكافر في الدنيا ، ورواه أحمد .

جبير: (يفعلون ما يفعلون وهم يعلمون أنهم صائرون إلى الموت ، وهي من المبشرات).

أخرج الترمذي وابن ماجة بسند صحيح عن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: [سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَاوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾ قالت عائشة: أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: لا ، يا بِنْتُ الصديق ولكنهم الذين يصومون ويصلون وَيَتَصَدَّقُونَ وهم يخافون أن لا تُقَبَّلَ منهم ، أولئك الذين يُسارعون في الخيرات وهم لها سابقون⁽¹⁾.

وفي لفظ ابن ماجة: [قالت: أهو الذي يزني ويسرق ويشرب الخمر؟ قال: لا. يا بنت أبي بكر. «أو يا بنت الصديق!»، ولكنه الرجل يصومُ وَيَتَصَدَّقُ وَيُصَلِّي ، وهو يخاف أن لا يُقَبَّلَ منه].

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾.

قال ابن عباس: (يقول: سبقت لهم السعادة).

وقال ابن زيد: (والخيرات: المخافة والوجل والإيمان ، والكف عن الشرك بالله ، فذلك المسابقة إلى هذه الخيرات ، وقوله: ﴿وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ كان بعضهم يقول: معناه: سبقت لهم من الله السعادة ، فذلك سبوقهم الخيرات التي يعملونها).

قلت: والحديث السابق يدل على أن حالة القلب الذي يخشى صاحبه عدم القبول وهو مجتهد في الإيمان والعمل الصالح هي حالة صِحِّية يُرجى لصاحبها السبق والفوز في الآخرة. وقد جاءت نصوص الوحيين بذلك:

ففي التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿نَتَجَا فَنِي جُنُوبِهِمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: 16].

2 - وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رِعَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ [الأنبياء: 90].

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (3401) ، وابن ماجة (4198). انظر صحيح سنن الترمذي (2537) ، وصحيح سنن ابن ماجة (3384) ، ورواه أحمد.

ومن كنوز السنة العطرة:

أخرج الترمذي وابن ماجه بسند حسن عن أنس: [أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو بالموت ، فقال: كيف تجدك؟ قال: والله يا رسول الله إني أرجو الله ، وإني أخاف ذنوبي ، فقال رسول الله ﷺ: لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن ، إلا أعطاه الله ما يرجو ، وأمنه مما يخاف⁽¹⁾].

62 - 67. قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكَلِّفْ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ٦٧ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَرْقٍ مِنْ هَذَا وَهُمْ أَعْمَلُ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمَلُونَ ﴿٦٨﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْعَلُونَ ﴿٦٩﴾ لَآ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ قَدْ كُنَّا فِي الْغُرَفِ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تُنْكِبُونَ ﴿٧٠﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٧١﴾.

في هذه الآيات: التكاليف الشرعية متحملة ، وكتاب الأعمال دقيق ينطق بصغائر الأعمال وكبارها ، والقوم في غفلة عن مصيرهم ، وإنما يستجيرون ويستغيثون عند نزول الهلاك بهم.

فقوله: ﴿وَلَا تُكَلِّفْ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

فيه دليل أن التكاليف الشرعية هي في حدود سعة الإنسان ، وأن الشرائع التي أمر الله بها يطبق العبد حملها والقيام بها.

ذكر الشاطبي في «الموافقات»: (أن المشقة الشرعية لا يجوز دفعها لأنها دفع للتكليف). واستدل بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةً لِلنَّاسِ كَذَّابٌ لِلَّهِ﴾ [العنكبوت: 10].

وذلك بعد قوله تعالى: ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: 2].

(1) إسناده حسن. أخرجه الترمذي (994) ، وابن ماجه (4261). وعبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» (ص 24) ، وانظر صحيح سنن الترمذي (785) ، وصحيح ابن ماجه (3436).

وبين أن المشقة قد تبلغ من الأعمال العادية ما يظن أنه غير معتاد ، ولكنه في الحقيقة معتاد .

وقوله : ﴿ وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ .

قال ابن كثير: (يعني: كتاب الأعمال ، ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ ، أي: لا يبخسون من الخير شيئاً ، وأما السيئات فيعفو ويصفح عن كثير منها لعباده المؤمنين).

وقوله : ﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمَرٍ مِّنْ هَذَا ﴾ . قال مجاهد: (في عمى من هذا القرآن).

قال ابن جرير: (وعنى بالغمرة: ما غمر قلوبهم ، فغطاها عن فهم ما أودع الله كتابه من المواعظ والعبر والحجج).

وقوله : ﴿ وَلَهُمْ أَعْمَلٌ مِّنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمِلُونَ ﴾ .

قال ابن عباس: ﴿ وَلَهُمْ أَعْمَلٌ ﴾ ، أي: سيئة ﴿ مِّنْ دُونِ ذَلِكَ ﴾ يعني الشرك ﴿ هُمْ لَهَا عَمِلُونَ ﴾ ، قال: لا بُدَّ أَنْ يَعْمَلُوهَا⁽¹⁾ . وقال مجاهد: (الخطايا).

وقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْثَرُونَ ﴾ . قال ابن عباس: (يستغيثون). قال ابن زيد: (المترفون: العظماء . ﴿ إِذَا هُمْ يَجْثَرُونَ ﴾ يقول: فإذا أخذناهم به جأروا ، يقول: ضجوا واستغاثوا مما حلَّ بهم من عذابنا).

والجوار: رفع الصوت ، كما يجأر الثور ، والخطاب لأهل مكة وما حلَّ بطغاتهم يوم بدر ، وهو حال الأمم التي ينزل بها سخط الله وعذابه على مدار الزمان .

وقوله تعالى: ﴿ لَا تَجْثَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴾ .

أي: سواء جأرتم أم لم تجأروا ، فقد حلَّ بكم سخط الله ونزل العذاب ولا طريقة لرفعه . قال الربيع بن أنس: ﴿ لَا تَجْثَرُوا الْيَوْمَ ﴾ لا تجزعوا الآن حين نزل بكم العذاب ، إنه لا ينفعكم ، فلو كان هذا الجزع قبل نفعكم).

(1) وقيل: لا بد أن يعملوها قبل موتهم لا محالة ، فقد حقت عليهم كلمة العذاب ، وسبق في علم الله أنهم أشقياء أهل سوء خاتمة . وفي الصحيحين والمسند عن ابن مسعود ، قال رسول الله ﷺ: [فرو الذي لا إله غيره ، إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل النار ، فيدخلها]. رواه البخاري في صحيحه (6594) ، ومسلم (2643) ، وأحمد في مسنده (382/1).

وقوله تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُفُّوا عَنْ أَعْقَابِكُمْ زِنَاكَمْ ﴾ .

قال ابن عباس: (يقول: تدبرون). وقال مجاهد: (تستأخرون).

قلت: والخطاب لأهل مكة لما عُرض عليهم الحق وهذا الوحي العظيم ، فاستكبروا وطفغوا وعاندوا. فوصفهم الله سبحانه بقوله: ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ ﴾ . قال ابن عباس: (يقول: مستكبرين بحرم البيت أنه لا يظهر علينا فيه أحد). وقال مجاهد: ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ ﴾ قال: بمكة بالبلد). وقال الحسن: (مستكبرين بحرمي). وقال قتادة: (مستكبرين بالحرم).

ثم وصفهم سبحانه بقوله: ﴿ سَمِرًا تَهْجُرُونَ ﴾ . وأصل السمر والمسامرة في لغة العرب: الحديث بالليل.

ومنه قولهم: سَمَرَ يَسْمُرُ فهو سَامِرٌ. قال الرازي: (السُّمَار: وهم القوم يَسْمُرُونَ).

قال ابن عباس: (قوله: ﴿ سَمِرًا ﴾ يقول: يَسْمُرُونَ حول البيت).

وقال مجاهد: (سامراً: مجلساً بالليل). وقال ابن زيد: (كانوا يَسْمُرُونَ ليلتهم ويلعبون: يتكلمون بالشعر والكهانة وبما لا يدرون).

قال ابن جرير: (يقول: تَسْمُرُونَ بالليل ، ووحد قوله: ﴿ سَمِرًا ﴾ وهو بمعنى السُّمَار ، لأنه وضع موضع الوقت. ومعنى الكلام: وتهجرون ليلاً ، فوضع السامر موضع الليل ، فوحد لذلك. وقد كان بعض البصريين يقول: وَحَد ومعناه الجمع ، كما قيل: طفل في موضع أطفال ، ومما يبين عن صحة ما قلنا في أنه وضع موضع الوقت ، فوحد لذلك ، قول الشاعر:

مِنْ دُونِهِمْ إِنْ جِئْتَهُمْ سَمِرًا عَزَفَ الْفَيَّانِ وَمَجْلِسٌ غَمَرُ
فقال: سمرأ لأن معناه: إِنْ جِئْتَهُمْ ليلاً وهم يَسْمُرُونَ ، وكذلك قوله: سامراً).

قلت: وعندئذ يكون قوله: ﴿ تَهْجُرُونَ ﴾ على وجهين:

الوجه الأول: أن يكون المقصود إعراضهم عن القرآن أو البيت أو رسول الله ﷺ.

قال ابن عباس: (يهجرون ذكر الله والحق). وقال السدي: (السب).

الوجه الثاني: أن يكون المقصود تماديهم بالقول كما يهجر الرجل في منامه وذلك إذا هذى ، فوصفهم بأنهم يقولون في القرآن باطلاً من القول وما لا معنى له ، وقد ورد في اللغة الهَجْرُ بمعنى الهذيان.

فعن سعيد بن جبير: (تَهْجُرُونَ: قال: يَهْجُرُونَ في الباطل). وفي رواية: (قال: يسمرون بالليل يخوضون في الباطل). وقال مجاهد: (بالقول السيئ في القرآن). وقال ابن زيد: (الهذيان الذي يتكلم بما لا يريد ولا يعقل ، كالمريض الذي يتكلم بما لا يدري).

وكلا الوجهين يحتمله البيان الإلهي الكريم ، وهو موافق لقراءة عامة قراء الأمصار ، كما ذكر شيخ المفسرين رحمه الله ، إذ اختار القراءة بفتح التاء وضم الجيم ، قال: (لإجماع الحجة من القراء).

وأما القراءة الثانية بضم التاء وكسر الجيم: ﴿تُهْجِرُونَ﴾ فقرأ بها نافع بن أبي نعيم ، وهي بمعنى: يُفْحِشُونَ في المنطق ويقولون الخنا. قال الرازي: (والهَجْر: ضدُّ الوصل) ، وأهْجَرَ الرجل إذا أفحش في القول. ومنه تفسير ابن عباس: (تُهْجِرُونَ: قال: تقولون هُجْرًا). وقال الحسن: (تُهْجِرُونَ رسولي). وقال قتادة: (يقول: يقولون سوءًا). وقال الضحاك: (يقولون المنكر والخنا من القول ، كذلك هَجَرَ القول).

وخلاصة القول: إن كفار مكة لما طغوا أخذوا يَسْمُرُونَ بالليل يتغنون بكلام فاحش يؤذي الله ورسوله ، ويتمادون بلغو القول وهم يَهْذُونَ ويلعبون ويطربون. والآية السابقة تشبه قوله تعالى في سورة «النجم»: ﴿وَأَنْتُمْ سَمِدُونَ﴾. قال ابن عباس: (هو الغناء بالحميرية، سمد لنا: غنى لنا). وقال مجاهد: (هو الغناء يقول أهل اليمن: سَمَدَ فلان إذا غنى).

68 - 75. قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَذَبُّوا أَلْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾^(٦٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَمْ مُنْكَرُونَ^(٦٩) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَكَثُرُوا^(٧٠) لِلْحَقِّ كَذِبُهُمْ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ^(٧١) أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَجَ رِيكٌ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّزِقِينَ^(٧٢) وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ^(٧٣) وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَيِّمُوكَ^(٧٤) وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ^(٧٥).

في هذه الآيات: ذمُّ الله تعالى منهج الكفار في التعامل مع الحق فهم معرضون ، ولو

اتبع الحق أهواءهم لفسد الكون فإنهم قوم جاهلون مفسدون . فهل تسألهم - يا محمد - أجراً على دعوتك لهم أم أنت محتسب في دعوتك إياهم إلى الصراط المستقيم . إن الذين لا يؤمنون بالآخرة تائهون في ضلالتهم ولو كشفنا عنهم ضرهم لعادوا في طغيانهم يترددون .

فقوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَذَّبَرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ .

إنكار على المشركين سوء تعاملهم مع الوحي الكريم ، وعدم تفهمهم آيات هذا الذكر الحكيم . قال قتادة : (﴿ أَفَلَمْ يَذَّبَرُوا الْقَوْلَ ﴾ : إذن والله يجدون في القرآن زاجراً عن معصية الله لو تدبَّره القوم وعقلوه ، ولكنهم أخذوه بما تشابهه ، فهلكوا عند ذلك) .

وفي قوله : ﴿ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أكثر من تأويل :

التأويل الأول : أم جاءهم أمر ما لم يأت آباءهم الأولين فأذكروهم وأعرضوا عنه . ذكره ابن جرير .

التأويل الثاني : قيل : ﴿ أَمْ ﴾ بمعنى بل . قال القرطبي : (أي بل جاءهم ما لا عهد لآبائهم به ، فلذلك أنكروه وتركوا التدبر به) .

التأويل الثالث : قال ابن عباس : (وقيل : المعنى أم جاءهم أمان من العذاب ، وهو شيء لم يأت آباءهم الأولين فتركوا الأعز) .

قلت : والإعجاز القرآني يحتمل كل ذلك ، ومفاد الآية الإنكار على طغاة مكة وأمثالهم عبر الزمان إعراضهم عن الهدى والحق وهذا القرآن العظيم ، خوفاً على التقاليد والأعراف وموروث الأجداد . قال القاسمي : (﴿ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أي من الهدى والحق ، فاستبدعوه واستبعدوه ، فوقعوا فيما وقعوا فيه من الكفر والضلال . مع أن المجيء بما لم يعهد ، لا يوجب النفرة . لأن المألوف قد يكون باطلاً ، فتقتضي به الحكمة التحذير منه) .

وقوله تعالى : ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَمْ مُنْكَرُوا ﴾ .

توقيف للقوم وتقريع وتقبيح . قال سفيان : (بلى ! قد عرفوه ولكنهم حسدوه) .

قال النسفي : (﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ ﴾ محمداً بالصدق والأمانة ووفور العقل وصحة النسب وحسن الأخلاق !! أي عرفوه بهذه الصفات ﴿ فَهُمْ لَمْ مُنْكَرُوا ﴾ بغياً وحسداً) .

وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَكَثُرَتْ لَهُمُ لِحَاقَاتُ الْحَقِّ كَرِهُونَ﴾.

أي: أم يتهمون رسولهم بالجنون؟! فهو يأتي من الكلام بما لا معنى له!!
كلا ، فالأمر ليس كذلك ، فهم يعلمون حقاً أنه أرجحهم عقلاً وأفضلهم رأياً
وأثقبهم ذهنًا ، وأنه جاءهم بالحق الأبلج والصراط القويم الذي فيه تهديد أهوائهم
الفاسدة ، وشهواتهم الحاكمة ، وأعرافهم الجاهلية البالية . فلما لم يجدوا طريقاً لردِّ
هذا الوحي العظيم الذي يهدد منازلهم الجاهلية ، نسبوه إلى الجنون في محاولة لكسر
شوكته ﷺ .

وقوله: ﴿وَلَوْ أَتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾.

قال مجاهد وابن جريج: (الحق: الله). والمعنى: ولو أجابهم الله عز وجل وأجرى
التدبير على أهواء هؤلاء المشركين لحصل الفساد في السماوات والأرض لفساد
أهوائهم وإراداتهم .

وقوله: ﴿بَلْ أَلَبَّيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ﴾.

في تأويل الآية هنا قولان متكاملان:

القول الأول: الذكر هنا هو القرآن ، أتيناهم به . قال ابن عباس: (أي ببيان الحق
وذكر مالهم به حاجة من أمر الدين) ، فهم عنه معرضون .

القول الثاني: أي: بل أتيناهم بشرفهم ، لأن هذا القرآن كان شرفاً لهم إذ نزل على
رجل منهم وخطبوا به بلغتهم فأعرضوا عنه وكفروا به . قال السدي وسفيان: ﴿بَلْ
أَلَبَّيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ﴾ أي بما فيه شرفهم وعزهم . وقال قتادة: (أي بما لهم فيه ذكر
ثوابهم وعقابهم) .

وقوله: ﴿فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ . أي غافلون مستكبرون .

وقوله: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَيْرًا﴾ . قال الحسن: (أجرًا) . وقال قتادة: (جُعلاً) . وقوله:
﴿فَخَرَجَ مِنْكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّزِقِينَ﴾ . أي فرزق ربك خير فلا يستطيع أحد أن يرزق مثل
رزقه ، أو أن ينعم مثل إنعامه .

قال ابن كثير: (أي: أنت لا تسألهم أجرًا ولا جُعلاً ولا شيئاً على دعوتك إياهم إلى
الهدى ، بل أنت في ذلك تحتسب عند الله جزيل ثوابه ، كما قال: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ
فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [سبأ: 47] ، وقال: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ

الْمُكَفِّينَ ﴿ص: 86﴾ ، وقال: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: 23] ، وقال تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَنْقُورُ آتِيعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ آتِيعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [يس: 20 - 21] .

وقوله تعالى: ﴿وَأِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَبُّونَ﴾ .

أي: وإنما تدعوهم أنت - يا محمد - إلى صراط الله القويم ، الذي فيه النجاة وسعادة الدارين ، وإن الذين يكذبون بالآخرة ويوم الحساب لعادلون عن سواء السبيل وجائرون منجرفون . قال الرازي: («نكب» - فلان - عن الطريق: عدل . وتنگب عنه تنكباً أي مال وعدل) . قال ابن عباس: (﴿عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَبُّونَ﴾ يقول: عن الحق لعادلون) .

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 - قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: 128] .

2 - وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحَاناً مِمَّا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا تَهْدِي بِهِ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ لَا إِلَىٰ إِلَهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى: 52 - 53] .

ومن كنوز صحيح السنة في آفاق هذه الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد في المسند ، وأبوداود في السنن ، بسند صحيح عن أبي تميمه عن رجل من قومه ، أنه أتى رسول الله ﷺ ، أو قال: شهدت رسول الله ﷺ وأتاه رجل فقال: أنت رسول الله أو قال: أنت محمد؟ فقال: نعم . قال: فإلام تدعو؟ قال: [أدعو إلى ربك الذي إن مسك ضر فدعوته كشف عنك ، والذي إن أضللت بأرض كفر فدعوته رد عليك ، والذي إن أصابتك سنة فدعوته أنبت لك] (1) .

الحديث الثاني: أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال: [قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله عز وجل: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ قال: يا معشر قريش اشتروا أنفسكم

(1) حديث صحيح . انظر صحيح سنن أبي داود (3442) ، وكتابي: السيرة النبوية (1/ 148) لتمام الحديث ، ورواه أحمد بلفظ مقارب .

لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً ، ويا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً ، ويا فاطمة بنت محمد سلمي ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئاً⁽¹⁾ .

الحديث الثالث: أخرج الحاكم والترمذي بسند صحيح عن جابر مرفوعاً: [إني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي ، وميكائيل عند رجلي ، يقول أحدهما لصاحبه: اضرب له مثلاً ، فقال: اسمع سمعت أذنك ، واعقل عقل قلبك ، إنما مثلك ومثل أمك كمثل ملك اتخذ داراً ، ثم بنى فيها بيتاً ، ثم جعل فيها مائدة ، ثم بعث رسولاً يدعو الناس إلى طعامه ، فمنهم من أجاب الرسول ، ومنهم من تركه ، فالله هو الملك ، والدار الإسلام ، والبيت الجنة ، وأنت يا محمد رسول ، من أجابك دخل الإسلام ، ومن دخل الإسلام دخل الجنة ، ومن دخل الجنة أكل ما فيها]⁽²⁾ .

وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ رَحَّمْنَهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ .

قال ابن جرير: (يقول تعالى: ولو رحمتنا هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة ، ورفعنا عنهم ما بهم من القحط والجذب ، وضرر الجوع والهزال. ﴿ لَلَجُوا فِي طُغْيَانِهِمْ ﴾ يعني: في عتوهم ، وجراتهم على ربهم. ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ يعني يترددون).

وقال ابن كثير: (يُخبر تعالى عن غلظهم في كفرهم ، بأنه لو أزاح عِلَلَهُمْ وَأَفْهَمَهُمُ الْقُرْآنَ لما انقادوا له ، وَلَاسْتَمَرُّوا على كفرهم وطغيانهم ، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال: 23] ، وقال: ﴿ وَلَوْ تَرَكْنَا إِذْ وَقَعُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْسَ نَارُ وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَكُنَّا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [٧٧] بَلْ بَدَاهُمْ مَّا كَانُوا يَحْفَوْنَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا هُمْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [٧٨] وَقَالُوا إِنَّا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ [الأنعام: 27 - 29] ، فهذا من باب علمه تعالى بما لا يكون ، ولو كان كيف كان يكون. قال الضحاك ، عن ابن عباس: كل ما فيه «لَوْ» فهو مما لا يكون أبداً انتهى .

76 - 83. قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضُرُّهُمْ ﴾

يَضُرُّهُمْ ﴿ ٧٦ ﴾ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْسُوتُونَ ﴿ ٧٧ ﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿ ٧٨ ﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4771) - كتاب التفسير ، وانظر كذلك (4770) منه .

(2) حديث صحيح . أخرجه الحاكم (4/ 393) ، وأصله عند البخاري . وانظر صحيح الجامع (2461) .

تَحْشُرُونَ ﴿٧٥﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتَلَفُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذْنَا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ .

في هذه الآيات : إنزال الله المصائب والشدائد في المشركين ليردّهم ذلك عن الكفر والباطل الذي هم غارقون فيه ، وتذكيرهم بنعم الله عليهم في السمع والأبصار والأفئدة لعلهم يشكرون . وتنبيههم إلى عجائب قدرته تعالى في بث الخلق في الأرض والإحياء والإماتة واختلاف الليل والنهار لعلهم يعقلون . ومقابلة المشركين ذلك بالكبر والغرور واتهام قوارع الحق بأنها من أساطير الأولين .

أخرج ابن جرير والنسائي وابن حبان والحاكم بسند صحيح عن ابن عباس قال : [جاء أبو سفيان إلى النبي ﷺ فقال : يا محمد! أنشدك الله والرحم ، فقد أكلنا العلهز - يعني الوبر والدم - فأنزل الله : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضُرُّعُونَ ﴾] ⁽¹⁾ . ﴿ فَمَا اسْتَكَانُوا ﴾ : أي فما خشعوا . ﴿ وَمَا يَضُرُّعُونَ ﴾ : أي : ما لجؤوا إلى ربهم بالاستغفار والدعاء .

والمقصود : ابتلاهم الله بالمصائب والشدائد عسى أن يردّهم ذلك عمّا هم غارقون فيه من الكفر والضلالة ، فما نفعهم ذلك ، بل تابعوا في غيهم وضلالهم ومخالفتهم .

وفي التنزيل نحو ذلك :

1 - قال تعالى : ﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام : 43] .

2 - وقال تعالى : ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ عَافَاءً ﴾ ﴿ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴾ ﴿ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴾ ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ [نوح : 10 - 13] .

(1) حديث صحيح . أخرجه النسائي في «التفسير» (372) ، وابن حبان (967) ، والطبراني (12038) من طرق ، وصححه الحاكم (394/2) ، وأخرجه ابن جرير (65633) ، والبيهقي في «الدلائل» (81/4) من وجه آخر عن عكرمة عن ابن عباس . وانظر : «الصحيح المسند من أسباب النزول» - الوادعي - سورة المؤمنون - آية (76) .

وفي الأثر عن عمر: (لا أبالي على أي حال أصبحت أو أمسيت. إن كان الغنى، إن فيه للشكر، وإن كان الفقر إن فيه للصبر).

وقال بعض السلف: (نعمته فيما زوى عني من الدنيا أعظم من نعمته فيما بسط لي منها. إني رأيته أعطاهما قوماً فاغتروا).

وقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾.

قال القاسمي: (يعني ما نزل بهم من القتال والقتل يوم بدر، أو باب المجاعة والضرر. ﴿ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ أي حزني نادمون على ما سلف منهم، في تكذيبهم بآيات الله، في حين لا ينفعهم الندم والحزن).

وقوله: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾.

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: والله الذي أحدث لكم أيها المكذبون بالبعث بعد الممات، السمع الذي تسمعون به، والأبصار التي تبصرون بها، والأفئدة التي تفقهون بها، فكيف يتعذر على من أنشأ ذلك ابتداء إعادته بعد عدمه وفقده).

وقوله: ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾. أي: ما أقل شكركم لله على ما تفضل به عليكم من نعمة السمع والبصر والفؤاد والعقل وغيرها من النعم التي لا تعد ولا تحصى.

وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾.

قال النسفي: (خلقكم وبثكم بالناسل ﴿ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ تجمعون يوم القيامة بعد تفرقكم).

وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾.

أي: وأمر الحياة والموت بيده سبحانه، فيحيي النسم بالإنشاء، ويميتها بالإفناء، وتعاقب الليل والنهار بأمره، في الظلمة والنور، والزيادة والنقصان، كل ذلك إليه وحده لا مصرف له سواه، أفبعد ذلك تنكرون قدرته تعالى على البعث للحساب ومقايضة الأعمال وتصريف الثواب والعقاب؟

وقوله تعالى: ﴿ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَوْنَا لَمَبْعُوثُونَ ﴾.

إخبار عن تعاقب السنن في الأمم المتتابعة، فقول الآخرين يشبه قول الأولين، فكما لم يعتبر المشركون الأولون بآيات الله ولم يتدبروا حججه البالغة، كذلك مضى

من بعدهم على العناد والتكذيب . يقولون : أئذا متنا وعدنا تراباً ، قد فنيت أجسامنا ، وبرأت عظامنا من لحومنا ، أننا لمبعوثون من قبورنا أحياء كما كنا؟ إن هذا لشيء عجيب وما هو بكائن!

وقوله تعالى : ﴿لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ .

أي : لقد وعدنا هذا نحن منك ، وآباؤنا من قبل مجيئك - يا محمد - من قوم مثلك زعموا أنهم رسل الله ، فلم نر له حقيقة ، وما هو إلا من أباطيل الأولين وترهاتهم .

84 - 90 . قوله تعالى : ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْقِطُ﴾ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ يَدْعُ مَلَكَوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُخِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ ﴿٩٠﴾ .

في هذه الآيات : قوارعُ من الوحي الكريم ، في إثبات اقتضاء الإيمان بالربوبية الإيمان بتوحيد الألوهية ، فالرب الذي يملك ويجير ويده ملكوت كل شيء هو الإله الحق المستحق للعبادة والتعظيم ، والمشركون هم الكاذبون .

فقوله تعالى : ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٨٥﴾ .

توجيه الله تعالى نبيه محمداً ﷺ للأسلوب الأمثل في مواجهة شرك قومه عن طريق إقرارهم لله تعالى بالربوبية ، لماذا لم يفرده سبحانه بالألوهية؟! ولماذا لم يوحدوه وينزهوه تعالى في أسمائه وصفاته ومحامده؟! .

فهم مُقَرَّونَ أَنَّ الأرض ومن فيها لله فقل لهم - يا محمد - ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ . قال النسفي : (فتعلموا أن من فطر الأرض ومن فيها كان قادراً على إعادة الخلق ، وكان حقيقةً بأن لا يشرك به بعض خلقه في الربوبية) .

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ؟

قال ابن كثير: (أي: من هو خالقُ العالم العلوي بما فيه من الكواكب النيرات ، والملائكة الخاضعين له في سائر الأقطار منها والجهات ، ومن هو ربُّ العرش العظيم؟ يعني الذي هو سَقْفُ المخلوقات. ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ، أي: إذا كنتم تعترفون بأنه رب السماوات ورب العرش العظيم ، أفلا تخافون عقابه وتحذرون عذابه في عبادتكم معه غيره وإشراككم به؟!).

قلت: وقد وصف الله تعالى في هذه الآية عرشه بالعرش العظيم لأنه أعظم المخلوقات ، ونهاية الخلق ، فليس فوقه إلا الله .

قال ابن عباس: (إنما سمِّي عرشاً لارتفاعه).

ووصفه في آية أخرى بالعرش الكريم فقال جل ثناؤه في آخر السورة: ﴿فَتَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: 116].

والكريم: أي الحسن البهي ، فجمع عرش الرحمن بين العظمة في الاتساع والعلو ، والحسن الباهر. والله تعالى قد تعالى فوق العرش وكل ما دونه ، كما قال سبحانه في الآية السابقة: ﴿فَتَعَلَى اللَّهِ﴾. فليس ثم مكان ولا حدود فوق العرش ، فإن ذلك كله ينقطع عنده ، وما فوقه إلا الله جلت عظمته.

وقد جاءت السنة الصحيحة بأفاق ذلك في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج ابن أبي شيبة بسند صحيح عن أبي ذر الغفاري قال: قال رسول الله ﷺ: [ما السماوات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة] (1).

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم في الصحيح من حديث أبي ذر - أيضاً - أن النبي ﷺ قال يوماً: أتدرون أين تذهب هذه الشمس؟ قالوا: الله ورسوله أعلم ، قال:

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن أبي شيبة في «كتاب العرش» (114/1) ، والبيهقي في «الأسماء والصفات» ص (290) ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (109).

[إن هذه تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش ، فتخر ساجدة ، فلا تزال كذلك حتى يقال لها : ارتفعي . .] الحديث⁽¹⁾.

الحديث الثالث: أخرج ابن خزيمة بسند صحيح عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: [الكرسي موضع القدمين ، والعرش لا يقدر أحد قدره]⁽²⁾.

قلت: فالكرسي تحت عرش الرحمن وهو موضع قدمي الباري عز وجل ، فبارك الله أحسن الخالقين .

وقوله: ﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ . قال مجاهد: (خزائن كل شيء). فهو سبحانه الملك المتصرف بشؤون خلقه جميعاً لا راد لأمره .

قال تعالى: ﴿ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ﴾ [هود: 56].

ومن صحيح السنة العطرة في آفاق ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري في صحيحه عن ابن عمر قال: [كَانَتْ يَمِينُ النَّبِيِّ ﷺ: لا ، ومُقَلَّبُ الْقُلُوبِ]⁽³⁾.

وفي لفظ: [كثيراً ما كان النبي يَخْلِفُ: لا ، ومُقَلَّبُ الْقُلُوبِ].

الحديث الثاني: خرَّج مسلم في الصحيح عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما يقول: إنه سمع رسول الله ﷺ يقول: [إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ أَصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ . ثم قال رسول الله ﷺ: اللهم مصرف القلوب! صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ]⁽⁴⁾.

الحديث الثالث: أخرج أحمد في المسند ، ومسلم في الصحيح عن أبي هريرة مرفوعاً: [والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم]⁽⁵⁾.

- (1) حديث صحيح . أخرجه مسلم (96/1) . وانظر مختصر صحيح مسلم (2138).
- (2) صحيح موقوف رجاله كلهم ثقات . أخرجه ابن خزيمة في «التوحيد» ، وعبد الله بن أحمد في «السنة» . انظر مختصر العلو (45/ص 102) - تحقيق الألباني .
- (3) حديث صحيح . أخرجه البخاري (6628) - كتاب الأيمان والنذور ، وكذلك (6617) - في القدر .
- (4) حديث صحيح . أخرجه مسلم (8/51) ، كتاب القدر ، باب تصريف الله القلوب كيف شاء .
- (5) حديث صحيح . أخرجه مسلم (8/94) ، وأحمد (2/308) ، وله روايات كثيرة . وانظر للشاهد مسند أحمد (3/238) ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (1951) .

وله شاهد في المسند من حديث أنس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [والذي نفسي بيده - أو قال: والذي نفس محمد بيده - لو أخطأتم حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض ، ثم استغفرتم الله عز وجل ، لغفر لكم ، والذي نفس محمد بيده - أو قال: والذي نفسي بيده - لو لم تخطئوا لجاء الله عز وجل بقوم يخطئون ثم يستغفرون الله فيغفر لهم].

وقوله: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

أي: وهو السيد العظيم الذي يحتاج إليه جميع خلقه ، فَيَمْنَعُ من يشاء ولا يُمنع منه ، وَيُؤَمِّنُ مَنْ يشاء ، ولا يُؤَمِّنُ مَنْ أخافه ، إن كنتم - أيها الجاحدون - تعلمون.

أخرج أبو داود وأحمد بسند صحيح عن أبي جري جابر بن سليم قال: [رأيت رجلاً يصدر الناس عن رأيه ، لا يقول شيئاً إلا صدروا عنه ، قلت: من هذا؟ قالوا: هذا رسول الله ﷺ ، قلت: عليك السلام يا رسول الله ، مرتين ، قال: لا تقل عليك السلام ، فإن عليك السلام تحية الميت ، قل: السلام عليك. قال: قلت: أنت رسول الله ﷺ؟ قال: أنا رسول الله الذي إذا أصابك ضررٌ فدعوته كشفه عنك ، وإن أصابك عامٌ سنة فدعوته أُنْبِئَهَا لك ، وإن كنت بأرض قفراء أو فلاة فَضَلَّتْ راحلتك فدعوته رَدَّهَا عليك⁽¹⁾ . .

وقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾. قال ابن عباس: (يقول: تكذبون). أي: سيعترفون أن السيد العظيم الذي تتجه الخلائق إليه بحاجاتها فيجبر من يشاء ، ولا يجار عليه ، هو الله الواحد الأحد لا شريك له.

فقل لهم يا محمد: فكيف تُصرف عقولكم وتشركون في عبادته. قال القرطبي: (أي فكيف تخدعون وتصرفون عن طاعته وتوحيده. أو كيف يُخَيَّلُ إليكم أن تشركوا به ما لا يضر ولا ينفع! والسحر هو التخيل. وكل هذا احتجاج على العرب المقرين بالصانع).

وقوله تعالى: ﴿بَلْ أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

قال ابن كثير: ﴿بَلْ أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ ، وهو الإعلام بأنه لا إله إلا الله ، وأقمنا الأدلة الصحيحة الواضحة القاطعة على ذلك ، ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي: في عبادتهم مع الله

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (4084) - كتاب اللباس. وانظر صحيح سنن أبي داود (3442).

غيره ، ولا دليل لهم على ذلك ، كما قال في آخر السورة: ﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِ إِسْمُهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ ، فالمشركون لا يفعلون ذلك عن دليل قادمهم إلى ما هم فيه من الإفك والضلال ، وإنما يفعلون ذلك اتباعاً لأبائهم وأسلافهم الحيارى الجهال ، كما قال الله عنهم: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: 23] .

91 - 92. قوله تعالى: ﴿ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَتْ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ ﴿٩١﴾ عَلَيْهِمُ الْغُيُبُ وَالْشَّهَادَةُ فَتَعَلَّىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ﴿٩٢﴾ .

في هذه الآيات: نفي الولد والشريك عن الله تعالى ، وأنه لو قُدر تعدد الآلهة لم ينتظم الوجود ، إذ يحاول كل واحد نُظْمَ خلقه وضبط ملكه ، ولا بد من أن يقهر أحدهما الآخر ، وسيظهر أثر ذلك في الكون. ولما كان هذا الوجود متسقاً منتظماً في عالميه العلوي والسفلي دلّ ذلك على وحدانية الصانع وأنه الإله الحق الأحد الصمد عالم الغيب والشهادة لا شريك له .

ففي التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: 22] .

2 - وقال تعالى: ﴿ مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ فَإِذْ جَآءَ الْبَصَرُ هَلْ تَرَىٰ مِن فُتُورٍ ﴾ [الملك: 3] .

3 - وقال تعالى: ﴿ عَلَيْهِمُ الْغُيُبُ وَالْشَّهَادَةُ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴾ [الرعد: 9] .

أي: يعلم سبحانه ما يغيب عن مخلوقاته وما يشاهدونه ﴿ فَتَعَلَّىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾: أي تقدس وتنزه سبحانه عما يشرك به الكافرون .

93 - 98. قوله تعالى: ﴿ قُلْ رَبِّ إِنَّمَا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ ﴾ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ تُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَدِيرُونَ ﴾ ﴿٩٥﴾ أَدْفَعْ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ

السَّيِّئَةُ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ .

في هذه الآيات: تعليمُ الله تعالى نبيه ﷺ أن يدعو بنجاته مما هو نازل بالقوم المشركين . وإخباره أن الله تعالى لو شاء لأراه الخزي والنقمة بالمعاندين . وأمره تعالى له بالدفع بالتي هي أحسن والاستعاذة به - جلّت عظمته - من همزات الشياطين أو أن يحضرون .

فقوله تعالى: ﴿ قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ ﴾ ﴿٩٦﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ .

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد: رب إن تُرِيدُنِي في هؤلاء المشركين ما تعدهم من عذابك فلا تهلكني بما تهلكهم به ، ونجني من عذابك وسخطك ، فلا تجعلني في القوم المشركين ولكن اجعلني ممن رضيت عنه من أوليائك).

وقوله: ﴿ فَلَا تَجْعَلْنِي ﴾ جواب لقوله: ﴿ إِمَّا تُرِيدُنِي ﴾ - اعترض بينهما بالنداء .

والخلاصة: هذا دعاء عظيم يحتاج المسلم أن يدعو به ربه تعالى عند حلول النقم ، كي يجنّبه سبحانه الفتن ، ومصارع السوء والإحن .

وفي السنة العطرة من آفاق ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري في «الأدب المفرد» والترمذي وأحمد ، بسند صحيح لشواهده ، عن العباس بن عبد المطلب قال: [قلت يا رسول الله علمني شيئاً أسأله الله عز وجل . قال: سل الله العافية . فمكثت أياماً ، ثم جئت فقلت: يا رسول الله علمني شيئاً أسأله الله . فقال لي: يا عباس يا عم رسول الله! أسألو الله العافية في الدنيا والآخرة⁽¹⁾].

الحديث الثاني: أخرج الطبراني والحاكم بسند حسن عن ابن عباس ، أن النبي ﷺ قال لعمه العباس: [يا عم! أكثر الدعاء بالعافية]⁽²⁾.

الحديث الثالث: أخرج أحمد والترمذي بسند صحيح عن معاذ بن رفاعة قال: قام

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (726) ، والترمذي (266/2) ، وأحمد (209/1) . وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1523) .

(2) حديث حسن . أخرجه الطبراني (11908) ، والحاكم (529/1) ، وانظر المرجع السابق .

أبو بكر الصديق على المنبر ، ثم بكى ، فقال : قام رسول الله ﷺ عام الأول على المنبر ، ثم بكى فقال : [سلوا الله العفو والعافية ، فإن أحداً لم يُعْطَ بعدَ اليقين خيراً من العافية]⁽¹⁾.

الحديث الرابع : أخرج الترمذي بسند صحيح عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : [أتاني الليلة ربي تبارك وتعالى في أحسن صورة - قال : أحسبُه قال : في المنام - فقال : يا محمد هل تدري فيم يختصم الملائكة الأعلى؟ قال : قلت : لا ، قال : فوضع يدهُ بين كتفَيَّ حتى وَجَدْتُ بردها بين ثديي - أو قال : في نحري - فعلمت ما في السماوات وما في الأرض . قال : يا محمد هل تدري فيم يختصم الملائكة الأعلى؟ قلت : نعم في الكفارات ، والكفارات : المكث في المسجد بعد الصلاة ، والمشي على الأقدام إلى الجماعات ، وإسباغ الوضوء في المكاره ، ومن فعل ذلك عاش بخير ، ومات بخير ، وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه ، وقال : يا محمد إذا صليت فقل : اللهم إني أسألك فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وحب المساكين ، وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون]⁽²⁾.

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُرِيكَ مَا نَعْدُهُمْ لَقَدِيرُونَ ﴾ .

أي : لو شئنا - يا محمد - لأريناك ما سينزل بهم من العذاب والفتن نتيجة عنادهم وإصرارهم على شركهم . قال القرطبي : (تَبَّه على أن خلاف المعلوم مقدور ، وقد أراه الله تعالى ذلك فيهم بالجوع والسيوف ، ونجّاه الله ومن آمن به من ذلك) .

وقوله تعالى : ﴿ أَدْفَعْ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَكْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ .

أمر من الله تعالى بالعفو والصفح ومكارم الأخلاق ، فهو الترياق النافع في معاملة الناس ، وينعكس خيره على العبد بالشيء الكثير .

قال الحسن : ﴿ أَدْفَعْ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ ﴾ قال : والله لا يصيبها صاحبها حتى يكظم غيظاً ، ويصفح عما يكره) .

قلت : وهذا الدافع بالإحسان نافع مع المسلمين عامة ، ومع الكفار زمن الدعوة

(1) حديث حسن صحيح . أخرجه الترمذي في السنن (3811) من حديث معاذ بن رفاعه . وكذلك ابن ماجه (3849) . انظر صحيح الترمذي (2821) ، ورواه أحمد .

(2) حديث صحيح . أخرجه الترمذي في السنن - حديث رقم - (3463) - أبواب تفسير القرآن ، سورة (ص) . وانظر صحيح سنن الترمذي - حديث رقم - (2580) .

والغربة ، فإذا وجب الجهاد وقتال المشركين وجب التنكيل بهم والغلظة عليهم .

وفي التنزيل نحو ذلك :

1 - قال تعالى ﴿ أَدْفَعِ بِلَاَتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت : 34] .

2 - وقال تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف : 119] .

3 - وقال تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : 125] .

ومن كنوز السنة العطرة في آفاق هذه الآية أحاديث :

الحديث الأول: أخرج أبو يعلى بسند حسن في الشواهد عن أنس قال: [لقي رسول الله ﷺ أبا ذر فقال: يا أبا ذر! ألا أدلك على خصلتين هما أخف على الظهر، وأثقل في الميزان من غيرهما؟ قال: بلى يا رسول الله قال: عليك بِحُسْنِ الْخُلُقِ، وطول الصُّمْتِ، فو الذي نفسي بيده ما عمل الخلائق بمثلهما]⁽¹⁾.

وفي رواية: (ما تَجَمَّلَ الخلائق بمثلهما).

الحديث الثاني: أخرج البخاري في «خلق أفعال العباد» والحاكم في المستدرک بسند صحيح عن يزيد بن المقدام بن شريح بن هاني عن المقدام عن أبيه عن هاني: [أنه لما وفد على رسول الله ﷺ قال: يا رسول الله أي شيء يوجب الجنة؟ قال: عليك بِحُسْنِ الْكَلَامِ، وبَذَلِ الطَّعَامِ]⁽²⁾.

الحديث الثالث: أخرج أبو داود وأحمد بسند صحيح عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: [أثقل شيء في الميزان الخلق الحسن]⁽³⁾.

وله شاهد عند الترمذي وزاد فيه: [وإن صاحب حسن الخلق ليلعب به درجة صاحب الصوم والصلاة].

(1) حسن لشواهد. أخرجه أبو يعلى في مسنده (834/2) من حديث أنس بن مالك ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1938).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في «خلق أفعال العباد» (ص79) ، والحاكم (23/1) ، وابن حبان في صحيحه (1937 - 1938).

(3) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (289/2) ، وأحمد (446/6) ، والترمذي (146/3).

وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ۖ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ ٩٨.

أمر من الله سبحانه لنبيه ﷺ بالاستعاذة من شياطين الجن ، لأنهم لا يقبلون رشوة ولا ينفع معهم جميل ، بعكس شياطين الإنس فإنه يمكن شراؤهم بحسن الخلق وطيب المعاملة ، وهذا منهج قوي يحتاجه المسلمون في حياتهم .

قال ابن زيد: (همزات الشياطين: خَنَفُهُمُ الناس ، فذلك همزاتهم . ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ ٩٨ في شيء من أمري).

والهمزات: جمع همزة ، والهمزُ هو الغَمَزُ . قال الرازي: (وهمزات الشياطين خَطَرَاتُهَا التي يُخْطِرُهَا بقلب الإنسان). وكذلك الهمز: هو التَّخَسُّسُ والدفع . والمقصود: الاستعاذة بالله من نزعات الشياطين الشاغلة عن ذكر الله تعالى ، ومن محاولات اقترابه من العبد بمسّ وإيذاء أو سحر .

وفي التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ٩٩ [فصلت: 36].

2 - وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ الَّذِينَ أَتَقُوا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 201].

3 - وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: 98].

ومن كنوز السنة في آفاق ذلك أحاديث:

الحديث الأول: يروي الديلمي بسند صحيح عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال: [لا تسبوا الشيطان ، وتعوذوا بالله من شره] (1).

الحديث الثاني: خرّج مسلم عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: [لا تأكلوا بالشمال ، فإن الشيطان يأكل بالشمال] (2).

وله شاهد عنده من حديث ابن عمر ، أن رسول الله ﷺ قال: [لا يأكلن أحدكم بشماله ولا يشربن بها ، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بها].

(1) حديث صحيح . رواه الديلمي (4/ 148) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (2422) .

(2) حديث صحيح . رواه مسلم (2019) . وانظر للشاهد (2020) (106) ، وأخرجه مالك (2/ 922) .

الحديث الثالث: خرّج مسلم في الصحيح عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: [لو أنّ أحدَهُم ، إذا أراد أن يأتي أهله ، قال: باسم الله ، اللهمّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ ، وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ ما رَزَقْتَنَا ، فإنه ، إنْ يُقَدَّرَ بَيْنَهُمَا ولدٌ في ذلك ، لم يَضُرَّهُ شيطانٌ أبداً⁽¹⁾].

الحديث الرابع: أخرج أبو داود بسند صحيح عن أبي اليسر: أن رسول الله ﷺ كان يدعو: [اللهم إني أعوذ بك من الهمد ، وأعوذ بك من التردّي ، وأعوذ بك من الغرق ، والحرق ، والهرم ، وأعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت ، وأعوذ بك: أن أموت في سبيلك مدبراً ، وأعوذ بك أن أموت لديغاً⁽²⁾].

99 - 100. قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۚ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۚ ﴾

في هذه الآيات: إخبارٌ من الله جَلَّتْ عَظَمَتُهُ عن حال المحتضر من الكفار وقد أوشك على الرحيل من هذه الدنيا وبلغت الروح الحلقوم ، وعاین نزول أمر الله به ، فقال - لعظيم ما يعاین مما هو مُقَدَّم عليه من العذاب - تندمأ على ما فات ﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴾ كي أعمل صالحاً فيما تركت قبل اليوم من العمل وضيعت من العمر ، ولكنه لا يجاب إلى ذلك ويمكث في عذاب القبر في البرزخ إلى يوم البعث والحساب .
فقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴾ .

قال ابن زيد: ﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴾: هذه في الحياة الدنيا ، ألا تراه يقول: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ ﴾ قال: حين تنقطع الدنيا ، ويعاین الآخرة ، قبل أن يذوق الموت).
وقوله: ﴿ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ .

قال ابن عباس: ﴿ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا ﴾: يريد شهادة أن لا إله إلا الله).

قال القرطبي: ﴿ فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ أي فيما ضيعت وتركت العمل به من الطاعات . وقيل: ﴿ فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ من المال فأتصدق . و﴿ لعل ﴾ تتضمنُ تردداً ، وهذا الذي يسأل الرجعة قد

(1) حديث صحيح . رواه مسلم (1434) - كتاب النكاح . باب ما يستحب أن يقوله عند الجماع .

(2) حديث صحيح . أخرجه أبو داود (1552) - كتاب الصلاة . وانظر صحيح أبي داود (1373) .

استيقن العذاب ، وهو يوطن نفسه على العمل الصالح قطعاً من غير تردد. فالتردد إما يرجع إلى رده إلى الدنيا ، وإما إلى التوفيق ، أي أعمل صالحاً إن وفقني ، إذ ليس على قطع من وجود القدرة والتوفيق لو رُدَّ إلى الدنيا).

وقوله : ﴿ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ﴾ .

كلا : حرف رَدْعٍ وَزَجْرٍ ، فهي كلمة رَدْ ، والمقصود بالآية أحد تأويلين :

التأويل الأول : أي ليس الأمر على ما يظنه من أنه يجاب إلى الرجوع إلى الدنيا .

التأويل الثاني : قيل : بل لو أجيب إلى ما يطلب لما وفى بما يقول ، بل غلبه كفره مرة أخرى .

قلت : وكلا التأويلين محتمل يدل عليه السياق .

فدليل التأويل الأول : قوله تعالى : ﴿ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْتُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [١١] وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [١٢] [المنافقون : 10 - 11] .

ودليل التأويل الثاني : قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَعُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْلَتُنَا نَرُدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بَيَّاتٍ رَبَّنَا وَكُنَّا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [٢٧] بَلْ بَدَأْتُمْ مَا كَانُوا يَحْفَقُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [٢٨] [الأنعام : 27 - 28] .

وقوله : ﴿ وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ .

كل حاجز بين شيئين فهو برزخ ، قال الجوهرى : (البرزخ الحاجز بين الشيئين) .

والمقصود هنا بالبرزخ الحياة ما بين الدنيا والآخرة ، من وقت خروج الروح إلى وقت البعث للحساب .

قال مجاهد وابن زيد : (الْبَرْزَخُ ما بين الموت إلى البعث) . وقال الضحاك : (ما بين الدنيا والآخرة) .

ومن كنوز صرح السنة المطهرة في آفاق ذلك أحاديث :

الحديث الأول : أخرج الترمذي بسند جيد من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : [إِذَا قُبِرَ الْمَيِّتُ ، أَوْ قَالَ أَحَدُكُمْ ، أَتَاهُ مَلَكَانِ ، أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ ، يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا : الْمُنْكَرُ ، وَالْآخَرُ : النَكِيرُ ، فيقولان : ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول : ما كان يقول : هو عبدُ الله ورسولُهُ ، أشهدُ أن لا إلهَ إلا الله ، وأنَّ محمداً عبدهُ ورسولهُ ،

فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول هذا ، ثم يُفسَّخ له في قبره سبعون ذراعاً في سبعين ، ثم يُتَوَّر له فيه ، ثم يُقال له نَمَ ، فيقول: أرجع إلى أهلي فأخبرهم؟ فيقولان: نَمَ كَنُومَةَ العروس الذي لا يوقِظُهُ إلا أَحَبُّ أهله إليه ، حتى يبعثه الله من مَضْجَعِهِ ذلك . وإن كان منافقاً قال: سمعت الناس يقولون ، فقلت: مثله ، لا أدري ، فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول ذلك ، فيقال للأرض التثمي عليه ، فتلتئم عليه ، فتختلف أضلاعُه ، فلا يزال فيها معذباً حتى يَبْعَثَهُ اللهُ من مَضْجَعِهِ ذلك⁽¹⁾ .

الحديث الثاني: أخرج الطبراني بسند حسن عن عبد الله بن مسعود ، عن النبي ﷺ قال: [إِنَّ الموتى ليعذبون في قبورهم ، حتى إِنَّ البهائم لتسمعُ أصواتهم]⁽²⁾ . وله شاهد عند الإمام أحمد من حديث عائشة مرفوعاً: [عذاب القبر حق] .

الحديث الثالث: أخرج ابن حبان من حديث أم بشر رضي الله عنها قالت: [دخل عليَّ رسول الله ﷺ وأنا في حائط من حوائط بني النجار ، فيه قبور منهم قد ماتوا في الجاهلية ، فسمعهم وهم يعذبون ، فخرج وهو يقول: استعيذوا بالله من عذاب القبر ، قالت: قلتُ: يا رسول الله! وإنهم ليعذبون في قبورهم؟ قال: نعم عذاباً تسمعه البهائم]⁽³⁾ .

101 - 104 . قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ ^(١٠١) ^(١٠٢) ^(١٠٣) ^(١٠٤) ^(١٠٥) ^(١٠٦) ^(١٠٧) ^(١٠٨) ^(١٠٩) ^(١١٠) ^(١١١) ^(١١٢) ^(١١٣) ^(١١٤) ^(١١٥) ^(١١٦) ^(١١٧) ^(١١٨) ^(١١٩) ^(١٢٠) ^(١٢١) ^(١٢٢) ^(١٢٣) ^(١٢٤) ^(١٢٥) ^(١٢٦) ^(١٢٧) ^(١٢٨) ^(١٢٩) ^(١٣٠) ^(١٣١) ^(١٣٢) ^(١٣٣) ^(١٣٤) ^(١٣٥) ^(١٣٦) ^(١٣٧) ^(١٣٨) ^(١٣٩) ^(١٤٠) ^(١٤١) ^(١٤٢) ^(١٤٣) ^(١٤٤) ^(١٤٥) ^(١٤٦) ^(١٤٧) ^(١٤٨) ^(١٤٩) ^(١٥٠) ^(١٥١) ^(١٥٢) ^(١٥٣) ^(١٥٤) ^(١٥٥) ^(١٥٦) ^(١٥٧) ^(١٥٨) ^(١٥٩) ^(١٦٠) ^(١٦١) ^(١٦٢) ^(١٦٣) ^(١٦٤) ^(١٦٥) ^(١٦٦) ^(١٦٧) ^(١٦٨) ^(١٦٩) ^(١٧٠) ^(١٧١) ^(١٧٢) ^(١٧٣) ^(١٧٤) ^(١٧٥) ^(١٧٦) ^(١٧٧) ^(١٧٨) ^(١٧٩) ^(١٨٠) ^(١٨١) ^(١٨٢) ^(١٨٣) ^(١٨٤) ^(١٨٥) ^(١٨٦) ^(١٨٧) ^(١٨٨) ^(١٨٩) ^(١٩٠) ^(١٩١) ^(١٩٢) ^(١٩٣) ^(١٩٤) ^(١٩٥) ^(١٩٦) ^(١٩٧) ^(١٩٨) ^(١٩٩) ^(٢٠٠) ^(٢٠١) ^(٢٠٢) ^(٢٠٣) ^(٢٠٤) ^(٢٠٥) ^(٢٠٦) ^(٢٠٧) ^(٢٠٨) ^(٢٠٩) ^(٢١٠) ^(٢١١) ^(٢١٢) ^(٢١٣) ^(٢١٤) ^(٢١٥) ^(٢١٦) ^(٢١٧) ^(٢١٨) ^(٢١٩) ^(٢٢٠) ^(٢٢١) ^(٢٢٢) ^(٢٢٣) ^(٢٢٤) ^(٢٢٥) ^(٢٢٦) ^(٢٢٧) ^(٢٢٨) ^(٢٢٩) ^(٢٣٠) ^(٢٣١) ^(٢٣٢) ^(٢٣٣) ^(٢٣٤) ^(٢٣٥) ^(٢٣٦) ^(٢٣٧) ^(٢٣٨) ^(٢٣٩) ^(٢٤٠) ^(٢٤١) ^(٢٤٢) ^(٢٤٣) ^(٢٤٤) ^(٢٤٥) ^(٢٤٦) ^(٢٤٧) ^(٢٤٨) ^(٢٤٩) ^(٢٥٠) ^(٢٥١) ^(٢٥٢) ^(٢٥٣) ^(٢٥٤) ^(٢٥٥) ^(٢٥٦) ^(٢٥٧) ^(٢٥٨) ^(٢٥٩) ^(٢٦٠) ^(٢٦١) ^(٢٦٢) ^(٢٦٣) ^(٢٦٤) ^(٢٦٥) ^(٢٦٦) ^(٢٦٧) ^(٢٦٨) ^(٢٦٩) ^(٢٧٠) ^(٢٧١) ^(٢٧٢) ^(٢٧٣) ^(٢٧٤) ^(٢٧٥) ^(٢٧٦) ^(٢٧٧) ^(٢٧٨) ^(٢٧٩) ^(٢٨٠) ^(٢٨١) ^(٢٨٢) ^(٢٨٣) ^(٢٨٤) ^(٢٨٥) ^(٢٨٦) ^(٢٨٧) ^(٢٨٨) ^(٢٨٩) ^(٢٩٠) ^(٢٩١) ^(٢٩٢) ^(٢٩٣) ^(٢٩٤) ^(٢٩٥) ^(٢٩٦) ^(٢٩٧) ^(٢٩٨) ^(٢٩٩) ^(٣٠٠) ^(٣٠١) ^(٣٠٢) ^(٣٠٣) ^(٣٠٤) ^(٣٠٥) ^(٣٠٦) ^(٣٠٧) ^(٣٠٨) ^(٣٠٩) ^(٣١٠) ^(٣١١) ^(٣١٢) ^(٣١٣) ^(٣١٤) ^(٣١٥) ^(٣١٦) ^(٣١٧) ^(٣١٨) ^(٣١٩) ^(٣٢٠) ^(٣٢١) ^(٣٢٢) ^(٣٢٣) ^(٣٢٤) ^(٣٢٥) ^(٣٢٦) ^(٣٢٧) ^(٣٢٨) ^(٣٢٩) ^(٣٣٠) ^(٣٣١) ^(٣٣٢) ^(٣٣٣) ^(٣٣٤) ^(٣٣٥) ^(٣٣٦) ^(٣٣٧) ^(٣٣٨) ^(٣٣٩) ^(٣٤٠) ^(٣٤١) ^(٣٤٢) ^(٣٤٣) ^(٣٤٤) ^(٣٤٥) ^(٣٤٦) ^(٣٤٧) ^(٣٤٨) ^(٣٤٩) ^(٣٥٠) ^(٣٥١) ^(٣٥٢) ^(٣٥٣) ^(٣٥٤) ^(٣٥٥) ^(٣٥٦) ^(٣٥٧) ^(٣٥٨) ^(٣٥٩) ^(٣٦٠) ^(٣٦١) ^(٣٦٢) ^(٣٦٣) ^(٣٦٤) ^(٣٦٥) ^(٣٦٦) ^(٣٦٧) ^(٣٦٨) ^(٣٦٩) ^(٣٧٠) ^(٣٧١) ^(٣٧٢) ^(٣٧٣) ^(٣٧٤) ^(٣٧٥) ^(٣٧٦) ^(٣٧٧) ^(٣٧٨) ^(٣٧٩) ^(٣٨٠) ^(٣٨١) ^(٣٨٢) ^(٣٨٣) ^(٣٨٤) ^(٣٨٥) ^(٣٨٦) ^(٣٨٧) ^(٣٨٨) ^(٣٨٩) ^(٣٩٠) ^(٣٩١) ^(٣٩٢) ^(٣٩٣) ^(٣٩٤) ^(٣٩٥) ^(٣٩٦) ^(٣٩٧) ^(٣٩٨) ^(٣٩٩) ^(٤٠٠) ^(٤٠١) ^(٤٠٢) ^(٤٠٣) ^(٤٠٤) ^(٤٠٥) ^(٤٠٦) ^(٤٠٧) ^(٤٠٨) ^(٤٠٩) ^(٤١٠) ^(٤١١) ^(٤١٢) ^(٤١٣) ^(٤١٤) ^(٤١٥) ^(٤١٦) ^(٤١٧) ^(٤١٨) ^(٤١٩) ^(٤٢٠) ^(٤٢١) ^(٤٢٢) ^(٤٢٣) ^(٤٢٤) ^(٤٢٥) ^(٤٢٦) ^(٤٢٧) ^(٤٢٨) ^(٤٢٩) ^(٤٣٠) ^(٤٣١) ^(٤٣٢) ^(٤٣٣) ^(٤٣٤) ^(٤٣٥) ^(٤٣٦) ^(٤٣٧) ^(٤٣٨) ^(٤٣٩) ^(٤٤٠) ^(٤٤١) ^(٤٤٢) ^(٤٤٣) ^(٤٤٤) ^(٤٤٥) ^(٤٤٦) ^(٤٤٧) ^(٤٤٨) ^(٤٤٩) ^(٤٥٠) ^(٤٥١) ^(٤٥٢) ^(٤٥٣) ^(٤٥٤) ^(٤٥٥) ^(٤٥٦) ^(٤٥٧) ^(٤٥٨) ^(٤٥٩) ^(٤٦٠) ^(٤٦١) ^(٤٦٢) ^(٤٦٣) ^(٤٦٤) ^(٤٦٥) ^(٤٦٦) ^(٤٦٧) ^(٤٦٨) ^(٤٦٩) ^(٤٧٠) ^(٤٧١) ^(٤٧٢) ^(٤٧٣) ^(٤٧٤) ^(٤٧٥) ^(٤٧٦) ^(٤٧٧) ^(٤٧٨) ^(٤٧٩) ^(٤٨٠) ^(٤٨١) ^(٤٨٢) ^(٤٨٣) ^(٤٨٤) ^(٤٨٥) ^(٤٨٦) ^(٤٨٧) ^(٤٨٨) ^(٤٨٩) ^(٤٩٠) ^(٤٩١) ^(٤٩٢) ^(٤٩٣) ^(٤٩٤) ^(٤٩٥) ^(٤٩٦) ^(٤٩٧) ^(٤٩٨) ^(٤٩٩) ^(٥٠٠) ^(٥٠١) ^(٥٠٢) ^(٥٠٣) ^(٥٠٤) ^(٥٠٥) ^(٥٠٦) ^(٥٠٧) ^(٥٠٨) ^(٥٠٩) ^(٥١٠) ^(٥١١) ^(٥١٢) ^(٥١٣) ^(٥١٤) ^(٥١٥) ^(٥١٦) ^(٥١٧) ^(٥١٨) ^(٥١٩) ^(٥٢٠) ^(٥٢١) ^(٥٢٢) ^(٥٢٣) ^(٥٢٤) ^(٥٢٥) ^(٥٢٦) ^(٥٢٧) ^(٥٢٨) ^(٥٢٩) ^(٥٣٠) ^(٥٣١) ^(٥٣٢) ^(٥٣٣) ^(٥٣٤) ^(٥٣٥) ^(٥٣٦) ^(٥٣٧) ^(٥٣٨) ^(٥٣٩) ^(٥٤٠) ^(٥٤١) ^(٥٤٢) ^(٥٤٣) ^(٥٤٤) ^(٥٤٥) ^(٥٤٦) ^(٥٤٧) ^(٥٤٨) ^(٥٤٩) ^(٥٥٠) ^(٥٥١) ^(٥٥٢) ^(٥٥٣) ^(٥٥٤) ^(٥٥٥) ^(٥٥٦) ^(٥٥٧) ^(٥٥٨) ^(٥٥٩) ^(٥٦٠) ^(٥٦١) ^(٥٦٢) ^(٥٦٣) ^(٥٦٤) ^(٥٦٥) ^(٥٦٦) ^(٥٦٧) ^(٥٦٨) ^(٥٦٩) ^(٥٧٠) ^(٥٧١) ^(٥٧٢) ^(٥٧٣) ^(٥٧٤) ^(٥٧٥) ^(٥٧٦) ^(٥٧٧) ^(٥٧٨) ^(٥٧٩) ^(٥٨٠) ^(٥٨١) ^(٥٨٢) ^(٥٨٣) ^(٥٨٤) ^(٥٨٥) ^(٥٨٦) ^(٥٨٧) ^(٥٨٨) ^(٥٨٩) ^(٥٩٠) ^(٥٩١) ^(٥٩٢) ^(٥٩٣) ^(٥٩٤) ^(٥٩٥) ^(٥٩٦) ^(٥٩٧) ^(٥٩٨) ^(٥٩٩) ^(٦٠٠) ^(٦٠١) ^(٦٠٢) ^(٦٠٣) ^(٦٠٤) ^(٦٠٥) ^(٦٠٦) ^(٦٠٧) ^(٦٠٨) ^(٦٠٩) ^(٦١٠) ^(٦١١) ^(٦١٢) ^(٦١٣) ^(٦١٤) ^(٦١٥) ^(٦١٦) ^(٦١٧) ^(٦١٨) ^(٦١٩) ^(٦٢٠) ^(٦٢١) ^(٦٢٢) ^(٦٢٣) ^(٦٢٤) ^(٦٢٥) ^(٦٢٦) ^(٦٢٧) ^(٦٢٨) ^(٦٢٩) ^(٦٣٠) ^(٦٣١) ^(٦٣٢) ^(٦٣٣) ^(٦٣٤) ^(٦٣٥) ^(٦٣٦) ^(٦٣٧) ^(٦٣٨) ^(٦٣٩) ^(٦٤٠) ^(٦٤١) ^(٦٤٢) ^(٦٤٣) ^(٦٤٤) ^(٦٤٥) ^(٦٤٦) ^(٦٤٧) ^(٦٤٨) ^(٦٤٩) ^(٦٥٠) ^(٦٥١) ^(٦٥٢) ^(٦٥٣) ^(٦٥٤) ^(٦٥٥) ^(٦٥٦) ^(٦٥٧) ^(٦٥٨) ^(٦٥٩) ^(٦٦٠) ^(٦٦١) ^(٦٦٢) ^(٦٦٣) ^(٦٦٤) ^(٦٦٥) ^(٦٦٦) ^(٦٦٧) ^(٦٦٨) ^(٦٦٩) ^(٦٧٠) ^(٦٧١) ^(٦٧٢) ^(٦٧٣) ^(٦٧٤) ^(٦٧٥) ^(٦٧٦) ^(٦٧٧) ^(٦٧٨) ^(٦٧٩) ^(٦٨٠) ^(٦٨١) ^(٦٨٢) ^(٦٨٣) ^(٦٨٤) ^(٦٨٥) ^(٦٨٦) ^(٦٨٧) ^(٦٨٨) ^(٦٨٩) ^(٦٩٠) ^(٦٩١) ^(٦٩٢) ^(٦٩٣) ^(٦٩٤) ^(٦٩٥) ^(٦٩٦) ^(٦٩٧) ^(٦٩٨) ^(٦٩٩) ^(٧٠٠) ^(٧٠١) ^(٧٠٢) ^(٧٠٣) ^(٧٠٤) ^(٧٠٥) ^(٧٠٦) ^(٧٠٧) ^(٧٠٨) ^(٧٠٩) ^(٧١٠) ^(٧١١) ^(٧١٢) ^(٧١٣) ^(٧١٤) ^(٧١٥) ^(٧١٦) ^(٧١٧) ^(٧١٨) ^(٧١٩) ^(٧٢٠) ^(٧٢١) ^(٧٢٢) ^(٧٢٣) ^(٧٢٤) ^(٧٢٥) ^(٧٢٦) ^(٧٢٧) ^(٧٢٨) ^(٧٢٩) ^(٧٣٠) ^(٧٣١) ^(٧٣٢) ^(٧٣٣) ^(٧٣٤) ^(٧٣٥) ^(٧٣٦) ^(٧٣٧) ^(٧٣٨) ^(٧٣٩) ^(٧٤٠) ^(٧٤١) ^(٧٤٢) ^(٧٤٣) ^(٧٤٤) ^(٧٤٥) ^(٧٤٦) ^(٧٤٧) ^(٧٤٨) ^(٧٤٩) ^(٧٥٠) ^(٧٥١) ^(٧٥٢) ^(٧٥٣) ^(٧٥٤) ^(٧٥٥) ^(٧٥٦) ^(٧٥٧) ^(٧٥٨) ^(٧٥٩) ^(٧٦٠) ^(٧٦١) ^(٧٦٢) ^(٧٦٣) ^(٧٦٤) ^(٧٦٥) ^(٧٦٦) ^(٧٦٧) ^(٧٦٨) ^(٧٦٩) ^(٧٧٠) ^(٧٧١) ^(٧٧٢) ^(٧٧٣) ^(٧٧٤) ^(٧٧٥) ^(٧٧٦) ^(٧٧٧) ^(٧٧٨) ^(٧٧٩) ^(٧٨٠) ^(٧٨١) ^(٧٨٢) ^(٧٨٣) ^(٧٨٤) ^(٧٨٥) ^(٧٨٦) ^(٧٨٧) ^(٧٨٨) ^(٧٨٩) ^(٧٩٠) ^(٧٩١) ^(٧٩٢) ^(٧٩٣) ^(٧٩٤) ^(٧٩٥) ^(٧٩٦) ^(٧٩٧) ^(٧٩٨) ^(٧٩٩) ^(٨٠٠) ^(٨٠١) ^(٨٠٢) ^(٨٠٣) ^(٨٠٤) ^(٨٠٥) ^(٨٠٦) ^(٨٠٧) ^(٨٠٨) ^(٨٠٩) ^(٨١٠) ^(٨١١) ^(٨١٢) ^(٨١٣) ^(٨١٤) ^(٨١٥) ^(٨١٦) ^(٨١٧) ^(٨١٨) ^(٨١٩) ^(٨٢٠) ^(٨٢١) ^(٨٢٢) ^(٨٢٣) ^(٨٢٤) ^(٨٢٥) ^(٨٢٦) ^(٨٢٧) ^(٨٢٨) ^(٨٢٩) ^(٨٣٠) ^(٨٣١) ^(٨٣٢) ^(٨٣٣) ^(٨٣٤) ^(٨٣٥) ^(٨٣٦) ^(٨٣٧) ^(٨٣٨) ^(٨٣٩) ^(٨٤٠) ^(٨٤١) ^(٨٤٢) ^(٨٤٣) ^(٨٤٤) ^(٨٤٥) ^(٨٤٦) ^(٨٤٧) ^(٨٤٨) ^(٨٤٩) ^(٨٥٠) ^(٨٥١) ^(٨٥٢) ^(٨٥٣) ^(٨٥٤) ^(٨٥٥) ^(٨٥٦) ^(٨٥٧) ^(٨٥٨) ^(٨٥٩) ^(٨٦٠) ^(٨٦١) ^(٨٦٢) ^(٨٦٣) ^(٨٦٤) ^(٨٦٥) ^(٨٦٦) ^(٨٦٧) ^(٨٦٨) ^(٨٦٩) ^(٨٧٠) ^(٨٧١) ^(٨٧٢) ^(٨٧٣) ^(٨٧٤) ^(٨٧٥) ^(٨٧٦) ^(٨٧٧) ^(٨٧٨) ^(٨٧٩) ^(٨٨٠) ^(٨٨١) ^(٨٨٢) ^(٨٨٣) ^(٨٨٤) ^(٨٨٥) ^(٨٨٦) ^(٨٨٧) ^(٨٨٨) ^(٨٨٩) ^(٨٩٠) ^(٨٩١) ^(٨٩٢) ^(٨٩٣) ^(٨٩٤) ^(٨٩٥) ^(٨٩٦) ^(٨٩٧) ^(٨٩٨) ^(٨٩٩) ^(٩٠٠) ^(٩٠١) ^(٩٠٢) ^(٩٠٣) ^(٩٠٤) ^(٩٠٥) ^(٩٠٦) ^(٩٠٧) ^(٩٠٨) ^(٩٠٩) ^(٩١٠) ^(٩١١) ^(٩١٢) ^(٩١٣) ^(٩١٤) ^(٩١٥) ^(٩١٦) ^(٩١٧) ^(٩١٨) ^(٩١٩) ^(٩٢٠) ^(٩٢١) ^(٩٢٢) ^(٩٢٣) ^(٩٢٤) ^(٩٢٥) ^(٩٢٦) ^(٩٢٧) ^(٩٢٨) ^(٩٢٩) ^(٩٣٠) ^(٩٣١) ^(٩٣٢) ^(٩٣٣) ^(٩٣٤) ^(٩٣٥) ^(٩٣٦) ^(٩٣٧) ^(٩٣٨) ^(٩٣٩) ^(٩٤٠) ^(٩٤١) ^(٩٤٢) ^(٩٤٣) ^(٩٤٤) ^(٩٤٥) ^(٩٤٦) ^(٩٤٧) ^(٩٤٨) ^(٩٤٩) ^(٩٥٠) ^(٩٥١) ^(٩٥٢) ^(٩٥٣) ^(٩٥٤) ^(٩٥٥) ^(٩٥٦) ^(٩٥٧) ^(٩٥٨) ^(٩٥٩) ^(٩٦٠) ^(٩٦١) ^(٩٦٢) ^(٩٦٣) ^(٩٦٤) ^(٩٦٥) ^(٩٦٦) ^(٩٦٧) ^(٩٦٨) ^(٩٦٩) ^(٩٧٠) ^(٩٧١) ^(٩٧٢) ^(٩٧٣) ^(٩٧٤) ^(٩٧٥) ^(٩٧٦) ^(٩٧٧) ^(٩٧٨) ^(٩٧٩) ^(٩٨٠) ^(٩٨١) ^(٩٨٢) ^(٩٨٣) ^(٩٨٤) ^(٩٨٥) ^(٩٨٦) ^(٩٨٧) ^(٩٨٨) ^(٩٨٩) ^(٩٩٠) ^(٩٩١) ^(٩٩٢) ^(٩٩٣) ^(٩٩٤) ^(٩٩٥) ^(٩٩٦) ^(٩٩٧) ^(٩٩٨) ^(٩٩٩) ^(١٠٠٠) ^(١٠٠١) ^(١٠٠٢) ^(١٠٠٣) ^(١٠٠٤) ^(١٠٠٥) ^(١٠٠٦) ^(١٠٠٧) ^(١٠٠٨) ^(١٠٠٩) ^(١٠١٠) ^(١٠١١) ^(١٠١٢) ^(١٠١٣) ^(١٠١٤) ^(١٠١٥) ^(١٠١٦) ^(١٠١٧) ^(١٠١٨) ^(١٠١٩) ^(١٠٢٠) ^(١٠٢١) ^(١٠٢٢) ^(١٠٢٣) ^(١٠٢٤) ^(١٠٢٥) ^(١٠٢٦) ^(١٠٢٧) ^(١٠٢٨) ^(١٠٢٩) ^(١٠٣٠) ^(١٠٣١) ^(١٠٣٢) ^(١٠٣٣) ^(١٠٣٤) ^(١٠٣٥) ^(١٠٣٦) ^(١٠٣٧) ^(١٠٣٨) ^(١٠٣٩) ^(١٠٤٠) ^(١٠٤١) ^(١٠٤٢) ^(١٠٤٣) ^(١٠٤٤) ^(١٠٤٥) ^(١٠٤٦) ^(١٠٤٧) ^(١٠٤٨) ^(١٠٤٩) ^(١٠٥٠) ^(١٠٥١) ^(١٠٥٢) ^(١٠٥٣) ^(١٠٥٤) ^(١٠٥٥) ^(١٠٥٦) ^(١٠٥٧) ^(١٠٥٨) ^(١٠٥٩) ^(١٠٦٠) ^(١٠٦١) ^(١٠٦٢) ^(١٠٦٣) ^(١٠٦٤) ^(١٠٦٥) ^{(١٠٦}

فقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾.

قال ابن عباس: (فذلك حين ينفخ في الصور فلا حي يبقى إلا الله).

والمعنى: إذا نفخ في الصور يوم النشور، وقام الناس من القبور، فيومئذ لا تنفع الأنساب والقربى، ولا يجدي إلا الصدق مع الله في العبادة والامثال.

وفي التنزيل:

1- قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُفْرَغُ الْمَرْتَةُ مِنْ أَخِيهِ (٢١) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٢٢) وَصَحْبِهِ وَبَنِيهِ (٢٣) لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٢٤)﴾ [عبس: 34 - 37].

2- وقال تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَلْ حِمِيمٌ حِمِيمًا (١٠)﴾ [المعارج: 10].

قال النسفي: ((وَلَا يَتَسَاءَلُونَ)) سؤال تواصل كما كانوا يتساءلون في الدنيا، لأن كلاً مشغول عن سؤال صاحبه بحاله. ولا تناقض بين هذا وبين قوله: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ فالقيامه مواطن، ففي موطن يشتد عليهم الخوف فلا يتساءلون، وفي موطن يفيقون فيتساءلون).

قلت: وأما نسبه ﷺ فمتصل يوم القيامة فلا ينقطع كما تنقطع بقية الأنساب، وإنما ينتفع به أهله ما أقاموا منهاج النبوة ولم يحدثوا في الدين. وفي ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» بسند حسن عن عكرمة عن ابن عباس مرفوعاً: [كُلُّ سَبَبٍ وَنَسَبٍ مُنْقَطِعٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِلَّا سَبَبِي وَنَسَبِي] (1).

الحديث الثاني: أخرجه الإمام أحمد بسند جيد عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول على هذا المنبر: [ما بال رجال يقولون: إن رَحِمَ رسول الله ﷺ - لا تنفع قومه؟ بلى، والله، إنَّ رحمي موصولة في الدنيا والآخرة، وإني - أيها الناس - فرطٌ لكم. فإذا جئتم قال رجلٌ: يا رسول الله، أنا فلانُ بن فلانٍ. وقال آخر: أنا فلانُ بن فلانٍ. فأقول: أما النسبُ فقد عرفتُ، ولكنكم أحدثتم بعدي، وارتددتم القهقري] (2).

(1) حسن لشواهده. أخرجه الطبراني في «الكبير» (1/129/3)، وانظر السلسلة الصحيحة (2036).

(2) أخرجه أحمد (18/3)، (39/3)، (62/3)، وأخرجه أبو يعلى (1238)، وقال الهيثمي في «المجمع» (364/10): رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح، غير عبد الله بن محمد بن عقيل، وقد وثق. والحديث حسن في الشواهد.

الحديث الثالث: أخرج أبو بكر الشافعي في «الفوائد» والخطيب في «التاريخ» بسند حسن لغيره عن عقبة بن عامر قال: [خَطَبَ عمر بن الخطاب إلى علي بن أبي طالب ابنته من فاطمة ، وأكثر تردده إليه ، فقال: يا أبا الحسن! ما يحملني على كثرة ترددي إليك إلا حديث سمعته من رسول الله ﷺ يقول: «كُلُّ سَبَبٍ وَنَسَبٍ مُنْقَطِعٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِلَّا سَبَبِي وَنَسَبِي». فَأَحْبَبْتُ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ أَهْلُ الْبَيْتِ سَبَبٌ وَصَهْرٌ. فقام عليّ فأمر بابنته من فاطمة فزُيِّنَتْ ، ثم بعث بها إلى أمير المؤمنين عمر ، فلما رآها قام إليها فأخذ بساقها ، وقال: قلبي لأبيك: قد رضيت ، فلما جاءت الجارية إلى أبيها قال لها: ما قال لك أمير المؤمنين؟ قالت: دعاني وقبلني ، فلما قمت أخذ بساقي ، وقال قلبي لأبيك قد رضيت ، فأنكحها إياه ، فولدت له زيد بن عمر بن الخطاب ، فعاش حتى كان رجلاً ، ثم مات⁽¹⁾.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

قال ابن عباس: (أي: من رجحت حسناته على سيئاته ولو بواحدة) ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾: أولئك الذين فازوا بما طلبوا ، ونجوا من شر ما منه هربوا).

وفي التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: 8].

2 - وقال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: 47].

3 - وقال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: 7 - 8].

ومن كنوز السنة العطرة في آفاق هذه الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الحاكم بسند صحيح عن سلمان ، عن النبي ﷺ قال: [يوضع الميزان يوم القيامة فلو وزن فيه السماوات والأرض لوسعت ، فتقول الملائكة:

(1) أخرجه أبو بكر الشافعي في «الفوائد» (73/ 257/ 1) ، وابن عدي (2/ 6) ، والخطيب في «التاريخ» (6/ 182) ، وللحديث شواهد كثيرة ترتقي به للحسن. انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (2036) عقب الحديث المذكور.

يا رب لمن وزن هذا؟ فيقول الله تعالى: لمن شئت من خلقي ، فتقول الملائكة: سبحانك ما عبدناك حقَّ عبادتك ، ويوضع الصراط مثل حد موسى ، فتقول الملائكة: من تجيز على هذا؟ فيقول: من شئت من خلقي ، فيقولون: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم]⁽²⁾.

الحديث الثالث: خرّج مسلم عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [الطهورُ شطرُ الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملآن ما بين السماوات والأرض]⁽³⁾.

الحديث الرابع: أخرج الإمام أحمد في المسند بإسناد حسن عن ابن مسعود رضي الله عنه: [أنه كان يجني سواكاً من الأراك وكان دقيق الساقين ، فجعلت الريح تكفؤه ، فضحك القوم منه ، فقال رسول الله ﷺ: مِمَّ تضحكون؟ قالوا: يا نبي الله من دقة ساقيه ، فقال: والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من أحد]⁽⁴⁾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾.

قال ابن جرير: (يقول: ومن خَفَّت موازين حسناته ، فرجحت بها موازين سيئاته ، ﴿فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ يقول: عَبَنُوا أَنْفُسَهُمْ حظوظها من رحمة الله ﴿فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ يقول: هم في نار جهنم).

والمقصود: من ثقلت سيئاته في الميزان فرجحت كفتها على كفة حسناته فهؤلاء الذين خابوا وهلكوا وخسروا الصفة ، وهم في جهنم ماكثون مقيمون لا يظعنون.

أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال: [إنه ليأتي الرجل

(1) رواه الحاكم (586/4) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (941).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (7563) - كتاب التوحيد ، وأخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة - حديث رقم - (2694).

(3) حديث صحيح. انظر مختصر صحيح مسلم - حديث رقم - (120).

(4) حديث حسن. أخرجه أحمد وغيره بسند حسن. انظر تخريج الطحاوية (82) - تحقيق الألباني.

العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة ، وقال : اقرؤوا إن شئتم : ﴿ فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا ﴾ [الكهف : 105] ⁽¹⁾ .

وقوله تعالى : ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴾ .

أي : يسفح وجوههم لهب النار ، فتحرقها ، فتقلص الشفاه عن الأسنان في تكشر وعبوس .

قال ابن جريج ، عن ابن عباس : ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ ﴾ قال : تنفح ، ﴿ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴾ والكلوح : أن تقلص الشفتان عن الأسنان ، حتى تبدو الأسنان .

وقال علي ، عن ابن عباس : ﴿ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴾ يقول : عابسون .

قلت : وقوله : ﴿ كَالِحُونَ ﴾ من الكلوح ، وهو يجمع في كلام العرب بين التكشر والعبوس .

قال الرازي : (الكلوح : تكشر في عبوس) . والمقصود : حرق الوجوه في نار جهنم يصير أصحابها في حالة مشوهة ومنظر قبيح .

قال القاسمي : (وتخصيص الوجوه لأنها أشرف الأعضاء . فبيان حالها أزجر عن المعاصي المؤدية إلى النار) .

105 - 111 . قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَتَىٰ تُلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾

قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا فَرِيقًا مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذُوهُمْ سَخِرَاءَ حَتَّىٰ أَنْسَوَكُمُ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا إِنَّهُمْ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١١﴾ .

في هذه الآيات : اعتراف أهل الشقاء يوم القيامة بشقوتهم وضلالهم وتمنيهم الخروج من النار ، فَيُخْرِسُهُمُ الْجَارُ ، ويتنصر لأوليائه ، ويخزي أعداءه بما كانوا يسخرون . وينجي الذين اتقوا بمفازتهم بما كانوا يعملون ويصبرون .

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح (4729) - كتاب التفسير ، سورة الكهف ، آية (105) .

فقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تُلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ . تقرير للطغاة وتوبيخ بعدما وقعوا في شباك جهنم .

قال ابن كثير: (هذا تقرير من الله تعالى لأهل النار وتوبيخ لهم على ما ارتكبوا من الكفر والمآثم والمحارم والعظائم التي أوبقتهم في ذلك ، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تُلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ ؟ أي: قد أرسلت إليكم الرسل ، وأنزلت الكتب ، وأزلت شبهكم ، ولم يبق لكم حجة تُدَلُّونَ بها كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ لَكُم حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: 165] ، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: 15] ، وقال تعالى: ﴿كُلَّمَا أَلْقَىٰ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتُمْ خَزَنَتَهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ ﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّمِيرِ﴾ ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّمِيرِ﴾ [الملك: 8 - 11] .

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ .

فيه أكثر من تأويل :

1 - قال مجاهد: ﴿غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ : التي كتبت علينا) .

2 - قال القرطبي: (غلبت علينا لذاتنا وأهواؤنا ، فسمى اللذات والأهواء شقوة ، لأنهما يؤديان إليها) .

3 - قيل: المقصود حسن الظن بالنفس وسوء الظن بالخلق .

قلت: وكلها أقوال متقاربة متكاملة ، مفادها أن الطغاة اعترفوا متأخرين بعدما لفحتهم نار جهنم أنهم اختاروا طريق الشقاوة في الحياة الدنيا ، فتحاكموا لأهوائهم وشهواتهم ومناهج الضلال وصدّوا عن سبيل الله ، فحقّ عليهم الشقاء الذي كتبه الله عليهم بعلمه وعدله وحكمته .

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ .

هو أمل لا تحقيق له ، وأمنية لا إجابة لها ، فالكفار في جهنم يتمنون الرجعة ويعاهدون ربهم أن لا يعودوا إلى آثامهم وجرائمهم ولكن دون جدوى ، فقد فاتهم قطار النجاة ، وقضى الله انتهاء الحياة الدنيا ، وسيتابعون حياتهم في نار جهنم في نحيب وبكاء .

وفي التنزيل نحو ذلك :

1 - قال تعالى : ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [فاطر : 37].

2 - وقال تعالى : ﴿ فَأَعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تَوُفُّوْا فَلَهُ كُفْرُكُمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴾ [غافر : 11 - 12].

3 - وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَنَبَاهَا وَلَكِن حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْإِنسِ وَالْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [السجدة : 12 - 13].

ومن كنوز السنة العطرة في آفاق هذه الآية أحاديث :

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أنس ، عن النبي ﷺ قال : [يقول الله لأهون أهل النار عذاباً يوم القيامة : لو أنَّ لك ما في الأرض من شيء أكننت تفتدي به؟ فيقول : نعم. فيقول : أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب آدم أن لا تشرك بي شيئاً ، فأبيت إلا أن تشرك بي] (1).

الحديث الثاني: أخرج الحاكم بسند حسن عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال : [إن أهل النار لي يكون حتى لو أُجريت السفن في دموعهم جَرَتْ ، وإنهم ليبكون الدم] (2).

الحديث الثالث: يروي ابن ماجه بسند صحيح عن عبد الله بن قيس قال : كنت عند أبي بردة ذات ليلة. فدخل علينا الحارث بن أَقْيَشٍ. فحدثنا الحارث ليلتئذ ، أن رسول الله ﷺ قال : [إِنَّ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِشَفَاعَتِهِ أَكْثَرُ مِنْ مُضَرٍ. وَإِنَّ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَعْظُمُ لِلنَّارِ حَتَّى يَكُونَ أَحَدُ زَوَايَاهَا] (3).

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ أَخْسِرُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ . كلام تسكيت وتوبيخ وتحقير ، وما هو بكلام تشريف .

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح (6557) ، وانظر مختصر صحيح مسلم (1955).

(2) حديث صحيح . أخرجه الحاكم (605/4) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1679).

(3) حديث صحيح . أخرجه ابن ماجه (4323) - في صفة النار ، انظر صحيح ابن ماجه (3490).

قال ابن عباس: (هذا قول الرحمن عز وجل ، حين انقطع كلامهم منه).

قال النسفي: ﴿قَالَ أَحْسَنُوا فِيهَا﴾ اسكتوا سكوت ذلة وهوان ﴿وَلَا تُكَلِّمُون﴾ في رفع العذاب عنكم ، فإنه لا يرفع ولا يخفف). وقال القرطبي: (أي ابعدوا في جهنم ، كما يقال للكلب أحسأ أي ابعد).

قال أبو الدرداء: (فعند ذلك يتسوا من كل خير ، فيذعون بالويل والشهيق والثبور) - ذكره بسنده ابن جرير.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ كَانُمْ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَأَعْظِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ فَأَتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرِيًّا .

قال مجاهد: (هم بلال وخباب وصهيب ، وفلان وفلان من ضعفاء المسلمين ، كان أبو جهل وأصحابه يهزؤون بهم).

وقال ابن زيد: ﴿فَأَتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرِيًّا﴾: يسخرون منهم كما سخر قوم نوح بنوح ، اتخذوهم سخرياً: اتخذوهم هزواً ، لم يزالوا يستهزئون بهم).

والمقصود: انتصار الرحمن عز وجل لأوليائه من أعدائه ، فقد كان المجرمون يضحكون في الحياة الدنيا من المؤمنين وتضرعهم ودعائهم وعبادتهم وإخلاصهم في منهاجهم لله تبارك وتعالى .

كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَىٰ الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ تُؤْثِرُونَ عَلَىٰ الْكُفَّارِ مَا كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المطففين: 29 - 36].

وفي شرح السنة عن أنس ، عن النبي ﷺ قال: [يا أيها الناس! ابكوا فإن لم تستطيعوا فتابكوا ، فإن أهل النار يكون في النار حتى تسيل دموعهم في وجوههم ، كأنها جداول ، حتى تنقطع الدموع ، فتسيل الدماء ، فتقرح العيون ، فلو أن سفناً أُرْجِيَتْ⁽¹⁾ فيها لجرّت⁽²⁾].

(1) أي: أرسلت.

(2) حسن لشواهد. انظر صحيح سنن ابن ماجه (3491) ، وكتابي: أصل الدين والإيمان (767/2) ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (1679).

وقوله: ﴿حَتَّىٰ أَسْأَلُكُمْ ذِكْرِي﴾. قال ابن كثير: (أي: حَمَلَكُمْ بغضهم على أن نسيتم معاملتي).

وقوله: ﴿وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾. أي استهزاء من عبادتهم وحرصهم على إرضاء ربهم.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾. انتصار آخر من الله تعالى وبشارة للمؤمنين.

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: إني أيها المشركون بالله المخلدون في النار، جزيت الذين اتخذتموهم في الدنيا سخرياً من أهل الإيمان بي، وكنتم منهم تضحكون. ﴿الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾ على ما كانوا يلقون بينكم من أذى سخريتكم وضحككم منهم في الدنيا، أنهم هم الفائزون).

والمقصود: هذا يوم ثواب صبر المؤمنين على الأذى في سبيل علو أمر دينهم، وتحديهم للطغاة في إقامة ما أمرهم به ربهم ونالهم بسببه الأذى، فهم اليوم أصحاب الظفر الفائزون بجنت الخلود والنعيم المقيم.

112 - 118. قوله تعالى: ﴿قُلْ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِئْنَا

يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَلِ الْعَادِينَ ﴿١١٣﴾ قُلْ إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنكُم كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾.

في هذه الآيات: اعتراف المشركين يوم الحشر بمكثهم في الحياة الدنيا يوماً أو بعض يوم، وتقريع الباري عز وجل لهم بظنهم أنهم إليه لا يرجعون، فتعالى الله الملك الإله الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم، فإنه من يشرك بالله كان من الأشقياء الخاسرين، وأما المؤمنون فإنهم في ابتهاج إلى الله ودعاء ورجاء ليكونوا بإذنه تعالى من عباده المرحومين.

فقوله تعالى: ﴿ قَلَّ كَمَ لَيْتُنَا فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴾ .

أي: كم تُلَحَّصون ما أمضيتم في الحياة الدنيا أمام ما تستقبلون من الزمان في الدار الآخرة.

قال القرطبي: (وهذا السؤال للمشركين في عَرَصات القيامة أو في النار).

وقوله: ﴿ قَالُوا لَيْتَنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ .

قال النسفي: (استقصروا مدة لبثهم في الدنيا بالإضافة إلى خلودهم ولما هم فيه من عذابها لأن الممتحن يستطيل أيام محنته ويستقصر ما مرّ عليه من أيام الدعة).

وقوله: ﴿ فَسَلَى الْعَادِينَ ﴾ . قال مجاهد: (الملائكة). وقال قتادة: (فاسأل الحُساب). أو قال: (فاسأل أهل الحساب). وكلا التأويلين ممكن.

وقوله تعالى: ﴿ قَلَّ إِنْ لَيْتُنَا إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

قال ابن كثير: (أي: مُدَّة يسيرة على كل تقدير ﴿ لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ، أي: لما آثرتم الفاني على الباقي ، ولما تَصَرَّفْتُمْ لأنفسكم هذا التصرف السيئ ولا استحققتهم من الله سُخْطَه في تلك المدة اليسيرة ، ولو أنكم صبرتم على طاعة الله وعبادته كما فعل المؤمنون لَفُزْتُمْ كما فازوا).

والمقصود: سَتُخْتَزَلُ الحياة الدنيا بجميع أفراحها وآلامها في بعض يوم من أيام الحياة الآخرة ، وسيعلم الكافرون ضخامة الجُرم الذي صنعوه إذ خسروا الصفقة وضيعوا العمر بالكفر والشهوات ، فأورثهم ذلك شقاء سرمدياً يوم القيامة.

وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: [يُؤْتَى بِأَنعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا ، مِنْ أَهْلِ النَّارِ ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ! هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فيقول: لا ، والله! يا رَبِّ! وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا ، مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ ، فيقال له: يَا ابْنَ آدَمَ! هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فيقول: لا ، والله! يا رَبِّ! مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ] (1).

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2807) - كتاب صفات المنافقين ، باب صبغ أنعم أهل الدنيا في النار ، وصبغ أشدهم بؤساً في الجنة.

وقوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾.

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: أفحسبتم أيها الأشقياء أنا إنما خلقناكم إذ خلقناكم لعباً وباطلاً ، وأنكم إلى ربكم بعد مماتكم لا تصيرون أحياء ، فتجزون بما كنتم في الدنيا تعملون؟).

وقوله تعالى: ﴿فَتَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾.

أي: فتتزه الله الملك الحق وتقدس عما ينسب إليه المشركون من الأولاد والشركاء والأنداد ، وعن أن يخلق عباده عبثاً أو سفهاً ، بل هو الحكيم لا معبود بحق سواه رب العرش الكريم.

قال ابن كثير: (فذكر العرش لأنه سقف جميع المخلوقات ، ووصفه بأنه كريم ، أي: حسن المنظر بهيئ الشكل ، كما قال تعالى: ﴿فَأَنْبَأْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [لقمان: 10]).

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾.

قال مجاهد: ﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ قال: بينة. أو قال: (حجة).

والمقصود: من يدع مع الله الذي لا تصلح العبادة إلا له معبوداً آخر لا حجة له بذلك ، فإنما يوفى حساب عمله السيئ عند ربه الأحد الصمد الذي أشرك به ، ومن ثم فلا فلاح للكافرين لا في الدنيا ولا في الآخرة.

قال الرازي: (نبه تعالى بالآية ، على أن كل ما لا برهان فيه ، لا يجوز إثباته ، وذلك يوجب صحة النظر وفساد التقليد).

وفي سنن أبي داود ومسند الإمام أحمد بسند صحيح عن أبي تميمة عن رجل من قومه ، أنه أتى رسول الله ﷺ ، أو قال: شهدت رسول الله ﷺ وأتاه رجل فقال: أنت رسول الله أو قال: أنت محمد؟ فقال: نعم. قال: فإلام تدعو؟ قال: [أدعو إلى ربك الذي إن مسك ضر فدعوته كشف عنك ، والذي إن أضللت بأرض قفر فدعوته رد عليك ، والذي إن أصابتك سنة فدعوته أنبت لك]⁽¹⁾.

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن (4084). انظر صحيح سنن أبي داود (3442) ، وصحيح الجامع الصغير (242) ، ورواه أحمد.

وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾.

أمر من الله تعالى لنبِيِّهِ ﷺ بالابتهاال إليه ودعائه واستغفاره والثناء عليه ، فإنه تعالى خير من رحم ذا ذنب ، وخير من عفا ، وخير من فرّج الكرب والمحن والمصائب ، ومن ثمّ فأتمّه ﷺ محتاجة إلى هذا الخطاب من باب أولى .

فبالاستغفار يبسط الله تعالى لعباده السرور والنعيم .

قال تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ عَافَاءَ ﴿١٠﴾ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبْنِيَنَّ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح : 10 - 12].

أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [والله إنني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة]⁽¹⁾.

وفي صحيح مسلم عن الأغرّ بن يسار المزنيّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [يا أيها الناس! توبوا إلى الله ، فإني أتوب إلى الله في اليوم مئة مرة]⁽²⁾.

وفي لفظ: [إنه ليُغَانُ على قلبي ، وإنني أستغفر الله في اليوم مئة مرة].

والغَيْنُ: هو ما يتغشى القلب من الغفلات .

والله نسأل مغفرة الذنوب والزلات ، والنجاة يوم الحسرات ، إنه تعالى بالمؤمنين رؤوف رحيم .

تم تفسير سورة «المؤمنون»

بعون الله وتوفيقه ، وواسع منه وكرمه



(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح (85 / 11) ، وأخرجه الترمذي (3255) .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم (2702) (42) - كتاب الذكر والدعاء ، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه . وانظر للفظ بعده (2702) (41) من الباب نفسه .

دروس ونتائج وأحكام

- 1- قالت الجنة: قد أفلح المؤمنون. فقالت الملائكة: طوبى لك منازل الملوك.
- 2- الخشوع في الصلاة يحصل لمن فرغ قلبه لها ، واشتغل بها عما عداها.
- 3- احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك ، والله أحق أن يُستحيا منه من الناس.
- 4- المسلمون على شروطهم فيما أحلّ ، وفيما وافق الحق من ذلك.
- 5- لكل غادر لواء يوم القيامة ، والمسلم أخو المسلم لا يخونه ولا يخذله.
- 6- أفضل الأعمال: الصلاة على وقتها ، ثم بر الوالدين ، ثم الجهاد في سبيل الله.
- 7- جنة الفردوس أوسط وأعلى الجنة ، وفوقها عرش الرحمان ، ومن الفردوس تتفجر أنهار الجنة.
- 8- صُلب الرجل هو ظهره ، وترائب المرأة عظام صدرها.
- 9- كل ابن آدم يأكله التراب إلا عَجَبَ الذَّنْب ، مِنْهُ خُلِقَ ، ومنه يُرْكَب.
- 10- تعلمون المعاد إلى الله ، ثم إلى الجنة أو النار ، وإقامة لا ظعن فيه ، وخلود لا موت ، في أجساد لا تموت.
- 11- النخيل والأعناب أشرف الثمار وأهمها عند العرب ، والزيت يؤكل ويدهن به ، وهو يخرج من شجرة مباركة.
- 12- دعاء الركوب للسفر: سبحان الذي سَخَّرَ لنا هذا وما كنا له مقرنين ، وإنا إلى ربنا لمنقلبون. الحمد لله ثلاثاً ، الله أكبر ثلاثاً ، سبحانك إني قد ظلمت نفسي فاغفر لي ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت.
- 13- إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، وإجابة الدعاء متعلقة بطيب المأكل والملبس.

- 14 - المؤمنون يتقربون إلى الله بمختلف الطاعات وهم خائفون مشفقون أن لا يقبل منهم .
- 15 - التكليف الشرعية متحملة ، وكتاب الأعمال دقيق ينطق بالصغائر والكبائر .
- 16 - التزام الاستغفار ، يقابله الغفار بإغداق النعم والأرزاق والأمطار .
- 17 - اقتضاء الإيمان بتوحيد الربوبية الإيمان بتوحيد الألوهية .
- 18 - الكرسي موضع القدمين ، والعرش لا يقدر أحد قدره .
- 19 - سلوا الله العفو والعافية ، فإن أحداً لم يُعْطَ بعد اليقين خيراً من العافية .
- 20 - حسن الخلق ، وطول الصمت ، ما عمل الخلائق بمثلهما .
- 21 - همزات الشياطين خطراته ونزعاته ومحاولات اقترابه من العبد بمس أو إيذاء أو سحر . وفي الحديث : أعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت .
- 22 - البرزخ ما بين الموت إلى البعث ، وسؤال الملكين وعذاب القبر حق .
- 23 - الميزان حق ، فمن ثقلت موازينه نجا ، ومن خفت موازينه هلك ، وفي هذه الأمة من يَعْظُم للنار حتى يكون أحدَ زواياها .
- 24 - كل ما لا برهان فيه لا يجوز إثباته ، وهذا يوجب صحة النظر وفساد التقليد .
- 25 - الغَيْنُ ما يتغشى القلب من الغفلات ، وبالاستغفار يزول وتنزل الرحمات .



24



وهي سورة مدنية في غالبها ، وعدد آياتها (64)

موضوع السورة

أحكام العفاف والستر
ونور الوحي في حياة وقلوب المؤمنين

- منهاج السورة -

- 1 - التنبيه على شأن هذه السورة ، وذكر عقوبة الزنى لغير المحصن .
- 2 - الإعلام بأن الزاني لا يطاق إلا زانية أو مشركة ، وتحريم نكاح الزانية أو تزويج الزاني .
- 3 - تحريم القذف وبيان حدّه وعواقبه ، وتشريع الملائعة وأحكامها .
- 4 - قصة أهل الإفك ، وبراءة عائشة - رضي الله عنها - إلى يوم القيامة .
- 5 - تشريع آداب عالية في الاستئذان قبل الدخول ، واستثناء الأماكن العامة .
- 6 - الأمر بغض البصر - للمؤمنين والمؤمنات - عما لا يحل النظر إليه ، وأمر المؤمنين بعدم إبداء زينتهن إلا الوجه والكفين ، وبيان ما يحل إظهاره أمام المحارم ، والنهي عن الضرب بالأرجل لما يحرك الفتنة على الرجال .

- 7 - الترغيب في التزويج للأحرار والعبيد والوعد بالغنى والرزق على ذلك .
- 8 - الأمر بالاستعفاف حتى يكون النكاح ، والترغيب بمساعدة المكاتبين ، والتحذير من إكراه الإمام على الزنى .
- 9 - تمثيل بديع لقلب المؤمن الذي شغ بنور الوحي الكريم ، والله تعالى منور السماوات والأرض وهادي أهلها وهو بكل شيء عليم .
- 10 - ذُكِرَ أظهر البيوت في الأرض عقب ذكر أظهر القلوب وأزكاها ، وفضيلة إعمار المساجد والثناء على عمارها .
- 11 - ضرب مثلين لنوعي الكفار: الرؤساء والأتباع . لا تنفعهم أعمالهم يوم الحساب ، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور .
- 12 - إثبات تسبيح جميع المخلوقات ، وسوقُ الله السحاب وإنزاله المطر ، ولمعان البرق يأخذ بالبصر ، وتعاقب الليل والنهار ، وخلق كل دابة من ماء ، آيات لقوم يتفكرون .
- 13 - ذُكِرَ بعض صفات المنافقين ، يعلنون الإيمان وما هم بمؤمنين ، ويعرضون عن التحاكم لله ورسوله وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين . وأما المؤمنون فهم يخبثون لله ويرضون بحكمه وأولئك هم الفائزون .
- 14 - فضحُ المنافقين في تأكيدهم الخروج للجهاد مع رسول الله بالحلف وهم كاذبون . ومن يطع الله ورسوله ينعم بنور الهداية ومن يعرض فما على الرسول إلا البلاغ المبين .
- 15 - وعُدَّ الله تعالى المؤمنين الاستخلاف في الأرض والتمكين ، وعجزُ الكافرين عن الهروب من عذاب الله الأليم .
- 16 - آداب رفيعة في الاستئذان ، وبيان وجوب ذلك على الأطفال إذا بلغوا الحلم ، ولا جناح على القواعد من النساء أن يضعن ثيابهن غير متبرجات وأن يلتمسن العفاف والله سميع عليم .
- 17 - رفع الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض ، وجواز الأكل من بيوت القرابة ، والأمر باللقاء السلام عند الدخول .

- 18 - إرشاد الله تعالى عباده المؤمنين إلى الأدب مع نبيهم ، وإذا دخلوا أو خرجوا فليستأذنوا ولا يتفرقوا إلا عن أمره .
- 19 - النهي عن مناداة الرسول كمناداة غيره ، أو ظن دعائه كدعاء غيره .
- 20 - الوعيد الشديد على من تعمد مخالفة أمر الرسول ﷺ والله بكل شيء عليم .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

1- 2. قوله تعالى: ﴿سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ يَبَيِّنُ لَعَلَّكُمْ

نَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ الرَّازِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَشَهِدَ عَدَايَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ .

في هذه الآيات: تعظيمُ الله تعالى شأن هذه السورة الكريمة المشتملة على بيان أحكام العفاف والستر لقوم يذكرون. إن عقوبة الزنى لغير المحصن الجلد دون رأفة مع شهود هذا الحد من طائفة من المؤمنين.

فقوله: ﴿سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا﴾. سورة: خبر لمبتدأ محذوف تقديره هي ، أو هذه. و﴿أَنْزَلْنَاهَا﴾ صفة لها. قال القاسمي: (والتنكير للتفخيم). وقال ابن كثير: (فيه تنبيه إلى الاعتناء بها ولا ينفي ما عداها).

وقوله: ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾. أصل الفرض القطع ، أي جعلناها مقطوعاً بها - حكاة النسفي. وقد قرأ قراء من الحجاز والبصرة بتشديد الراء: «وَفَرَضْنَاهَا». قال مجاهد: (أي بيّنّا الحلال والحرام والأمر والنهي والحدود). فالتأويل: فصلناها ونزلنا فيها فرائض مختلفة. وأما عامة قراء المدينة والكوفة والشام فقرأوها بالتخفيف: ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾. قال ابن عباس: (يقول: بينها). وقال البخاري: (يقول: فرَضْنَا عليكم وعلى مَنْ بَعْدَكُمْ). والقراءتان مشهورتان في الأمصار ، ولا مانع من اختيار إحداهما.

وقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ يَبَيِّنُ﴾. قال ابن جريج: (الحلال والحرام والحدود). والمقصود: اشتمال السورة على آيات واضحة الدلالة صريحة البيان في مفاهيم الستر والعفاف وغير ذلك من الأحكام الشرعية ، التي يحفظ الله بها النفوس والبيوت من سبل الشياطين.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. قال ابن جريج: (يقول: لتذكروا بهذه الآيات البينات التي أنزلناها).

وقوله: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾. فيه تفصيل حكم الزاني والزانية في الإسلام ، مع ما جاء بيانه في السنة المطهرة . وتفصيل ذلك :

الزاني إما أن يكون بكراً أو محصناً :

أ - حدّ الحر المحصن .

إذا زنى الحر المحصن المكلف مختاراً فحدّه الرجم حتى يموت . والمقصود بالمحصن مَنْ سَبَقَ لَهُ الوطء بنكاح صحيح . والمكلف هو البالغ العاقل ، فلا حدّ على الصبي والمجنون لحديث : «رفع القلم عن ثلاثة»⁽¹⁾ .

فقد أخرج أبو داود والترمذي بسند صحيح عن جابر بن عبد الله الأنصاري : [أن رجلاً من أسلم أتى رسول الله ﷺ فحدثه أنه قد زنى ، فشهد على نفسه أربع شهادات ، فأمر به رسول الله ﷺ فُرْجِمَ ، وكان قد أَحْصَنَ]⁽²⁾ .

وفي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه خطب الناس يوماً فقال : [إنّ الله بعث محمداً ﷺ بالحق ، وأنزل عليه الكتاب ، فكان مما أنزل الله آية الرجم ، فقرأناها وعقلناها ووعيناها ، رجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده ، فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل : والله ما نجد آية الرجم في كتاب الله ، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله ، والرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال والنساء ، إذا قامت البينة أو كان الحبل أو الاعتراف]⁽³⁾ .

ب - حدّ الرقيق .

إذا زنى غير الحر - عبداً كان أو أمة - فلا رجم عليه ، ولكن يجلد خمسين جلدة ، لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَحْصَيْنَ فَإِنْ أَتَيْكَ بِفَحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ [النساء : 25] .

- (1) حديث صحيح . أخرجه ابن ماجة عن عائشة ، أن رسول الله ﷺ قال : [رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ : عَنْ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ ، وَعَنِ الصَّغِيرِ حَتَّى يَكْبُرَ ، وَعَنِ الْمَجْنُونِ حَتَّى يَغِيْلَ أَوْ يُفِيْقَ] وسنده صحيح . انظر صحيح سنن ابن ماجة (1660) ، وصحيح الترمذي (1150) .
- (2) حديث صحيح . أخرجه أبو داود في السنن - حديث رقم - (4407) . انظر صحيح سنن أبي داود (3725) ، ورواه الترمذي في الجامع (1454) .
- (3) حديث صحيح . أخرجه البخاري (6830) ، ومسلم (1691) ، وأبو داود (4395) ، وأخرجه الترمذي (1456) ، من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما .

أخرج الإمام مالك في الموطأ ، والبيهقي بسند حسن ، عن عبد الله بن عباس المخزومي قال : [أمرني عمر بن الخطاب في فتية من قريش ، فجلدنا ولائد من ولائد الإمارة ، خمسين خمسين في الزنا]⁽¹⁾.

ج - حدّ البكر .

قال تعالى : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

أخرج البخاري عن زيد بن خالد الجهني قال : [سمعت النبي ﷺ يأمر فيمن زنى ولم يحصن جلد مئة وتغريب عام]⁽²⁾.

وفي صحيح مسلم عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : [خذوا عني ، خذوا عني ، قد جعل الله لهن سبيلاً ، البكر بالبكر جلد مئة ونفي سنة ، والثيب بالثيب جلد مئة والرجم]⁽³⁾.

ء - من أكره على الزنا فلا حدّ عليه .

فقد أخرج البيهقي بسند صحيح عن أبي عبد الرحمن السلمي قال : [أتني عمر بن الخطاب رضي الله عنه بامرأة جهدها العطش ، فمرت على راع فاستسقت ، فأبى أن يسقيها إلا أن تمكنه من نفسها ، ففعلت ، فشاور الناس في رجمها ، فقال علي رضي الله عنه : هذه مضطرة أرى أن تخلي سبيلها ، ففعل]⁽⁴⁾.

وقوله : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ . قال مجاهد : (أن تقيم الحدّ) . قال ابن زيد : (فتدعوها من حدود الله التي أمر بها ، وافترضها عليهما) . والمقصود : عدم تعطيل حدود الله ، وليس المنهي عنه الرأفة الطبيعية ألا تكون حاصلة ، فإذا رفعت الحدود إلى السلطان وجب إقامتها وعدم تعطيلها . وفي ذلك أحاديث :

الحديث الأول : أخرج أبو داود بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو بن العاص : أن

(1) حديث حسن . أخرجه مالك (594/1508) ، وكذلك البيهقي (8/242) بسند حسن .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري في صحيحه (6831) ، وانظر : «إرواء الغليل» (2347) .

(3) حديث صحيح . أخرجه مسلم (1690) ، وأبو داود (4392) ، والترمذي (1461) ، وأخرجه ابن ماجه (2550) ، وانظر مختصر صحيح مسلم (1036) .

(4) حديث صحيح . أخرجه البيهقي (8/236) ، وانظر الإرواء (2313) ، وكتاب : «الوجيز في فقه السنة والكتاب العزيز» - (ص 430 - 434) .

رسول الله ﷺ قال: [تَعَاوُوا الْحُدُودَ فِيمَا بَيْنَكُمْ ، فما بلغني مِنْ حَدٍّ فَقَدْ وَجَبَ] (1).

الحديث الثاني: أخرج ابن ماجة بسند حسن عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [حَدٌّ يَعْمَلُ بِهِ فِي الْأَرْضِ ، خَيْرٌ لِأَهْلِ الْأَرْضِ مِنْ أَنْ يُمَطَّرُوا أَرْبَعِينَ صَبَاحًا] (2).

ورواه من حديث ابن عمر بلفظ: [إِقَامَةُ حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ ، خَيْرٌ مِنْ مَطَرٍ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ، فِي بِلَادِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ].

الحديث الثالث: أخرج ابن ماجة بسند حسن عن عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: [أَقِيمُوا حُدُودَ اللَّهِ فِي الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ. وَلَا تَأْخُذْكُمْ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَانِمٍ] (3).

وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾. قال ابن جرير: (يقول: إِنْ كُنْتُمْ تَصَدِّقُونَ بِاللَّهِ رَبِّكُمْ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَأَنْكُمْ فِيهِ مَبْعُوثُونَ لِحُشْرِ الْقِيَامَةِ ، وَلِلثَّوَابِ وَالْعِقَابِ).

وقوله: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. قال قتادة: (نفر من المسلمين) (4). والمقصود: ليكون ذلك موعظة للناس وعبرة ونكالا وإعلانا لسلطان الحق في الأرض.

3. قوله تعالى: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرْمٌ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.

في هذه الآية: إخبارُ الله تعالى بحقيقة مهمة: الزاني لا يطأ إلا زانية أو مشركة ، أي: لا يطاوعه على مُرادِهِ من الزنا أو فجوره إلا زانية مثله ، أو مشركة تَسْتَبِيحُ ذلك ، وكذلك حُرْمُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ نِكَاحِ الزَّانِيَةِ أَوْ تَزْوِيجِ الزَّانِي ، فَإِنَّ الزَّانِيَّ مِنْ صِفَاتِ الْمُشْرِكِينَ.

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (4376) - كتاب الحدود. وانظر صحيح أبي داود (3680).

(2) حديث حسن. أخرجه ابن ماجة في السنن (2538). وانظر صحيح ابن ماجة (2056) - (2057).

(3) حديث حسن. أخرجه ابن ماجة في السنن - حديث رقم - (2540) - كتاب الحدود ، باب إقامة الحدود ، وانظر صحيح سنن ابن ماجة (2058).

(4) قال مالك: (الطائفة أربعة نفر فصاعداً ، لأنه لا يكون شهادة في الزنا دون أربعة شهداء فصاعداً) - رواه عبد الرزاق ، وهو قول الشافعي. قلت: والمهم في الأمر حضور بعض المسلمين للحكمة السابقة في الاعتبار وإظهار سلطان الحق.

أخرج أبو داود والترمذي بسند جيد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: [كان رَجُلٌ يقال له: مَرْثَدُ بن أبي مَرْثَدٍ ، وكان رجلاً يحمل الأسارى من مكة حتى يأتي بهم المدينة. قال: وكانت امرأة بَغِيٍّ بمكة يقال لها: عَنَاقُ ، وكانت صديقة له ، وأنه واعد رجلاً من أسارى مكة يَحْمِلُهُ. قال: فجئتُ حتى انتهيتُ إلى ظل حائطٍ من حوائط مكة في ليلة مقمرة ، قال: فجاءت عَنَاقُ فَأَبْصَرْتُ سِوَا ظِلِّ تَحْتِ الحائطِ ، فلما انْتَهَيْتُ إِلَيَّ عَرَفْتَنِي ، فقالت: مَرْثَدُ؟ فقلت: مَرْثَدُ. فقالت: مرحباً وأهلاً ، هَلَمْ قَبِيتُ عندنا الليلة. قال: فقلت: يا عَنَاقُ ، حَرَّمَ الله الزنا. فقالت: يا أهلَ الخيام ، هذا الرجل يحملُ أسراكم ، قال: فتبعني ثمانية ودخلتُ الخَدَمَةَ⁽¹⁾ ، فانتَهَيْتُ إلى غار - أو: كَهْفٍ - فدخلت فيه ، فجاءوا حتى قاموا على رأسي فبالوا ، فَطَلَّ بولُهم على رأسي ، فأعماهم الله عني. قال: ثم رَجَعُوا ورجعتُ إلى صاحبي فَحَمَلْتُهُ ، وكان رجلاً ثَقِيلاً ، حتى انتهيتُ إلى الإِذْخِرِ ، ففككت عنه أَكْبُلَهُ ، فجعلتُ أَحْمِلُهُ وَيُعِينَنِي ، حتى قدمت المدينة ، فأتيت رسول الله - ﷺ - فقلت: يا رسول الله ، أُنكِحُ عَنَاقاً؟ - مرتين - فأمسك رسول الله ﷺ فلم يرد عليَّ شيئاً ، حتى نزلت: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ فقال رسول الله ﷺ: يا مَرْثَدُ ، ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ ، فلا تَنْكِحْهَا⁽²⁾.

وأخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو: [أَنَّ رجلاً من المسلمين استأذن رسول الله ﷺ في امرأة يقال لها: أم مهزول - كانت تُسَافِحُ ، وتشتغل له أن تُنفق عليه - قال: فاستأذن رسول الله ﷺ - أو: ذُكِرَ له أمرُها - قال: فقرأ عليه نبيُّ الله ﷺ: ﴿وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾⁽³⁾.

وفي رواية: [فأنزل الله عز وجل: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾].

(1) الخدمة: جبل بمكة.

(2) إسناده جيد. أخرجه أبو داود (2051) ، والترمذي (3177) ، والنسائي في «الكبرى» (5338) ، والبيهقي (153/7) ، والحاكم (166/2) مختصراً. وقال صحيح الإسناد وأقره الذهبي. وانظر: «الصحيح المسند من أسباب النزول» - الوادعي - سورة النور ، آية (3).

(3) حديث صحيح. أخرجه أحمد (159/2) ، وانظر لما بعده (225/2) ، ورواه النسائي في «التفسير» (379) ، والبيهقي (153/7) ، والحاكم (193/2 - 194) وصححه ووافقه الذهبي. وقال الهيثمي في المجمع (74/7): ورجال أحمد ثقات.

قلت: وفي قوله: ﴿وَحَرَّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ - تحريم صريح بتزويج المرأة الحرة العفيفة بالرجل الفاجر المُسَافِح حتى يتوب توبة صادقة نصوحاً ، وكذلك تحريم تزويج الرجل الصالح بالمرأة الزانية الفاجرة إلا أن تقلع عن فعلها المشين وتصدق التوبة والعفاف. وقد جاءت السنة المطهرة بآفاق ذلك في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج أبو داود بسند صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [لا يَنْكِحُ الزاني المجلودُ إلا مثله]⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرج أحمد والنسائي بسند صحيح عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: [ثلاثة لا يدخلون الجنة ، ولا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاقُ لوالديه ، والمرأة المترجلة⁽²⁾ والذَّيْوثُ. وثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاقُ لوالديه ، ومدمنُ الخمر ، والمَنَّانُ بما أعطى]⁽³⁾.

وله شاهد عند الطبراني من حديث عمار بن ياسر بلفظ: [ثلاثة لا يدخلون الجنة أبداً: الذَّيْوثُ ، والرَّجُلَةُ مِنَ النِّسَاءِ ، ومدمنُ الخمر].

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد بسند حسن في الشواهد عن سالم بن عبد الله بن عمر قال: حدَّثني عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: [ثلاثة قَدْ حَرَّمَ الله عليهم الجنة: مدمن الخمر ، والعاق ، والذَّيْوثُ الذي يقر في أهله الخبث]⁽⁴⁾.

4 - 5. قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾  إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

في هذه الآيات: تحريم القذف وبيان حدّه وعواقبه ، والذين يستهينون بأمر القذف أولئك هم الفاسقون. إلا الذين تابوا وأصلحوا فإن الله غفور رحيم.

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (2052) ، كتاب النكاح. وانظر صحيح أبي داود (1807).

(2) هي المرأة المتشبهة بالرجال.

(3) حديث صحيح. أخرجه أحمد (2/134) ، والنسائي (5/80) ، والطبراني (13180) وأخرجه ابن حبان (7340) ، والبيهقي (8/388) ، وانظر للشاهد صحيح الجامع (3057).

(4) حسن لشواهد. أخرجه أحمد في المسند (2/69) ، (2/128) من حديث عبد الله بن عمر ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة - عقب الحديث - (674).

فقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾.

﴿يَرْمُونَ﴾: أي يقذفون بالزنى. و﴿الْمُحْصَنَاتِ﴾: أي المسلمات الحرائر العاقلات البالغات العفيفات عن الزنى. فيه بيان حد القذف ، فمن قذف مسلماً ، وليس لديه أربعة شهداء عدول يشهدون أنهم رأوه - أو رأوها - على الزنا ، حُدَّ ثمانين جلدة ، ولم تقبل شهادته أبداً في أي واقعة كانت ، لظهور كذبه .

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَاضِلَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: 23].

قال القاسمي: (وتخصيص النساء لخصوص الواقعة ، ولأن قذفهن أغلب وأشنع . وإلا فلا فرق فيه بين الذكر والأنثى). وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: [اجتنبوا السبع الموبقات. قالوا: وما هن يا رسول الله؟ قال: الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات]⁽¹⁾. وقوله: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾. قال ابن زيد: (الكاذبون).

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. أي: إلا الذين تابوا من بعد القذف وأصلحوا أعمالهم ، فإن الله تعالى غفور رحيم ، يقبل توبتهم ويعفو عنهم .

قال الحافظ ابن حجر في «الفتح»: (ذهب الجمهور إلى أن شهادة القاذف بعد التوبة تقبل . ويحول عنه اسم الفسق . سواء كان بعد إقامة الحد أو قبله ، لقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾. روى البيهقي عن ابن عباس في هذه الآية: فمن تاب فشهادته في كتاب الله تقبل . وتأولوا قوله تعالى: ﴿أَبَدًا﴾ على أن المراد ما دام مصرّاً على قذفه . لأن «أبد كل شيء» على ما يليق به).

وقال الزمخشري: (والذي يقتضيه ظاهر الآية ونظمها ، أن تكون الجمل الثلاث بمجموعهن جزاء الشرط . كأنه قيل: ومن قذف المحصنات فاجلدوهم ، وردّوا شهادتهم وفسقوهم . أي فاجمعوا لهم الجلد والرد والتفسيق ، إلا الذين تابوا عن

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (294/5) في الوصايا ، وأخرجه مسلم (89) في الإيمان .

القذف وأصلحوا ، فإن الله يغفر لهم ، فينقلبون غير مجلودين ولا مردودين ولا مُفسّقين).

وفي صحيح البخاري في «كتاب الشهادات» - باب شهادة القاذف والسارق والزاني - عن عمر رضي الله عنه ، أنه جلدَ أبا بكرة وشبل بن معبد ونافعاً ، بقذف المغيرة بالزنى ، لما شهدوا بأنهم رأوه متبطن المرأة . ولم يثبت زيادُ الشهادة . ثم استتابهم وقال : من تاب قبلتُ شهادته . وفي رواية قال لهم : من أكذب نفسه قبلت شهادته فيما يستقبل . ومن لم يفعل ، لم أجز شهادته . فأكذب شبل نفسه ونافع . وأبى أبو بكرة أن يرجع .

وقد ذهب الإمام مالك والشافعي وأحمد بن حنبل إلى أنه إذا تاب قبلت شهادته ، وارتفع عنه حكم الفسق . وخالف أبو حنيفة وذهب إلى أن الفسق يرتفع بالتوبة ويبقى مردودُ الشهادة أبداً ، وما عليه الجمهور أقرب وأرجح ، والله تعالى أعلم .

6 - 10 . قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شَهَادَةٌ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَدَةُ أَحْدِهِمْ أَرْبَعٌ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ۝٦ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ۝٧ وَيَذَرُونَهَا أَكْذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعٌ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ۝٨ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝٩ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ۝١٠ ﴾ .

في هذه الآيات : تشريع الملاعنة ، إذا قذف الرجل زوجته ولا شهود له فيحضرها إلى الإمام فيدعي عليها بذلك ، فيُخلِفُه الحاكم أربع شهادات بالله في مقابلة أربعة شهداء ، إنه لصادق في رمية إياها بالزنا . والخامسة أن لعنة الله عليه إن كذب في دعواه ، فإذا قال ذلك بانت منه وتوجه عليها حد الزنا . ويدراً عنها الحد أن تُلاعن فتشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين فيما رماها به . ﴿ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝٩ ﴾ . ولولا لطفُ الله ورحمته ومنه على المؤمنين ما شرع هذا الفرج من الضيق والخلاص من الحرج ، وهو مع ذلك ثواب لما يجترحه عباده من الآثام ، رحيم بهم إذا أقبلوا عليه وأنابوا إليه ، حكيم في أقواله وأفعاله وتشريعه .

أخرج البخاري ومسلم وأحمد ومالك وأكثر أهل السنن عن سهل بن سعد : [أن

عويمراً أتى عاصم بن عدي وكان سيد بني عجلان فقال: كيف تقولون في رجل وجد مع امرأته رجلاً يقتله فتقتلونه أم كيف يصنع؟ سألني رسول الله ﷺ عن ذلك. فأتى عاصم النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، فكّر رسول الله ﷺ المسائل، فسأله عويمر فقال: إن رسول الله ﷺ كره المسائل وعابها. قال عويمر: والله لا أنتهي حتى أسأل رسول الله ﷺ عن ذلك. فجاء عويمر فقال: يا رسول الله، رجل وجد مع امرأته رجلاً أيقته فتقتلونه أم كيف يصنع؟ فقال رسول الله ﷺ: قد أنزل الله القرآن فيك وفي صاحبك، فأمرها رسول الله ﷺ بالملاعنة بما سمى الله في كتابه فلا عنها، ثم قال: يا رسول الله، إن حبستها فقد ظلمتها فطلّقها فكانت سنة لمن كان بعدهما في المتلاعنين. ثم قال رسول الله ﷺ: انظروا فإن جاءت به أسحمت أدعج العينين عظيم الألتين خدلج الساقين فلا أحسب عويمراً إلا قد صدق عليها، وإن جاءت به أحيمر كأنه وحرّة فلا أحسب عويمراً إلا قد كذب عليها، فجاءت به على النعت الذي نعت به رسول الله ﷺ من تصديق عويمر، فكان بعد ينسب إلى أمه⁽¹⁾.

وفي صحيح البخاري وسنن أبي داود والترمذي وابن ماجه عن ابن عباس: [أن هلال بن أمية كذب امرأته عند النبي ﷺ بشريك بن سحماء، فقال النبي ﷺ: البيّنة أو حدّ في ظهرك. فقال: يا رسول الله، إذا رأى أحدنا على امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البيّنة؟ فجعل النبي ﷺ يقول: البيّنة وإلا حدّ في ظهرك. فقال هلال: والذي بعثك بالحق إني لصادق، فليزلن الله ما يبئري ظهري من الحد. فنزل جبريل وأنزل عليه: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ فقرأ حتى بلغ: ﴿إِنْ كَانَ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾، فانصرف النبي ﷺ فأرسل إليها، فجاء هلال فشهد، والنبي ﷺ يقول: إن الله يعلم أن أحدكما كاذب، فهل منكما تائب؟ ثم قامت فشهدت، فلما كانت عند الخامسة وقفوها وقالوا: إنها موجبة. قال ابن عباس: فتلکأت ونكصت حتى ظننا أنها ترجع. ثم قالت: لا أفصح قومي سائر اليوم. فمضت. فقال النبي ﷺ: أبصروها، فإن جاءت به أكحل العينين، سابع الإلّيتين، خدلج الساقين، فهو لشريك بن سحماء، فجاءت به كذلك. فقال النبي ﷺ: لولا ما مضى من كتاب الله لكان لي ولها شأن⁽²⁾.

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4745)، ومسلم (1492) ح (2)، (3)، وأخرجه أبو داود (2247)، (2248)، وأحمد (334/5)، وابن ماجه (2066)، وغيرهم.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (4747)، وأبو داود في السنن (2237)، والترمذي في الجامع (3229)، وأخرجه ابن ماجه (2067)، وغيرهم.

الأحكام المترتبة على اللعان:

إذا تلاعن الزوجان ترتب على تلاعنهما هذه الأحكام:

1 - التفريق بينهما .

ففي الصحيحين عن ابن عمر قال: [لاعن النبي ﷺ بين رجل وامرأة من الأنصار وفرق بينهما]⁽¹⁾.

2 - التحريم المؤبد .

لقول سهل بن سعد - كما روى أبو داود والبيهقي بسند صحيح - : (مضت السنة في المتلاعنين أن يفرق بينهما ، ثم لا يجتمعان أبداً)⁽²⁾ .

3 - استحقاق الملاعة الصداق .

ففي الصحيحين عن أيوب عن سعيد بن جبير قال: [قلت لابن عمر: رجل قذف امرأته؟ فقال: فرق النبي ﷺ بين أخوي بني العجلان ، وقال: الله يعلم أن أحكما لكاذب ، فهل منكما تائب؟ فأبيا. وقال: الله يعلم أن أحكما كاذب ، فهل منكما تائب؟ فأبيا. فقال: الله يعلم أن أحكما لكاذب ، فهل منكما تائب؟ فأبيا ، ففرق بينهما. قال أيوب: فقال لي عمرو بن دينار: إن في الحديث شيئاً لا أراك تحدثه ، قال: قال الرجل: مالي؟ قال: قيل: لا مال لك ، إن كنت صادقاً فقد دخلت بها ، وإن كنت كاذباً فهو أبعد منك]⁽³⁾.

4 - التحاق الولد بالملاعة .

ففي الصحيحين عن ابن عمر: [أن النبي ﷺ لاعن بين رجل وامرأته ، فانتفى من ولدها ، ففرق بينهما ، وألحق الولد بالمرأة]⁽⁴⁾.

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (5314) ، وأخرجه مسلم (1494) .

(2) حديث صحيح . أخرجه أبو داود (2233) ، والبيهقي (410/7) ، وانظر الإرواء (2104) .

(3) حديث صحيح . أخرجه البخاري (5311) ، ومسلم (1493) ، وأبو داود (2241) ، والنسائي (177/6) ، من حديث سعيد بن جبير .

(4) متفق عليه . أخرجه البخاري (5315) ، ومسلم (1494) ، وأبو داود (2242) ، والترمذي (1218) ، والنسائي (178/6) ، وابن ماجه (2069) .

5- ثبوت التوارث بين الملائنة وولدها .

ففي الصحيحين وسنن أبي داود - في حديث سهل بن سعد - قال ابن شهاب :
(فكانت السنة بعدهما أن يفرق بين المتلاعنين ، وكانت حاملاً ، وكان ابنها يُدعى
لأمه . قال : ثم جرت السنة في ميراثها أنها ترثه ، ويرث منها ما فرض الله له) ⁽¹⁾ .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَالْغَيْبَةَ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ نكتة لطيفة في
اختصاصها بالغضب إن صدق عليها ، واختصاصه من قبل اللعن إن كان من الكاذبين .
قال ابن كثير : (فَحَصَّهَا بِالْغَضَبِ ، لِأَنَّ الْغَالِبَ أَنَّ الرَّجُلَ لَا يَتَجَسَّمُ فَضِيحَةَ أَهْلِهِ وَرَمِيهَا
بِالزَّنا إِلَّا وَهُوَ صَادِقٌ مَعْدُورٌ ، وَهِيَ تَعْلَمُ صَدَقَهُ فِيمَا رَمَاهَا بِهِ . وَلِهَذَا كَانَتْ الْخَامِسَةُ فِي
حَقِّهَا أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا ، وَالْمَغْضُوبُ عَلَيْهِ هُوَ الَّذِي يَعْلَمُ الْحَقَّ ثُمَّ يَحِيدُ عَنْهُ) .

قال القاسمي : (﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾) : أي لخرجتم
وشق عليكم كثير من أموركم ، ولكن لرحمته ولطفه ، شرع لكم من الفرج والمخرج ،
ما أنزله وأحكمه) .

11 - 26 . قوله تعالى : ﴿ إِنْ الَّذِينَ جَاءُوا بِإِلْفِكَ عُصْبَةً مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ
هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ
عَظِيمٌ ﴾ ^(١١) لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ ^(١٢)
لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ^(١٣)
وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ^(١٤) إِذْ
تَلَقَوْنَهُ بِالْأَسِنَّاتِ وَتَقُولُونَ يَا فَوَهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ
عَظِيمٌ ^(١٥) وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَّا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا بُهْتَنٌ
عَظِيمٌ ^(١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ^(١٧) وَيَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ^(١٨) إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ^(١٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ

(1) متفق عليه . أخرجه البخاري (5309) ، ومسلم (1492) ، وأبو داود (2235) ، من حديث سهل .

وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٢١﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَلَا يَأْتِلْ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعْنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٤﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ يَوْمَ يُؤْفِكُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٦﴾ الْحَاشَا لِلْحَاشِيَةِ وَالْحَاشِيَتِ لِلْحَاشِيَتِ وَالطَّيِّبَتِ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٧﴾ .

في هذه الآيات: تبرئة عائشة أم المؤمنين مما رماها به المنافقون ، أهل الإفك ، والبهتان المبين ، وتأديب الله تعالى عباده المؤمنين بآداب حفظ أعراضهم وسمعة بيوتهم وعدم الخوض في حكايات الثرثارين والكاذبين ، وبيان بعض السنن والحكم التي قضاها الله تبارك وتعالى في العالمين . فالإلى تفصيل حادثة الإفك وما تبعها من أحكام وآداب شرعية عالية .

لقد سقطت ورقة عبد الله بن أبي بن سلول في قومه إثر القرآن النازل في تكذيبه ، وفضح ما كان من محاولته لإثارة الفتنة وتحريك دعوى الجاهلية بين المسلمين ، وذلك أثناء العودة من غزوة بني المصطلق ، فكان قومه بعد ذلك يعنفونه ويلومونه كلما ظهرت منه حماقة أو خطأ أو غباء ، حتى إن ابنه عبد الله همَّ بقتله والتخلص منه .

يروى ذلك ابن إسحاق بسند حسن ، قال: فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة: [أن عبد الله أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ، إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه ، فإن كنت لا بد فاعلاً فمُرني به ، فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبرّ بوالده مني ، وإنني أخشى أن تأمر غيري فيقتله ، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشي في الناس ، فأقتله ، فأقتل رجلاً

مؤمناً بكافر ، فأدخل النار . فقال رسول الله ﷺ : بل نترقُّ به ، ونُحْسِنُ صُحْبَتَهُ ما بقي معنا⁽¹⁾ .

ورواه الطبراني والبخاري بلفظ آخر وفيه أن النبي ﷺ قال له : (لا ، ولكن بر أباك وأحسن صحبته) وسنده صحيح⁽²⁾ .

وقد ظهر مباشرة أثر هذه الحكمة النبوية في معالجة النفاق ، إذ أصبح رأس النفاق موضع التوبيخ من قومه ، كلما بدرت منه حماقة جديدة أو فاحت رائحة الغل والحقْد من قلبه .

ففي رواية ابن إسحاق السابقة : (قال : وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويُعَنِّقُونَهُ . فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب ، حين بلغه ذلك من شأنهم : كيف ترى يا عمر ، أما والله لو قتلته يوم قلت لي اقتله ، لأزعدت له أنفٌ ، لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته ، قال : قال عمر : قد والله علمتُ لأمر رسول الله ﷺ أعظمُ بركة من أمري⁽³⁾ .

ثم وقف عبد الله رضي الله عنه على باب المدينة يمنع أباه من دخولها ، واستل سيفه مهدداً والده رأس النفاق أن لا يدخلها إلا بإذن من رسول الله ﷺ .

روى ذلك الإمام الترمذي بإسناد حسن عن جابر ، قال : [فقال له ابنه عبد الله بن عبد الله : والله لا تَنْقَلِبَ حتى تُقَرَّ أنك الذليل ورسول الله ﷺ العزيز ففعل]⁽⁴⁾ .

وهنا دخل المدينة ذليلاً صاغراً ولكنه بيت شراً ، فما لبث فيها قليلاً حتى أحدث فتنة عمياء كادت تودي بصواب طائفة من المسلمين ، وتركت آخرين منهم حيارى قلقين لا يعرفون رشداً من أمرهم ، حين أقدم الخبيث على اتهام سيدة البراءة عائشة رضي الله عنها بالزنا والفاحشة ، وعلى إيذاء النبي ﷺ بالتطاول على عرضه وبسط القول فيه كذباً وزوراً .

فلندع أم المؤمنين ، أسوة الطاهرات العفيفات في الأمة ، تروي لنا خبر الإفك

(1) انظر : سيرة ابن هشام (291/2) بسند حسن .

(2) حديث حسن . قال الهيثمي في المجمع (318/9) : رواه البخاري ورجاله ثقات . وانظر صحيح السيرة - إبراهيم العلي - ص 255 .

(3) انظر : سيرة ابن هشام (290/2 - 292) ، وهو حديث حسن لغيره كما مضى .

(4) انظر : سنن الترمذي (3315) ، كتاب التفسير ، وهو حسن صحيح .

وما نزل بييت النبوة ومجتمع المسلمين حينئذ من الأذى :

فقد أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت : [كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج سفراً قرع بين أزواجه ، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه . فأقرع بيننا في غزاة غزاها ، فخرج سهمي فخرجت معه بعدما أنزل الحجاب ، فأنا أحمل في هودج وأنزل فيه ، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقفل ودنونا من المدينة ، آذن ليلة بالرحيل ، فقامت حين أذنوا بالرحيل ، فمشيت حتى جاوزت الجيش ، فلما قضيت شأني أقبلت إلى الرحيل ، فلمست صدري فإذا عقد لي من جزع أظفار قد انقطع ، فرجعت فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه .

فأقبل الذين يرحلون لي فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي أركب وهم يحسبون أنني فيه ، وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يثقلن ولم يغشهن اللحم ، وإنما يأكلهن العليقة من الطعام ، فلم يستنكر القوم حين رفعوه ثقل الهودج فاحتملوه . وكنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل وساروا فوجدت عقدي بعد ما استمر الجيش ، فجنّت منزلهم وليس فيه أحد ، فأمنت منزلي الذي كنت وظننت أنهم سيفقدوني فيرجعون إلي ، فبينما أنا جالسة غلبتني عيناى فنمت .

وفي رواية لابن إسحاق : (فتَلَفَّفت بجلبابي : ثم اضطجعتُ في مكاني ، وعرفت أن لو قد افتقدت لرُجع إليّ) .

قالت : وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني من وراء الجيش ، فأصبح عند منزلي ، فرأى سواد إنسان نائم وأتاني ، وكان يراني قبل الحجاب ، فاستيقظت باسترجاعه حين أناخ راحلته . (وفي رواية ابن إسحاق : قالت : فوالله إني لمُضطجعة إذ مرَّ بي صفوان بن المعطل السلمي ، وقد كان تخلف عن العسكر لبُعْض حاجته ، فلم يبت مع الناس ، فرأى سوادي ، فأقبل حتى وقف عليّ ، وقد كان يراني قبل أن يُضرب علينا الحجاب ، فلما رأي قال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، طعينة رسول الله ﷺ ! وأنا متلففة في ثيابي ، قال : ما خلَّفك يرحمك الله ؟ قالت : فما كَلَّمْتُهُ ، ثم قرَّب البعير ، فقال : اركبي ، واستأخر عني . قالت : فركبت ، وأخذ برأس البعير ، فانطلق سريعاً ، يطلب الناس ، فوالله ما أدركننا الناس ، وما افتقدت حتى أصبحت ، ونزل الناس ، فلما اطمأنوا طلع الرجلُ يقود بي ، فقال أهل الإفك ما قالوا ، فارتعج العسكر - أي تحرك واضطرب - ، والله ما أعلم بشيء من ذلك) .

وأما رواية البخاري: قالت: فاستيقظت باسترجاعه حين أناخ راحلته، فوطئ يدها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا معرسين في نحو الظهيرة، فهلك من هلك، وكان الذي تولى الإفك عبد الله بن أبي بن سلول، فقدمنا المدينة فاشتكت بها شهراً، والناس يفيضون من قول أصحاب الإفك ويريني في وجهي أني لا أرى من النبي ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أمرض، إنما يدخل فيسلم ثم يقول كيف تيكم؟ لا أشعر بشيء من ذلك حتى نقهت فخرجت أنا وأم مسطح قبل المناصع متبرزنا لا نخرج إلا ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريباً من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأول في البرية أو في التنزه، فأقبلت أنا وأم مسطح بنت أبي رهم نمشي فعثرت في مرطها فقالت: تَعَسَ مسطح، فقلت لها: بئس ما قلت! أتسيبن رجلاً شهد بدرًا. فقالت: يا هنتاه ألم تسمعي ما قالوا؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك فازددت مرضاً إلى مرضي. فلما رجعت إلى بيتي دخل علي رسول الله ﷺ فسلم فقال: كيف تيكم؟ فقلت: ائذن لي إلى أبوي. قالت: وأنا حينئذ أريد أن أستيقن الخبر من قبلهما، فأذن لي رسول الله ﷺ فأتيت أبوي فقلت لأمي: ما يتحدث به الناس؟ فقالت: يا بنية! هوني على نفسك الشأن، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها، فقلت: سبحان الله! أو لقد يتحدث الناس بهذا، قالت: فبت تلك الليلة حتى أصبحت لا يَرَقَا لي دَمْعٌ ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحت فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يستشيرهما في فراق أهله، فأما أسامة فأشار عليه بالذي يعلم في نفسه من الود لهم، فقال أسامة: أهلك يا رسول الله ولا نعلم والله إلا خيراً. وأما علي فقال: يا رسول الله لم يضيّق الله عليك والنساء سواها كثير وسل الجارية تصدقك. فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال: يا بريرة! هل رأيت فيها شيئاً يريبك؟ فقالت بريرة: لا والذي بعثك بالحق، إن رأيت منها أمراً أغمض عليها قط أكثر من أنها جارية حديثة سنّ تنام عن العجين، فتأتي الداجن فتأكله، فقام رسول الله ﷺ من يومه فاستعذر من عبد الله بن أبي بن سلول. فقال رسول الله ﷺ: من يَغْذُرْنِي⁽¹⁾ من رجل بلغني أذاه في أهلي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً، وقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلا معي؟ فقام سعد بن معاذ فقال: يا رسول الله أنا والله أعذرك منه، إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا فيه أمرك. فقام سعد بن عبادة وهو

(1) أي من يقوم بعذري إن كافأته على سوء صنيعه فلا يلومني.

سيد الخزرج ، وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً ولكن احتملته الحمية ، فقال: كذبت لعمرى الله لا تقتله ولا تقدر على ذلك. فقام أسيد بن الحضير فقال: كذبت لعمرى الله والله لنقتله فإنك منافق تجادل عن المنافقين.

فثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتلوا رسول الله ﷺ على المنبر ، فنزل وخفضهم حتى سكتوا وسكت ، وبكيت يومي لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم فأصبح عندي أبواي وقد بكيت ليلتي ويوما حتى ظننت أن البكاء فالتق كبدتي. قال: فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي إذ استأذنت امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكي معي ، فبينما نحن كذلك إذ دخل رسول الله ﷺ فجلس ولم يجلس عندي من يوم قيل فيّ ما قيل قبلها ، وقد مكث شهراً لا يوحى إليه في شأني شيء.

قالت: فتشهد ثم قال: يا عائشة فإنه بلغني عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألّمت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه. فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة ، وقلت لأبي: أجب عني رسول الله ﷺ! قال: والله وما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ؟ فقلت لأمي: أجيبني عني رسول الله ﷺ فيما قال! قالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ؟. قالت: وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن ، فقلت: إني والله لقد علمت أنكم سمعتم ما يتحدث به الناس ووقر في أنفسكم وصدقتم به ، ولئن قلت لكم إني بريئة والله يعلم أنني بريئة لا تصدقوني بذلك ، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أنني بريئة لُتَصَدَّقْتِي ، والله ما أجد لي ولكم مثلاً إلا أبا يوسف إذ قال: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف: 18]. ثم تحولت على فراشي وأنا أرجو أن يبرئني الله ، ولكن والله ما ظننت أن ينزل في شأني وحياً ، ولأنا أحقر في نفسي من أن يتكلم بالقرآن في أمري ، ولكنني كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله ، فوالله ما رام مجلسه ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه ، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء ، حتى أنه ليتحدر مثل الجمان من العرق في يوم شات ، فلما سري عن رسول الله ﷺ وهو يضحك ، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال لي: يا عائشة أحمدي الله فقد برأك الله. فقالت أمي: قومي إلى رسول الله ﷺ. فقلت: لا والله لا أقوم إليه ولا أحمده إلا الله. فأنزل الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِآيَاتِكُمْ غُصْبَةً مِّنْكُمْ ﴾ - الآيات - فلما أنزل الله هذا في براءتي قال أبو بكر رضي الله عنه ، وكان ينفق على مسطح بن أثانة لقربته منه: والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد ما قاله لعائشة ،

فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولَ الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ إلى قوله: ﴿عَفْوٌ رَّحِيمٌ﴾ فقال أبو بكر: بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي ، فرجع إلى مسطح الذي كان يجري عليه . وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب بنت جحش عن أمري! فقال: يا زينب! ما علمت؟ ما رأيت؟ فقالت: أحمي سمعي وبصري ، والله ما علمت عليها إلا خيراً ، قالت: وهي التي كانت تساميني فعصمها الله بالورع⁽¹⁾.

فإلى تفصيل ما نزل من القرآن الكريم ، وهو يفضح سوء المنافقين ، ويرتقي بالمؤمنين المخلصين ، ليرفعهم إلى مستوى الأدب الرفيع وحسن الظن ، فإن المنافقين والشياطين يحبون أن تشيع الفاحشة في الأرض ، ويودون خراب بيوت المسلمين .

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْسَبَ مِنَ الْإِنِّمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

وفي التفسير عن ابن عباس: (قوله: ﴿جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ﴾... الآية قال: الذين افتروا على عائشة: عبد الله بن أبي ، وهو الذي تولى كبره ، وحسان بن ثابت ، ومسطح ، وحمئة بنت جحش).

فقد أغري بدعاية رأس النفاق جماعة من المؤمنين استزلهم الشيطان فوقعوا في الإفك منهم حسان بن ثابت ، ومسطح بن أثانة ، وحمئة بنت جحش أخت زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ التي عصمها الله بالورع ، بينما هلكت أختها وخاضت مع الخائضين .

وقوله: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾. قال ابن جرير: (يقول: لا تظنوا ما جاؤوا به من الإفك شراً لكم عند الله ، وعند الناس ، بل ذلك خير لكم عنده وعند المؤمنين ، وذلك أن الله يجعل ذلك ، كفارة للمرمي به ، ويظهر براءته مما رمي به ، ويجعل له منه مخرجاً).

وعن علقمة بن وقاص وغيره قالوا: قالت عائشة: (كان الذي تولى كبره: الذين يجمعهم في بيته ، عبد الله بن أبي بن سلول).

(1) حديث صحيح. انظر صحيح البخاري (4141)، كتاب المغازي. وكتابي: السيرة النبوية على منهج الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة - حادثة الإفك - لتفصيل البحث.

وقال ابن زيد: (أما الذي تولى كبره منهم ، فعبد الله بن أبي بن سلول الخبيث ، هو الذي ابتدأ هذا الكلام ، وقال: امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت ثم جاء يقود بها).

وعن عروة عن خالته عائشة قال: (وأخبرت أنه كان يحدث به عنهم ، فيقره ويسمعه ويستوشيه).

وقال مجاهد: (والذي تولى كبره هو عبد الله بن أبي ابن سلول ، وهو بدأه).

ثم عاتب الله من خاض بالإفك من المؤمنين ، وعلمهم الأدب الرفيع الذي كان ينبغي أن يتحلوا به إذا ما عصفت بهم محاولات أهل المكر والكذب والنفاق ، فقال جل ذكره: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾.

قال ابن زيد في التفسير: (الخير ظن المؤمن أن المؤمن لم يكن ليفجر بأمه ، وأن الأم لم تكن لتفجر بابنها ، إن أراد أن يفجر فجر بغير أمه ، يقول: إنما كانت عائشة أمًا ، والمؤمنون بنون لها ، محرماً عليها ، وقرأ: ﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ (الآية).

في حين أثنى الله على أبي أيوب وطائفة من المؤمنين كذبوا الخبر لثقتهم بآل بيت النبوة ، وإدراكهم طبيعة المهزلة الساقطة التي كان يديرها المنافقون ، فما إن سمع أبو أيوب بها قال: (سبحانك ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم).

فقد أخرج البخاري في صحيحه عن عروة عن عائشة رضي الله عنها: [أن رسول الله ﷺ خطب الناس فحمد الله وأثنى عليه وقال: ما تشيرون علي في قوم يسبون أهلي ما علمت عليهم من سوء قط. وعن عروة قال: لما أخبرت عائشة بالأمر قالت: يا رسول الله أتأذن أن أنطلق إلى أهلي فأذن لها وأرسل معها الغلام. وقال رجل من الأنصار سبحانك ﴿مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾] (1).

وفي التفاسير عن محمد بن إسحاق ، عن أبيه ، عن بعض رجال بني النجار: [أن أبا أيوب خالد بن زيد ، قالت له امرأته أم أيوب: أما تسمع ما يقول الناس في عائشة؟ قال: بلى وذلك الكذب ، أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا والله ما كنت لأفعله ، قال: فعائشة والله خير منك. قال: فلما نزل القرآن ، ذكر الله من قال في الفاحشة ما قال من أهل الإفك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ وذلك حسان وأصحابه

الذين قالوا ما قالوا ، ثم قال : ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ﴾ . . . الآية : أي كما قال أبو أيوب وصاحبه .

فهلّا جاء هؤلاء العصبة الذين اختلقوا الإفك ورموا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بالبهتان ، بأربعة شهداء يشهدون على حقيقة ما يزعمون ، فإذا لم يفعلوا فأولئك عند الله هم الكاذبون . ولولا تفضل الله عليكم أيها الخائضون ، بتركه تعجيل عقوبتكم في الدنيا ، ثم رحمته بقبول توبتكم وعفوه عنكم في الدنيا والآخرة ، لمسكم فيما خضتم فيه من أمرها عذاب عظيم معجل في الدنيا ، لقاء ما أسرفتم على أنفسكم وأذيتكم أمكم ونبيبكم .

وقد أمر النبي ﷺ بإقامة حد القذف على مسطح وحسان وحمنة كما يروي البزار والبيهقي بإسناد حسن ، وأما رأس النفاق فلا داعي لإقامة الحد عليه ، إذ إن في إقامته عليه كفارة ، وهو ممن توعد الله جهنم يصلها ذليلاً صاعراً ، ويدوق فيها عذاباً أليماً ، فهو أدنى بكثير من أن يقام عليه الحد ، هذا تفسير ، والتفسير الآخر أورده ابن القيم بزيادة المعاد : أنّ ذلك المنافق كان لا يترك دليلاً ضده يدينه في كلامه ، فكان لا يتكلم بالإفك أمام المؤمنين ، وأميل إلى التفسير الأول .

ثم عاب الله على الذين تلقونه بالستهم وخاضوا فيه دون دليل أو علم ، وهم يحسبون ذلك هيناً وهو عند الله عظيم ، وإنما كان الأليق بهم أن يقولوا : ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانه هذا بهتان عظيم .

فعن مجاهد : (إذ تلقونه بالستكم : قال : تزوونه بعضكم عن بعض) .

وقال ابن جرير : (يقول : وتلقيكم ذلك كذلك ، وقولكموه بأفواهكم ، عند الله عظيم من الأمر ، لأنكم كنتم تؤذون به رسول الله ﷺ وحليلته . فلولا أيها الخائضون في الإفك ، الذي جاءت به عصبة منكم ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ ممن جاء به ﴿فَلْتَمَّ﴾ ما يحل لنا أن نتكلم بهذا ، وما ينبغي لنا أن نفوه به ﴿سُبْحَنَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾ تنزيهاً لك يا رب ، وبراءة إليك مما جاء به هؤلاء) .

ثم أخبر المؤمنين ليحذروا : أنّ هناك من يحب أن تشيع الفاحشة في صفوفهم ، ويخرب بيوتهم ويهددها من الداخل ، وأولئك لهم عذاب أليم ، فإياكم أن تتبعوا خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر وفساد القول والعمل . ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ . قال ابن عباس : (ما اهتدى منكم من الخلائق لشيء من

الخير ، ينفع به نفسه ، ولم يتق شيئاً من الشر يدفعه عن نفسه).

وقال ابن زيد: (ما زكى: ما أسلم ، وقال: كل شيء في القرآن من زكى أو تزكى فهو الإسلام). والله سميع لما تقولون ، عليم بكل ما يصدر عنكم ، فهو محصيه عليكم ليجازيكم به .

ثم خاطب الله الصديق الذي أصيب في أهله ونالت السنة المفترين ابنته الطاهرة ، وقد كان عزم على قطع معونته وصدقاته عن مسطح بن أثانة الذي خاض في الإفك مع الخائضين ، فقال أبو بكر بعدما نزلت براءة عائشة رضي الله عنها: والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعدما قاله لعائشة ، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾.

فقال أبو بكر كما يروي البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها: [بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي ، فرجع إلى مسطح الذي كان يجري عليه].

ثم بين سبحانه أن جزاء كل من يرمي محصنة لم تقارف سوءاً هو اللعن في الدنيا والآخرة ما لم يحدث توبة ويقام عليه الحد فقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَاضِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.

واختار ابن جرير قول مَنْ قال: (نزلت هذه الآية في شأن عائشة ، والحكم بها عام في كل من كان بالصفة التي وصفه بها فيها).

ثم أخبر سبحانه أن هؤلاء المفترين القاذفين المحصنات بالسوء ستشهد عليهم يوم القيامة ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون، وسوف ينالون يومئذ ما يستحقون، ثم بين جل ذكره أن الخبيثات للخبيثين والطيبات للطيبين .

قال ابن عباس: (يقول: الخبيثات من القول ، للخبيثين من الرجال ، والخبيثون من الرجال ، للخبيثات من القول).

وقال الضحاك وزاد: (والطيبات من القول للطيبين من الرجال ، والطيبون من الرجال للطيبات من القول ، فهذا في الكلام ، وهم الذين قالوا لعائشة ما قالوا ، هم الخبيثون . والطيبون المبرؤون مما قال الخبيثون).

ووعد الطيبين أن ﴿ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ . قال قتادة: (مغفرة لذنوبهم ، ورزق كريم في الجنة).

دروس ونتائج وأحكام:

1 - الولاء والبراء هو محور منهج الإيمان عند المسلمين :

فالولاء يكون لله ولرسوله وللمؤمنين ، والبراء يكون من الشرك والمشركين والمنافقين ، وهذا عبد الله ابن المنافق ابن سلول قد أظهر تألقاً عالياً في امتثال مفهوم الولاء والبراء كما بيّنه الوحي الكريم ، وسجل رقماً عالمياً آنذاك في مفهوم الحب والبغض في الله ، فأثر أن يقوم بنفسه بتخليص المجتمع المسلم من أمراض والده التي تهدد سلامة الجماعة المؤمنة وأمنها ، الأمر الذي يدل على دخول الإيمان إلى أعماق قلوب أولئك الرجال حتى أحدث تغييراً واضحاً في مقاييسهم وعلاقاتهم وسلوكهم ، فقال لأبيه رأس النفاق : (والله لا تنقلب حتى تقر أنك الذليل ورسول الله العزيز).

وقد علل النبي ﷺ لعبد الله منعه من قتل أبيه بالحرص على سمعة الإسلام ونبي الأمن والسلام ، فقال له - كما يروي البزار ورجاله ثقات - : [لا يتحدث الناس أن محمداً قتل أصحابه] .

لقد أسهب الوحي الكريم في تعميق مفهوم الولاء والبراء في قلوب المؤمنين زمن التنزيل ، لينعكس ذلك على تصوراتهم وبقينهم وأعمال جوارحهم ، فجاءت النصوص تؤصل ذلك المفهوم المنهجي مرة بعد مرة ، لتدرك الجماعة المؤمنة أهميته ، ولتمضي الأمة من بعدهم على ذلك السبيل القويم .

فقد قال الله في سورة المجادلة : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّوْنَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

وقال في سورة الممتحنة : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾ .

وفي الصحيحين والمسند عن أنس عن النبي ﷺ قال : [ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه

إلا الله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار⁽¹⁾ .

2 - بشرية الرسول وعدم علمه بالغيب :

فقد قاسى النبي ﷺ ألم ما يقال في عرضه ، وفي أحب الناس إليه زوجته عائشة بنت أحب الناس إليه أبي بكر الصديق قرابة شهر ، ولو كان يعلم الغيب أو يقدر على استحضار الوحي لفعل ، ولخفف بذلك عن نفسه ومن حوله تلك المعاناة التي دامت أياماً طويلة ، وفي هذا أكبر دليل على أنه بشر يأتيه الخبر من الوحي ، فإذا تأخر عنه فترة من الزمن عايش الأحداث كغيره وحاكم الأمور ببشريته وبما معه من أدلة وهدى ونور .

وفي هذا يقول الدكتور العمري : (وفي حادثة الإفك توضيح دقيق لبشرية الرسول ﷺ ، فقد تأثر أبليغ التأثير لرمي المنافقين زوجته . ومع حرصه عليها وحبها لها ولأبيها ، فإنه لم يتمكن من الكشف عن الغيب أو استحضار الوحي الذي انقطع عنه شهراً ليجري عليه الابتلاء والامتحان)⁽²⁾ .

لقد قال الله في سورة الكهف : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ ۖ ﴾ .

وفي صحيح الإمام البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه قال : [قال النبي ﷺ لجبريل : ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟ فنزلت : ﴿ وَمَا نُنَزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا ﴾]⁽³⁾ .

وكذلك لو كان الوحي - كما يزعم بعض المستشرقين وبعض المنهزمين - أنه إلهام نفسي أو تألق عقلي أو تفاعل بين الأفكار والخواطر التي تجوب داخل النفس ، لكان ذلك الألم النفسي كافياً لانبثاق شيء من الإلهام والخواطر التي تحول دون استمرار هذه المعاناة للعواطف الملتهبة المتقلبة وتؤدي لإنهاء الصراع ، وقد أشار إلى ذلك الدكتور العمري في كتابه «السيرة النبوية الصحيحة» .

ولكن الأمر كما قال الله في سورة الحاقة : ﴿ وَلَوْ نَفَوَّلْ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿١١﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿١٣﴾ فَمَا يَنْكُرُ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ .

وكما قال في سورة الأعراف : ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ

(1) حديث صحيح . انظر صحيح البخاري (21) ، كتاب الإيمان ، وصحيح مسلم (43) ، كتاب الإيمان .

(2) انظر كتاب : «السيرة النبوية الصحيحة» (2/ 415) .

(3) حديث صحيح . انظر صحيح البخاري (4731) ، كتاب التفسير .

أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَا سَتَـكْرَتُ مِنْ الْخَيْرِ وَمَا مَسْنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

وفي كنوز السنة الصحيحة تأكيد كبير لهذا المفهوم في الإسلام.

فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن رافع بن خديج ، أن رسول الله ﷺ قال :
[إنما أنا بشر ، إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي ،
فإنما أنا بشر] (1).

وله شاهد صحيح في المسند من حديث طلحة بلفظ : [إنما أنا بشر مثلكم ، وإن
الظن يخطئ ويصيب ، ولكن ما قلت لكم : قال الله ، فلن أكذب على الله] . وهو رواية
لمسلم من حديث رافع (2) .

وفي الصحيحين والمسند عن أم سلمة عن النبي ﷺ قال : [إنما أنا بشر وإنكم
تختصمون إليّ ، فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فأقضي له على نحو
ما أسمع ، فمن قضيت له بحق مسلم ، فإنما هي قطعة من النار ، فليأخذها أو ليركها] (3) .

وفي صحيح الإمام مسلم عن جابر عن النبي ﷺ قال : [إنما أنا بشر ، وإنني اشتربتُ
على ربي عزَّ وجل : أي عبد من المسلمين شتمته ، أو سببته ، أن يكون ذلك له زكاةً
وأجراً] (4) .

وفيه وفي مسند الإمام أحمد وسنن ابن ماجه بسند صحيح عن ابن مسعود قال : قال
رسول الله ﷺ : [إنما أنا بشر أنسى كما تنسون ، فإذا نسي أحدكم فليسجد سجدتين
وهو جالس] (5) .

وكذلك يروي ابن سعد بإسناد صحيح عن محمود بن لبيد عن النبي ﷺ أنه قال :
[إنما أنا بشر تدمع العين ويخشع القلب ، ولا نقول ما يُسخط الرب ، والله يا إبراهيم إنا
بك لمحزونون] (6) .

(1) حديث صحيح . انظر صحيح مسلم (2362) ، كتاب الفضائل .

(2) حديث صحيح . انظر صحيح مسلم (2361) ، كتاب الفضائل ، من حديث رافع بن خديج .

(3) حديث صحيح . انظر صحيح البخاري (6967) كتاب الحيل ، وصحيح مسلم (1713) كتاب
الأقضية ، من حديث أم سلمة رضي الله عنها .

(4) حديث صحيح . انظر صحيح مسلم (2602) ، كتاب البر والصلة .

(5) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح (572) ح (94) . ورواه أحمد وابن ماجه .

(6) حديث صحيح . أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (1/ 142) ، وانظر السلسلة الصحيحة (1732) .

3- براءة عائشة إلى يوم القيامة :

قال الحافظ ابن كثير عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٢٣) : (وقد أجمع العلماء رحمهم الله قاطبة على أن من سبها بعد هذا ورمأها بما رمأها به بعد هذا الذي ذكر في هذه الآية ، فإنه كافر لأنه معاند للقرآن).

لقد عوض الله عائشة رضي الله عنها عن محنتها ودموعها البرينة التي انهمرت في أيام المحنة والصبر ، ومنعتها من النوم والراحة ، أن شرفها بصدق توكلها ببراءة في قرآن يُتلى يتعبد به الناس على مر الدهور والأزمان. فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِآلِافِكْ عِصْيَةٍ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾. وقد ذكرها ابن عباس بتلك الشهادة من الله أثناء موتها حين دخل عليها فقال لها: (أبشري فإنك زوجة رسول الله ﷺ ، وكان يحبك ولم يتزوج بكراً غيرك ، ونزلت براءتك من السماء) - تفسير ابن كثير -.

لقد شرفها الله بنزول الوحي لتبرئتها ولم تكن هي تتوقع ذلك ، فكانت تقول: (ولشأني في نفسي كأن أحقر من أن يتكلم الله فيّ بوحى يُتلى) أخرجاه في الصحيحين عنها.

وجاء جبريل يوماً إلى النبي ﷺ وبعث لها معه سلاماً ، فأقرأها إياه.

ففي صحيح الإمام مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ : [يا عائشة ، هذا جبريل يقرأ عليك السلام ، فقالت: وعليه السلام ورحمة الله ، قالت: وهو يرى ما لا أرى]⁽¹⁾.

وبقيت عائشة رضي الله عنها محبوبة نبينا الأولى من بين زوجاته ، ينتظر يومها بفارغ الصبر. روى مسلم عنها قالت: [إن كان رسول الله ﷺ ليتفقد ، يقول: (أين أنا اليوم ، أين أنا غداً) ، استبطاء ليوم عائشة ، قالت: فلما كان يومي ، قبضه الله بين سَخْرِي⁽²⁾ ونَحْرِي⁽³⁾].

(1) حديث صحيح. انظر صحيح مسلم (2447) ، كتاب فضائل الصحابة.

(2) السخر: الرثة.

(3) حديث صحيح. انظر صحيح مسلم (7/ 137) ، وهو في مختصر صحيح مسلم برقم (1663) ، باب : في فضائل عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها.

وفي صحيح مسلم أيضاً عنها قالت: [أرسل أزواجُ النبي ﷺ فاطمة بنت رسول الله ﷺ إلى رسول الله ﷺ ، فاستأذنت عليه وهو مضطجع معي في مِرْطِي ، فأذن لها ، فقالت: يا رسول الله إن أزواجك أرسلنني إليك يسألك العدل في ابنة أبي قحافة⁽¹⁾ وأنا ساكتة ، قالت: فقال لها رسول الله ﷺ: أي بنية أَلستِ تُحِبِّين ما أحب؟ فقالت: بلى ، قال: فأحبي هذه ، قالت: فقامت فاطمة رضي الله عنها حين سمعت ذلك من رسول الله ﷺ ، فرجعت إلى أزواج رسول الله ﷺ فأخبرتهن بالذي قالت ، وبالذي قال لها رسول الله ﷺ ، فقلن لها: ما نراك أَعْنَيْتِ عنا من شيء ، فارجعي إلى رسول الله ﷺ فقولِي له: إن أزواجك ينشدنك العدل في ابنة أبي قحافة ، فقالت فاطمة: والله لا أكلمه فيها أبداً ، قالت عائشة: فأرسل أزواجُ النبي ﷺ زينب بنت جَحْشٍ رضي الله عنها زوج النبي ﷺ ، وهي التي كانت تساميني⁽²⁾ منهن في المنزل عند رسول الله ﷺ ، ولم أر امرأة قط خيراً في الدين من زينب ، وأتقى الله ، وأصدق حديثاً ، وأوصل للرحم ، وأعظم صدقةً ، وأشد ابتذالاً لنفسها في العمل الذي تصدَّقُ به وتقرَّبُ به إلى الله تعالى ما عدا سورة من حِدةٍ كانت فيها ، تُسرَّعُ منها الفَيْتَةُ - تعني فيها شدة في الخلق وسرعة في الغضب لكنها تسرع الرجعة ولا تصر - ، قالت: فاستأذنت على رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ مع عائشة في مرطها على الحالة التي دخلت فاطمة عليها وهو بها ، فأذن لها رسول الله ﷺ ، فقالت: يا رسول الله إن أزواجك أرسلنني إليك يسألك العدل في ابنة أبي قحافة ، قالت: ثم وَقَعْتُ بي ، فاستطالت عليّ ، وأنا أرقبُ رسول الله ﷺ ، وأرقبُ طَرْفَهُ هل يأذن لي فيها ، قالت: فلم تبرح زينب حتى عرفت أن رسول الله ﷺ لا يكره أن أنتَصِرَ ، قالت: فلما وَقَعْتُ بها لم أَتَشَبْهَا - أي لم أمهلها - حين أنحيت عليها - أي قصدتها بالمعارضة وانتصرت منها - ، قالت: فقال رسول الله ﷺ وَتَبَسَّمَ: إنها ابنة أبي بكر⁽³⁾.

4- الأصل في المؤمنين الظن بأنفسهم خيراً:

فقد نبه الله سبحانه المؤمنين إلى ذلك حين نزلت الآيات من سورة النور تبرى عائشة ، وترتقي بالمجتمع المسلم إلى رفيع الأدب والخلق: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ

(1) المراد التسوية في محبة القلب بينها وبينهن ، وهو أمر لا تكليف فيه ولا يملكه أحد .

(2) أي تعادلني وتضاهيني في الحظوة والمنزلة الرفيعة .

(3) حديث صحيح . انظر مختصر صحيح مسلم (1662) ، الباب السابق .

وَالْمُؤْمِنَتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١١﴾

وقد تألق من بين المؤمنين بهذا الخلق أبو أيوب رضي الله عنه ، وكذلك زينب بنت جحش التي قالت : (أحمي سمعي وبصري ، والله ما علمت إلا خيراً) . وكذلك أسامة ابن زيد رضي الله عنه .

وقد جاءت السنة الصحيحة لتؤصل جذور هذا الخلق الكريم في قلوب المؤمنين ، وَلِتَعَدَّ عَلَى ذَلِكَ الْأَجْرَ الْعَظِيمَ .

فقد أخرج الإمام أحمد بإسناد صحيح عن أسماء بنت يزيد أن رسول الله ﷺ قال : [مَنْ دَبَّ عَنْ عَرَضِ أَخِيهِ بِالْغَيْبَةِ ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَعْتَقَهُ مِنَ النَّارِ] ⁽¹⁾ .

والمسلمون بذلك يُقَوِّتُونَ الفرصة على شياطين الإنس والجن ، الذين يهتمهم تشيع الفاحشة بين صفوفهم ، ويتمنون بذلك خراب بيوتهم وتمزيق روابطهم وصلاتهم . وفي هذا يقول الدكتور العمري : (والحق أن حادثة الإفك كادت تشعل نار العصبية من جديد بين الأوس والخزرج هذه المرة ، حيث تجادل زعماءهم بغضب في المسجد ، وكان هذا هو مقصد المنافقين أن يهدموا وحدة المسلمين ويزعزعوا ثقتهم بقيادتهم ، ويشعلوا نار الفتنة بينهم ، ولكن الله سلم ، وتمكن الرسول عليه الصلاة والسلام من تهدئة الجميع والحفاظ على وحدتهم والخروج من الامتحان الصعب بنجاح) ⁽²⁾ .

وقد أجاد ابن القيم رحمه الله في وصفه لموقف أسامة حين أخذ يسلي رسول الله ﷺ ويشير عليه بإمساك أهله دون التفات لمحاولات الأعداء ومكرهم وكلامهم فقال : (وأشار عليه أسامة وغيره بإمساكها ، وألا يلتفت لكلام الأعداء ، .. لَمَّا عَلِمَ حُبَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَهَا ولأبيها ، وعلم من عفتها وبراءتها ، وحصانتها وديانتها ما هي فوق ذلك ، وأعظم منه ، وعرف من كرامة رسول الله ﷺ على ربِّه ومنزلته عنده ، ودفاعه عنه ، أنه لا يجعل ربَّه بيته وحبيته من النساء ، وبنْتِ صديقِه بالمنزلة التي أنزلها به أرباب الإفك ، وأن رسول الله ﷺ أكرم على ربه ، وأعزُّ عليه من أن يجعل تحته امرأة بغياً ، وعلم أن الصديقة حبيبة رسول الله ﷺ أكرم على ربه من أن يبتليها بالفاحشة ، وهي تحت رسوله .

(1) حديث صحيح . رواه أحمد بإسناد صحيح . انظر صحيح الجامع (6116) .

(2) انظر كتاب : «السيرة النبوية الصحيحة» (2/ 412) .

قال: وَمَنْ قَوَّيْتُ معرفته لله ومعرفته لرسوله وقدره عند الله في قلبه ، قال كما قال أبو أيوب وغيره من سادات الصحابة ، لما سمعوا ذلك: ﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾ (1).

5- تمحيص الله لقلوب المؤمنين بالابتلاء وتأخر الوحي :

فقد كانت الأيام التي وافقت حادثة الإفك مدرسة للصحابة ليتلقوا فيها تربية خاصة يراد منها أن ترفعهم وتصل نفوسهم وقلوبهم .

وقد فصل ابن القيم القول في ذلك فقال: (فإن قيل: فما بال رسول الله ﷺ توقف في أمرها ، وسأل عنها ، وبحث ، واستشار ، وهو أعرف بالله ، وبمنزلة عنده ، وبما يليق به ، وهلاً قال: سُبْحَانَكَ هذا بُهْتَانٌ عظيم ، كما قاله فضلاء الصحابة؟ فالجواب: أن هذا من تمام الحكيم الباهرة التي جعل الله هذه القصة سبباً لها ، وامتحاناً وابتلاءً لرسوله ﷺ ، ولجميع الأمة إلى يوم القيامة ، ليرفع بهذه القصة أقواماً ، ويضع بها آخرين ، ويزيد الله الذين اهتدوا هدىً وإيماناً ، ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ، واقتضى تمام الامتحان والابتلاء أن حُبِسَ عن رسول الله ﷺ الوحي شهراً في شأنها ، لا يُوحى إليه في ذلك شيء لتتم حِكْمَتُهُ التي قدرها وقضاها ، وتظهر على أكمل الوجوه ، ويزداد المؤمنون الصادقون إيماناً وثباتاً على العدل والصدق ، وحسن الظن بالله ورسوله ، وأهل بيته ، والصديقين من عباده ، ويزداد المنافقون إفكاً ونفاقاً ، ويظهر لرسوله وللمؤمنين سرائرهم ، ولتتم العبودية المرادة من الصديقة وأبويها ، وتتم نعمة الله عليهم ، ولتشتد الفاقة والرغبة منها ومن أبويها ، والافتقار إلى الله والذل له ، وحسن الظن به ، والرجاء له ، ولينقطع رجاؤها من المخلوقين ، وتيأس من حصول النُصرة والفرج على يد أحد من الخلق ، ولهذا وقت هذا المقام حقّه ، لما قال لها أبواها: قُومي إليه ، وقد أنزل الله عليه براءتها ، فقالت: والله لا أقومُ إليه ، ولا أحمَدُ إلا الله ، هو الذي أنزل براءتي .

وأيضاً فكان من حِكْمَةِ حَبْسِ الوحي شهراً ، أن القضية مُحَصَّتْ وتمَحَّضَتْ . فوافى الوحي أحوج ما كان إليه رسول الله ﷺ وأهل بيته ، والصديق وأهله ، وأصحابه والمؤمنون ، فورد عليهم ورود الغيث على الأرض أحوج ما كانت إليه .

(1) انظر تمام ذلك في كتاب: «زاد المعاد» (3/ 260).

ثم قال: وأيضاً فإن الله سبحانه أحب أن يُظهر منزلة رسوله وأهل بيته عنده ، وكرامتهم عليه ، وأن يخرج رسوله عن هذه القضية ، ويتولى هو بنفسه الدفاع والمنافحة عنه . . . بل يكون هو وحده المتولي لذلك ، الثائر لرسوله وأهل بيته .

وأيضاً فإن رسول الله ﷺ كان هو المقصود بالأذى ، والتي رُميت زوجته ، فلم يكن يليق به أن يشهد ببراءتها مع علمه ، أو ظنه الظن المقارب للعلم ببراءتها ، ولم يظن بها سوءاً قط ، وحاشاه ، وحاشاها ، ولذلك لما استعذر من أهل الإفك ، قال: «مَنْ يَعِدِرْنِي فِي رَجُلٍ بَلَّغْنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِي ، وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْراً ، وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْراً ، وَمَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِي» ، فكان عنده من القرائن التي تشهد ببراءة الصديقة أكثر مما عند المؤمنين ، ولكن لكمال صبره وثباته ، ورفقه ، وحسن ظنه بربه ، وثقته به ، وفي مقام الصبر والثبات ، وحسن الظن بالله حقه ، حتى جاءه الوحي بما أقر عينه ، وسر قلبه ، وعظم قدره ، وظهر لأُمَّته احتفال ربه به ، واعتناؤه بشأنه⁽¹⁾ .

6 - ثبوت إقامة الحد على القاذفين :

فقد قال الله جل ثناؤه في سورة النور: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا يَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةٌ أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ .

لقد أمر النبي ﷺ بإقامة الحد - حد القذف - على مسطح وحسان وحمنة .

فقد أخرج البيهقي بسند حسن عن عَمْرَةَ بنت عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة ، عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: [لما تلا رسول الله ﷺ القصة التي نزل بها عذري على الناس نزل رسول الله ﷺ فأمر برجلين وامرأة ممن كان باء بالفاحشة في عائشة فجلدوا الحد ، قال: وكان رماها عبد الله بن أبي ومسطح بن أثانة وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش أخت زينب بنت جحش رموها بصفوان بن المعطل السلمي]⁽²⁾ .

قال ابن القيم في زاد المعاد: (ولما جاء الوحي ببراءتها ، أمر رسول الله ﷺ بمن صرح بالإفك ، فجلدوا ثمانين ثمانين ، ولم يُحد الخبيث عبد الله بن أبي ، مع أنه رأس أهل الإفك ، فقليل: لأن الحدود تخفيف عن أهلها وكفارة ، والخبيث ليس أهلاً

(1) انظر تمام ذلك في كتاب: «زاد المعاد» (3/ 261/ 262) .

(2) انظر سنن البيهقي (8/ 250) بإسناد حسن . ويشهد له ما في سنن الترمذي (3181) كتاب التفسير ، وكذلك ما في سنن ابن ماجه (2765) ، كتاب الحدود .

لذلك ، وقد وَعَدَهُ اللهُ بالعذاب العظيم في الآخرة ، فيكفيه ذلك عن الحد ، وقيل : بل كان يستوشي الحديث ويجمعه ويحكيه ، ويُخرجه في قوالب من لا يُنسب إليه ، وقيل : الحدُّ لا يثبتُ إلا بالإقرار ، أو ببيّنة ، وهو لم يُقر بالقذف ، ولا شهد به عليه أحد ، فإنه إنما كان يذكره بين أصحابه ، ولم يشهدوا عليه ، ولم يكن يذكره بين المؤمنين . وقيل : حدُّ القذف حقُّ الآدمي ، لا يُستوفى إلا بمطالبتة ، وإن قيل : إنه حقُّ الله ، فلا بُدَّ من مطالبة المقدوف ، وعائشة لم تُطالب به ابن أبي .

وقيل : بل تركَ حدَّه لمصلحة هي أعظم من إقامته ، كما تركَ قتله مع ظهور نفاقه ، وتكلمه بما يوجب قتله مراراً ، وهي تأليفُ قومه ، وعدمُ تنفيرهم عن الإسلام ، فإنه كان مطاعاً فيهم ، رئيساً عليهم ، فلم تُؤمن إثارةُ الفتنة في حده ، ولعله تركَ لهذه الوجوه كلها .

فجلد مسطح بن أثاثه ، وحسان بن ثابت ، وحمّنة بنت جحش ، وهؤلاء من المؤمنين الصادقين تطهيراً لهم وتكفيراً ، وترك عبد الله بن أبي إذن ، فليس هو من أهل ذلك⁽¹⁾ .

وجملة القول : إن عبد الله بن أبي لم يكن أهلاً لإقامة الحد عليه وهو ممن أسرف في محاربة الله ورسوله ، وقد توّعه الله بعذاب عظيم ، وأنزل في ذمه قرآناً يُلَى إلى يوم القيامة .

7 - مشروعية الإقراع بين النساء في السفر وجواز خروجهن للغزو ومشاركتهن بذلك :

وهذا كما حدث يوم أحد ، فكذلك حدث في غزوة بني المصطلق ، إذ كانت القرعة من نصيب عائشة .

وقد مضى في حديث البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت : [كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج سفراً قرع بين أزواجه (وفي لفظ عند ابن إسحاق : أقرع بين نسائه) فأيتن خرج سهمها خرج بها معه . فأقرع بيننا في غزاة غزاها فخرج سهمي فخرجت معه] .

(وفي رواية ابن إسحاق : فلما كانت غزوة بني المصطلق أقرع بين نسائه ، كما كان

(1) انظر كتاب : «زاد المعاد» (3/ 263 - 264) .

يصنع ، فخرج سَهْمِي عليهن معه ، فخرج بي رسول الله ﷺ .

27 - 29. قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ازْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ .

في هذه الآيات: تشريع آداب شرعية عالية في الاستئذان قبل الدخول ثم إلقاء السلام ، ويستثنى من ذلك الأماكن العامة التي فيها منافع مشتركة للناس ، فيجوز دخولها دون استئذان ، والله يعلم السر والعلن وما تبذون وما تكتُمون .

فمن ابن عباس: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ قال: الاستئناس: (الاستئذان). قال النسفي: (والاستئناس في الأصل الاستعلام والاستكشاف ، من أنَسَ الشيء إذا أبصره ظاهراً مكشوفاً ، أي حتى تستعلموا أیطلق لكم الدخول أم لا). فقد أمر الله تعالى المؤمنين بالتحلي بهذه الآداب الرفيعة فيما بينهم ، فلا يُشرع لهم أن يدخلوا بيوتاً غير بيوتهم حتى يستأذنوا قبل دخولهم ويسلموا بعده .

آداب الاستئذان:

1 - يشرع الاستئذان ثلاثاً - كما جاء في السنة العطرة - فإن أُذِنَ له وإلا انصرف .

ففي الصحيحين والمسند عن أبي بُرْذَةَ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: [جاء أبو موسى إلى عمر بن الخطاب فقال: السلام عليكم ، هذا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ قَيْسٍ ، فلم يَأْذَنْ لَهُ ، فقال: السلام عليكم ، هذا أبو موسى ، السلام عليكم ، هذا الْأَشْعَرِيُّ ، ثم انصَرَفَ ، فقال: رُدُّوا عَلَيَّ ، رُدُّوا عَلَيَّ ، فجاء فقال: يا أبا موسى! ما رَدَّكَ؟ كُنَّا فِي شُغْلٍ ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الاستئذان ثلاثٌ ، فَإِنْ أُذِنَ لَكَ وَإِلَّا فَارْجِعْ» . قال: لتَأْتِيَنِي عَلَىٰ هَذَا بَيِّنَةٍ ، وَإِلَّا فَعَلْتُ وَفَعَلْتُ ، وفي رواية: (وإلا أوجعتك). وفي لفظ: (قال: فوالله لأوجعنَّ ظَهْرَكَ وَبَطْنَكَ ، أو لتأتينَ بِمَنْ يَشْهَدُ لَكَ عَلَىٰ هَذَا). فذهب أبو موسى. قال عمر: إِنْ وَجَدَ بَيِّنَةً تَجِدُوهُ عِنْدَ الْمِنْبَرِ عَشِيَّةً ، وَإِنْ لَمْ

يجدُ بَيْنَهُ فلم تجدوه ، فلما أن جاء بالعِشِيِّ وَجَدَهُ ، قال : يا أبا موسى! ما تقول؟ أقدُ وَجَدْتُ؟ قال : نعم ، أُبَيُّ بن كَعْبٍ ، قال : عَدُلٌ ، قال : يا أبا الطُّفَيْل! ما يقولُ هذا؟ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك يا ابن الخطاب! فلا تكوننَّ عذاباً على أصحاب رسول الله ﷺ. قال : سبحان الله! إنما سَمِعْتُ شيئاً ، فَأُخْبِتُ أَنْ أَتَبَيَّنَ⁽¹⁾. وفي رواية : (فقال عمر : خَفِيَ عَلَيَّ هذا مِنْ أَمْرِ رسول الله ﷺ ، ألهاني عنه الصَّفْقُ بالأسواق).

وفي المسند وسنن أبي داود بسند جيد عن أنس : [أن رسول الله ﷺ استأذن علي سعد بن عبادة فقال : السلام عليك ورحمة الله. فقال سعد : وعليك السلام ورحمة الله ، ولم يسمع النبي ﷺ حتى سَلَّمَ ثلاثاً ، وردَّ عليه سعد ثلاثاً ولم يُسْمِعْهُ. فَرَجَعَ النبي ﷺ فَأَتَبَعَهُ سعد فقال : يا رسول الله ، بأبي أنت وأمي ما سَلَّمْتَ تسليمةً إلا وهي بأذني ، ولقد رَدَدْتُ عليك ولم أُسْمِعْكَ ، وأردتُ أن أستكثر من سلامك ومن البركة. ثم أدخله البيت. فقرَّب إليه زيباً ، فأكل نبيُّ الله ، فلما فَرَغ قال : أكل طعامكم الأبرار ، وَصَلَّتْ عليكم الملائكة ، وأفطر عندكم الصائمون]⁽²⁾.

2 - يكره قول المستأذن «أنا» إذا قيل له : من هذا؟.

ففي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله قال : [أتيتُ النبي ﷺ ، فدَعَوْتُ ، فقال النبي ﷺ : مَنْ هذا؟ قلتُ : أنا ، قال : فخرج وهو يقول : أنا ، أنا]⁽³⁾.

3 - يحرم النظر في بيت غيره.

ففي صحيح مسلم عن سهل بن سعد : [أَنَّ رجلاً اطَّلَعَ في جُحْرِ في باب رسول الله ﷺ ، ومع رسول الله ﷺ مِذْرَى يَحْكُ به رأسُهُ ، فلما رآه رسول الله ﷺ : قال : لو أَعْلَمُ أَنَّكَ تَنْظُرُنِي لَطَعَنْتُ به في عَيْنِكَ. وقال رسول الله ﷺ : إِنَّمَا جُعِلَ الْإِذْنُ مِنْ أَجْلِ الْبَصَرِ]⁽⁴⁾.

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2062) ، ومسلم (2153) ، وأبو داود (5181) ، وأحمد (398) ، (400) وكذلك أخرجه ابن حبان (5807).

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد (138 / 3) ، والبخاري (2007) ، وقال الهيثمي في «المجمع» (34 / 8) : ورجاله رجال الصحيح. وأخرج أبو داود (3854) وأبو يعلى (4310) عجزه فقط.

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2155) - كتاب الآداب ، باب كراهة قول المستأذن أنا ، إذا قيل من هذا ، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(4) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2156) - كتاب الآداب ، باب تحريم النظر في بيت غيره.

ثم روى في الباب عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [مَنْ أَطْلَعَ فِي بَيْتِ قَوْمٍ بِغَيْرِ إِذْنِهِمْ ، فَقَدْ حَلَّ لَهُمْ أَنْ يَفْقَوْا عَيْنَهُ] ⁽¹⁾.

وفي رواية: [لَوْ أَنَّ رَجُلًا أَطْلَعَ عَلَيْكَ بِغَيْرِ إِذْنٍ فَخَذَفْتُهُ بِحَصَاةٍ ، فَفَقَأَتْ عَيْنَهُ ، مَا كَانَ عَلَيْكَ مِنْ جُنَاحٍ].

4- ينبغي للمستأذن ألا يقف تلقاء الباب بوجهه ، وليكن الباب عن يمينه أو يساره.

أخرج أبو داود بسند صحيح عن هزيل ، قال: جاء رجل فوقف على باب النبي ﷺ يستأذن ، فقام على الباب مُسْتَقْبِلَ الباب ، فقال له النبي ﷺ: [هكذا - عنك - أو هكذا ، فإنما الاستئذان من النَّظَر] ⁽²⁾.

5- ينبغي للمستأذن إلقاء السلام قبل الدخول إذا أُذِنَ له.

ففي سنن أبي داود بسند صحيح عن ربعي ، قال: [حدثنا رجل من بني عامر: أنه استأذن على النبي ﷺ وهو في بيت فقال: ألج؟ فقال النبي ﷺ لخادمه: اخرج إلى هذا! فَعَلَّمَهُ الاستئذان ، فقل له: قل: السلام عليكم ، أَدْخَلَ؟ فسمعه الرجل ، فقال: السلام عليكم ، أَدْخَلَ؟ فأذن له النبي ﷺ ، فدخل] ⁽³⁾.

وقوله: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. أي: ذلكم الذي يعلمكم الله تعالى من الاستئذان والتسليم خير لكم من تحية الجاهلية وعاداتها في الدخول بغير إذن. قال النسفي: (فكان الرجل من أهل الجاهلية إذا دخل بيت غيره يقول حييتم صباحاً وحييتم مساءً ثم يدخل ، فربما أصاب الرجل مع امرأته في لحاف واحد. ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: قيل لكم هذا لكي تذكروا وتتعضوا وتعملوا ما أمرتم به في باب الاستئذان).

وقوله: ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾. أي: فإن كانت تلك البيوت خالية من أهلها فلا يشرع لكم دخولها ، إذ لا يجوز للمرء التصرف في ملك غيره إلا بإذنه.

وقوله: ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا﴾. أي: إن طلب الانصراف فانصرفوا

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2158) - كتاب الآداب ، الباب السابق.

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن - حديث رقم - (5174) - كتاب الأدب ، باب في الاستئذان ، وانظر صحيح سنن أبي داود - حديث رقم - (4310).

(3) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن (5177) وإسناده صحيح ، وجهالة الصحابي لا تضر.

ولا تخرجوا الناس . قال سعيد بن جبير : (لا تقفوا على أبواب الناس) .

وقوله : ﴿ هُوَ أَزْكَى لَكُمْ ﴾ . أي رجوعكم أزكى لكم وأطهر وأقرب للتقوى . قال قتادة : (قال رجل من المهاجرين : لقد طلبتُ عُمري كُلَّهُ هذه الآية فما أدركتها : أن أستاذِنَ على بعضِ إخواني ، فيقول لي : ارجع ، فأرجع وأنا مغتبط ، لقوله : ﴿ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ازْجِعُوا فَازْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ ﴾) .

وقوله : ﴿ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ . أي : هو عليمٌ بامثالكم ما يأمركم به من محاسن الآداب ، واجتنابكم ما ينهاكم عنه من قبيحها ، وهو بكل شيء عليم .

وقوله : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَكُمْ ﴾ . استثناء من عموم ما سبق ، فلا حرج بدخول الأماكن غير المسكونة كالمطاعم والمحلات التجارية والأماكن المعدة لنزول المسافرين والتجار وغير ذلك مما فيه قضاء لحاجاتكم وإيواء لأمتعتكم ومنافع لكم .

قال قتادة : (﴿ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ ﴾ : هي الخانات ، تكون لأهل الأسفار) . وقال مجاهد : (كانوا يضعون في بيوت في طرق المدينة متاعاً وأقتاباً ، فَرُخِّصَ لهم أن يدخلوها) . وقال أيضاً في تفسير الآية : (هي البيوت التي ينزلها السفر ، لا يسكنها أحد) .

وقوله : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ . قال القاسمي : (وعيد لمن يدخل مدخلاً من هذه المداخل ، لفساد ، أو اطلاق على عورات . أفاده أبو السعود) .

30 - 31 . قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّونَ مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ ﴿٣٠﴾ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرَ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى

عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا
أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾

في هذه الآيات: أَمُرُ الله المؤمنين والمؤمنات بغض البصر عما لا يحل النظر إليه ،
وتعليق السلامة في النسب والفروج على ذلك . وأَمُرُ المؤمنات بعدم إبداء زينتهن إلا
الوجه والكفين ، وارتداء الجلباب الشرعي الذي يغطي كل شيء خاصة العنق
والصدر ، ويستثنى المحارم في إظهار مواضع الزينة العامة أمامهن ، والتحذير من
الضرب بالأرجل على الأرض لما يحرك الفتنة على الرجال ، والأمر بالتوبة إلى الله
ابتغاء الفلاح وسعادة الدارين .

فقوله: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ﴾ . أَمُرُ من الله
تعالى لعباده المؤمنين بغض البصر عما لا يجوز لهم النظر إليه من المحارم ، وَرَبُّهُ ذَلِكَ
بحفظ الفروج وزكاة النفوس وتقوى الله عز وجل .

قال ابن عباس: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ قال: يغضوا أبصارهم عما
يكره الله). وقال ابن زيد: (يغض من بصره: أن ينظر إلى ما لا يحل له ، إذا رأى
ما لا يحل له غَضَّ من بصره ، لا ينظر إليه ، ولا يستطيع أحد أن يغض بصره كله ، إنما
قال الله: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾).

وفي كلام العرب: غَضَّ طرفه أي خفضه ، ويقال غَضَّ بصره يغضه غَضًّا .

وهذا الأمر من معالي الأخلاق التي دعا لها الإسلام وأقرها في مكارم الأخلاق .
ومن ذلك قول عنترة:

وأغضُّ طرفي ما بَدَثَ لي جارتني حتى يُوارِي جارتني مأواها

قال البخاري: (وقال سعيد بن أبي الحسن للحسن: (إن نساء العجم يكشفن صدورهن
ورؤوسهن! قال: اصرف بصرك ، يقول الله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ
وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾⁽¹⁾ . وقال بعض السلف: (النظر سِهَامٌ سَمُّ إلى القلب). قال
القرطبي: (ولقد كره الشعبي أن يُدِيمَ الرجل النظر إلى ابنته أو أمه أو أخته ، وزمانه خير
من زماننا هذا! وحرام على الرجل أن ينظر إلى ذاتِ محرمةٍ نظر شهوة يرددها).

(1) أوردته بإثر حديث (6227) ، وسعيد هذا هو أخو الحسن البصري .

وقد جاءت السنة الصحيحة بأفاق هذه الآداب الرائعة في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: [إياكم والجلوس على الطرقات. فقالوا: يا رسول الله، مالنا من مجالسنا بُدُّ نتحدث فيها. فقال: فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقَّه. قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله؟ قال: غضُّ البصر، وكفُّ الأذى، وردُّ السلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر⁽¹⁾].

الحديث الثاني: روى مسلم في صحيحه، وأبو داود في سننه، وأحمد في مسنده، عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: [سألت النبي ﷺ عن نَظَرِ الفَجَاءَةِ، فأمرني أن أصرف بصري]⁽²⁾. قال مجاهد: (إذا أقبلت المرأة جلس الشيطان على رأسها فزيَّتها لمن ينظر، فإذا أدبرت جلس على عَجْزها فزيَّتها لمن ينظر).

الحديث الثالث: أخرج أبو داود والترمذي بسند جيد عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ لعليّ: [يا عليّ، لا تُتَبِعِ النظرة النظرة، فإن لك الأولى، وليس لك الآخرة]⁽³⁾.

قال خالد بن أبي عمران: (لا تُتَبِعَنَّ النَّظْرَةَ النظرة، فربما نظر العبد نظرةً نَغَلَ⁽⁴⁾ منها قلبه كما يَنَغَلُ الأديم فلا ينتفع به).

الحديث الرابع: أخرج الطبراني في «الكبير» و«الأوسط»، والبعثي بسند حسن عن أبي أمامة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [اَكْفُلُوا لي بست أكفل لكم بالجنة: إذا حَدَّثَ أحدكم فلا يكذب، وإذا أوْتِمِنَ فلا يَحْنُ، وإذا وعد فلا يُخْلِف، وَغَضُّوا أبصاركم، وَكَفُّوا أيديكم، واحفظوا فروجكم]⁽⁵⁾.

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6229)، وأحمد (36/3)، وابن حبان (595).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2159)، وأبو داود (2148)، والترمذي (2776)، وأحمد (358/4)، (361/4)، وابن حبان (5571).

(3) حديث حسن. أخرجه أبو داود بسند حسن (2149)، والترمذي (2777)، وأخرجه أحمد (351/5)، وانظر صحيح سنن أبي داود (1881).

(4) النغل: الفساد.

(5) أخرجه الطبراني في «الكبير» (8018)، و«الأوسط» (2560)، وله شاهد من حديث عبادة بن الصامت يتقوى به. انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1525).

الحديث الخامس: أخرج أبو داود بسند صحيح عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: [لا تباشر المرأة المرأة لتنعثها لزوجها ، كأنما ينظر إليها]⁽¹⁾ .
وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ .

قال ابن جرير: (يقول: إن الله ذو خبرة بما تصنعون أيها الناس ، فيما أمركم به من غضٍ أبصاركم عما أمركم بالعض عنه ، وحفظ فروجكم عن إظهارها لمن نهاكم عن إظهارها له) .

وقوله: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَقْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ . تخصيص للإناث هنا بالخطاب على طريق التأكيد ، وإلا فإن قوله: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ عام ، ويتناول الذكور والإناث ، فلا يحل للرجل أن ينظر إلى المرأة ، ولا المرأة أن تنظر إلى الرجل ، إن رافق ذلك شهوة .

قلت: وأما بغير شهوة فيجوز للرجل أن ينظر إلى المرأة وهو يكلمها لحاجة ضرورية ، كما يجوز للمرأة أن تنظر للرجل - بدون شهوة - بشكل عام . فإلى تفصيل ذلك:

1 - يباح للمرأة النظر إلى الرجل ، لأن الأصل أن الرجل لم يُسْتَر ولم يُخَجَّب عن المرأة .

ففي صحيح مسلم من حديث فاطمة بنت قيس أن النبي ﷺ أمرها أن تَعْتَدَّ في بيت أم شريك ، ثم قال: [تلك امرأة يغشاها أصحابي ، اعتدي عند ابن أم مكتوم ، فإنه رجل أعمى ، تضعين ثيابك ، فإذا حَلَلْتَ فَأَذِينِي] الحديث⁽²⁾ .

وفي الصحيحين - واللفظ للبخاري - عن عروة بن الزبير ، أن عائشة رضي الله عنها قالت: [لقد رأيت رسول الله ﷺ يوماً على باب حُجْرَتِي والحَبَشَةُ يلعبون في المسجد ، ورسول الله ﷺ يَسْتُرُنِي بردائه أَنْظُرُ إِلَى لعبهم]⁽³⁾ .

(1) حديث صحيح . أخرجه أبو داود في السنن - حديث رقم - (2150) - كتاب النكاح . انظر صحيح سنن أبي داود (1882) . ورواه البخاري .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح - حديث رقم - (1480) - كتاب الطلاق ، ورواه مالك (580/2) ، والشافعي (18/2) ، وأحمد (412/6) في أثناء حديث مطول .

(3) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (454) - كتاب الصلاة ، ورواه مسلم نحوه ، ورواه أحمد في المسند (247/6) .

أما حديث: «أفعمياوان أنتما» فضعيف عند المحدثين ، وهو يعارض حديث فاطمة بنت قيس السابق ، الذي رواه مسلم ومالك وأحمد وغيرهم .

2 - يجوز للرجل النظر للمرأة دون شهوة في حاجة لا بد منها . فما دام قد أذن الله للمرأة بكشف وجهها جاز أن ينظر لها لسبب ما إلا إذا شعر بنظره الشهوة .

ففي سنن أبي داود بسند صحيح عن أم حبيبة : [أنها كانت تحت عبيد الله بن جحش ، فمات بأرض الحبشة ، فزوجها النجاشي النبي ﷺ ، وأمهرها عنه أربعة آلاف ، وبعث بها إلى رسول الله ﷺ ، مع شرحبيل بن حسنة⁽¹⁾ .

وفي صحيح مسلم عن أنس قال : [لما انقضت عدة زينب بنت جحش قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة : ما أجْدُ أحداً آمنَ عندي وأوثق في نفسي منك ، ائت زينب فاخطبها علي . قال : فانطلق زيد فأتاها وهي تخمر عجينها ، فلما رأيتها عظمت في صدري فلم أستطع أن أنظر إليها حين عرفت أن الرسول ﷺ قد ذكرها] الحديث⁽²⁾ .

3 - ويحرم النظر عند وجود داعي الشهوة ويجب الرجوع إلى الأصل وهو غض البصر .

ففي صحيح مسلم وسنن أبي داود عن جابر : [أن النبي ﷺ رأى امرأة ، فأتى امرأته زينب ، وهي تمعس منيئة⁽³⁾ لها ، ففضى حاجته ، ثم خرج إلى أصحابه فقال : إن المرأة تُقبل في صورة شيطان ، وتُدبر في صورة شيطان ، فإذا أبصر أحدكم امرأة فليأت أهله ، فإن ذلك يرد ما في نفسه]⁽⁴⁾ .

وفي لفظ : [إذا أحدكم أعجبته المرأة ، فوقع في قلبه فليغمد إلى امرأته فليواقعها ، فإن ذلك يرد ما في نفسه] . وفي رواية أبي داود : (فإنه يضر ما في نفسه) .

وفي الصحيحين وسنن أبي داود عن ابن عباس قال : [ما رأيت شيئاً أشبه باللمم ، مما قال أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ : إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا ، أدرك ذلك لا محالة ، فزنا العينين النظر ، وزنا اللسان المنطق ، والنفس تمنى وتشتهي ، والفرج يصدق ذلك ويكذبه] .

(1) حديث صحيح . أخرجه أبو داود (2107) - كتاب النكاح . انظر صحيح أبي داود (1853) .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم (1428) ، وأحمد في المسند (3/ 195 - 196) .

(3) معست الجلد أي دلخته ، فالمنيئة فعيلة بمعنى الجلد ، والمراد الدباغ والإصلاح .

(4) حديث صحيح . أخرجه مسلم (1403) - كتاب النكاح ، وأبو داود (2151) - في النكاح أيضاً .

وفي لفظ: [واليدان تزنيان ، فزناهما البطش ، والرجلان تزنيان ، فزناهما المشي ، والفم يزني ، فزناه القبل]. وفي لفظ: [والأذن زناها الاستماع]⁽¹⁾.

وقوله: ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾. قال سعيد بن جبير: (عن الفواحش). وقال قتادة: (عَمَّا لَا يَحِلُّ لِهِنَّ). وقال مقاتل: (عن الزنا). وقال أبو العالية: (كل آية أنزلت في القرآن يُذَكِّرُ فيها حِفْظُ الفروج فهو من الزنا ، إلا هذه الآية: ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ ، ألا يراها أحدٌ. وفي لفظ: فإنه يعني الستر) - ذكره ابن جرير .

وقوله: ﴿وَلَا يُبْدِيَنَّ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾. تصريح بوجوب ستر الزينة كلها وعدم إظهار شيء منها أمام الأجانب إلا ما ظهر بغير قصد منهن ، فلا يؤاخذن عليه إذا بادرن إلى ستره .

ومن أقوال أئمة التفسير في مفهوم هذه الآية :

1 - عن أبي الأحوص ، عن ابن مسعود ، قال: (الزينة زينتَان: فالظاهرة منها: الثياب ، وما خفي: الخلخالان والقرطان والسواران).

2 - عن ابن عباس قال: (الظاهر منها: الكحل والخدَّان). وقال: (الزينة الظاهرة: الوجه ، وكحل العين ، وخضاب الكف ، والخاتم).

3 - عن سعيد بن جبير: ﴿وَلَا يُبْدِيَنَّ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ قال: الوجه والكف. وقال الأوزاعي: (الكفين والوجه).

وروى البيهقي عن ابن عباس وغيره: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾: الوجه والكفان. قلت: والذي يرجح من النصوص المختلفة ومن سياق الآية أَنَّ الذي استثني ما كان ظهر من المرأة من غير قصد فبادرت إلى ستره ، وأما الوجه والكفان فلا يجب على المرأة سترهما. وفي ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري في صحيحه عن أنس رضي الله عنه قال: [لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبي ﷺ وأبو طلحة بين يدي النبي ﷺ مجوَّبٌ عليه بحجفة⁽²⁾ له . . . ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم سليم وإنهما لمشمرتان أرى خَدم سوقهما

(1) حديث صحيح . رواه الشيخان ، وأبو داود - واللفظ كله له - انظر صحيح سنن أبي داود (1884) ، (1885) - (1886).

(2) أي مترس عليه «بحجفة» أي بترس .

- يعني الخلاخيل - تنقزان⁽¹⁾ القرب على متونهما تفرغانه في أفواه القوم⁽²⁾.

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني: (وهذه كانت قبل الحجاب ، ويحتمل أنها كانت عن غير قصد للنظر).

الحديث الثاني: أخرج أبو داود بسند صحيح في الشواهد عن عائشة: [أن أسماء بنت أبي بكر ، دخلت على رسول الله ﷺ ، وعليها ثياب رقاق ، فأعرض عنها رسول الله ﷺ ، وقال: يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض ، لم يصلح أن يرى منها إلا هذا وهذا. وأشار إلى وجهه وكفيه]⁽³⁾.

الحديث الثالث: خرّج مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما - في حجة الوداع - أنه قال: [كان الفضل بن عباس رديف رسول الله ﷺ ، فجاءته امرأة من خثعم تستفتيه ، فجعل الفضل ينظر إليها ، وتنظر إليه ، فجعل رسول الله ﷺ يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر. . .]⁽⁴⁾.

وفي رواية: [فقال له العباس: يا رسول الله لم لويت عنق ابن عمك؟ قال: رأيت شاباً وشابة فلم آمن الشيطان عليهما].

وقوله: ﴿وَلْيَضْرِبَنَّ بِخُمْرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾. أمرٌ من الله تعالى النساء المؤمنات بلبّي الخمار على العنق والصدر. و«الخمر» جمع خمار ، وهو ما يغطي به الرأس. و«الجوب» جمع «الجيب» وهو موضع القطع من الدرع والقميص ، وهو من الجوب وهو القطع. وهذه الآية تدل على ما دلت عليه بعض الأحاديث السابقة من عدم وجوب ستر المرأة لوجهها لأن الخمار غطاء الرأس ، فأمر تعالى بلبّي الخمار على العنق والصدر دلالة على وجوب سترهما ، ولم يأمر بلبسه على الوجه فدل على أنه ليس بعورة. قال ابن حزم في «المحلى» (3/ 216 - 217): (فأمرهن الله تعالى بالضرب

(1) أي: تثبان و«القرب على متونهما» ، أي: تحملانهما وتنقزان بها وثباً.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (7/ 290) من حديث أنس رضي الله عنه.

(3) صحيح في الشواهد. أخرجه أبو داود (4104) - كتاب اللباس. باب فيما تبدي المرأة من زينتها. وانظر صحيح سنن أبي داود (3458).

(4) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1334) - كتاب الحج. وانظر (1218) من حديث جابر في حجة الوداع ، وانظر مسند أحمد (1/ 211).

بالخمار على الجيوب ، وهذا نصٌّ على ستر العورة والعنق والصدر ، وفيه نص على إباحة كشف الوجه لا يمكن غير ذلك).

وقد ذكر القرطبي (230/12) وغيره في سبب نزول هذه الآية: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾: (أن النساء كن في ذلك الزمان إذا غطين رؤوسهن بالأخمرة ، وهي المقانع ، سدلنها من وراء الظهر كما يصنع النبط ، فيبقى النحر والعنق والأذنان لا ستر على ذلك . فأمر الله تعالى بلي الخمار على الجيوب).

وفي سنن أبي داود بإسناد صحيح عن عائشة رضي الله عنها ، أنها قالت: [يرحم الله نساء المهاجرات الأول ، لما أنزل الله: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ شققن أكفف⁽¹⁾ مروطهن فاختمرن بها]⁽²⁾.

وأخرج الطبراني في «المعجم الكبير» بسند صحيح عن الحارث بن الحارث الغامدي قال: [قلت لأبي ونحن بمنى: ما هذه الجماعة؟ قال: هؤلاء القوم قد اجتمعوا على صابئ لهم ، قال: فترلنا ، «وفي رواية: فتشرفنا» ، فإذا رسول الله ﷺ يدعو الناس إلى توحيد الله والإيمان به ، وهم يردون عليه قوله ويؤذونه ، حتى انتصف النهار وتصعد عنه الناس ، وأقبلت امرأة قد بدا نحرها تبكي ، تحمل قدحاً فيه ماء ومندبلاً ، فتناوله منها ، وشرب وتوضأ ، ثم رفع رأسه إليها فقال: يا بنية! خمري عليك نحرك ، ولا تخافي على أهلك غلبة ولا دلاً. قلت: من هذه؟ قالوا: هذه زينب بنته]⁽³⁾.

وقوله: ﴿وَلَا يَبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ مَلَائِكَتِ إِيْمَنُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرَ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِي لَمْ يَظْهَرْ أَوْ عَلَى عَوَاتِ النِّسَاءِ﴾. توضيح لمحارم المرأة الذين يجوز لها أن تظهر عليهم بزيتها ، وهم: زوجها ، والدها ، والد زوجها ، ابنها ، ابن زوجها ، أخوها ، ابن أخيها ، ابن أختها ، النساء المسلمات ، أمتهن ورقيقها من الرجال والنساء ، والأجراء والأتباع ممن لا أرب له في النساء كالأبله والأحمق ونحو ذلك. قال ابن كثير: (كل هؤلاء محارم

(1) وفي رواية عند أبي صالح: أكفف.

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (4102) - كتاب اللباس. انظر صحيح أبي داود (3457).

(3) حديث صحيح. أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (ج 2/245/1) ، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (46/4 - 1/243 - 1) ، وانظر: «حجاب المرأة المسلمة» ص (36) وقال الألباني: هذا الحديث صحيح.

المرأة يجوز لها أن تظهر عليهم بزینتها ، ولكن من غير اقتصادٍ وتَبَهُّجٍ).

قلت : وقوله : ﴿وَلَا يُدَيِّنُكِ زِينَتُهُنَّ﴾ يعني مواضع الزينة ، وهي في العادة :

1 - الخاتم والسوار في الكفين .

2 - القُرْط على شحمة الأذنين .

3 - الدُّمْلُوج في المعصَد .

4 - القلادة : في العنق .

5 - الخَلْخَال : في الساقين .

فهذه المواضع هي مواضع زينة النساء ، وهي في التحقيق مواضع الوضوء ، فجاز للمرأة إظهار هذه المواضع أمام مَنْ سبق من المحارم .

وأما قول بعض الفقهاء : «عورة المرأة من السرة إلى الركبة» فهذا مما لا دليل عليه ، فإن كان قياساً على الرجل فهو قياس مع الفارق للنصوص الصريحة الآتية :

الحديث الأول : أخرج الترمذي بسند صحيح عن عبد الله ، عن النبي ﷺ قال : [المرأة عورة ، فإذا خَرَجَتْ اسْتَشْرَفَهَا الشَّيْطَانُ]⁽¹⁾ .

الحديث الثاني : أخرج الطبراني بسند حسن من حديث ابن مسعود قال : [النساء عورة ، وإن المرأة لتخرج من بيتها وما بها بأسٌ ، فَيَسْتَشْرِفُهَا الشَّيْطَانُ ، فيقول : إنك لا تمرين بأحدٍ إلا أعجبته ، وإن المرأة لتلبس ثيابها ، فيقال : أين تريدين؟ فتقول : أعودُ مريضاً ، أو أشهد جنازةً ، أو أصلي في مسجد! وما عَبدَت امرأة ربها مثل أن تعبد في بيتها]⁽²⁾ .

فهذه النصوص تدل أن المرأة كلها عورة وليس فقط : «ما بين السرة والركبة» فإن ذلك مما لا دليل عليه ، أضف إلى ذلك قوله تعالى : ﴿وَلَا يُدَيِّنُكِ زِينَتُهُنَّ﴾ الدال على مواضع الزينة ، فهل الثدي وتحت الإبط موضع زينة عند العرب تضع المرأة فيه شيئاً من زينتها؟! الجواب : لا ، بل هو موضع فتنة وزينة للزوج لا لغيره ، فتنبه .

(1) حديث صحيح . أخرجه الترمذي في السنن (1189) . انظر صحيح سنن الترمذي (936) ، وتخريج : «مشكاة المصابيح» - حديث رقم - (3109) .

(2) إسناده حسن . انظر تخريج الترغيب (345/1) ، وقوله : «فيسْتَشْرِفُهَا الشَّيْطَانُ» أي ينتصب ويرفع بصره إليها ويَهْمُ بها ، لأنها قد تعاطت سبباً من أسباب تسلطه عليها .

وأما تفصيل بعض مفردات الآية السابقة :

فالبلع هو الزوج . قال القرطبي : (يرى الزينة من المرأة وأكثر من الزينة ، إذ كل محل من بدنها حلال له لذة ونظراً . ولهذا المعنى بدأ بالبعولة) .

وأبناء بعولتهم : المراد ذكور أولاد الأزواج ، ويدخل فيه أولاد الأولاد وإن سفلوا ، من ذُكران كانوا أو إناث ، كبنين البنين وبنين البنات ، وكذلك آباء البعولة والأجداد وإن علواً من جهة الذكران لآباء الآباء وآباء الأمهات وكذلك أبنائهن وإن سفلوا . ذكره القرطبي ثم قال : (وكذلك أبناء البنات وإن سفلن ، فيستوي فيه أولاد البنين وأولاد البنات . وكذلك أخواتهن ، وهم مَن ولده الآباء والأمهات أو أحد الصنفين . وكذلك بنو الإخوة وبنو الأخوات وإن سفلوا من ذُكران كانوا أو إناث كبنين بني الأخوات وبنين بنات الأخوات . وهذا كله في معنى ما حرم من المناكح ، فإن ذلك على المعاني في الولادات وهؤلاء محارم) .

وأما قوله : ﴿ أَوْ نِسَائِهِنَّ ﴾ . فالمقصود النساء المسلمات ، ويدخل في هذا الإماء المؤمنات . ولا حرج لغير المسلمات أن تظهر المرأة أمامهن كما تظهر أمام نساء المؤمنات إلا إن كنَّ ممن يَصِفْنَ لأزواجهن أو للرجال ما يَرَيْنَ ، فعندئذ يحرم على المرأة إظهار زينتها أمامهن ، وهذا الحكم لا يخص النساء غير المسلمات فقط ، بل ينسحب على النساء المسلمات إن اشتركن بعلة وصف المحاسن لأزواجهن أو للرجال .

وأما ما ذهب إليه بعض الفقهاء من تحريم إظهار المرأة المسلمة شيئاً من بدنها أمام المرأة المشركة فهذا مما لا دليل عليه ، والعلة السابقة وهي : وصف المحاسن قد تشترك بها المسلمة والكافرة كما أشرت ، والله تعالى أعلم .

وقوله : ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ﴾ يشمل العبيد والإماء المسلمات والكتاتيب . قال ابن عباس : (لا بأس أن ينظر المملوك إلى شعر مولاته) .

أخرج أبو داود بسند صحيح عن أنس : [أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَتَى فَاطِمَةَ بَعْدَ قَدْ وَهَبَ لَهَا ، قَالَ : وَعَلَى فَاطِمَةَ ثَوْبٌ ، إِذَا قَتَعْتَ بِهِ رَأْسَهَا ، لَمْ يَبْلُغْ رَجُلِيهَا ، وَإِذَا غَطَّتْ بِهِ رَجُلِيهَا لَمْ يَبْلُغْ رَأْسَهَا . فَلَمَّا رَأَى النَّبِيُّ ﷺ مَا تَلَقَّى قَالَ : إِنَّهُ لَيْسَ عَلَيْكَ بَأْسٌ ، إِنَّمَا هُوَ أَبُوكَ وَغُلَامُكَ] (1) .

(1) حديث صحيح . أخرجه أبو داود في السنن (4106) - كتاب اللباس ، باب لبس النساء ، (34) باب في العبد ينظر إلى شعر مولاته . وانظر صحيح أبي داود (3460) .

وأخرج ابن ماجة بسند صحيح عن جابر: [أن أم سلمة استأذنت رسول الله ﷺ: في الحجامة. فأمر النبي ﷺ أبا طيبة أن يحجمها. وقال: حسبت أنه كان أخاها من الرضاعة ، أو غلاماً لم يحتلم]⁽¹⁾.

وقوله: ﴿أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولَى الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الذِّبِّ لَمْ يَطْهَرُوا عَلَى عَوْرَتِ النِّسَاءِ﴾ الإِرْبَةُ الحاجة. وقوله: ﴿التَّابِعِينَ﴾ قال قتادة: (هو التابع يتبعك يصيب من طعامك). قال ابن عباس: (فهذا الرجل يتبع القوم ، وهو مُعَقَّلٌ في عقله ، لا يكثرث للنساء ولا يشتهيهن).

وقال مجاهد: (الذين لا يهمهم إلا بطونهم ، ولا يُخافون على النساء). وقال أيضاً: ﴿غَيْرِ أُولَى الْإِرْبَةِ﴾ قال: هو الأبله ، الذي لا يعرف شيئاً من النساء). وقال الشعبي: (تبع الرجل وحشمه: الذي لم يبلغ أَرْبَهُ أن يطَّلِع على عورة النساء). وقال سعيد بن جبير: (المعتوه). وقال الزهري: (هو الأحق ، الذي لا همة له بالنساء ولا أرب).

قلت: وكلها أقوال متقاربة تتوجَّه إلى مَنْ لا فَهْمَ له ولا همة ينتبه بها إلى أمر النساء ، وإنما يكون في القوم أو نشأ بينهم ويتبعهم لإرفاقهم إياه ولا حاجة له في النساء.

وفي صحيح مسلم وسنن أبي داود - واللفظ له - عن عائشة قالت: [كان يدخل على أزواج النبي ﷺ مُحَثَّ ، فكانوا يعدونه ، من غير أولي الإربة ، فدخل علينا النبي ﷺ يوماً ، وهو عند بعض نسائه ، وهو ينعت امرأة ، فقال: إنها إذا أقبلت ، أقبلت بأربع ، وإذا أدبرت أدبرت بثمان. فقال النبي ﷺ: «ألا أرى هذا يعلم ما هاهنا ، لا يدخلنَّ عليكن هذا». فحجبه]⁽²⁾.

وفي زيادة عند أبي داود: (وأخرجه ، فكان بالبيداء يدخل كل جمعة يستطعم).

وفي رواية: [ف قيل: يا رسول الله ، إنه إذن يموت من الجوع ، فأذن له أن يدخل في كل جمعة مرتين فيسأل ثم يرجع].

وقوله: ﴿أَوِ الطِّفْلِ الذِّبِّ لَمْ يَطْهَرُوا عَلَى عَوْرَتِ النِّسَاءِ﴾. قال مجاهد: (لم يذكروا

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (3480) في الحجامة - كتاب الطب. انظر صحيح ابن ماجة (2803) ، وصحيح سنن أبي داود (3459).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2181) ، وأبو داود (4107) ، وانظر للزيادة (4109) ، (4110).

ما ثَمَّ ، من الصَّغَرِ قبل الحُلُمِ). قال ابن كثير: (يعني لصغرهم لا يفهمون أحوال النساء وعوراتهن ، من كلامهنَّ الرَّخِيمِ ، وتَعْطُفُنَّ في المِشْيَةِ وَحَرَكَاتِهِنَّ وسكناتِهِنَّ ، فإذا كان الطفلُ صغيراً لا يفهمُ ذلك فلا بأس بدخوله على النساء ، فأما إن كان مُرَاهِقاً أو قريباً منه بحيث يعرف ذلك ويذريه ، ويُفَرِّقُ بين الشوهاء والحسناء ، فلا يُمكن من الدخول على النساء).

قلت: وقد حفلت السنة الصحيحة بآفاق هذا المعنى في أحاديث:

الحديث الأول: في الصحيحين من حديث عقبة بن عامر: [أن رسول الله ﷺ قال: إياكم والدخول على النساء. فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله ، أفرأيت الحمؤ؟ قال: الحمؤ: المَوْتُ⁽¹⁾].

الحديث الثاني: خرَّج مسلم في صحيحه عن ابن عباس يقول: سمعت النبي ﷺ يخطب يقول: [لا يخلون رجل بامرأة إلا ومعها ذو محرم] الحديث⁽²⁾.

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد بسند صحيح من حديث جابر بن سمرة قال: [خطب عمر الناس بالجابية فقال: إن رسول الله ﷺ قام في مثل مقامي هذا فقال: أحسنوا إلى أصحابي ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يجيء قوم يحلف أحدهم على اليمين قبل أن يستحلف عليها ، ويشهد على الشهادة قبل أن يُستشهد ، فمن أحبَّ منكم أن ينال بحبوحه الجنة فليلزم الجماعة ، فإن الشيطان مع الواحد ، وهو من الاثنين أبعد ، ولا يخلون رجل بامرأة ، فإن ثالثهما الشيطان ، ومن كان منكم تسره حسنته وتسوؤه سيئته فهو مؤمن⁽³⁾].

وقوله: ﴿وَلَا يَصْرِيحَنَّ بِأَرْجُلَيْهِ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفَيْنَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾. قال ابن عباس: (فهو أن تفرَّعَ الخَلْخال بالآخر عند الرجال ، ويكون في رجليها خلاخل ، فتحرَّكهنَّ عند الرجال ، فنهى الله سبحانه وتعالى عن ذلك ، لأنه من عمل الشيطان).

ويبدو أنها كانت عادة في الجاهلية ، تضرب المرأة برجلها الأرض إذا مشت فيسمع طنين خلاخلها ، فنهى الله المؤمنات عن مثل ذلك.

- (1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5232) - كتاب النكاح ، وأخرجه مسلم (2172) ، وأحمد (149/4) ، والترمذي (2171) ، وابن حبان (5588) ، والبيهقي (90/7).
- (2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1341) - كتاب الحج ، في أثناء حديث أطول ، ورواه البخاري.
- (3) حديث صحيح. انظر مسند أحمد (177/1) ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (431).

قلت: وكل ما كان من التكلف من المرأة في إظهار الزينة في الطريق داخل في مفهوم وآفاق هذه الآية كفتحات بعض الثياب ، وإظهار بعض الألوان على الرأس أو الأغطية ، والروائح العطرة التي تفوح في أثناء المسير فتحرك شهوة الرجال ، وغير ذلك من أعمال الفتنة ، وفي ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن زينب امرأة عبد الله قالت: [قال لنا رسول الله ﷺ: إذا شهدت إحداكنَّ المَسْجِدَ فلا تَمَسَّ طَبِيباً⁽¹⁾].

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [أيما امرأة أصابت بخوراً ، فلا تشهد معنا العشاء الآخرة]⁽²⁾.

الحديث الثالث: روى أبو داود والترمذي بسند حسن عن أبي موسى ، عن النبي ﷺ قال: [إذا استعطرت المرأة فَمَرَّتْ على القوم ليجدوا ريحها ، فهي كذا وكذا. قال قولاً شديداً]⁽³⁾.

ولفظ الترمذي: [كُلُّ عَيْنٍ زانية ، والمرأة إذا استعطرت فَمَرَّتْ بالمجلس فهي كذا وكذا. يعني: زانية].

الحديث الرابع: أخرج أبو داود وابن ماجه بسند صحيح عن أبي هريرة ، قال - أي: الراوي عنه -: [لَقِيْنَةُ امرأة وجد منها ريح الطيب ينفع ولذيلها إغصَار⁽⁴⁾ ، فقال: يا أمةَ العَجَبِ ، جئت من المسجد؟ قالت: نعم! قال: وله تطييت؟ قالت: نعم! قال: إني سمعتُ جَبِّي أبا القاسم ﷺ يقول: لا تُقْبَلُ صلاةُ لامرأةٍ تَطَيَّيْتُ لهذا المسجد ، حتى ترجع فتغسلُ غُسلَها من الجنابة]⁽⁵⁾.

وقوله: ﴿ وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ . أمر من الله عباده المؤمنين بالتوبة إليه مما كان منهم من الصفات الجاهلية المذمومة ، والتقرب إليه

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم (443) ح (142) - كتاب الصلاة باب خروج النساء إلى المساجد إذا لم يترتب عليه فتنة ، وأنها لا تخرج مطيبة .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم (444) ، الباب السابق ، ورواه أبو داود (4175) .

(3) حديث حسن . أخرجه أبو داود (4173) . وانظر صحيح سنن الترمذي (2237) .

(4) أي غبار ترفعه الريح .

(5) حديث صحيح . أخرجه أبو داود (4174) ، وابن ماجه (4002) ، وانظر صحيح سنن أبي داود - حديث رقم - (3517) .

بامثال ما يحب من العادات والآداب والأخلاق الرفيعة المعلومة ، ليدركوا بذلك السعادة في الدنيا والآخرة .

32 - 34. قوله تعالى: ﴿ وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ۚ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُعْزِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ ۝٣٢﴾ وَلَيَسْتَغْفِرِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُعْزِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۚ وَآتُوهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ۚ وَلَا تَكْرِهُوا قَبُولَهُمْ عَلَى الْبِغَاءِ ۚ إِنْ أَرَدْتُمْ تَحْصِنَ ۖ لَّيَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِمْ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ ءَايَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ۝٣٤﴾ .

في هذه الآيات: الترغيب في التزويج ، للأحرار والعبيد ، والوعد بالغنى والرزق على ذلك . والأمر بالاستغفاف حتى يكون النكاح ، ومساعدة المكاتبين ، والتحذير من إكراه الإماء على الزنى ، وهذه الآيات فيها موعظة للمتقين .

فقوله: ﴿ وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ۚ ﴾ أمر بالتزويج ، على كل من قدر عليه ، فإن الزواج من سنة الأنبياء والمرسلين ، ونبيُّنا ﷺ سيكاثر بذريات أمته الأمم يوم القيامة .

فقد أخرج ابن ماجة بسند حسن عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: [النِّكَاحُ مِنْ سُنَّتِي ، فَمَنْ لَمْ يَعْمَلْ بِسُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي ، وتزوجوا فإني مكاثرٌ بكم الأمم . ومن كان ذا طَوْلٍ فَلْيَنْكِحْ وَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَعَلَيْهِ بِالصَّيَامِ ، فإن الصوم له وجاء] (1) .

وفي الصحيحين وسنن ابن ماجة وأبي داود عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: [يا معشر الشباب! من استطاع منكم الباءة فليتزوّج . فإنه أغضُّ للبصر وأحصن للفرج . وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ ، فإنه له وجاء] (2) .

(1) حديث حسن . أخرجه ابن ماجة (1846) - كتاب النكاح . باب ما جاء في فضل النكاح ، انظر صحيح سنن ابن ماجة (1496) .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (1905) ، ومسلم (1400) ، وأبو داود (2046) ، وابن ماجة (1845) ، والترمذي (1081) والنسائي (57/6) ، وأحمد (378/1) ، وابن حبان (4026) .

والأيا مئى: جمع أئم. قال الرازي: ﴿الْأَيْمَى﴾: الذين لا أزواج لهم من الرجال والنساء ، الواحد منهم «أئم» سواء كان تزوج من قبل أو لم يتزوج. وامرأة أئم بكراً كانت أو ثيباً. قال القرطبي: (المقصود من قوله تعالى: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَى مِنْكُمْ﴾ الحرائر والأحرار ، ثم بين حكم الممالك فقال: ﴿وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ يعني الذكور والإناث ، والصالح الإيمان).

قال أبو السعود: (واعتبار الصلاح في الأرقاء ، لأنَّ مَنْ لا صلاح له منهم ، بمعزل من أن يكون خليفاً بأن يعتني مولاه بشأنه ، ويشفق عليه ، ويتكلف بما لا بد منه شرعاً وعادة ، من بذل المال والمنافع. بل حقّه ألا يستبقيه عنده).

وقوله: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾. حث على الإقدام على الزواج فإن الله وعد الرزق على التقوى: قال ابن عباس: (رغبهم الله في التزويج ، وأمر به الأحرار والعبيد ، ووعدهم عليه الغنى).

يروى ابن جرير بسنده عن ابن مسعود قوله: (التمسوا الغنى في النكاح ، يقول الله تعالى: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾).

وفي التنزيل: قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: 2 - 3].

ومن كنوز صحيح السنة العطرة في آفاق هذه الآية أحاديث ، منها:

الحديث الأول: أخرج ابن عدي في «الكامل» بسند حسن عن أبي هريرة مرفوعاً: [حق على الله عون مَنْ نكح التماس العفاف عما حرّم الله]⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرج أحمد والترمذي وابن ماجه بسند حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: [ثلاثة حق على الله تعالى عونهم: المجاهد في سبيل الله ، والمكاتب الذي يريد الأداء ، والنكاح الذي يريد العفاف]⁽²⁾.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾. أي: واسع الفضل والمنّ والكرم ، عليم بأحوال عباده من الفقر والغنى وغير ذلك وما يصلح لهم.

(1) حديث حسن. أخرجه ابن عدي بسند حسن. انظر صحيح الجامع (3147) ، ويشهد له ما بعده.

(2) حديث حسن. أخرجه أحمد (251/2) ، والترمذي (1655) ، والنسائي (61/6) ، وابن ماجه (2518) ، وابن حبان (4030) ، والحاكم (160/2).

وقوله: ﴿وَلَيْسَتَغْفِرَ الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾. أمر من الله تعالى لمن لا يستطيع نكاحاً بلزوم التعفف والابتعاد عن الحرام حتى يأتي الله بالفرج والسعة. قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: 4].

وفي الصحيحين والمسند والسنن عن علقمة بن قيس قال: [كنت مع عبد الله بن مسعود بمنى. فخلا به عثمان. فجلست قريباً منه. فقال له عثمان: هل لك أن أزوجه جارية بكرةً تذكرك من نفسك بعض ما قد مضى؟ فلما رأى عبد الله أنه ليس له حاجة سوى هذا، أشار إلي بيده. فجئت وهو يقول: لئن قلت ذلك، لقد قال رسول الله ﷺ: [يا معشر الشباب! من استطاع منكم الباءة فليتزوج. فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج. ومن لم يستطع، فعليه بالصوم، فإنه له وجاء]⁽¹⁾.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَبْنِعُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾. أمر من الله تعالى للسادة بمعاونة عبيدهم إن أرادوا المكاتب للخروج من حال الرق. واشترط أهل العلم أن يكون للعبد كسب يكفيه للوفاء.

ومفهوم المكاتب: أن يكاتب الرجل عبده على مال يؤديه منجماً عليه، فإذا آداه فهو حر. ويجوز حالاً كما يجوز منجماً ومؤجلاً لإطلاق الأمر. واختلف العلماء هل الأمر هنا للوجوب أم للاستحباب على قولين:

القول الأول: الوجوب. وهو قول الشافعي في القديم، ومذهب ابن جرير شيخ المفسرين.

قال البخاري: (وقال رَوْحٌ، عن ابن جريج، قلت لعطاء: أوجب علي إذا علمت له مالاً أن أكاتبه؟ قال: ما أراه إلا واجباً. وقال عمرو بن دينار: قلت لعطاء: أتأثره عن أحد؟ قال: لا. ثم أخبرني أن موسى بن أنس أخبره أن سيرين سأل أنساً المكاتب، وكان كثير المال فأبى، فانطلق إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: كاتبه. فأبى، فضربه بالدرة، ویتلو عمر - رضي الله عنه -: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾. فكاتبه - ذكره البخاري تعليقاً.

وله شاهد عند ابن جرير بسند صحيح عن قتادة، عن أنس بن مالك: (أن سيرين

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1905)، ومسلم (1400)، وابن ماجه (1845)، واللفظ له، وأبو داود (2046)، والترمذي (1081)، والنسائي (57/6)، وأحمد (378/1).

أراد أن يَكَاتِبَهُ ، فتَلَكَّأَ عليه ، فقال له عمر : لَتُكَاتِبَنَّه .

القول الثاني: الندب وعدم الوجوب . وهو مذهب أبي حنيفة ومالك ، والشافعي في الجديد . قال ابن وهب : قال مالك : (الأمر عندنا أن ليس على سَيِّدِ الْعَبْدِ أَنْ يَكَاتِبَهُ إِذَا سَأَلَهُ ذَلِكَ ، وَلَمْ أَسْمَعْ أَحَدًا مِنَ الْأُمَّةِ أَكْرَهَ أَحَدًا عَلَى أَنْ يَكَاتِبَ عَبْدَهُ) .

قال مالك : (وإنما ذلك أمرٌ من الله تعالى وإِذْنٌ منه للناس ، وليس بواجب) . واحتج الشافعي في مذهبه الجديد على عدم الوجوب بحديث حنيفة الرقاشي - الذي أخرجه أبو يعلى وأحمد بسند حسن - مرفوعاً : [لا يحل مالُ امرئٍ مسلم إلا بطيب نفس منه] ⁽¹⁾ .

قلت : والراجح الندب لا الوجوب ، فإن الرجل حرٌّ في ماله ، فلو طلب منه عبْدُهُ المَكَاتِبَةَ فإن شاء كَاتَبَهُ وإن شاء لم يفعل . قال الشعبي : (إن شاء كَاتَبَهُ ، وإن شاء لم يَكَاتِبْهُ) . ومن ثَمَّ فَإِنَّ الْأَمْرَ فِي الْآيَةِ أمر إرشاد واستحباب ، لا أمر تحتم وإيجاب ، وهو قول الجمهور .

قال القرطبي : (وتمسك الجمهور بأن الإجماع منعقد على أنه لو سألته أن يبيعه من غيره لم يلزمه ذلك ، ولم يجبر عليه وإن ضوعف له في الثمن . وكذلك لو قال له أعطني أو دبّرني أو زوّجني لم يلزمه ذلك بإجماع ، فكذلك الكتابة ، لأنها معاوضة فلا تصح إلا عن تراضي . وقولهم : مطلق الأمر يقتضي الوجوب صحيح ، لكن إذا عَرِيَ عن قرينة تقتضي صرفه عن الوجوب ، وتعليقه هنا بشرط علم الخير فيه ، فعلق الوجوب على أمر باطن وهو علم السيّد بالخيرية . وإذا قال العبد : كاتبني ، وقال السيّد : لم أعلم فيك خيراً ، وهو أمر باطن ، فيرجع فيه إليه ويعول عليه . وهذا قوي في بابه) .

وأما قوله : ﴿ خَيْرًا ۖ ﴾ ففيه أقوال متكاملة :

1 - قال مالك بن أنس : (الخير : القوة على الأداء) . أو قال : (الاكتساب والأداء) . وهو قول الشافعي .

2 - وقال الحسن : ﴿ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ ﴾ قال : صدقاً ، ووفاءً ، وأداءً ، وأمانةً) . وقال مجاهد : (مالاً وأمانةً) . وقال ابن عباس : (إن علمتم لهم مالاً) .

3 - وقال عمرو بن دينار : (أحسبه كل ذلك المال والصلاح) .

(1) حديث حسن . أخرجه أبو يعلى (1570) ، وأحمد (72/5) ، وانظر صحيح الجامع (7539) .

4- وقال ابن زيد: (إن علمت فيه خيراً لنفسك ، يؤدي إليك ويصدقك ما حدثك ، فكاتبه).

5- وقال عبدة السلماني: (إقامة الصلاة والخير).

وقوله: ﴿وَأَتَوْهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾. قال النسفي: (أمر للمسلمين على وجه الوجوب بإعانة المكاتبين وإعطائهم سهمهم من الزكاة لقوله تعالى: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾).

قلت: وقد صنف البخاري في صحيحه كتاباً سماه: كتاب المكاتب ، وذكر فيه باباً: باب استعانة المكاتب وسؤاله الناس. روى فيه عن عائشة رضي الله عنها قالت: [جاءت بريدة فقالت: إني كاتبٌ أهلي على تسع أواقٍ في كلِّ عامٍ أوقيَّةٌ فأعينني ، فقالت عائشة رضي الله عنها: إن أحبَّ أهلك أن أعدها لهم عدَّةً واحدةً وأعتقك فَعَلْتُ فيكون ولاؤك لي ، فذهبتُ إلى أهلها فأبوا ذلك عليها ، فقالت: إني قد عرضتُ ذلك عليهم ، فأبوا إلا أن يكونَ الولاءُ لهم ، فسمعَ بذلك رسول الله ﷺ فسألني فأخبرته فقال: خذِها فأعتقها واشترطِ لهم الولاء ، فإنَّ الولاءَ لمن أعتق. قالت عائشة: فقام رسول الله ﷺ في الناس فحمدَ الله وأثنى عليه ، ثم قال: أما بعدُ ، ما بالُ رجالٍ يشتَرِطونَ شروطاً ليست في كتاب الله؟ فأيما شرطٍ كان ليس في كتاب الله فهو باطل وإن كان مئةَ شرطٍ ، فضاءُ الله أحقُّ ، وشرطُ الله أوثقُ ، ما بالُ رجالٍ يقولُ أحدهم: أعتق يا فلانُ وليَّ الولاءِ ، إنما الولاءُ لمن أعتق⁽¹⁾. وفي لفظ: [اشترى فأعتقها ودعهم يشترطوا ما شاؤوا. فاشترتها عائشة فأعتقتها واشترط أهلها الولاء. فقال النبي ﷺ: الولاء لمن أعتق وإن اشترطوا مئةَ شرط].

وفي رواية: قال رسول الله ﷺ: [الولاءُ لمن أعطى الورقَ ووليَّ النعمة].

وقوله: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ عَلَى الْبَغَاءِ إِن أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّبَنَغْوَى عَرَضِ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. قال ابن عباس: (كانوا في الجاهلية يكرهون إماءهم على الزنا ، يأخذون أجورهم ، فقال الله: لا تكرهوهنَّ على الزنا من أجل المنالة في الدنيا ، ومن يكرههنَّ فإنَّ الله من بعد إكراههنَّ غفور رحيم لهنَّ: يعني إذا أكرهنَّ).

وقال ابن زيد: ﴿وَمَن يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قال: غفور رحيم لهن حين أكرهن ، وقُسرَ على ذلك).

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2563) - (2565) كتاب المكاتب ، وانظر الحديث (456) منه. وللرواية الأخرى (6760) - كتاب الفرائض ، وهي رواية مُفسَّرة للحديث.

وقد جاءت الأحاديث الصحيحة بذكر أسباب نزول هذه الآية:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن جابر قال: [كان عبد الله بن أبي بن سلول يقول لجارية له: اذهبي فابغينا شيئاً ، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيْنَكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنِ اردَنْ تَحْصَنًا لِّتَبْغُوا عَرْضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرِهِنَّ﴾ لهم **﴿عَفْوَرٌ رَّحِيمٌ﴾**] (1).

الحديث الثاني: روى مسلم - أيضاً - عن جابر رضي الله عنه: [أنَّ جاريةً لعبد الله بن أبي بن سلول يقال لها: مُسَيِّكَةُ ، وأُخْرَى يقال لها: أُمَيْمَةُ ، فكان يريد هما «وفي رواية: فكان يكرههما» على الزَّنى ، فَشَكَّتَا ذلك إلى النبي ﷺ ، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيْنَكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنِ اردَنْ تَحْصَنًا﴾ إلى قوله: **﴿عَفْوَرٌ رَّحِيمٌ﴾**] (2).

الحديث الثالث: أخرج الطبراني ورجاله رجال الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: [كانت لعبد الله بن أبي جارية تزني في الجاهلية ، فلما حُرِّمَ الزنا قالت: لا والله لا أزني أبداً ، فنزلت الآية] (3).

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ ءَايَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ﴾. تأكيد لآيات القرآن أنزلها الله واضحات مفسرات لأحكام هذا الشرع العظيم ، ويأتي الوحي الثاني وهو: السنة المطهرة ، لتزيد في ذكر آفاق هذه الأحكام وتبيان مدلولاتها ومعانيها.

وقوله: ﴿وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ﴾. أي: وأنزلنا في هذا القرآن أخبار الأمم الماضية والقرون الغابرة وما حلَّ بها حين خالفت منهاج رسلها وتناولت على الوحي النازل إليها.

وقوله: ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾. قال ابن كثير: (أي: زاجراً عن ارتكاب المآثم والمحارم ، **﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾** ، أي: لمن اتقى الله وخافه).

35. قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (3029) كتاب التفسير ، سورة النور ، آية (33).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (3029) ح (27) - كتاب التفسير ، الباب السابق.

(3) حديث صحيح. أخرجه الطبراني - ورجاله رجال الصحيح - ورواه البزار بنحوه ، انظر الصحيح

المسند من أسباب النزول - الوادعي - سورة النور ، آية (33) ، وروى ابن جرير نحوه في التفسير -

حديث رقم - (26084).

مَصْبَاحٌ الْمَصْبَاحُ فِي رُجَاةِ الرُّجَاةِ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ .

في هذه الآية: نَعَتْ الله سبحانه - هادي أهل السماوات والأرض ، ومنورهما - لقلب المؤمن المشع بنور الوحي العظيم ، في نموذج رائع من التمثيل ، وضرب رفيع من التشبيه ، يعجز أهل الأرض ولو اجتمعوا على الإتيان بمثله ، والله بكل شيء عليم .

فعن ابن عباس: ﴿ ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ﴾ يقول: الله سبحانه هادي أهل السماوات والأرض). وقال مجاهد فيها: (يدبر الأمر فيهما ، نجومهما وشمسهما وقمرهما). وعن أبي العالية عن أبي بن كعب في قول الله: ﴿ ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ﴾ قال: (فبدأ بنور نفسه ، فذكره ، ثم ذكر نور المؤمن فقال: ﴿ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ ، يقول: مثل نور المؤمن).

وفي لفظ: (يقول: مَثَلُ نور مَنْ آمن به. قال: هو عبد جعل الله القرآن والإيمان في صدره).

وكذلك قال سعيد بن جبير - والضحاك - : ﴿ ﴿ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ ﴾ : قال: مثل نور المؤمن). وهذا هو التأويل الأول للآية.

التأويل الثاني: قيل بل عني بالنور محمد ﷺ ، والهاء في قوله: ﴿ ﴿ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ ﴾ عائدة على اسم الله .

روي ذلك عن كعب قال: ﴿ ﴿ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ ﴾ : مثل محمد ﷺ ، كمشكاة).

التأويل الثالث: قيل بل المراد بالنور هدى الله وبيانه ، وهو القرآن ، والهاء من ذكر الله .

قال ابن عباس: ﴿ ﴿ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ ﴾ : مثل هداة في قلب المؤمن). وقال الحسن: (مثل هذا القرآن في القلب ، كمشكاة). وقال ابن زيد: (نور القرآن الذي أنزل على رسوله ﷺ وعباده ، هذا مثل القرآن ﴿ كَيْشْكُوفَةٍ فِيهَا مَصْبَاحٌ ﴾).

قلت: ولا شك أن نوره تعالى هذا الوحي العظيم وهدى نبيه الكريم يشع في قلب

عبده المؤمن ، فحجابه سبحانه النور ، وكتابه نور ، وسيرة رسوله ﷺ نور على نور ، وقلب عبده المؤمن منور بهذا الخير كله .

وأما المشكاة ففي معناها أكثر من قول :

القول الأول : قيل هي كل كوة لا منفذ لها ، وهو مثل ضربه الله لقلب محمد ﷺ .

قال ابن عباس : (المشكاة : كوة البيت) . وفي لفظ : (موضع الفتيلة) . وقال كعب : (المشكاة وهي الكوة ، ضربها الله مثلاً لمحمد ﷺ) .

القول الثاني : قيل بل عني بالمشكاة صدر المؤمن ، وبالمصباح : القرآن والإيمان ، وبالزجاجة : قلبه .

فعن أبي العالية عن أبي بن كعب : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ قال : (مثل المؤمن قد جعل الإيمان والقرآن في صدره كمشكاة ، قال : المشكاة : صدره . ﴿ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ قال : والمصباح القرآن والإيمان الذي جعل في صدره . ﴿ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ﴾ قال : والزجاجة قلبه . ﴿ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ ﴾ ، قال : فمثله مما استنار فيه القرآن والإيمان كأنه كوكب دري ، يقول : مضيء ، ﴿ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ ﴾ قال : والشجرة المباركة : أصله المباركة الإخلاص لله وحده وعبادته ، لا شريك له . ﴿ لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ ﴾ قال : فمثله مثل شجرة التفّ بها الشجر ، فهي خضراء ناعمة ، لا تصيبها الشمس على أي حال كانت ، لا إذا طلعت ، ولا إذا غربت ، وكذلك هذا المؤمن قد أُجِيرَ من أن يُصِيبَهُ شَيْءٌ مِنَ الْغَيْرِ ، وقد ابتلي بها ، فثبتته الله فيها ، فهو بين أربع خلال : إن أُعْطِيَ شُكْرًا ، وإن ابْتُلِيَ صَبْرًا ، وإن حُكِمَ عَدْلًا ، وإن قَالَ صَدَقَ ، فهو في سائر الناس كالرجل الحيّ يمشي في قبور الأموات ، قال : ﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ فهو يتقلب في خمسة من النور : فكلامه نور ، وعمله نور ، ومدخله نور ، ومخرجه نور ، ومصيره إلى النور يوم القيامة في الجنة) .

وقال ابن عباس : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ ﴾ قال : مثل هداه في قلب المؤمن ، كما يكاد الزيت الصافي يضيء قبل أن تمسّه النار ، فإذا مسته النار ازداد ضوءاً على ضوء ، كذلك يكون قلب المؤمن يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم ، فإذا جاءه العلم ازداد هدىً على هدىً ، ونوراً على نور ، كما قال إبراهيم صلوات الله عليه قبل أن تجيئه المعرفة ﴿ قَالَ هَذَا رَبِّي ﴾ حين رأى الكوكب من غير أن يخبره أحد أن له رباً ، فلما أخبره الله أنه ربه ، ازداد هدىً على هدىً) .

وفي قوله: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ قال: يعني إيمان المؤمن وعمله.

القول الثالث: قيل هو مثل للمؤمن ، والمصباح مثل لفؤاده ، والمشكاة مثل لجوفه .

قال مجاهد: (المصباح وما فيه مثل فؤاد المؤمن وجوفه ، المصباح مثل الفؤاد ، والكوة مثل الجوف).

وقيل غير ذلك ، واختار ابن جرير قول من قال: ذلك مثل ضربه الله للقرآن في قلب أهل الإيمان به ، فقال: (مثل نور الله الذي أنار به لعباده سبيل الرشاد ، الذي أنزله إليهم ، فأمنوا به ، وصدقوا بما فيه ، في قلوب المؤمنين ، مثل مشكاة ، وهي عمود القنديل الذي فيه الفتيلة . . ﴿فِيهَا مَصْبَاحٌ﴾ وهو السراج ، وجعل السراج وهو المصباح مثلاً لما في قلب المؤمن من القرآن والآيات المبينات ثم قال: ﴿أَلَمْصَبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾ . . فقال: الزجاجية ، وذلك صدر المؤمن الذي فيه قلبه كأنها كوكب دري . قال: مثل الصدر في خلوصه من الكفر بالله والشك فيه ، واستناره بنور القرآن ، واستضاءته بآيات ربه المبينات ، ومواعظه فيها ، بالكوكب الدري).

قلت: وجميع الأقوال متقاربة ، وهي اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد ، وإن كنت أميل إلى القول الثاني وتفصيلاته الدقيقة ، وأن معنى قوله: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ هو نور الوحي على نور الإيمان ، نور السنة على نور الفطرة ، نور التشريع والدين الحق على نور الميثاق ، نور الهداية طَمَسَ ظلمة الشهوات وازدحامها على النفس والعقل والقلب ، نوراً على نور ، ومن لم يجعل الله له نوراً فماله من نور .

إنّ أساس التوازن الصحيح بين إرشاد العقل ومحاكماته الدقيقة من جهة ، وبين ضغط قوى الغرائز وميلها إلى التفلت من جهة أخرى ، هو الاستعانة بالله العظيم ، والاستمداد من وحيه الكريم ، وهو معنى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ . فلا نجاة للعبد من خطر نفسه واندفاع غرائزه إلا بموازنة ذلك بعلم الكتاب والسنة ، وملء العقل والقلب بنورهما المشع ، الذي ينعكس صحةً في العقل وقراراته ومحاكماته ، ونوراً في القلب وهدىً وأمناً واستقراراً في حركاته وتقلباته ، وحركة صحيحة وعملاً صالحاً يظهر على الجوارح .

وقوله: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ . أي: يعاقب الله ذكر الأمثال في القرآن لتنبية عباده إلى منافعهم ومصالح دنياهم وأخراهم ، وهذا المثل

العظيم الذي ضربه سبحانه لنور الوحي الذي يسطع على القلوب فتفرز الحياة والإشعاع المضيء هو من أنفع الأمثال لهم ، والله أعلم بمن يستحق الهداية وهذا النور ممن يستحق الضلال والخلود في الظلام .

36 - 38. قوله تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ ﴿٣٨﴾ .

في هذه الآيات: ذُكِرَ أظهر البيوت في الأرض عقب ذكر أظهر القلوب وأزكاها ، فَلَقُلُوبٌ عَمِرَتْ بالإيمان يناسب أصحابها بيوتٌ عمرت بذكر الرحمان ، ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من الفضل والإحسان ، والله يرزق من يشاء بغير حساب .

فقوله: ﴿ فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ ﴾ . قال ابن عباس: (وهي المساجد تُكْرَمُ ، ونهي عن اللغو فيها). وقال مجاهد: (مساجد تُبْنَى). وقال قتادة: (هي هذه المساجد ، أمر الله سبحانه ببنائها ورَفَعَهَا ، وأمر بِعِمَارَتِهَا وتطهيرها). وقال الحسن: ﴿ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ ﴾ يقول: أن تُعْظَمَ لذكره).

يروى ابن جرير بسنده عن عمرو بن ميمون قال: (أدركت أصحاب رسول الله ﷺ وهم يقولون: المساجد: بيوت الله ، وإنه لحقُّ على الله أن يُكْرِمَ من زاره فيها).

وقد حفلت السنة العطرة بأفاق هذه الآية في أحاديث كثيرة ، منها:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن عُبَيْدِ اللَّهِ الْخَوْلَانِيِّ أَنَّهُ سَمِعَ عُمَانَ بْنَ عَفَانَ ، عِنْدَ قَوْلِ النَّاسِ فِيهِ حِينَ بَنَى مَسْجِدَ الرَّسُولِ ﷺ: إِنَّكُمْ قَدْ أَكْثَرْتُمْ ، وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: [مَنْ بَنَى مَسْجِدًا لِلَّهِ يَتَّبِعِي بِهِ وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ] ⁽¹⁾. وفي رواية: (مِثْلُهُ فِي الْجَنَّةِ).

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (450) - كتاب الصلاة ، وأخرجه مسلم (533) - كتاب المساجد . وانظر للرواية الثانية (533) ح (25) - باب فضل بناء المساجد والحث عليها . وأخرجه أحمد (61/1) والترمذي (318) ، والبيهقي (437/2) ، وابن حبان (1609).

وفي رواية لمسلم عن مَخْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ ، أَنَّ عَثْمَانَ بْنَ عَفَانَ أَرَادَ بِنَاءَ الْمَسْجِدِ ، فَكَبَّرَ النَّاسُ ذَلِكَ ، فَاحْبَثُوا أَنْ يَدْعَهُ عَلَى هَيْئَتِهِ . فَقَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : [مَنْ بَنَى مَسْجِدًا لِلَّهِ بَنَى اللَّهُ لَهُ فِي الْجَنَّةِ مِثْلَهُ] .

الحديث الثاني: أخرج ابن ماجه بسند صحيح عن جابر بن عبد الله ، أن رسول الله ﷺ قال: [مَنْ بَنَى مَسْجِدًا لِلَّهِ كَمَفْخَصٍ قَطَاةٍ ، أَوْ أَصْغَرَ ، بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ] (1) .

الحديث الثالث: أخرج ابن ماجه بسند صحيح عن عمر بن الخطاب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [مَنْ بَنَى مَسْجِدًا يُذَكِّرُ فِيهِ اسْمُ اللَّهِ ، بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ] (2) .

الحديث الرابع: أخرج أبو داود وابن ماجه عن عائشة: [أن رسول الله ﷺ أمر بالمساجد أن تبنى في الدور ، وأن تطهر وتطيب] (3) .

قلت: وبناءها لا بد أن يكون على منهاج النبوة ، وإلا فإن زخرفتها وإضاعة الأموال في تزيينها من علامات انهيار الأمة وضعفها ومن علامات الساعة . والأحاديث في ذلك كثيرة ، منها:

الحديث الأول: أخرج ابن ماجه بسند صحيح عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: [لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد] (4) .

الحديث الثاني: أخرج أبو داود بسند صحيح عن ابن عباس قال: [قال رسول الله ﷺ: «ما أُمِرْتُ بتشديد المساجد» . قال ابن عباس: لتزخرفنَّها كما زخرفت اليهود والنصارى] (5) .

الحديث الثالث: أخرج ابن أبي شيبة بسند حسن عن سعيد بن أبي سعيد مرفوعاً:

(1) حديث صحيح . أخرجه ابن ماجه في السنن - حديث رقم - (738) - كتاب المساجد والجماعات . انظر صحيح سنن ابن ماجه (603) .

(2) حديث صحيح . أخرجه ابن ماجه في السنن - حديث رقم - (735) - الكتاب السابق - باب من بنى الله مسجداً . وانظر صحيح سنن ابن ماجه (601) .

(3) حديث صحيح . أخرجه أبو داود (455) ، والترمذي (594) ، وابن ماجه (758) ، وغيرهم .

(4) حديث صحيح . أخرجه ابن ماجه (739) - كتاب المساجد والجماعات . انظر صحيح سنن ابن ماجه (604) - باب تشييد المساجد ، وصحيح أبي داود (432) .

(5) حديث صحيح . أخرجه أبو داود في السنن - حديث رقم - (448) - كتاب الصلاة . باب في بناء المساجد . وانظر صحيح سنن أبي داود - حديث رقم - (431) .

[إذا زوqتم مساجدكم ، وحليتم مصاحفكم ، فالدمار عليكم]⁽¹⁾.

وفي رواية: [إذا زخرقت مساجدكم ، وحليتم مصاحفكم ، فالدمار عليكم].
وقوله: ﴿وَيَذْكُرْ فِيهَا أَسْمُهُمْ﴾. قيل: آيات كتابه ، وقيل: هو كل ذكر ورجاء ودعاء. قال ابن عباس: (يقول: يُتلى فيها كتابه).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 - قال تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [البجن: 18].

2 - وقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [الأعراف: 29].

ومن كنوز صحيح السنة العطرة في آفاق ذلك أحاديث:

الحديث الأول: روى مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك قال: [بينما نحن في المسجد مع رسول الله ﷺ إذ جاء أعرابي ، فقام يبول في المسجد ، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: مَهْ مَهْ ، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُزِرْمُوهُ ، دَعُوهُ» ، فتركوه حتى بال ، ثم إن رسول الله ﷺ دعاه فقال له: إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لَا تَصْلُحُ لشيءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ وَالْقَذَرِ ، إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَالصَّلَاةِ ، وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ ، أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، قال: فأمر رجلاً من القوم ، فجاءَ بِدَلْوٍ مِنْ مَاءٍ ، فَشَنَّهُ⁽²⁾ عليه]⁽³⁾.

الحديث الثاني: أخرج مسلم والنسائي عن بُريدة: [أَنَّ رجلاً أنشد في المسجد ، فقال: مَنْ دعا إليَّ الجملَ الأحمر؟ فقال النبي ﷺ: لا وَجَدْتُ ، إِنَّمَا بُنِيَتِ الْمَسَاجِدُ لِمَا بُنِيَتْ لَهُ]⁽⁴⁾.

الحديث الثالث: أخرج أبو داود بسند حسن عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: [نهى رسول الله ﷺ عن البيع والابتيع ، وعن تناشد الأشعار في المساجد]⁽⁵⁾.

(1) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (2/100/1) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1351).

(2) أي فصبه عليه.

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (285) - كتاب الطهارة ، وانظر صحيح البخاري (219) ، (221) ، (6025) ، وكذلك مسند أحمد (3/226) ، وسنن النسائي (1/47).

(4) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه - حديث رقم - (569) ، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (174) ، وابن ماجه (765) ، وابن حبان (1652).

(5) حديث حسن. أخرجه أبو داود (1079) ، والترمذي (322) ، وأحمد (2/178) ، وغيرهم.

الحديث الرابع: أخرج الترمذي وابن حبان بسند صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: [إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد فقولوا: لا أبيع الله تجارتك. وإذا رأيتم من يشتد ضالة في المسجد فقولوا: لا ردها الله عليك]⁽¹⁾.

وقوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ رِجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ. أي: يصلي الله ويذكره فيها غدوة وعشيا رجال لا تشغلهم أعمال البيع والصفق في الأسواق للتكسب عن ذكر الله وإقامة صلاة الجماعة وأداء الزكاة المفروضة. قال ابن عباس: ﴿يُسَبِّحُ لَهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ يقول: يصلي له فيها بالغداة والعشي، يعني بالغدو: صلاة الغداة، ويعني بالآصال: صلاة العصر، وهما أول ما افترض الله من الصلاة، فأحب أن يذكرهما، ويذكر بهما عبادته. وقال الحسن: (أذن الله أن تبنى، فيصلّي فيها بالغدو والآصال). والوقف التام على قوله: «والآصال» عند من قرأ من القرآن: ﴿يُسَبِّحُ لَهَا فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ - بفتح الباء من «يُسَبِّحُ» على البناء لما لم يُسم فاعله. والقراءة بالكسر ﴿يُسَبِّحُ﴾ أشهر في الأمصار.

قلت: وقوله: ﴿رِجَالٌ﴾ فاعل «يُسَبِّحُ» مرفوع. والوقف على نهايات الآيات مستحب دوماً، لأن النبي ﷺ كان يقطع قراءته فيقرأ آية آية، وكثير من الاجتهادات في غير ذلك مما لا دليل عليه.

ففي جامع الترمذي ومستدرک الحاكم بسند صحيح عن أم سلمة قالت: [كَانَ يَقْطَعُ قِرَاءَتَهُ آيَةً آيَةً: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، ثم يقف: ﴿الْزَمَنُ الرَّحِيمِ﴾، ثم يقف]⁽²⁾.

قال ابن كثير: (فقلوه: ﴿رِجَالٌ﴾ فيه إشعار بهمهم السامية، ونياتهم وعزائمهم العالية، التي بها صاروا عُمَّاراً للمساجد، التي هي بيوت الله في أرضه، ومواطن عبادته وشكره، وتوحيده وتنزيهه، كما قال تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: 23]. وعن ابن عباس: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ يقول: عن الصلاة المكتوبة. وقال السدي: (عن الصلاة في جماعة).

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (131)، وابن حبان (1650)، وانظر صحيح مسلم (568) نحوه.

(2) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في السنن - حديث رقم - (3107) - أبواب القراءات. انظر صحيح سنن الترمذي (2336)، ورواه الحاكم.

وفي التنزيل نحو ذلك :

- 1 - قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: 9].
- 2 - وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَوَدَّعَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الجمعة: 9].
- 3 - وقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة: 43].

ومن كنوز السنة المطهرة في آفاق هذه الآية أحاديث :

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: [أتى النبي ﷺ رجل أعمى، فقال: يا رسول الله! ليس لي قائد يقودني إلى المسجد، فسأل رسول الله ﷺ أن يرخص له فيصلي في بيته فرخص له، فلما ولى دعاه فقال: هل تسمع النداء بالصلاة؟ فقال: نعم. قال: فأجب⁽¹⁾].

الحديث الثاني: أخرج ابن ماجه وأبو داود بسند صحيح عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: [مَنْ سَمِعَ النِّدَاءَ فَلَمْ يَأْتِهِ فَلَا صَلَاةَ لَهُ إِلَّا مِنْ عُذْرٍ⁽²⁾].

قال الشافعي: (لا أرخص لمن قدر على صلاة الجماعة في ترك إتيانها إلا من عذر).

الحديث الثالث: روى مسلم عن عبد الله قال: [لقد رأيتنا وما يتخلف عن الصلاة إلا مُنَافِقٌ قَدْ عُلِمَ نِفَاقُهُ، أو مريض، إن كان المريض ليمشي بين رجلين حتى يأتي الصلاة. وقال: إن رسول الله ﷺ عَلَّمَنَا سُنَنَ الْهَدْيِ، وَإِنَّ مِنْ سُنَنِ الْهَدْيِ، الصلاة في المسجد الذي يُوَدُّ فِيهِ⁽³⁾].

الحديث الرابع: أخرج الحاكم بسند صحيح عن علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح - حديث رقم - (653) - كتاب المساجد. باب يجب إتيان المسجد على من سمع النداء.

(2) حديث صحيح. رواه أبو داود وابن ماجه والحاكم من حديث عبد الله بن عباس. انظر صحيح سنن أبي داود (560)، وصحيح الجامع (6176).

(3) حديث صحيح. خرّجه مسلم (654) - كتاب المساجد، باب صلاة الجماعة من سنن الهدى.

قال: [إسباغ الوضوء في المكاره ، وإعمال الأقدام إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، يغسل الخطايا غسلًا]⁽¹⁾.

الحديث الخامس: أخرج ابن أبي شيبة وابن خزيمة بسند صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [ما تَوَطَّنَ رجلٌ المساجدَ للصلاةِ والذكرِ إلا تَبَشَّشَ اللهُ تعالى إليه كما يَبَشَّشُ أهل الغائب بغائبهم إذا قدم عليهم]⁽²⁾.

وقوله: «تَبَشَّشَ» أصله من فرح الصديق بمجيء الصديق واللطف في المسألة والإقبال ، والمراد هنا تلقيه ببره وتقريبه وإكرامه.

الحديث السادس: أخرج الحاكم بسند صحيح عن عبد الله بن سلام مرفوعاً: [إنَّ للمساجد أوتاداً ، هم أوتادُها ، لهم جلساءٌ من الملائكة ، فإن غابوا سألوا عنهم ، وإن كانوا مَرْضَى عادوهم ، وإن كانوا في حاجة أعانوهم]⁽³⁾.

وأما النساء فلا تجب عليهن صلاة الجماعة ، ولا يمنعن منها إلا من فتنة ، وبيوتهن خير لهن.

ففي الصحيحين عن عبد الله بن عمر أنه قال: قال رسول الله ﷺ: [لا تمنعوا إماء الله مساجد الله]. وفي لفظ لأحمد وأبي داود: [وبيوتهن خيرٌ لهن]⁽⁴⁾. وفي رواية: [وليخرجنَ وهنَّ تَفَلَات]. أي: لا ريعٌ لهن.

وفي صحيح مسلم عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود قالت: قال لنا رسول الله ﷺ: [إذا شهدت إحداكن المسجد فلا تمسّ طيباً]⁽⁵⁾.

وقوله: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾. قال القرطبي: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا﴾ يعني يوم القيامة. ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ يعني من هوله وحذر الهلاك.

(1) رواه أبو يعلى والبخاري والحاكم بسند صحيح. انظر صحيح الترغيب (311/1).

(2) إسناده صحيح ورجاله ثقات. انظر المرجع السابق (325/1) ، وكذلك (301/1).

(3) حديث صحيح. رواه الحاكم مرفوعاً. انظر صحيح الترغيب (327/1) ، في الترغيب في لزوم المساجد والجلوس فيها.

(4) حديث صحيح. أخرجه البخاري (900) ، ومسلم (442) ، وأحمد (76/2) ، (77/2). وأخرجه أبو داود (567). وانظر للرواية بعدها سنن أبي داود (565).

(5) حديث صحيح. أخرجه مسلم (443) ، وأحمد (363/6) ، والنسائي (155/8).

وفي التنزيل نحو ذلك :

1 - قال تعالى: ﴿ وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَزْفَةِ إِذْ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمِينَ ﴾ [غافر : 18].

2 - وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ [إبراهيم : 42].

3 - وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا نُنْفِصُكُمْ لِيُوجِبَ اللَّهُ لَآئِبُدْ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ۝ إِنَّا خَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَتَطِيرًا ﴾ [الإنسان : 9 - 10].

وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [يحشر الناس يوم القيامة خُفاة عُرَاة غُرْلًا. قلت: يا رسول الله! الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض؟ فقال: يا عائشة: الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض]⁽¹⁾.

وقوله: ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾. قال النسفي: (أي يسبحون ويخافون ليجزيهم الله أحسن جزاء أعمالهم ، أي ليجزيهم ثوابهم مضاعفاً ويزيدهم على الثواب الموعود على العمل تفضلاً).

وقوله: ﴿ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾. تقرير للزيادة ، وتنبيه على كمال القدرة ، ونفاذ المشيئة ، وسعة كرم الرحمان عز وجل ، ومقابلة الإحسان بالإحسان. قال القاسمي: ﴿ (بِغَيْرِ حِسَابٍ) كناية عن السعة. والمراد أنه لا يدخل تحت حساب الخلق وعدّهم).

أخرج ابن أبي الدنيا والبخاري بسند حسن عن ابن عمر مرفوعاً: [لَوْ تَعَلَّمُونَ قَدْرَ رَحْمَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، لَا تُكَلِّمُ عَلَيْهَا]⁽²⁾.

وفي المسند للإمام أحمد بسند صحيح عن العرياض بن سارية قال: كان النبي ﷺ يخرج علينا في الصفة وعلينا الحوتكية فيقول: [لَوْ تَعَلَّمُونَ مَا دُخِرَ لَكُمْ ، مَا حَزِنْتُمْ عَلَى مَا رُويَ عَنْكُمْ ، وَلَيُفْتَحَنَّ لَكُمْ فَارِسُ وَالرُّومُ]⁽³⁾.

(1) حديث صحيح. انظر مختصر صحيح مسلم ، حديث رقم ، (1950) ، ورواه البخاري.

(2) أخرجه ابن أبي الدنيا في «حسن الظن» (1/193/2) ، وانظر: «زوائد البزار» للهيتمي (3256/85/4) ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (2167).

(3) حديث صحيح. أخرجه أحمد (4/128) ، وأبو نعيم في «الحلية» (2/14) ، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة (2168): إسناده شامي صحيح.

39 - 40. قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوا كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُمْ فَوْقَهُ حِسَابُهُمُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ طُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكْدُمُ لَمْ يَكَدْ يَرْنَاهَا وَمَنْ لَّنَجْعَلَ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَلَمْ لَهُ مِنْ نُورٍ ﴿٤٠﴾﴾.

في هذه الآيات: مثلاً ضربهما الله تعالى لنوعي الكفار: الرؤساء والأتباع. لا تنفعهم أعمالهم يوم الحساب أحوج ما يحتاجون إلى نفعها ، ومن لم يجعل الله له نوراً فماله من نور.

فقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوا كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُمْ فَوْقَهُ حِسَابُهُمُ﴾. القِيعَة: جمع قاع ، والقاع واحد القيعان ، والمقصود الأرض المستوية المتسعة المنبسطة. والسراب: ما يُرى نصف النهار في اشتداد الحرّ ، كالماء في المفاوز يلتصق بالأرض. قال القرطبي: (وسمي السراب سراباً لأنه يَسْرُبُ أي يجري كالماء).

وعن ابن عباس: ﴿﴿أَعْمَلُوا كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾﴾ يقول: الأرض المستوية). وقال: (هذا مثل ضربه الله لرجل عطش ، فاشتد عطشه ، فرأى سراباً ، فحسبه ماء ، فطلبه وظن أنه قد قدر عليه ، حتى أتاه ، فلما أتاه لم يجده شيئاً ، وقُبض عند ذلك. يقول: الكافر كذلك ، يحسب أن عمله مُغْنِي عنه ، أو نافعه شيئاً ، ولا يكون آتياً على شيء حتى يأتيه الموت ، فإذا أتاه الموت ، لم يجد عمله أغْنِي عنه شيئاً ، ولم ينفعه إلا كما نفع العطشان المشتد إلى السراب).

وقال ابن زيد: (هذا مثل ضربه الله للذين كفروا ﴿﴿أَعْمَلُوا كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾﴾: قد رأى السراب ، ووثق بنفسه أنه ماء ، فلما جاءه لم يجده شيئاً ، قال: وهؤلاء ظنوا أن أعمالهم صالحة ، وأنهم سَيَرْجِعُونَ منها إلى خير ، فلم يرجعوا منها إلا كما رجع صاحب السراب ، فهذا مثل ضربه الله جل ثناؤه ، وتقصدت أسماؤه).

وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً: [إذا كان يوم القيامة أَدْنُ مُوَدَّنٍ: تَتَّبِعُ كُلُّ أَمَةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ ، فلا يبقى مَنْ كَانَ يَعْبُدُ غَيْرَ اللَّهِ مِنَ الْأَصْنَامِ

والأنصاب إلا يتساقطون في النار ، حتى إذا لم يَبْقَ إلا مَنْ كان يَعْبُدُ اللهَ بَرًّا أو فَاجِرًا وَغَيْرَاتُ أَهْلِ الْكِتَابِ ، فَيُدْعَى الْيَهُودُ ، فيُقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كنا نَعْبُدُ عَزِيرًا ابْنَ اللَّهِ ، فيقال لهم: كَذَبْتُمْ ما اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَدٍ ، فماذا تَبْغُونَ؟ فقالوا: عَطِشْنَا رَبَّنَا فَاسْقِنَا ، فيشَارُ أَلَّا تَرِدُونَ! فَيُخْشَرُونَ إِلَى النَّارِ كَأَنَّهُا سَرَابٌ يَخْطُمُ بَعْضُهَا بَعْضًا فَيَتَساقطون في النار ، ثم يدعى النصارى فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كُنَّا نَعْبُدُ الْمَسِيحَ ابْنَ اللَّهِ ، فيُقال لهم: كَذَبْتُمْ ما اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ صَاحِبَةٍ ، فيقال لهم: ماذا تَبْغُونَ؟ فَكَذَلِكَ مِثْلَ الْأَوَّلِ [الحديث (1)].

وقوله: ﴿وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ﴾. أي: وإنما وجد في نهاية المسير زبانية العذاب تعتله إلى النار ، فيما قضاه الله تعالى عليه من الذل والعذاب والهوان. وقوله: ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾. قال النسفي: (لأنه لا يحتاج إلى عد وعقد ، ولا يشغله حساب عن حساب ، أو قريب حسابه لأن ما هو آت قريب).

وقوله: ﴿أَوْ كَظُلُمَتِ فِي بَحْرِ لُجِّيٍّ﴾. قال قتادة: (وهو العميق). والمقصود: كثير الماء ، فنسب إلى اللج وهو معظم ماء البحر.

بعد أن ذكر الله أحوال أئمة الكفر أصحاب الجهل المركب ، عطف بذكر أصحاب الجهل البسيط. قال ابن كثير: (وهم الطماطم الأغشام المقلدون لأئمة الكفر ، الصم البكم الذين لا يعقلون).

وقوله: ﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَتُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾. قال ابن عباس: (يعني بذلك الغشاوة التي على القلب والسمع والبصر ، وهو كقوله: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: 7] ، وكقوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشْوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [البجائية: 23]).

وعن أبي بن كعب قال: (ضرب مثلاً آخر للكافر ، فقال: ﴿أَوْ كَظُلُمَتِ فِي بَحْرِ لُجِّيٍّ...﴾ الآية ، قال: فهو يتقلب في خمس من الظلم: فكلامة ظلمة ، وعمله ظلمة ، ومدخله ظلمة ، ومخرجه ظلمة ، ومصيره إلى الظلمات يوم القيامة ، إلى النار).

قال ابن جرير: (فجعل الظلمات مثلاً لأعمالهم ، والبحر اللجي مثلاً لقلب الكافر ،

يقول: عَمِلَ بنية قلب قد غَمَرَهُ الجهل ، وتغشته الضلالة والحيرة ، كما يغشى هذا البحر اللُّجي موج من فوقه موج ، من فوقه سحب ، فكَذلك قلب هذا الكافر الذي مثل عمله مثل هذه الظلمات ، يغشاه الجهل بالله ، بأن الله ختم عليه ، فلا يعقل عن الله ، وعلى سمعه ، فلا يسمع مواعظ الله ، وجعل على بصره غشاوة ، فلا يبصر به حجج الله ، فتلك ظلمات بعضها فوق بعض).

وقال النسفي: (شبهها⁽¹⁾) ثانياً في ظلمتها وسوادها لكونها باطلة وفي خلوها عن نور الحق بظلمات متراكمة من لج البحر والأمواج والسحاب).

وقوله: ﴿ إِذَا أَخْرَجَ يَكْدُ لَمْ يَكْدُ يَرْنَهَا ﴾. أي: لا يقارب رؤيتها من شدة الظلمة ، والتمثيل كناية عن انعدام نفع أعمال الكفار لهم في آخرتهم.

وقوله: ﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾. أي: من لم يهده الله لنور الوحي العظيم يهتدي به في ظلمات الجهل والشبهات والهوى ، فماله من نور يهتدي به غيره ، بل يبقى في الضلال وظلمات الغي والأهواء.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 - قال تعالى: ﴿ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَلا هَادِيَ لَمْ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأعراف: 186].

2 - وقال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾ [فصلت: 17].

3 - وقال تعالى: ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [المؤمن: 35].

4 - وقال تعالى: ﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴾ [الكهف: 17].

وفي صحيح مسلم عن حذيفة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً ، فأى قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء ، وأى قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء ، حتى يصير القلب أبيض مثل الصفا لا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض ، والآخر أسود مُزْبِداً كالكوز مُجْحِياً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه]⁽²⁾.

(1) أي أعمال الكفار.

(2) حديث صحيح. انظر مختصر صحيح مسلم - حديث رقم - (1990) - كتاب الفتن.

41 - 46. قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْخَرُ لَهُم مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَقَتِ كُلِّ قَدْعٍ صَلَاتُهُمْ وَسَبِيحُهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِثْرًا فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَآ بَرْقُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ ﴿٤٣﴾ يَقْلِبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَرِ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَقَدْ أَنْزَلْنَا ءَايَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾.

في هذه الآيات: إثبات تسبيح جميع ما في السماوات والأرض والطير لله الملك العزيز الحكيم. هو الذي يسوق السحاب بقدرته ويجمعه ويُرَاكم بعضه على بعض ليخرج من خلاله المطر وينزل البرد وإن لمعان البرق الذي يرسله يكاد يذهب بالأبصار. فسبحان مقلب شؤون خلقه ومعاقب الليل والنهار. لقد خلق سبحانه كل دابة من ماء فهي تمشي على البطن أو على رجلين أو أربع يخلق ما يشاء وينزل الآيات ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

فقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْخَرُ لَهُم مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَقَتِ﴾. قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ألم تنظر يا محمد بعين قلبك، فتعلم أن الله يصلي له من في السماوات والأرض، من ملك وإنس وجن، ﴿وَالطَّيْرِ صَفَقَتِ﴾ في الهواء أيضاً تسبح له). وقال القرطبي: (ومعنى ﴿صَفَقَتِ﴾ مصطفات الأجنحة في الهواء).

وفي التنزيل:

قال تعالى: ﴿يَسْخَرُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَخَّرُ بِحُكْمِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: 44].

وقوله: ﴿كُلُّ قَدْعٍ صَلَاتُهُمْ وَسَبِيحُهُ﴾. قال مجاهد: (صلاته: للناس، وتسبيحه عامة لكل شيء). قال ابن كثير: (أي: كلُّ قد أرشده إلى طريقته ومسلكه في عبادة الله عز وجل).

وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾. أي: عليم: بتسييح عباده وصلاتهم وأعمالهم كلها ، فلا يعزب عن علمه شيء .

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾. أي: والله سلطان السماوات والأرض وملكها ، وكل ملك دون ملكه إلى الزوال ، فخزائن السماوات والأرض بيده فأفردوه بالطاعة والخوف والرجاء ، فإن مرجعكم إليه لا محالة .

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُرْسِئُ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾. قال ابن كثير: (يذكر تعالى أنه بقدرته يسوق السحاب أول ما ينشئها وهي ضعيفة ، وهو الإزجاء ، ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ﴾ ، أي: يجمعه بعد تفرقه ، ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾ ، أي: متراكماً ، أي: يركب بعضه بعضاً).

قلت: وفي لغة العرب: زجى الشيء تزجية إذا دفعه برفق ، والمزجى: الشيء القليل ، وبضاعة مزجاة أي قليلة. والمقصود: يسوق الله السحاب بأمره حتى يجمعه ثم يجعله متراكماً بعضه على بعض ليخرج المطر من خلاله ، وهو الودق. وقوله: ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾. قال ابن زيد: (الودق: القطر ، والخلال: السحاب). وقوله: ﴿وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِجَالًا مِنْهَا مَاءً بَرْدًا﴾. فيه تأويلان محتملان:

التأويل الأول: خلق الله في السماء جبلاً من برد ، فهو ينزل منها برداً. أو خلق في السماء جبلاً فيها برد فهو ينزل منها ما شاء .

التأويل الثاني: قيل بل المعنى: ينزل من السماء قدر جبال ، أو مثل جبال من برد إلى الأرض. أو ينزل من السماء برداً يكون كالجبال .

وقوله: ﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ﴾. قال القرطبي: (فيكون إصابته نعمة ، وصرفه نعمة). قلت: وقد تكون إصابته برفق رحمة لهم ولزروعهم وماشيتهم ، وتأخيرهم عنهم الغيث امتحاناً لهم. وقوله: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ﴾. السنا: ضوء البرق ولمعانه. قال ابن عباس: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ﴾ قال: ضوء برقه. وقال قتادة: (يقول: لمعان البرق يذهب بالأبصار).

وقوله تعالى: ﴿يَقْلِبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾. أي: يُعاقِبُ الله الليل والنهار ، فيأتي بأحدهما بعد الآخر ، ويزيد في أحدهما وينقص من الآخر ، ويغير النهار بظلمة السحاب مرةً وبضوء الشمس أخرى ، كما يغير الليل أحياناً بظلمة السحاب أو ضوء القمر ، وفي كل ذلك موضع اعتبار لأولي البصائر والعقول والنهى ،

ليلجؤوا إليه دوماً بالرجاء والدعاء ويفردوه بالتسبيح والتعظيم .

وقوله : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ ۚ ﴾ . إشارة جديدة إلى عظمته تعالى وقدرته العجيبة ، فهو خلق كل أنواع مخلوقاته على اختلاف ألوانها وحجومها وأشكالها وطريقة تحركها من ماء واحد . قال النسفي : (أي من نوع من الماء مختص بتلك الدابة ، أو من ماء مخصوص وهو النطفة) .

وقوله : ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ ۚ ﴾ . أي : ثم فاضل بينها في طريقة حركتها ، فالحية تمشي على بطنها ، والإنسان والطيور على رجلين ، والأنعام وسائر الحيوانات كل يمشي على أربع ، إن في ذلك لآية كبيرة على بديع قدرته سبحانه واستحقاقه العبادة وحده لا شريك له .

وقوله : ﴿ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۚ ﴾ . أي : ويحدث الله ما يشاء من الخلق مما هو أعجب وأدق فلا حدود لقدرة وهو على كل شيء قدير .

وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ كِتَابَ الْهُدَىٰ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۚ ﴾ . إرشاد منه تعالى إلى تدبر آيات قرآنه وفهم بدائع هذه الحكم والأمثال والعبر التي أودعها كتابه ، ثم من استحق الهداية فإنه تعالى يوفقه لها ويجعله على صراط مستقيم .

47- 52. قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ ءَأَمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فِرْقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ۚ ﴾ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فِرْقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَخَشِيَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾ .

في هذه الآيات : ذكر بعض صفات المنافقين ، يُعلنون الإيمان وما هم بمؤمنين ، ويعرضون عن التحاكم لله ورسوله وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين . وأما المؤمنون فيخبتون لله ويرضون بحكمه وحكم رسوله وأولئك هم الفائزون .

فقوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ ءَأَمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فِرْقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا

أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾. نَعَتْ لبعض صفات المنافقين ، يظهرون الطاعة والإيمان ، وَيُطِئُونَ الْمَكْرَ وَالْعَصِيَانَ. قال ابن جرير: ﴿وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾: لتركهم الاحتكام إلى رسول الله ﷺ ، وإعراضهم عنه إذا دُعُوا إليه.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ﴾. أي: وإذا دعي هؤلاء المنافقون إلى التحاكم إلى كتاب الله وهدى رسوله ترى فريقاً منهم كارهين منكرين مستكبرين.

وقوله تعالى: ﴿وَأِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ أي: وإن كان لهم - أي لهؤلاء المنافقين - حقٌ عند من يدعونهم إلى كتاب الله ورسوله ، لرأيتهم يأتون إلى رسول الله للمطالبة بحقوقهم مسرعين منقادين لحكمه وقضائه لاستخلاص حقهم. وقال مجاهد: ﴿يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ قال: سراعاً.

وقوله تعالى: ﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾. قال النسفي: (قسم الأمر في صدودهم عن حكومته إذا كان الحق عليهم بأن يكونوا مرضى القلوب منافقين ، أو مرتابين في أمر نبوته ، أو خائفين الحيف في قضائه ، ثم أبطل خوفهم حيفه بقوله: ﴿بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي لا يخافون أن يحيف عليهم لمعرفتهم بحاله ، وإنما هم ظالمون يريدون أن يظلموا من له الحق عليهم وذلك شيء لا يستطيعونه في مجلس رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فمن ثم يابون المحاكمة إليه).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. أي: إنما صفة المؤمنين إذا دعوا للتحاكم لله ورسوله عند الخصومة الانقياد الكامل وإعلان السمع والطاعة ، فهؤلاء أهل النجاة والفلاح في الدنيا والآخرة.

وفي التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [يوسف: 40].

2 - وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: 65].

3 - وقال تعالى: ﴿فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [المائدة: 48].

4 - وقال تعالى: ﴿ فَإِنْ نَزَعْنَاهُ فِي سَنَةٍ أَوْ نَذَرْنَا إِلَيْكَ أَوْ بَرَأْنَا إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّىٰ فَإِنْ تَوَلَّىٰ سَاءَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُ يَوْمَ يُنْفَخُ الْأَشْجَارُ فَتَبْلُغُ أَرْضَ الْبَارِئِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء: 59].

قال ابن عباس: (من جحد ما أنزل الله فقد كفر ، ومن أقرَّ به ولم يحكم ، فهو ظالم فاسق).

ومن كنوز صحيح السنة في آفاق هذه الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الدارمي بسند صحيح عن زياد بن حدير قال: [قال لي عمر: هل تعرف ما يهدم الإسلام؟ قال: قلت: لا. قال: يهدمه زلَّةُ العالم ، وجدال المنافق بالكتاب ، وحكم الأئمة المضلين]⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرج الترمذي بسند حسن عن عدي بن حاتم قال: [أتيت النبي ﷺ ، وفي عنقي صليب من ذهب ، فقال: «يا عديُّ اطرَّخْ عنك هذا الوثن» ، وسمعتة يقرأ في سورة براءة: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [التوبة: 31] ، قال: «أما إنهم لم يكونوا يَعْبُدُونَهُمْ ، ولكنهم كانوا إذا أحلُّوا لهم شيئاً اسْتَحْلَوْهُ ، وإذا حَرَّموا عليهم شيئاً حَرَّمُوهُ»]⁽²⁾.

الحديث الثالث: أخرج أبو داود والنسائي بسند صحيح عن هاني بن يزيد ، عن النبي ﷺ قال: [إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَكَمُ ، وإليه الْحُكْمُ]⁽³⁾. وَالْحَكَمُ: هو الحاكم ، وحقيقته: الذي سُلِّمَ له الْحُكْمُ وَرُدَّ إِلَيْهِ.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾. قال قتادة: ﴿يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيما أمراه ، ويترك ما نهيا عنه ، ﴿وَيَخْشَى اللَّهَ﴾ فيما مضى من ذنوبه ، ﴿وَيَتَّقِيهِ﴾ فيما يُسْتَقْبَلُ. قال ابن كثير: (وقوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ ، يعني: الذين فازوا بكل خير ، وأمنوا من كل شر في الدنيا والآخرة).

(1) حديث صحيح. أخرجه الدارمي (71/1) من حديث زياد بن حدير ، وانظر تخريج المشكاة (269/1). قال الألباني: وسنده صحيح. وانظر كتابي: أصل الدين والإيمان (434/1) - توحيد التشريع - لمزيد من تفصيل هذا البحث.

(2) حديث حسن. انظر صحيح سنن الترمذي (2471) - أبواب تفسير القرآن ، سورة التوبة ، آية (31). وله شاهد عند الطبري (16634) من حديث حذيفة موقوفاً.

(3) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (4955). وانظر صحيح سنن أبي داود (4145) ، وصحيح الجامع (1841) ، والإرواء (2682) ، ورواه النسائي.

وفي التنزيل :

1 - قال تعالى: ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّكَارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: 185].

2 - وقال تعالى: ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٤﴾ الَّذِي أَطْلَنَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ قَضَائِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: 33 - 35].

قال ابن عباس: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ قال: حزن النار. وقال قتادة: كانوا في الدنيا يعملون وينصبون ، وهم في خوف أو يحزنون. قلت: فأول لحظات السعادة الأبدية ، والشعور بلذة الفوز والظفر ، عند وضع أول قدم على باب الجنة .

وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: [إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق ، من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم ، قالوا: يا رسول الله! تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم. قال: بلى والذي نفسي بيده ، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين]⁽¹⁾.

53 - 54. قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْأَمِينُ ﴿٥٤﴾﴾ .

في هذه الآيات: فَضَحُ الله تعالى المنافقين في تأكيدهم الخروج للجهاد مع رسول الله ﷺ بالحلف وهم كاذبون. إنه من يطع الله ورسوله ينعم بنور الهداية ومن يعرض فما على الرسول إلا البلاغ المبين .

فقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ . إخبار عن حال أهل النفاق في استخدامهم أغلظ أيمانهم وأشدّها في الحلف لرسول الله ﷺ لئن أمرهم بالخروج إلى جهاد عدوه وعدو المؤمنين ليخرجن. قال القرطبي: ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾: أي طاقة

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3256) ، وانظر مختصر صحيح مسلم (1961).

ما قدرُوا أَن يَحْلِفُوا). وقال مقاتل: (من حلف بالله فقد أجهَد في اليمين). وقوله: ﴿قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةً مَّعْرُوفَةً﴾. قال مجاهد: (قد عُرفت طاعتكم إليَّ أنكم تكذبون) ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾: يقول: إن الله ذو خبرة بما تعملون من طاعتكم الله ورسوله ، أو خلافتكم أمرهما ، أو غير ذلك من أموركم ، لا يخفى عليه من ذلك شيء ، وهو مجازيكم بكل ذلك).

وقوله: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾. أي: أخلصوا في اتباع كتابه وسنة نبيه وذروا النفاق والرياء والكذب. قال النسفي: (صرف الكلام عن الغيبة إلى الخطاب على طريق الالتفات ، وهو أبلغ في توبيختهم). وقوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾. أي: فإن تتولوا فإنه وبال ذلك عليكم ، وضرره راجع إليكم ، فإن الرسول عليه البلاغ - وهو ما حَمَلَهُ الله تعالى - وأما أنتم فعليكم ما حُمِّلْتُمْ من التكليف ووجوب الإذعان لأمر الله والقيام بطاعته ، فإن أبيتم وقعتم تحت سخط الله وتعرضتم لعقابه.

وقوله: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾. أي: إن تطيعوا رسولكم ترشدوا وتصيبوا الحق وطريق الهداية إلى سعادتكم في الدارين.

وقوله: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾. أي البلاغ بالوحي الذي فيه إقامة الحجة عليكم. قال ابن جرير: (يقول: فليس على محمد أيها الناس إلا أداء رسالة الله إليكم ، وعليكم الطاعة ، وإن أطعتموه لحظوظ أنفسكم تصيبون ، وإن عصيتموه بأنفسكم فتوبقون).

55- 57. قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَيْسَ لَاصِيرٌ ﴿٥٧﴾﴾.

في هذه الآيات: وَعَدَ الله تعالى المؤمنين الاستخلاف في الأرض والتمكين ، فمن

كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون. وأمرُ بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الرسول الكريم. وتقرير عجز الكافرين عن الهروب من عذاب الله ومأواهم النار ولبس المصير.

أخرج الحاكم والطبراني بسند رجاله ثقات عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: [لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار، رمتهم العرب عن قوس واحدة، كانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ولا يصبحون إلا فيه، فقالوا ترون أنا نعيش حتى نكون آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله، فنزلت: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ إلى ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ يعني بالنعمة ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾⁽¹⁾.

وقد حصل وعد الله تعالى لرسوله ﷺ ولأصحابه من بعده، فقد أظهر الله نبيه على مكة وخيبر والبحرين وسائر الجزيرة العربية وكامل أرض اليمن، وأخذ جزية مجوس هجر وبعض أطراف الشام، وهاداه هرقل والمقوقس والنجاشي ملك الحبشة بعد أصحمة. وتابع الصديق الفتوح بعده، فدانت له جزيرة العرب وبعث الجيوش إلى الشام وبلاد فارس ومصر، ففتحت دمشق وبصرى وبعض مناطق حوران في زمانه، وأكمل الفتوح من بعده عمر رضي الله عنه ففتحت الشام في عهده بأكملها، وكذلك بلاد مصر وأغلب فارس، ثم تابع عثمان رضي الله عنه حتى حكم أقصى المشارق والمغرب بالإسلام، وأذل جيوش الكفر والطغيان. وهذه الآية عامة في كل زمان ومكان، فهي موعود الله تعالى للمؤمنين الصادقين عبر الأيام.

والبشائر في ذلك كثيرة كما جاء في السنة العطرة:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن ثوبان، عن النبي ﷺ قال: [إنَّ الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإنَّ أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها]⁽²⁾.

الحديث الثاني: أخرج أحمد وابن حبان بسند صحيح عن المقداد بن الأسود

(1) حديث صحيح. أخرجه الطبراني في «الأوسط» ورجال ثقات. والحاكم وقال صحيح الإسناد ووافقه الذهبي. انظر: «الصحيح المسند من أسباب النزول» - الوداعي - سورة النور، آية (55).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (171/8)، وأبو داود (4252)، وأحمد (278/5)، والترمذي (27/2)، وابن ماجه (2952).

مرفوعاً: [ليبلغنَّ هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين ، بعز عزيز ، أو بذل ذليل ، عزاً يعز الله به الإسلام ، وذلاً يذلَّ به الكفر] (1).

الحديث الثالث: روى أحمد والدارمي بسند حسن عن أبي قبيل قال: كنا عند عبد الله بن عمرو بن العاصي ، وسئل أي المدينتين تفتح أولاً القسطنطينية أو رومية؟ فدعا عبد الله بصندوق له حلق ، قال: فأخرج منه كتاباً قال: فقال عبد الله: [بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب ، إذ سئل رسول الله ﷺ: أيُّ المدينتين تفتح أولاً أقسطنطينية أو رومية؟ فقال رسول الله ﷺ: مدينة هرقل تفتح أولاً. يعني قسطنطينية] (2).

الحديث الرابع: روى أحمد في المسند ، بسند صحيح عن حذيفة مرفوعاً: [تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ، فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون ملكاً عاضاً فيكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها ، ثم تكون ملكاً جبرياً فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ، ثم سكت] (3).

وخلاصة الآية: وعدٌ من الله تعالى للمؤمنين القائمين بدينهم على منهاج النبوة بالاستخلاف والتمكين والأمن بعد الخوف لِيُعْبَدَ الله وحده في الأرض لا شريك له ومن خرج بعد ذلك عن الطاعة فله عذاب عظيم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَقِمْوْا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاطِيعُوا الرُّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾. أي أقموا أيها الناس الصلوات التي فرضها الله عليكم بحدودها وأركانها وواجباتها وشروطها ، وأدوا زكاة أموالكم على اختلاف أنواعها المفصلة في السنة المطهرة ، واتبعوا هدي نبيكم - عليه الصلاة والسلام - ولا تنحرفوا عنه ولا تبتدعوا فيه لتنالكم شفاعة ربكم ولتأمنوا عنده يوم القيامة.

(1) حديث صحيح. رواه ابن حبان في صحيحه (1631) ، (1632) ، ورواه أحمد والطبراني وجماعة من المحدثين. انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (3).

(2) حديث حسن الإسناد. أخرجه أحمد (2/176) ، والدارمي (1/126) ، والحاكم (3/422). و«رومية» - هي رومة عاصمة إيطاليا اليوم ، وانظر السلسلة الصحيحة (4).

(3) حديث صحيح. أخرجه أحمد (4/273) ، وانظر المرجع السابق ، حديث رقم (5).

وقوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ مِنَ النَّارِ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ﴾. أي: لا تحسبن - يا محمد - جولة الكفار مستمرة باقية ، بل إنهم واقعون تحت مكر الله تعالى فلا يعجزونه ، فإن الهلاك يهددهم في الدنيا ، وعذاب جهنم نازل بهم لا محالة في الآخرة ، ولبس القرار لهم يومئذ والمأوى نار الجحيم .

58 - 60. قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهْرِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَفَاتٌ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ .

في هذه الآيات: آداب رفيعة في استئذان الأقارب والأطفال والخدم ، وبيان أوقات الأمر بذلك في ثلاثة أحوال: قبل صلاة الفجر حيث الناس نيام على فرشهم ، ووقت القيلولة مظنة الإنسان أن يضع ثيابه ، ومن بعد صلاة العشاء فهو وقت النوم ، وفي غير هذه الأوقات لا جناح عليهم في الدخول والحركة والتطواف في الخدمة ولو رأوا شيئاً من أوضاعكم للإذن لهم في ذلك . وإذا بلغ الأطفال الحلم فعليهم الاستئذان ، ولا جناح على القواعد من النساء أن يضعن ثيابهن غير متبرجات ، وأن يلمسن العفاف والله سميع عليم .

فقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾. قال مجاهد: (عبيدكم المملوكون). وهي عامة في جميع أملاك الأيمان ، من الذكور والإناث . فعن أبي حصين ، عن أبي عبد الرحمن قال: (هي في الرجال والنساء ، يستأذنون على كل حال ، بالليل والنهار) .

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ﴾. قال مجاهد: (لم يحتلموا من أحراركم). وقال

عطاء: (فذلك على كل صغير وصغيرة أن يستأذن). وقوله: ﴿تِلْكَ مَرْتَبٌ مِّنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهْرِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ﴾. أي: ليستأذنوا في ثلاثة أوقات من ساعات ليلكم ونهاركم. قال ابن عباس: (يقول: إذا خلا الرجل بأهله بعد صلاة العشاء ، فلا يدخل عليه خادم ولا صبي إلا بإذن ، حتى يصلي الغداة ، فإذا خلا بأهله عند صلاة الظهر فمثل ذلك).

وقوله: ﴿تِلْكَ عَوْرَتُ لَكُمْ﴾. العورات هنا الساعات التي تكون فيها العورة، والمعنى: هذه الخصال أو الأحوال ثلاث عورات في هذه الأوقات. قال ابن كثير: (فيؤمر الخدم والأطفال ألا يهجموا على أهل البيت في هذه الأحوال ، لما يخشى من أن يكون الرجل على أهله ، أو نحو ذلك من الأعمال ، ولهذا قال: ﴿تِلْكَ عَوْرَتُ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾ ، أي: إذا دخلوا في غير هذه الأحوال فلا جناح عليكم في تمكينكم إياهم من ذلك ، ولا عليهم إذا رأوا شيئاً في غير تلك الأحوال ، لأنه قد أذن لهم في الهجوم، ولأنهم ﴿طَوَّفُوا عَلَيْكُمْ﴾ ، أي: في الخدمة وغير ذلك).

وقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّفُوا عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾. قال ابن عباس: (ثم رخص لهم في الدخول فيما بين ذلك بغير إذن ، يعني فيما بين صلاة الغداة إلى الظهر ، وبعد الظهر إلى صلاة العشاء ، أنه رخص لخدام الرجل والصبي أن يدخل عليه منزله بغير إذن ، قال: وهو قوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾ فأما من بلغ الحلم ، فإنه لا يدخل على الرجل وأهله إلا بإذن على كل حال).

وقوله: ﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾. قال ابن جرير: (يقول جل ثناؤه: كما بينت لكم أيها الناس أحكام الاستئذان في هذه الآية ، كذلك يبين الله لكم جميع أعلامه⁽¹⁾ ، وأدلته وشرائع دينه. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ يقول: والله ذو علم بما يصلح عباده ، حكيم في تدبيره إياهم ، وغير ذلك من أموره).

وقوله: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾. قال ابن عباس: (أما من بلغ الحلم ، فإنه لا يدخل على الرجل وأهله ، يعني من الصبيان الأحرار ، إلا بإذن على كل حال). وقال عطاء: (واجب على الناس أجمعين أن يستأذنوا إذا احتلموا ، على من كان من الناس). وقال ابن شهاب عن ابن المسيب: (يستأذن الرجل على أمه). وقوله: ﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾. قال ابن

(1) هكذا وقع في تفسير الطبري ، ولعل الأصح «أحكامه» بدل «أعلامه».

المسيب: (يقول: هكذا يبين الله لكم آياته ، أحكامه وشرائع دينه ، كما بين لكم أمر هؤلاء الأطفال في الاستئذان بعد البلوغ).

وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾. أي: عليم بما يصلح لعباده من الآداب والتشريع وكل شيء من أحوالهم ، حكيم في تدبيره وخلقه وتشريعه وتقديره.

وقوله: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾. القواعد من النساء: أي اللواتي قعدن عن الولد من الكبر ، فلا يحضن ولا يلدن ، والواحدة قاعد. قال الرازي في «مختار الصحاح»: (القاعد من النساء التي قعدت عن الولد والحيض). وعن سعيد بن جبير وقناة: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ﴾: هُنَّ اللواتي انقطع عنهن الحيض ويكسَنَ من الولد). وعن مجاهد: ﴿الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ قال: لا يردنه ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ قال: جلابيهن). وعن ابن مسعود قال: (الجلباب ، أو الرداء).

والمقصود: مَنْ لم يبقَ لهن تشوّفٌ إلى التزويج من النساء القواعد فليس على إحداهن من الحَجَر في التَّسْتُرِّ كما على غيرها ، فلها أن تضع الجلباب والرداء يكون فوق الثياب عند المحارم من الرجال وغير المحارم من الغرباء ، غير متبرّجات بزينة. وفي قراءة أبي بن كعب: «أن يضعن من ثيابهن».

أخرج أبو داود بسند حسن عن ابن عباس قال: [﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ﴾ الآية ، فنسخ واستثنى من ذلك ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ الآية] (1).

وعن سعيد بن جبير: ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾ ، يقول لا يتبرّجن بوضع الجلباب أن يرى ما عليها من الزينة). والتبرج: هو إظهار المرأة من محاسنها ما ينبغي لها أن تستره.

فمقصود الآية: أن لا يُقابل الإذن لقواعد النساء بوضع بعض ثيابهن تخفيفاً عليهن بإبراز الزينة أو تكلف ذلك أمام الرجال ، فإن ذلك ينافي الحياء والعفاف.

وقوله: ﴿وَأَنْ يَسْتَغْفِرَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾. إرشاد للأفضل والأولى ، وهو ترك وضع الثياب مع وجود الجواز. قال القاسمي: ﴿وَأَنْ يَسْتَغْفِرَ﴾ أي من

(1) حسن الإسناد. أخرجه أبو داود (4111) - كتاب اللباس ، وانظر صحيح أبي داود (3464).

وضع تلك الثياب ﴿حَيْرَ لَّهُمْ﴾ لأنه أبلغ في الحياء وأبعد من التهمة والمظنة. ولذا يلزمهم ، عند المظنة ، ألا يضعن ذلك . كما يلزم مثله في الشابة ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي فيسمع مقالهن مع الأجانب ، ويعلم مقاصدهن من الاختلاط ووضع الثياب . وفيه من الترهيب ما لا يخفى).

61. قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ حَلَائِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتُمْ أَيْمَانُهُمْ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَرَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١﴾﴾ .

في هذه الآية: رفع الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض وأمثالهم ممن لا يجب عليهم النفير للجهاد - وكذلك أنتم - في الأكل من بيوت القرابة كالآباء والأمهات والإخوان والأخوات والأعمام والأخوال والخالات والأصدقاء . والأمر بإلقاء السلام عند الدخول والله يبين الآيات لقوم يعقلون .

أخرج البزار ورجاله رجال الصحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت: [كان المسلمون يرغبون في النفير مع رسول الله ﷺ فيدفعون مفاتيحهم إلى ضُمنائهم⁽¹⁾ ويقولون لهم قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما أحببتهم ، فكانوا يقولون: إنه لا يحل لنا ، إنهم أذنوا عن غير طيب نفس ، فأنزل الله عز وجل: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ حَلَائِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتُمْ أَيْمَانُهُمْ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَرَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١﴾﴾ .

(1) الضمانة الزمانة ، ضمن الرجل فهو ضامن أي زمن مبتلى.

عَمَتِكُمْ أَوْ بُيُوتَ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتَ خَالَاتِكُمْ ﴿ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْكُمْ مَفَاحِشُهُ ﴾ ⁽¹⁾ .

وفي رواية الزهري: [فكانوا يقولون: إنه لا يحلّ لنا أن نأكل ، إنهم أذنوا لنا عن غير طيب أنفسهم ، وإنما نحن أمناء . فأنزل الله : ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْكُمْ مَفَاحِشُهُ ﴾] .

والمقصود: لا حرج على هؤلاء الذين سُئِلُوا في هذه الآية ، أن يأكلوا من بيوت من ذكره الله فيها . وفائدة إقحام النفس بقوله : ﴿ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ أن المراد به ليس على الضعفاء المطعمين ، ولا على الذاهبين إلى بيوت القربات ، أو مَنْ هو في مثل حالهم وهم الأصداق - حرج في الأكل من بيوت من ذُكِر .

وعن الفراء: (قوله تعالى: ﴿ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ ﴾ أي بيوت أزواجكم وعيالكم). أضافه إليهم ، لأن بيت المرأة كبيت الزوج . وقال ابن قتيبة: (أراد بيوت أولادهم). فنسب بيوت الأولاد إلى الآباء ، لأن الولد من كسب الوالد ، وماله بمنزلة مال أبيه .

وقد حفلت السنة الصحيحة بآفاق هذا المعنى في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: [إِنْ أَطِيبَ مَا أَكَلَ الرَّجُلُ مِنْ كَسْبِهِ ، وَإِنَّ وَلَدَهُ مِنْ كَسْبِهِ] ⁽²⁾ وفي رواية: [إِنْ أَطِيبَ مَا أَكَلْتُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ ، وَإِنْ أَوْلَادَكُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ] . وفي رواية عند أبي داود: [ولد الرجل من كَسْبِهِ ، من أطيب كَسْبِهِ ، فكلوا من أموالهم] ⁽³⁾ .

الحديث الثاني: أخرج أبو داود بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو: [أَنْ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ لِي مَالًا وَوَلَدًا ، وَإِنَّ وَالِدِي يَحْتَاجُ مَالِي؟ قَالَ: أَنْتَ وَمَالُكَ لَوَالِدِكَ ، إِنَّ أَوْلَادَكُمْ مِنْ أَطِيبِ كَسْبِكُمْ ، فكلوا من كسب أولادكم] ⁽⁴⁾ .

- (1) حديث صحيح . أخرجه البزار ورجاله رجال الصحيح . انظر الصحيح المسند من أسباب النزول - الوادعي - سورة النور ، آية (61) ، وقال السيوطي في «لباب النقول»: سنده صحيح .
- (2) حديث صحيح . أخرجه ابن ماجة (2137) - كتاب التجارات ، باب الحث على المكاسب . وانظر صحيح سنن ابن ماجة - حديث رقم - (1738) . وحديث رقم - (1854) .
- (3) حديث صحيح . أخرجه أبو داود (3529) - كتاب الإجازة . انظر صحيح أبي داود (3014) .
- (4) حديث حسن صحيح . أخرجه أبو داود (3530) ، وابن ماجة (2292) ، وانظر صحيح سنن أبي داود (3015) ، وصحيح ابن ماجة (1856) .

ورواه ابن ماجة بلفظ: [جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إن أبي اجتاحت مالي. فقال: أنت ومالك لأبيك. وقال رسول الله ﷺ: إن أولادكم من أطيب كسبكم، فكلوا من أموالهم].

الحديث الثالث: أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن جابر بن عبد الله: [أن رجلاً قال: يا رسول الله! إن لي مالاً وولداً. وإن أبي يريد أن يجتاح مالي. فقال: أنت ومالك لأبيك⁽¹⁾].

قال القاسمي في «التفسير»: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْكُمْ مَفَاحَهُ﴾ يعني أموال المرء، إذا كان له عليها قيم ووكيل يحفظها له، أن يأكل من ثمر بستانه ويشرب من لبن ماشيته. ومملك المفاتيح كونها في يده وحفظه).

وقال ابن كثير في «التفسير»: (وقوله تعالى: ﴿أَوْ صَدِيقَكُمْ﴾، أي: بيوت أصدقائكم وأصحابكم، فلا جناح عليكم في الأكل منها إذا علمتم أن ذلك لا يشق عليهم ولا يكرهون ذلك).

قلت: وهذا فهم لطيف للآية، فإنه لا بد من الشعور بسماع الصديق بذلك وعدم إحراجه مع أهله. وعليه يفهم قول قتادة: (إذا دخلت بيت صديقك فلا بأس أن تأكل بغير إذنه). وفي الأثر عن جعفر الصادق: (من عظم حرمة الصديق، أن جعله الله من الأنس والثقة والانبساط وطرح الحشمة، بمنزلة النفس والأب والأخ والابن).

وقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً﴾. رخصة من الله تعالى أن يأكل الرجل وحده، ومع الجماعة، وإن كان الأولى والأفضل الأكل مع الجماعة رجاء حصول البركة.

وقد جاءت الأحاديث الصحيحة بروائع هذا المعنى:

الحديث الأول: أخرج ابن ماجة بسند حسن عن وحشي: [أنهم قالوا: يا رسول الله! إنا نأكل ولا نشبع. قال: فَلَعَلَّكُمْ تَأْكُلُونَ متفرقين؟ قالوا: نعم. قال: فاجتمعوا على طعامكم، واذكروا اسم الله عليه يبارك لكم فيه⁽²⁾].

الحديث الثاني: أخرج الطبراني في «الأوسط» بسند حسن عن ابن عمر قال: قال

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (2291). وانظر صحيح ابن ماجة (1855).

(2) حديث حسن. أخرجه ابن ماجة (3286) - كتاب الأطعمة. باب الاجتماع على الطعام، وانظر صحيح سنن ابن ماجة (2657)، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (664).

رسول الله ﷺ: [كلوا جميعاً ولا تفرّقوا ، فإنّ طعام الواحد يكفي الاثنين ، وطعام الاثنين يكفي الأربعة]⁽¹⁾.

وله شاهد عنده في «المعجم الكبير» بلفظ: [طعام الاثنين يكفي الأربعة ، وطعام الأربعة يكفي الثمانية ، فاجتمعوا عليه ، ولا تفرّقوا عنه].

الحديث الثالث: أخرج ابن ماجه - والترمذي نحوه - بسند حسن عن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: [كلوا جميعاً ولا تفرّقوا ، فإنّ طعام الواحد يكفي الاثنين ، وطعام الاثنين يكفي الثلاثة والأربعة. كلوا جميعاً ولا تفرّقوا ، فإنّ البركة في الجماعة]⁽²⁾.

الحديث الرابع: أخرج الطحاوي بسند صحيح عن عبد الله بن عباس مرفوعاً: [إنّ البركة تنزل وسط القصعة ، فكلوا من نواحيها ، ولا تأكلوا من رأسها]⁽³⁾.

وهو عند ابن ماجه من حديث واثلة بلفظ: [كلوا باسم الله من حوائجها ، وأغفوا رأسها ، فإنّ البركة تأتيها من فوقها].

وقوله: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَرَكَاةٌ طَيِّبَةٌ﴾. قال الضحاك: ﴿﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾﴾: يقول: سلموا على أهلكم إذا دخلتم بيوتكم ، وعلى غير أهلكم ، فسلموا إذا دخلتم بيوتهم).

وقال سعيد بن جبيرة وقتادة: (فليسلم بعضهم على بعض).

قلت: والآية عامة في أمر الله تعالى المؤمنين بإلقاء السلام بعضهم على بعض سواء في المساجد أو البيوت أو أماكن التقائهم على اختلاف أنواعها ، ولا دليل على تخصيص شيء من ذلك دون شيء كما ذهب بعض المفسرين.

ونصب قوله: ﴿تَحِيَّةٌ﴾ بتقدير: سلموا تحية ، أو تحيّن أنفسكم تحية من عند الله ، وهي السلام. قال النسفي: ﴿﴿مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾﴾ أي ثابتة بأمره مشروعة من لدنه ، أو لأن التسليم والتحية طلب سلامة وحياة للمسلم عليه ، والمحيا من عند الله

(1) حسن بكثرة طرقه. أخرجه الطبراني في «الأوسط» (7597) ، وانظر السلسلة الصحيحة - حديث رقم - (2691). وانظر «المعجم الكبير» (1/194/3). للشاهد بعده.

(2) حديث حسن. أخرجه ابن ماجه (3255) ، وله شاهد عند مالك (2/928/20) ، وعند الترمذي (1/335) ، وفي مسند أحمد (2/244) ، وانظر السلسلة الصحيحة (1686).

(3) إسناده صحيح. أخرجه الطحاوي في «مشكل الآثار» (1/55) ، وانظر سنن ابن ماجه (2/305) ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (2030).

﴿مُبْرَكَةً طَيِّبَةً﴾ وصفها بالبركة والطيب لأنها دعوة مؤمن لمؤمن يرجي بها من الله زيادة الخير وطيب الرزق).

فالسلام هو اسم الله تعالى ، ففي التحية به ذكر الله ودعاء بالسلامة .

وقد حفلت السنة الصحيحة بأفاق هذا المعنى في أحاديث :

الحديث الأول: روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم]⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرج البخاري في «الأدب المفرد» عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: [إنَّ السَّلامَ اسم من أسماء الله تعالى وضعه الله في الأرض ، فأفشوا السلام بينكم]⁽²⁾.

الحديث الثالث: أخرج الترمذي وابن ماجة بسند صحيح ، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: [اعبدوا الرحمن ، وأطعموا الطعام ، وأفشوا السلام ، تدخلوا الجنة بسلام]⁽³⁾. وفي رواية في الأدب المفرد: [تدخلوا الجنان].

وقوله: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾. أي: هكذا يفصل الله لكم أحكام دينكم ، لتفقهوا عنه تعالى أمره ونهييه وأدبه وبيان شرعه وهدييه .

62 - 64. قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا

مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذِنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنَ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦﴾ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم (54) - كتاب الإيمان . وفي رواية: «والذي نفسي بيده! لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ، ...» الحديث .

(2) حديث حسن . أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (989) . انظر صحيح الأدب المفرد (760) .

(3) حديث حسن صحيح . أخرجه الترمذي (340/2) ، وابن ماجة (3694) ، وأحمد (170/2) . وانظر صحيح الأدب المفرد (752) .

تُصِيبُهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٣﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنْظَرُ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٤﴾ .

في هذه الآيات : إرشاد من الله تعالى عباده المؤمنين إلى الأدب مع نبيهم ﷺ ، فإذا دخلوا أو خرجوا فليستأذنوا ولا يفرقوا إلا عن أمره . والنهي عن مناداة الرسول كمناداة غيره أو ظن دعائه كدعاء غيره . والوعيد الشديد على من تعمد مخالفة أمره ، والله بكل شيء عليم .

فقوله : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ ﴾ . قال ابن كثير : (وهذا أيضاً أدبٌ أرشد الله عباده المؤمنين إليه ، فكما أمرهم بالاستئذان عند الدخول ، كذلك أمرهم بالاستئذان عند الانصراف ، ولا سيما إذا كانوا في أمر جامع مع الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - من صلاة جُمُعَةٍ أو عيد أو جماعة ، أو اجتماع لمشورة ونحو ذلك) .

وقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُوكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ . شهادة من الله تعالى لملتزمي هذه الآداب الرفيعة مع نبيهم بصدق الإيمان وكماله .

وقوله : ﴿ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ . قال ابن جرير : (يقول تعالى ذكره : فإذا استأذنتك يا محمد الذين لا يذهبون عنك إلا بإذنتك في هذه المواطن لبعض شأنهم ، يعني لبعض حاجاتهم التي تعرض لهم ، فأذن لمن شئت منهم في الانصراف عنك لقضائها ﴾ واستغفر لهم يقول : وادع الله لهم بأن يتفضل عليهم بالعفو عن تبعات ما بينه وبينهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ ﴾ لذنوب عباده التائبين ﴿ رَحِيمٌ ﴾ بهم أن يعاقبهم عليها ، بعد توبتهم منها) .

قلت : وقد حفلت السنة الصحيحة بأفاق هذه الآداب العالية في أحاديث :

الحديث الأول : أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن عمر : [أنه أتى النبي ﷺ ، وهو في مشربٍ له ، فقال : السلام عليك يا رسول الله ، السلام عليكم ! أيدخل عمر؟]⁽¹⁾ .

الحديث الثاني : أخرج أبو داود والترمذي بسند صحيح عن أبي هريرة قال : قال

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم (4/ 192) ، والبخاري (4913) نحوه ، وأبو داود (5201) .

رسول الله ﷺ: [إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليُسلم ، فإذا أراد أن يقوم فليسلم ، فليست الأولى بأحق من الآخرة] (1).

الحديث الثالث: أخرج أبو داود بسند صحيح عن ربعي ، قال: [حدثنا رجل من بني عامر: أنه استأذن على النبي ﷺ وهو في بيت فقال: ألج؟ فقال النبي ﷺ لخادمه: «أخرج إلى هذا! فَعَلَّمَهُ الاستئذان ، فقل له: قل: السلام عليكم ، أَدْخَلَ؟ فسمعه الرجل ، فقال: السلام عليكم ، أَدْخَلَ؟ فأذن له النبي ﷺ ، فدخل] (2).

الحديث الرابع: أخرج البخاري ومسلم من حديث أبي موسى مرفوعاً: [إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يُؤذنْ له فليرجع] (3).

وقوله: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ فيه تأويلان متكاملان:

التأويل الأول: التحذير من مناداته باسمه ، أو رفع الصوت بالنداء له .

قال ابن عباس: (كانوا يقولون: يا محمد يا أبا القاسم ، فنهاهم الله عز وجل عن ذلك إعظاماً لنبيّه ﷺ. قال: فقولوا: يا نبي الله ، يا رسول الله). وقال مقاتل: (لا تُسَمُّوه إذا دعوتموه يا محمد ، ولا تقولوا يا ابن عبد الله ، ولكن شرفوه فقولوا: يا نبي الله ، يا رسول الله).

وهذا المعنى كقوله تعالى في سورة الحجرات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَعْصُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

التأويل الثاني: التنبيه إلى أن دعوته ﷺ مستجابة ، ليست كأي دعاء من غيره .

فعن الحسن البصري وعطية العوفي: (أي لا تعتقدوا أن دعاءه على غيره كدعاء غيره ، فإن دعاءه مستجاب ، فاحذروا أن يدعو عليكم فتهلكوا).

(1) حسن صحيح. أخرجه أبو داود (5208) ، والترمذي (2861). انظر صحيح أبي داود (4340).

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (5177) - في الأدب - باب كيف الاستئذان. انظر صحيح سنن أبي داود - حديث رقم - (4312).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6245) ، ومسلم (178/6) ، وأبو داود (5180).

وقوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْلُبُونَ مِنْكُمْ لِوَادًا﴾. قال مقاتل: (هم المنافقون كان يثقل عليهم الحديث في يوم الجمعة فيلوذون ببعض أصحاب محمد ﷺ حتى يخرجوا من المسجد).

وقوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. تهديد ووعيد ، لكل متجري على مخالفة أمر رسول الله ﷺ وهديه . والمعنى: فليحذر من خالف شريعة الرسول ﷺ باطناً وظاهراً أن تصيبهم في قلوبهم فتنة: من كفر أو نفاق أو بدعة ، أو يصيبهم عذاب أليم في الدنيا: بقتل أو حد أو حبس أو نحوه ، ذكره الحافظ ابن كثير رحمه الله .

قلت: بل التهديد للمتجري على مخالفة الرسول ﷺ بالعذاب الأليم يشمل حصوله في الدارين: الدنيا والآخرة ، وقد جاء هذا التحذير والوعيد في أكثر من حديث في السنة المطهرة:

الحديث الأول: روى مسلم عن جابر قال: [كان رسول الله ﷺ إذا خطب اخمرت عيناه ، وعلا صوته ، واشتد غضبه ، حتى كأنه مُنذِرُ جيشٍ يقول: صَبَحَكُمْ مَسَاكُم! ويقول: بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كهاتين . ويقرن بين إصبعيه السَّبَابَةِ وَالْوُسْطَى ، ويقول: أما بَعْدُ ، فإن خير الحديث كتابُ الله ، وخَيْرُ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحَدَّثَاتُهَا ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ⁽¹⁾ .

الحديث الثاني: يروي ابن ماجة بسند صحيح عن ابن عمر: [أن رسول الله ﷺ قال: «لا تمنعوا إماء الله أن يصلين في المسجد». فقال ابن له: إنا لنمنعهن ، فقال ، فغضب غضباً شديداً ، وقال: أحدثك عن رسول الله ﷺ وتقول: إنا لنمنعهن؟⁽²⁾ .

الحديث الثالث: أخرج الترمذي بسند صحيح عن ابن شهاب ، أن سالم بن عبد الله حدثه: [أنه سمع رجلاً من أهل الشام ، وهو يسأل عبد الله بن عمر: عن التمتع بالعمرة إلى الحج ، فقال عبد الله بن عمر: هي حلال . فقال الشامي: إن أباك قد نهى عنها . فقال عبد الله بن عمر: أرايت إن كان أبي نهى عنها وصنعها رسول الله ﷺ: أمرُ أبي

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم (867) - كتاب الجمعة ، باب تخفيف الصلاة والخطبة .

(2) حديث صحيح . انظر صحيح سنن ابن ماجة - حديث رقم - (16) . باب تعظيم حديث رسول الله ﷺ والتغليظ على من عارضه .

يُنْبَع ، أم أمرُ رسول الله ﷺ؟ فقال الرجل: بل أمر رسول الله ﷺ. فقال: لقد صنعها رسول الله ﷺ⁽¹⁾.

وقد ذكر الإمام الشاطبي في «الاعتصام»: (أن الزبير بن بكار قال: سمعت مالكا بن أنس - وأتاه رجل فقال: يا أبا عبد الله من أين أحرم؟ قال: من ذي الحليفة حيث أحرم رسول الله ﷺ. فقال: إني أريد أن أحرم من المسجد. فقال: لا تفعل. قال: فأني أريد أن أحرم من المسجد من عند القبر. قال: لا تفعل فأني أخشى عليك الفتنة. فقال: وأي فتنة هذه؟ إنما هي أميال أزيدها ، قال الإمام مالك: وأي فتنة أعظم من أن ترى أنك سبقت إلى فضيلة قصر عنها رسول الله ﷺ ، إني سمعت الله يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾).

وقوله تعالى: ﴿الْأَمَانَةُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيَنْتَهُمُ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. بيان لكمال علمه تعالى وقدرته ، وتأكيده لكمال سلطانه وملكوته وجبروته .

ففي التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس: 61].

2 - وقال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ يَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: 59].

3 - وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَعُدُّ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: 49].

قال ابن زيد: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ صنيعكم هذا أيضاً ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ يقول: ويوم يرجع إلى الله الذين يخالفون عن أمره ﴿فَيَنْتَهُمُ﴾ يقول: فيخبرهم حينئذ ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ في الدنيا ، ثم يجازيهم على ما أسلفوا فيها ، من خلافهم على ربهم

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (830). أبواب الحج. باب ما جاء في التمتع. وانظر صحيح سنن الترمذي (658) وقال الألباني: صحيح الإسناد.

﴿وَاللَّهُ يَكُلُّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يقول: والله ذو علم بكل شيء عملتموه أنتم وهم وغيركم ، وغير ذلك من الأمور ، لا يخفى عليه شيء ، بل هو محيط بذلك كله ، وهو مُوفِّ كل عامل منكم أجر عمله يوم ترجعون إليه). قال القرطبي: (و﴿يَعْلَمُ﴾ هنا بمعنى علم). وقال النسفي: (أدخل قد ليؤكد علمه بما هم عليه من المخالفة عن الدين ، ويرجع تأكيد العلم إلى تأكيد الوعيد ، والمعنى أن جميع ما في السماوات والأرض مختص به خلقاً وملكاً وعلماً ، فكيف تخفى عليه أحوال المنافقين وإن كانوا يجهدون في سترها).

تم تفسير سورة النور
بمعون الله وتوفيقه ، وواسع منه وكرمه



دروس ونتائج وأحكام

- 1 - الزاني الحر المحصن المكلف حدّه الرجم حتى الموت .
- 2 - الزاني غير الحر - العبد أو الأمة - لا رجم عليه ، ويجلد خمسين جلدة .
- 3 - حَدُّ يُعْمَلُ به في الأرض ، خيرٌ لأهل الأرض مِنْ أَنْ يُمَطَّرُوا أربعين صباحاً .
- 4 - الزاني لا يطاق إلا زانية مثله أو مشركة ، وحُرِّمَ على المؤمنين نكاح الزانية أو تزويج الزاني ، وإن الزنى من صفات المشركين .
- 5 - ثلاثة لا يدخلون الجنة : الدَّيْوثُ ، والرَّجُلَةُ من النساء ، ومدمنُ الخمر .
- 6 - قذف المحصنات الغافلات المؤمنات من السبع الموبقات .
- 7 - مضت السنة في المتلاعنين أن يفرق بينهما ، ثم لا يجتمعان أبداً ، ويلحق الولد بالمرأة .
- 8 - براءة عائشة إلى يوم القيامة ، والأصل في المؤمنين الظن بأنفسهم خيراً .
- 9 - إنما جُعِلَ الاستئذان من أجل البَصَرِ ، ومن اطلَعَ في بَيْتِ قومٍ بغير إذْنهم ، فقد حَلَّ لهم أن يَفْقَوْا عَيْنَهُ .
- 10 - حق الطريق : غَضُّ البصر ، وكفُّ الأذى ، وردّ السلام ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .
- 11 - لا تباشر المرأة المرأة لتنتعها لزوجها ، كأنما ينظر إليها .
- 12 - وجوب ليّ الخمار على العنق والصدر للمرأة ، والوجه ليس بعورة .
- 13 - المرأة عورة ، فإذا خرجت استشرفها الشيطان ، وما عبدت امرأة ربها مثل أن تعبد في بيتها ، ولا يخلون رجل بامرأة إلا ومعها ذو مَحْرَم .
- 14 - كلُّ عين زانية ، والمرأة إذا استعطرت فمرت بالمجلس فهي زانية .
- 15 - النكاح من سنته ﷺ ، ومن لم يعمل بسنته فليس منه ، ومن كان ذا طَوْلٍ فليتكح ومن لم يجد فعليه بالصيام ، فهو له وجاء .

- 16 - رغبَ الله في التزويج ، وأمر به الأحرار والعبيد ، ووعدهم عليه الغنى .
- 17 - ثلاث حق على الله عونهم : المجاهد في سبيل الله ، والمكاتب الذي يريد الأداء ، والناكح الذي يريد العفاف .
- 18 - الله نور السماوات والأرض : أي منورهما وهادي أهلهما .
- 19 - من بنى مسجداً لله بنى الله له في الجنة مثله .
- 20 - لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد ، وإذا زخرفتم مساجدكم وحليتم مصاحفكم فالدمار عليكم .
- 21 - إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد فقولوا : لا أبيع الله تجارتك . وإذا رأيتم من ينشد ضالة في المسجد فقولوا : لا ردّها الله عليك .
- 22 - من جحد ما أنزل الله فقد كفر ، ومن أقرّبه ولم يحكم ، فهو ظالم فاسق .
- 23 - إن الله تعالى هو الحكم ، وإليه الحكم .
- 24 - ليبلغن هذا الدين ما بلغ الليل والنهار ، وستفتح روما كما فتحت قسطنطينية ، وستكون خلافة على منهاج النبوة .
- 25 - العورات - في الآية - : الساعات التي تكون فيها العورة ، فلا يدخل الخادم أو الصبي إلا بإذن .
- 26 - القواعد من النساء : هن اللواتي قعدن عن الولد من الكبر ، فلا يحضن ولا يلدن ، والواحدة قاعد . فليس على إحداهن من الحجر في التستر كما على غيرها .
- 27 - رفع الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض ، وأطيب ما أكل الرجل من كسبه ، وإنّ ولده من كسبه .
- 28 - كلوا جميعاً ولا تفرقوا ، فإن طعام الواحد يكفي الاثنين ، وطعام الاثنين يكفي الأربعة ، وإن البركة في الجماعة .
- 29 - اعبدوا الرحمان ، وأطعموا الطعام ، وأفشوا السلام ، تدخلوا الجنة بسلام ، وإذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع .
- 30 - مخالفة أمره ﷺ مظنة الوقوع في الفتنة ، أو نزول العذاب الأليم .

25

سُورَةُ الْفُرْقَانِ

آياتها
٧٧ترتيبها
٢٥

وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (77)

موضوع السورة

الفرقان بين أولياء الرحمن
وأولياء الشيطان

- منهاج السورة -

- 1 - ثناء الله تعالى على نفسه منزل الفرقان بين الحق والباطل قد أحسن كل شيء خلقه ، فهو الملك الأحد الصمد والمشركون هم الخاسرون .
- 2 - افتراء الكفار على الوحي والرسول بالاتهام والتكذيب ، وتوعد الله لهم بالنكال والتعذيب .
- 3 - تنطع المشركين في طلب الآيات والمعجزات ، وتكذيبهم بالساعة والبعث بعد الممات .
- 4 - دعوة الكافرين لمقارنة منازل النعيم مع مدارك الجحيم ، وتبرؤ عيسى وعزير والملائكة من عبادة الظالمين .
- 5 - إثبات بشرية الرسل ، وإخبار عن شقاء المشركين يوم يرون الملائكة ، والمؤمنون يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً .

- 6 - تَفْطَرُ السماء يوم القيامة ، ونزول الملائكة لأرض المحشر وندم الظالمين ، وانتصار الرسول للقرآن الكريم .
- 7 - تنطع الكافرين واعتراضهم على نزول القرآن مفرقاً لا جملة واحدة ، وحكمة الله في ذلك تخرسهم ، ويوم القيامة يحشرون أذلاء على وجوههم .
- 8 - تسلية الله رسوله عما يلقاه من أذى المشركين ، بذكر أحوال الرسل قبله وإهلاك الظالمين .
- 9 - تَمَسُّكُ المشركين بدين الآباء الفاسد ، وتشبيههم بالأنعام بل هم أضل سبيلاً .
- 10 - امتنان الله على عباده بنعمة الظل والليل والنهار والرياح والمطر .
- 11 - تحميلُ الله نبيه كامل مهمة الإنذار للثقلين ، والأمر بمجاهدة المشركين بالقرآن الكريم ، وتذكيره تعالى عباده بنعمة الماء العذب والماء المالح والتزاوج والنسب والصهر والمودة والرحمة .
- 12 - توبيخُ الكفار في عبادتهم ما لا يضرهم ولا ينفعهم ، وأمره تعالى نبيه بالتوكل عليه وتنزيهه ، وهم يكفرون بالرحمان ، ولا يسجدون له بل يزدادون من المكر والطغيان .
- 13 - تنزيه الله تعالى الذي خلق البروج في السماء والشمس والقمر ، وجعل الليل والنهار متعاقبين لمن أراد أن يشكر أو يذكر .
- 14 - ثناء الله على عباده المؤمنين ، فهم يمشون على الأرض هوناً ، ويبيتون لربهم سجداً وقياماً ، ولا يسرفون ولا يزنون ولا يقتلون النفس التي حرم الله ، والله تعالى يعفو عن التائبين . ولا يشهدون الزور ويبتعدون عن اللغو ويثابرون في الدعاء سائلين الله أن يقر أعينهم في أزواجهم وذرياتهم ويجعلهم قدوة للمتقين .
- 15 - جزاء التقوى جنات النعيم ، وجزاء التكذيب بالحق الخزي في الدارين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

1 - 3. قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝۱
الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ
شَيْءٍ فَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا ۝۲ وَأَتَّخِذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا
يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ۝۳ 》.

في هذه الآيات: تقديسُ الله منزل الفرقان بين الحق والباطل ، المَلِكُ الأحَد الصمد
لم يتخذ ولداً ولا شريك له في الملك وقد أحسن كل شيء خلقه ، والمشركون خائبون
في اتخاذهم آلهة من دونه لا تملك لهم ضرراً ولا نفعاً ولا تستطيع إماتة ولا إحياء
ولا نشوراً.

فقوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝۱ 》.

قال الضحاك عن عبد الله بن عباس: (تبارك: تفاعل من البركة). فالمعنى كما قال
ابن جرير: (يقول: تبارك الذي نَزَّلَ الفصل بين الحق والباطل ، فصلاً بعد فصل ،
وسورة بعد سورة ، على عبده محمد ﷺ ، ليكون محمد لجميع الجن والإنس ، الذي
بعثه الله إليهم داعياً إليه ، نذيراً: يعني منذراً يُنذِرهم عقابه ، ويخوفهم عذابه ، إن لم
يوحدوه ، ولم يخلصوا له العبادة ، ويخلصوا كل ما دونه من الآلهة والأوثان).

وقد وصف الله تعالى نبيه في هذه الآية بأجمل صفة له ، وهي صفة العبودية ،
فقوله: ﴿ عَلَى عَبْدِهِ ۝۱ 》 نعت مدح وثناء ، لأنه أضافه إلى عبوديته جل ثناؤه. وقد تكررت
هذه الصفة العطرة في القرآن ، في مدح نبينا عليه الصلاة والسلام.

1 - ففي مقام الإسراء ، قال تعالى: ﴿ سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ

أَلْحَرَامَ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿[الإسراء: 1].

2- وفي مقام إثبات التنزيل ، قال تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ ۚ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة: 23].

3- وفي مقام الدعوة ، قال تعالى : ﴿ وَأَنْتُمْ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ [الجن: 19].

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس: سمع عمر رضي الله عنه يقول على المنبر ، سمعت النبي ﷺ يقول: [لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبده ، فقولوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ⁽¹⁾].

كما وصفه بأنه - عليه الصلاة والسلام - مبعوث إلى الثقلين: الجن والإنس. فقله: ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ إثبات رسالته إلى جميع الخلق.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: [فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ ، وَنُصِرْتُ بِالرُّغْبِ ، وَأُحِلَّتْ لِي الْمَغَانِمُ ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا ، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً ، وَخَتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ]⁽²⁾.

وقوله: ﴿ أَلَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ﴾. إثبات الملك الكامل لله تعالى ، وتنزيهه له سبحانه عن الشريك والولد.

وقوله: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ مَقْدِيرًا ﴾. أي: أحدث كل شيء وحده فأحسن خلقه ، وهياه لما يصلح له بلا خلل ، فالإنسان في أحسن تقويم ، وجميع الخلق كذلك في أحسن تقدير ، فتبارك الله أحسن الخالقين.

وقوله: ﴿ وَاتَّخِذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾. تعجب من اتخاذ المشركين آلهة عاجزة عن الخلق ، مع أن الخلق أهم صفات الإله. قال القرطبي: ﴿ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا ﴾ يعني الآلهة. ﴿ وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ لما اعتقد المشركون فيها أنها تضر وتنفع ، عبر عنها كما يُعْبَرُ عما يعقل).

وقوله: ﴿ وَلَا يَمْلِكُونَ لِنَفْسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾. أي: لا دفع ضرر وجلب نفع ، فحذف

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3445) - كتاب أحاديث الأنبياء ، وانظر (6830).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (523) - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، ورواه أحمد والبخاري.

المضاف . قال النسفي : (ولا يستطيعون لأنفسهم دفع ضرر عنها ولا جلب نفع إليها) .

وقوله : ﴿ وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا تُشُورًا ﴾ . النشور : الإحياء بعد الموت ، وهذه صفة يتحدى الله تعالى بها الخلق جميعاً . كما قال جل ذكره : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَبُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الروم : 27] .

وقال جل ثناؤه : ﴿ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُولَٰئِكَ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [النمل : 64] .

قال القاسمي : ﴿ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا تُشُورًا ﴾ أي : لا يملكون دفع ضرر ولا جلب نفع ولا إماتة أحد وإحياءه أولاً وبعثه ثانياً . ومن كان كذلك فمعزل عن الألوهية ، لعرائه عن لوازمها واتصافه بما ينافيها . وفيه تنبيه على أن الإله يجب أن يكون قادراً على البعث والجزاء . أفاده القاضي .

4 - 6 . قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَٰذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخِرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ۖ ﴾ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۖ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْنَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۖ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ۖ ﴾ .

في هذه الآيات : افتراء الكفار على الوحي والرسول بالاتهام والتكذيب ، وتوَعَّدُ الله - الذي أنزل هذا القرآن - المعاندين بالنكال والتعذيب .

فقوله : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَٰذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ ﴾ - هو قول الكفار في القرآن يزعمون أن محمداً - ﷺ - اختلقه وتخرصه . والإفك : الكذب . وقوله : ﴿ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخِرُونَ ﴾ . قال مجاهد : (يهود) . قال ابن كثير : (أي : واستعان على جمعه بقوم آخرين) .

وقوله : ﴿ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴾ . قال ابن جريج ، عن مجاهد : (قال : كذباً) . قال القاسمي : ﴿ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا ﴾ أي بجعل الصدق إفكاً ، والبريء عن الإعانة معيناً . ﴿ وَزُورًا ﴾ أي باطلاً لا مصداق له ، يعلمون من أنفسهم أنه باطل وبهتان) .

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَاسْطِطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ اُكْتَتَبَهَا فِيهِ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا. أي: وزعموا أن ما جاء به من هذا الوحي العظيم إنما هو من كتب الأوائل استنسخها فهي تقرأ عليه أول النهار وآخره. قال ابن جريج: ﴿(أَسْطِطِيرُ الْأَوَّلِينَ)﴾: أشعارهم وكهانتهم). قال ابن كثير: (وهذا الكلام - لسخافته وكذبه وبهتته منهم - كلُّ أحد يعلم بطلانه ، فإنه قد عُلِمَ بالتواتر وبالضرورة: أن محمداً رسول الله لم يكن يُعاني شيئاً من الكتابة ، لا في أول عمره ولا في آخره ، وقد نشأ بين أظهرهم من أول مولده إلى أن بعثه الله نحواً من أربعين سنة ، وهم يعرفون مدخله ومخرجه ، وصدقه وبرّه وأمانته ونزاهته من الكذب والفجور وسائر الأخلاق الرذيلة ، حتى إنهم لم يكونوا يُسْمُونَهُ في صِغَرِهِ وإلى أن بُعثَ إلا الأمين ، لما يَعْلَمُونَ من صِدْقِهِ وبرّه. فلما أكرمَهُ الله بما أكرمَهُ به ، نصبوا له العداوة ، ورمَوْه بهذه الأقوال التي يعلم كلُّ عاقل براءته منها ، وحاروا ماذا يقذفونه به ، فتارةً من إفكهم يقولون: ساحرٌ ، وتارةً يقولون: شاعرٌ ، وتارةً يقولون: مجنونٌ ، وتارةً يقولون: كذابٌ ، قال الله تعالى: ﴿أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: 48].

وقوله: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. تسكيت لهم وزجرٌ لافتراءهم وقرعٌ لكذبهم. فهذا الوحي العظيم ، هو كلام رب العالمين ، أنزله بعلمه ، فهو الله الذي يعلم غيب السماوات والأرض وأسرارهما.

فَعَن ابن جريج: ﴿(قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ)﴾ قال: ما يسرُّ أهل الأرض وأهل السماء). قال النسفي: ﴿(قُلْ)﴾ يا محمد ﴿(أَنْزَلَهُ)﴾ أي القرآن ﴿(الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ)﴾ أي يعلم كل سرٍّ خفي في السماوات والأرض ، يعني أن القرآن لما اشتمل على علم الغيوب التي يستحيل عادة أن يعلمها محمد عليه الصلاة والسلام من غير تعليم دل ذلك على أنه من عند علام الغيوب).

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا غَفُورًا رَحِيمًا﴾. قال القرطبي: (يريد غفوراً لأوليائه رحيماً بهم).

7 - 14. قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُنْفَخَ إِلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٨﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ

جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَا نَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ .

في هذه الآيات: التفاتُ المشركين إلى النقد البارد لطبيعة شخص من أرسل إليهم ، وانصرفهم عن الوحي العظيم المنزل بشأنهم لنجاتهم وسعادتهم ، فهم كالأقوام من أمم الرسل قبلهم يحتجون على الرسول بأنه يأكل مثلهم ويدخل الأسواق للتكسب والتجارة ، ويتنطعون في طلب الآيات والمعجزات والخيالات ، وقد كذبوا بالساعة وقد توعدهم الله بسوء العذاب ونوال النكال .

فقوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُوبُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ .

قال ابن جرير: (وقال المشركون ﴿ مَالِ هَذَا الرَّسُولِ ﴾: يعنون محمداً ﷺ ، الذي يزعم أن الله بعثه إلينا ﴿ يَأْكُلُ الطَّعَامَ ﴾ كما نأكل ، ﴿ وَيَمْشِي ﴾ في أسواقنا كما نمشي . ﴿ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ ﴾: يقول: هلا أنزل إليه ﴿ مَلَكٌ ﴾ إن كان صادقاً من السماء ﴿ فَيَكُوبُ مَعَهُ ﴾ منذراً للناس ، مصداقاً له على ما يقول ، أو يلقي إليه كنز من فضة أو ذهب ، فلا يحتاج معه إلى التصرف في طلب المعاش ﴿ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ ﴾ يقول: أو يكون له بستان ﴿ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾).

وقوله: ﴿ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ . قال القاسمي: (أي مغلوباً على عقله).

وقوله تعالى: ﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَل فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ . توبيخ للمشركين وتسخيف لحججهم الدالة على تفاهة عقولهم ، إذ تجرؤوا على القبح بنبوتك يا محمد بأساليب سخيفة ففسروا طريق الهداية وحُوصروا في باطلهم . قال ابن عباس: ﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَل فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ أي التمسوا الهدى في غير ما بعثتك به إليهم فضلوا ، فلن يستطيعوا أن يصيبوا الهدى في غيره .

وقال مجاهد: ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ قال: مخرجاً يخرجهم من الأمثال التي ضربوا لك).

وقوله: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ ﴾. قال ابن عباس: (من أن تمشي في الأسواق ، وتلتمس المعاش كما يلتسمه الناس).

وقال مجاهد: (مما قالوا وتمنوا لك ، فيجعل لك مكان ذلك ﴿ جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ ، ﴿ وَجَعَلَ لَكَ قُصُورًا ﴾ قال: بيوتاً مبنية مشيدة ، كان ذلك في الدنيا ، قال: كانت قريش ترى البيت من الحجارة قصراً كائناً ما كان). فالمعنى: تقدس الذي إن شاء جعل لك يا محمد خيراً مما قالوا وتخيّلوا ، بساتين ثمار وجمال ، تجري من تحتها الأنهار ، وبيوتاً مبنية مشيدة من حجارة وزخارف وعمران ، ولكن اقتضت حكمته أن يكون الجهاد في الدنيا لإعلاء كلمة الحق لا لسكن القصور والنظر في الأموال ، وأن يكون هذا القرآن بما بسط الله فيه من الآيات البديعة مصدر الإيمان والاستدلال ، وقد هياً الله في الدار الآخرة من النعيم لرسله وأوليائه ما يعجز عنه الوصف والخيال ، فسبحان الله الكريم الحكيم المتعال.

وقوله تعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾.

أي: بل أتوا بأعجب من ذلك الذي تنطعوا به ، وهو تكذيبهم بالساعة ، وقد قضى الله تعالى لمن كذب بالساعة ناراً يصلها ويذوق سعيها ولهبها.

وقوله تعالى: ﴿ إِذَا رَأَوْهُم مِّنْ مَّكَانٍ يَّعِيدُ سَمِعُوا لَهُمْ تَغِيظًا وَزَفِيرًا ﴾.

قال النسفي: (أي إذا كانت منهم بمرأى الناظرين في البعد سمعوا صوت غليانها، وشبه ذلك بصوت المتغيظ والزافر، أو إذا رأتهم زبانياتها تغيظوا وزفروا غضباً على الكفار).

وفي جامع الترمذي بسند حسن عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [يخرجُ عنك من النار يوم القيامة له عيان تبصران وأذنان تسمعان ولسان ينطق ، يقول: إني وكُلت ثلاث: بكل جبار عنيد ، وبكل من دعا مع الله إلهاً آخر ، وبالمصوِّرين] ⁽¹⁾.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضِيقًا مُّقْرَّنَيْنِ دَعَوْا هَٰؤُلَاءِ ثُبُورًا ﴾. معنى مقرَّنين: مُكْتَفَيْن مقيدين مسلسلين بالأغلال. وعن الضحاك: ﴿ ثُبُورًا ﴾ أي هلاكاً. وقال ابن عباس: (ويلاً).

(1) حديث حسن. أخرجه الترمذي في السنن - حديث رقم - (2574) ، وقال: حسن غريب صحيح. وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (512).

قال القاسمي: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَبَقًا مُقَرَّنِينَ﴾ أي قرنت أيديهم إلى أعناقهم بالسلاسل ﴿دَعُوا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ أي هلاكاً. أي نادوه نداء الممتني الهلاك ، ليسلموا مما هو أشد منه . كما قيل : أشد من الموت ما يُتمنى معه الموت).

وقوله تعالى: ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ . قال ابن عباس: (أي: لا تدعوا اليوم ويلاً واحداً ، وادعوا ويلاً كثيراً).

وعن الضحاك: (الثبور: الهلاك). قال ابن كثير: (والأظهر أن الثبور يجمع الهلاك والويل والخسار والدمار ، كما قال موسى لفرعون: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ أي: هالكا).

وفي مستدرك الحاكم بسند حسن عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: [إنَّ أهل النار لَيَبْكُونَ حتى لو أُجريت السفن في دموعهم جَرَتْ ، وإنهم ليكون الدم]⁽¹⁾.

15 - 16. قوله تعالى: ﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَتْ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولا ﴿١٦﴾﴾.

في هذه الآيات: دعوة الكافرين لمقارنة منازل النعيم مع مدارك الجحيم ، فالمتقون في جنات ونعيم ، ومقام كريم ، خالدين في الملمات وفي رضوان رب العالمين .
فقوله: ﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ﴾.

قال القرطبي: (قيل: إنما قال ذلك لأن الجنة والنار قد دخلتا في باب المنازل ، فقال ذلك لتفاوت ما بين المنزلتين).

فالمعنى: قل - يا محمد - لهؤلاء الأشقياء الذين سلكوا سبيل الجحيم ، والجلوس في السعير مُقَرَّنِينَ ، والخلود في مضايق جهنم بأنهم كانوا مجرمين ، أذلك خير لكم أم طاعة الله التي كانت توردهم حياض النعيم ، والتلذذ بألوان الطعام والشراب والملمات مع المتقين؟!

(1) حديث حسن. أخرجه الحاكم (4/ 605) ، وابن ماجه (4324) من حديث أبي موسى ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1679).

وقوله: ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا﴾. أي ثواباً ومستقراً ومرجعاً.

قال النسفي: (وإنما قيل كانت لأن ما وعد الله كأنه كان لتحقيقه ، أو كان ذلك مكتوباً في اللوح قبل أن خلقهم).

وقوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾. أي من ألوان الملذات وأشكال النعيم.

وفي التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّلٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِئُونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ [يس: 55 - 58].

2 - وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٩﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الدخان: 54 - 55].

3 - وقال تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَارَاجًا ﴿٦١﴾ خَالِقِينَ وَأَعْنَابًا ﴿٦٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَزْوَاجًا ﴿٦٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٦٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدَابًا ﴿٦٥﴾ جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴿٦٦﴾﴾ [النبا: 31 - 36].

ومن روائع السنة العطرة في آفاق هذه الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري في صحيحه عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: [غدوة في سبيل الله أو راحة خير من الدنيا وما فيها ، ولو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت إلى الأرض لأضاءت ما بينهما ، ولملأت ما بينهما ريحاً ، ولنصفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها]⁽¹⁾. والنصيف: الخمار.

الحديث الثاني: أخرج مسلم وابن ماجه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [يقول الله عز وجل: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أُذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ذخراً ، بَلَّة ما أطلعكم الله عليه]⁽²⁾. ثم قرأ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾.

الحديث الثالث: أخرج الترمذي والدارمي بسند حسن عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال: [مَوْضِعٌ سَوِّطٌ أَحَدُكُمْ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ، وَقرأ: ﴿فَمَنْ زُحْرِحَ

(1) حديث صحيح . انظر مختصر صحيح البخاري (1150) و(1152) ، وصحيح الجامع (4027).

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم (2824) ح (4) . وأخرجه ابن ماجه (4328) - في صفة الجنة .

عَنِ الْكَارِ وَأَدْخَلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ ﴿١٧﴾⁽¹⁾.

وقوله: ﴿خَالِدِينَ﴾. أي: هم في هذا النعيم في خلود لا انقطاع له.

وقوله: ﴿كَانَ عَلَى رَيْكَ وَعَدًا مَسْئُولًا﴾.

قال ابن عباس: (فسألوا الذي وعدهم وتنجزوه).

وقال ابن زيد: (سألوه إياها في الدنيا ، طلبوا ذلك فأعطاهم وعدهم ، إذ سألوه أن يعطيهم ، فأعطاهم ، فكان ذلك وعداً مسؤولاً ، كما وقَّت أرزاق العباد في الأرض قبل أن يخلقهم ، فجعلها أقواتاً للسائلين ، وقَّت ذلك على مسألتهم ، وقرأ: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتًا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّالِئِلِ﴾ [فصلت: 10]).

وكان بعض أهل العربية يرى أن معنى قوله: ﴿وَعَدًا مَسْئُولًا﴾ أي: وعداً واجباً. لا بد أن يقع وأن يكون ، حكاه ابن جرير في التفسير.

17 - 19. قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ ۖ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَعِيبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمِ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾.

في هذه الآيات: ذِكْرُ الخزي الذي ينتظر المشركين يوم الحشر في عبادتهم آلهة من دون الله ، وتبرؤ عيسى وعزير والملائكة ممن عبدوهم ، والظالمون في عذاب كبير.

فقوله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ - تقرير وتوبيخ للكفار يوم القيامة في عبادتهم آلهة من دون الله. قال مجاهد: (عيسى ، وعزير ، والملائكة).

وقوله: ﴿فَيَقُولُ ۖ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾.

خطاب من الله تعالى للذين كان هؤلاء المشركون قائمين على عبادتهم.

(1) حديث حسن. أخرجه الترمذي (3017) و(3288) ، والدارمي (2/332 - 333) ، والحاكم (2/299) ، وأحمد (2/438) ، وانظر صحيح ابن ماجه (3495).

قال ابن جرير: (يقول: أنتم أزلتموهم عن طريق الهدى ، ودعوتموهم إلى الغي والضلالة ، حتى تاهوا وهلكوا ، أم هم ضلوا السبيل ، يقول: أم عبادي هم الذين ضلوا سبيل الرشd والحق ، وسلخوا العطب).

وقوله: ﴿ قَالُوا سُبْحَنَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ ۚ ﴾. يجيب به المعبودون يوم القيامة. وهو كقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ۖ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتَ قُلْتَ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١٦٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ عَبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُمْ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾ [المائدة: 116 - 117].

وكقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِئْسَ مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنُونَ ﴾ [سبا: 40 - 41].

وكذلك في هذه الآية: ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ ۚ ﴾. قال ابن كثير: (أي: ليس للخلاق كلهم أن يعبدوا أحداً سواك ، لا نحن ولا هم ، فنحن ما دعوناهم إلى ذلك. بل هم فعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم من غير أمرنا ولا رضانا ونحن برأء منهم ومن عبادتهم).

وقوله: ﴿ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ ۚ ﴾. أي طال عليهم العمر وهم منغمسون في شهواتهم حتى نسوا الذكر وقست قلوبهم.

قال القاسمي: (ولكن تمتعتهم وآباءهم بأنواع النعم ، ليعرفوا حقها ويشكروها ، فانهمكوا في الشهوات حتى نسوا الذكر ، أي ذكرك. أو التذكر في آلائك ، والتدبر في آياتك ، فجعلوا أسباب الهداية ، بسوء اختيارهم ، ذريعة إلى الغواية - أفاده أبو السعود).

وقوله: ﴿ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ۚ ﴾. قال ابن عباس: (هلكى). وقال الحسن: (هم الذين لا خير فيهم). وقال ابن زيد: (يقول: ليس من الخير في شيء. البور: الذي ليس فيه من الخير شيء). والمقصود: فكانوا بكفرهم وانغماسهم في غيهم وشهواتهم هالكين.

وقوله: ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ ۚ ﴾. قال مجاهد: (عيسى وعزير والملائكة ، يكذبون المشركين بقولهم). والمقصود: تبرؤ الذين عبدوا من دون الله ممن عبدوهم.

قال النسفي: (ومعناه: فقد كذبوكم بقولهم: سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من

دونك من أولياء. قال: وهذه المفاجأة بالاحتجاج والإلزام حسنة رائعة ، وخاصة إذا انضم إليها الالتفات وحذف القول).

وفي التنزيل نحو ذلك. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفْلُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٢١﴾﴾ [الأحقاف: 5 - 6].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال: [قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، مَنْ عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه] ⁽¹⁾.

وقوله: ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾. قال ابن جريج: (لا يستطيعون صرف العذاب عنهم ، ولا نصر أنفسهم). وقال مجاهد: (المشركون لا يستطيعونه).

وقوله: ﴿وَمَنْ يَظْلِمِ مِّنْكُمْ نَذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾. قال ابن جريج: ﴿وَمَنْ يَظْلِمِ مِّنْكُمْ﴾: بشرك). وقال الحسن: (هو الشرك). قال ابن جرير: (ومن يشرك بالله فيظلم نفسه ، فذلك نذقه عذاباً كبيراً).

20 - 24. قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ

لَيَأْكُلُونَ أَطْعَامَ وَيَمْسُوتُ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ يَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدْ مَنَّآ إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾.

في هذه الآيات: إثبات بشرية الرسل ، وطلب المشركين تنزل الملائكة عليهم استكباراً وغروراً ، وإخبار الله تعالى عن شقائهم يوم يرون الملائكة ويقولون حجراً محجوراً. وأما المؤمنون فهم يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً.

فقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ أَطْعَامَ وَيَمْسُوتُ فِي

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (2985) - كتاب الزهد. باب تحريم الرياء.

الْأَسْوَاقُ^١ . تأييد للنبي ﷺ واحتجاج من الله تعالى على مشركي قومه الذين استنكروا بشرية الرسول وأكله الطعام ودخوله الأسواق للتكسب والتجارة .

قال ابن جرير: (فقد علموا أنا ما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا مَنْ إِنْهُمْ لِيَأْكُلُوا الطعام ، ويمشون في الأسواق ، كالذي تأكل أنت وتمشي ، فليس لهم عليك بما قالوا من ذلك حجة) .

وقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَنْتَصِرُونَ^٢ ﴾ . يشمل التفاوت بين الناس واصطفاء الرسل والأنبياء . قال الحسن: (يقول هذا الأعمى : لو شاء الله لجعلني بصيراً مثل فلان ، ويقول هذا الفقير : لو شاء الله لجعلني غنياً مثل فلان ، ويقول هذا السقيم : لو شاء الله لجعلني صحيحاً مثل فلان) .

وقال ابن جريج: (يُمَسِّكُ عن هذا ، ويوسَّعُ على هذا ، فيقول: لم يعطني مثل ما أعطى فلاناً ، ويتلى بالوجه كذلك ، فيقول: لم يجعلني ربي صحيحاً مثل فلان ، في أشباه ذلك من البلاء ، ليعلم من يصبر ممن يجزع) .

وقال محمد بن إسحاق: ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَنْتَصِرُونَ^٣ ﴾ قال: يقول الله: لو شئت أن أجعل الدنيا مع رسلي فلا يخالفون ، لفعلت ، ولكني قد أردت أن أبتلي العباد بهم ، وأبتليهم بهم) .

وفي صحيح مسلم من حديث عياض بن حمار المَجَاشِعِيُّ مرفوعاً: [وإن الله نظرَ إلى أهل الأرض فمَقَّتَهُمْ ، عربَهُمْ وَعَجَمَهُمْ ، إلا بقايا من أهل الكتاب ، وقال: إنما بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيكَ وَأَبْتَلِي بِكَ ، وأنزلت عليك كتاباً لا يُغْسِلُهُ الماءُ ، تَقْرُؤُهُ نائماً ويقظان]⁽¹⁾ .

ويوم خُيِّرَ النبي ﷺ بين مقام الملك ومقام العبودية اختار المقام الثاني لشرفه وعلوه .

فقد أخرج الإمام أحمد في المسند بسند صحيح عن أبي زُرْعَةَ عن أبي هريرة قال: [جلس جبريل إلى النبي ﷺ فنظر إلى السماء ، فإذا ملك ينزل ، فقال له جبريل: هذا الملك ما نزل منذ خُلِقَ قبل الساعة ، فلما نزل قال: يا محمد ، أرسلني إليك ربك:

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم (2865) - كتاب الجنة ونعيمها ، في أثناء حديث طويل .

أملكاً أجعلك أم عبداً رسولاً؟ قال له جبريل: تواضع لربك يا محمد! فقال رسول الله ﷺ: لا ، بل عبداً رسولاً⁽¹⁾.

وقوله: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾. قال ابن جريج: (إن ربك لبصير بمن يجزع ، ومن يصبر).

وقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكُوتُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ الآية. فيه تأويلان متكاملان:

التأويل الأول: قال ابن جريج: (قال كفار قريش: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكُوتُ﴾ فيخبرونا أن محمداً رسول الله - ﷺ - أو نرى ربنا فيخبرنا بذلك ﴿لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾).

وهذا الذي طلبوه يشبه ما حكى الله عنهم في سورة الإسراء حيث قال سبحانه: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ تُفْعَرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا^(١١) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَعَنْبٌ فَتُنَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَافَهَا تَفْجِيرًا^(١٢) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتِ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا^(١٣) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفْيَاكَ حَتَّىٰ تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِنَانًا نَّقْرَأُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: 90 - 93].

التأويل الثاني: ذكره الحافظ ابن كثير حيث قال: (لولا أنزل علينا الملائكة: أي بالرسالة كما تنزل على الأنبياء).

وهو كقوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ مَّآيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ تُؤْتِيَ مَثَلًا أَوْتَىٰ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَعْلَمَ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتُهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ [124].

فأجابهم الجبار سبحانه بأنهم لن يروا الملائكة في يوم خير لهم ، بل في يوم شؤم عليهم ، وشر يحيط بهم ، وهوساعة الاحتضار ، حين تبشرهم الملائكة بالنار ، والغضب من الجبار ، كما قال جل وعز في سورة الأنعام: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [93].

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (231/2) بسند صحيح على شرط مسلم ، وأخرجه ابن حبان (6365) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1002).

فبشرهم بقدوم الملائكة في أخرج ساعات حياتهم ، وهم يسطون أيديهم إليهم بالضرب والإزعاج وتقطع العصب ، أحوج ما يحتاجون إلى من يخفف عنهم سكرات الموت وآلام النزاع والفراق ، ليرون خلاصة تكذيب المرسلين في هذه الدقائق الحالكة ، والملائكة ينهالون عليهم بالضرب والنَّهْر والإيلام ، كما قال جل ذكره في سورة الأنفال: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَاهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ [50]. وكما قال في سورة محمد: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَاهُمْ ﴾ [27].

وقد أخرج الإمام أحمد في المسند وأبو داود في السنن عن البراء مرفوعاً: [. . ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب ، قال: فتفرق في جسده فينتزعها كما ينتزع السفود الكثير الشعب من الصوف المبلول فتقطع معها العروق والعصب . .] الحديث (1).

فتأبى الأرواح الخروج من أجسادهم فتفرق في البدن ، فيضربونه لينتزعونها وقد تقطع مع خروجها العروق والعصب.

وقوله: ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ ﴾ . قال مجاهد: (يعني يوم القيامة). وقوله: ﴿ وَيَقُولُونَ حَجْرًا نَّحْجُورًا ﴾ . قال الضحاك: (تقول الملائكة: حراماً محرماً أن تكون لكم البشري). وقال قتادة: (هي كلمة كانت العرب تقولها ، كان الرجل إذا نزل به شدة قال: حجراً ، يقول: حراماً محرماً). فأصل الحَجْر في كلام العرب: الحرام. ومن ثم فلآية تأويلان ممكنان:

التأويل الأول: قول مجاهد: ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ ﴾ قال: يوم القيامة ، ﴿ وَيَقُولُونَ حَجْرًا نَّحْجُورًا ﴾ قال: عوداً معاذاً ، الملائكة تقولها).

التأويل الثاني: أنه خبرٌ من الله عن قيل المشركين إذا عاينوا الملائكة. قال ابن جريج: (حَجْرًا: عوداً يستعيدون من الملائكة).

وقوله تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ .

قال مجاهد: ﴿ وَقَدِمْنَا ﴾ : عَمَدَنَا ، ﴿ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ يقول: فجعلناه

(1) حديث صحيح. وهو جزء من حديث طويل أخرجه أحمد (287/4 - 288) ، وأخرجه أبو داود (281/2) ، وصححه الألباني في أحكام الجنائز فقرة (108).

باطلاً ، لأنهم لم يعملوه لله وإنما عملوه للشيطان).

قال القرطبي: (فأما الهباء المنبث فهو ما تثيره الخيل بسنابكها من الغبار. والمنبث: المتفرق).

أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن أبي عامر الألهماني ، عن النبي ﷺ أنه قال: [لأَعْلَمَنَّ أَقْوَاماً مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضاً ، فيجعلها الله هَبَاءً مَنْثُوراً. قال ثوبان: يا رسول الله صفهم لنا ، جَلَّهْمُ لَنَا ، أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ ، قال: أما إنهم إخوانكم ، وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ ، ويأخذون من الليل كما تأخذون ، ولكنهم أقوام إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها]⁽¹⁾.

وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: [إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مُؤْمِناً حَسَنَةً ، يُعْطِي بِهَا فِي الدُّنْيَا وَيُجْزِي بِهَا فِي الْآخِرَةِ ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُطْعَمُ بِحَسَنَاتٍ مَا عَمِلَ بِهَا اللَّهُ فِي الدُّنْيَا ، حَتَّى إِذَا أَفْضَى إِلَى الْآخِرَةِ ، لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُجْزَى بِهَا]⁽²⁾.

وقوله تعالى: ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾.

قال ابن عباس: (إنما هي ضُخْوَةٌ ، فيقيلُ أولياء الله على الأسرة مع الحور العين ، ويقيلُ أعداء الله مع الشياطين مُقَرَّنِينَ).

وقال سعيد بن جبیر: (يفرغ الله من الحساب نصفَ النهار ، فيقيلُ أهل الجنة في الجنة ، وأهل النار في النار ، قال الله تعالى: ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾).

وعن قتادة: ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ أي: مأوى ومنزلاً).

قال النسفي: (والمستقر: المكان الذي يكونون فيه في أكثر أوقاتهم يتجالسون ويتحدثون. ﴿ وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾: مكاناً يأوون إليه للاسترواح إلى أزواجهم ، ولا نوم في الجنة ، ولكنه سمي مكان استراحتهم إلى الحور مقيلاً على طريق التشبيه).

وفي الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: [إن في الجنة

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (4245) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (505) ، وأبو عامر الألهماني اسمه عبد الله بن غابر.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2808) - كتاب صفات المنافقين ، ح (56) ، (57).

خِيَمَةً مِنْ لَوْلُؤَةٍ مُجَوَّفَةٍ ، عَرْضُهَا سِتُّونَ مِيلًا فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ مِنْهَا أَهْلٌ مَا يَرُونَ الْآخِرِينَ ،
يطوف عليهم المؤمنون⁽¹⁾ . وفي رواية :

[إن للمؤمنين في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة ، طولها ستون ميلاً فيها
أهلون يطوف عليهم المؤمن ، فلا يرى بعضهم بعضاً].

وفي لفظ آخر: [الخيمة درة طولها في السماء ستون ميلاً ، في كل زاوية أهل
للمؤمن لا يراهم الآخرون].

قال ابن القيم: (وهذه الخيم غير الغرف والقصور ، بل هي خيام في البساتين وعلى
شواطئ الأنهار).

25 - 31. قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشْقُقُ السَّمَاءُ بِالْغَمِّمْ وَنُزِلَ الْمَلَكُ تَنْزِيلًا ۖ ﴿٢٥﴾ الْمَلَكُ
يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ ۖ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ۖ ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ
يَقُولُ يَنْتَظِنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ۖ ﴿٢٧﴾ يُنْفِثُ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فَلَانًا خَلِيلًا ۖ ﴿٢٨﴾ لَقَدْ
أَصْلَحَنِي مِنَ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ۖ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ۖ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الرَّسُولُ
يَذَرُ إِن قَوْمِي أَخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ۖ ﴿٣٠﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ
وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ۖ ﴿٣١﴾ ۝

في هذه الآيات: تَفَطَّرُ السماء يوم القيامة وانفراجها بالغمام ونزول الملائكة لأرض
المحشر وكان يوماً على الكافرين عسيراً. وَنَدِمُ الظالم وعضبه على يديه متمنياً أن لو كان
قد اتخذ مع الرسول سبيلاً ، ولم يتخذ فلاناً من أصحاب السوء خليلاً. وقول الرسول
يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً. وعداوة المجرمين للأنبياء والمرسلين
والصالحين وكفى بالله هادياً ونصيراً.

فقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشْقُقُ السَّمَاءُ بِالْغَمِّمْ وَنُزِلَ الْمَلَكُ تَنْزِيلًا ۖ ۝

إخبار من الله عز وجل عن أهوال القيامة من انشقاق السماء وتفطرها وانفراجها

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4879) - كتاب التفسير. وأخرجه مسلم (2838) ح (24) ،
وأخرجه الترمذي (2528) ، وأحمد (411 / 4) ، وابن حبان (7395).

بالغمام ونزول الملائكة من السماء للإحاطة بالخلائق في أرض المحشر ثم مجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء .

قال مجاهد: (وهذا كما قال تعالى: ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلُلٍ مِّنَ الْفُجَارِ وَأَلْمَلِكَةِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ إِلَى اللَّهِ تَرْجِعَ الْأُمُورُ ﴾ [البقرة: 210]).

قال القاسمي: (﴿يَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالْعَنَمِ﴾ أي ينصدع نظامها فلا يبقى أمر ما فيها من الكواكب على ما يرى اليوم. فيخرب العالم بأسره. و«الباء» بمعنى «مع» أي مع السحب الجوية. أو بمعنى «عن» أي تنفطر عن الغمام الذي يسود الجو ويظلمه ، ويغم القلوب مرآه ﴿وَنَزَلَ الْمَلَكَةُ تَنْزِيلًا﴾ فيحيطون بالخلائق في المحشر).

وقوله تعالى: ﴿ أَمَلُّكَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴾ .

الملكُ الثابت يومئذ لله تعالى ، وكل ملك دونه يزول ، فلا يبقى يومئذ إلا ملكه . وكان ذلك اليوم شديد العسرة والضيق على الكافرين ، لأنه يوم الفصل وكشف السرائر وإقامة العدل والحق المبين .

وفي التنزيل :

1 - قال تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِرَ فِي النَّافِرِ ﴿٨﴾ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿المدثر: 8 - 10﴾ .

2 - وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ مَا لَكُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴾ [الطارق: 9 - 10] .

3 - وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ هُمْ بَرْزُؤُنَّ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿غافر: 16﴾ .

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [يقبض الله الأرض ويطوي السماوات بيمينه ، ثم يقول: أنا الملك ، أين ملوك الأرض]⁽¹⁾ . وفي لفظ مسلم: [ثم يقول: أنا الملك ، أين الجبارون؟ أين المتكبرون].

وفي صحيح مسلم عن عبد الله قال: [جاء رجلٌ من أهل الكتاب إلى رسول الله ﷺ فقال: يا أبا القاسم! إنَّ الله يُمَسِّكُ السماوات على إصْبَعٍ ، والأرضين على إصْبَعٍ ، والشَّجَرَ والتَّرى على إصْبَعٍ ، والخلائق على إصْبَعٍ ، ثم يقول: أنا الملك ، أنا الملك .

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4812) - كتاب التفسير ، وانظر صحيح مسلم (2788) ، وسنن أبي داود (4732) ، ومسند أبي يعلى (5558) من حديث ابن عمر .

قال: فرأيت النبي ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه ، ثم قال: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ [الزمر: 67]⁽¹⁾.

وقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلْتَمِئَنِي أَنْتَحِدْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾ [٢٧] يَتَوَلَّيْ لِيْتَنِي لَمْ أَخْجِدْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿ ٢٨ ﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴾.

بيان لندم الظالم يوم القيامة غاية الندم ، حتى يعص على يديه من شدة ما اجترح من الآثام ، ورفقة سيئ الخَلان ، حتى أسرف على نفسه بالكبر والكفر وطاعة الشيطان ، وهنالك يتبرأ اللعين منه ويخذله كما خذله في الدنيا عن طاعة ربه ، وزين له المعصية ليركبها ، وما زال يمينه الطاعة ليسوفها .

أخرج أبو نعيم في (الدلائل) ، وابن مردويه بسند يرقى للحسن ، عن سعيد ابن جببر ، عن ابن عباس رضي الله عنهما: [أَنَّ أبا معيط كان يجلس مع النبي ﷺ بمكة لا يؤذيه ، وكان رجلاً حليماً ، وكان بقية قريش إذا جلسوا معه آذوه ، وكان لأبي معيط خليل غائب عنه بالشام ، فقالت قريش: صَبَأُ أبو معيط ، وقدم خليله من الشام ليلاً فقال لامرأته: ما فعل محمد مما كان عليه؟ فقالت: أشدَّ مما كان أمر! فقال: ما فعل خليلي أبو معيط؟ فقالت: صَبَأٌ ، فبات ليلة سوء! فلما أصبح أتاه أبو معيط فَحَيَّاه فلم يردَّ عليه التحية فقال: ما لك لا تردَّ عليَّ تحيتي؟ فقال: كيف أرد عليك تحيتك وقد صبوت؟ فقال: أو قد فعلتها قريش؟ قال: فما يبرئ صدورهم إن أنا فعلت؟ قال: تأتيه في مجلسه وتبزق في وجهه وتشتمه بأخبث ما تعلمه من الشتم ففعل ، فلم يزد النبي ﷺ أن مسح وجهه من البزاق ثم التفت إليه فقال: إن وجدتك خارجاً من جبال مكة أضرب عنقك صبراً ، فلما كان يوم بدر وخرج أصحابه أباي أن يخرج ، فقال له أصحابه: اخرج معنا ، قال: قد وعدني هذا الرجل إن وجدني خارجاً من جبال مكة أن يضرب عنقي صبراً ، فقالوا: لك جمل أحمر لا يدرك ، فلو كانت الهزيمة طرت عليه ، فخرج معهم فلما هزم الله المشركين وَحَلَ⁽²⁾ به جملة في جدد من الأرض ، فأخذه رسول الله ﷺ أسيراً في سبعين من قريش ، وقدم إليه أبو معيط ، فقال: تقتلني من بين هؤلاء؟ قال: نعم ، بما بزقت في وجهي ، فأنزل الله في أبي معيط: ﴿ وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ ﴾ إلى

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم (2786) ح (21) - كتاب صفات المنافقين ، باب صفة القيامة والجنة والنار . وفي رواية أنه قرأ الآية كلها [الزمر: 67] .

(2) أي وقع في الوحل .

قوله ﴿وَكَاكَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾⁽¹⁾.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾.

إخباراً من الله عن شكوى رسوله إليه في استهزاء قومه الذين بعث إليهم بهذا القرآن ، فلا يصغون إليه ولا يسمعون ، بل يكثرون اللغظ والفوضى عند سماعه يُتلى لثلاث يواثر في قلوب الناس .

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: 26].

قال ابن زيد: (لا يريدون أن يسمعه ، وإن دعوا إلى الله قالوا لا ، وقرأ: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: 26] قال: ينهون عنه ، ويبعدون عنه).

وعن مجاهد: (قوله: ﴿اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ قال: يهجرون فيه بالقول ، يقولون: هو سحر). وقال: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سِمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ [المؤمنون: 67] قال: مستكبرين بالبلد سامراً مجالس تهجرون ، قال: بالقول السيئ في القرآن غير الحق). وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾.

قال ابن عباس: (يوطن محمداً ﷺ أنه جاعل له عدواً من المجرمين كما جعل لمن قبله).

كما في التنزيل: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غَرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَلَيَصْنَعَنَّ الْإِنْسُ أَفْئِدَةً الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلَيَرْضَوْهُ وَلَيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: 112 - 113]. وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بَرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾.

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره لنبيه: وكفاك يا محمد بربك هادياً يهديك إلى الحق ، ويبصرك الرشد ، ونصيراً: يقول: ناصراً لك على أعدائك ، يقول: فلا يهولنك أعداؤك من المشركين ، فإني ناصرك عليهم ، فاصبر لأمري ، وامض لتبليغ رسالتي إليهم).

قلت: والخطاب يعم ببشائه كل من سار على منهاج النبوة في العلم والإيمان

(1) أخرجه ابن مردويه ، وأبو نعيم في «الدلائل». انظر: الصحيح المسند من أسباب النزول ، الوادعي - سورة الفرقان ، الآيات (27 - 29).

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومقارعة أهل الباطل ومجاهدتهم لإعلاء دين الله في الأرض .

أخرج الخطيب في «التاريخ» بسند صحيح عن أنس مرفوعاً:

[النَّصْرُ مَعَ الصَّبْرِ ، وَالْفَرَجُ مَعَ الْكَزْبِ ، وَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ، وَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا⁽¹⁾].

32 - 34. قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ۚ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ۚ ﴾ ^(٣٢) الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ۚ ﴾ ^(٣٤) .

في هذه الآيات: تَنَطَّعُ من الكفار واعتراض سفيه أن نَزَلَ الله القرآن مُفَرَّقًا لا جملة واحدة ، فكان الجواب من الله تعالى أنه إنما يثبت بذلك قلب نبيه على الحق ، وكذلك قلوب المؤمنين الذين تنزل الآيات إجابة لتساؤلاتهم ، وحلاً للمشكلات المستجدة في حياتهم ، وهذا القرآن يحمل القوارع على الطغاة وأحسن الأمثال التي فيها إسكاتهم ، ويوم القيامة يحشرون أذلاء على وجوههم .

فقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ۚ ﴾ .

قال ابن عباس: (كان الله ينزل عليه الآية ، فإذا علمها نبي الله نزلت آية أخرى ، ليعلمه الكتاب عن ظهر قلب ، ويثبت به فؤاده).

وعن ابن جريج: (قوله: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾ كما أنزل التوراة على موسى ، قال: ﴿ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ قال: كان القرآن ينزل عليه جواباً لقولهم ، ليعلم محمد أن الله يجيب القوم بما يقولون بالحق. ويعني بقوله: ﴿ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ لنصح به عزيمة قلبك ويقين نفسك ، ونشجعك به).

(1) أخرجه الخطيب في «التاريخ» (287/10) ، والدلمي (4/ 111 - 112) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (2382) ، وقال: الحديث صحيح .

وفي قوله: ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ تأويلان متكاملان:

التأويل الأول: عن إبراهيم: ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ قال: نزل متفرقاً. قال الحسن: (كان ينزل آية وآيتين وآيات جواباً لهم إذا سألوا عن شيء أنزله الله جواباً لهم ، ورداً عن النبي فيما يتكلمون به ، وكان بين أوله وآخره نحو من عشرين سنة). قال ابن جرير: (قوله: ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ يقول: وشيئاً بعد شيء علمناكه حتى تحفظه ، والترتيل في القراءة: الترسل والتثبت).

التأويل الثاني: قال قتادة: ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾: وبيناه تبيناً. وقال ابن زيد: (وفسرناه تفسيراً).

وقوله: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾.

قال ابن جريج: (الكتاب بما تردّ به ما جاؤوا به من الأمثال التي جاؤوا بها وأحسن تفسيراً).

وعن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ - أي: بما يلتمسون به عيب القرآن والرسول ، ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ ، أي: إلا نزل جبريل من الله (بجوابهم).

وقوله: ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾. أي: وأحسن مما جاؤوا به من المثل بياناً وتفصيلاً. قال ابن عباس: يقول: (أحسن تفصيلاً). وقال مجاهد: (بياناً). وقال الضحاك: (يقول: تفصيلاً).

وقوله: ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ سُوءُ مَكَانًا﴾.

إخبار من الله سبحانه عن سوء صفة المشركين في مظهر حشرهم يوم القيامة ، فهم يحشرون بين الناس في صورة هي غاية من الذل والخزي والقبح إهانة لهم. قال مجاهد: (الذي أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم).

وقال النسفي: ﴿أُولَٰئِكَ سُوءُ مَكَانًا﴾ أي مكانة ومنزلة أو مسكناً ومنزلاً).

والمقصود: أن المؤمنين في نعيم وسرور ، والكافرين في ذل وصغار وأسوأ منزلة.

وفي الصحيحين عن أنس: [أن رجلاً قال: يا نبي الله! كيف يحشر الكافر على وجهه

يوم القيامة؟ قال: أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة⁽¹⁾.

وقوله: ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾. قال مجاهد: (طريقاً). وقال مقاتل: (أي: ديناً وطريقاً).

35- 40. قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيْرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَاهُ الْأَمْثَلُ وَكُلًّا تَبَرْنَا تَنْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا سَوَاءً أَفْكَمَ يَكُونُوا يَكْرَهُنَّهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾.

في هذه الآيات: تسلية من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ عما يلقاه من تكذيب قومه وأذاهم ، وتوعد لقومه أن يحل بهم ما حلّ من نقمة الله بالأمم المكذبة المعاندة قبلهم ، يقول: فلقد آتينا - يا محمد - موسى التوراة كما آتيناك الفرقان ، وجعلنا معه أخاه هارون ﴿وَزِيْرًا﴾ أي: مُعيناً وظهيراً. فقلنا لهما: اذها إلى فرعون وقومه بالبلاغ المبين ، فكذبوهما فدمرناهم تدميراً.

وكذلك قوم نوح من قبل لما واجهوا الرسل بالتكذيب والاستهزاء بالوحي أغرقناهم بالطوفان ، وأعدنا لهم في الآخرة عذاباً أليماً غير ما نزل بهم في الدنيا. وكذلك دمرنا عاداً وثمود وأصحاب الرس (قال مجاهد: الرّس: بئر كان عليها قوم) ﴿وَقُرُونًا﴾. أي: وأممًا ﴿بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ أي: بين أضعاف من ذكّر أهلكتهم. وكل هذه الأمم التي قضينا إهلاكها أنذرناها قبل ذلك وأعدنا إليها بالعبر والمواعظ فأصروا على كفرهم فدمرناهم بالعذاب إبادة ومحوناهم من الوجود عبرة لغيرهم. ولقد أتى هؤلاء المشركون على آثار قرية قوم لوط فرأوا ما حلّ بهم وكفى بذلك عبرة ، ولكن ليس مع قوم لا يوقنون بالعقاب والثواب ولا يؤمنون بقيام الساعة.

(1) حديث صحيح. انظر صحيح البخاري (4760) ، وصحيح مسلم (2806) ، ومسنّد أحمد (229/3) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

وعن قتادة: ﴿وَكَلَّا ضَرَيْنَا لَهُ الْآمِثَلُ﴾ قال: كلّ قد أعذر الله إليه ، ثم انتقم منه).

وعن الحسن: ﴿وَكَلَّا تَبَرَّنَا تَنْبِيرًا﴾ قال: تَبَرَّ الله كُلاًّ بعذاب تنبيرا).

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: وكل هؤلاء الذين ذكرنا لكم أمرهم استأصلناهم ، فدمرناهم بالعذاب إبادة ، وأهلكناهم جميعاً).

قلت: وأصل (التَّبَار) في لغة العرب الهلاك ، قال الرازي: (و«تَبَرَه تنبيراً»: كَسَرَه وأهلكه ، وهؤلاء (متَبَر) ما هُم فيه أي مُكَسَّر مُهْلَك).

فيكون المعنى: كل هذه الأمم التي سَلَفَ ذِكْرُهَا كَسَرْنَا بِنِهَايَا وَأَهْلَكْنَا أَهْلَهَا واستأصلناهم لَمَّا طَغَوْا فبادوا جميعاً.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرَتْ مَطَرَ السَّوَاءِ﴾.

يعني قرية قوم لوط ، وهي سَدُوم ، التي جعل الله عاليها سافلها وأمطرها حجارة من سجيل .

وفي التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ﴾ [الشعراء: 173].

2 - وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُ لَنُفُورٍ عَلَيْهِمْ مُّصِحِّينَ ﴿١٣٦﴾ وَبِأَيِّ لِّ آفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: 137 - 138].

3 - وقال تعالى: ﴿وَلَا تَهَاجِرْ سَبِيلَ مُّقِيمٍ﴾ [الحجر: 76].

4 - وقال تعالى: ﴿وَلَا تَهْمَا لِيَا مَرْثِيَيْنِ﴾ [الحجر: 79].

وقوله: ﴿أَفَكَلَمْ يَكُونُوا يَكُونُوا يَكُونُوا يَكُونُوا﴾. قال ابن كثير: (أي: فيعتبروا بما حَلَّ بأهلها من العذاب والنكال بسبب تكذيبهم بالرسول ومخالفتهم أوامر الله). قلت: والخطاب لقريش ، أي أفلم يَمُروا كثيراً أثناء تجارتهم إلى الشام على تلك القرية التي أهلكت بالحجارة من السماء ، فيتفكروا فيؤمنوا.

وقوله: ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾. قال ابن جريج: (بعثاً).

قال النسفي: (بل كانوا قومًا كفرة بالبعث لا يخافون بعثاً فلا يؤمنون ، أو لا يأملون نشوراً كما يأمله المؤمنون لطمعهم في الوصول إلى ثواب أعمالهم).

وقال القرطبي: ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾: أي لا يصدقون بالبعث. ويجوز أن

يكون معنى «يَرْجُونَ» يخافون. ويجوز أن يكون على بابه ويكون معناه: بل كانوا لا يرجون ثواب الآخرة).

قلت: وقد صَنَّفَ الإمام مسلم في صحيحه في «كتاب صفات المنافقين» باباً سماه: «بابُ جزاء المؤمن بحسناته في الدنيا والآخرة»، وتعجيل حسنات الكافر في الدنيا». روى فيه عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: [إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مُؤْمِناً حَسَنَةً، يُعْطِي بِهَا فِي الدُّنْيَا وَيَجْزِي بِهَا فِي الْآخِرَةِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُطْعَمُ بِحَسَنَاتِ مَا عَمِلَ بِهَا اللَّهُ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا أَقْضَى إِلَى الْآخِرَةِ، لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُجْزَى بِهَا⁽¹⁾].

وفي رواية: [إِنَّ الْكَافِرَ إِذَا عَمِلَ حَسَنَةً أُطْعِمَ بِهَا طُعْمَةً مِنَ الدُّنْيَا، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَإِنَّ اللَّهَ يَدْخِرُ لَهُ حَسَنَاتِهِ فِي الْآخِرَةِ، وَيُعْقِبُهُ رِزْقاً فِي الدُّنْيَا عَلَى طَاعَتِهِ].

وهذه الرواية مفسرة للرواية الأولى، فإن أعمال الخير من الكافر بالآخرة والبعث والحساب إنما يأخذ ثوابها في الدنيا، من زيتها وزخارفها وملذاتها وشهواتها ومناصبها، فإذا قدم يوم القيامة نثر الله أعماله فجعلها هباء منثوراً.

41 - 44. قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِذَا يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ۖ﴾ (٤١) **إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ۖ﴾ (٤٢) **أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ۖ﴾ (٤٣) **أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ۖ﴾ (٤٤).******

في هذه الآيات: استهزاء المشركين بالرسول، ودعوتهم قومهم للتمسك بدين الآباء الفاسد، وسوف يعلمون من أضل سبيلاً. فالهوى والشهوات آلهة قوم لا يفقهون ولا يسمعون إن هم إلا كالأنعام بل أضل سبيلاً. فقوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِذَا يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾.

إن نافية. والتقدير: وإذا رآك يا محمد هؤلاء المشركون ما يتخذونك إلا سخرية

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح - حديث رقم - (2808) - كتاب صفات المنافقين ح(56)، وانظر للرواية الثانية ح(57) من الباب نفسه.

واستهزاء ، يريدون التنقص والإشارة بالعيب أن اختارك الله عليهم واصطفاك من بينهم .

وقوله : ﴿ أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴾ . أي يقولون : أهذا الذي بعث الله إلينا رسولاً من بين خلقه . قال ابن كثير : (أي : على سبيل التنقص والازدراء - فَبَحَّهْمُ اللَّهُ -) . وقال القاسمي : (والإشارة للاستحقار . لأن كلمة «هذا» تستعمل له) .

وفي التنزيل نحو ذلك :

1 - قال تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْاكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ ﴾ [الأنبياء : 36] .

2 - وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ [الرعد : 23] .

وفي المسند بإسناد حسن عن ربيعة بن ربيعة بن عبادة الدؤلي قال : [رأيت رسول الله ﷺ يذوي المجاز يتبع الناس في منازلهم يدعوهم إلى الله عز وجل ، ووراءه رجل أحول تقذ وجنتاه وهو يقول : أيها الناس ، لا يغرنكم هذا من دينكم ودين آبائكم . قلت : من هو؟ قالوا : هذا أبو لهب] (1) .

وفي رواية : [ورسول الله يقول لهم : يا أيها الناس : قولوا لا إله إلا الله تفلحوا - ويزدحم الناس عليه صامتين وهو يكرر دعوتهم - وأبو لهب يصيح : إنه صابئ كاذب ، يريد لتتركوا آلهتكم وتتركوا اللات والعزى] .

وروى أحمد وابن ماجه بسند جيد عن جابر قال : [كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه على الناس في الموسم فيقول : ألا رجل يحملني إلى قومه ، فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي] (2) .

وقوله : ﴿ إِنَّ كَادَ لِيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ . قال ابن جريج : (ثبتنا عليها) . قال القرطبي : (أي قالوا قد كاد أن يصرفنا ﴿ عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ أي حبسنا أنفسنا على عبادتها) .

(1) حديث حسن . انظر مسند أحمد (3/ 491 - 492) ، (3/ 493) ، (4/ 341) وسنده حسن .

(2) حديث صحيح . أخرجه أحمد في المسند (3/ 322) ، (3/ 339) ، ورجاله ثقات . وانظر كتابي :

السيرة النبوية على منهج الوحيين (1/ 390) لتمام البحث .

وقوله: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

قال ابن جرير: (يقول جل ثناؤه: سيبين لهم حين يعاينون عذاب الله قد حلّ بهم . . . من الراكب غير طريق الهدى ، والسالك سبيل الردى أنت أو هم).

قلت: ولا شك أنهم عاينوا ذلك ورأوه يوم بدر ، بل إنّ الله أسمعهم توبيخ نبيّه لهم وهم صرعى يوشك أن يلقوا في حفرة.

ففي صحيح مسلم ومسند أحمد من حديث أنس قال: [وقال رسول الله ﷺ بيده - أي قبل المعركة - فوضعها فقال: هذا مصرع فلان غداً ، وهذا مصرع فلان غداً إن شاء الله تعالى ، فالتقوا فهزمهم الله عز وجل ، فوالله ما أطاق رجل منهم عن موضع كفيّ النبي ﷺ. قال: فخرج إليهم النبي ﷺ بعد ثلاثة أيام وقد جيّفوا فقال: يا أبا جهل ، يا عتبة ، يا شيبة ، يا أمية ، قد وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً. فقال له عمر: يا رسول الله تدعوهم بعد ثلاثة أيام وقد جيّفوا! فقال: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم غير أنهم لا يستطيعون جواباً ، فأمر بهم فجزّوا بأرجلهم فآلقوا في قليب بدر⁽¹⁾.

قال قتادة: (أحياهم الله له حتى أسمعهم قوله توبيخاً وتصغيراً ، ونقمة ، وحسرة وندما)⁽²⁾.

وقوله: ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ﴾. قال القرطبي: (عَجَبَ نبيّه ﷺ من إضمارهم على الشرك وإصرارهم عليه مع إقرارهم بأنه خالفهم ورازقهم ، ثم يعمد إلى حجر يعبد من غير حجة). قال ابن عباس: (الهوى إله يعبد من دون الله ، ثم تلا هذه الآية).

وقوله: ﴿أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾. أي حفيظاً وكفياً لتحمله على الرجوع إلى منهاج الإيمان. وهو تسليّة للنبي ﷺ عن إصرار قومه على مناهجهم الفاسد. قال ابن عباس: (كَانَ الرَّجُلُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَعْبُدُ الْحَجَرَ الْأَبْيَضَ زَمَانًا ، فَإِذَا رَأَى غَيْرَهُ أَحْسَنَ مِنْهُ عَبْدَ الثَّانِي وَتَرَكَ الْأَوَّلَ).

وقوله: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾.

أي سماع تدبر وإصغاء ، وتعقل للفهم والانتفاع. والمقصود: بل هم بمنزلة من

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2873) كتاب الجنة وصفة نعيمها ، وأحمد (1/26).

(2) انظر: «فتح الباري شرح صحيح البخاري» (300/7) - من رواية البخاري.

لا يسمع ولا يعقل . قال النسفي : (أم منقطعة ، معناه : بل أتحسب ، كأن هذه المذمة أشد من التي تقدمتها حتى حقت بالإضراب عنها إليها ، وهي كونهم مسلوبى الأسماع والعقول ، لأنهم لا يلقون إلى استماع الحق أذنًا ، ولا إلى تدبره عقلاً) .
وقوله : ﴿ إِن هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ .

قال ابن جرير : (يقول : ما هم إلا كالبهائم التي لا تعقل ما يقال لها ، ولا تفقه ، بل هم من البهائم أضل سبيلاً لأن البهائم تهتدي لمراعيها ، وتنقاد لأربابها ، وهؤلاء الكفرة لا يطيعون ربهم ، ولا يشكرون نعمة من أنعم عليهم ، بل يكفرونها ، ويعصون من خلقهم وبرأهم) .

45 - 50. قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا ۝٤٦ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ۝٤٧ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ۝٤٨ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ۝٤٩ لِنُخْشِيَ بِهِ بَلَدَهُ مَيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ۝٥٠ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۝٥١ ﴾ .

في هذه الآيات : امتنانُ الله تعالى على عباده بنعمة مد الظل وجعل الليل لباساً والنوم سباتاً والنهار نشوراً . وإرساله تعالى الرياح بشراً وإنزال الماء من السماء طهوراً . ليحيي به أرضاً يابسة ويسقيه من خلقه أنعاماً وأناسيً كثيراً . وتصريفه تعالى مياه المطر في البلاد والفيافي والبحار ليذكر الناس ولكن أكثرهم أبى إلا كفوراً .

فقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ﴾ . قال ابن عباس : (يقول : ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس) . وقال مجاهد : (ظل الغداة قبل أن تطلع الشمس) . فالمعنى : ألم تر يا محمد كيف مد ربك الظل بين صلاة الصبح إلى طلوع الشمس . قال ابن كثير : (من هاهنا شرع تعالى في بيان الأدلة الدالة على وجوده ، وقدرته التامة على خلق الأشياء المختلفة والمتضادة) .

وقوله : ﴿ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ﴾ . قال ابن عباس : (يقول : دائماً) . وقال مجاهد :

(لا تصيبه الشمس ولا يزول). وقال ابن زيد: (دائماً لا يزول).

وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَیْهِ دَلِیْلًا﴾. قال قتادة: (دليلاً يتلوه ويتبعضه حتى يأتي عليه كله). وقال ابن عباس: (يقول: طلوع الشمس). وقال ابن زيد: (أخرجت ذلك الظل فذهبت به). والمقصود: لولا طلوع الشمس على ذلك الظل لما عُرف ، فإن الضد يعرف بضده ، وبضدها تتميز الأشياء.

وقوله: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ﴾. أي: الظل ، وقيل: الشمس. ﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾: قال ابن عباس: (يقول: سريعاً). وقال مجاهد: (خفياً). وقال غيره: (سهلاً). وقال أيوب ابن موسى: (أي: قليلاً قليلاً). وقال السدي: (قبضاً خفياً ، حتى لا يبقى في الأرض ظلٌ إلا تحت سقف أو تحت شجرة ، وقد أظلت الشمس ما فوقه). قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: ثم قبضنا ذلك الدليل من الشمس على الظل إلينا قبضاً خفياً سريعاً بالفيء الذي نأتي به بالعشي).

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾. قال النسفي: (جعل الظلام الساتر كاللباس).

والمقصود: صار الليل ستراً كالثياب التي يكسى بها العباد. كما قال تعالى: ﴿وَاللَّيْلَ إِذَا يَغْشَى﴾ [الليل: 1]. وكقوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلَ إِذَا يَغْشَى﴾ [الشمس: 4].

وقوله: ﴿وَالنَّوْمَ سُبَاتًا﴾. قال القرطبي: (أي راحة لأبدانكم بانقطاعكم عن الأشغال. وأصل السبات من التمدد. يقال: سبت المرأة شعرها أي نقضته وأرسلته. وقيل للنوم سبات لأنه بالتمدد يكون ، وفي التمدد معنى الراحة. وقيل: السبت القطع ، فالنوم انقطاع عن الاشتغال ، ومنه سبت اليهود لانقطاعهم عن الأعمال فيه. وقيل: السبت الإقامة في المكان ، فكان السبات سكوناً وثبوتاً عليه ، فالنوم سباتٌ على معنى أنه سكون عن الاضطراب والحركة. وقال الخليل: السبات نوم ثقيل ، أي جعلنا نومكم ثقیلاً ليكمل الإجمام والراحة) انتهى.

وقوله: ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾. قال مجاهد: (ينشر فيه).

والمقصود: الانتشار للمعاش. قال ابن كثير: (أي: ينتشر الناس فيه لمعاشهم ومكاسبهم وأسبابهم).

وفي التنزيل :

1 - قال تعالى : ﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [القصص : 73] .

2 - وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۖ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ [النبا : 10 - 11] .

وفي صحيح البخاري عن حذيفة قال : [كان النبي ﷺ إذا أوى إلى فراشه قال : بِاسْمِكَ أَمُوتَ وَأُخِيَا . وإذا قام قال : الحمد لله الذي أحيانا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ]⁽¹⁾ . تُنْشِرُهَا : تُخْرِجُهَا .

وقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ .

قال القاسمي : (أي مبشرات ﴿ بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ أي قدام المطر . وهي استعارة بديعة . استعيرت الرحمة للمطر ثم رشحت) .

والرياح أنواع : نوع يثير السحاب ، ونوع يحمله ، ونوع يسوقه ، ونوع يبشر بين يديه ، ونوع يقيم الأرض قبل ذلك ، ونوع يلقيح السحاب ليمطر بإذن الله .

قال النسفي : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ أي قدام المطر ، لأنه ريح ثم سحاب ثم مطر وهذه استعارة مليحة) .

وقوله : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ . أي : مطراً بليغاً في الطهارة والتطهير . قال سعيد بن المسيب : (أنزل الله ماء طهوراً لا ينجسُهُ شيء) .

وفي سنن أبي داود والنسائي والترمذي بسند جيد عن أبي سعيد قال : [قيل : يا رسول الله ، أنتوضأ من بئر بُضَاعَةَ؟ - وهي بئر يلقى فيها التَّنَّ ولحومُ الكلاب - فقال : إن الماء طهورٌ لا ينجسُهُ شيء]⁽²⁾ .

وقوله : ﴿ لِنُخْصِيَ بِهِ بَلَدَةً مَيْتًا ﴾ . أي : أرضاً هامدة طال انتظارها للغيث ، فلما لامسها تَلَأَلَتْ بنسائم الحياة وأخرجت في رُبَاهَا ألوان الزهور والنباتات والثمار .

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (6312) - كتاب الدعوات . وأحمد (397/5) ، وأبو داود (5049) ، وأخرجه الترمذي (3417) ، وابن حبان (5532) من حديث حذيفة .

(2) حديث صحيح . أخرجه أبو داود (66) ، والترمذي (66) ، والنسائي (3/ 15 - 31) ، وأبو يعلى (1304) ، وله شواهد عند ابن ماجه (370) ، وابن حبان (1242) .

وفي التنزيل :

1 - قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ ﴾ [الزمر : 21] .

2 - قال تعالى : ﴿ فَإِذَا أَنْزَلْنَاهَا عَلَىٰهَا الْمَاءَ أَهْرَازَتْ وَارَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٌ ﴾ [الحج : 5] .

3 - وقال تعالى : ﴿ وَزَلَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ۝ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ [ق : 9 - 11] .

ومن هنا كانت وصية النبي ﷺ لمعاذ إذا مرّ بشجر أن يذكر الله العظيم المنعم المتفضل . فقد أخرج الطبراني في «الكبير» بسند جيد عن أبي سلمة قال : قال معاذ : قلت : يا رسول الله أوصني . قال : [اعبُد الله كأنك تراه ، واعدُد نفسك في الموتى ، واذكر الله عند كل حجر ، وعند كل شجر ، وإذا عملت سيئة بجنبها حسنة ، السرُّ بالسرِّ ، والعلانية بالعلانية] (1) .

وقوله : ﴿ وَنُسْقِيهِمْ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَنَاسِيًّا كَثِيرًا ﴾ .

أي : ونسقي الماء البهائم والناس . قال النسفي : (وقدم إحياء الأرض على سقي الأنعام والأناسي لأن حياتها سبب لحياتهما ، وتخصيص الأنعام من الحيوان الشارب لأن عامة منافع الأناسي متعلقة بها) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ .

أي : ولقد قسمنا هذا الماء النازل بين العباد في القرى والأمصار ليشكروا ربهم على نعمته عليهم ، وليعظموه وحده لا شريك له فيطيعوه ولا يعصوه ، فأبى أكثر الناس إلا كبراً ووجوداً .

أخرج الحاكم على شرط الشيخين عن ابن عباس قال : [ما من عام بأكثر مطراً من عام ، ولكن الله يصرفه بين خلقه حيث يشاء ، ثم قرأ : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾] (2) .

(1) حديث صحيح . أخرجه الطبراني في المعجم الكبير كما ذكر الهيثمي (218/4) ، والمنذري (132/4) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1475) ، وله شواهد .

(2) حديث صحيح . أخرجه الحاكم (403/2) ، وابن جرير في «التفسير» (15/19) ، وقال الحاكم =

وله شاهد عند البغوي عن ابن مسعود يرفعه: [ليس من سنة بأمّ من أخرى ، ولكن الله قسم هذه الأرزاق ، فجعلها في السماء الدنيا في هذا القطر ، ينزل منه كل سنة بِكَيْلٍ معلوم ووزن معلوم ، وإذا عمل قوم بالمعاصي حَوَّلَ الله ذلك إلى غيرهم ، فإذا عصوا جميعاً صرف الله ذلك إلى الفياضي والبحار⁽¹⁾].

وفي معجم الطبراني بسند حسن عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال: [خمس بخمس: ما نَقَضَ قوم العهد إلا سُلِطَ عليهم عدوهم ، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر ، ولا ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت ، ولا طففوا المكيال إلا مُيعوا النبات وأخذوا بالسنين ، ولا مَنَعُوا الزكاة إلا حُبِسَ عنهم القطر⁽²⁾].

وعن عكرمة: ﴿فَأَيُّ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ قال: قولهم في الأنواء).

قلت: يشير إلى ما رواه البخاري ومسلم عن زيد بن خالد الجهني أنه قال: [صَلَّى لنا النبي ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل ، فلما انْصَرَفَ أَقْبَلَ على الناس فقال: هل تدرون ماذا قال رَبُّكُمْ؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وكَاْفِرٌ ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَاْفِرٌ بالكوكب ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: بِنُوءٍ كَذَا وكَذَا ، فَذَلِكَ كَاْفِرٌ بِي ومُؤْمِنٌ بالكوكب⁽³⁾].

51 - 54. قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ۝٥١﴾ فَلَا تَطْعُ

الْكَافِرِينَ وَجَهْدَهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ۝٥٢ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ۝٥٣ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ۝٥٤﴾ .

في هذه الآيات: تحميلُ الله تعالى نيته محمداً ﷺ كامل مهمة النذارة للثقلين ،

= صحيح على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبي ، وأقره الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (2461) وقال: وهو كما قال.

(1) موقوف في حكم المرفوع. انظر: «معالم التنزيل» (6/184) - البغوي ، والمرجع السابق ، - السلسلة الصحيحة - ج (5) ، ص (593) عقب الحديث السابق.

(2) حديث حسن. انظر تخريج الترغيب (1/271) ، وصحيح الجامع الصغير (3235).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (846) - كتاب الأذان ، ومسلم (71) ، وأحمد (4/117).

وأمره مجاهدة المشركين بالقرآن الكريم . وتذكير من الله تعالى عباده ببعض نعمه العظيمة عليهم : كنعمة الماء العذب للشرب والسقي ، ونعمة الماء المالح في البحار والمحيطات لصحة الهواء وطيب الميته فيها ، ونعمة إخراج نوعين من الخلق - ذكر وأنثى - وجعله منهما نسباً وصهراً والله على كل شيء قدير .

ف قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴾ .

أي : ولو شئنا يا محمد بعثنا إلى كل مصر ومدينة وقرية نذيراً ينذرهم بأسنا ويخفف عنك أعباء ما حملناك من أعباء البلاغ للأمم . قال ابن جرير : (ولكننا حملناك ثقل نذارة جميع القرى ، لتستوجب بصبرك عليه إن صبرت ما أعد الله لك من الكرامة عنده) .

وفي التنزيل نحو ذلك :

1 - قال تعالى : ﴿ وَلَنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [الأنعام : 92] .

2 - وقال تعالى : ﴿ لَا نُنذِرُكُمْ بِهِمْ وَمَنْ يَلْعَنُ ﴾ [الأنعام : 19] .

3 - وقال تعالى : ﴿ قُلْ يَتَايَأُهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف : 158] .

4 - وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبا : 28] .

ومن صحيح السنة المطهرة في ذلك أحاديث :

الحديث الأول : أخرجه البخاري من حديث جابر مرفوعاً : [وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة ، وبعث إلى الناس كافة]⁽¹⁾ .

الحديث الثاني : أخرجه مسلم في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله الأنصاري - أيضاً - قال : قال رسول الله ﷺ : [أُعْطِيَ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي : كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً ، وَبُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ ..] [الحديث⁽²⁾]

قال مجاهد : (يعني الإنس والجن) .

وقوله : ﴿ فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ ﴾ . قال ابن عباس : (بالقرآن) .

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (438) - كتاب الصلاة ، وكذلك (335) - كتاب التيمم .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم (521) ح (3) - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، في أثناء حديث طويل . وفي لفظ : [بعث إلى الأحمر والأسود] .

وقال ابن زيد: ﴿وَجَهَدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ قال: الإسلام).

قلت: والآية مكية ، والمقصود بذل الوسع في مجاهدة الكفار بالوحي العظيم ، وامتنال أحكام الدين. وفي هذا درسٌ بليغ للمسلمين أيام الغربة في كل زمان ، فإن أعظم الجهاد يكون بالقرآن ، واتباع هدي سيد الأنام ، وإقامة شرائع الإسلام في النفس والبيت والمسجد والمجتمع حتى يأذن الله تعالى بإقامة دولة الحق.

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾. أي خلق المائين: الحلو والمالح. قال القاسمي: (أرسلهما متجاورين متلاصقين ، بحيث لا يتمازجان ﴿هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ أي شديد العذوبة قاعم للظمأ ﴿وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أي بليغ الملوحة ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ أي حاجزاً لا يختلط أحدهما بالآخر ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أي منعاً من وصول أثر أحدهما إلى الآخر ، وامتزاجه به ، حتى بعد دخول أحدهما في الآخر مسافة).

وخلاصة معنى الآية: تذكير الله عباده ببعض نعمه العظيمة ، فها هو الماء العذب أودعه مسارب ضخمة كالأنهار والعيون والآبار ، وهو في حركته يحافظ على المذاق الحلو الفرات العذب الرُّلال. وذاك الماء المالح المُرُّ الرُّعَاق أودعه الله تعالى المحيطات والبحار ، فهي منشآت ساكنة مالحة الماء ، لئلا يحصل بسببها تَنُّ الهواء ، فيفسد الوجود بذلك. فهي تجمع بملوحتها بين طهارة الماء ، وصحة الهواء ، وكون ميتها طيبة.

أخرج أبو داود وابن ماجه - واللفظ له - عن أبي هريرة قال: [جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! إنا نركب البحر. ونحمل معنا القليل من الماء. فإن توضأنا به عطشنا. أفنتوضأ من ماء البحر؟ فقال رسول الله ﷺ: هو الطَّهْرُ ماؤه ، الحِلُّ مِيتَتُهُ] وسنده صحيح (1).

وفي التنزيل: وصف بديع للبرزخ بين البحرين الحلو والمالح ، وهو الحاجز بينهما من اليابسة من الأرض ، ثم الاختلاط بينهما دون تمازج.

1 - قال تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ يَبْتَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَتَّصِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبَيْنَ أَيْدِي رِجْلَيْكَ تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 19 - 21].

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجه (386) - كتاب الطهارة وسننها ، باب الوضوء بماء البحر. انظر صحيح سنن ابن ماجه (309) ، وصحيح أبي داود (76).

2 - وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَدًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيًا وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا إِنْ لَهُ مَعَ اللَّهِ بَلٌّ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: 61].
وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾.

أي: خلق الله الإنسان من نطفة ضعيفة ، وهي ماء مهين ، فسوى خلقه وعدله وأخرجه بشراً نوعين: ذكراً وأنثى ، ثم مازج بين النوعين بالنكاح فأخرج منهما نسباً وصهراً.

قال النسفي: (أراد تقسيم البشر قسمين ، ذوي نسب: أي ذكوراً ينسب إليهم فيقال فلان بن فلان ، وفلانة بنت فلان ، وذوات صهر: أي إنثاءً يصاهر بهن).

وقال ابن كثير: ﴿فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ ، فهو في ابتداء أمره ولدٌ نَسَبٌ ، ثم يَتَزَوَّج فيصير صهراً ، ثم يَصِيرُ له أَصْهَارٌ وَأَخْتَانٌ وقربات. وكل ذلك من ماء مهين. ولهذا قال: ﴿وَكَانَ رُبُّكَ قَدِيرًا﴾.

55 - 60. قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَلِّ بِهِ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنْسَجِدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾﴾.

في هذه الآيات: توبيخ الكفار في عبادتهم ما لا ينفعهم ولا يضرهم ، وإثبات إرساله تعالى نبيه إلى جميع الخلق ليبشرهم وينذرهم ولا يتبغي الأجر منهم ، وأمره تعالى نبيه بالتوكل عليه وتنزيهه فهو الخير سبحانه بأعمالهم ، الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، وهم يكفرون بالرحمان ، ولا يسجدون له بل يزدادون من البغي والطغيان.

فقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾.

تقريع من الله تعالى للمشركين في اتخاذهم آلهة لا تضر ولا تنفع ، يصرفون لها

العبادة من دون الله العظيم ، وإنما قادهم إلى ذلك التحاكم للعادات والأهواء حتى تجرؤوا على معاداة الله من أجلها ورسوله والمؤمنين .

وقوله : ﴿ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴾ . أي معيناً للشيطان وحزبه على أولياء الله وأهل طاعته . قال مجاهد : (يظاهر الشيطان على معصية الله : يُعينه) . وقال سعيد ابن جبير : (يقول : عوناً للشيطان على ربّه بالعداوة والشرك) .

وفي التنزيل :

1 - قال تعالى : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ إِلَهًا لَّهُمْ يُنصُرُوكم ﴾ ﴿٦١﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُم جُنْدٌ مُّخْضَرُونَ ﴾ [يس : 74 - 75] .

2 - وقال تعالى : ﴿ اسْتَعِذْ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [المجادلة : 19] .

وفي صحيح ابن حبان من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : [إذا أصبح إبليس بثّ جنوده ، فيقول : من أضلّ اليوم مسلماً ألبسته التاج ، فيخرجُ هذا فيقول : لم أزل به حتى طلق امرأته ، فيقول : أوشك أن يتزوج . ويجيء هذا فيقول : لم أزل به حتى عق والديه فيقول : يوشك أن يبرّهما . ويجيء هذا فيقول : لم أزل به حتى أشرك ، فيقول : أنت أنت ، ويجيء هذا فيقول : لم أزل به حتى قتل ، فيقول : أنت أنت ويليسه التاج] ⁽¹⁾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ .

أي مبشراً المؤمنين بثواب الله العظيم ، ونذيراً للكافرين من عقاب الله الأليم .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِن أَجْرٍ إِلَّا مِن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ .

أي : قل - يا محمد - لقومك الذين أرسلت إليهم : إنني لا أبتغي من وراء دعوتي لكم وإنذاري لنجاتكم ، ما في أيديكم من أموالكم ، وإنما أبتغي بذلك وجه الله . قال القرطبي : (﴿ إِلَّا مِن شَاءَ ﴾ لكن من شاء ، فهو استثناء منقطع ، والمعنى : لكن من شاء ﴿ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ بإنفاقه من ماله في سبيل الله فلينفق . ويجوز أن يكون متصلاً

(1) حديث صحيح . أخرجه ابن حبان (65) بإسناد رجاله ثقات ، رجال البخاري . وانظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة - حديث رقم - (1280) .

ويقدّر حذف المضاف ، التقدير : إلا أجر ﴿ مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ باتباع ديني حتى ينال كرامة الدنيا والآخرة .

وقوله : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ﴾ .

أمر من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ بالاعتماد على ربه الحي الذي لا يموت .
والتوكل : هو تحقيق مقام التوحيد لله باعتماد القلب عليه ، والصدق في الأخذ
بالأسباب .

قال ابن جرير : (يقول تعالى ذكره : وتوكل يا محمد على الذي له الحياة الدائمة التي لا موت معها ، فثق به في أمر ربك ، وفوض إليه ، واستسلم له ، واصبر على ما نابك فيه) .

وفي التنزيل :

1 - قال تعالى : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ [المزمل : 9] .

2 - وقال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ [الملك : 29] .

وقوله : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ﴾ . أي : نَزَّهْه تعالى واقرن بين حمده وتسبيحه .

وفي صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت : [كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده : «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، الله اغفر لي» ، يتأول القرآن⁽¹⁾ .

وفي صحيح مسلم عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله ﷺ :
[ألا أخبرك بأحب الكلام إلى الله؟ إنَّ أحب الكلام إلى الله سبحانه الله وبحمده]⁽²⁾ .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : [كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم]⁽³⁾ .

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4968) - كتاب التفسير ، وأخرجه مسلم (484) .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم (86/8) - كتاب الذكر ، باب : أحب الكلام إلى الله سبحانه الله وبحمده ، وانظر مختصر صحيح مسلم (1907) .

(3) حديث صحيح . أخرجه البخاري (7563) ، كتاب التوحيد . وأخرجه مسلم (70/8) كتاب الذكر ، باب : في فضائل التسبيح . وانظر مختصر صحيح مسلم (1904) .

وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِهِ ذُنُوبًا عِوَادًا خَيْرًا﴾.

أي: وحسبك - يا محمد - بالحي الذي لا يموت خابراً بذنوب خلقه ، لا تخفى عليه خافية ، فهو محص أعمالهم ومجازيهم عليها .

وفي صحيح مسلم من حديث أبي ذر ، عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل: [يا عبادي! إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه] ⁽¹⁾.

وقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾.

أي: إن توكلك - يا محمد - هو على الله الحي الذي لا يموت ، الخالق لهذا الكون الفسيح في ستة أيام ، السماوات السبع في اتساعها وارتفاعها ، والأرضين السبع في سفولها وكثافتها .

خرّج الإمام مسلم في صحيحه ، وأحمد في مسنده ، عن أبي هريرة قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: [خلق الله التربة يوم السبت ، وخلق فيها الجبال يوم الأحد ، وخلق الشجر يوم الاثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء ، وخلق النور يوم الأربعاء ، وبثّ فيها الدواب يوم الخميس ، وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة ، في آخر الخلق ، في آخر ساعة من ساعات الجمعة ، فيما بين العصر إلى الليل] ⁽²⁾.

وقوله: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾. أي: علا وارتفع ، كما أفاد شيخ المفسرين .
وقوله: ﴿الرَّحْمَنُ﴾. أي هو الرحمن . فالرحمن خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو . أو بدل من الضمير في استوى . وقد يكون ﴿الرَّحْمَنُ﴾ مرفوعاً على الابتداء ، ويكون الخبر قوله: ﴿فَسَلِّ بِهِ خَيْرًا﴾ . و﴿الرَّحْمَنُ﴾ اسم مشتق من الرحمة على وجه المبالغة .

وقوله: ﴿فَسَلِّ بِهِ خَيْرًا﴾ فيه تأويلان متقاربان متكاملان :

التأويل الأول: قيل الباء بمعنى «عن» ، ذكره بعض أهل اللغة . قال الزجاج :

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم (8 / 17) ، وأخرجه أحمد في المسند (5 / 160).

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم (2789) - كتاب صفات المنافقين ، باب ابتداء الخلق ، وخلق آدم عليه السلام . وانظر تفصيل هذا البحث: «كيف بدأ الخلق»؟ في كتابي: تحصيل السعادتین علی منهج الوحیین ص (18 - 35).

(المعنى : فاسأل عنه). قال القرطبي : (أي فاسأل عنه خبيراً ، أي عالماً به ، أي بصفاته وأسمائه).

فيكون خبيراً قد نُصب على المفعول به بالسؤال .

التأويل الثاني : قيل بل المعنى : ﴿فاسأل له خبيراً﴾ بالنصب على الحال ، وقيل : بل هو حال مؤكدة مثل قوله : ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً﴾ .

قال مجاهد : (يقول لمحمد ﷺ : إذا أخبرتك شيئاً فاعلم أنه كما أخبرتك . أنا الخبير). وقال شمر بن عطية : ﴿فَسَلِّ بِهِ خَيْرًا﴾ : هذا القرآن خبير به).

وخلاصة المعنى : فاسأل به سبحانه عالماً بصفاته وأسمائه ، أو فاسأل الله يخبرك عن نفسه ، أو فاسأل القرآن يخبرك عن الله .

وقوله : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ .

قال القاسمي : (أي من المسمى به؟ لأنهم ما كانوا يعرفونه تعالى بهذا الاسم ولا يطلقونه عليه . أو الاستفهام للتعجب والاستغراب ، تفنناً في الإباء . أي وما هذه الأسماء والأعلام التي تصدعنا بها ، وتقرع أذاننا بالإذعان لها . ﴿أَسْجُدْ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ﴾ أي الأمر بالسجود ، المراد به الإذعان بالإيمان ﴿تَقْوَرًا﴾ أي استكباراً عن الإيمان).

وفي صحيح البخاري - في قصة الحديبية - قال الزهري : [فجاء سهيل بن عمرو ، فقال : هاتِ اكتبْ بيننا وبينكم كتاباً . فدعا النبي ﷺ الكاتب - وهو علي رضي الله عنه - فقال النبي ﷺ : بسم الله الرحمن الرحيم . (وفي رواية أحمد : فقال رسول الله ﷺ : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم) فقال سهيل : أما الرحمن فو الله ما أدري ما هو ، ولكن اكتب باسمك اللهم كما كنت تكتب . فقال المسلمون : والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم . فقال النبي ﷺ : اكتب باسمك اللهم⁽¹⁾ .

قلت : وهذا من روائع سياسته الشرعية عليه الصلاة والسلام ، وإلا فقد قرعهم الله بالقرآن أكثر من مرة باسمه «الرحمن» فقال جل ذكره : ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ [الرعد : 30].

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (2731) ، (2732) ، كتاب الشروط ، وأخرجه مسلم (1784) - كتاب السير ، وأخرجه أحمد في المسند (4/325) .

وقال جل ذكره: ﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝﴾ [الرحمن: 1 - 4].

وسمى السورة بأكملها باسمه الجليل: «الرحمن». وقال جل ثناؤه: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ ۚ أَمَّا بِهِ ۖ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الملك: 29].
وإنما منعهم من إقرار هذا الاسم لله تعالى الكبير.

وفي مسند أحمد بإسناد جيد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [قال الله عز وجل: أنا الرحمن، وهي الرحم، شقت لها من اسمي، من يصلها أصله، ومن يقطعها أقطعه فأبته] (1).

61 - 62. قوله تعالى: ﴿نَبَارَكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ۝ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ۝﴾.

في هذه الآيات: تنزيه الله تعالى الذي خلق البروج في السماء والشمس والقمر، وجعل الليل والنهار متعاقبين لمن أراد أن يتفكر أو يذكّر.

فقوله: ﴿نَبَارَكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾. قال مجاهد: (الكواكب). وقال قتادة: (البروج: النجوم). وقال أبو صالح: (النجوم الكبار). وقيل: قصور في السماء للحرس، والقول الأول أرجح.

كما في التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: 5].

2 - وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّظِيرِ ۝ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ۝ إِلَّا مِنْ أَسْفَلِ السَّمَاءِ فَنُفِثَ مِنْهُمُ الشَّيَاطِينُ ۝﴾ [الحجر: 16 - 18].

وفي صحيح البخاري من حديث ابن عباس قال: [انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (2/ 498)، وقال الألباني: (وهذا إسناد جيد رجاله ثقات رجال الشيخين). انظر السلسلة الصحيحة ج (2) ص (38).

عليهم الشهب ، فرجعت الشياطين . فقالوا : ما لكم ؟ فقالوا : حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب . . [الحديث (1) .

وخلاصة المعنى : تقدس الله تعالى الذي جعل في السماء الكواكب والنجوم زينة لها ، وحفظاً من استراق السمع من الشياطين إذ تحرقهم شهبها .

وقوله : ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴾ . قال قتادة : (السراج : الشمس) . أي : وجعل سبحانه الشمس كالسراج المتوهج ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾ [النبا : 13] . وجعل القمر مضيئاً منيراً بعكس ضوء الشمس عليه ، وإلا فالقمر غير مضيء بنفسه .

وفي التنزيل نحو ذلك :

- 1 - قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا ﴾ [يونس : 5] .
 - 2 - وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ۚ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴾ [نوح : 15 - 16] .
- وقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً ﴾ .

قال أبو عبيدة : (الخليفة كل شيء بعد شيء) . ومنه قول مجاهد في هذه الآية : (هذا يخلف هذا ، وهذا يخلف هذا) . وقيل : (خلفة : أسود وأبيض) والأول أرجح .

كما في التنزيل :

- 1 - قال تعالى : ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس : 40] .
- 2 - وقال تعالى : ﴿ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا ﴾ [الأعراف : 54] .

وعن الحسن قال : (جعل أحدهما خلفاً للآخر ، إن فات رجلاً من النهار شيء أدركه من الليل ، وإن فاته من الليل أدركه من النهار) .

قلت : وقول الحسن مناسب لتتمة الآية : ﴿ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْكَرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ . أي : لمن أراد أن يذكر عظمة الله وأمره فينيب إلى طاعته وشكره . قال مجاهد : ﴿ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ قال : شكر نعمة ربه عليه فيهما) .

وفي صحيح مسلم عن أبي موسى قال: [قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال: إِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ لا ينام ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يُرْفَعُ إليه عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ ، وعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ ، حِجَابُهُ النُّورُ ، لو كشفه لأَحْرَقَتِ سُبُحَاتِ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ] (1).

وفي صحيح مسلم أيضاً عن أبي موسى ، عن النبي ﷺ قال: [إِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يده بالليل ، ليتوبَ مسيءُ النَّهَارِ ، وَيَبْسُطُ يدهُ بالنَّهَارِ ، ليتوبَ مسيءُ اللَّيْلِ ، حتى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا] (2).

63 - 67. قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ (١٢) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا (١٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّكَ عَذَابُهَا كَانَ غَرَامًا (١٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (١٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (١٧).

في هذه الآيات: ثناء الله تعالى على عباده المؤمنين ، فهم يمشون في الأرض هوناً ولا يبتغون الجاهلين ، ويبيتون لربهم قائمين ساجدين ، ويسألونه تعالى النجاة من عذاب جهنم مستقر الكافرين ، وينفقون من أموالهم دون إسراف ولا إقتار وإنما بشكل قويم .

فقوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ . قال مجاهد: (بالوقار والسكينة). وعن ابن عباس: (بالطاعة والعفاف والتواضع). وقال ابن زيد: (لا يتكبرون على الناس ، ولا يتجبرون ، ولا يفسدون). وقال الحسن: (حلماء ، وإن جُهل عليهم لم يجهلوا).

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (179) - كتاب الإيمان ، وأخرجه أحمد (4/ 395) ، وأخرجه ابن ماجة في السنن (195) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

(2) حديث صحيح . رواه مسلم (2759) - كتاب التوبة ، باب قبول التوبة من الذنوب .

قلت: وكلها أقوال متقاربة في صفات عباد الله المؤمنين مفادها أنهم يمشون بسكينة ووقار، وبحلم وتواضع لا باستكبار.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [إِذَا سَمِعْتُمُ الْإِقَامَةَ فَامْشُوا إِلَى الصَّلَاةِ، وَعَلَيْكُمْ بِالسَّكِينَةِ وَالْوَقَارِ وَلَا تُسْرِعُوا، فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا] (1).

وقوله: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾. قال مجاهد: (سداداً من القول).

والمقصود: إذا حصل أن سَفِهَ عليهم بعض الجهال قابلوهم بالصفح والحلم ولم يقولوا إلا خيراً.

وفي التنزيل: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْنِئُ الْجَاهِلِينَ﴾ [القصاص: 55].

وفي جامع الترمذي بسند حسن عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: [ليس المؤمن بالطَّعَّانِ ولا اللَّعَّانِ ولا الفَاحِشِ ولا البَذِيٍّ] (2).

وَعَنِ الْحَسَنِ: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ قال: حلما لا يجهلون، وإن جُهِلَ عليهم حلموا ولم يسفهاوا، هذا نهارهم فكيف ليلهم؟ خير ليل صفوا أقدامهم، وَأَجْرُوا دموعهم على خدودهم، يطلبون إلى الله جل ثناؤه فكاك رقابهم).

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾.

أي: فإذا أقبل الليل ناموا ثم قاموا إلى السجود والركوع، والتذلل والخشوع، يبيكون بين يدي ربهم عز وجل، يرجون رحمته ويخافون عذابه.

قال الحسن: (يُصَاحِبُونَ عِبَادَ اللَّهِ نَهَارَهُمْ بِمَا تَسْمَعُونَ. ثم ذكر: لَيْلُهُمْ خَيْرٌ لَّيْل).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 - قال تعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ الَّذِينَ مَا يَهْتَجُونَ ﴿٦٧﴾ وَيَأْتِيهِمْ سُبْحًا وَنَهَارًا فَهُمْ يَسْتَعْفِفُونَ﴾ [الذاريات:

17 - 18].

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (636) - كتاب الأذان، ومسلم (602)، وأحمد (238/2) وأخرجه أبو داود (572)، والترمذي (327)، والنسائي (114/2)، وابن ماجه (775).

(2) حديث حسن. أخرجه الترمذي (1978)، وأحمد (3839)، والحاكم (12/1).

2 - وقال تعالى: ﴿لَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: 16].

3 - وقال تعالى: ﴿أَمِنْ هُوَ قُنَيْتٌ ءَانَاءَ أَلَيْلٍ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: 9].

ومن كنوز السنة العطرة في آفاق هذه الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال: [يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ إِذَا هُوَ نَامَ ثَلَاثَ عَقَدٍ ، يَضْرِبُ عَلَى كُلِّ عُقْدَةٍ عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ فَارْقِدْ! فَإِنْ اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللَّهَ تَعَالَى انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ ، فَإِنْ تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ ، فَإِنْ صَلَّى انْحَلَّتْ عُقْدُهُ كُلُّهَا ، فَاصْبَحْ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ ، وَإِلَّا أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسَلَانًا]⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [أَفْضَلُ الصِّيَامِ بَعْدَ رَمَضَانَ شَهْرُ اللَّهِ الْمُحَرَّمِ ، وَأَفْضَلُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الْفَرِيضَةِ صَلَاةُ اللَّيْلِ]⁽²⁾.

الحديث الثالث: أخرج الترمذي بسند حسن عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: [عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ ، فَإِنَّهُ دَأْبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ ، وَقُرْبَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ ، وَمَكْفَرَةٌ لِلْسَّيِّئَاتِ ، وَمَنْهَاجٌ عَنِ الْإِثْمِ]⁽³⁾.

الحديث الرابع: أخرج الطبراني بإسناد حسن عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: [فِي الْجَنَّةِ غُرْفَةٌ يُرَى ظَاهَرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا ، وَبَاطِنُهَا مِنْ ظَاهَرِهَا. فَقَالَ أَبُو مَالِكٍ الْأَشْعَرِيُّ: لِمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: لِمَنْ أَطَابَ الْكَلَامَ ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ ، وَبَاتَ قَائِمًا وَالنَّاسَ نِيَامًا]⁽⁴⁾.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾.

أي: ومن صفات هؤلاء المؤمنين عباد الرحمن سؤالهم ربهم عز وجل أن يصرف

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1142) - كتاب التهجد. وأخرجه مسلم (776) - في الصلاة.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1163) - كتاب الصيام ، ورواه أهل السنن إلا ابن ماجه.

(3) حديث حسن. أخرجه الترمذي (3801). انظر صحيح سنن الترمذي (2814) ، وتخريج المشكاة (1227) ، وكذلك الإرواء (452).

(4) حديث حسن. أخرجه الطبراني والحاكم. انظر تخريج الترغيب (1/ 613) - كتاب النوافل.

عنهم عذاب النار يوم القيامة ، إن عذابها كان غراماً : أي : ملازماً دائماً مهلكاً .

قال ابن جريج : ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ قال : لا يُفَارِقُهُ . وقال الحسن : (قد علموا أن كلَّ غريم مفارق غريمه إلا غريم جهنم) . وقال محمد بن كعب : (إن الله سأل الكفار عن نعمه ، فلم يردّوها إليه ، فأغرمهم ، فأدخلهم النار) .

قلت : وأصل الغرام في لغة العرب الشَّرُّ الدائم والعذاب . قال أبو عبيدة : ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ : أي هلاكاً ولزماً لهم) .

وفي جامع الترمذي بسند صحيح عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : [مَنْ سَأَلَ اللَّهَ الْجَنَّةَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ قَالَتِ الْجَنَّةُ : اللَّهُمَّ ادْخِلْهُ الْجَنَّةَ . وَمَنْ اسْتَجَارَ مِنَ النَّارِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، قَالَتِ النَّارُ : اللَّهُمَّ أَجِرْهُ مِنَ النَّارِ] (1) .

وأجمل من ذلك وأروع ما رواه أبو يعلى في مسنده بسند صحيح عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : [ما استجار عبدٌ من النار سبعَ مرّاتٍ في يومٍ إلا قالت النار : يا رَبِّ إِنَّ عَبْدَكَ فُلَانًا قد استجاركَ مني فأَجِرْهُ ، ولا يسألُ اللهَ عبدٌ الجنةَ في يومٍ سبعَ مرّاتٍ إلا قالت الجنة : يا رَبِّ ! إِنَّ عَبْدَكَ فُلَانًا سألني فأدْخِلْهُ الْجَنَّةَ] (2) .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ .

المستقر : القرار . والمقام : مكان الإقامة . قال ابن جرير : (كأن معنى الكلام : ساءت جهنم منزلاً ومقاماً) . وقال القرطبي : (أي بئس المستقر وبئس المقام . أي إنهم يقولون ذلك عن علم ، وإذا قالوه عن علم كانوا أعرف بعظم قدر ما يطلبون ، فيكون ذلك أقرب إلى النجح) .

وقوله : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ .

الإسراف : الإنفاق الذي يجاوز الحدَّ اللائق والمباح . والإقتار : ما قصر عما أمر الله به من النفقة . والقوام : بين ذلك .

ويبدو أن الإسراف يكون في الحلال ، وأما إن كان في الحرام فهو التبذير كما قال

(1) حديث صحيح . أخرجه الترمذي (2704) - أبواب صفة الجنة . انظر صحيح سنن الترمذي - حديث رقم - (2079) ، ورواه النسائي والحاكم . انظر صحيح الجامع (6151) .

(2) أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (1472/4 - 1473) ، والضياء في «صفة الجنة» (1/89/3) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (2506) .

تعالى: ﴿إِنَّ الْمُبْدِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ [الإسراء: 27].

فالمعنى: ومن صفات عباد الرحمن أنهم إذا أنفقوا أموالهم لم يبالغوا في الإنفاق فوق الحاجة ، ولم ييخلوا عن أهليهم فيما يجب عليهم في حقهم ، وإنما هم أهل العدل والوسطية في إنفاقهم كما هو كذلك في كل شيء .

وقوله: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾. قال النسفي: (أي عدلاً بينهما ، فالقوام العدل بين الشئيين).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 - قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: 29].

2 - وقال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: 254].

ومن صحيح السنة العطرة في آفاق هذه الآية أحاديث:

الحديث الأول: روى مسلم في صحيحه عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: [إذا أنفقت المرأة من بيت زوجها غير مفسدة ، كان لها أجرها ، وله مثلها بما اكتسب ، ولها بما أنفقت ، وللخازن مثل ذلك ، من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً⁽¹⁾].

الحديث الثاني: أخرج البخاري والنسائي عن أبي مسعود البصري مرفوعاً: [إذا أنفق الرجل على أهله نفقة يحتسبها فهي له صدقة]⁽²⁾.

الحديث الثالث: أخرج أبو داود بسند صحيح عن معاوية القشيري قال: قلت: يا رسول الله ، ما حق زوجة أحدنا عليه؟ قال: [أَنْ تَطْعَمَهَا إِذَا طَعِمْتَ ، وَتَكْسُوَهَا إِذَا اكْتَسَيْتَ ، أَوْ «اكتسبت» ، ولا تضرب الوجه ، ولا تقبح ، ولا تهجر إلا في البيت]⁽³⁾.

68 - 71. قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1024) ح (81) - كتاب الزكاة. وانظر كذلك ح (80).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (20/1) ، والنسائي (353/1) ، والطبراني (ص 86) رقم (615) ، وفي رواية للبخاري (6/189): «المسلم» بدل «الرجل».

(3) حديث حسن صحيح. أخرجه أبو داود (2142) - كتاب النكاح ، باب في حق المرأة على زوجها. انظر صحيح سنن أبي داود (1875) ، (1876) ، (1877).

النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ .

في هذه الآيات: متابعة الشئ من الله تعالى على عباده المؤمنين ، فهم يفرّدونه بالألوهية ولا يقتلون النفس التي حرّم ولا يزنون فإن من يفعل ذلك يصبح من الآثمين ، ويضاعف له العذاب المهين ، إلا من تاب وآمن وبادر بالعمل الصالح فإنه يلقي عفو الغفور الرحيم .

أخرج البخاري ومسلم وأحمد والنسائي عن عبد الله رضي الله عنه قال : [سألت - أو سئلت - رسول الله ﷺ : أيّ الذنب عند الله أكبر؟ قال : أن تجعلَ الله نِدَاءً وهو خلقك . قلتُ : ثم أيّ؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يطعمَ معك . قلتُ : ثم أيّ؟ قال : أن تُزاني بحليلة جارك . قال : ونزلت هذه الآية تصديقاً لقول رسول الله ﷺ ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾] (1) .

وفي الصحيحين أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما : [أن أناساً من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وأكثروا ، وزنوا وأكثروا ، فأتوا محمداً ﷺ فقالوا : إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة ، فنزل : ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ . ونزل : ﴿قُلْ يَعْبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾] [الزمر : 53] (2) .

فربط سبحانه في هذه الآية الكريمة بين الشرك والقتل والزنا ، فإن الشرك بالله يتبعه كل كبيرة ، فليس يحول بين المشرك والكبائر خوف من الله شأن المؤمنين ، وكذلك

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4761) - كتاب التفسير ، و(4762) كذلك نحوه ، وأخرجه مسلم (3023) ح(20) ، وأخرجه النسائي في «التفسير» (388) ، وأخرجه أحمد في المسند (380/1) ، (431 - 434) ، (462/1) .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4810) - كتاب التفسير ، سورة الزمر ، آية (53) . ورواه مسلم . ورواه ابن جرير في «التفسير» (26504) .

انتشار القتل وهو الهرج غالباً ما يتبعه استباحة الأعراض وركوب الفواحش ، نعوذ بالله من حال المجرمين والمستكبرين والمشركين .

وقوله : ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ . أي يلق من الله تعالى جزاء إثمه عقوبة ونكالا . والأثام : العقاب .

وقوله تعالى : ﴿ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴾ .

قال النسفي : (أي يعذب على مرور الأيام في الآخرة عذاباً على عذاب . وقيل إذا ارتكب المشرک معاصي مع الشرك عذب على الشرك وعلى المعاصي جميعاً ، فتضاعف العقوبة لمضاعفة المعاقب عليه . ويخلد ﴿ فِيهِ ﴾ في العذاب . ﴿ مُهَانًا ﴾ حال أي ذليلاً) .

وقال القاسمي : ﴿ مُهَانًا ﴾ أي ذليلاً محتقراً جامعاً لعذابي الجسم والروح) .

قلت : ولا شك أنّ هذا اللفظ ﴿ مُهَانًا ﴾ فيه مبالغة في الوعيد مما ينتظر المشركين يوم القيامة ، من الإهانة والاحتقار والمذلة والصغار .

أخرج الترمذي بسند حسن عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : [يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال ، يغشاهم الدل من كل مكان ، يُساقون إلى سجن في جهنم يُسمى بُؤْس ، تعلوهم نار الأنيار ، يُسْقَوْنَ من عصارة أهل النار ، طينة الخبال] (1) .

وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ .

أي : إلا من راجع طاعة ربه بالتوبة والإنابة وتصحيح الإيمان وامتنال صالح العمل فأولئك تصير سيئاتهم حسنات والله غفور رحيم .

أخرج الشيخان عن سعيد بن جبیر قال : [أمرني عبد الرحمن بن أبزى قال : سل ابن عباس عن هاتين الآيتين ما أمرهما؟] ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ ، ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا ﴾ . فسألت ابن عباس فقال : لَمَّا نزلت التي في الفرقان قال مشركوا أهل مكة : قد قتلنا النفس التي حَرَّمَ الله ، ودعونا مع الله إلهاً آخر ، وقد آتينا الفواحش ! فأنزل الله : ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ ﴾ . وأما التي في النساء الرجل إذا عرف الإسلام

(1) حديث حسن . أخرجه الترمذي في السنن (2492) . انظر صحيح سنن الترمذي (2025) ، وأخرجه أحمد . انظر صحيح الجامع (7896) .

وشرائعه ثم قتل فجزأوه جهنم خالداً فيها . فذكرته لمجاهد فقال : [إلا من ندم]⁽¹⁾ .

وله شاهد عند الطبراني بسند حسن عن زيد بن ثابت قال : [لما نزلت هذه الآية التي في «الفرقان» : ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ عَجَبْنَا لِلَّيْنِهَا ، فلبثنا ستة أشهر ، ثم نزلت التي في «النساء» : ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَعُضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ﴾ حتى فرغ .

وعن سعيد بن المسيب : ﴿فَأُولَئِكَ يَبْدُلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ قال : (تصير سيئاتهم حسنات لهم يوم القيامة) .

وعن ابن زيد قال : ﴿(إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ)﴾ قال : تاب من الشرك ، قال : وآمن بعقاب الله ورسوله ﴿وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾ ، قال : صدق ، ﴿فَأُولَئِكَ يَبْدُلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ قال : يبدل الله أعمالهم السيئة التي كانت في الشرك بالأعمال الصالحة حين دخلوا في الإيمان .

قلت : فصدق الإيمان بالله مع التوبة الصادقة يقابله الله تعالى بتبديل السيئات التي تيب منها حسنات .

فقد أخرج الحاكم بسند حسن عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : [لَيَتَمَنَّنَ أَقْوَامٌ لَوْ أَكْثَرُوا مِنَ السَّيِّئَاتِ ، قَالُوا : بِمَ يَأْرَسُولُ اللَّهِ ؟ قَالَ : الَّذِينَ بَدَّلَ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ]⁽²⁾ .

وقوله : ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ . أي : وكان الله ولم يزل ذا عفو عن ذنوب من تاب من عبادته ، واستقبل طاعته وتعظيم أمره ، وذا رحمة به أن يعاقبه على ما سلف من الذنوب بعد صدق التوبة منها .

وقوله تعالى : ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ .

أي : ومن يترك المعاصي ويندم عليها ويدخل في العمل الصالح ، فإنه بذلك تائب إلى الله متاباً مَرْضِيّاً عنده ، مكفراً للخطايا ، محصلاً للثواب . قرّره الزمخشري .

قلت : والآية تدل أن التماس العمل الصالح والمثابرة عليه يؤكد صحة التوبة ويرجى من جراء هذه المثابرة قبولها .

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4765) - كتاب التفسير ، وكذلك (3855) كتاب مناقب الأنصار ، ورواه مسلم (3023) ح (19) (20) - كتاب التفسير . وانظر للشاهد «المعجم الكبير» للطبراني (4869/150/5) ، وسنده حسن في المتابعات والشواهد ، كما في السلسلة الصحيحة (2799) .

(2) أخرجه الحاكم (252/4) ، ورجاله ثقات . وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (2177) .

وفي التنزيل نحو ذلك :

1 - قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَحْدِ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [النساء : 110] .

2 - وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّ الْعَالَمِينَ وَالشَّهَادَةُ فَيَنْتَعَكُم بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة : 104 - 105] .

ومن صحيح السنة العطرة في آفاق ذلك أحاديث :

الحديث الأول: روى مسلم في صحيحه عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : [إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مَسِيءُ النَّهَارِ ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مَسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا] (1) .

الحديث الثاني: خَرَجَ مُسْلِمٌ فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَنَسٍ قَالَ : [جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! أَصَبْتُ حَدًّا فَأَقِمُهُ عَلَيَّ ، قَالَ : وَحَضَرْتَ الصَّلَاةَ فَصَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَلَمَّا قَضَى الصَّلَاةَ قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! إِنِّي أَصَبْتُ حَدًّا فَأَقِمُ فِيَّ كِتَابَ اللَّهِ ، قَالَ : هَلْ حَضَرْتَ مَعَنَا الصَّلَاةَ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : فَذُغِفَرِ لَكَ] (2) .

وفي رواية: [فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : أَرَأَيْتَ حِينَ خَرَجْتَ مِنْ بَيْتِكَ ، أَلَيْسَ قَدْ تَوَضَّأْتَ فَأَحْسَنْتَ الْوُضُوءَ ؟ قَالَ : بَلَى ، يَا رَسُولَ اللَّهِ ! قَالَ : ثُمَّ شَهِدْتَ الصَّلَاةَ مَعَنَا ؟ قَالَ : نَعَمْ ، يَا رَسُولَ اللَّهِ ! قَالَ : فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ غَفَرَ لَكَ حَدَّكَ ، أَوْ قَالَ : ذَنْبَكَ] .

الحديث الثالث: أَخْرَجَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ الْمَقْدَامِ بْنِ مَعْدٍ يَكْرِبُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : [لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللَّهِ سِتُّ خِصَالٍ : يُغْفَرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دُفْعَةٍ وَيُرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ . .] الْحَدِيثُ (3) .

وفي لفظ : [يُغْفَرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دُفْعَةٍ مِنْ دَمِهِ ، وَيُرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ] .

- (1) حديث صحيح . أخرجه مسلم (2759) - كتاب التوبة . باب قبول التوبة من الذنوب .
- (2) حديث صحيح . أخرجه مسلم (2764) - (2765) - كتاب التوبة ، باب قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ الْسَّيِّئَاتِ ﴾ [هود : 114] . وانظر في الباب الحديث (2763) .
- (3) حديث صحيح . انظر صحيح سنن الترمذي (1358) ، وصحيح الجامع (5058) ، بلفظ : «لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللَّهِ سَبْعُ خِصَالٍ . .» ، وكذلك «أَحْكَامُ الْجَنَائِزِ» (35 - 36) .

فانظر إلى أثر المبادرة بالعمل الصالح كالاستغفار طرفي النهار وفي الليل ،
والحرص على صلاة الجماعة في المسجد ، والجهاد في سبيل الله ، في تأكيد صحة
التوبة ورجاء قبولها .

72 - 74. قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ۚ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ۚ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْ لَنَا لِمَتَّقِينَ إِمَامًا ۚ﴾

في هذه الآيات: استمرار المدح والثناء من الله تعالى لعباده المؤمنين ، فهم
لا يشهدون الزور ويتعدون عن اللغو وإذا ذُكِّروا بآياته سبحانه أصغوا إليها منصفين ،
وهم مثابرون في دعائهم يسألون ربهم أن يهب لهم من أزواجهم وذرياتهم قرّة أعين وأن
يجعلهم أئمة وأسوة للمتقين .

فقوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ .

قال الضحاك: (الشرك). وقال مجاهد: (لا يسمعون الغناء). وقال ابن جريج:
﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ قال: (الكذب).

قلت: وفي لغة العرب: (الزُّور: الكذب). والتزوير: تزيين الكذب. قال الرازي:
(و«زَوَّرَ» الشيء «تزويراً» حَسَنَهُ وَقَوَّمَهُ). فوصف الله عباده المؤمنين بأنهم لا يحضرون
مجالس الزور ، فيدخل فيها مجالس المجون والكذب والباطل ، وأشدّ ذلك - أو من
أشدّه - شهادة الزور .

قال النسفي: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ أي الكذب ، يعني ينفرون عن محاضر
الكذابين ومجالس الخطائين فلا يقربونها تنزهاً عن مخالطة الشر وأهله ، إذ مشاهدة
الباطل شركة فيه ، وكذلك النظارة إلى ما لم تسوغه الشريعة هم شركاء فاعليه في
الآثام ، لأن حضورهم ونظرهم دليل الرضا وسبب وجود الزيادة فيه . قال: أو
لا يشهدون شهادة الزور على حذف المضاف).

وفي التنزيل:

1- قال تعالى: ﴿وَأَجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج: 30].

2- وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: 36].

وفي السنة العطرة من آفاق مفهوم هذه الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم والترمذي عن أبي بكر رضي الله عنه قال: [قال رسول الله ﷺ: ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ - ثلاثاً - قلنا: بلى يا رسول الله ، قال: الإشراف بالله وعقوق الوالدين . وكان منكثاً فجلس فقال: «ألا وقول الزور ، وشهادة الزور ، ألا وقول الزور ، وشهادة الزور» ، فما زال يقولها حتى قلت: لا يسكت⁽¹⁾ . وفي لفظ: [فما زال يكررها حتى قلنا: ليتته سكت].

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي عن ابن مسعود رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال: [مَنْ حَلَفَ عَلَى مَالِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِغَيْرِ حَقِّهِ ، لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانِ . قال: ثم قرأ علينا رسول الله ﷺ مضداً من كتاب الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ عَهْدَ اللَّهِ وَآيَمَنَهُمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران: 77] إلى آخر الآية⁽²⁾ .

الحديث الثالث: أخرج البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ قال: [الكبائر: الإشراف بالله ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس ، واليمين الغموس]⁽³⁾ .

الحديث الرابع: أخرج الترمذي بسند حسن من حديث جابر أن النبي ﷺ قال: [من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فلا يجلس على مائدة يداور عليها الخمر]⁽⁴⁾ . وقوله: ﴿وَلِذَا مَرُّوا بِاللَّغَوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ .

أي: وإذا حصل لهم مرور بمجالس الفحش أو الباطل مروا معرضين مكرمين

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (5976) - كتاب الأدب ، باب: عقوق الوالدين من الكبائر ، وانظر (5977) ، ورواه مسلم (87) ، ورواه الترمذي (1901) .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (485/11) ، ومسلم (138) ، وأبو داود (3243) ، والترمذي (1269) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(3) حديث صحيح . أخرجه البخاري في صحيحه (482/11) ، وكذلك (483/11) .

(4) حديث حسن . أخرجه الترمذي في السنن - حديث رقم - (2965) - باب ما جاء في دخول الحمام . انظر صحيح سنن الترمذي - حديث رقم - (2246) .

أنفسهم عن التلوث برجس تلك المجالس ، متزهين عن التدنس بما فيها من اللغو والفساد. قال الحسن: (اللغو كله: المعاصي). وعن سيار: (إذا مرّوا بالرفث كفّوا). وقال مجاهد: (إذا أودوا مروا كراماً ، قال: صفحوا).

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾.

قال قتادة: (يقول: لم يَصُمُّوا عن الحق ولم يَغْمُوا فيه ، فهم - والله - قوم عقلوا عن الحق ، وانتفعوا بما سمعوا من كتابه).

وقال الحسن البصري: (كم من رجل يقرأها ويخرّ عليها أصمّ أعمى). وعن مجاهد: ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ فلا يسمعون ، ولا يبصرون ، ولا يفقهون حقاً). قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: والذين إذا ذكّرهم مذكّر بحجج الله ، لم يكونوا صُمًّا لا يسمعون ، وعمياً لا يبصرونها. ولكنهم يقاطّ القلوب ، فهماء العقول ، يفهمون عن الله ما يذكّرهم به ، ويفهمون عنه ما ينبههم عليه ، فيوعون مواعظه آذاناً سمعته ، وقلوباً وعته).

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْ لَنَا لِمُنْفِقِينَ إِمَامًا﴾.

هو من جوامع الدعاء الذي أوحاه الله في صفة رجاء عباده المؤمنين ، فهم يرغبون إلى ربهم عز وجل في دعائهم ومسألتهم أن يجعل في أزواجهم وذرياتهم ما تقرّ به أعينهم حين يرونهم يقومون بطاعة الله ويعملون بهديه. وفي آفاق ذلك تكلم المفسرون:

1 - قال ابن عباس: (قوله: ﴿هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ يعنون: من يعمل لك بالطاعة ، فتقرّ بهم أعيننا في الدنيا والآخرة).

2 - وعن الحسن قال: (المؤمن يرى زوجته وولده يطيعون الله).

3 - وعن ابن جريج قال: (قوله: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ قال: يعبدونك يحسنون عبادتك ، ولا يجزّون علينا الجرائر).

4 - وقال ابن زيد: (يسألون الله لأزواجهم وذرياتهم أن يهديهم للإسلام).

أخرج الإمام أحمد في المسند ، بإسناد صحيح ، عن عبد الرحمن بن جُبَيْر بن نَفِير ، عن أبيه قال: [جلسنا إلى المقداد بن الأسود يوماً ، فمرّ به رجل فقال: طُوبَى

لهاتين العينين اللتين رأتا رسول الله ﷺ! لَوَدِدْنَا أَنَا رَأَيْنَا مَا رَأَيْتَ ، وشهدنا ما شهدت . فاستغضب ، فجعلتُ أعجب ، ما قال إلا خيراً! ثم أقبل إليه فقال: ما يحمل الرجل على أن يتمنى مَحْضَرًا عَيْنَهُ الله عنه ، لا يدري لو شَهِدَهُ كيف كان يكونُ فيه؟ والله لقد حَضَرَ رسول الله ﷺ أَقْوَامٌ أَكْبَهُمُ الله على مَنَاحِرِهِمْ في جَهَنَّمَ ، لم يجيبوه ولم يُصَدِّقوه ، أولا تحمدون الله إذا أخرجكم لا تعرفون إلا ربكم مُصَدِّقِينَ لما جاء به نبيُّكم ، قد كُفِيتُم البلاء بغيركم؟ لقد بعث الله النبي ﷺ على أشدِّ حالٍ بعثَ عليها نبيًّا من الأنبياء في فترةٍ من جاهلية ، ما يرون أنَّ ديناً أفضلَ من عبادة الأوثان . فجاء بِفُرْقَانٍ فَرَّقَ به بين الحق والباطل ، وفَرَّقَ بين الوالدِ وولده ، إن كان الرجل ليرى والده وولده ، أو أخاه كافراً ، وقد فتح الله قُفْلَ قلبه للإيمان ، يعلمُ أنه إن هلكَ دَخَلَ النارَ ، فلا تَقْرُ عينُهُ وهو يعلم أن حبيبه في النار ، وإِنَّهَا التي قال الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا ذُرِّيَّتًا قَسْرَةً أَعْيِبْ ﴾ [1].

وأما قوله: ﴿ وَأَجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ - فيه أقوال متكاملة:

1 - قال ابن عباس: (يقول: أئمة يقتدى بنا). قال إبراهيم النخعي: (لم يطلبوا الرياسة بل بأن يكونوا قدوة في الدين).

2 - وقال مجاهد: (أئمة نفتدي بمن قبلنا ، ونكون أئمة لمن بعدنا).

3 - وقال آخرون: ﴿ وَأَجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾: هداة مهتدين ودعاة إلى الخير).

4 - وقال مكحول: (اجعلنا أئمة في التقوى يقتدي بنا المتقون).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 - قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لِمَا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: 24].

2 - وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ أُنْتَقِيَ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: 124].

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (3/6) بإسناد صحيح. وأورده الحافظ ابن كثير في التفسير عند هذه الآية ، وقال: وهذا إسناد صحيح ، ولم يُخرجوه ، وهو كما قال.

وفي الموطأ: «إنكم أيها الرهط أئمة يقتدى بكم» - فكان ابن عمر يقول في دعائه: [اللهم اجعلنا من أئمة المتقين]⁽¹⁾.

ومن كنوز صحيح السنة في آفاق هذه الآية:

الحديث الأول: أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن ابن عمر قال: [لم يكن رسول الله ﷺ يدع هؤلاء الدعوات. حين يمسي وحين يصبح:

«اللهم! إني أسألك العفو والعافية في الدنيا والآخرة. اللهم! أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي، وأهلي ومالي. اللهم! استر عوراتي، وآمن روعاتي واحفظني من بين يدي، ومن خلفي، وعن يميني وعن شمالي، ومن فوقي. وأعوذ بك أن أغتال من تحتي»]⁽²⁾. قال وكيع: (يعني الخسف).

الحديث الثاني: أخرج البزار والحاكم بسند صحيح عن ابن عباس رفعه إلى النبي ﷺ قال: [إن الله ليرفع ذرية المؤمن إليه في درجته، وإن كانوا دونه في العمل، لتقر بهم عينه، ثم قرأ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ﴾ [الطور: 21] الآية، ثم قال: وما نقصنا الآباء بما أعطينا البنين]⁽³⁾.

الحديث الثالث: خرج مسلم في صحيحه في كتاب الوصية - باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته - عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: [إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له]⁽⁴⁾.

75 - 77. قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَلِلْقَوْمِ

فِيهَا نَجَاتٌ وَسَلَامٌ ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسَنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ

(1) ذكره مالك في «الموطأ» (1/ 219) عن ابن عمر بلاغاً.

(2) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (3871) - كتاب الدعاء. باب ما يدعو به الرجل إذا أصبح وإذا أمسى. انظر صحيح سنن ابن ماجة (3121).

(3) حديث صحيح. أخرجه البزار ص (221)، وابن عدي (ق 1/ 270)، والبخاري في التفسير (82/ 8)، والحاكم (2/ 468) من طرق، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (2490).

(4) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1631) - كتاب الوصية، ورواه أكثر أهل السنن.

رَبِّ لَوْلَا دَعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾ .

في هذه الآيات: إخبارُ الله تعالى عن جزيل الثواب وحسن الاستقبال لأولئك العباد المتقين في جنات النعيم ، التي حسنت مستقراً ومنزلاً للصالحين ، وجزاء التكذيب الخزي والمذلة للمكذبين في الدارين .

فقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ خبر للمبتدأ ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ في بداية الآيات ، وما تخلل بين المبتدأ وخبره أوصافهم من التحلي والتخلي ، وهي إحدى عشرة - كما ذكر القرطبي -: (التواضع ، والحلم ، والتهجد ، والخوف ، وترك الإسراف والإقتار ، والنزاهة عن الشرك ، والزنى والقتل ، والتوبة وتجنب الكذب ، والعفو عن المسيء ، وقبول المواعظ ، والابتغال إلى الله) .

وقوله: ﴿يَجْزُونَ الْعُرْفَةَ﴾ . قال ابن جرير: (يقول: يثابون على أفعالهم هذه التي فعلوها في الدنيا ﴿الْعُرْفَةَ﴾ وهي منزلة من منازل الجنة رفيعة) .

وقال القرطبي: (و«الْعُرْفَةُ» الدرجة الرفيعة وهي أعلى منازل الجنة وأفضلها كما أن الغرفة أعلى مساكن الدنيا . حكاه ابن شجرة) . وعن الضحاك: (الغرفة: الجنة) . وقال السدي: (سُمِّيَتْ بذلك لارتفاعها) .

وقوله: ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ . قال محمد بن علي بن الحسين: ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ على الفقر والفاقة في الدنيا) . وقال الضحاك: ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ عن الشهوات) .

قلت: والمقصود أعم من ذلك ، فإنهم أثبوا على صبرهم على إقامة الدين ومقارعة الطغاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وقوله: ﴿وَيُلْقَوْنَ فِيهَا نَجِيَّةً وَسَلَامًا﴾ . أي يستقبلون في الجنة بالتحية والسلام في توقيير مستمر . قال ابن كثير: (أي يُتَدَرَّون فيها بالتحية والإكرام ، وَيُلْقَوْنَ التوقيير والاحترام ، فلهم السلام وعليهم السلام) .

وفي التنزيل نحو ذلك :

1 - قال تعالى: ﴿وَالْمَلَكُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٦﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: 23 - 24] .

2 - وقال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: 73] .

3 - وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكِهِونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّيلٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِفُونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ [يس: 55 - 58].

وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [ينادي مُنَادٍ: إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقُمُوا أَبَدًا ، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَخْيُوا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا ، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشْبُوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا ، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا. فذلك قوله عز وجل: ﴿وَتُودُّوْنَ أَنْ تَلْكُمُ الْجَنَّةُ أَوْ رِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾] (1).
وقوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾.

أي: ما كنون فيها طابت منزلًا ومقامًا وحسنت مقيلًا ونعيمًا.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَنْعَمُ لَا يَبْأَسُ ، لَا تَبْلَى ثِيَابُهُ وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُ] (2).

وفي صحيح مسلم عنه أيضاً أَنَّ النبي ﷺ قال: [قال الله عز وجل: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، دُخْرًا ، بَلَاءً ما أطلعكم الله عليه] (3).

وقوله: ﴿قُلْ مَا يَعْبُؤُا بِكُورِي﴾. أي: لا يبالي بكم ولا يكثرث بكم إن اخترتم غير منهاج عبادته وتعظيمه. قال ابن زيد: ﴿قُلْ مَا يَعْبُؤُا بِكُورِي﴾ يصنع لولا دعاؤكم). وقال مجاهد: (يعبأ: يفعل).

وقوله: ﴿لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾. أي: لولا طاعتكم وإيمانكم وعبادتكم.

قال ابن عباس: (يقول: لولا إيمانكم ، وأخبر الله الكفار أنه لا حاجة له بهم إذ لم يخلقهم مؤمنين ، ولو كان له بهم حاجة لحبب إليهم الإيمان كما حببته إلى المؤمنين). وقال مجاهد: ﴿لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾: لولا دعاؤكم إياه لتعبده وتطيعوه).

وقوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾. قال ابن عباس: (فقد كذب الكافرون أعداء الله).

وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾. أي: حلول العذاب في الدنيا والنكال يوم القيامة.

- (1) حديث صحيح. رواه مسلم (2837) - كتاب الجنة ونعيمها ، باب في دوام نعيم أهل الجنة.
- (2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (2836) - كتاب الجنة ونعيمها. الباب السابق.
- (3) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه (2824) ح (3) - كتاب الجنة ، وصفة نعيمها وأهلها.

قال ابن مسعود: (فسوف يلقون لزماً يوم بدر). وقال أبي بن كعب: (هو القتل يوم بدر). وقال ابن زيد: (اللزام: القتال. فسوف يكون قتالاً). وعن ابن عباس: (قال: موتاً). وقال الحسن البصري: ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِرَآمًا﴾ ، يعني: يوم القيامة).

قُلْتُ: ولا تعارض بين القولين ، فإن المقصود أن تكذيب الكافرين ستلزمهم تبعاته ، سواء في الإهانة والمذلة بالقتل والسبي في الدنيا ، أو بالفضيحة والخزي وعذاب الحريق يوم القيامة .

ويجمع هذه المعاني كلها ما رواه مسلم في صحيحه وأحمد في مسنده عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: [يا عبادي إني حرّمتُ الظلم على نفسي وجعلته بينكم مُحَرَّماً فلا تظالموا ، يا عبادي كُلُّكُمْ ضالٌ إلا من هديته فاستهدوني أهدكم ، يا عبادي كلکم جائعٌ إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم ، يا عبادي كلکم عارٌ إلا من كسوته فاستكسوني أكسُكم ، يا عبادي إنکم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لکم ، يا عبادي إنکم لن تبلغوا ضُرِّي فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني ، يا عبادي لو أنّ أولکم وآخرکم وإنسکم وجنکم كانوا على اتقى قلب رجل واحد منکم ، ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ، يا عبادي لو أنّ أولکم وآخرکم وإنسکم وجنکم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منکم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً ، يا عبادي لو أنّ أولکم وآخرکم وإنسکم وجنکم قاموا في صعيد واحد ، فسألوني ، فأعطيت كل إنسان مسألته ، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المِخِيطُ إذا أدخل البحر ، يا عبادي إنما هي أعمالکم ، أحصیها لکم ثم أوفیکم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا یلومنَّ إلا نفسه] (1).

تم تفسير سورة الفرقان بعون الله وتوفيقه ،

وواسع منه وكرمه.



(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح (8 / 17) ، وأخرجه أحمد في المسند (5 / 160) .

دروس ونتائج وأحكام

- 1 - مقام العبودية أرفع مقام ، وقد أثنى الله به على نبينا عليه الصلاة والسلام .
- 2 - تَنَزَّهَ الله تعالى عن الشريك والولد ، فله ملك كل شيء وهو الواحد الأحد .
- 3 - اقتضاء حكمة الله جعل الجهاد في الدنيا لإعلاء كلمة الحق لا لسكنى القصور والنظر في الأموال ، وأن يكون هذا القرآن بما بسط الله فيه من الآيات البديعة مصدر الإيمان والاستدلال ، وقد هيا الله في الدار الآخرة من النعيم لأوليائه ما يعجز عنه الوصف والخيال .
- 4 - البور : الذي ليس فيه من الخير شيء . والمشركون هم الهالكون .
- 5 - الله تعالى أغنى الشركاء عن الشرك ، ومن يشرك بالله يترك وشركه .
- 6 - الحِجْر في كلام العرب : الحرام . والمشركون يقولون يوم يرون الملائكة : حِجْراً مَحْجُوراً . أي حراماً محرماً أن ينعموا بالبشرى .
- 7 - الخيمة في الجنة دَرَّة طولها ستون ميلاً ، في كل زاوية أهل للمؤمن لا يراهم الآخرون ، يطوف عليهم المؤمن .
- 8 - النصر مع الصبر ، والفرج مع الكرب ، وإنَّ مع العسر يُسرّاً .
- 9 - يُحْشَر الكافر على وجهه يوم القيامة ، فالذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادر على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة .
- 10 - الكافر إذا عمل حسنة أطعم بها طُعْمَةً من الدنيا ، والمؤمن يدخر الله له حسناته في الآخرة ، ويُعْقبه رِزْقاً في الدنيا على طاعته .
- 11 - ما من عام بأكثر مطراً من عام ، ولكن الله يصرفه بين خلقه حيث يشاء . فإذا عمل الناس بالمعاصي صرف الله المياه إلى الفيافي والبحار .

- 12 - البحر: هو الطهور ماؤه ، الحِلّ ميّته .
- 13 - أحبّ الكلام إلى الله تعالى : سبحان الله وبحمده . وأحبّ الأسماء إليه : عبد الله ، وعبد الرحمان .
- 14 - في الجنة غرفة يُرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها ، وهي لمن أطاب الكلام ، وأطعم الطعام ، وبات قائماً والناس نيام .
- 15 - أكبر الذنوب : الشرك بالله ، وقتل الرجل ولده خشية إطعامه ، والزنى بحليلة جاره .
- 16 - ليمتنين أقوام لو أكثروا من السيئات : الذين بدّل الله سيئاتهم حسنات .
- 17 - يسط الله يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويسطّ يده بالنهار ليتوب مسيء الليل ، حتى تطلع الشمس من مغربها .
- 18 - من حلف على مال امرئ مسلم بغير حقّه ، لقي الله وهو عليه غضبان .
- 19 - إن الله ليرفع ذرية المؤمن إليه في درجته في الجنة وإن كانوا دونه في العمل لتقرّ بهم عينه .
- 20 - مَنْ يدخل الجنة ينعم لا يبأس ، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه ، فجزاء التقوى جنات النعيم ، وجزاء التكذيب بالحق الخزي في الدارين .



26



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (227)

موضوع السورة

هلاك المكذبين من الأمم والشعراء .

- منهاج السورة -

- 1 - انتصار الله تعالى للقرآن ، وتسلية للنبي عليه الصلاة والسلام .
- 2 - تكذيب المشركين بالحق ، وسيأتهم أنباء ما كانوا به يستهزئون ، فهلاً نظروا كيف ينبت الله من كل زوج كريم ، إن في ذلك لآية من الله العزيز الرحيم .
- 3 - ذكر مناداة الله موسى وتكليمه ، ومدّه بأخيه هارون ليعينه ، وحواره مع فرعون وتكذيبه ، وجمعه السحرة لتثبيت سلطانه ، وإيمان السحرة وكفرهم به ، وشروع فرعون بالتهديد والبطش والتوعد للسحرة الذي قبلوه بإيمان كالجبال ، ووصف نهاية فرعون وجنوده وغرقهم ونجاة موسى والمؤمنين بأمر الله الكبير المتعال .
- 4 - ثناء الله على خليله إبراهيم ، في براءته من أوثان المشركين ، وخضوعه الكامل لله رب العالمين ، وسؤاله النجاة يوم الدين .
- 5 - دُنُوُّ الجنة يوم القيامة للمتقين ، وتكدر المشركين في نار جهنم صاغرين .

- 6 - تكذيب قوم نوح المرسلين ، وحثهم له على طرد المؤمنين ، واستمرارهم بالعناد والكفر حتى دكهم الطوفان فأغرقهم أجمعين .
- 7 - تكذيب عاد رسولهم وإصرارهم على الشرك والكبر ، حتى جاء أمر هلاكهم من الله العزيز الحكيم ، وقد كان سبق في علمه أن أكثرهم لا يؤمنون .
- 8 - تكذيب ثمود نبيهم وعقرهم الناقة وقصة إهلاكهم .
- 9 - تكذيب قوم لوط رسولهم ، وإصرارهم على الفاحشة حتى قلب الله عليهم مدينتهم ، وأمطر عليهم حجارة فأهلكهم .
- 10 - تكذيب أهل مدين نبيهم ، والعبث بحقوق الناس وكيلهم ، حتى جاء أمر الله بنزول نعمته بهم .
- 11 - نزول جبريل بهذا القرآن بلسان عربي مبين ، وخبر القرآن في كتب الأولين .
- 12 - سؤال المشركين حين نزول العذاب بهم النظرة والإمهال ، وسنة الله في أهل القرى أن لا يهلكهم حتى يأتيهم الإنذار .
- 13 - حفظ الله القرآن عن أيدي الشياطين وسمعهم برمي الشُّهب عليهم .
- 14 - الأمر بالبدء بإنذار العشيرة والأقربين ، وخفض الجناح للمؤمنين .
- 15 - تنزلُ الشياطين على الأفاكين الآثمين ، وذمّ الشعراء الضالين المنافقين ، واستثناء المؤمنين الصالحين الذين ينتصرون للحق ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

1-9. قوله تعالى: ﴿طَسَمَ ۝ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ لَعَلَّكَ بَدِيعُ فَنَسَكَ ۝ لَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝ إِن نَّشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ۝ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدِّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَتُوا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَبْلَيْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝ إِن فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝﴾.

في هذه الآيات: انتصاراً لهذا القرآن وتسلياً للنبي الكريم ، وذكر حكمة الله تعالى في اختيار العباد أحد الطريقتين ، فالمشركون معرضون مكذبون وسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون. فهلاً نظروا إلى الأرض كيف ينبت الله فيها من كل زوج كريم؟! إن في ذلك لآية من الله العزيز الرحيم ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون.
قوله تعالى: ﴿طَسَمَ﴾.

تقدم القول في مفهوم الحروف المقطعة في أوائل السور ، وأن غاية ما يقال: إن هذا القرآن هو من جنس هذه الأحرف ، وهذه السورة الجامعة لتاريخ الأمم مع رسلها ومفهوم الخلق من مبدئه إلى منتهاه قد صيغت في بيان رائع من مثل هذه الحروف التي يتكلم العرب ويتخاطبون بها ، ومع ذلك هم عاجزون عن معارضة هذا القرآن بمثله أو بسورة نحوه ، أضف إلى ذلك ذكر الانتصار لهذا الكتاب المعجز بعد ذكر هذه الأحرف.

قال ابن القيم رحمه الله في «الكافية الشافية»:

وانظر إلى السور التي افتتحت بأحرفها ترى سراً عظيماً الشان
لم يأت قط بسورة إلا أتى في إثرها خبر عن القرآن
إذ كان إخباراً به عنها وفي هذا الشفاء لطالب الإيمان

ويدل أن كلامه هو نفسها لا غيرها ، والحق ذو تبيان
فانظر إلى مبدا الكتاب وبعدها ال أعراف ثم كذا إلى لقمان
مع تلوها أيضاً ومع حم مع يس وافهم مقتضى الفرقان
وقوله تعالى: ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ .

أي: هذه آيات هذا القرآن البين الجلي ، الفرقان الذي يفرق بين الحق والباطل .
وقوله تعالى: ﴿ لَعَلَّكَ بَخْعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ .

أي: لعلك - يا محمد - مهلك نفسك إن أصر قومك على كفرهم .
والبخع في كلام العرب: القتل والإهلاك . قال الرازي: (بَخَعَ نفسه قتلها عمًا) .
وعن ابن عباس: ﴿ بَخِعَ نَفْسَكَ ﴾: قاتل نفسك . قال قتادة: (لعلك من الحرص
على إيمانهم مخرج نفسك من جسدك ، قال: ذلك البخع) .
وقوله تعالى: ﴿ إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ .

أي: إن نشأ أن نزل عليهم آية تحملهم على الإيمان قهراً ، وتضطرهم إلى الإذعان
للحق جبراً ، لفعلنا ذلك ، ولكن لا نريد لأحد أن يؤمن إلا باختياره ، فمضت حكمة
الله بإرسال الرسل وإنزال الكتب .

قال ابن جريج: (لو شاء الله لأراهم أمراً من أمره لا يعمل أحد منهم بعده بمعصية) .
وعن ابن عباس: (قوله: ﴿ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ قال: ملقين أعناقهم) .
وعن مجاهد: (فظلوا خاضعة أعناقهم لها) . وقال ابن زيد: (الخاضع: الذليل) .
وخلاصة المعنى كما قال قتادة: (لو شاء الله لنزل عليه آية يذلون بها ، فلا يلوي
أحد عنقه إلى معصية الله) .

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 - قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى
يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: 99] .

2 - وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ ﴿ ۝ ١١٨ ﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ
رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴿ هود: 118 - 119 ﴾ .

يروى أبو نعيم في «الحلية» بسند حسن عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : [إِنَّ الله لو شاء أن لا يُعصى ما خلق إبليس⁽¹⁾].

ورواه البيهقي في «الأسماء» من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، قال النبي ﷺ لأبي بكر : [يا أبا بكر ! لو أراد الله أن لا يُعصى ما خلق إبليس].

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحدثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾ .

قال ابن جرير : (يقول تعالى ذكره : وما يجيء هؤلاء المشركين الذين يكذبونك ويجحدون ما أتيتهم به يا محمد من عند ربك من تذكير وتنبية على مواضع حجج الله عليهم على صدقك ، وحقيقة ما تدعوهم إليه مما يحدثه الله إليك ويوحيه إليك ، لتذكرهم به ، إلا أعرضوا عن استماعه ، وتركوا أعمال الفكر فيه وتدبيره).

وقوله تعالى : ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ .

وعيد وإنذار ، وتهديد بالهلاك والدمار ، لأولئك المتمادين في تكذيبك يا محمد .

قال النسفي : ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا ﴾ محمداً ﷺ فيما أتاهم به ﴿ فَسَيَأْتِيهِمْ ﴾ فسيعلمون ﴿ أَنْبَاءُ ﴾ أخبار ﴿ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ وهذا وعيد لهم وإنذار بأنهم سيعلمون إذا مسهم عذاب الله يوم بدر أو يوم القيامة ما الشيء الذي كانوا يستهزئون به وهو القرآن ، وسيأتهم أنباءه وأحواله التي كانت خافية عليهم).

وقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمَا أَنْبَأْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زوجٍ كريمٍ ﴾ .

تذكير بعظمته تعالى ، وتنبية إلى بعض آلائه جل ذكره .

أي : أولم ير هؤلاء المشركون المكذبون بالبعث من القبور ، والنشر إلى الأرض يوم النشور ، كم أنبأنا فيها بعد أن كانت ميتة لا نبات فيها ، من كل زوج كريم : أي حسن بهي من الزروع والثمار .

قال مجاهد : ﴿ أَنْبَأْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زوجٍ كريمٍ ﴾ قال : من نبات الأرض ، مما تأكل الناس والأنعام).

(1) حديث حسن . أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (6/92) ، والبيهقي في «الأسماء» (157) ، واللالكائي في «السنة» (1/141/1) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1642).

وعن قتادة: ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٌ﴾ قال: حسن).

قال الشعبي: (الناس من نبات الأرض ، فمن دخل الجنة فهو كريم ، ومن دخل النار فهو لئيم).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

أي: إن فيما ذكر من الإنبات في الأرض لدلالة على قدرة الله تعالى الذي لا يعجزه شيء ، ولكن أكثر الناس في غفلة وبعده عن الإيمان والصدق واليقين .

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

قال القرطبي: (يريد المنيع المنتقم من أعدائه ، الرحيم بأوليائه).

10 - 22. قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَنْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ

﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ﴿١٣﴾ وَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا بِأَيَّتِنَا أَنَا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأَتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ تُرَبِّكُنَا وَلِيدًا وَلِئْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكُ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعَلْتَكِ الْتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبْدْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٢﴾ .

في هذه الآيات: ذُكِرَ الله نداه عبده ورسوله وكنيته موسى عليه الصلاة والسلام حين ناداه وناجاه من جانب الطور الأيمن وأرسله إلى القوم الظالمين - أي الكافرين - قوم فرعون الطاغية يحذرهم بأس الله وعقابه كي يتقوه . فرغب موسى ﷺ إلى ربه تعالى بإزاحة أعدار يجدها: من خوف تكذيبه ، وضيق صدره ، وعدم انطلاق لسانه - للعلة القديمة التي كانت به - ، فرجا ربه أن يؤازره بأخيه هارون . ثم إن ذنب القتل الذي عليه يجعله يخشى ثأر القوم وبطشهم به ، فأيده ربه ليلبغ رسالته هو وهارون ، إلى فرعون الذي أخذ يمتن عليه برعايته أيام طفولته ويأخذ عليه ذنب القتل والفرار ، فقابله موسى بإساءته الأكبر من ذلك ، وهي جعله بني إسرائيل عبداً له وخداماً ، يقهرهم ويظلمهم .

والآيات الأولى من هذه الفقرة تشبه قوله تعالى في سورة طه: ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ۖ وَبَسِّرْ لِي أَمْرِي ۖ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ۖ يَفْقَهُوا قَوْلِي ۖ وَاجْعَلْ لِّي زِينَةً مِّنْ أَهْلِي ۖ هَؤُلَاءِ رِجَالُ يَصُدُّونَ عَنِّي إِذَا أَنَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَن يَكُونَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ حُزْبٌ ۖ وَارْتُكِبُ الْوُقُوفَ ۖ وَأَشْرِكُ فِي أَمْرِي ۖ كَيْ تَسْحَكَ كَثِيرًا ۖ وَتَذَكَّرُ كَثِيرًا ۖ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ۚ ۝٢٥ ۚ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَىٰ ۚ ﴾ [طه : 25 - 36].

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونُ﴾. قال مجاهد: (قتل النفس التي قتل منهم). وعن قتادة: (﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونُ﴾ يقول: فأخاف أن يقتلوني قوداً بالنفس التي قتلت منهم). والمقصود: قتله ذلك القبلي الذي كان سبب خروجه من بلاد مصر.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا يَتَّيِنَنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾.

أي: كلا لا تخف بطش القوم ، فاذهب أنت وهارون ، إني معكما بحفظي وكلائي ونصري وتأيدي. وفي التزويل نحو ذلك:

1 - قال تعالى: ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَدُ لَكُمَا سُلْطٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّدِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغٰلِبُونَ ﴾ [القصص: 35].

2- وقال تعالى: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمِعُ وَأَرَى ﴾ [طه: 46].

قلت: فجاءت صفة السمع والبصر لتفسر المعية. أي إنه سبحانه بذاته فوق عرشه معهما بسمعه وبصره. كما في الآية الأخرى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: 7]. قال الإمام البغوي الشافعي⁽¹⁾: (أي: إلا هو رابعهم بالعلم).

وقوله تعالى: ﴿فَاتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ .

قال ابن كثير: (وقال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّا رُسُلَا رَبِّكَ﴾ [طه: 47] ، أي: كلُّ منّا رسولٌ من ربك إليك ، ﴿أَن أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ ، أي: أطلقهم من إسارِكَ وقبضتكَ وقهركَ وتعذيبكَ ، فإنهم عباد الله المؤمنون ، وحِزْبُهُ المخلصون ، وهم معكَ في العذاب المهيّن . فلما قال له موسى ذلك أعرض فرعونُ عما هُناك بالكلية ، ونظر بعين الازدراء والعُصْص فقال: ﴿أَلَمْ تُرَبِّكْ فِينَا وَلَيْدًا وَلَيْسَتْ فِينَا مِنْ عَمْرِكَ سِنِينَ﴾ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعَلَتَكَ أَلَيْ فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ .

(1) هو الإمام محيي السنة أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي الشافعي صاحب «معالم التنزيل» (436 - 516 هـ). قال الذهبي: (كان محيي السنة من كبار أئمة المذهب، زاهداً، ورعاً، متعبداً، ألف كتاب «التهذيب» في المذهب فأتقنه، وصنف كتاب «شرح السنة»). انظر مختصر العلو (281).

وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾. قال القرطبي: (على جهة المنّ عليه والاحتقار. أي: ربيناك صغيراً ولم نقتلك في جملة من قتلنا).

وقال النسفي: (والوليد الصبي لقرب عهده من الولادة ، أي: ألم تكن صغيراً فربيناك).

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾. أي: مكثت فينا تحت نعمتنا لك مدة من السنين ، فمتى كان هذا الذي تدعيه؟!.

وقوله تعالى: ﴿وَفَعَلْتَ فَعَلْتَكِ الْتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾. أي: الجاحدين.

قال ابن زيد: (قال: ربيناك فينا وليداً ، فهذا الذي كافأنا أن قتلنا منا نفساً ، وكفرت نعمتنا). وعن ابن عباس: ﴿وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ يقول: كافراً للنعمة أن فرعون لم يكن يعلم ما الكفر).

فالمعنى: يقول فرعون: أفبعد أن أنعمنا عليك بالرعاية والتربية والإطعام مدة من السنين في بيتنا ، قابلت تلك النعمة أن قتلنا منا رجلاً ، وجحدت إحساننا إليك .

وقوله تعالى: ﴿قَالَ فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾. قال مجاهد: (من الجاهلين). أي: أقدمت على ذلك القتل قبل أن يوحى إليّ ويكرمني الله تعالى بالرسالة والنبوة.

وقوله تعالى: ﴿فَقَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خَفَّكُمُ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

قال القاسمي: (أي تقتلونني على القتل الخطأ ، فنجاني الله منكم ، وزادني إنعاماً ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ أي حكمة أو نبوة ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي: لإبطال دعواك الربوبية ، واستئصال شبه ما عليه قومك من الوثنية . وطلب إرسال قومي إلى مواطنهم الأصلية).

وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَى أَنْ عَبَّدَتْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾.

قال مجاهد: (قهرتهم واستعملتهم). وقال قتادة: (يقول موسى لفرعون: أتمنّ علي أن اتخذت أنت بني إسرائيل عبيداً). قال ابن كثير: (أي: وما أحسنت إليّ ورَبَّيْتَنِي مُقَابِلَ مَا أَسَأْتَ إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ! فجعلتهم عبيداً وخداماً ، تُصَرِّفُهُمْ فِي أَعْمَالِكَ وَمَشَاقِّ رَعِيَّتِكَ ، أَفِيْفِي إِحْسَانِكَ إِلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِمَا أَسَأْتَ إِلَى مَجْمُوعِهِمْ؟! . أي: ليس ما ذكرته شيئاً بالنسبة إلى ما فعلت بهم).

23 - 28. قوله تعالى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ .

في هذه الآيات: إخبارٌ من الله تعالى عن عتو فرعون وطغيانه ، وعن تمرّده وجحوده وعناده ، فهو يريد إثبات الربوبية لنفسه ، وموسى عليه السلام يحاجّه بقوارع الوحي ولوازم الربوبية التي لا تكون إلا لله رب السماوات والأرض والمشرق والمغرب ، ورب كل شيء ومليكه .

فقوله تعالى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ . فيه تطاول وممادة من فرعون اللعين ، لأنه صدّق كذبه حين قال: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ [القصص: 38] . ولأنه استجهل قومه واستصغر عقولهم كما قال تعالى: ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَّاعُوهُ ﴾ [الزخرف: 54] .

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴾ .

قال ابن جرير: ﴿ قَالَ ﴾ موسى هو ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ومالكهين ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ يقول: ومالك ما بين السماوات والأرض من شيء ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴾ يقول: إن كنتم موقنين أن ما تعينونه كما تعينونه ، فكذاك فأيقنوا أن ربنا هو رب السماوات والأرض وما بينهما).

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ .

محاولة من فرعون لكسب تأييد الجماهير له عن طريق الاستخفاف بقليل موسى له . قال القرطبي: (فقال فرعون: ﴿ أَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ على معنى الإغراء والتعجب من سفه المقالة إذ كانت عقيدة القوم أن فرعون ربهم ومعبودهم والفراغة قبله كذلك) .

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ .

أي: قال لهم موسى - حين أرادوا إظهار التعجب - بل هو الله تعالى ربكم ورب

آبائكم وأجدادكم. فجاء بدليل يفهمونه عنه ، ففناء الآباء والأجداد بانتظام واستمرار لا بد لتلك الحوادث من مُعَيَّرٍ ، ولا يُعقل أنها تجري جزافاً.

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ .

هو محاولة جديدة من فرعون لصرف قوة تأثير موسى على قومه عن طريق الاستخفاف والاتهام بالجنون ، شأن المفلسين من الحجة على مدار الزمان.

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .

قال النسفي: ﴿ إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ فتستدلون بما أقول فتعرفون ربكم ، وهذا غاية الإرشاد ، حيث عَمَّمَ أولاً بخلق السماوات والأرض وما بينهما ، ثم خَصَّصَ من العام للبيان أنفسهم وآباءهم ، لأن أقرب المنظور فيه من العاقل نفسه ومن ولد منه وما شاهد من أحواله من وقت ميلاده إلى وقت وفاته ، ثم خَصَّصَ المشرق والمغرب لأن طلوع الشمس من أحد الخافقين وغروبها في الآخر على تقدير مستقيم في فصول السنة ، وحساب مستو من أظهر ما استدل به).

والمقصود: أن موسى عليه الصلاة والسلام أراد تصغير فرعون وكبريائه أمام قومه بحجة الوحي البالغة ، فكأنه يقول له: إنك إن كنت تملك بلداً واحداً وقوماً تتحكم بحياتهم وشؤونهم فلست بشيء أمام مالك ما بين المشرق والمغرب وما بين السماوات والأرض فاعقلوا معشر السامعين.

29 - 37. قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذَتِ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ (٢٩)

قَالَ أَوْلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ: إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بِيضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَا نُؤُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ .

في هذه الآيات: تهديد فرعون لموسى إن صرف الإلهية لغيره ، ومقابلة موسى له بالآيات الباهرات ، والدلالات المعجزات ، واتهام فرعون له بالسحر وجمعه السحرة للانتصار لسلطانه وطغيانه.

فقوله تعالى: ﴿قَالَ لَئِنْ أَخَذْتِ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾.

لجوء من فرعون لبسط نفوذه وسلطانه لاحتواء الموقف قبل أن يتدهور ويكشف الكذب. فقال لموسى: لئن أقررت بمعبود غيري لأسجنتك مع من في السجن من أهله.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْلَوْجِثَّتْكَ إِنِّي وَمُيِّنٌ﴾.

قال ابن جرير: (- يقول - أتعلمني من المسجونين ﴿قَالَ أَوْلَوْجِثَّتْكَ إِنِّي وَمُيِّنٌ﴾ يبين لك صدق ما أقول يا فرعون وحقيقة ما أدعوك إليه. وإنما قال ذلك له ، لأن من أخلاق الناس السكون للإنصاف ، والإجابة إلى الحق بعد البيان).

وقوله تعالى: ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿٣٦﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ.

قال ابن عباس: (يقول: مبين له خلق حية).

وقوله تعالى: ﴿وَرَزَقَ يَدَهُ إِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظَرِ﴾. أي: وأخرج موسى يده من جيبه فإذا هي بيضاء تلمع لمن ينظر إليها. قال النسفي: (فيه دليل على أن بياضها كان شيئاً يجتمع النظارة على النظر إليه لخروجه عن العادة ، وكان بياضها نورياً).

وقوله تعالى: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾.

قال ابن كثير: (أي: فاضلٌ بارعٌ في السحر. فَرَوَّجَ عليهم فرعونُ أن هذا من قبيل السحر لا من قبيل المعجزة ، ثم هَيَّجَهُمْ وَحَرَّضَهُمْ على مخالفته والكفر به. فقال: ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ ، أي: أراد أن يذهب بقلوب الناس معه بسبب هذا ، فيكثر أعوانه وأنصاره وأتباعه ويغلبكم على دولتكم ، فيأخذ البلاد منكم ، فأشيروا عليّ فيه ماذا أصنع به؟).

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ ﴿٣٧﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ.

أي: فأجابوه قائلين: أخره وأخاه حتى تحشد له عمالقة السحر في أرجاء مملكتك ليقارعوا سحره بخبرتهم العالية في هذا الفن ، فتكون الغلبة لك في النهاية بعد اندحار أمره وانحسار سحره.

38 - 48. قوله تعالى: ﴿فَجَمَعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ

هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّآ نَنْبِغُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَنَا أَجْرٌ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعَصِيَّتَهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِهَابِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا أَمَّا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ .

في هذه الآيات: مجيء السحرة للميقات المعلوم ، وتقريب فرعون لهم ، واجتماع الناس لرؤية من تكون له الغلبة ، وابتداء السحرة المشهد بسحر حبالهم وعصيتهم ، وإلقاء موسى عصاه لتلقف ما يأفكون ، وليخر السحرة ساجدين ، معلنين الإيمان بالله رب العالمين ، رب موسى وهارون .

فقوله تعالى: ﴿ فَجَمَعَ السَّحَرَةَ لِيَقْتِ يَوْمَ مَعْلُومٍ ﴾ .

قال النسفي: (أي: يوم الزينة وميقاته وقت الضحى ، لأنه الوقت الذي وقته لهم موسى عليه السلام من يوم الزينة في قوله تعالى: ﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾ [طه: 59]) .

وقوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴾ .

قال القاسمي: (أي: لرؤية ما يعارض معجزة موسى . وكان خامر فؤادهم عجب منها واندهاش . والاستفهام مجاز عن الحث والاستعجال) .

وقوله تعالى: ﴿ لَعَلَّآ نَنْبِغُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ ﴾ .

قال ابن كثير: (وحشد الناس في الاجتماع ذلك اليوم ، وقال قائلهم: ﴿ لَعَلَّآ نَنْبِغُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ ﴾ ، ولم يقولوا: نَتَّبِعُ الحق سواء كان من السحرة أو من موسى ، بل الرعية على دين ملكهم) .

وقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَنَا أَجْرٌ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ .

أي: فلما جاء السحرة للمكان المخصص لهم وقد حشد فرعون حشمه وخدمه ووزرائه ورؤساء دولته وجنود مملكته ، كلم السحرة فرعون قبل الشروع في مهمتهم يذكرونه بما يأملون من الإحسان منه إليهم والرفع لمنزلتهم عنده إذا هم أفلحوا في

وظيفتهم وربحوا الجولة على موسى. فأجابهم: نعم وبكل تأكيد إنكم ستكونون من أخص المقربين ، ومن أقرب الجلساء والمعنيين .

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُّلقُونَ ﴿٤٦﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴾ .

أي: لما اطمأنوا من فرعون على ما يطمحون لديه من المنزلة بعد النصر ، عادوا إلى مقام المناظرة. وفي الكلام اختصار يفسره قوله تعالى: ﴿ قَالُوا يَمُوسَىٰ إِنَّمَا أَنْ تُلْقِيَ وَإِنَّمَا أَنْ تَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴾ ﴿٤٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا ﴿٤٦﴾ [طه: 65 - 66] .

فألحقوا حبالهم وعصيهم التي تشكل أدوات سحرهم وأقسموا بعزة فرعون ليكونن من يكسب هذه المنافسة والمناظرة. قال النسفي: (أقسموا بعزته وقوته وهو من أيمان الجاهلية). قال ابن كثير: (وهذا كما يقول الجاهلة من العوام إذا فعلوا شيئاً: هذا بثواب فلان).

وقوله تعالى: ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ .

فيه اختصار لتفصيل أكبر ورد في سورة الأعراف وطه .

1 - قال تعالى: ﴿ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف: 116] .

2 - وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾ ﴿٤٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٤٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَحِيرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَفَىٰ ﴾ [طه: 66 - 69] .

3 - وقال هاهنا: ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ . قال ابن جرير: (يقول: فإذا عصا موسى تزدرد ما يأتون به من الفرية والسحر الذي لا حقيقة له ، وإنما هو مخايل وخدعة) .

والمقصود: أن عصا موسى تحولت بإذن الله إلى حية تخطف وتبتلع كل أدوات مكر السحرة ضمن مشهد رهيب .

وقوله تعالى: ﴿ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَ بَنِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٠﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ .

قال عكرمة: (أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء) .

فنصر الله الحق في يوم مشهود ، وكان نصراً كبيراً مؤزراً خُذِلَ فيه فرعون بغطرسته أيما خذلان ، إذ استنصر بالسحرة ومهد لهم من الوعود والآمال الكبيرة ، فإذا بهم

يؤمنون ويخذلونه ويخرون لله ساجدين ، قائلين آمنا برب العالمين ، رب موسى وهارون ، كافرين بربوبية فرعون الكاذبة ومكر أتباعه وجنده المجرمين .

49 - 51. قوله تعالى: ﴿ قَالَ ءَامَنْتُمْ لَمْ قَتَلْ أَن ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُمْ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَا أَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا صَلْبَتَكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرٌ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ۝ .

في هذه الآيات: شروع فرعون باللجوء إلى التهديد والبطش والتوعد للسحرة الذين قابلوه بإيمان كالجبال ، مستخفين ببأسه طامعين بمغفرة الله رب العالمين .
فقوله: ﴿ قَالَ ءَامَنْتُمْ لَمْ قَتَلْ أَن ءَاذَنَ لَكُمْ ۝ .

يقول فرعون: إنه كان ينبغي أن تستأذنوني في أمر إيمانكم فإني أنا الحاكم المطاع والأمر لي ولا يكون الإيمان إلا بي .

وقوله: ﴿ إِنَّهُمْ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ۝ . قال ابن كثير: (وهذه مكابرة يعلم كلُّ أحدٍ بطلانها ، فإنهم لم يجتمعوا بموسى قبل ذلك اليوم ، فكيف يكون كبيرهم الذي أفادهم صناعة السحر؟! هذا لا يقوله عاقل).

وقوله: ﴿ لَا أَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا صَلْبَتَكُمْ أَجْمَعِينَ ۝ . توعدهم بقطع الأيدي والأرجل والصلب .

قال القاسمي: ﴿ مِنْ خَلْفٍ ۝ أي: جانبين متخالفين). وقال النسفي: ﴿ مِنْ خَلْفٍ ۝ من أجل خلاف ظهر منكم).

وقوله: ﴿ قَالُوا لَا ضَيْرٌ ۝ . أي: لا حرج ، فليكن ما يكون ، لقد ظهر الحق وكُشِفَ عن القلوب حجاب الكفر ، فما كان من أمر موسى لا يصدر عن بشر ، إلا أن يكون عن خالق البشر ، الذي أيدته بنصره وتمكينه وأبطل المكر والسحر ، فاقض ما أنت قاض فإننا لا نبالي ﴿ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ۝ - أي: المرجع والمآل إليه ، والثواب والعقاب بين يديه ، وهو لا يضيع أجر من أحسن عملاً ، ولا يخيب عنده جهاد المؤمنين وصبرهم على الأذى والظلم . قال ابن زيد: ﴿ لَا ضَيْرٌ ۝ يقول: لا يضرنا الذي تقول ، وإن

صنعتة بنا وصلبتنا ﴿لَئِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ يقول: إنا إلى ربنا راجعون ، وهو مجازينا بصبرنا على عقوبتك إيانا ، وثباتنا على توحيده ، والبراءة من الكفر به).

وقوله: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَاتَنَا﴾.

قال ابن زيد: (السحر والكفر الذي كانوا فيه).

وقوله: ﴿أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. قال ابن وهب ، قال ابن زيد: (كانوا كذلك يومئذ أول من آمن بآياته حين رأوها).

والمقصود: إنا نرجو عفو الله ومغفرته عما انغمسنا فيه من السحر والكفر وطاعة فرعون ، ونتوسل إليه سبحانه بعمل صالح: أن كنا أول من أعلن إيمانه بالله العظيم.

52 - 59. قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٰ إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ﴾

فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٢﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِطُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٦﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٥٩﴾.

في هذه الآيات: وَحِيَّ الله تعالى إلى موسى عليه السلام الخروج ليلاً مع بني إسرائيل ، واتباع فرعون وجنوده لهم ، وإغراق الله تعالى فرعون وجنده واستخلاف بني إسرائيل.

فقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٰ إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ﴾.

سنة الله تعالى في التوطئة لإنجاء المؤمنين ، وإهلاك الكافرين ، بعد رضاه سبحانه عن منهاج فئة الإيمان ، وبلاغ حجة الرحمان ، حجة الوحي البالغة. فإنه لما قام موسى عليه السلام ببلاد مصر يدعو إلى عبادة الله وحده والكفر بفرعون وغروره في دعواه الربوبية ، لم يكن بُدُّ بعد حين من استعار نار العداوة من الطاغية إلى حد الطغيان ، فهنا جاء أمر الله لموسى والمؤمنين بالهجرة فقد اقترب يوم الفصل.

قال القرطبي: (أمر موسى أن يخرج ببني إسرائيل ليلاً وسماهم عباده ، لأنهم آمنوا بموسى. ومعنى: ﴿إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ﴾ أي: يتبعكم فرعون وقومه ليردوكم. وفي ضمن هذا الكلام تعريفهم أن الله ينجيهم منهم ، فخرج موسى عليه السلام ببني إسرائيل سحراً ،

فترك الطريق إلى الشام على يساره وتوجه نحو البحر. قال: فلما أصبح فرعون وعلم بِسُرَى موسىٰ ببني إسرائيل ، خرج في أثرهم).

وقوله تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْ فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾.

قال النسفي: (أي جامعين للناس بعنف). والمقصود: أن فرعون قد استنفر وبعث بأمره إلى مدائن مصر لتلحقه العسكر.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءَ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾.

قال القاسمي: (- أي - جامعين لعسكره ، قائلين ما يقلل به الأعداء في أعين الجنود).

وأصل الشَّرْذِمَة - في كلام العرب - الجمع القليل المحتقر ، والجمع: الشَّرَاذِم. قال الجوهري: (الشَّرْذِمَة الطائفة من الناس والقطعة من الشيء).

والمقصود: يقول فرعون مشجعاً جنوده في الأمصار ، على الالتحاق به بسرعة واستنفار ، إن هؤلاء - يعني بني إسرائيل - طائفة قليلة خرجت عن الطاعة ولا بد من تأديبها.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴾. هو من قيل فرعون الممتلئ صدره غيظاً مما يجري ضده.

أي: وإنهم في مسلكهم هذا يفعلون أفعالاً تغيظنا ، وتضيق به صدورنا ، من اختيارهم الإيمان على غير طريقتنا ، وخلاف أمرنا ، وخروجه دون إذننا.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَازِرُونَ ﴾. أي: متيقظون مستعدون حذرون ، متهيئون بالسلاح لاستئصال شأفتهم وإبادة خضرائهم والإجهاز عليهم.

قال النسفي: (وهذه معاذير اعتذر بها إلى أهل المدائن لثلا يظن به العجز والفتور).

وقوله تعالى: ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۖ وَكُنُوزٍ وَمَقَارٍ كَرِيمٍ ﴾. أي: انقلب المكر على أهله.

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: فأخرجنا فرعون وقومه من بساتين وعيون ماء ، وكنوز ذهب وفضة ، ومقام كريم).

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾.

أي: وأورث الله ذلك الجاه والمنازل العالية والبساتين والأنهار والأموال والأرزاق مؤمني بني إسرائيل.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 - قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمِغْرِبَهَا أَلَيْ بَنَرَكُنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: 137].

2 - وقال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُكَلِّمُ هُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: 5 - 6].

ومن كنوز السنة العطرة في آفاق تلك الآيات أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد بسند حسن عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه قال: [لما فتحت قبرس فرق بين أهلها، فبكى بعضهم إلى بعض، رأيت أبا الدرداء جالساً وحده يبكي، فقلت: يا أبا الدرداء ما يبكيك في يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله؟ فقال: ويحك يا جبير، ما أهون الخلق على الله عز وجل إذا أضاعوا أمره، بينما هي أمة قاهرة ظاهرة، لهم الملك، تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترى⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرج أبو داود بسند صحيح عن عمرو بن مَرْة قال: سمعت أبا البختری يقول: أخبرني مَنْ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يقول: [لَنْ يَهْلِكَ النَّاسُ حَتَّىٰ يُعْذَرُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ]⁽²⁾.

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد بسند حسن من حديث جرير أن النبي ﷺ قال:

(1) أخرجه أحمد من حديث الوليد بن مسلم عن صفوان بن عمرو عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه. انظر: «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي» ص (45).

(2) أخرجه أبو داود (4347) - كتاب الملاحم - باب الأمر والنهي، وأخرجه أحمد (260/4)، (293/5)، وهو حديث صحيح كما قال الألباني في «صحيح الجامع» رقم (5107).

[ما مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمْ بِالْمَعَاصِي ، هُمْ أَعَزُّ وَأَكْثَرُ مِمَّنْ يَعْمَلُهُ ، لَمْ يُعَيَّرُوهُ ، إِلَّا عَمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ⁽¹⁾ .

الحديث الرابع: أخرج البيهقي في «شعب الإيمان» بسند حسن في الشواهد عن عائشة مرفوعاً: [إذا ظهر السوء في الأرض أنزل الله عز وجل بأسه بأهل الأرض ، وإن كان فيهم صالحون ، يصيبهم ما أصاب الناس ، ثم يرجعون إلى رحمة الله]⁽²⁾ . وله شاهد عند الطبراني والحاكم من حديث ابن عباس مرفوعاً: [إذا ظهر الزنا والزنا في قرية ، فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله] .

60 - 68 . قوله تعالى: ﴿ فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴾ ﴿١٠﴾ فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمَذْكُونٌ ﴿١١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿١٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿١٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴿١٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهْوَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿١٨﴾ .

في هذه الآيات: قصة غرق الطاغية فرعون وجنده الظالمين ، وانفلاق البحر ونجاة موسى عليه السلام والمؤمنين ، وفي ذلك أكبر آية من الله العزيز الرحيم ، وقد كان سبق في علم الله أن أكثرهم لا يؤمنون .

فقوله تعالى: ﴿ فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴾ . قال مجاهد: (فرعون وأصحابه ، وخيل فرعون في ملء أعتها في رأي عيونهم ، ولا تبرح ، حبست عن موسى وأصحابه حتى تواروا) . وقوله: ﴿ مُشْرِقِينَ ﴾ حال ، أي: داخلين في وقت شروق الشمس وهو طلوعها ، أدرك فرعون - الذي خرج في جحفل عظيم وجمع كبير من الجنود والأعوان والأمراء والوزراء - موسى وقومه وقت طلوع الشمس .

(1) حديث حسن . أخرجه ابن ماجة (4009) في الفتن . باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والبيهقي في «السنن» (91/10) ، ورواه أحمد وغيره .

(2) حديث حسن . أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (2/441/2) . وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1372) . وانظر للشاهد صحيح الجامع الصغير (692) .

وقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمَذْكُورُونَ ﴾ .

أي: فلما رأى كل فريق من الفريقين صاحبه قال أصحاب موسى له: إنا لملحقون . قال النسفي: (أي: قرب أن يلحقنا عدونا وأماننا البحر).

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ . قال السدي: (يقول: سيكفيني).

أي: قال موسى لقومه كلا لا تخافوا وأحسنوا ثقتكم بالله فإنكم لن تذركوا، إن معي ربي سيهدين . قال ابن جرير: (يقول: سيهديني لطريق أنجو فيه من فرعون وقومه).

وقوله تعالى: ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ . قال ابن عباس: (يقول: كالجبل). وقال السدي: ﴿ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ : كالجبل العظيم). أي: فأوحينا أمرنا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فضربه فانفلق بإذن الله فكان كل جزء متفرق منه كالجبل الكبير .

قال ابن عباس: (صار البحر اثني عشر طريقاً ، لكل سبيل طريق). وزاد السدي: (وصار فيه طاقات ينظر بعضهم إلى بعض ، وقام الماء على حَيْلِهِ كالحيطان ، وبعث الله الريح على قعر البحر فلفحته ، فَصَارَ يَبْسًا كوجه الأرض ، قال الله تعالى: ﴿ فَأَضْرِبْ لَهُمُ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا تُخْشَى ﴾ [طه: 77]).

وقوله تعالى: ﴿ وَأَزَلَفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ ﴾ . قال ابن عباس: (قربنا).

وقال قتادة: (هم قوم فرعون قربهم الله حتى أغرقهم في البحر).

قال القاسمي: ﴿ وَأَزَلَفْنَا ﴾ أي: قربنا ﴿ ثَمَّ ﴾ أي: حيث انفلق البحر ﴿ الْآخِرِينَ ﴾ يعني قوم فرعون ، أي: قدمناهم إلى البحر حتى دخلوا على أثر بني إسرائيل).

وقوله تعالى: ﴿ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ١٥ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴾ .

أي: حفظنا البحر على تلك الهيئة حتى عبر موسى ومن معه ونجوا. ثم أطبقنا البحر على قوم فرعون فهلكوا ولم يبق منهم أحد.

أخرج الإمام الترمذي في جامعه ، والإمام أحمد في مسنده ، بسند صحيح عن ابن عباس ، أن النبي ﷺ قال: [لَمَّا أَغْرَقَ اللَّهُ فِرْعَوْنَ قَالَ: آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ

بنو إسرائيل. فقال جبرئيل: يا مُحَمَّدُ لو رَأَيْتَنِي وأنا آخذ من حالِ الْبَحْرِ وأُدُسُهُ في فيه مخافة أن تدركهُ الرَّحْمَةُ⁽¹⁾.

وكذلك روى الترمذي عن سعيد بن جبیر ، عن ابن عباس ، ذكر أحدهما عن النبي ﷺ: [أَنَّهُ ذَكَرَ أَنَّ جِبْرِئِيلَ جَعَلَ يَدُسُّ فِي فِي فِرْعَوْنَ الطِّينَ ، خَشْيَةً أَنْ يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَيَرْحَمَهُ اللَّهُ ، أَوْ خَشْيَةً أَنْ يَرْحَمَهُ]⁽²⁾.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ. أي: إن في هذا الخبر عن فرعون ومصريه هو وقومه وما في ذلك من العجائب والنصر والتأييد من الله لعباده المؤمنين ، لدلالة وحجة بالغة لمن أراد الاعتبار والتدبر ، ولكن ما كان أكثر قومك - يا محمد - مؤمنين بما آتاك الله من الآيات والحق المبين. وإن ربك لهو ﴿الْعَزِيزُ﴾ في انتقامه ممن كفر به وكذب رسله. ﴿الرَّحِيمُ﴾ بأوليائه وأتباع رسله ومن أنجى منهم أن ينالهم الغرق والعذاب الذي نزل بأعدائه.

قال ابن جرير: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يقول: وما كان أكثر قومك يا محمد مؤمنين بما آتاك الله من الحق المبين ، فسابق في علمي أنهم لا يؤمنون.

69 - 77. قوله تعالى: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُهَا عَنْ كِفَافٍ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾.

في هذه الآيات: إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله وخليله إبراهيم ، عليه أفضل الصلاة والتسليم ، إمام الحنفاء وقدوة الموحدين ، وأسوة المخلصين والمتوكلين ، في خطابه لأبيه وقومه المشركين ، الذين يعبدون الأصنام محتجين بفعل آبائهم الضالين ، وقد أعلن لهم براءته من أوثانهم وخضوعه الكامل لله رب العالمين .

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (3320). انظر صحيح الترمذي (2483) - في التفسير - من سورة يونس. ورواه أحمد عن ابن عباس. انظر صحيح الجامع (5082).

(2) صحيح الإسناد. انظر صحيح سنن الترمذي - حديث رقم - (2484) - أبواب تفسير القرآن.

فقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِم نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَيُّهُ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ .

أي: واقصص يا محمد على قومك من المشركين خبر أبيهم إبراهيم ، إذ استنكر على أبيه وقومه ما يعبدون من دون الله من الأصنام والأوثان.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظْلُ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾.

قال ابن عباس: (الصلاة لأصنامهم). قال ابن جرير: (قالوا له نعبد أصناماً. فنظّل لها خدماً مقيمين على عبادتها وخدمتها).

وقوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ﴾ ﴿٧٦﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكَ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ ﴿٧٧﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ .

أي: قال لهم إبراهيم: هل يسمعون دعاءكم حين تدعونهم ، أو يجلبون لكم النفع إن عبدتموها ، أو يضرونكم بأذى إن تركتم عبادتها؟! فأجابوه معترفين بأن أصنامهم لا تفعل شيئاً من ذلك وإنما هو تعظيم ميراث الآباء وطريقتهم.

قال أبو السعود: (اعترفوا بأنها بمعزل مما ذكر من السمع والمنفعة والمضرة بالمرة. واضطروا إلى إظهار أن لا سند لهم سوى التقليد).

وقوله تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ .

قال ابن كثير: (أي: إن كانت هذه الأصنام شيئاً ولها تأثير فلتخلص إليّ بالمساءة ، فإنني عدو لها لا أبا لها ولا أفكر فيها).

وفي التنزيل من سير الأنبياء نحو ذلك:

1 - قال تعالى - مخبراً عن نوح عليه السلام :- ﴿ فَاجْمَعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ ﴾ [يونس : 71].

2 - وقال تعالى - مخبراً عن هود عليه السلام :- ﴿إِنِّي أَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ وَآشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ. وَكَيْدُوْنِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ﴾ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ ربي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِعَصَمَتِهَا إِنْ ربي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود : 54 - 56].

3- وقال تعالى - مخبراً عن إبراهيم عليه السلام :- ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ ﴾ [الممتحنة : 4] .

4 - وقال تعالى عنه أيضاً: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾ [الأنعام: 81].

78 - 82. قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ ^(٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ^(٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ^(٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ^(٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ^(٨٢).

في هذه الآيات: إعلان إبراهيم لقومه بعض صفات ربه الكريم ، فهو الذي خلقه ويهديه ، ويطعمه ويسقيه ، وإذا مرض فهو يشفيه ، وهو الذي يميتة ويحييه ، وهو بذلك خاضع له طامع بمغفرته ، والنجاة من سخطه وعذابه .

فقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ . أي: يرشدني إلى الدين الحق. قال ابن جرير: (﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ للصواب من القول والعمل ، ويسدّني للرشاد).

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ .

أي: والذي هو يغذوني بالطعام والشراب ، ويرزقني الأرزاق والطيبات .

قال القرطبي: (ودخول ﴿هُوَ﴾ تنبيه على أن غيره لا يطعم ولا يسقي ، كما تقول: زيد هو الذي فعل كذا ، أي: لم يفعله غيره).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ .

أي: وإذا اعتل جسمي ونزلت به الأسقام والآلام ، فهو وحده الذي يبرئه ويشفيه ويعافيه . وفي الآية دلالة على أدب رفيع تألق به إبراهيم ﷺ ، إذ نسب المرض لنفسه والشفاء لله ، مع أن الكل من عند الله ، وإنما هذا منهاج العبودية الصحيحة لله جل ثناؤه ، فإن المؤمن يعتبر ما يعتريه من المصائب والأسقام والهموم والآلام بسبب ذنوبه وتقصيره .

كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: 30].

وفي معجم الطبراني «الصغير» بسند حسن عن البراء بن عازب مرفوعاً: [ما اختلج عزق ولا عينٌ إلا بذنبٍ ، وما يدفعُ الله عنه أكثر] ⁽¹⁾.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾.

أي: وهو الذي يميتني إذا شاء ثم يحييني متى شاء ، فالبدء والمنتهى إليه ، وبأمره البعث للقيام بين يديه .

قال النسفي: (ولم يقل إذا مت لأنه الخروج من حبس البلاء ، ودار الفناء ، إلى روض البقاء ، لوعده اللقاء ، وأدخل ثم في الإحياء لتراخيه عن الإفناء ، وأدخل الفاء في الهداية والشفاء لأنهما يعقبان الخلق والمرض لا معاً معاً) .

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾.

قال مجاهد: (قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصفات: 89] ، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ [الأنبياء: 63] ، وقوله لسارة: إنها أختي ، حين أراد فرعون من الفراعنة أن يأخذها) .

وهذه الأخطاء التي كان يخشى منها إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - ما هي إلا من المعاريض الجائزة ، وإنما استغفار الأنبياء تواضع منهم لربهم ، وهضم لأنفسهم ، وتربية وتعليم لأمتهم ، لينهجوا نهج الاستغفار ، الذي هو مفتاح كثير من الفرج ونزول طيب الأقدار .

83 - 89. قوله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾

وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٩﴾ وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٩٠﴾ وَأَغْفِرْ لِأَيِّبَاتِي إِنَّكَ كَانَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٩١﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٩٢﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٩٣﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٩٤﴾ .

في هذه الآيات: التجاء إبراهيم عليه السلام إلى ربه سائلاً العلم والحكمة والحق بركب الصالحين ، وحفظ السمعة العطرة له في الآخرين ، وجعله من ورثة جنة

(1) حديث حسن. أخرجه الطبراني في «المعجم الصغير» (رقم 1053) ، وعنه أبو نعيم في «أخبار أصبهان» (2/ 247) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (2215) .

النعيم ، والمغفرة لأبيه الذي كان من الضالين ، وحفظه من الخزي يوم الدين ، يوم لا ينفع المال والولد بل العمل الصالح والقلب السليم .

فقوله : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا ﴾ . قال ابن عباس : (وهو العِلْمُ) . وقال مجاهد : (هو القرآن) . وقال السدي : (هو النبوة) - وبه قال ابن جرير . قال النسفي : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا ﴾ أي : حكمة ، أو حكماً بين الناس بالحق ، أو نبوة ، لأن النبي عليه السلام ذو حكمة وذو حكم بين عباد الله .

وقوله : ﴿ وَالْحَقِّقِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ .

قال القاسمي : (أي : وفقني لأنتظم في سلوكهم ، لأكون من الذين جعلتهم سبباً لصلاح العالم وكمال الخلق) .

وفي المسند وسنن النسائي من حديث ابن رفاعة الرُّزْقِي عن أبيه - في دعاء النبي ﷺ بعد غزوة أحد : [اللهم توفنا مسلمين ، وأحينا مسلمين ، وألحقنا بالصالحين ، غير خزايا ولا مفتونين]⁽¹⁾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَاجْعَلْ لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾ . قال ابن عباس : (هو اجتماع الأمم عليه) . وقال مجاهد : (يعني الثناء الحسن) . وقال ابن زيد : (اللسان الصُّدْق ، والذكر الصدق ، والثناء الصالح ، والذكر الصالح ، في الآخرين من الناس ، من الأمم) .

والمقصود : أنَّ إبراهيم عليه السلام سأل ربه تعالى أن يجعل له الذكر الجميل في الأمم وأن يجعله قدوة تتأسى به الأجيال . وقد حصل له ذلك بفضل الله ، كما قال ليث بن أبي سليم : (كُلُّ مَلَةٍ تُحِبُّهُ وَتَتَوَلَّاهُ) .

وفي التنزيل نحو ذلك :

1 - قال تعالى : ﴿ وَزَكَّيْنَاهُ عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴾ ﴿ سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الصفات : 108 - 110] .

2 - وقال تعالى : ﴿ وَءَاتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَلَئِنَّ فِي الْآخِرَةِ لَإِلَٰهٍ ﴾ [العنكبوت : 27] .

3 - وقال تعالى : ﴿ وَءَاتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَئِنَّ فِي الْآخِرَةِ لَإِلَٰهٍ ﴾ [النحل : 122] .

(1) حديث حسن . أخرجه أحمد في المسند (3/ 424) ، والنسائي في «الكبرى» (10445) .

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنِي مِنْ رِثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾.

قال القرطبي: (دعاء بالجنة وبمن يرثها). وقال ابن جرير: (أورثني يا رب من منازل مَنْ هلك من أعدائك المشركين بك من الجنة ، وأسكني ذلك).

قلت: ومن السنة المطهرة في آفاق هذا المعنى للآية أحاديث:

الحديث الأول: روى مسلم عن ابن عمر ، أن رسول الله ﷺ قال: [إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ، إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ. يقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة]⁽¹⁾.

وفي رواية: [ثم يقال: هذا مَقْعَدُكَ الَّذِي تُبْعَثُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ].

الحديث الثاني: روى مسلم كذلك عن أنس - في حديث سؤال الملكين - قال نبي الله ﷺ: [فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ. فيقال له: انظر إلى مقعدك مِنَ النَّارِ ، قد أبدلك الله به مَقْعَدًا مِنَ الْجَنَّةِ. قال نبي الله ﷺ: فيرأهما جميعاً]⁽²⁾.

قال قتادة: (وَذَكِّرْ لَنَا أَنَّهُ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا ، وَيَمْلَأُ عَلَيْهِ خَضِرًا إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ).

الحديث الثالث: أخرج ابن عساكر ، وأبو نعيم في «أخبار أصبهان» من طرق عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: [إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ بُعِثَ إِلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ بِمَلَكٍ مَعَهُ كَافِرٌ ، فيقول الْمَلَكُ لِلْمُؤْمِنِ: يَا مُؤْمِنُ! هَاكَ هَذَا الْكَافِرُ ، فَهَذَا فِدَاؤُكَ مِنَ النَّارِ]⁽³⁾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَغْفِرْ لَأَيِّئِكَ كَانِ مِنَ الصَّالِّينَ﴾.

أي: واصفح عن شرك أبي بك وتجاوز عنه ، إنه كان ممن ضلَّ عن سبيل الهدى

- (1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2866) - كتاب الجنة ونعيمها ، من حديث عبد الله بن عمر.
- (2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2870) - كتاب الجنة ونعيمها ، باب عرض مقعد الميت من الجنة والنار عليه ، وإثبات عذاب القبر ، والتعوذ منه.
- (3) حديث صحيح. أخرجه ابن عساكر (2/143/18) ، وبنحوه أبو نعيم في «أخبار أصبهان» (80/2) ، وانظر مسند أحمد (391/4) ، وصحيح مسلم (104/8).

والحق . وهو كقوله : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ ﴾ [إبراهيم : 41] . وقد تراجع إبراهيم ﷺ عن مثل هذا الدعاء حين علم نهي الله تعالى عن ذلك .

كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَتْ أَسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة : 114] .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُخْزِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾ . أي : نجني من الخزي يوم تبعث عبادك .

قال البخاري في كتاب التفسير من صحيحه - باب : ﴿ وَلَا تُخْزِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾ : [وقال إبراهيم بن طهمان عن ابن أبي ذئب ، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري ، عن أبيه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « إن إبراهيم عليه الصلاة والسلام يرى أباه يوم القيامة عليه الغبرة والفترة » . والغبرة : هي الفترة ⁽¹⁾ .

ثم قال البخاري : حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ ، حَدَّثَنَا أَخِي عَنْ ابْنِ أَبِي ذئب ، عن سعيد المقبري ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : [يلقي إبراهيم أباه فيقول : يا رب إنك وعدتني أن : ﴿ وَلَا تُخْزِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾ فيقول الله : إني حرمت الجنة على الكافرين] ⁽²⁾ .

وقد أورد البخاري تفصيل هذه الرواية في كتاب أحاديث الأنبياء ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : [يلقي إبراهيم أباه أزر يوم القيامة وعلى وجهه أزر فترة وغبرة ، فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك : لا تعصني؟ فيقول أبوه : فاليوم لا أعصيك ، فيقول إبراهيم : يا رب إنك وعدتني أن لا تخزيني يوم يُبعثون ، فأني خزي أخزي من أبي الأبعد؟ فيقول الله تعالى : إني حرمت الجنة على الكافرين ، ثم يقال : يا إبراهيم ما تحت رجلينك؟ فينظر فإذا هو بذيخ متلطح فيؤخذ بقوائمه فيسلق في النار] ⁽³⁾ .

وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴾ ﴿ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ .

قال القاسمي : (أي : لا يقي المرء من عذاب الله ماله ، ولو افتدى بملء الأرض ذهباً . ولا بنوه ، وإن كانوا غاية في القوة . فإن الأمر ثمة ليس كما يعهدون في الدنيا ،

(1) ذكره البخاري تعليقاً (4768) - كتاب التفسير من صحيحه - سورة الشعراء ، آية (87) .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4769) - كتاب التفسير - الباب السابق ، آية (87) .

(3) حديث صحيح . أخرجه البخاري (3350) - كتاب أحاديث الأنبياء . وانظر (4769) - نحوه .

بل لا ينفع إلا الموافاة بقلب سليم من مرض الكفر والنفاق والخصال المذمومة والملكات المشؤومة).

قلت: فأما إن صرف المال في وجوه البر وكان بنوه صالحين فإنه ينتفع بهم ، فيكون المال والبنون حينئذ من الباقيات الصالحات .

ففي التنزيل :

1 - قال تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: 46].

2 - وقال تعالى: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْنَاهُ﴾ [آل عمران: 92].

ومن كنوز السنة العطرة في آفاق ذلك أحاديث :

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه قال: [كَانَ أَبُو طَلْحَةَ رضي الله عنه أكثر الأنصار بالمدينة مالاً مِنْ نَخْلٍ ، وَكَانَ أَحَبَّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ بَيْرَحَاءُ ، وَكَانَتْ مُسْتَقْبَلَةَ الْمَسْجِدِ⁽¹⁾ ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْخُلُهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٍ⁽²⁾ . قَالَ أَنَسٌ: فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْنَاهُ﴾ قَامَ أَبُو طَلْحَةَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْزَلَ عَلَيْكَ: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْنَاهُ﴾ وَإِنَّ أَحَبَّ مَالِي إِلَيَّ بَيْرَحَاءُ ، وَإِنِهَا صَدَقَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَرْجُو بِرَّهَا⁽³⁾ وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى ، فَضَعَهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَيْثُ أَرَاكَ اللَّهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: بَخْ⁽⁴⁾! ذَلِكَ مَالٌ رَابِعٌ ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِعٌ ، وَقَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ ، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الْأَقْرَبِينَ . فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: أَفْعَلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَكَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ ، وَبَنِي عَمِّهِ⁽⁵⁾ .

الحديث الثاني: أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن عتبة بن عامر يقول: سمعت

(1) أي: المسجد النبوي. وبَيْرَحَاءُ: حَدِيقَةُ نَخْلٍ ، وروي بكسر الباء وفتحها.

(2) أي: ماء عذب.

(3) «بِرَّهَا»: أي خيرها ، و«ذُخْرَهَا»: أي: أجزأها عند الله تعالى.

(4) «بَخْ» بفتح الموحدة وسكون المعجمة ، وقد تنون مع الثقل والتخفيف ، بالكسر والرفع: كلمة تقول لتفخيم الأمر والإعجاب به .

(5) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (3/ 257) ، وأخرجه مسلم في الصحيح (998).

رسول الله ﷺ يقول: [من كان له ثلاث بنات ، فصبر عليهن ، وأطعمهن ، وسقاهن ، وكساهن من جدته ، كن له حجاباً من النار يوم القيامة] (1).

الحديث الثالث: أخرج أبو يعلى في مسنده بإسناد صحيح عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: [من كن له ثلاث بنات ، أو ثلاث أخوات ، فاتقى الله وأقام عليهن كان معي في الجنة هكذا ، وأوماً بالسباحة والوسطى] (2).

الحديث الرابع: أخرج أحمد وابن حبان بسند صحيح عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: [من عال ابنتين ، أو ثلاث بنات ، أو أختين أو ثلاث أخوات ، حتى يمتن (وفي رواية: يبلغن) أو يموت عنهن كنت أنا وهو كهاتين ، وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى] (3).

وله شاهد في صحيح مسلم وسنن الترمذي من حديث أنس مرفوعاً: [من عال جاريتين حتى تبلغا ، جاء يوم القيامة أنا وهو ، وضم أصابعه] (4).

الحديث الخامس: خرّج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال: [إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له] (5).

وأما قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ ففيه أقوال متقاربة متكاملة.

- 1- عن ابن عباس: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ ، يعني: يشهد أن لا إله إلا الله.
- 2- وقال مجاهد: ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ يعني: من الشرك. أو قال: (ليس فيه شك في الحق).

3- وقال ابن زيد: (سليم من الشرك ، فأما الذنوب فليس يسلم منها أحد).

- (1) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجه (3669) ، والبخاري في «الأدب المفرد» (76) ، وأخرجه أحمد (154/4) ، وإسناده صحيح.
- (2) أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (170/1) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (295).
- (3) حديث صحيح. أخرجه أحمد (147/3 - 148) ، وابن حبان (2045) من طريقين ، وأورده الهيثمي في «المجمع» (157/8) بنحوه من رواية الطبراني في «الأوسط».
- (4) حديث صحيح. رواه مسلم (38/8 - 39) واللفظ له ، ورواه الترمذي (349/1).
- (5) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1631) - كتاب الوصية. باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

4 - وقال سعيد بن المسيّب: (القلب السليم: هو القلب الصحيح ، وهو قلبُ المؤمن ، لأن قلب المنافق مريض ، قال الله تعالى: ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ ﴾ [البقرة: 101]).

5 - وقال أبو عثمان النيسابوري: (هو القلب الخالي من البدعة ، المطمئنُ على السنّة).

6 - وقال الضحاك: ﴿ لَا مَنْ أَمَى اللَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ قال: هو الخالص).

قلت: وكل هذه الأقوال يدل على المعنى ، وهو أن القلب السليم هو القلب الذي سلم من الشرك والنفاق وخلص فيه التوجه إلى الله تعالى على منهاج النبوة.

90 - 104. قوله تعالى: ﴿ وَأَزْلَفَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ﴿ وَبُرْزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَنْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَ ﴿ فَنَكَّبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿ وَخُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿ إِذْ نُسَوِّكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿ وَلَا صَادِقٍ حَمِيمٍ ﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةٌ فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهِوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿.

في هذه الآيات: يخبر تعالى عن جنة الخلد كيف قربت يوم القيامة من أهلها وأدنت منهم مزخرفة مزينة لأهل التقوى أهل النعيم ، وعن نار جهنم كيف أظهرت وهي تزفر لأهلها المشركين والمجرمين ، ثم ألقوا فيها أذلاء صاغرين ، فهم فيها وإبليس وجنوده يختصمون ، وقد حيل بينهم وبين الشفاعة وما يشتهون ، وفي ذلك أكبر الآيات من الله العزيز الرحيم ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون.

فقوله تعالى: ﴿ وَأَزْلَفَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾.

قال القرطبي: (أي قربت وأدنت ليدخلوها). وقال الزجاج: (قرب دخولهم إياها).

وقوله تعالى: ﴿ وَبُرْزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴾. قال ابن جرير: (يقول: وأظهرت النار للذين غواوا فضلوا عن سواء السبيل). وقال ابن كثير: (أي: أظهرت وكشفت عنها ، وبدت

منها عُنُقٌ فَزَفَرَتْ زَفْرَةً بَلَغَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ). وقال القرطبي: (أي: أظهرت ﴿الْجَحِيمَ﴾ يعني جهنم. ﴿لِلْغَاوِينَ﴾ أي: الكافرين الذين ضلوا عن الهدى. أي: تظهر جهنم لأهلها قبل أن يدخلوها حتى يستشعروا الروع والحزن، كما يستشعر أهل الجنة الفرح لعلمهم أنهم يدخلون الجنة).

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: [يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجزؤونها]⁽¹⁾.

وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ إِنَّمَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿١٧﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَصْرِفُهُمْ أَوْ يَنْصُرُونَ﴾.

تقريع وتوبيخ لأهل النار الذين استحقوا دخولها بعبادتهم الأوثان والأنداد والطواغيت من دون الله. فيقال لهم: أين الأنداد اليوم لينقذوكم من عذاب الله وبأسه وغضبه؟! أو ينصرون أنفسهم فينجون من دخول النار معكم؟!

قال النسفي: (يوبخون على إشراكهم فيقال لهم: أين آلهتكم هل ينفعونكم بنصرتهم لكم؟ أو هل ينفعون أنفسهم بانتصارهم؟ لأنهم وآلهتهم وقود النار).

وقوله تعالى: ﴿فَكُبِّكُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾. أي: فرمي ببعضهم في الجحيم على بعض منكبين على وجوههم إذلالاً لهم. قال ابن عباس: ﴿فَكُبِّكُوا فِيهَا﴾ يقول: فجمعوا فيها). وقال مجاهد: ﴿فَكُبِّكُوا﴾: فدهوروا). وقال ابن زيد: (طرحوا فيها). وعن قتادة: ﴿وَالْغَاوُونَ﴾: الشياطين).

وفي لغة العرب: كبَّبه أي كبَّه، وكبَّه الله لوجهه أي: صرعه. والمقصود: ألقى الكفار بعضهم على بعض في جهنم وقادتهم الذين دعوهم إلى الشرك. قال الزمخشري: (والكبكة تكرير الكب - وهو الإلقاء على الوجه - جعل التكرير في اللفظ دليلاً على التكرير في المعنى، كأنه إذا ألقى في جهنم ينكب مرة بعد مرة حتى يستقر في قعرها).

وقوله تعالى: ﴿وَجُنُودٌ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾.

قال ابن جرير: (يقول: وكبكب فيها مع الأنداد والغاوين جنود إبليس أجمعون. وجنوده، كل من كان من تبعه من ذريته كان أو من ذرية آدم).

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه (8/149) - كتاب صفة النار، باب: في ذكر أزيمة النار. والزمام: ما يزم به الشيء أي يشد ويربط. انظر مختصر صحيح مسلم (1975).

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ (١١) تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ إِذْ تُسَوِّىكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ. ﴿١٣﴾

أي: يتخاصم الضعفاء مع الطغاة في نار جهنم ، يقولون لهم: تالله لقد كنا في ضلال عن الحق حين نعدلكم برب العالمين ، فنطيعكم في غيركم ومكرهم وكفرهم بدلاً من طاعة الله رب العالمين .

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾ . قال عكرمة: (إبليس وابن آدم القاتل).

قال القاسمي: ﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾ أي: رؤسائهم ، كما في آية: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: 67].

وقوله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ (١٤) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ. ﴿١٥﴾

تحشّر من أصحاب النار على أنفسهم. أي: كانوا يظنون في أصنامهم أنهم شفعاؤهم عند الله ، وفي أصدقائهم من شياطين الإنس والجن أنهم أهل منفعة لهم في مثل هذه النوائب .

قال قتادة: (يعلمون والله أن الصديق إذا كان صالحاً نفع ، وأن الحميم إذا كان صالحاً شفع).

قال الزمخشري: (و«الحميم» من الاحتمام وهو الاهتمام ، وهو الذي يهمله ما يهملك. أو من «الحامة» بمعنى الخاصة. وهو الصديق الخاص. وفيه معنى الحدة والسخونة. كأنه يحتد ويحمي ، لحماية خليله ورعايته ، والقيام بمهماته. وهذا هو الذي قيل: «إنه أعز من بيض الأنوق» وإنه اسم بلا مسمى).

وفي التنزيل:

﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: 67].

وقوله تعالى: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ .

أي: فلو أن لنا رجعة إلى دار الدنيا فنحسن الإيمان والعمل ونستأنف طريق النجاة. قال ابن كثير: (وذلك أنهم يتمنون أن يُردُّوا إلى الدار الدنيا ، ليعملوا بطاعة ربهم فيما يزعمون ، وهو سبحانه وتعالى يعلم أنه لو ردَّهم إلى الدار الدنيا لعادوا لما نُهوا عنه وإنهم لكاذبون).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ. ﴿١٠٥﴾

أي: إن في احتجاج إبراهيم على قومه بحجج الوحي البالغة أنه لا إله إلا الله ، وأن من قلد قوم إبراهيم في شركهم ماله كمالهم يكذبون في النار مع جنود إبليس أجمعين ، ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ . قال ابن جرير : (وما كان أكثرهم في سابق علمه مؤمنين . وإن ربك يا محمد لهو الشديد الانتقام ممن عبد دونه ثم لم يتب من كفره حتى هلك ، الرحيم بمن تاب منهم أن يعاقبه على ما كان سلف منه قبل توبته من إثم وجرم) .

105 - 122 . قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نُنَقِّوْنَ ﴿١٠٦﴾ إِيَّاكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَزْدَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حَسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا لَيْنَ لَمْ تَنْتَهِ يَنُوحَ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَأَفْنِعْ بَنِيَّ وَيَنْتَهِمْ فَتَحَا وَيَخِيَّ وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنْجِنَهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلَاكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ .

في هذه الآيات : تكذيب قوم نوح رسولهم واستخفافهم بالمؤمنين ، وحثهم له على طردهم والانتهاه من دعوته أو ليكونن من المرجومين ، ولجوء نوح ﷺ إلى الله ليفصل بينه وبين قومه المكذبين ، وإجابة الله تعالى له بنجاته في السفينة والمؤمنين ، وفي ذلك أكبر الآيات من الله العزيز الرحيم ، وقد كان سبق في علم الله أن أكثرهم لا يؤمنون .

فقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ .

قال القرطبي: ﴿كَذَّبَتْ﴾ والقوم مذكر ، لأن المعنى: كذبت جماعة قوم نوح ، وقال: ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ لأن من كذب رسولا فقد كذب الرسل ، لأن كل رسول يأمر بتصديق جميع الرسل . وقيل: كذبوا نوحاً في النبوة وفيما أخبرهم به من مجيء المرسلين بعده . وقيل: ذكر الجنس والمراد نوح عليه السلام) .

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾.

قال النسفي: (﴿إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ﴾ نسباً لا ديناً ﴿نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ خالق الأنام ، فتركوا عبادة الأصنام).

قلت: وقد ضل بعض المغرورين في هذا الزمان من المتعالمين حين استدلوا بهذه الآية على جواز الإشارة إلى أهل الكتاب بأنهم إخوانهم ويقصدون الأخوة في الدين ، مع أن الآية تدل على أخوة المجانسة كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ﴾ [إبراهيم: 4] ، أو أن نوحاً ابن أبيهم وهي أخوة نسب لا أخوة دين ، كقول العرب: يا أبا بني عمرو ، يعنون: يا واحداً منهم.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾.

إن نوحاً ﷺ هو أول رسول بُعث إلى أهل الأرض. كما جاء في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة - حديث الشفاعة -: [فيأتون نوحاً ﷺ فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض وسمّاك الله عبداً شكوراً فاشفع لنا إلى ربك] الحديث⁽¹⁾. فقال لقومه: إني لكم رسول ﴿أَمِينٌ﴾ أي: صادق في إبلاغي لكم رسالة ربي أن تعبدوه وحده لا شريك له ، وتستتروا بطاعته من عقابه . وتطيعوني فيما أمركم به من الإيمان .

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾. أي: ومالي طمع في أموالكم وإنما أرجو جزاء دعوتي إليكم عند الله رب العالمين. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: استتروا بطاعته وتعظيم أمره ، وأطيعوني في نصحي لكم .
وقوله تعالى: ﴿قَالُوا أَنْزِلْهُنَّ لَكَ وَاتَّبِعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾.

قال ابن جرير: (قالوا: أنؤمن لك يا نوح ، ونقرّ بتصديقك فيما تدعوننا إليه ، وإنما اتبعك منا الأرذلون دون ذوي الشرف وأهل البيوتات).

قلت: وهذا شأن الملائكة الكافر على مر الزمان ، فإنهم يحتجون على رسلهم بالكبر وحب الرياسة والشرف ويطرفعون عن الجلوس مع ضعفاء المؤمنين . لقد اعتادوا الظلم والعلو والبغي في الأرض بغير الحق . وقد واجه مشركو قريش النبي ﷺ بهذه الصيغة كما جاء في السنة الصحيحة في أحاديث ، منها:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن سعد رضي الله عنه قال: [في]

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1/ 127 - 129) ، في أثناء حديث طويل . ورواه البخاري وأحمد .

نزلت: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدْوَةِ وَالْمَشْيِ﴾ ، قال: نزلت في ستة: أنا وابن مسعود منهم ، وكان المشركون قالوا: تدني هؤلاء⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن سعد قال: [كنا مع النبي ﷺ ستة نفر ، فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرده هؤلاء لا يجترئون علينا. قال: وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان لست أسميهما ، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع فحدث نفسه ، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدْوَةِ وَالْمَشْيِ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾⁽²⁾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ^(١١٦) **﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾**.

قال ابن جريج: (هو أعلم بما في نفوسهم).

قال القرطبي: («كان» زائدة ، والمعنى: وما علمي بما يعملون ، أي: لم أكلف العلم بأعمالهم إنما كلفت أن أدعوهم إلى الإيمان ، والاعتبار بالإيمان لا بالحرف والصنائع. وكانهم قالوا: إنما اتبعك هؤلاء الضعفاء طمعاً في العزة والمال. فقال: إني لم أقف على باطن أمرهم وإنما إليّ ظاهرهم. وقيل: المعنى إني لم أعلم أن الله يهديهم ويضلهم ، ويرشدهم ويغويهم ، ويوفقههم ويخذلهم. ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ﴾ أي: في أعمالهم وإيمانهم ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف ، أي: لو شعرتم أن حسابهم على ربهم لما عبتموهم بصنائعهم).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ^(١١٧) **﴿إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾**.

أي: إنما بعثت نذيراً إلى الناس كافة ، وما أرسلت خصوصاً لأهل الغنى والشرف دون أهل الفقر والحاجة. ومن ثمّ فلا يجوز لي أن أطرده المؤمنين لخساسة أحوالهم وأشغالهم ، وأقدم الشرفاء والرؤساء.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا لَيْنَ لَمْ تَنْتَهِ يَنْتُحَ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾. قال ابن عباس: (من المقتولين). وقال قتادة: ﴿مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾: أي بالحجارة). وقال ابن جرير: (يقول: قال لنوح قومه: لئن لم تنته يا نوح عما تقول ، وتدعو إليه ، وتعيب به آلهتنا ، لتكونن من المشتومين ، يقول: لنشتمنك).

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (4/ 1878) ، حديث رقم (2413). وانظر تفصيل البحث في كتابي: السيرة النبوية (1/ 242 - 244).

(2) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة في السنن (2/ 1383) ، وانظر المرجع السابق (1/ 243).

قلت: ومثل هذا التهديد عادة يشمل الشتم وبسط الأيدي في الأذى كما حصل لكثير من الرسل من أقوامهم.

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوِيٌّ كَذَّبُونِ ۝ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝ ۱۱۷ ۝ أَي: احكم بيننا بما ينبغي لكل واحد منا ، ونجني ومن اتبعني من المؤمنين . فهو لجوء من نوح ﷺ إلى ربه تعالى حين استعصى القوم وأصروا على الكفر ، كما قال جل ثناؤه في سورة القمر: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ ۝ ۱۱۸ ۝ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ۝ ۱۱۹ ۝ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝ ۱۲۰ ۝ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ۝ ۱۲۱ ۝ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ۝ ۱۲۲ ۝ [10 - 14] .

قال الزمخشري: (الفتاحة: الحكومة. والفتاح: الحاكم. لأنه يفتح المستغلق. كما سمي فيصلاً لأنه يفصل بين الخصومات).

وفي «التهذيب»: (الفتح أن تحكم بين قوم يختصمون إليك).

قلت: والله تعالى هو: «الفتاح» أي: الحاكم بين عباده ، كما قال جل ذكره في سورة «سبا»: ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ۝ [26] . قال الحافظ ابن كثير: ﴿ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ۝ ۱ ۝ أَي: الحاكم العادل العالم بحقائق الأمور) .

وقوله تعالى: ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ ۝ ۱۲۳ ۝ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ۝ ۱۲۴ ۝ .

قال ابن عباس: ﴿ (فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ) : يعني الموقر) . وقال مجاهد: (المفروغ منه تحميلاً) . وقال قتادة: (هو المحمل) .

والمقصود: فاستجاب الله دعاء نوح - عليه السلام - فأنجاه والمؤمنين معه في الفلك المملوء بالأمثلة والأزواج التي أُمِر أن يحمل ، ثم كان الغرق والهلاك على القوم المكذبين ، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ۝ ۱۲۵ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝ ۱۲۶ ۝ .

123 - 140 . قوله تعالى: ﴿ كَذَبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ ۝ ۱۲۷ ۝ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا

تَتَّقُونَ ۝ ۱۲۸ ۝ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝ ۱۲۹ ۝ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۝ ۱۳۰ ۝ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ ۱۳۱ ۝ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ۝ ۱۳۲ ۝ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۝ ۱۳۳ ۝ وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَارِينَ ۝ ۱۳۴ ۝ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۝ ۱۳۵ ۝ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا

تَعْلَمُونَ ﴿١٢٧﴾ أَمْذَكُ بَاتِعٍ وَسَبِّحٍ وَجَنَّاتٍ وَمَعِينٍ ﴿١٢٨﴾ إِيَّيَّ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٢٩﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣١﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿١٣٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٣٤﴾ .

في هذه الآيات: تكذيب عاد رسولهم الذي حذرهم نقمة الله بهم إن أصروا على شركهم وكبرهم ، وكفرهم بنعمة تعالى عليهم ، فما زالوا في عنادهم واستهزائهم حتى نزل أمر هلاكهم من الله العزيز الرحيم ، وقد كان سبق في علم الله أن أكثرهم لا يؤمنون .

فقوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ . أي: كذبوا رسولهم - هوداً - ﷺ ، فهم بذلك يكذبون جميع المرسلين .

قال القرطبي: (التأنيث بمعنى القبيلة والجماعة). وقال النسفي: (هي قبيلة ، وفي الأصل اسم رجل هو أبو القبيلة).

وقوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ إِيَّيْكُمْ رَسُولُ آمِينَ ﴿١٢٨﴾ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٢٧﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

قال ابن كثير: (وهذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله هود - عليه السلام -: أنه دعا قومه عاداً وكانوا قوماً يسكنون الأحقاف ، وهي جبال الرمل قريباً من بلاد حضرموت ، متاخمة لبلاد اليمن ، وكان زمانهم بعد قوم نوح ، كما قال في سورة الأعراف: ﴿ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً ﴾ [الأعراف: 69] ، وذلك أنهم كانوا في غاية من قُوَّة التركيب ، والقُوَّة والبطش الشديد ، والطول المديد ، والأرزاق الدائرة ، والأموال والجَنَاتِ والعيون ، والأبناء والزروع والثمار ، وكانوا مع ذلك يعبدون غير الله معه ، فبعث الله إليهم رجلاً منهم رسولاً وبشيراً ونذيراً ، فدعاهم إلى الله وحده ، وحذرهم نِقَمَتَهُ وعذابه في مخالفته ، فقال لهم كما قال نوح لقومه).

وقوله تعالى: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴾ .

الرَّيْع كل مكان مشرف من الأرض مرتفع ، أو طريق أو واد. قال الرازي في «مختار الصحاح»: (و«الرَّيْع» بالكسر المُرتَفِع من الأرض ، وقيل الجبل ، ومنه قوله تعالى:

﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴾). فالمراد المكان المرتفع عند جواد الطرق المشهورة.

وعن ابن عباس: (قوله: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴾ يقول: بكل شرف). أو قال: (بكل طريق). قال: (الآية: علم). قال: ﴿ تَعْبَثُونَ ﴾: تلعبون).

وعن مجاهد: (الريع: الثنية الصغيرة. أو قال: فجّ وواد. وقال: بين جبلين). وقال أيضاً: ﴿ بِكُلِّ رِيعٍ ﴾: شرف ومنظر. ﴿ ءَايَةً ﴾: ببيان). وقال النسفي: ﴿ ءَايَةً ﴾: برج حمام أو بناء يكون لارتفاعه كالعلامة يسخرون بمن مرّ بهم).

قلت: - والمقصود - قال هود لقومه: أتبنون على كل مرتفع وشرف من الأرض بناء محكماً باهراً هائلاً ليكون معلماً مشهوراً تفعلون ذلك عبثاً ولهواً وكبراً لا حاجة لكم ، وإنما بقصد الزينة والتفاخر وإظهار القوة وتضييع الأموال والأوقات فيما لا جدوى منه . وقوله تعالى: ﴿ وَتَتَخَذُونَ مِصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾. أي: تتخذون القصور والبيانات المشيدة كأنكم تخلصون.

قال مجاهد: ﴿ وَتَتَخَذُونَ مِصَانِعَ ﴾: قصور مشيدة ، وبيانات مخلدة). أو قال: (قصور مشيدة وبيانات). أو قال: (حصون وقصور). وقال قتادة: (هي مأخذ الماء). قال الجوهري: (المصنعة كالحوض يجتمع فيها ماء المطر ، وكذلك المصنعة بضم النون. والمصانع الحصون).

قال ابن جرير: (المصانع جمع مصنعة ، والعرب تسمي كل بناء مصنعة ، وجائز أن يكون ذلك البناء كان قصوراً وحصوناً مشيدة ، وجائز أن يكون كان مأخذ للماء).

قال القاسمي: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ أي: راجين الخلود في الدنيا إشارة إلى أن عملهم ذلك ، لقصر نظرهم على الدنيا والإعجاب بالآثار ، والتباهي بالمشيدات ، والغفلة عن أعمال المجدين البصيرين بالعواقب ، الصالحين المصلحين).

وقال ابن أبي حاتم رحمه الله: حدثنا أبي ، حدثنا الحَكَمُ بن موسى ، حدثنا الوليد ، حدثنا ابن عَجَلان ، حدثني عَوْثُ بن عبد الله بن عُتْبَةَ ، أن أبا الدرداء - رضي الله عنه - لما رأى ما أحدث المسلمون في الغوطة من البُنيان ونُصبِ الشَّجر قام في مسجدهم فنادى: (يا أهل دمشق! فاجتمعوا إليه ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال: ألا تَسْتَحْيُونَ! ألا تَسْتَحْيُونَ! ألا تَسْتَحْيُونَ! تجمعون ما لا تأكلون ، وتبنون ما لا تسكنون ، وتأمّلون ما لا تُدرِكون! قد كانت قبلكم قرونٌ ، يجمعون فيوعون ، ويبنون فيوثقون ، ويأملون فيطيلون ، فأصبح أمْلَهُم غروراً ، وأصبح جمعُهم بوراً ،

وأصبحت مساكنهم قبوراً ، ألا إن عاداً ملكت ما بين عدن وعُمان خيلاً وركاباً ، مَنْ يشتري مني ميراثَ عادٍ بدرهمين) - ذكره الحافظ ابن كثير .

قلت : والبناء الضروري لحاجة العبد مما يَكُنُّ من المطر ويظلل من الشمس يؤجر به العبد إن شاء الله ، وأما تضييعُ الأموال في تشييد البنيان الذي لا يسكنه العبد ولا حاجة له به فهذا لا يؤجر عليه . وفي ذلك أحاديث :

الحديث الأول : أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن عبد الله بن عمر ، قال : [مرّ علينا رسول الله ﷺ ونحن نُعالِجُ خُصْماً لنا⁽¹⁾ . فقال : ما هذا؟ فقلت : خُصٌّ لنا وهى ، نحن نُصلِّحُه . فقال رسول الله ﷺ : مَا أَرَى الْأَمْرَ إِلَّا أَعْجَلَ مِنْ ذَلِكَ]⁽²⁾ .

الحديث الثاني : أخرج البخاري في صحيحه ، وابن ماجة في سننه - واللفظ له - عن ابن عمر قال : [لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ بنيتُ بيتاً يُكِنُّني من المطر ويكنني من الشمس . ما أعاني عليه خلق الله تعالى]⁽³⁾ .

الحديث الثالث : أخرج الطبراني بسند صحيح عن خباب ، عن النبي ﷺ قال : [كُلْ نَفَقَةَ الْعَبْدِ يُؤَجَّرُ فِيهَا إِلَّا الْبِنْيَانُ]⁽⁴⁾ . وفي لفظ : [ما أنفقَ مُؤَمِّنٌ مِنْ نَفَقَةٍ إِلَّا أُجِرَ فِيهَا ، إِلَّا نَفَقَتَهُ فِي هَذَا التَّرَابِ] .

وله شاهد أخرجه ابن ماجة عن حارثة بن مُضَرَّب قال : [أتينا خباباً نعوده فقال : لَقَدْ طَالَ سُقْمِي . ولولا أَنِي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : «لَا تَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ» لَتَمَنَّيْتُهُ . وقال : «إِنَّ الْعَبْدَ لَيُؤَجَّرُ فِي نَفَقَتِهِ كُلِّهَا ، إِلَّا فِي التَّرَابِ . أَوْ قَالَ : «فِي الْبِنَاءِ» . والمقصود : البناء فوق الحاجة .

وشاهد آخر رواه الترمذي عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : [النَّفَقَةُ كُلُّهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا الْبِنَاءَ فَلَا خَيْرَ فِيهِ] .

- (1) نعالج : أي نُصلح . «خصماً» الخصم بيت من قصب . وهى : أي ضعف واسترخى .
- (2) حديث صحيح . أخرجه ابن ماجة في السنن (4160) - كتاب الزهد . باب في البناء والخراب . وانظر صحيح سنن ابن ماجة - حديث رقم - (3356) .
- (3) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح ، وابن ماجة في السنن (4162) - واللفظ له - . انظر صحيح سنن ابن ماجة - حديث رقم - (3357) ، الباب السابق .
- (4) حديث صحيح . أخرجه الطبراني والترمذي وابن ماجة بالفاظ متقاربة . انظر تخريج المشكاة (5182) - (5183) . وانظر صحيح سنن ابن ماجة (3358) ، وصحيح الجامع (4442) .

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾. أي: وإذا أخذتم أحداً بعقوبة كنتم غلاظاً جبابرة قساة. قال ابن جريج: (القتل بالسيف والسياط).

وقوله تعالى: ﴿فَأَنقُضْ اللَّهُ وَأَطِيعُونَ﴾. أي: فاستتروا بعبادة ربكم وطاعة رسولكم.
وقوله تعالى: ﴿وَأَنقُضْ الَّذِينَ آمَدُّكُمْ يَمَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿آمَدُّكُمْ بِأَتَعْلَمِ وَيَن﴾ ﴿وَحَنَّتْ وَعُيُون﴾ ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

تذكير لهم ببعض نعم الله الجليلة عليهم عسى أن يتنهدوا بذلك عن الكفر والظلم.
قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره مخبراً عن قيل هود لقومه من عاد: اتقوا عقاب الله أيها القوم بطاعتكم إياه فيما أمركم ونهاكم ، وانتهوا عن اللهو واللعب ، وظلم الناس ، وقهرهم بالغلبة والفساد في الأرض ، واحذروا سخط الذي أعطاكم من عنده ما تعلمون ، وأعانكم به من بين المواشي والبنين والبساتين والأنهار ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ﴾ من الله ﴿عَظِيمٍ﴾).

وقوله تعالى: ﴿فَالْوَأَسَاءُ عَلَيْنَا أَوْ عَظَتْ أَمْرُ لَمْ نَكُنْ مِنَ الْوَأَعِظِينَ﴾.

أي: فأجابت عاد هوداً - عليه الصلاة والسلام -: إن وعظك إيانا وعدمه سواء ، فلا تتعب نفسك فلن نؤمن لك .

وهذا كما في التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: 6]. قال القاسمي: (تناهوا في الغواية والضلال ، إلى حيث لا يجديهم الإنذار والتذكير).

2 - وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: 96 - 97].

3 - وقال تعالى: ﴿فَالْوَأَسَاءُ هُودُ مَا جِئْنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي ءَالِهِنَّ عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: 53].

قال ابن عباس: (كان رسول الله ﷺ يحرص أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى ، فأخبره الله تعالى أنه لا يؤمن إلا من سبق له من الله السعادة في الذكر الأول ، ولا يضل إلا من سبق له من الله الشقاوة في الذكر الأول).

أخرج الإمام أحمد في المسند بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما

قال: [خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده كتابان ، فقال: أتدرون ما هذان الكتابان؟ قال: قلنا لا إلا أن تُخبرنا يا رسول الله ، فقال للذي في يده اليمينى: هذا كتاب من رب العالمين ، فيه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم ، ثم أجمل على آخرهم ، فلا يُراد فيهم ولا يُنقصُ منهم أبداً. ثم قال للذي في شماله: هذا كتاب من رب العالمين ، فيه أسماء أهل النار وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم فلا يزداد فيهم ولا ينقصُ منهم أبداً. فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فلأي شيء إذن نعمَلُ إن كان هذا أمراً قد فرغ منه؟ قال رسول الله ﷺ: سدّدوا وقاربوا ، فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة وإن عمل أي عمل ، وإن صاحب النار يختم له بعمل أهل النار وإن عمل أي عمل ، ثم قال بيده فقبضها ، ثم قال: فرغ ربكم عز وجل من العباد ، ثم قال باليمينى فنبذ بها فقال: فريق في الجنة ، ونبذ باليسرى فقال: فريق في السعير⁽¹⁾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا خَلْقُ الْأَوَّلِينَ﴾.

قال ابن عباس: (دين الأولين). وقال مجاهد: (كذبهم). والمقصود: طريقة الأولين وعاداتهم وأخلاقهم في التعامل مع الوحي والمرسلين ، فهم سائرون على نهجهم ، يعيشون كما عاشوا ، ويموتون كما ماتوا ، ولا يؤمنون ببعث ولا نشور ولا حساب.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾. أي: لا يقرّون بالعذاب الذي كتبه الله على مخالفة الرسل سواء في الدنيا أو الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

أي: فلما كذبت عاد هوداً أهلكتهم بريح صرصر عاتية ، أي: شديدة الهبوب ، ذات برد شديد قارس ، فكان الجزاء من جنس العناد والعتو والتجبر ، وتركهم الله عبرة لمن يعتبر ، وكان قد سبق في علم الله أن أكثرهم لا يؤمنون.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 - قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَحْحَدُونَ﴾ [فصلت: 15].

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (2/ 167) ، والنسائي في «الكبرى» (11473) ، والترمذي (2141) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (46) ، وكذلك (47) ، (48) ، (49) - (50). وانظر كتابي: أصل الدين والإيمان (2/ 821) - لتفصيل مفهوم الكتابة في اللوح المحفوظ.

2 - وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلِكُوهَا أَهْلَكُوهَا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۖ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَمَينَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازٌ نَحْلٌ خَاوِيَةٌ﴾ [الحاقة: 6 - 7].

قال ابن كثير: (أي: بقوا أبداناً بلا رؤوس ، وذلك أن الريح كانت تأتي الرجل منهم فتقتلعه وتزفعه في الهواء ، ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخ دماغه ، وتكسر رأسه ، وتلقيه ، كأنهم أعجاز نخل منقعر . وقد كانوا تحصنوا في الجبال والكهوف والمغارات ، وحفروا لهم في الأرض إلى أنصافهم ، فلم يُغن عنهم ذلك من أمر الله شيئاً).

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾. أي: العزيز في انتقامه من أعدائه ، الرحيم بإنجاء أوليائه وأتباع رسله .

141 - 159. قوله تعالى: ﴿كَذَبَتْ ثُمُودُ الْمُرْسَلِينَ ۖ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۚ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۖ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۚ أَتُزَكُّونَ فِي مَا هُنَّاءٌ أَمِنْكُمْ ۖ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۖ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ۖ وَتَنجُونَ مِنَ الْجِبَالِ الَّتِي نُتِجَتْ مِنْ أُفُقٍ فَأَنْزَلْنَا مِنْهَا مِطْرًا فَسَاءَ لَكُمْ مِنْهُ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۖ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ۖ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ۖ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ۖ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۖ قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةُ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۖ فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَادِمِينَ ۖ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

في هذه الآيات: ذُكِرَ قصة ثمود الذين كانوا عرباً يسكنون مدينة الحجر ، التي بين وادي القرى وبلاد الشام ، وتحذير صالح - عليه الصلاة والسلام - لهم مغبة الاستمرار على الشرك بالله والإفساد في الأرض وعقر الناقة التي جعلها الله اختباراً لهم ، فكذبوه وعقروها فأصبحوا نادمين ، وأخذهم العذاب ليكونوا آية لمن بعدهم وقد سبق في علم الله أن أكثرهم لا يؤمنون .

فقوله تعالى: ﴿كَذَبَتْ ثُمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تُتَّقُونَ﴾ .

قال القرطبي: (ذكر قصة صالح وقومه وهم ثمود ، وكانوا يسكنون الحجر: وهي ذوات نخل وزروع ومياه).

ولقد دعاهم نبيهم صالح - عليه الصلاة والسلام - فقال: ألا تتقون عقاب الله - يا قوم - على خلافكم أمره ، ولزومكم معصيته ، والإفساد في الأرض .

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٤٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .

أي: إني أرسلت إليكم وأنا أمين على رسالة الله لكم ، فاتقوا الله أيها القوم واستمعوا نصيحتي لكم ، ﴿وَأَطِيعُوا﴾ في تحذيري إياكم ، فإني لا أبتغي من وراء بلاغي لكم أجراً ولا منزلة ، وإنما أرجو بذلك الثواب الجزيل عند الله تعالى .

وقوله تعالى: ﴿أَتَتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٤﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٥﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ .

أي: قال صالح لقومه ثمود: أتنظنون أنكم متروكون في هذه الدنيا آمنين ، في بساتين وعيون ماء ، وزروع ونخل قد أرطب ثمره فهو لين نضيج .

قال النسفي: (إنكار لأن يتركوا خالدين في نعيمهم لا يزالون عنه ﴿فِي مَا هَاهُنَا﴾ في الذي استقر في هذا المكان من النعيم ﴿ءَامِنِينَ﴾ من العذاب والزوال والموت).

وعن ابن عباس: (قوله: ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ يقول: أئنع وبلغ فهو هضيم). أو قال: (إِذَا رَطَبَ وَاسْتَرَحَى). وقال عكرمة: (الهضيم: الرطب اللين).

وقوله تعالى: ﴿وَتَنَحَّثُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ﴾ . قال ابن عباس: (يعني حاذقين). أو قال: (شهرين أشرين). قال ابن كثير: (كانوا يتخذون تلك البيوت المنحوتة في الجبال أشراً وبطراً وعبثاً ، من غير حاجة إلى سكنها ، وكانوا حاذقين مُتَّقِينَ لنحتها ونقشها ، كما هو المشاهد من حالهم لمن رأى منازلهم).

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٤٦﴾ وَلَا تَطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤٧﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ .

أي: فخافوا الله ربكم ، ﴿وَأَطِيعُوا﴾ في نصحي لكم ، ولا تتبعوا أمر الرؤساء

والكبراء دعاة الشرك والبطر فيكم ، الذين يسعون في أرض الله بالمعاصي والآثام ، ولا يصلحون أنفسهم ولا ما يعود نفعه بخير على الأنام .

وقوله تعالى: ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾ . قال مجاهد وقتادة: (إنما أنت من المسحورين). قال القرطبي: (أي: أصبت بالسحر فبطل عقلك ، لأنك بشر مثلنا فلم تدع الرسالة دوننا).

وقوله تعالى: ﴿ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ .

قال ابن عباس: (قالوا إن كنت صادقاً فادع الله يخرج لنا من هذا الجبل ناقة حمراء عشراء⁽¹⁾) فتضع ونحن ننظر ، وترد هذا الماء فتشرب وتغدو علينا بمثله لبنا). فدعا الله وفعل الله ذلك .

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿١٤٩﴾ وَلَا تَمْسُوهَا يُسُوءَ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ .

أي: هذه ناقة أخرجها الله لكم ترد ماءكم يوماً ، ويوماً تردونه أنتم ، ليس لكم في يوم وردها أن تشربوا من شربها شيئاً ، ولا لها أن تشرب في يومكم مما لكم شيئاً . ولا تنالوها بضرب أو أذى فينالكم عذاب أليم . قال ابن جرير: (يعني بالشرب: الحظ والنصيب من الماء).

وعن ابن جريج: ﴿ وَلَا تَمْسُوهَا يُسُوءَ ﴾ لا تعقروها . وقوله: ﴿ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ يقول: فيحل بكم من الله عذاب يوم عظيم عذابه).

وقوله تعالى: ﴿ فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥١﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ .

أي: فانبعث أشقاهم فعقروها برضاهم فأصبحوا نادمين على عقرها خوفاً من نزول العذاب بهم وحلول النقمة عليهم .

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

أي: إن في خبر ثمود لعبرة كبيرة ، وقد سبق في علم الله أن أكثرهم لا يؤمنون . وإن ربك - يا محمد - هو العزيز في انتقامه من أعدائه ، الرحيم بإنجائه أوليائه .

(1) أي: مضى لحملها عشرة أشهر . فهي الناقة العشراء في كلام العرب .

160 - 175. قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِيَّاهُ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَيْنَ لَمْ تَنْتَهِ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ بَحْنِي وَاهْلِي بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَجَبْنَهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ .

في هذه الآيات: تكذيب قوم لوط رسولهم حين دعاهم إلى إفرااد الله تعالى بالتعظيم ، ونبذ الفواحش وإتيان الذكران من العالمين ، فهدّوه إن لم ينته عن نصحتهم ليكونن من المخرجين ، وما زالوا على فاحشتهم حتى دكهم الله بعذاب مهين ، وكان في ذلك آية من الله العزيز الرحيم ، وقد كان سبق في علم الله أن أكثرهم لا يؤمنون .

فقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِيَّاهُ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ .

قال ابن كثير: (يقول الله تعالى مخبراً عن عبده ورسوله لوط - عليه السلام - وهو: لوط بن هاران بن آزر ، وهو ابن أخى إبراهيم الخليل ، وكان الله تعالى قد بعثه إلى أمة عظيمة في حياة إبراهيم ، وكانوا يسكنون «سدوم» وأعمالها التي أهلكتها الله بها ، وجعل مكانها بحيرة مُمْتَنَّة خبيثة ، وهي مشهورة ببلاد الغور ، متاخمة لجبال بيت المقدس ، بينها وبين بلاد الكرك والشوبك . فدعاهم إلى الله - عز وجل - أن يعبدوه وحده لا شريك له ، وأن يطيعوا رسولهم الذي بعثه الله إليهم ، ونهاهم عن معصية الله ، وارتكاب ما كانوا قد ابتدعوه في العالم ، مما لم يسبقهم الخلائق إلى فعله ، من إتيان الذُّكران دون الإناث).

وقوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ .

قال ابن جرير: (يعني: أتتكحون الذكران من بني آدم في أدبارهم .. يقول: وتدعون الذي خلق لكم ربكم من أزواجكم من فروجهن ، فأحلّه لكم).

وقوله تعالى: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾.

قال مجاهد: (تركتم أقبال النساء إلى أدبار الرجال وأدبار النساء). وقال ابن جريج: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ قال: قوم معتدون).

وفي المسند ومستدرک الحاكم وسنن ابن ماجة بسند صحيح عن ابن عباس ، أن رسول الله ﷺ قال: [مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلْ عَمَلُ قَوْمِ لُوطٍ ، فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ] (1).

وفي صحيح سنن ابن ماجة بسند حسن عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ في الذي يعمل عمل قوم لوط ، قال: [ارجموا الأعلى والأسفل . ارجموها جميعاً] (2).

وفي الباب عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: [إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي عَمَلُ قَوْمِ لُوطٍ] (3).

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا لَيْنَ لَمْ تَنْتَهِ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾.

أي: - فأجابه - لئن لم تنته يا لوط عن نهينا عن الاستمتاع بالذكران لننفيك من بين أظهرنا وبلدنا.

كما قال تعالى: ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُ أَلْ لُوطُ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْفُسٌ يَظْهَرُونَ﴾ [النمل: 56].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾. أي: من المبغضين المنكرين لعملكم اللواط. والقلبي: البغض.

قال ابن جرير: (يقول لهم لوط: إني لعملكم الذي تعملونه من إتيان الذكران في أدبارهم من القالين ، يعني من المبغضين ، المنكرين فعله).

وقوله تعالى: ﴿رَبِّ يَحْيَىٰ وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦١﴾ فَجَئْتَهُ أَهْلُهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِ﴾.

أي: دعا لوط - ﷺ - ربه عز وجل حين استعصى عليه قومه وأصروا على ركوب

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (2561) - كتاب الحدود - باب من عمل عمل قوم لوط. ورواه أحمد والحاكم. انظر صحيح ابن ماجة (2075) ، وصحيح الجامع الصغير (6465).

(2) حديث حسن. انظر صحيح سنن ابن ماجة (2076) ، والإرواء (17/6).

(3) حديث حسن. انظر صحيح سنن ابن ماجة (2077) ، الباب السابق. والمشكاة (3577).

الفاحشة المقيتة أن ينجيه الله من عذاب عملهم ، فأنجاه الله تعالى وأهله الذين تابعوه على الإيمان . إلا امرأته كانت عجوز سوء . قال قتادة : (غربت في عذاب الله عز وجل أي بقيت) . قال ابن كثير : (بقيت فهلكت مع من بقي من قومها) .

وقال ابن جرير : (فإنها أهلكت من بين أهل لوط ، لأنها كانت تدل قومها على الأضياف) . قلت : والله تعالى أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٦﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ .

أي : أهلكناهم بالخسف والحصب . قال مقاتل : (خسف الله بقوم لوط وأرسل الحجارة على من كان خارجاً من القرية) .

قال القرطبي : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا ﴾ يعني الحجارة ﴿ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ . وقيل : إن جبريل خسف بقريتهم وجعل عاليها سافلها ، ثم أتبعها الله بالحجارة) .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهِوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

أي : إن في تدمير قرية قوم لوط على رؤوس أهلها لعبرة لمن سيأتي بعدهم ، وما كان أكثرهم في سابق علم الله مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز في انتقامه من الطغاة والعتاة والمجرمين ، الرحيم في إنجاء أوليائه الصالحين .

176 - 191 . قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْمِرْثَلِ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ

أَلَا نُنْفِقُ ﴿١٧٧﴾ إِيَّاكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِلَّةَ الْأُولَىٰ ﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهِوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

في هذه الآيات : تكذيب أهل مدين نبيهم شعبياً - عليه الصلاة والسلام - ، الذي

دعاهم إلى إفراد الله تعالى بالعبادة والوفاء بالقسط والميزان ، فما زالوا على كبرهم وعنادهم حتى دكّهم الله بالعذاب ليكون آية لمن بعدهم تتناقله الأجيال عبر الزمان ، وقد كان سبق في علم الله أن أكثرهم لن يكونوا في أهل الإيمان .

فقوله تعالى: ﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ . يعني أهل مدين كذبوا نبيهم شعيباً . والأيك: الشجر الملتف الكثير ، والواحدة أيكة . قال ابن عباس: (قوله: ﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ قال: أهل مدين ، والأيك: الملتف من الشجر) . وقال ابن زيد: (بعث الله شعيباً إلى قومه من أهل مدين وإلى أهل البادية ، قال: وهم أصحاب ليكة . وليكة والأيك: واحد) . قال ابن كثير: (وكان نبيُّ الله شعيب من أنفسهم ، وإنما لم يُقَلَّ هاهنا أخوهم شعيب ، لأنهم نُسِبُوا إلى عبادة الأيك ، وهي شجرة . وقيل: شجرٌ مُلْتَفٌّ كالغيضة ، كانوا يعبدونها) .

وقوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (١٧٦) ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ (١٧٧) ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ (١٧٨) ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

أي: إذ خاطبهم نبيهم شعيب ﷺ ألا تستترون بطاعة الله وتحرزون أنفسكم من عقابه ، إني لكم رسول أمين على ما أرسلت به من الوحي إليكم ، فخافوا الله ربكم وأطيعوا رسولكم في نصحه لكم ، فما سألتكم أجراً على بلاغي لكم ، وإنما احتسب ثواب ذلك عند الله بارتكابكم .

وقوله تعالى: ﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴾ .

أي: أوفوا الناس حقوقهم إذا وزنتم لهم أو كلتم إليهم ، وإياكم والتطفيف .

قال القرطبي: ﴿ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴾ الناقصين للكيل والوزن) .

وقوله تعالى: ﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطِاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ .

القسطاس: هو الميزان . وقيل: القَبَان . قال مجاهد: (القسطاس المستقيم: العدل بالرومية) .

وقوله: ﴿ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ . قال ابن جرير: (يقول: ولا تنقصوا الناس حقوقهم في الكيل والوزن) .

وقوله: ﴿ وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ . قال النسفي: (ولا تبالغوا فيها في الإفساد ، نحو قطع الطريق والغارة وإهلاك الزروع ، وكانوا يفعلون ذلك فنهوا عنه) .

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِلَّةَ الْأُولَى﴾. قال مجاهد: (الخلقة). وقال ابن زيد: (الخلق الأولين ، الجبلية: الخلق). قال ابن كثير: (يُخَوِّفُهُمْ بِأَسْمَاءِ اللَّهِ الَّذِي خَلَقَهُمْ وَخَلَقَ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلَ).

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ - يعنون من المسحورين. وهذا كقيل ثمود لرسولها من قبل ، تشابهت قلوبهم ، فهم يلجؤون عند إفلاس حججهم إلى الاتهام والمكر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَذِبِينَ﴾.

أي: وما أنت إلا بشر مثلنا تأكل وتشرب ، ومن ثم فلا يُعقل اصطفاؤك من بيننا. قال القاسمي: ﴿وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَذِبِينَ﴾ أي: فيما تدعيه من النبوة).

وقوله تعالى: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

أي: فأسقط علينا قطعاً من السماء إن كنت صادقاً في دعواك النبوة. قال ابن عباس: ﴿كِسْفًا﴾ يقول: قطعاً. وقال الضحاك: (جانباً من السماء). وقال ابن زيد: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾: ناحية من السماء ، عذاب ذلك الكسف). وقال السدي: (عذاباً من السماء).

وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

قال القرطبي: (تهديد ، أي إنما عليّ التبليغ وليس العذاب الذي سألتهم إليّ وهو يجازيكم). وقال ابن كثير: (يقول: الله أعلم بكم ، فإن كنتم تستحقون ذلك جازاكم به غير ظالم لكم. وكذلك وقع بهم كما سألو ، جزاءً وفاقاً ، ولهذا قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾. وهذا من جنس ما سألو من إسقاط الكسف عليهم ، فإن الله - سبحانه وتعالى - جعل عقوبتهم أن أصابهم حرٌّ شديد جداً مدة سبعة أيام لا يَكُفُّهُمْ منه شيء ، ثم أقبلت إليهم سحابة أظلمت ، فجعلوا ينطلقون إليها يستظلون بظلها من الحر ، فلما اجتمعوا كلهم تحتها أرسل الله تعالى عليهم منها شرراً من نار ، ولهباً ووهجاً عظيماً ، ورجفت بهم الأرض ، وجاءتهم صيحة عظيمة أزهدت أرواحهم ، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾).

وعن مجاهد: ﴿عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ قال: أظلم العذاب قوم شعيب).

وقال ابن زيد: (بعث الله إليهم ظلة من سحاب ، وبعث إلى الشمس فأحرقت ما

على وجه الأرض ، فخرجوا كلهم إلى تلك الظلة ، حتى إذا اجتمعوا كلهم ، كشف الله عنهم الظلة ، وأحمى عليهم الشمس ، فاحترقوا كما يحترق الجراد في المِقلَى).
وقد ذُكرت قصة إهلاك أهل مدين في القرآن الكريم في أحوال ثلاثة ، حسب ما يناسب السياق .

الحال الأول: قوله تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمًا ﴾ [الأعراف: 91].

الحال الثانية: قوله تعالى: ﴿ وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جِثِيمًا ﴾ [هود: 94].

الحال الثالثة: قوله تعالى: ﴿ فَأَخَذَهُمُ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء: 189].

ففي آية «الأعراف» ذكر هلاكهم بالرجفة ، وناسب ذلك محاولتهم الإرجاف بنبي الله ومن اتبعه حيث قالوا له: ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيِنًا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ [الأعراف: 88].

وفي آية «هود» ذكر هلاكهم بالصيحة ، وناسب ذلك محاولة التهكم بنبيهم والازدراء ، حيث قالوا له: ﴿ أَصَلَوْتُمْ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ [هود: 87] ، فناسب أن تأتيهم صيحة تخرسهم .

وهنا في آية «الشعراء» ذكر هلاكهم بإسقاط الكسف عليهم كما سألوا ، وإنما كان الكسف شرراً ولهباً من نار تحرق أجسامهم وتزهق أرواحهم وتخرق الظلة التي كانت من مكر الله بهم .

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [١٩٢] وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ .

أي: إن في إهلاك أهل مدين بهذه الصورة المقيتة المؤلمة لعبرة لمن جاء بعدهم ، وما كان أكثرهم في سابق علمه تعالى مؤمنين . وإن ربك - يا محمد - لهو العزيز في انتقامه من أعداء رسله ، الرحيم في إنجائه الصالحين منهم .

192 - 202. قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [١٩٢] نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾

عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوْ لَمْ يَكُنْ

هَمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَتُو بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ .

في هذه الآيات: نزول جبريل - عليه السلام - بهذا القرآن ، بأمر من الرحمان ، على رسول الأنام ، عليه الصلاة والسلام ، بلسان عربي مبين ، ليكون نذيراً للعالمين ، وخبر هذا القرآن مذكور في كتب الأولين ، ولو نزل على بعض الأعاجم ممن لا يحسن العربية فقرأه عليهم قراءة فصيحة لاتهموه بالسحر لفرط عنادهم ، فهو لا يؤمنون حتى يروا العذاب المباغت الأليم .

فقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّمَا لَنَزَّلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . قال قتادة: (هذا القرآن) .

أي: أنزله الله تعالى عليك - يا محمد - وأوحاه إليك .

وقوله تعالى: ﴿ نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ ﴾ . قال ابن عباس: (جبريل) .

وقوله تعالى: ﴿ عَلَى قَلْبِكَ لِنَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ . قال ابن جرير: (يقول: نزل به الروح الأمين فتلاه عليك يا محمد ، حتى وعيته بقلبك . يقول: لتكون من رسل الله الذين كانوا يندرون من أرسلوا إليه من قومهم ، فتندر بهذا التنزيل قومك المكذبين بآيات الله) .

وقوله تعالى: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ . قال القرطبي: (أي لئلا يقولوا لسنا نفهم ما تقول) . وقال ابن كثير: (أي: هذا القرآن الذي أنزلناه إليك بلسانك العربي الفصيح الكامل الشامل ، ليكون بيناً واضحاً ظاهراً ، قاطعاً للعدر ، مُقيماً للحجة ، دليلاً إلى المحجة) .

وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّمَا لَفِي زُبْرِ الْأَوَّلِينَ ﴾ .

الزبر: الكتب ، واحدها زبور ، كما قال تعالى: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴾ [القمر: 52] . أي: مكتوب في صُحف الملائكة . قال النسفي: ﴿ وَإِنَّمَا ﴾ وإن القرآن ﴿ لَفِي زُبْرِ الْأَوَّلِينَ ﴾ يعني ذكره مثبت في سائر الكتب السماوية ، وقيل إن معانيه فيها) .

قلت: والبشارة بأحمد - ﷺ - وصفاته مذكورة في التوراة والإنجيل نحو ما هي في القرآن .

وفي التنزيل نحو ذلك :

1 - قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَحْدُثُ لَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: 157].

2 - وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَتَّبِعِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: 6].

وفي صحيح السنة المطهرة في آفاق هذه الآية أحاديث :

الحديث الأول: أخرج الحاكم بسند صحيح عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: [مكتوب في الإنجيل: لا فظ ، ولا غليظ ، ولا سخاب بالأسواق ، ولا يجزي بالسيئة مثلها ، بل يعفو ويصفح] (1).

الحديث الثاني: أخرج البخاري عن عطاء بن يسار قال: [لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص ، قلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة؟ قال: أجل ، والله إنه لموصوف ببعض صفته في القرآن ، ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: 45] وحرزاً للأمين ، أنت عبيدي ورسولي ، سميتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ، ولا سخاب في الأسواق ، ولا يدفع بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء ، بأن يقولوا لا إله إلا الله ، ويفتح بها أعيناً عمياً واذناً صمّاً وقلوباً غلفاً] (2).

الحديث الثالث: أخرج الدارمي وكذلك صاحب «مشكاة المصابيح» - واللفظ له - عن كعب يحكي عن التوراة قال: [نجد مكتوباً محمد رسول الله ، عبيدي المختار ، لا فظ ولا غليظ ، ولا سخاب في الأسواق ، ولا يجزي بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، مولده بمكة ، وهجرته بطيبة ، وملكه بالشام ، وأمه الحمادون ، يحمدون الله في السراء والضراء ، يحمدون الله في كل منزلة ، ويكبرونه على كل شرف ، رعاة للشمس ، يصلون الصلاة إذا جاء وقتها ، يتأزرون على أنصافهم ، ويتوضؤون على

(1) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (2/614) ، وابن عساكر (1/264/2) ، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (2458).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (2125) - كتاب البيوع - باب كراهية السخب في السوق. وانظر كذلك - (4838) - كتاب التفسير.

أطرافهم ، مناديهم ينادي في جو السماء ، صفّهم في القتال وصفهم في الصلاة سواء ، لهم بالليل دوي كدوي النحل⁽¹⁾ .

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَن يَكَلِّمُوا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ .

قال مجاهد: (يعني عبد الله بن سلام وسلمان وغيرهما ممن أسلم).

قال ابن كثير: (أي: أو ليس يكفيهم من الشاهد الصادق على ذلك أن العلماء من بني إسرائيل يجدون ذكر هذا القرآن في كتبهم التي يدرسونها؟! والمراد العدول منهم ، الذين يعترفون بما في أيديهم من صفة محمد ﷺ ومبعثه وأمثه ، كما أخبر بذلك مَنْ آمَنَ منهم كعبد الله بن سلام ، وسلمان الفارسي ، عمن أدركه منهم ومن شاكلهم).

قال القرطبي: (وإنما صارت شهادة أهل الكتاب حجة على المشركين ، لأنهم كانوا يرجعون في أشياء من أمور الدين إلى أهل الكتاب ، لأنهم مظنون بهم علم).

قلت: وقد روى بعض أهل السنن خبر اكتشاف عبد الله بن سلام صدق النبوة في وجه النبي ﷺ خلال تأمله فيه ، وأن وجهه عليه الصلاة والسلام قد امتلأ صدقاً ونوراً .

فقد أخرج الترمذي وابن ماجة والحاكم بإسناد على شرط الشيخين عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال: [أول ما قدم رسول الله ﷺ المدينة ، انجفل الناس إليه ، فكنت فيمن جاءه ، فلما تأملت وجهه واستبنته ، عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب ، قال: فكان أول ما سمعت من كلامه أن قال: أيها الناس! أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام]⁽²⁾ .

ثم أقبل عبد الله بن سلام فأسلم وشهد للنبي ﷺ بأنه رسول الله حقاً ، وأنه جاء بحق ، ثم باهت يهود في ذلك وكشف كذبهم ومكرهم أمام النبي ﷺ ، وذلك بعد أن استقر النبي ﷺ في دار أبي أيوب بعد وصوله المدينة .

فقد أخرج البخاري في صحيحه عن أنس قال: [. . . فقال نبي الله ﷺ: أي بيوت أهلنا أقرب؟ فقال أبو أيوب: أنا يا نبي الله ، هذه داري وهذا بابي ، قال: فانطلق فهئ لنا مقيلاً . قال: قوما على بركة الله ، فلما جاء نبي الله ﷺ جاء عبد الله بن سلام ،

(1) هذا لفظ المصابيح ، ورواه الدارمي مع تغيير يسير. انظر تخريج: «مشكاة المصابيح» (5771) - كتاب الفضائل والشمال - وكتابي: أصل الدين والإيمان (2/ 908 - 910) لتفصيل البحث .

(2) حديث صحيح. أخرجه الترمذي وابن ماجة والحاكم على شرط الشيخين. انظر صحيح الترغيب (612/1) .

فقال: أشهد أنك رسول الله وأنت جئت بحق ، وقد علمت يهودُ أني سيدهم وابن سيدهم وأعلمهم وابن أعلمهم ، فادعهم فاسألهم عني قبل أن يعلموا أني قد أسلمت ، فإنهم إن يعلموا أني قد أسلمت قالوا فيّ ما ليس فيّ ، فأرسل نبي الله ﷺ فأقبلوا فدخلوا عليه فقال لهم رسول الله ﷺ: يا معشر اليهود! ويلكم اتقوا الله ، فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أني رسول الله حقاً ، وأني جئتكم بحق فأسلموا. قالوا: ما نَعْلَمُهُ. قالوا للنبي ﷺ ، قالها ثلاث مرار. قال: فأني رجل فيكم عبدُ الله بنُ سلام؟ قالوا: ذاك سيدنا وابن سيدنا ، وأعلمنا وابن أعلمنا. قال: أفرأيتم إن أسلم؟ قالوا: حاشى الله ما كان ليُسَلِّم. قال: أفرأيتم إن أسلم؟ قالوا: حاشى الله ما كان ليُسَلِّم. قال: أفرأيتم إن أسلم؟ قالوا: حاشى الله ما كان ليُسَلِّم. قال: يا ابن سلام اخرج عليهم. فخرج فقال: يا معشر اليهود اتقوا الله ، فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله وأنه جاء بحق. قالوا: كذبت ، فأخرجهم رسول الله ﷺ⁽¹⁾.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ۖ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾.

الأعجم هو الذي لا يفصح ، وكذلك الأعجمي ، ففيه زيادة ياء النسبة للتأكيد.

قال القاسمي: (أي: ولو نزلناه بنظمه البديع على بعض الأعاجم الذي لا يحسن العربية ، فقرأه عليهم قراءة فصيحة ، انفتق لسانه بها ، خرقاً للعادة ، لكفروا به كما كفروا. ولتمحلوا لجحودهم عذراً. ولسموه سحراً ، لفرط عنادهم).

وقوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴾.

قال ابن جريج: ﴿ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ ﴾ قال الكفر ﴿ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴾. وقال عكرمة: (القسوة). وقال يحيى بن سلام: (سلكنا التكذيب في قلوبهم ، فذلك الذي منعهم من الإيمان).

والمقصود: كذلك أدخلنا في قلوب المجرمين ترك الإيمان بهذا القرآن ، والجدال بالباطل لمحاربتة ، ليدوقوا وبال عنادهم وتكبرهم عذاباً أليماً في عاجل الدنيا ويوم القيامة.

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح - (3911) - كتاب مناقب الأنصار ، وانظر تفصيل ذلك في كتابي: السيرة النبوية (1/ 465 - 467).

وقوله تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾.

قال النسفي: (المراد معاينة العذاب عند الموت ويكون ذلك إيمان يأس فلا ينفعهم).

وقال ابن جرير: (فعلنا ذلك بهم لثلا يصدقوا بهذا القرآن ، حتى يروا العذاب الأليم في عاجل الدنيا ، كما رأت ذلك الأمم الذين قصّ الله قصصهم في هذه السورة).

وقوله تعالى: ﴿فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

أي: فيأتيهم العذاب الأليم فجأة وهم لا يعلمون اقترابه ، وإنما يبيغتهم بغتة فإذا هم في العذاب المهين المذل.

203 - 209. قوله تعالى: ﴿فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ﴾ ﴿أَفِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾

﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾ ﴿ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ ﴿مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ﴾ ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا هَا مُنْذِرُونَ﴾ ﴿ذَكَرْنَاهَا وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.

في هذه الآيات: سؤال المشركين حين نزول العذاب بهم النظرة والإمهال دون جدوى ، وتوبيخ لهم وإنكار عليهم الاستهزاء بقدوم العذاب ، وسنة الله إنذار أهل القرى قبل حلول العذاب ، فما الله بظلام للعبيد.

فقوله تعالى: ﴿فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ﴾.

قال النسفي: (يسألون النظرة والإمهال طرفة عين فلا يجابون إليها).

وقال ابن كثير: (أي: يتمنون حين يُشاهدون العذاب أن لو أنظروا قليلاً ليعملوا في زعمهم بطاعة الله ، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَهُ أَجَلٍ قَرِيبٍ نَحْبُ دَعْوَتِكَ وَتَشِيعَ الرُّسُلُ أُولَئِكَ تُكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: 44] ، فكل ظالم وفاجر وكافر إذا شاهد عقوبته ندم ندماً شديداً).

وقوله تعالى: ﴿أَفِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ - توبيخ لهم ، وإنكار عليهم الاستهزاء بقدوم العذاب ، وقولهم تنطعاً وغروراً: ﴿فَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَاباً مِنْ السَّمَاءِ أَوْ أَثْنَيْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: 32]. وكقولهم: ﴿أَثْنَيْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [العنكبوت: 29].

وقوله تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ ﴾ .

أي: أفرأيت - يا محمد - إن متعناهم في هذه الدنيا سنين - والمراد أهل مكة ومن ثم فالآية عامة في أمثالهم من المستكبرين - ثم نزل بهم العذاب والهلاك الذي وُعدوا به على بغيهم وعنادهم ، فأى شيء يُجدي عنهم ما كانوا فيه من الزخارف والبهجة والنعيم ، أو فما أغنى عنهم الزمان الذي كانوا يمتعون به .

وفي الأثر عن الزهري⁽¹⁾: إن عمر بن عبد العزيز كان إذا أصبح أمسك بلحيته ثم قرأ: ﴿ أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ ﴾ ثم يبكي ويقول:

نهارك يا مغرور سهوٌ وغفلةٌ وليك نومٌ والردى لك لازمٌ
فلا أنت في الأيقاظ يقظانٌ حازمٌ ولا أنت في النّوام ناجٍ فسالمٌ
تسرُّ بما يقضى وتفرح بالمنى كما سرَّ باللذات في النوم حالمٌ
وتسعى إلى ما سوف تكره غبّةٌ كذلك في الدنيا تعيشُ البهائم

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 - قال تعالى: ﴿ كَانَتْهُمْ يَوْمَ بَرُورٍ نَارٌ يَلْبِسُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى ﴾ [النازعات: 46].

2 - وقال تعالى: ﴿ كَانَتْهُمْ يَوْمَ بَرُورٍ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَّغٌ فُهِلَ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [الأحقاف: 35].

3 - وقال تعالى: ﴿ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ﴾ [الليل: 11].

وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: [يُوتَى بِأَنعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا، مِنْ أَهْلِ النَّارِ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ! هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّبَكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فيقول: لا، والله! يا رب!] الحديث⁽²⁾.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرِيبٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ﴿٢٠٧﴾ ذَكَرْنَاهُ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ .

إخبار عن عدله تعالى في خلقه ، فإنه قد أعذر إلى كل أمة قبل إهلاكها ، فلما طغوا وأبوا إلا الكفر والعناد قابلهم بالعذاب والدمار .

(1) ذكره القرطبي في التفسير ، عند هذه الآية .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم (2807) ، وأحمد (3/203) ، وأخرجه أبو يعلى (3521) .

قال الكسائي: ﴿ذَكَرْنِي﴾ في موضع نصب على الحال. وقال الفراء: بل في موضع نصب على المصدر والتقدير: يذكرون ذكرى. واختاره القرطبي وقال: (وهذا قول صحيح ، لأن معنى ﴿إِلَّا لَهَا مُذْرُوْنَ﴾ إلا لها مذكرون. ويجوز أن يكون ﴿ذَكَرْنِي﴾ في موضع رفع على إضمار مبتدأ. قال أبو إسحاق: أي إنذارنا ذكرى. وقال الفراء: أي ذلك ذكرى ، وتلك ذكرى. ﴿وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ في تعذيبهم حيث قدمنا الحجة عليهم وأعذرنا إليهم).

وفي التنزيل نحو ذلك :

1- قال تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت : 46].

2- وقال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَكْرَمَ الْحَكِيمِينَ﴾ [التين : 8].

وفي صحيح مسلم من حديث أبي ذر مرفوعاً إلى النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل : [قال الله تعالى: يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا]⁽¹⁾.

210 - 212. قوله تعالى: ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ وَمَا يَبْغِي لَهُمْ وَمَا

يَسْتَطِيعُونَ ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ﴾.

في هذه الآيات: حفظ الله القرآن عن أيدي الشياطين وسمعهم برمي الشهب عليهم ، فهو تنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين ، على قلب محمد النبي الأمين.

وعن قتادة: (قوله: ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ قال: هذا القرآن. وفي قوله: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ﴾ قال: عن سمع السماء).

فذكر سبحانه أن هذا الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، إنما هو تنزيل رب العالمين نزل به الروح جبريل الأمين ، وما تنزلت به الشياطين ، فإن ذلك ممتنع عليهم من ثلاثة أوجه :

الوجه الأول: ﴿وَمَا يَبْغِي لَهُمْ﴾. قال ابن كثير: (أي: ليس هو من بُغيتهم ولا من

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح (8/17)، وأحمد في المسند (5/160) من حديث أبي ذر.

طَلَبْتَهُمْ ، لأن من سَجَّاهِم الفساد وإضلال العباد ، وهذا فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ونورٌ وهدى وبرهان عظيم ، فبينه وبين الشياطين منافاةً عظيمة).

الوجه الثاني: ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾. أي: ولو انبغى لهم لما استطاعوا ذلك. قال النسفي: (وما يسهل لهم ولا يقدرون عليه). وقال ابن جرير: (يقول: وما يستطيعون أن يتنزلوا به ، لأنهم لا يصلون إلى استماعه في المكان الذي هو به من السماء).

الوجه الثالث: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ﴾. قال القرطبي: (أي برمي الشهب). والمقصود: إنهم عن استراق السمع أصبحوا ممنوعين بعد بعثة النبي ﷺ.

ففي التنزيل نحو ذلك:

- 1 - قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: 5].
- 2 - وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ ^(١١) وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ^(١٧) إِلَّا مِنْ أَشْرَقَ أَسْفَعُ فَأَنْبَعَتْ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ [الحجر: 16 - 18].
- 3 - وقال تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحَفِظْنَاهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: 12].

وفي الصحيحين عن ابن عباس قال: [انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب ، فرجعت الشياطين. فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب. قال: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا ما حدث ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ما هذا الأمر الذي حدث ، فانطلقوا فضرَبوا مشارق الأرض ومغاربها ينظرون ما هذا الأمر الذي حال بينهم وبين خبر السماء. قال: فانطلق الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ بنخلة وهو عامد إلى سوق عكاظ ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر. فلما سمعوا القرآن تسمعوا له فقالوا: هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء ، فهناك رجعوا إلى قومهم فقالوا: يا قومنا إنا سمعنا قرآنا عجباً الحديث⁽¹⁾.

213 - 220. قوله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾ ^(٢١٣)

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4921)، كتاب التفسير ، ورواه مسلم والترمذي وغيرهم.

وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٦﴾ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٧﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بِرَبِّكُمْ مَعَّمٌ تَعْمَلُونَ ﴿٢١٨﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٩﴾ الَّذِي يَرِنُكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢٢٠﴾ وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجْدِينَ ﴿٢٢١﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٢٢﴾ .

في هذه الآيات: تحذيرُ الله تعالى من الشرك ، وأمره نبيه - ﷺ - البدء بالقرابة والعشيرة في الدعوة وخفض الجناح للمؤمنين ، والتوكل عليه إنه هو العزيز الرحيم ، الذي يرى قنوتك له - يا محمد - وتقلبك في الساجدين .

فقوله تعالى: ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴾ . قيل : المعنى قل لمن كفر هذا . وقيل : الخطاب للنبي ﷺ والمراد من حوله وأمته فهو المعصوم لا يشرك بالله شيئاً . قال القرطبي : (ودلّ على هذا قوله: ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ أي : لا يتكلمون على نسبهم وقرابتهم فيدعون ما يجب عليهم) . وقوله تعالى: ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ .

أمرٌ بإنذار العشيرة والأقربين ، فقد صحّ الخبر بانقضاء مرحلة الدعوة السرية بنزول هذه الآية ، وفي ذلك أحاديث :

الحديث الأول: أخرجه البخاري ومسلم - واللفظ للإمام البخاري - عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: [لما نزلت: ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ صعد النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادي: يا بني فُهر ، يا بني عديّ لبطن قريش حتى اجتمعوا ، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو ، فجاء أبو لهب وقريش ، فقال: أرايتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم ، ما جربنا عليك إلا صدقاً . قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد . فقال أبو لهب: تبّاً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾] (1) .

الحديث الثاني: خرّج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: [لما أنزلت هذه الآية ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشاً فاجتمعوا فعمّ وخصّ ، فقال:

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4770) - كتاب التفسير . وانظر (3525)، (4971) . ورواه مسلم (208) ، والترمذي (3363) ، والنسائي في «الكبرى» (10819) ، وأخرجه أحمد (281/1) ، (307/1) ، وابن حبان (655) .

يا بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني مُرَّة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار ، يا فاطمة أنقذي نفسك من النار ، فإني لا أملك لكم من الله شيئاً ، غير أن لكم رَحِمًا سَابُلَهَا يَبْلَاهَا⁽¹⁾ .

الحديث الثالث: أخرج البخاري عن أبي هريرة قال: [قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله عز وجل: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ قال: يا معشر قريش اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً ، ويا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً ، ويا فاطمة بنت محمد سأليني ما شئت لا أغني عنك من الله شيئاً⁽²⁾ . وله شاهد عند الترمذي من حديث أبي موسى الأشعري قال: [لما نزل: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ . وضع رسول الله ﷺ إصبعيه في أذنيه فرفع صوته فقال: «يا بني عبد مناف يا صباحاه» .]

فكان الأمر بالبده بالأهل والقربة في الدعوة ، فإن الأقارب والأرحام سند طبيعي للرجل ، وصلة فطرية فطر الله الخلق عليها ، فإن آمنوا كان ذلك قوة إلى قوة ، ونوراً على نور ، قد جمعوا بين قوة الإيمان ونور الإسلام ، وبين صلة القرابة والنسب وأنس الأرحام .

وفي التنزيل نحو ذلك :

1 - قال تعالى: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ [محمد: 22] .

2 - وقال تعالى: ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَوَأْنَفُسُكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحریم: 6] .

وفي صحيح مسلم عن قبيصة أن النبي ﷺ قال: [يا بني عبد مناف ، يا بني عبد

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم (204) - كتاب الإيمان ، وأخرجه الترمذي (3185) ، والنسائي (248/6) ، وأخرجه أحمد (333/2) . وانظر صحيح البخاري (2753) نحوه .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4771) - كتاب التفسير ، وانظر صحيح مسلم (206) ، ح (352) ، ومسنند أحمد (398/2) ، (350/2) . وانظر للشاهد صحيح الترمذي (2547) .

مناف! إني نذير ، إنما مثلي ومثلكم ، كمثل رجل رأى العدو ، فانطلق يريد أهله ، فخشي أن يسبقوه إلى أهله ، فجعل يهتف : يا صباحاه ، يا صباحاه! أُتِيتُمْ أُتِيتُمْ⁽¹⁾ .

ثم إن الرحم المظلومة والقربة المقطوعة ستقف يوم القيامة أمام ربها عز وجل تلتبس منه النصر من الذي قطعها ومن الذي ظلمها ، فينتصر الله لها أمام الخلائق في مشهد الحساب .

فقد أخرج الإمام البخاري في «الأدب المفرد» بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو وأبي هريرة قالا : [عطف لنا النبي ﷺ إصبعه فقال : الرحم شجنةٌ من الرحمن ، من يصلها يصله ، ومن يقطعها يقطعها ، لها لسان طلقٌ ذلُّقٌ يوم القيامة ، تقول : يا رب إني ظلمت ، يا رب إني قطعت ، يا رب إني ظلمت ، فيجيبها : ألا ترضين أن أقطع من قطعك ، وأصل من وصلك؟ (وفي رواية : قالت بلى يا رب . قال : فذلك لك) . ثم قال أبو هريرة : فافروا إن شئتم : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ [محمد : 22][⁽²⁾].

وقوله تعالى : ﴿ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

قال ابن زيد : (يقول : لِمَنِ لَهُم) . قال ابن جرير : (يقول : وألن جانبك وكلامك لمن اتبعك من المؤمنين) .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنْ بَرِئْتُ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ .

أي : فإن أصرت عشيرتك - يا محمد - وقرابتك على عبادة الأوثان ولزوم تقاليد الآباء الفاسدة وأبوا إلا معصية أمرك فيما تدعوهم إليه من الوحي الكريم والهدي العظيم ، فقل لهم : إني بريء مما أنتم عليه من عبادة الأصنام ومعصية رب الأنام .

وقوله تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ .

أي : واجعل اعتمادك - يا محمد - على العزيز في انتقامه من أعدائه ، الرحيم بأوليائه وأهل الإنابة إليه .

وقوله تعالى : ﴿ أَلَدَىٰ يَرِينَا حِينَ نَقُومُ ﴾ . قال مجاهد : (أيما كنت) .

(1) حديث صحيح . انظر صحيح مسلم (207) - كتاب الإيمان ، وكتابي : السيرة النبوية (1/ 186-197) لتفصيل هذا البحث : «مرحلة الجهر بالدعوة وخصائص المرحلة الجهرية» .

(2) حديث صحيح . انظر : «صحيح الأدب المفرد» (39) باب فضل صلة الرحم . وكذلك (46) باب إثم قاطع الرحم ، لتفصيل الروايات .

قال النسفي: ﴿الَّذِي يَرَبُّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ متهجداً. وقال ابن جرير: (الذي يراك حين تقوم إلى صلاتك).

وقوله تعالى: ﴿وَتَقَلُّبِكَ فِي السَّجْدَيْنِ﴾. قال ابن عباس: (يقول: قيامك وركوعك وسجودك). وقال عكرمة: (قائماً وساجداً وراكعاً وجالساً).

وعن قتادة: ﴿وَتَقَلُّبِكَ فِي السَّجْدَيْنِ﴾ قال: (في المصلين). قال ابن عباس: (يراك وأنت مع الساجدين تقلب وتقوم وتقع معهم).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

أي: السميع لأقوال عباده ومناجاتهم ، العليم بأعمالهم وتقلبهم وحركاتهم وسكناتهم.

221 - 227. قوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ

أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُهُمْ كَذِبٌ ﴿٢٢٣﴾ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾.

في هذه الآيات: تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ عَلَى الْأَفَّاكِينَ الْأَثِيمِينَ ، وذمُّ الشعراء الضالين المنافقين ، واستثناء الذين آمنوا منهم وعملوا الصالحات وانتصروا للحق وكانوا من الذاكرين ، وسيعلم الظالمون أي منقلب ينقلبون.

فقوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ.

أي: يقول تعالى: هل أنبئكم أيها الناس على من تنزل الشياطين؟! إنها تنزل على كل كذاب بهات دجال آثم.

قال مجاهد: ﴿كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾: كل كذاب من الناس. وقال قتادة: (هم الكهنة تسترق الجن السمع ، ثم يأتون به إلى أوليائهم من الإنس).

وقوله تعالى: ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُهُمْ كَذِبٌ﴾. أي: يسترقون السمع فيقذفون

بالشهب فيزيدون الخبر بالكذب . قال مجاهد : (الشياطين ما سمعته ألقته على كل آفاك كذاب) .

وفي صحيح السنة المطهرة من آفاق هذه الآية أحاديث :

الحديث الأول: أخرج البخاري عن عروة بن الزبير ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : [سأل رسول الله ﷺ ناسٌ عن الكُهان ، فقال : ليسَ بشيء . فقالوا : يا رسول الله إنهم يُحدِّثوننا أحياناً بشيء فيكون حقاً ، فقال رسول الله ﷺ : تلك الكلمة من الحق يَخْطُفُهَا الْجِنِّي فَيَقْرُأُهَا فِي أُذُنٍ وَلَيْتَهُ فَيَخْلُطُونَ معها مئة كَذِبَةٍ] (1) .

الحديث الثاني: أخرج البخاري وأبو داود عن سفيان عن عمرو قال : سمعت عكرمة يقول : سمعت أبا هريرة يقول : إنَّ نبي الله ﷺ قال : [إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاعاً لقوله ، كأنه سلسلة على صفوان ، حتى إذا فُزِعَ عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال : الحق ، وهو العليُّ الكبير . فيسمعها مُسترقو السمع ، ومُستترِقو السمع - هكذا بعضهم فوق بعض - وَوَصَفَ سفيانُ بيده فَحَرَفَهَا ، وَبَدَّدَ بين أصابعه - فيسمع الكلمة ، فيلقِيها إلى مَنْ تَحْتَهُ ، ثم يلقِيها الآخر إلى مَنْ تَحْتَهُ ، حتى يَلْقِيها على لسانِ السَّاحِر - أو : الكاهن . فَرُبَّمَا أدركه الشهابُ قبل أن يَلْقِيها ، وَرُبَّمَا ألْقَاهَا قبل أن يدركه ، فَيَكْذِبُ معها مئة كَذِبَةٍ . فيقال : أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا كذا وكذا؟ فَيُصَدِّقُ بتلك الكلمة التي سُمِعَتْ من السماء] (2) .

الحديث الثالث: أخرج البخاري عن عروة ، عن عائشة رضي الله عنها ، عن النبي ﷺ قال : [الملائكة تَحَدَّثُ في العَنَانِ - والعَنَانُ : الغمامُ - بالأمر يكون في الأرض فَتَسْمَعُ الشياطين الكلمة فَتَقْرُأُهَا في آذان الكاهن كما تُقْرَأُ القارورة فيزيدون معها مئة كَذِبَةٍ] (3) .

وفي رواية : تقول عائشة : سمعت رسول الله ﷺ يقول : [إنَّ الملائكة تنزلُ في العَنَانِ - وهو السَّحاب - فَتَذْكُرُ الأَمْرَ قُضِيَ في السَّمَاء ، فَتَسْتَرِقُ الشياطين السَّمْعَ

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (5762) - كتاب الطب . باب الكهانة ، ورواه أيضاً برقم (6213) ، وأخرجه مسلم في الصحيح (2228) ، وأحمد في المسند (87/6) .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4701) ، وأبو داود (3989) ، والترمذي (3223) ، وأخرجه ابن ماجة في السنن (194) ، وكذلك ابن حبان في صحيحه (36) .

(3) حديث صحيح . أخرجه البخاري - (3288) - كتاب بدء الخلق ، باب صفة إبليس وجنوده ، وانظر للرواية الثانية (3210) - كتاب بدء الخلق - باب ذكر الملائكة صلوات الله عليهم .

فَتَسْمَعُهُ ، فتوحيه إلى الكهان ، فيكذبون معها مئة كذبة من عند أنفسهم].

وقوله تعالى: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾. قال مجاهد: (الشياطين).

وقال قتادة: (يتبعهم الشياطين). وقال عكرمة: (عصاة الجن). وقال ابن زيد: (الغاوون المشركون). وعن ابن عباس قال: (كان رجلان على عهد رسول الله ﷺ أحدهما من الأنصار ، والآخر من قوم آخرين ، وأنها تهاجيا ، وكان مع كل أحد منهما غواة من قومه ، وهم السفهاء ، فقال الله: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾).

قال ابن جرير: (إن شعراء المشركين يتبعهم غواة الناس ، ومردة الشياطين ، وعصاة الجن).

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [لَأَنْ يَمْتَلِيَّ جَوْفُ الرجل قَيْحاً يَرِيهِ ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَمْتَلِيَّ شِعْراً]⁽¹⁾.

وفي صحيح مسلم ومسند أحمد عن أبي سعيد الخدري قال: [بَيْنَا نَحْنُ نَسِيرُ مع رسول الله ﷺ بِالْعَرَجِ⁽²⁾ ، إِذْ عَرَضَ شَاعِرٌ يُشَدُّ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: خَذُوا الشَّيْطَانَ ، أَوْ أَمْسِكُوا الشَّيْطَانَ ، لَأَنْ يَمْتَلِيَّ جَوْفُ رَجُلٍ قَيْحاً ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلِيَّ شِعْراً]⁽³⁾.

والخلاصة: لا يتبع شعراء الجاهلية إلا الغاوون وهم السفهاء أو الراوون أو الشياطين أو المشركون ، فإنهم يتبعونهم على باطلهم وكذبهم وتمزيق الأعراض والقدح في الأنساب ومدح من لا يستحق المدح وغير ذلك من وجوه الفساد.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾. أي: في كل وادٍ من الكلام يخوضون ويتحدثون.

قال ابن عباس: (في كُلِّ لَغْوٍ يخوضون). وقال الضحاك عن ابن عباس: (في كُلِّ فَنٍّ من الكلام). وقال مجاهد: (في كل فن يفتنون). وقال قتادة: (يمدحون قوماً بباطل ، ويشتمون قوماً بباطل).

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2257) - كتاب الشعر ، وانظر (2258) من حديث سعد.

(2) العَرَج: قرية جامعة من عمل الفرع على نحو ثمانية وسبعين ميلاً من المدينة.

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (2259) - كتاب الشعر ، باب: في إنشاد الأشعار وبيان أشعر الكلمة وذم الشعر. وانظر مسند أحمد (8/3) ، (41/3).

وعن الحسن البصري قال: (قد - والله - رأينا أوديتهم التي يهيمنون فيها ، مرةً في شتمةِ فلان ، ومرة في مدحةِ فلان).

قال النسفي: ﴿يَهيمُونَ﴾ خبر أن ، أي: في كل فن من الكذب يتحدثون ، أو في كل لغو وباطل يخوضون ، والهائم الذاهب على وجهه لا مقصد له ، وهو تمثيل لذهابهم في كل شعب من القول واعتسافهم حتى يفضلوا أجبن الناس على عترة ، وأبخلهم على حاتم).

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾.

قال ابن عباس: (أكثر قولهم يكذبون فيه). قال: (وعنى بذلك شعراء المشركين). قال ابن كثير: (فإن الشعراء يتبجحون بأقوال وأفعال لم تصدر منهم ، ولا عنهم ، فيتكثرون بما ليس لهم).

قلت: وطربُ العامة ببعض هؤلاء الشعراء يدفع شعراء الجاهلية - هؤلاء - إلى تسويق أي شيء لسد الفراغ ولو على حساب الاستهزاء بالحق وثوابت الدين: كسؤال الملكين في القبر وأمر الموت والحساب والجنة والنار وأمر الملائكة والرسل وغير ذلك ، فتراهم مدفوعين إلى التجاوزات والمبالغات بتشجيع أولئك السفهاء لهم ليحق قول الله فيهم: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَأْوَنُ﴾ ﴿٢٢٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٧﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾.

ومما يذكر في هذا الجانب عن الفرزدق ، أن سليمان بن عبد الملك سمع قوله: فبتن بجانبني مصرعات وبت أفض أغلاق الختسام فقال: وجب عليك الحد. فقال: قد درأ الله عني الحد بقوله: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ حيث وصفهم بالكذب والخلف في الوعد. وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

استثناء لشعراء الإسلام الأبطال ، كعبد الله بن رواحة ، وحسان بن ثابت ، وكعب بن زهير ، وكعب بن مالك رضي الله عنهم ، ومن مضى على مناهجهم في الشعر المتألق ، الذي سخروه لنصرة هذا الدين ، ومدح الله العظيم ، ورسوله الكريم ، والذب عن عرض المسلمين.

قال ابن عباس: (ثم استثنى المؤمنين منهم ، يعني الشعراء ، فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾).

وقوله: ﴿وَذَكِّرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾. قال ابن عباس: (في كلامهم). وقال ابن زيد: (ذكروا الله في شعرهم).

قال النسفي: (﴿وَذَكِّرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ أي: كان ذكر الله وتلاوة القرآن أغلب عليهم من الشعر ، وإذا قالوا شعراً قالوه في توحيد الله تعالى والثناء عليه والحكمة والموعظة والزهد والأدب ومدح رسول الله والصحابة وصلحاء الأمة ونحو ذلك مما ليس فيه ذنب).

قلت: وهذا الذي ذكره الإمام النسفي في تفسير هذه الآية هو من روائع البيان والتأويل لجوامع الكلم في قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾. وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتَصِرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمْتُمْ﴾.

قال ابن عباس: (يردون على الكفار الذين كانوا يهجون المؤمنين). وقال ابن زيد: (﴿وَأَنْتَصِرُوا﴾ من المشركين ﴿مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمْتُمْ﴾).

قال ابن جرير: (يقول: وانتصروا ممن هجاهم من شعراء المشركين ظلماً بشعرهم وهجائهم إياهم ، وإجابتهم عما هجوههم به).

وفي السنة العطرة كثير من آفاق هذا الاستثناء لشعراء هذا الدين ، ومن ذلك:

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد في مسنده ، وابن حبان في صحيحه ، بإسناد على شرط الشيخين عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك ، عن أبيه أنه قال للنبي ﷺ: إِنَّ اللَّهَ - عز وجل - قد نزل في الشعر ما أنزل ، فقال رسول الله ﷺ: [إِنَّ الْمُؤْمِنَ يُجَاهِدُ بَسِيْفِهِ وَلِسَانِهِ ، والذي نفسي بيده لَكَأَنَّ مَا تَرْمُونَهُمْ بِهِ نَضْحُ النَّبْلِ]⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن البراء بن عازب قال: [سمعت رسول الله ﷺ يقول لحسان بن ثابت: اهْجُئْهُمْ ، أَوْ هَاجِئْهُمْ ، وَجِبْرِيلُ مَعَكَ]⁽²⁾.

الحديث الثالث: خرَّج مسلم في الصحيح عن أبي هريرة: [أَنَّ عُمَرَ مَرَّ بِحَسَّانَ وَهُوَ يُنْشِدُ الشَّعْرَ فِي الْمَسْجِدِ ، فَلَحَظَ إِلَيْهِ ، فَقَالَ: قَدْ كُنْتُ أَتَشِدُّ ، وَفِيهِ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْكَ ،

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (387/6) ، والبيهقي (239/10) ، وابن حبان (5786).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2486) - كتاب فضائل الصحابة ، باب فضائل حسان بن ثابت.

ثم التفت إلى أبي هريرة ، فقال : أنشدك الله أسمعت رسول الله ﷺ يقول : أَجِبْ عَنِّي ، اللَّهُمَّ ! أَيُّدُهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ؟ قال : اللَّهُمَّ ! نَعَمْ ⁽¹⁾ .

الحديث الرابع : أخرج مسلم عن عائشة قالت : [قال حَسَّانُ : يا رسول الله ! ائذن لي في أبي سفيان . قال : كَيْفَ بقرابتي مِنْهُ ؟ قال : والذي أكرمك ! لَأَسْلَنَّكَ مِنْهُمْ كما تُسَلُّ الشَّعْرَةَ مِنَ الْخَمِيرِ ، فقال حَسَّانُ :

وإِنَّ سَنَامَ الْمَجْدِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ بنو بَنَتٍ مَخْزُومٍ ، ووالدكَ الْعَبْدُ
قصيدته هذه ⁽²⁾] . وفي رواية : [والذي بعثك بالحق ! لَأَسْلَنَّكَ مِنْهُمْ كما تُسَلُّ الشعرة من العجين . قالت عائشة : فسمعت رسول الله ﷺ يقول لحسان : « إن روح القدس لا يزال يؤيدك ، ما نافحت عن الله ورسوله » . وقالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « هجاهم حَسَّانُ فشفئوا واشتفى » ⁽³⁾ .

الحديث الخامس : أخرج الترمذي بسند صحيح عن أنس : [أن النبي ﷺ دخل مكة في عمرة القضاء ، وعبد الله بن رواحة بين يديه يمشي وهو يقول :
خَلُّوا بَنِي الْكُفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ الْيَوْمَ نَضْرِبُكُمْ عَلَى تَنْزِيلِهِ
ضَرْباً يَزِيلُ الْهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ وَيُذْهِلُ الْخَيْلَ عَنْ خَلِيلِهِ
فقال له عمر : يا ابن رواحة ، بين يدي رسول الله ﷺ وفي حرم الله تقول الشعر ؟ فقال رسول الله ﷺ : خَلَّ عَنْهُ يَا عُمَرُ فَلَمَّهِ أَسْرَعُ فِيهِمْ مِنْ نَضْحِ النَّبْلِ ⁽⁴⁾ .
وقوله : ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ . تهديد لمن انتصر بظلم .

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم (2485) - كتاب فضائل الصحابة ، باب فضائل حسان بن ثابت .

(2) وبعد هذا بيت لم يذكره مسلم ويذكره تتم الفائدة وهو :

ومن ولدت أبناء زهرة منهم كرام ولم يقرب عجائزك المجد
وقوله : « بنت مخزوم » : أي فاطمة أم عبد الله والزيبر وأبي طالب . وقوله : « أبناء زهرة منهم » : أي هالة بنت وهب بن عبد مناف أم حمزة وصفية . وقوله : « العبد » سب لأبي سفيان بن الحارث لأن أم الحارث وهي سمية بنت موهب ، وموهب غلام لبني عبد مناف ، وكذا أم أبي سفيان كانت كذلك وهو مراده بقوله : « ولم يقرب عجائزك المجد » . والحديث رواه مسلم (2489) - الباب السابق .

(3) حديث صحيح . انظر صحيح مسلم - حديث رقم - (2490) - كتاب فضائل الصحابة ، الباب السابق - في أثناء حديث طويل .

(4) حديث صحيح . أخرجه الترمذي (3017) في السنن . باب ما جاء في إنشاد الشعر ، وانظر صحيح سنن الترمذي (2283) ، وكتابي : السيرة النبوية (2/ 1188 - 1189) .

قال ابن زيد: (وسيعلم الذين ظلموا من المشركين أي منقلب ينقلبون).

وقال شريح: (سيعلم الظالمون كيف يخلصون من بين يدي الله عز وجل ، فالظالم ينتظر العقاب ، والمظلوم ينتظر النصر).

وفي التنزيل نحو ذلك :

1 - قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: 52].

2 - وقال تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ [الحج: 71].

3 - وقال تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمِيمٍ وَلَا سَفِيحٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: 18].

وفي صحيح السنة المطهرة في آفاق هذه الآية أحاديث :

الحديث الأول: خرّج مسلم في صحيحه عن جابر ، أن رسول الله ﷺ قال: [اتقوا الظلم ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم]⁽¹⁾.

الحديث الثاني: روى مسلم عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال: [لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة ، حتى يُقاد للشاة الجُلحاء - التي لا قرن لها - من الشاة القرناء]⁽²⁾.

الحديث الثالث: أخرج الشيخان عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [إِنَّ اللَّهَ لَيُجْزِي لِلظَّالِمِ ، فَإِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُقْلِنَهُ ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: 102]]⁽³⁾.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ «الشُّعَرَاءِ»

بِعَوْنِ اللَّهِ وَتَوْفِيقِهِ ، وَوَأَسَعُ مِنْهُ وَكَرَمُهُ



(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في صحيحه (2578) - كتاب البر والصلة . باب تحريم الظلم .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم (2582) - كتاب البر والصلة ، الباب السابق .

(3) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4686) - كتاب التفسير . وأخرجه مسلم (2583) - كتاب البر والصلة ، من حديث أبي موسى رضي الله عنه .

دروس ونتائج وأحكام

- 1 - البَخْعُ: القتل والإهلاك. وقلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمان يقلبها كيف شاء ، فمن شاء أقامه ، ومن شاء أزاغه .
- 2 - سحرة فرعون أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء ، والسحر من أعمال الكفر .
- 3 - لن يهلكَ الناسُ حتى يُعذروا من أنفسهم ، وإذا ظهر الزنا والربا في قرية فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله .
- 4 - جعل جبريل يدسُّ في في فرعون الطين خشية أن يقول: لا إله إلا الله ، فيرحمه الله ، أو خشية أن يَرَحِمه .
- 5 - ما اختلج عِرْق ولا عين إلا بذنب ، وما يدفع الله عنه أكثر .
- 6 - تَأَلَّقُ أدب إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، في نسبه الضر لذنبه وما يكون من الزلل أو التقصير والوقوع في الآثام .
- 7 - يؤتى بجهنم يوم القيامة لها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها .
- 8 - هلاك الأمم بتكذيب الرسل ، والإصرار على الكفر ، وإشاعة الفواحش والفساد والآثام .
- 9 - مكتوب في الإنجيل: « لا فظٌ ، ولا غليظٌ ، ولا سخابٌ بالأسواق ، ولا يجزي بالسيئة مثلها ، بل يعفو ويصفح » - عليه الصلاة والسلام - ومكتوب في التوراة نحو ذلك .
- 10 - القرآن أكبر معجزة خالدة في الأرض إلى يوم القيامة .

- 11 - البدء بالقراءة في الدعوة إلى الله ، وَالرَّحْمَ معلقة بالعرش ، وهي شجنة من الرحمن ، من يصلها يصله ، ومن يقطعها يقطعه .
- 12 - الملائكة تحدّث في العَنان بالأمرِ يَكُونُ في الأرض فَتَسْمَعُ الشَّيَاطِينُ الكلمة فتَقْرُؤها في آذان الكاهن ، فيكذبون معها مئة كذبة .
- 13 - الشعر بمنزلة الكلام ، فحسنه كحسن الكلام ، وقبيحه كقبيح الكلام .
- 14 - اتقوا الظلم ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشَّحَّ فإن الشَّحَّ أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم .
- 15 - إن الله ليملي للظالم ويستدرجه ، فإذا أخذه لم يفلته .





وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (93).

موضوع السورة

ملك سليمان عليه الصلاة والسلام
وتسخير الله لدولته الجن والإنس والطير والنمل لإقامة سلطان الإسلام

- منهاج السورة -

- 1 - ثناء الله تعالى على القرآن الكريم ، وأهله المؤمنين ، وذمّ المشركين المكذبين .
- 2 - قصة موسى عليه الصلاة والسلام ، وخبر خروجه من مدين إلى مصر ، ورؤيته النار وتكليم الله له ، وتحميله المهمة مع الآيات إلى فرعون وقومه ، وجحود فرعون وملئه ونزول العذاب بهم .
- 3 - خبر داود وسليمان عليهما السلام ، وتسخيره تعالى لسليمان الجن والإنس والطير وسماع حوار النمل ، ومقابلة سليمان ربه تعالى بالشكر والتعظيم .
- 4 - تفقّد سليمان الهدهد ، ومجيء الهدهد بالخبر المُسوَّغ لتأخّره .
- 5 - استقبال سليمان عليه السلام الخبر من الهدهد على وجه الثبوت والتحقيق قبل اتخاذ القرار ، وإعطاؤه رسالة عاجلة منه إلى بلقيس يأمرهم بالخضوع لسلطانه القائم بأمر الله قبل أن لا ينفعهم الفرار .

- 6 - استشارة بلقيس قومها محذرة لهم بأس الملوك ، واستقرار رأيها على إرسال هدية لسليمان تستطلع بذلك طبيعة الأمر وما يتوقع من السلوك .
- 7 - غضب سليمان عليه السلام من فعل بلقيس ، وتقريره الزحف بجيش كبير نحوها ، ورؤيته إبراز شيء من قوته وسلطانه ليباغتها به عند وصولها ، واستعانت به بجنوده من الجن لتحقيق ذلك .
- 8 - وصول بلقيس ووضعها أمام الاختبار ، وإعلان إسلامها في نهاية الأمر بعد التفكير والاعتبار .
- 9 - قصة ثمود مع نبيهم صالح عليه السلام ، وإصرارهم على التكذيب والمكر حتى دمرهم الله فما استطاعوا القيام .
- 10 - إنذار لوط قومه مغبة فاحشتهم ، وإصرارهم على ما هم فيه حتى نزل العذاب بهم .
- 11 - دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام ، توحيد الربوبية يقتضي توحيد الألوهية .
- 12 - انفراد الله بعلم الغيب ، وجهل الكفار بالحق ، وتسلية النبي ﷺ عما يلقاه من الأذى .
- 13 - ثناء الله على القرآن ، وأمره نبيه التوكل عليه ، وتقريره تعالى له أنه لا يسمع الموتى أو الصم ولا يهدي العمي ، بل الهداية من الله للمؤمنين .
- 14 - خروج الدابة من علامات الساعة ، فتنة للناس عند فسادهم .
- 15 - ذكر مشهد الحشر ، واجتماع الناس خلف راياتهم وآلهتهم في أرض المحشر .
- 16 - امتنان الله على الناس بنعمة الليل ليسكنوا فيه ، والنهار لينتشروا فيه .
- 17 - أحداث القيامة : نفخة الفزع ، وحركة الجبال ، والميزان يزن أعمال العباد .
- 18 - إعلام النبي ﷺ قومه أنه أمر بإفراد الله رب هذه البلدة بالعبادة والتعظيم .
- 19 - أمره تعالى نبيه ﷺ بتلاوة القرآن وإقامة الحجة على الناس أجمعين .
- 20 - الحمد لله الذي بيده عجائب الآيات يريها خلقه ليؤمنوا وما هو بغافل عما يعملون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

1 - 6. قوله تعالى: ﴿طَسَّ تِلْكَ ءَايَتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَلْقَلَى الْقُرْآنِ مِنَ لَدُنِّ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾﴾.

في هذه الآيات: انتصارٌ للقرآن الكريم ، الذي يحمل الهدى والبشرى للمؤمنين ، الذين يقيمون الصلاة بأركانها وواجباتها ومواقيتها وخشوعها ، ويؤتون الزكاة المفروضة في أموالهم بأوقاتها ومقاديرها ، وبالآخرة هم يوقنون . إن الذين يكفرون بالآخرة هم في تزيين الشيطان يتخبطون ، وهم في الآخرة هم الأخسرون ، وهذا القرآن - يا محمد - تلقاه من الله الحكيم العليم .

فقوله: ﴿طَسَّ﴾ - تقدم الكلام في أوائل السور التي ابتدأت بمثل هذه الحروف المقطعة ، وأنها تحمل معنى التحدي والإعجاز لهذا القرآن العظيم الذي هو من جنس هذه الأحرف .

وقوله: ﴿تِلْكَ ءَايَتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ . انتصار لهذا القرآن وتعظيم له وثناء عليه بعد ذكر تلك الحروف . قال ابن كثير: (أي: هذه آيات ﴿الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ، أي: بَيِّنٌ واضح). وقال القاسمي: (مبين لما تضمنه من الحكم والأحكام والمواعظ والاعتبار).

وقوله تعالى: ﴿هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ . قال القرطبي: ﴿هُدًى﴾ في موضع نصب على الحال من الكتاب ، أي تلك آيات الكتاب هادية ومبشرة . ويجوز فيه الرفع على الابتداء ، أي هو هدى . وإن شئت على حذف حرف الصفة ، أي فيه هدى . ويجوز أن يكون الخبر ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ .

والمقصود: أي هذا القرآن هدى من الضلالة ، وبشرى للمؤمنين برحمة الله ورضوانه .

وقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ .

أي: هذه البشـرى للمؤمنين الموصوفين بإقامة الصلاة بأركانها وواجباتها وإتمام وضوئها وخشوعها والمحافظة على مواقيتها ، وكذلك بإيتاء الزكاة المفروضة حسب أنواعها ومقاديرها ، وهم موقنون برجوعهم إلى ربهم عز وجل في الدار الآخرة ، راجون عفوه ومغفرته وكرمه .

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾ .

قال الزجاج: (جعلنا جزاءهم على كفرهم أن زيننا لهم ما هم فيه).

وعن ابن عباس: ﴿ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾: يتمادون). وقال قتادة: (يلعبون). وقال الحسن: (يتحIRON).

والمقصود: إن الذين يستبعدون البعث للحساب يوم القيامة ، ويكذبون بوعـد الله ووعيده في ذلك ، حَسَنَّا لهم ما هم عليه من التيه والغرور ، ومددنا لهم في غيـهم فهم في ظلمات العمل يتيهون .

وفي التنزيل نحو ذلك :

1 - قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا سَأَوْا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام: 44] .

2 - وقال تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام: 110] .

3 - وقال تعالى: ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [فاطر: 8] .

ومن كنوز صحيح السنة في آفاق معنى هذه الآية أحاديث :

الحديث الأول: أخرج الترمذي بسند صحيح عن أنس عن النبي ﷺ قال: [إذا أراد

الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا ، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يُوافي به يوم القيامة⁽¹⁾ .

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد بسند قوي عن عقبة بن عامر مرفوعاً: [إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج. ثم تلا: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: 44]]⁽²⁾ .

الحديث الثالث: أخرج الإمام مسلم في الصحيح عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة ، يُعطي بها في الدنيا ويَجْزِي بها في الآخرة. وأما الكافر فيُطعمُ بحسنات ما عَمِلَ بها لله في الدنيا ، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يُجْزَى بها]⁽³⁾ .

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسُونَ﴾ .

أي: هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة لهم عذاب الخزي في الدنيا والآخرة ، ثم هم في الآخرة أخسر من كل خاسر. قال القرطبي: (فإن من الناس من خسر الدنيا وريح الآخرة ، وهؤلاء خسروا الآخرة بكفرهم فهم أخسر كل خاسر). وقال ابن كثير: (أي: ليس يخسر أنفسهم وأموالهم سواهم من أهل المحشر).

وقوله تعالى: ﴿وَأِنَّكَ لَنَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ .

قال قتادة: (﴿لَنَلْقَى﴾ ، أي: لنأخذ). و﴿لَدُنْ﴾ بمعنى عند ، وهي مبنية غير معربة. فالمعنى: وإنك يا محمد ليلقى عليك هذا القرآن فتلقاه وتعلمه من عند حكيم بتدبير خلقه ، عليم بمصالح عباده وجميع أحوال ما في ملكه.

7-14. قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَتَاتِكُمْ مِنْهَا بَخْرٌ أَوْ آتِيكُمْ

بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَنَ

(1) حسن صحيح. أخرجه الترمذي (2520). انظر صحيح سنن الترمذي - حديث رقم - (1953).

(2) حديث حسن. أخرجه أحمد (145/4) ، وابن جرير في «التفسير» (115/7) ، وقال الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (115/4): «رواه أحمد والطبراني والبيهقي في «الشعب» بسند حسن». وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (414).

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2808) ح (57)، كتاب صفات المنافقين ، ورواه أحمد.

اللَّهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾ يَمْوَسِيٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقَىٰ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدِرِبًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمْوَسِي لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخَلَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ فَخَرَجَ يَيْضَاءً مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي سِتْرٍ ءَايَتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ ءَايَتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ .

في هذه الآيات: خبرُ موسى عليه الصلاة والسلام أثناء مسيره من مدين إلى مصر ورؤيته النار وتكليم الله له وتحمله المهمة مع الآيات إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوماً فاسقين. وجحودُ فرعون وملئه الحق بعد ظهوره ظلماً وعلواً فكيف كان عاقبة المفسدين؟! .

فقوله: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِيهِ إِنِّي ءَاسْتُ نَارًا سَآئِكُم مِّنْهَا بَخِيرٌ﴾ .

قال ابن جرير: (و﴿إِذْ﴾ من صلة عليم. ومعنى الكلام عليم حين قال موسى ﴿لِأَهْلِيهِ﴾ وهو في مسيره من مدين إلى مصر، وقد آذاهم برد ليلهم لما أصلد زنده ﴿إِنِّي ءَاسْتُ نَارًا﴾ أي أبصرت ناراً أو أحسستها، فامكنوا مكانكم ﴿سَآئِكُم مِّنْهَا بَخِيرٌ﴾ يعني من النار).

وقوله: ﴿أَوَّاتِكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ . أي: أو آتيكم من النار بشعلة أقتبسها منها.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ . أي تتدفؤون به. قال النسفي: ﴿أَوَّاتِكُم بِشِهَابٍ﴾ أي شعلة مضيئة ﴿قَبَسٍ﴾ نار مقبوسة بدل أوصفة. ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ تستدفئون بالنار من البرد الذي أصابكم، والطاء بدل من تاء افتعل لأجل الصاد).

وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَ هَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ .

أي: فلما جاء موسى النار التي آنسها رأى منظراً هائلاً عظيماً حيث انتهى إليها. قال ابن كثير: (والنار تضطرم في شجرة خضراء، لا تزداد النار إلا توقداً، ولا تزداد الشجرة إلا خضرة ونضرة، ثم رفَّ رأسه فإذا نورها متصل بعنان السماء). فهناك نودي ﴿أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ .

ومن أقوال المفسرين في ذلك:

1 - قال ابن عباس: (لم تكن ناراً، إنما كانت نوراً يتوهج). أو قال: (نور رب

العالمين). وقال: ﴿بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ﴾ يقول: قدس). قال: (كان نور رب العالمين في الشجرة. ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ قال: يعني الملائكة).

2- قال قتادة: ﴿بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ﴾: نور الله بورك). وقال مجاهد: (بوركت النار).

3- وقال محمد بن كعب: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ قال موسى النبي والملائكة).

قلت: والراجح عندي أنه لما جاء موسى النار التي أنسها نودي أن تقدس نور رب العالمين وبورك من حول النار: موسى والملائكة.

وقوله: ﴿وَسُبِّحَنَ اللَّهُ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾. أي: وتنزيهاً لله رب العالمين ، العلي العظيم ، نور السماوات والأرض ، الأحد الصمد الذي ليس كمثله شيء ، عما يصفه الظالمون .

وفي صحيح مسلم عن أبي موسى قال: [قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال: إن الله عز وجل لا ينام ولا ينبغي له أن ينام ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ ويرفعه ، يُرْفَعُ إليه عَمَلُ اللَّيْلِ قبل عمل النهار ، وعَمَلُ النَّهَارِ قبل عمل الليل ، حجابه النور - وفي رواية: النار - لو كشفه لأخرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه] (1).

وقوله تعالى: ﴿يَمُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

إعلام منه سبحانه لموسى أن الذي يخاطبه ويناجيه إنما هو ربُّه الله العزيز في انتقامه من فرعون وأمثاله من الطغاة ، الحكيم في ترتيب حياة أنبيائه والصالحين وفي تدبير كل أمور خلقه . ثم أمره تعالى باللقاء عصاه من يده ليريه دليلاً واضحاً على أنه القادر على كل شيء ، فيهون عليه أمر فرعون وطغيانه .

وهو قوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَّى يُعْقَبَ يَمُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ﴾.

قال ابن جريج: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ قال: حين تحولت حية تسعى).

وعن مجاهد: ﴿وَلَّى مُدْبِرًا وَلَّى يُعْقَبَ﴾ قال: لم يرجع).

قال القاسمي: ﴿فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ هو ضرب من الحيات ، أسرع حركة وأكثره اضطراباً ﴿وَلَّى﴾ أي من الخوف ﴿مُدْبِرًا وَلَّى يُعْقَبَ﴾ أي لم يرجع على عقبه من شدة

خوفه ﴿يُمُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ﴾ أي لحفظي لهم وعنايتي بهم وعصمتي إياهم مما يؤذيهم . وفيه تبشير له باصطفائه بالرسالة والنبوة . وتشجيع له بنزع الخوف . إذ لا يتمكن من أداء الرسالة ، ما لم يزل خوفه من المرسل إليه) .
وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حَسَنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .

استثناء منقطع ، وفتح باب عظيم من أبواب الأمل بعد الزلل ، فإن من وقع في المعصية ثم تدارك أمره بالتوبة والإنابة يجد الله غفوراً رحيماً .

قال الزمخشري: (يوشك أن يقصد بهذا ، التعريض بما وجد من موسى . وهو من التعريضات التي يلفظ مأخذها ، وسماه ظلماً كما قال موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ [القصص: 16]) .

وفي التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُمْ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: 53] .

2 - وقال تعالى: ﴿وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: 31] .

ومن السنة العطرة في آفاق هذه الآية أحاديث:

الحديث الأول: خَرَجَ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: [من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه] (1) .

الحديث الثاني: رَوَى مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: [إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مَسِيءُ النَّهَارِ ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مَسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا] (2) .

الحديث الثالث: أَخْرَجَ الْبَزَارُ فِي مُسْنَدِهِ بِسَنَدٍ حَسَنٍ لَطْرَقَهُ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جُبَيْرٍ ، عَنْ أَبِي طَوِيلٍ شَطْبِ الْمَمْدُودِ: [أَنَّهُ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: أَرَأَيْتَ رَجُلًا عَمِلَ

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم (2703) ، كتاب الذكر والدعاء . باب استجاب الاستغفار والاستكثار منه . والمقصود المسارعة بالتوبة قبل فوات الأوان .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم (2759) ، كتاب التوبة . باب قبول التوبة من الذنوب ، وإن تكررت الذنوب والتوبة ، وانظر (2758) .

الذنوب كُلُّهَا ، فلم يترك منها شيئاً ، وهو في ذلك لم يترك حاجة ولا داجة إلا أتاها ، فهل له من توبة ؟ قال : فهل أسلمت ؟ قال : أما أنا ، فأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأنت رسول الله . قال : نعم ، تفعل الخيرات وتترك السيئات . فيجعلهنَّ الله لك خيرات كُلَّهن . قال : وعَدَّراتي وفجراتي ؟ قال : نعم . قال : الله أكبر ! فما زال يكبر حتى توارى⁽¹⁾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرِّجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ .

قال ابن كثير : (هذه آية أخرى ، ودليلٌ باهرٌ على قدرة الله الفاعل المختار ، وصِدْق مَنْ جعل له مُعْجزةً ، وذلك أن الله تعالى أمره أن يُدْخِلَ يده في جيب دِرْعِهِ ، فإذا أدخلها وأخرجها خرجت بيضاء ساطعةً ، كأنها قطعة قَمَرٍ لها لَمَعَانٌ يتلألأ كالبرق الخاطف . وقوله تعالى : ﴿ فِي تِسْعِ آيَاتٍ ﴾ ، أي : هاتان ثنتان من تسع آياتٍ أُؤيدك بهنَّ ، وأجعلهن بُرْهَاناً لك إلى فرعون وقومه ، ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ . وهذه هي الآيات التسع التي قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ [الإسراء : 101] .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ ءَايَتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

قال ابن جريج : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ ءَايَتُنَا مُبْصِرَةً ﴾ قال : بينة ﴿ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ . يقول : قال فرعون وقومه : هذا الذي جاءنا به موسى سحر مبين ، يقول : يبين للناظرين له أنه سحر) .

وقوله : ﴿ وَحَدِّثُوا بِهَا وَأَسْتَيْقِنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ .

قال ابن زيد : (استيقنوا أن الآيات من الله حق ، فلمَ جحدوا بها ؟ قال : ظلماً وعلواً) .

وقال ابن جريج : ﴿ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ : تعظماً واستكباراً) .

والمعنى : لقد جحد فرعون وقومه الآيات التسع وكذبوها بعدما أيقنتها قلوبهم ، وعلموا يقيناً أنها من عند الله ، وإنما حملهم على معاندتها والتنكر لها الكبر والظلم

(1) أخرجه البزار في «مسنده» (4/ 79 - 80 / 3244 - كشف الأستار) ، والطبراني في «المعجم الكبير» (7/ 375 - 376 / 7235) ، وانظر السلسلة الصحيحة (3391) .

الذي ألفوه وأحبوه وظنوا أنه يجزّ لهم المنافع والمناصب والمصالح ، حتى انتقم الله منهم وانقلب السحر على الساحر .

وقوله : ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ .

أي : فانظر - يا محمد - بعين قلبك كيف كان مصيرهم بعد طغيانهم ، وكيف أغرقهم الله عن آخرهم في صبيحة واحدة . والخطاب بطريق الأولى لمشركي قريش الذين يواجهون الوحي بعنادهم وكبرهم ، فإن التاريخ المؤلم قد يعيده الله على مستحقيه متى شاء وأين شاء ، فليعتبر هؤلاء الطغاة أن ينالهم ما نال فرعون وقومه من الدمار والهلاك والأيام النحسات .

15 - 19 . قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ١٥ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَبْتَائِهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مِنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾ ١٦ وَخُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ ١٧ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَبْتَائِهَا النَّملُ أَدْخِلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ١٨ فَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدَيْ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ ١٩ .

في هذه الآيات : خبرُ داود وسليمان عليهما السلام وحمدهما الله تعالى الذي فضلهما على كثير من عباده المؤمنين ، وتسخيره تعالى لسليمان الجن والإنس والطير فهم يوزعون . وسماؤه حديث النملة في وادي النمل وتبسمه من قولها وشكره الله الذي أنعم عليه وعلى والديه وسؤاله الدخول في عباده الصالحين .

فقوله : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا ﴾ . قال قتادة : (أي فهمًا) .

وقيل : علماً بالدين والحكم وغيرهما ، كما قال جلّ ذكره : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ ﴾ [الأنبياء : 80] .

قال ابن جرير : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا ﴾ وذلك علم كلام الطير والدواب ، وغير ذلك مما خصّهم الله بعلمه .

قلت: ولا شك أن الله تعالى اختص داود وسليمان عليهما السلام إضافة إلى علوم الوحي والنبوة والحكمة، بعلوم كثيرة تفيد التمكين في الأرض، وقوة الملك والنفوذ لإقامة دولة الحق.

وقوله: ﴿وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

فيه مسألتان:

المسألة الأولى: حَمْدُ الله تعالى على النعمة، وهو أفضل من النعمة نفسها.

قال تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾ [سبأ: 13].

وفي سنن ابن ماجة بإسناد حسن عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: [ما أنعم الله على عَبْدٍ نِعْمَةً فقال: الْحَمْدُ لِلَّهِ، إلا كان الذي أعطاه أَفْضَلَ مما أَخَذَ] (1).

المسألة الثانية: شرف العلم ورفعة منزلته على بقية النعم.

قال تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: 11].

وقال هنا: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

قال القرطبي: (وفي الآية دليل على شرف العلم وإنافة محلّه وتقدّم حملته وأهله، وأن نعمة العلم من أَجَلِّ النِّعَمِ وأَجْزَلِ الْقِسَمِ، وأن مَنْ أُوتِيَ فَقَدْ أُوتِيَ فَضْلًا على كثير من عباد الله المؤمنين).

وقوله: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾. قال ابن كثير: (أي: في الملك والنبوة، وليس المرادُ وِراثَةُ المال، إذ لو كان كذلك لم يَخُصَّ سليمان وحده من بين سائر أولاد داود، فإنه قد كان لدوادَ مئة امرأة، ولكن المراد بذلك وِراثَةُ المُلْكِ والنبوة، فإن الأنبياء لا تورثُ أموالهم. كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ: «نحن معشر الأنبياء لا نورث، ما تركنا فهو صدقة»).

وقوله: ﴿وَقَالَ يَتَابِعُهَا النَّاسُ عُلْمًا مِّنْ طَرَفِ الْأَطْيَارِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

قال النسفي: (تشهيراً لنعمة الله تعالى واعترافاً بمكانها، ودعاء للناس إلى التصديق

(1) حديث حسن. أخرجه ابن ماجة (3805)، كتاب الأدب، باب فضل الحامدين. وانظر صحيح سنن

ابن ماجة - حديث رقم - (3067).

بذكر المعجزة التي هي علم منطق الطير . والمنطق كل ما يصوت به من المفرد والمؤلف المفيد وغير المفيد ، وكان سليمان عليه السلام يفهم منها كما يفهم بعضها من بعض). قال ابن جرير: ﴿وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يقول: وأعطينا ووهب لنا من كل شيء من الخيرات).

وقوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾.

اعتراف من سليمان عليه الصلاة والسلام لله تعالى بهذه النعم الجليلة ، وشكر منه له جل ثناؤه على تلك العطايا والمواهب الجميلة .

قال القاسمي: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ أي البين الظاهر . وهو قول وارد على سبيل الشكر والمحمدة . كما قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»⁽¹⁾ أي أقول هذا القول شكراً ، ولا أقوله فخراً).

وقوله تعالى: ﴿وَحِشْرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾.

قال ابن زيد: (يوزعون: يُساقون). وقال الحسن: (يتقدمون). وقال قتادة: (يرد أولهم على آخرهم). وفصل ذلك ابن عباس بقوله: (جعل على كل صنف من يرد أولاها على آخرها لئلا يتقدموا في المسير كما تصنع الملوك).

قال ابن كثير: (أي: وجمع لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير . يعني ركب فيهم في أبهة وعظمة كبيرة ، في الإنس وكانوا هم الذين يكلونه ، والجن بعدهم في المنزلة ، والطير ومنزلتها فوق رأسه ، فإن كان حراً أظلمته منه بأجنحتها .

وقوله: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ ، أي: يكف أولهم على آخرهم ، لئلا يتقدم أحد عن منزله التي هي مرتبة له).

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ﴾ . أي: حتى إذا أتى سليمان وجنوده أثناء المسير على وادي النمل ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُم لَّا يَحْطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾ . قال ابن جرير: (يقول: لا يكسرنكم ويقتلنكم سليمان وجنوده).

وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ . أي: وهم لا يعلمون أنهم يحطمونكم . قال النسفي: (أي لو شعروا لم يفعلوا ، قالت ذلك على وجه العذر واصفة سليمان وجنوده بالعدل).

(1) حديث صحيح . أخرجه أبو داود في : (39) - كتاب السنة ، (13) - باب في التخيير بين الأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام ، حديث رقم (4673) .

وقوله: ﴿فَبَسَّرَ صَاحِبًا مِّن قَوْلِهَا﴾. أي فهم ذلك سليمان فتبسم ضاحكاً متعجباً من حذرهما واهتدائهما لمصالحهما ونصيحتها للنمل ، أو فرحاً لظهور عدله .

وقوله: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدَيْ﴾. قال ابن عباس: (يقول: اجعلني). وقال ابن زيد: ﴿أَوْزِعْنِي﴾ اللهمني وحرمني على أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي).

وفي لغة العرب: أوزعه بالشيء أغراه به . واستوزعته الله شكره فأوزعني أي استلهمته فألهمني . والمقصود: توجه سليمان عليه الصلاة والسلام إلى الله عز وجل أن يلهمه شكر نعمته عليه من تعليمه منطق الطير والحيوان ، وعلى والديه بنعمة الإسلام والإيمان .

وقوله: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾.

أي: وألهمني العمل الصالح الذي تحبه وترضاه ووفقني إليه .

وقوله: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾.

قال ابن زيد: (مع عبادك الصالحين الأنبياء والمؤمنين).

قال ابن جرير: (يقول: وأدخلني برحمتك مع عبادك الصالحين ، الذين اخترتهم لرسالتك ، وانتخبتهم لوحيك ، يقول: أدخلني من الجنة مداخلهم).

20 - 26. قوله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ

الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحْطُ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَاءٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾﴾ .

في هذه الآيات: تفقد سليمان عليه السلام للهدد ، وترثته لمعرفة عذر غيابه أو

ليُتَزَلْنَ بِهِ الْعُقَابُ الْأَلِيمُ . ومجيء الهدهد بالخبر المُسَوِّغ لتأخّره بوجود ملكة وقومها يسجدون للشمس من دون الله العلي العظيم .

فعن وهب بن منبه : ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْفَاسِيَةِ ﴾ أخطأه بصري في الطير ، أو غاب فلم يحضر ؟ .

والتفقد طلب ما غاب عنك . قال النسفي : ﴿ أَمْ غَاب ﴾ أم بمعنى بل ، والمعنى أنه تعرف الطير فلم يجد فيها الهدهد ، فقال مالي لا أراه على معنى أنه لا يراه وهو حاضر لسائر ستره أو غير ذلك ، ثم لاح له أنه غائب فأضرب عن ذلك وأخذ يقول بل هو غائب .

قلت : وهذا يدل على قيام سليمان على أمر جنوده ومتابعته لشؤونهم وأحوالهم وما وكل إليهم من أعمال ، وهو درس للقادة المسلمين بعده في الحرص على إقامة العدل والانضباط ، والتأكد من جاهزية الجنود والعمال ، وحسن أدائهم لوظائفهم .
وقوله : ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ . قال ابن عباس : (يعني نَتَفَ ريشه) .

وقال عبد الله بن شداد : (نتف ريشه وتشميسه) . وقيل : نتف ريشه وتركه ملقى يأكله الذر - صغار النمل .

قلت : ولا دليل على كل ما ذكر ، والله أعلم كيف مقصود سليمان بهذا العذاب الشديد .

وقوله : ﴿ أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ ﴾ . قال الضحاك : (يقول : أو لأقتلنه) .

وقوله : ﴿ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ . أي بعذر واضح جلي .

قال ابن عباس : (يقول : بينة أعذره بها ، وهو مثل قوله : ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ ﴾ [غافر : 35] يقول : بغير بينة) .

وقال عكرمة : (كل شيء في القرآن سلطان ، فهو حجة) .

وقوله : ﴿ فَمَكَتْ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ أي الهدهد ، غاب زماناً يسيراً ثم أقبل فقال لسليمان : ﴿ أَحَطَّ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾ أي : اطلعت على أمر غاب عنك وعن جنودك .

قال وهب بن منبه : (أي أدركت ملكاً لم يبلغه ملكك) .

وقوله : ﴿ وَبَشِّرْكَ مِنْ رَبِّكَ بِبَنَاتَيْنِ ﴾ . أي : أتيتك من سبأ بخبر صدق حق يقين .

وسبأ : هم حمير ، وهم ملوك اليمن .

وقوله: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَمَلِكُهُمْ﴾. قال الحسن: (وهي بلقيس بنت شراحيل ملكة سبأ). قال القرطبي: (ويقال: كيف خفي على سليمان مكانها وكانت المسافة بين محيطها وبين بلدنا قريبة ، وهي من مسيرة ثلاث بين صنعاء ومأرب ؟ والجواب أن الله تعالى أخفى ذلك عنه لمصلحة ، كما أخفى على يعقوب مكان يوسف).

وقوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مبالغة ، والمقصود: أعطيت من كل شيء تحتاج إليه أمور مملكتها وقوام حكمها ، شأن كل ملك متمكن. قال الحسن: (يعني: من كل أمر الدنيا).

وقوله: ﴿وَلَمَّا عَزَّ عَظِيمٌ﴾. قال ابن عباس: (سرير كريم ، قال: حسن الصنعة ، وعرشها: سرير من ذهب قوائمه من جوهر ولؤلؤ).

وقال الحسن: (﴿وَلَمَّا عَزَّ عَظِيمٌ﴾: يعني سرير عظيم).

وقوله: ﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ﴾.

قال ابن جرير: (يقول: وجدت هذه المرأة ملكة سبأ ، وقومها من سبأ ، يسجدون للشمس فيعبدونها من دون الله. وقوله: ﴿وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ﴾ يقول: وحسن لهم إبليس عبادتهم الشمس ، وسجودهم لها من دون الله ، وحبب ذلك إليهم).

وقوله: ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾.

أي: فمنعهم بتحسينه وتزيينه لهم من اتباع الصراط المستقيم ، وهو دين الله القويم ، فهم لا يهتدون إلى طريق الحق ، بل هم في غيهم يترددون.

وقوله: ﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

قال ابن عباس: (يعلم كل خبيثة في السماء والأرض).

وقد قرأ بعض قراء مكة والمدينة والكوفة ﴿أَلَا﴾ بالتخفيف. والتقدير: ألا يا هؤلاء اسجدوا لله وحده الذي يعلم كل خفية في السماوات والأرض فيخرجها إن شاء.

وقرأ أبو عمرو ونافع وعاصم وحمزة ﴿أَلَا﴾ بالتشديد. والتقدير: وزين لهم الشيطان أعمالهم لئلا يسجدوا لله.

وهما قراءتان مستفيضتان مشهورتان في قراء الأمصار ، كما ذكر شيخ المفسرين.

وعن مجاهد: (﴿يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ﴾ قال: الغيث).

وقال ابن زيد: ﴿الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال: خباء السماء والأرض: ما جعل الله فيها من الأرزاق، والمطر من السماء، والنبات من الأرض، كانتا رتقاً لا تمطر هذه ولا تنبت هذه، ففتق السماء، وأنزل منها المطر، وأخرج النبات).

قلت: والآية أعم من ذلك، فهي تشمل كل خفية في السماوات والأرض، وكل غائبة صغيرة أو كبيرة، فهو يعلمها ويخرجها متى شاء، كما قال سبحانه في آخر هذه السورة: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [النمل: 75]. فيشمل الخباء كل ما هو مخبوء فيهما من نبات ومعادن وأرزاق ومخلوقات مختلفة لا يعلمها إلا الله. وقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾.

أي: ويعلم ما يخفيه العباد وما يعلنونه من الأقوال والأفعال، لا يخفى عليه سبحانه من أمر خلقه شيء.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 - قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونُ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْفُونَ شَاءَ بَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [هود: 5].

2 - وقال تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: 10].

3 - وقال تعالى: ﴿وَلَنْ يَجْهَرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: 7].

وفي المسند وسنن النسائي عن عروة عن عائشة قالت: [الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ تكلمه وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقول، فأنزل الله عز وجل: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ إلى آخر الآية⁽¹⁾.

وفي صحيح مسلم من حديث عمر - قال جبريل للنبي ﷺ - أخبرني عن الإحسان؟ قال -: [الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك].

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (46/6)، والنسائي (3460)، والبخاري تعليقاً (7385)، وأخرجه ابن ماجه (188) و(2063)، وأخرجه عبد بن حميد (1514)، وأخرجه ابن جرير في «التفسير» (33726)، وإسناده على شرط مسلم.

وفي لفظ من حديث أبي هريرة: [قال: يا رسول الله ! ما الإحسان ؟ قال: أن تخشى الله كأنك تراه ، فإنك إن لا تكن تراه فإنه يراك] (1).

وقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۝ ﴾.

قال ابن زيد: (هذا كله كلام الهدهد).

والمعنى: هلا يسجدون لله العظيم الذي لا تصلح العبادة إلا له ، لا إله إلا هو ، رب العرش العظيم الذي ليس في المخلوقات أعظم منه .

أخرج ابن أبي شيبة بسند صحيح عن أبي ذر الغفاري قال: قال رسول الله ﷺ: [ما السماوات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة] (2).

وأخرج ابن خزيمة في «التوحيد» ، وعبد الله بن أحمد في «السنة» ، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: [الكرسي موضع القدمين ، والعرش لا يقدر أحد قدره] (3).

فائدة: لقد نطق النمل في أول السورة بكلام حق ، وفهمه سليمان عليه السلام وتبسم لذلك تعجباً ، ثم تبعه الهدهد في هذا الموقف النبيل الذي يدل فيه قائده على ما فيه تمام قوته وشوكته وحماية دولة الحق . وقد نهى الله سبحانه - على لسان نبيه ﷺ - عن قتل النمل والهدهد .

فقد أخرج أبو داود وابن ماجه بسند صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: [نهى النبي ﷺ عَنْ قَتْلِ أَرْبَعٍ مِنَ الدَّوَابِّ: النَّمْلَةِ وَالنَّحْلَةِ وَالْهُدْهُدِ وَالصُّرْدِ] (4).

وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [قَرِصَتْ نَمْلَةٌ نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ،

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في صحيحه (10)، كتاب الإيمان، في أثناء حديث طويل . باب: الإسلام ما هو وبيان خصاله .

(2) حديث صحيح . أخرجه ابن أبي شيبة في «كتاب العرش» (114/1)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» ص (290). وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (109).

(3) صحيح موقوف . رواه ابن خزيمة والدارمي وعبد الله بن أحمد . انظر مختصر العلو (45) ص (102)، ورجاله كلهم ثقات . وانظر كتابي: أصل الدين والإيمان (1161/2) لتفصيل البحث .

(4) إسناده صحيح . أخرجه أبو داود (5267)، وابن ماجه (3224)، وأحمد (332/1)، وأخرجه البيهقي (317/9)، وكذلك ابن حبان (5646).

فَأَمْرَ بَقْرِيَةِ النَّمْلِ فَأُحْرِقَتْ ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ ، أَنْ قَرَصَتْكَ نَمْلَةٌ أَحْرَقَتْ أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ تُسَبِّحُ اللَّهَ ؟⁽¹⁾ .

وفي رواية: [نزل نبي من الأنبياء عليه السلام تحت شجرة ، فلدغته نملة ، فَأَمَرَ بِجَهَازِهِ فَأَخْرَجَ مِنْ تَحْتِهَا ، وَأَمَرَ بِهَا فَأُحْرِقَتْ فِي النَّارِ ، قَالَ: فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: فَهَلَا نَمْلَةٌ وَاحِدَةٌ].

وفي لفظ: [أفي أن قَرَصَتْكَ نَمْلَةٌ أَهْلَكَتْ أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ تُسَبِّحُ].

27 - 35. قوله تعالى: ﴿ قَالَسَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾^(٢٧) أَذْهَبَ بِكَتَبِي هَذَا فَالِقَهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَأَنْظَرَ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾^(٢٨) قَالَتْ يَتَأْتِيَهَا الْمَلَأُ إِلَى إِلَهِكَ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾^(٢٩) إِنَّهُمْ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾^(٣٠) أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَى وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾^(٣١) قَالَتْ يَتَأْتِيَهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴾^(٣٢) قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا فَوْقَهُ وَأُولُوا بِأَسْ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾^(٣٣) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾^(٣٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾^(٣٥) .

في هذه الآيات: استقبال سليمان عليه السلام الخبر من الهدهد على وجه التثبت والتحقق قبل اتخاذ القرار ، وإعطاؤه رسالة عاجلة منه إلى بلقيس يأمرهم بالخضوع لسلطانه القائم بأمر الله قبل أن لا ينفعهم الفرار . واستشارة بلقيس قومها محذرة لهم بأس الملوك وأبعاد هذا الإنذار ، واستقرار الرأي منها على إرسال هدية لسليمان لاستخلاص ما يكون وراء ذلك من الأخبار .

فقوله تعالى: ﴿ قَالَسَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾^(٢٧) . أي: سنتحقق مما قلت أَصَدَّقَ هو أم أردت أن تتخلص بذلك الإخبار من الوعيد والعقاب .

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: ﴿ قَالَسَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾^(٢٧) سليمان للهدهد ﴿ سَنَنْظُرُ ﴾ فيما

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3019)، كتاب الجهاد والسير ، وأخرجه مسلم (2241) ، ح (150)، كتاب السلام ، باب النهي عن قتل النمل ، ورواه أبو داود (266) ، والنسائي: (210/7 - 211) ، وابن ماجه (3225) ، وأحمد (313/2) ، وابن حبان (5614) .

اعتذرت به من العذر ، واحتججت به من الحجة لغيبك عنا ، وفيما جئتنا به من الخبر ﴿أَصَدَقْتَ﴾ في ذلك كله ﴿أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ فيه .

وقوله تعالى: ﴿أَذْهَبَ بِكُنُوزِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ .

قال الضحاك: (فمضى الهدد بالكتاب ، حتى إذا حاذى الملكة وهي على عرشها ألقى إليها الكتاب).

قال ابن كثير: (وذلك أن سليمان - عليه السلام - كتب كتاباً إلى بلقيس وقومها . وأعطاه لذلك الهدد فحملة ، قيل: في جناحه كما هو عادة الطير ، وقيل: بمنقاره ، وذهب إلى بلادهم فجاء إلى قصر بلقيس ، إلى الخلوّة التي كانت تختلي فيها بنفسها ، فألقاه إليها من كوة هنالك بين يديها ، ثم تولى ناحية أدباً ورياسة فتحيّرت مما رأت ، وهالها ذلك ، ثم عمّدت إلى الكتاب فأخذته ، ففتحت ختمه وقرأته ، فإذا فيه: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿٣٥﴾ أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَى وَاتُونِ مُسْلِمِينَ﴾ .

وقوله: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنَّي أَخَذْتُ مِنْ كِتَابِي كَرِيمٍ﴾ .

الملاء: أشراف قومها . والمقصود: أنها جمعت أمراءها ووزراءها وكبراء دولتها ومملكته وأخبرتهم قائلة لهم: ﴿إِنِّي أَخَذْتُ مِنْ كِتَابِي كَرِيمٍ﴾ . وفي تأويله وجوه:

1 - الوجه الأول: قال النسفي: ﴿أَخَذْتُ مِنْ كِتَابِي كَرِيمٍ﴾ حسن مضمونه وما فيه .

2 - الوجه الثاني: قال ابن جرير: (قال بعضهم: وصفته بذلك لأنه كان مختوماً) .

3 - الوجه الثالث: قال ابن زيد: (هو كتاب سليمان حيث كتب إليها) . فوصفت الكتاب بالكريم لأنه من عند عظيم في نفسها ونفوسهم فعظّمته إجلالاً لسليمان عليه السلام .

4 - الوجه الرابع: قيل: لأنه بدأ فيه بـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ - ذكره القرطبي .

5 - الوجه الخامس: قيل: تعني بكرمه ما رآته من عجب أمره ، كون طائر أتى به فألقاه إليها ، ثم تولى عنها أدباً . وهذا أمر لا يقدر عليه أحد من الملوك ، ولا سبيل لهم إلى ذلك - ذكره ابن كثير .

6 - الوجه السادس: قيل: وصفته بذلك ، لما تضمن من لين القول والموعظة في الدعاء إلى عبادة الله عز وجل ، وحسن الاستعطاف والاستلطاف من غير أن يتضمن سباً ولا لعناً ، ولا ما يغيّر النفس ، ومن غير كلام نازل ولا مستغلق ، على عادة الرسل في

الدعاء إلى الله عز وجل ، ألا ترى إلى قول الله عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ [النحل: 125] ، وقوله لموسى وهارون: ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ [طه: 44]. ذكره القرطبي بعد أوجه أخرى ثم قال: (وكلها وجوه حسان وهذا أحسنها).

قلت: ولا شك أن مجموع ما سبق من الخصال يمكن أن يوصف به كتاب سليمان عليه الصلاة والسلام إلى بلقيس ملكة سبأ.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ مِنْ سُلَيْمَنَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَىٰ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ.

أي قالت: يا أيها الملأ إني ألقى إليّ كتاب كريم ، وإنه من سليمان ابتدأه بـ: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾. فعرفوا أنه من نبي الله سليمان عليه السلام. وأنه لا قبيل لهم به. قال ابن كثير: (وهذا الكتاب في غاية البلاغة والوجازة والفصاحة ، فإنه حصل المعنى بأيسر عبارة وأحسنها ، قال العلماء: ولم يكتب أحد ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ قبل سليمان عليه السلام).

قال ابن زيد: ﴿ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَىٰ ﴾: أن لا تمتنعوا من الذي دعوتكم إليه ، إن امتنعتم جاهدتكم. ﴿ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ يقول: وأقبلوا إليّ مذعنين لله بالوحدانية والطاعة).

وقال ابن جرير: (وعنى بقوله: ﴿ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَىٰ ﴾: أن لا تكبروا ولا تتعاضموا عما دعوتكم إليه).

وقوله تعالى: ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾.

قال ابن زيد: (دعت قومها تشاورهم. قالت: ﴿ مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا ﴾ بمعنى: قاضية).

قال القاسمي: (أي: لا أبغ أمراً إلا بمحضركم ومشورتكم. ولا أستبدّ بقضاء إلا باستطلاع آرائكم والرجوع إلى استشارتكم).

وقوله تعالى: ﴿ قَالُوا لَنْحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأُولُوا بَأْسَ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾.

قال ابن زيد: (عرضوا لها القتال ، يقاتلون لها ، والأمر إليك بعد هذا ﴿ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾).

قال النسفي: (أرادوا بالقوة قوة الأجساد والآلات ، وبالبأس النجدة والبلاء في الحرب).

أي: قالوا لها: نحن أولو قوة في العدَدِ والعدَدِ، وأولو بأس ونجدة وبلاء في الحرب كما تعلمين ، وإنما أمر القتال أو الصلح مفوض إليك ، فرأينا من رأيك ، فانظري ما هو أبقي لشرفك ومللك.

وقوله: ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾.

قال ابن عباس: (إذا دخلوها عنوة خربوها).

وقوله: ﴿وَجَعَلُوا أَعْرَآةً أَهْلَهَا أَذَلَّةً﴾. قال ابن كثير: (أي: وقصدوا من فيها من الولاية والجنود فأهانوهم غاية الهوان ، إما بالقتل أو بالأسر).

وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾. قال ابن عباس: (قالت بلقيس: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَآةً أَهْلَهَا أَذَلَّةً﴾ ، قال الرب عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾).

وقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾.

قال قتادة: (رَحِمَهَا اللهُ وَرَضِيَ عنها. ما كان أعقلها في إسلامها وفي شريكها ! عَلِمَتْ أن الهدية تقع موقعا من الناس).

قال القرطبي: (﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ﴾ هذا من حسن نظرها وتدبيرها ، أي إني أجرب هذا الرجل بهدية ، وأعطيه فيها نفائس من الأموال ، وأُغْرِبُ عليه بأمور المملكة: فإن كان ملكاً دنيواً أرضاه المال وعملنا معه بحسب ذلك، وإن كان نبياً لم يرضه المال ولا زَمْنَا في أمر الدين ، فينبغي لنا أن نؤمن به ونتبعه على دينه).

36 - 40. قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَنَ قَالَ أُمِدُّونَنِي بِمَالٍ فَمَآءِ تَنَزَّاهُ اللَّهُ خَيْرٌ

مِمَّا آتَاكُم بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأَيِّبَنَّهُمْ بِمِثْوَرٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذَلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَأْتِيَنَّكَ أَلْمَلُوكُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عَفَرْتُ مَنِ الْجِنِّ أَنَا ءَانِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٍّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَانِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ

مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ؕ أَشْكُرْ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّيَ عَنِّي كَرِيمٌ ﴿٣٦﴾ .

في هذه الآيات: استشارة سليمان عليه السلام من فعل بلقيس وهديتها ، وتقريره الزحف بجيش كبير نحوها ، ورؤيته إبراز شيء من قوته وسلطانه ليباغتها به عند وصولها ، واستعائته بالجن وعالمهم في ذلك وشكره ربه تعالى على ما آتاه من القوة والتمكين ، وأغدق عليه من ألوان النعيم .

فقوله: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانُ قَالَ أَتَيْدُونَنِي بِمَالٍ ﴾ . قال ابن كثير: (أي: أتصنعونني بمال لأترككم على شرككم ومملكتكم؟! ﴿ فَمَاءَ آتَيْنَاهُ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَيْنَاكُمْ ﴾ أي: الذي أعطاني الله من الملك والمال والجنود خير مما أنتم فيه ، ﴿ بَلْ أَنتُمْ بِهَدْيِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ ، أي: أنتم الذين تنقادون للهدايا والتحف ، وأما أنا فلا أقبل إلا الإسلام أو السيف).

قلت: وقد أكثر المفسرون من ذكر تفاصيل الهدية دون دليل يليق على منهاج النبوة ، وإنما أكثر ذلك مأخوذاً من الإسرائيليات . ومن ثم فلا ينبغي تسويد صفحات كتب التفسير به ، والظاهر أن سليمان عليه الصلاة والسلام لم يأبه إلى ماهية هديتهم وما فيها من زينة وعجائب ، بل نظر أبعد من ذلك بكثير ، وهو مستقبل الناس بين يدي الله عز وجل ونجاتهم من عذاب الله يوم القيامة ، هذا من جهة ، ومستقبل دولة الإسلام أن لا يجاورها دولة شرك في الأرض من جهة أخرى .

وقوله: ﴿ أَزِجِّعُ إِلَيْهِمْ ﴾ . أي: رُدَّ عليهم هديتهم . قال ابن جرير: (وهذا قول سليمان لرسول المرأة) .

وقوله: ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا ﴾ . قال أبو صالح: (لا طاقة لهم بها) . قال النسفي: (وحقيقة القبل المقاومة والمقابلة ، أي لا يقدرون أن يقابلوهم) .

وقوله: ﴿ وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ . قال وهب بن منبه: (أو لتأتيني مسلمة هي وقومها) .

والمقصود: ولنخرجهم من سبأ مهانين أذلاء إن لم يأتوا مسلمين ويدينوا بالولاء للإسلام ودولة الحق .

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ يَتَأَيَّأُ الْمَلَأُ أَتَيْنِي بِعَرِيضَةٍ قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ .

إخبار عن إرادة سليمان إظهار عظمة ما وهبه الله من الملك واستقرار دولة الحق ،

وتسخيره - تعالى - له أسباب التمكين من الجنود الكثيرة ، والخبرات الكبيرة ، وبعض نواميس الطبيعة .

وقد ذكر المفسرون تفاصيل سرير بلقيس الذي كانت تجلس عليه وأنه من ذهب مُقَصَّص بالياقوت والزبرجد واللؤلؤ وغير ذلك ، والمهم بالنسبة لنا ما ذكر القرآن الكريم أنه عرش عظيم . فأراد سليمان عليه الصلاة والسلام أن يُريها صغار قوتها أمام عظمة ما آتاه الله من الملك والتسخير والتمكين . فخاطب جنوده قائلاً : ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ . قال ابن عباس : (مستسلمين) .

قال ابن زيد : (استدعاه ليربها القدرة التي هي من عند الله ، ويجعله دليلاً على نبوته ، لأخذه من بيوتها دون جيش ولا حرب) .

وقوله : ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا ءَانِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ ﴾ .

قال مجاهد : ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ ﴾ مَارِدٌ مِنَ الْجِنِّ . وقال ابن عباس : ﴿ أَنَا ءَانِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ ﴾ : يعني قبل أن تقوم من مجلسك . وقال مجاهد : (مقعدك) .

وقوله : ﴿ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيَّ أَمِينٌ ﴾ . قال ابن عباس : (أي قويٌّ على حَمْلِهِ ، أمينٌ على ما فيه من الجوهر) .

وقوله : ﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَانِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ .

الظاهر أن سليمان أراد أعجل من ذلك في إحضار السرير ليظهر لبلقيس عظمة ما هو عليه ممَّا وهبه الله من الملك والتمكين والتسخير الذي لم يكن لأحد قبله ، ولا يكون لأحد بعده . فقام جنِّي آخر من المؤمنين ممن عنده علم على منهاج النبوة فقال لسليمان : ﴿ أَنَا ءَانِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ .

قال وهب بن منبه : (امدَّد بَصْرَكَ ، فلا يبلغ مداه حتى آتيك به) .

قلت : وقد ذكر المفسرون هنا أقوالاً كثيرة في تعريف الذي عنده علم من الكتاب ، وبعضهم أتى من ذلك بالعجائب ، ولادليل عندهم تقوم به الحجة ، وإنما سياق الآيات يقتضي ما ذكرنا والله تعالى أعلم .

وفي ذلك تنبيه لفضل العلم وشرفه ومكانته ، فإنه لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، وقد رأينا في زماننا هذا سَبَقَ الأمم العاملة المتقنة الأمم النائمة الضعيفة إنما كان بالعلم والدأب والإتقان . فإذا جمع العالم بين علم الدنيا والآخرة ، وبين

التقوى والصلاح ، فلا أعجب حينئذ من ذلك ولا أقوى ولا أفضل . وهذا ما جمعه الله تعالى لسليمان عليه الصلاة والسلام وأعطاه بعض جنوده .

وفي التنزيل نحو ذلك :

1 - قال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر : 9] .

2 - وقال تعالى : ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة : 11] .

3 - وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر : 28] .

وفي كنوز الشئنة العطرة من آفاق ذلك أحاديث ، منها :

الحديث الأول: روى البخاري في صحيحه عن عبد الله بن مسعود قال: قال النبي ﷺ: [لا حَسَدَ إلا في اثْنَيْنِ: رَجُلٍ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً فَسَلَّطَ عَلَى هَلَكَةٍ فِي الْحَقِّ ، وَرَجُلٍ آتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا]⁽¹⁾ .

الحديث الثاني: أخرج الترمذي في السنن بإسناد صحيح عن أبي أمامة الباهلي قال: ذُكِرَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَجُلَانِ أَحَدُهُمَا: عَابِدٌ ، وَالْآخَرُ: عَالِمٌ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: [فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ . ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ حَتَّى الثَّمَلَةِ فِي جُحْرِهَا ، وَحَتَّى الْحَوْتَ لِيُصَلُّوا عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرِ]⁽²⁾ .

قال أبو عيسى: سمعت أبا عمار الحسين بن حريث الخزاعي يقول: سمعت الفضيل بن عياض يقول: (عالم عامل معلم يدعى كبيراً في ملكوت السماوات) .

الحديث الثالث: أخرج البزار والطبراني بإسناد حسن عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: [فَضْلُ الْعِلْمِ خَيْرٌ مِنْ فَضْلِ الْعِبَادَةِ ، وَخَيْرُ دِينِكُمُ الْوَرَعُ]⁽³⁾ . وفي لفظ: (أحبُّ إلي) بدل «خير» .

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (73) ، كتاب العلم ، باب الاغتياب في العلم والحكمة .

(2) حديث صحيح . انظر صحيح سنن الترمذي (2161) - أبواب العلم - باب في فضل الفقه على العبادة . وانظر صحيح الجامع الصغير - حديث رقم - (4089) .

(3) إسناده حسن . أخرجه الطبراني في «الأوسط» ، والبزار في المسند . انظر صحيح الترغيب (66/1) ، كتاب العلم . الترغيب في العلم وطلبه . وانظر صحيح الجامع (4090) .

وفي سنن ابن ماجه بإسناد صحيح عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [ما أنعم الله تعالى على عبدٍ نعمة فقال: الحمد لله ، إلا كان الذي أعطى أفضل مما أخذ]⁽¹⁾.

وله شاهد عن الطبراني بإسناد حسن من حديث أبي أمامة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [ما أنعم الله على عبدٍ نعمة فحمد الله عليها إلا كان ذلك الحمد أفضل من تلك النعمة].

41 - 44. قوله تعالى: ﴿قَالَ نَكِرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَنْهَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَتْ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾.

في هذه الآيات: أمر سليمان جنده بتكثير عرش بلقيس ليختبر فطنتها ، وإجابتها بقولها: ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾ عند سؤاله لها عن عرشها ، وقد فضل الله سليمان بالعلم والقوة وأضعفها ودولتها بكفرها وقومها ، فلما اختبرها بالصرح الممرد من قوارير ما ملكت إلا أن اعترفت بظلمها نفسها وأعلنت إسلامها .

فقوله تعالى: ﴿قَالَ نَكِرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَنْهَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ .

قال قتادة: ﴿نَكِرُوا﴾: غيروا. وقال مجاهد: ﴿نَكِرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾: غَيَّرُوهُ ﴿أَتَنْهَدِي﴾: أتعرفه.

قال ابن عباس: (وتكثير العرش ، أنه زيد فيه ونقص). قال: (زيد في عرشها ونقص منه ، لينظر إلى عقلها ، فوجدت ثابتة العقل).

وعن وهب بن منبه: ﴿أَتَنْهَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾: أي أتعقل ، أم تكون من الذين لا يعقلون. ففعل ذلك لينظر أتعرفه ، أو لا تعرفه.

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجه (3805)، كتاب الأدب ، باب فضل الحامدين . انظر صحيح سنن ابن ماجه (3067) ، وكذلك للشاهد: صحيح الجامع (5438).

والمقصود: لما أتى سليمان عليه الصلاة والسلام بِعَرْشِ بَلْقَيْسِ قبل وصولها إليه ، أمر بالعرش أن تُغَيَّرَ بعض صفاته ليختبر معرفتها وثباتها عند رؤيته ، هل تهتدي لمعرفة عرشها أو لا .

وقوله: ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ .

قال وهب بن منبه: (لما انتهت إلى سليمان وكلمته أخرج لها عرشها ثم قال: ﴿ أَهَكَذَا عَرْشُكِ ﴾ ؟ ﴿ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾) . قال قتادة: (شبهته) . وقال ابن زيد: (شكت) . قال ابن كثير: (أي عَرَضَ عليها عرشها ، وقد غَيَّرَ وَنَكَّرَ ، وزيد فيه ونُقِصَ ، وكان فيها ثباتٌ وعقلٌ ، ولها لبٌ ودهاءٌ وحزمٌ ، فلم تُقَدِّمَ على أنه هو لِئُعِدَّ مسافته عنها ، ولا أنه غيره ، لِمَا رأت من آثاره وصفاته ، وإن غَيَّرَ وَبَدَّلَ وَنَكَّرَ ، فقالت: ﴿ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ ، أي: يُشَبِّهُهُ وَيُقَارِبُهُ . وهذا غاية في الذكاء والحزم) .

وقوله: ﴿ وَأَوْتَيْنَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ . قال مجاهد: (سليمان يقوله) .

قال ابن جرير: (وقال سليمان: ﴿ وَأَوْتَيْنَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا ﴾ أي هذه المرأة ، بالله وبقدرته على ما يشاء ، ﴿ وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ لله من قبلها) .

وقوله تعالى: ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ .

أي: وكان صدّها عن الهداية ما كانت تعبد مع قومها الشمس من دون الله ، فمنعها نشؤها بين الكفار من عبادة الله وحده .

قال مجاهد: (كفرها بقضاء الله ، صدّها أن تهتدي للحق) .

قال النسفي: ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ متصل بكلام سليمان ، أي وصدّها عن العلم بما علمناه ، أو عن التقدم إلى الإسلام عبادة الشمس ونشؤها بين الكفرة ، ثم بين نشأها بين الكفرة بقوله: ﴿ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ . أو كلام مبتدأ ، أي: قال الله تعالى: ﴿ وَصَدَّهَا ﴾ قبل ذلك عما دخلت فيه ضلالها عن سواء السبيل ، أو صدّها الله ، أو سليمان عما كانت تعبد بتقدير حذف الجار وإيصال الفعل) .

وقوله: ﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ﴾ . أي القصر أو صحن الدار .

قال وهب بن منبه: (أمر سليمان بالصرح ، وقد عملته له الشياطين من زجاج كأنه الماء بياضاً ، ثم أرسل الماء تحته ، ثم وضع له فيه سريره ، فجلس عليه ، وعكفت عليه الطير والجن والإنس ، ثم قال: ﴿ ادْخُلِي الصَّرْحَ ﴾ ليربها مُلْكاً هو أعزّ من مُلكها ،

وسلطاناً هو أعظم من سلطانها. ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا﴾ لا تشك أنه ماء تخوضه ، قيل لها: ادخلي إنه صرح ممرد من قوارير).

قال القاسمي: (وكان سليمان عليه السلام اتخذ قصراً بديعاً من زجاج ، فأراد أن يريها منه عظمة ملكه وسلطانه ، ومقدار ما آثره الله به ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ﴾ أي صحنه ﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ أي ماء عظيماً ﴿وَكَشَفَتْ﴾ أي: للخصوض فيه ﴿عَنْ سَاقِهَا﴾ ، قال: ﴿إِنَّهُمْ صَرَّحُ مُمَرَّدٍ﴾ أي ممسّس ﴿مِنْ قَوَارِيرٍ﴾ أي من الزجاج .

﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ أي بكفرها السالف وعبادتها وقومها الشمس ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي متابعة له في دينه وعبادته لله وحده لا شريك له).

تنبيه: أَكْثَرَ المفسرون في هذا المقام من روايات واهية لا تقوم بها الحجة، في شأن سليمان - عليه السلام - مع بلقيس ، وأكثرها لا يليق بمقام النبوة وعصمتها ، وكان أولى أن لا تذكر ، فإن أغلبها من الإسرائيليات والأحاديث الموضوعة المكذوبة .

45- 53. قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ عِبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَتَقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا أَطِيعْنَا بَكَ وَيَمْنُ مَعَكَ قَالَ طَاعْتُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ بَيْتٌ زَيْنُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكْرُؤٌ مَكْرٌ وَمَكْرُؤٌ مَكْرٌ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَبَيَّاتُوا يَوْمَئِذٍ فَتِلْكَ بَيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُ ﴿٥٣﴾﴾ .

في هذه الآيات: إخبارُ الله تعالى عن إرساله نبيّه صالحاً - عليه السلام - إلى ثمود بعبادة الله وحده ونهذ ما يُعبد من دونه فإذا هم ينقسمون إلى فريقين: فريق مصدق ، وفريق مكذب. فدعاهم إلى توحيد الله واستغفاره ، فقابلوه بالتطير منه ، والمكر

بالاشتراك مع الرهط المفسدين ، فمكر الله بهم وهو أشد مكرًا بالقوم الظالمين ، فدمرهم وكتب النجاة للقوم المؤمنين .

فقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ .

قال مجاهد: (مؤمن وكافر ، قولهم صالح مرسل ، وقولهم صالح ليس بمرسل . ويعني بقوله: ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ يختلفون) .

وقوله: ﴿قَالَ يَنْقُورُ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ . قال مجاهد: (السيئة: العذاب ، قبل الحسنه: قبل الرحمة . أو قال: قبل العافية) .

أي قال لهم صالح - عليه الصلاة والسلام - : يا قوم لم تدعون بحضور العذاب ونزول النعمة ، ولا تسألون الله الرحمة والعافية ؟!

وقوله: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ . قال ابن جرير: (يقول: هلا تتوبون إلى الله من كفركم ، فيغفر لكم ربكم عظيم جرمكم ، يصفح لكم عن عقوبته إياكم على ما قد أتيتم من عظيم الخطيئة) . قال النسفي: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بالإجابة) .

وقوله: ﴿قَالُوا أَطِيعْنَا بَكَ وَيَمَنِّ مَعَكَ﴾ . أي: تشاء منا بك وبمن تبعك .

قال مجاهد: (تشاء موا بهم) . قال ابن كثير: (أي: - قالت ثمود لرسولها صالح - ما رأيينا على وجهك ووجوه من اتبعك خير . وذلك أنهم - لشقائهم - كان لا يُصيب أحداً منهم سوءٌ إلا قال: هذا من قبل صالح وأصحابه) .

ويبدو أن هذه الصفة متوارثة في الأمم المكذبة للرسل .

ففي التنزيل :

1 - قال تعالى - مخبراً عن قوم فرعون -: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ ۚ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرُوهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: 131] .

2 - وقال تعالى - مخبراً عن أهل القرية إذ جاءها المرسلون -: ﴿قَالُوا إِنَّا نَطِيقُنَا بِكُمْ لَيْنَ لَمْ تَنْتَهُوا لَزِمْنَاكُمْ وَلَمْ نَجْعَلْ لَكُمْ آيَةً ۖ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [يس: 18 - 19] .

3 - وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تُصِيبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [النساء: 78] .

قلت: وإنما منهاج المرسلين في بعث الأمل في نفوس العباد بإشراقة الثقة بالله ، وباختيار الكلمة الطيبة التي ترضي الله سبحانه فيغير أحوال عباده ويسعدهم .

ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال: [لا عدوى ، ولا طيرة ، ولا هامة ، ولا صفَر ، ولا نوء ، ولا غول]⁽¹⁾ .

والعدوى من الإعداء ، أي يُصاب الرجل بمثل ما بصاحب الداء ، فأخبر أن ذلك إن حصل فبقدر الله . والطَّيْرَةُ من أمر الجاهلية وهي تعليق الخير والشر على حركة طائر . قال عكرمة: (كنا جلوساً عند ابن عباس ، فمرّ طائر يصيح ، فقال رجل من القوم: خير خير . فقال ابن عباس: لا خير ولا شر ، فبادره بالإنكار عليه ، لئلا يعتقد تأثيره في الخير والشر) .

والهامة: طير من طير الليل كأنه البومة ، كانوا يتشاءمون بها إذا وقعت على بيت أحدهم .

والصفَر: حية تصيبُ بطن الماشية والناس ، وهي أعدى من الجرب عند العرب .

والنَّوء: جمعها أنواء وهي منازل القمر ، فكانت العرب تزعم أن مع سقوط المنزلة يكون مطر .

والغول: جنس من الجن والشياطين ، تزعم العرب أنه يخرج في الطريق فيضلهم ويهلكهم .

وفي سنن أبي داود بسند صحيح عن ابن مسعود مرفوعاً: [الطَّيْرَةُ شرك ، الطَّيْرَةُ شرك ، وما منا إلا ، ولكن الله يُذهِبُهُ بالتوكل]⁽²⁾ .

والخلاصة: إن التطير عادة جاهلية قبيحة ، حاربها الإسلام ، وردّها المرسلون على أقوامهم .

وقوله: ﴿ قَالَ طَيِّرْكُمْ عِنْدَ اللَّهِ ۖ ﴾ . قال ابن عباس: (مصائبكم) . وقال قتادة: (علمكم

(1) حديث صحيح . انظر صحيح مسلم - حديث رقم - (2220) ، وكذلك (2222) - من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، وفيه لفظة «ولا غول» . وانظر كتابي: منهج الوحيين في معالجة زلل النفس وتسلط الجن - ص (143) - لتفصيل أكبر .

(2) حديث صحيح . أخرجه أبو داود (158/2) ، والبخاري في «الأدب المفرد» (131) ، والترمذي (304/1) ، وابن ماجه (362/2 - 363) ، والحاكم (17/1 - 18) ، وابن حبان (1427) ، وأحمد (389/1) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (430) .

عند الله). والمقصود: الله يقسم أيامكم وأعمالكم وأرزاقكم وأقداركم وليست معلقة على حركة طائر.

قال ابن جرير: (أي مازجرتم من الطير لما يصيبكم من المكاره عند الله علمه ، لا يُدرى أيُّ ذلك كائن ، أم ما تظنون من المصائب أو المكاره ، أم ما لا ترجونه من العافية والرجاء والمحاب).

وقوله: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾. أي تختبرون وتمتحنون ، وربما تُستدرجون فيما أنتم فيه من الضلال. قال قتادة: (تُبتلون بالطاعة والمعصية).

وقوله تعالى: ﴿وَكَاثِبٌ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾.

قال ابن عباس: (هم الذين عقروا الناقة⁽¹⁾ وقالوا حين عقروها: نبئت صالحاً وأهله فنقتلهم ، ثم نقول لأولياء صالح: ما شهدنا من هذا شيئاً ، وما لنا به علم. فدمرهم الله أجمعين).

والمقصود: أنه كان في مدينة ثمود تسعة نفر من طغاة ثمود ورؤوسهم ، وأصحاب المكر والتكذيب فيهم ، وقد انبعث أشقاهم لعقر الناقة ، وهموا بقتل صالح كذلك ، وكانوا أهل فساد وإفساد في البلاد.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾.

قال القاسمي: (أي ليحلف كل واحد منكم على موافقة الآخرين ، بالله الذي هو أعظم المعبودين ﴿لنبئنه﴾ أي لنقتله ليلاً. وقرئ بالتاء على خطاب بعضهم لبعض ﴿وَأَهْلَهُ﴾ أي من آمن معه. ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ﴾ أي الطالب ثاره علينا ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾ أي ما حضرنا مكان هلاك الأهل ، مع تفرقهم في الأماكن الكثيرة ، فضلاً عن مكانه ، فضلاً عن مباشرته ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ أي ونحلف إننا لصادقون. أو: والحال إننا لصادقون فيما ذكرنا).

وقوله تعالى: ﴿وَمَكْرُؤٌ مَكْرَؤٌ مَكْرَؤٌ مَكْرَؤٌ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

قال ابن زيد: (احتالوا لأمرهم ، واحتال الله لهم ، مكروا بصالح مكرراً ، ومكرنا بهم مكرراً ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بمكرنا وشعرنا بمكرهم).

(1) أي: الذين صدر ذلك عن رأيهم ومشورتهم ، فانبعث لعقرها أشقاهم.

قلت : وقد ثبت - لله تعالى - صفة المكر والكيد بالكافرين .

ففي التنزيل :

1- قال تعالى : ﴿ وَهُوَ سَيِّدُ الْحَالِ ﴾ [الرعد : 13] .

2- وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۖ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾ [الطارق : 15 - 16] .

3- وقال تعالى : ﴿ وَمَكْرُؤًا مَكَرَ اللَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِيْنَ ﴾ [آل عمران : 54] .

ومن صحيح السنة المطهرة في ذلك أحاديث :

الحديث الأول : أخرج الترمذي عن أنس عن النبي ﷺ قال : [إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا ، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه ذنبه حتى يُوافي به يوم القيامة] وسنده صحيح ⁽¹⁾ .

الحديث الثاني : أخرج أبو داود بإسناد صحيح عن عائشة ، عن النبي ﷺ قال : [إذا أراد الله بالأمير خيراً جعل له وزير صدق ، إن نسي ذكركه ، وإن ذكر أعانه ، وإذا أراد به غير ذلك جعل له وزير سوء ، إن نسي لم يذكركه ، وإن ذكر لم يُعنه] ⁽²⁾ .

الحديث الثالث : أخرج البخاري ومسلم عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال : [إن الله تعالى ليُملي للظالم ، حتى إذا أخذه لم يفلته] ⁽³⁾ .

وقوله تعالى : ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

قال القرطبي : (أي بالصيحة التي أهلكتهم . وقد قيل : إن هلاك الكل كان بصيحة جبريل . والأظهر أن التسعة هلكوا بعذاب مفرد ، ثم هلك الباقون بالصيحة والدمدمة) .

وقوله : ﴿ فَبِئْسَ الْيُسُوءُ إِذَا ظَلَمُوا ۖ ﴾ . أي فارغة ليس فيها منهم أحد ، قد أبادهم الله فلا أثر لهم ، وكان ذلك بظلمهم أنفسهم : بشركهم الله وتكذيب الرسل .

و﴿ خَاوِيَةً ﴾ بالنصب على الحال . أي خالية عن أهلها خراباً ليس بها ساكن .

(1) حديث صحيح . انظر صحيح سنن الترمذي (1953) ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (1220) .

(2) حديث صحيح . أخرجه أبو داود في السنن - حديث (2932) - كتاب الخراج والإمارة والفيء . باب في اتخاذ الوزير . وانظر صحيح سنن أبي داود - حديث رقم - (2544) .

(3) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4686) ، كتاب التفسير ، وأخرجه مسلم (2583) ، كتاب البر والصلة . باب تحريم الظلم .

قال النسفي: ﴿فَلَيْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً﴾ ساقطة منهزمة من خوى النجم إذا سقط أو خالية من الخواء ، وهي حال عمل فيها ما دل عليه تلك).

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

يقول: أي: إن بفعلنا ذلك بشمود لآية لقوم يعلمون قدرتنا فيتعظون وينزجرون.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾.

سنة الله بين أوليائه المؤمنين وأعدائه الكافرين ، فإن العاقبة والنجاة للمتقين ، والدمار والهلاك على القوم الظالمين.

والمقصود هنا: وأنجيننا صالحاً والذين آمنوا معه وكانوا من المتقين.

54 - 58. قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ

تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَيْتَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾

﴿٥٦﴾ فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوْا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ

يَنْظَهُرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَجْبَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَانِمُ قَدَرْنَاهَا مِنَ الْغَيْبِ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ

مَطَرًا فَسَاءً مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

في هذه الآيات: إنذار لوط ﷺ قومه مغبة استمرارهم على فواحشهم ، ومقابلتهم له بالتهديد بالإخراج ومن آمن معه من قريتهم ، فأنجاه الله - إلا امرأته - وأخزاهم وأمطرهم العذاب الذي زلزلهم.

فقوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾.

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: وأرسلنا لوطاً إلى قومه ، إذ قال لهم: يا قوم ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أنها فاحشة ، لِعَلِمِكُمْ بأنه لم يسبقكم إلى ما تفعلون من ذلك أحد). وقال ابن كثير: (أنذر قومه نعمة الله بهم ، في فعلهم الفاحشة التي لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم ، وهي إتيان الذكور دون الإناث ، وذلك فاحشة عظيمة ، استغنى الرجال بالرجال ، والنساء بالنساء ، فقال: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ ، أي: يرى بعضكم بعضاً ، وتأتون في ناديككم المنكر ؟!). قال القرطبي:

﴿وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أنها فاحشة ، وذلك أعظم ذنوبكم . وقيل : يأتي بعضكم بعضاً وأنتم تنظرون إليه . وكانوا لا يستترون عتواً منهم وتمرداً .

وقوله تعالى : ﴿أَيُّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بِتَهْلُوتِ﴾ .

قال ابن كثير : (أي : لا تعرفون شيئاً لا طبعاً ولا شرعاً ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿أَتَأْتُونَ الذِّكْرَانَ مِنَ الْعُلَمَاءِ﴾ ﴿١٦٩﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء : 165 - 166] .

قال القرطبي : ﴿أَيُّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ أعاد ذكرها لفرط قبحها وشنعها .

وقوله تعالى : ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ أَلْ لُوطُ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْفُسٌ يَنْطَهَرُونَ﴾ .

أي : فلم يكن من قوم لوط حين دُعوا إلى التطهر من تلك القذارة إلا أن حملوا على لوط والمؤمنين معه وطلبوا إخراجهم من القرية لمخالفتهم لهم فعلتهم الدنيئة وترفعهم عن رجس ما هم عليه .

قال ابن عباس : (قوله : ﴿أَنْفُسٌ يَنْطَهَرُونَ﴾ قال : من إتيان الرجال والنساء في أدبارهن) .

وعن مجاهد ، في قوله : ﴿إِنَّهُمْ أَنْفُسٌ يَنْطَهَرُونَ﴾ قال : (من أدبار الرجال وأدبار النساء استهزاء بهم) .

قال قتادة : (عابوهم بغير عيب : أي إنهم يتطهرون من أعمال السوء) .

وقوله تعالى : ﴿فَأَتَجَنَّبْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ قَدَرْنَا مِنْ الْغَيْرِ﴾ . أي الباقي مع الهالكين .

قال ابن كثير : (أي : من الهالكين مع قومها ، لأنها كانت رذءاً لهم على دينهم ، وعلى طريقتهم في رضاها بأفعالهم القبيحة ، فكانت تذلل قومها على ضيفان لوط ، ليأتوا إليهم ، لا أنها كانت تفعل الفاحشة ، تكرمةً لنبي الله - ﷺ - لا كرامة لها) .

وقوله : ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ . أي : حجارة من سجيل . كما قال جل ثناؤه : ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِنْ سِجِّيلٍ مَنُضُودٍ﴾ ﴿٨٧﴾ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود : 82 - 83] .

وقوله: ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ﴾.

أي: فساء مطر من أُنذر فلم يقبل الإنذار ، وأصرّ على ركوب الفواحش والآثام.

59 - 64. قوله تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ اللَّهُ خَيْرٌ
أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ
حَدَائِقَ ذَاتِ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَوَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ
يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ
بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَوَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ
إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَوَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا
نَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيْحَ بُشْرًا
بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَوَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ
يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَوَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾.

في هذه الآيات: خلاصة دعوة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم إلى أقوامهم:

- ليس هناك شركاء ولا شفعاء ولا وسطاء ، ومن حق كل امرئ أن يهرع إلى ربه عز وجل ، وأن ينكر من أقاموا أنفسهم أو أقيموا من غيرهم زلفى إلى الله من البشر والحجارة.

- وإذا كنتم تُقَرِّون بأنه الخالق فلم تخضعون لغيره ، وإذا كنتم تقرون بأنه المحيي والمميت فلم تسألون حجراً أو قبراً أو صالحاً مضى لا يملك لنفسه موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

- وإذا كنتم تُقَرِّون بأنه الرازق فلم تلتمسون الرضى من غيره ، وإذا كنتم تقرون بأنه الممطر أرضكم والمخصب زرعكم فلم تشكروا غيره.

- وإذا كنتم تُقَرِّون بأنه وحده يلجأ إليه في الشدائد والنائبات والكرب ، فلم تسجدون

لغيره ، ولم تستغيثون بغيره ، ولم تنافقون لبشر من خلقه ، ولم تحتكمون لغير شرعه ولغير منهاجه .

فاحتج الأنبياء والرسل على أقوامهم بإقرارهم لله بالربوبية ، لماذا لم يفردوه سبحانه بالألوهية ، ولماذا لم يوحده في أسمائه وصفاته ومحامده ، ولماذا لم يفردوه بالتشريع والحاكمة .

فقوله تعالى: ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ﴾ .

قال ابن عباس : (أصحاب محمد اصطفاهم الله لنبيه) . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : (إن المراد بعباده الذين اصطفى هم الأنبياء) .

قلت : ولا تعارض بين القولين ، فإن الأنبياء هم عباد الله الذين اصطفى وكذلك من تبعهم من حواريتهم ومن سار على منهاجهم إلى يوم الدين .

والمقصود : أمر الله رسوله ﷺ بحمده على نعمه وآلائه التي لا تحصى ، وعلى اتصافه - جل ثناؤه - بالصفات العُلا والأسماء الحسنی ، والخطاب من باب أولى لجميع الأمة .

وفي التنزيل :

1 - قال تعالى: ﴿ سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الصفافات : 180 - 182] .

فنه الله تعالى نفسه عما يقوله المشركون وينسبونه له من النقص والعيوب ، ثم أثنى على عباده المرسلين لسلامة ما وصفوه به سبحانه ، ثم حمد نفسه جل ثناؤه على تفرده بأوصاف الكمال والجمال .

2 - وقال تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام : 1] .

3 - وقال تعالى: ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلَكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكِبَرُهُ تَكْبِيرًا ﴾ [الإسراء : 111] .

ومن صحيح السنة العطرة في آفاق ذلك أحاديث :

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :

قال رسول الله ﷺ: [لأن أقول: سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، أحب إلي مما طلعت عليه الشمس] (1).

الحديث الثاني: خرّج مسلم كذلك في الصحيح عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: [ألا أخبرك بأحبّ الكلام إلى الله ؟ إن أحبّ الكلام إلى الله سبحان الله وبحمده] (2).

الحديث الثالث: أخرج مسلم أيضاً في صحيحه عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: [جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: علّمني كلاماً أقوله. قال: قل لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً ، سبحان الله رب العالمين ، لا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم . .] الحديث (3).

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ - استفهام إنكار على اختيار المشركين آلهة يعبدونها مع الله تعالى.

وقوله: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾.

أي: كيف تختارون معشر المشركين عبادة أوثان لا تضر ولا تنفع على عبادة خالق السماوات بارتفاعها وصفائها ، وكواكبها ونجومها ، وأفلاكها وملائكتها ، وخالق الأرض بجلالها وسهولها ، وأشجارها وثمارها ، وبحارها وبراريها ، وإنسها وجنّها ، وطيرها وحيوانها. ثم أنزل لكم من السماء مطراً جعله رزقاً للعباد أنبت به البساتين والحدائق ذات المنظر الحسن والشكل البهي.

قال مجاهد: (البهجة: الفقاح مما يأكل الناس والأنعام).

وقوله: ﴿مَا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾. قال النسفي: (أراد أن تأتي ذلك محال من غيره).

- (1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (70/8) ، كتاب الذكر. باب في فضائل التسبيح.
- (2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2731) ح (85) ، كتاب الذكر والدعاء. باب فضل سبحان الله وبحمده. وانظر مختصر صحيح مسلم (1907).
- (3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (70/8) ، كتاب الذكر. باب: في التهليل والتحميد والتكبير. وانظر مختصر صحيح مسلم ، حديث رقم (1965).

والمقصود: أنه لا يقدر على ذلك الإنبات إلا الله الخالق الرازق ، ومع ذلك يعبد المشركون أوثاناً لا تضر ولا تنفع ، ولا تنبت ولا تطعم .

وقوله: ﴿أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعِدُونَ﴾ . قال ابن كثير: (أي: أإله مع الله يُعْبَدُ وقد تبين لكم ولكل ذي لب مما يعرفون به أيضاً أنه الخالق الرزاق؟! ومن المفسرين من يقول معنى قوله ﴿أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ﴾ فعل هذا؟ . ثم قال في آخر الآية: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعِدُونَ﴾ ، أي: يجعلون لله عدلاً ونظيراً).

وقوله: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ . قال ابن جرير: (تستقرون عليها لا تميد بكم).

أي: من الذي جعل هذه الأرض التي تسكنون عليها قارة ساكنة ثابتة لا تميد ولا تتأرجح ، ولو جعلت تهتز وترجف بأهلها كلما تحركوا على أرجائها لاستحالت الحياة وتعقدت .

وقوله: ﴿وَجَعَلْ خِلَالَهَا أَنْهَارًا﴾ أي: وشق في أرجائها أنهاراً طويلة وقصيرة ، تعبر البلاد والأمصار ، تسقي الأرض والبهايم والعباد .

وقوله: ﴿وَجَعَلْ لَهَا رَواسِيَ﴾ - وهي ثوابت الجبال ، تثبت الأرض من أن تميد بأهلها .

وقوله: ﴿وَجَعَلْ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ . قال ابن عباس: (سلطاناً من قدرته فلا هذا يغير ذاك ، ولا ذاك يغير هذا ، والحجز المنع).

والمقصود: جعل سبحانه حاجزاً بين المياه الحلوة العذبة والمياه المالحة ليتوازن العيش على هذه الأرض ، فلا يزال يُستفاد من الماء العذب الزلال في الأنهار والبحيرات لسقي الحيوان والنبات والثمار . ولا يزال الهواء عليلاً بانتشار تلك البحار والمحيطات المالحة فلا يفسد العيش .

وقوله: ﴿أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ﴾ . قال القرطبي: (أي إذا ثبت أنه لا يقدر على هذا غيره فلم يعبدون ما لا يضر ولا ينفع).

وقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ . أي: بل أكثرهم جاهلون حق ربهم عز وجل وما يجب له من توحيد الإلهية .

وقوله: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾.

أي: أَمَّنْ يُلجأ إليه العباد عند النوازل والمحن والمصائب ، يرجون رحمته ويطمعون بكشف الضر عنهم مما نزل بهم .

قال ابن عباس: (﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ قال: هو ذو الضرورة المجهود).

وقال السدي: (الذي لا حول له ولا قوة). وقال ذو النون: (هو الذي قطع العلائق عما دون الله). وقال سهل بن عبد الله: (هو الذي إذا رفع يديه إلى الله داعياً لم يكن له وسيلة من طاعة قَدَمَها).

وجاء رجل إلى مالك بن دينار فقال: أنا أسألك بالله أن تدعولي فأنا مضطر ، قال: (إذن فاسأله فإنه يجيب المضطر إذا دعاه).

وعن ابن جريج: (﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ قال: الضّر).

قال القرطبي: (ضمن الله تعالى إجابة المضطر إذا دعاه ، وأخبر بذلك عن نفسه ، والسبب في ذلك أن الضرورة إليه باللجوء ينشأ عن الإخلاص ، وقطع القلب عما سواه ، وللإخلاص عنده سبحانه موقع وذمة ، وجد من مؤمن أو كافر ، طائع أو فاجر ، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِ وَجَرْنَا بِيَمِينِكُمْ لِيَكُونَ لَكُمْ آيَةٌ مِنَّا وَلِتَذَكِّرُنَا إِلَىٰ نَارِ اللَّهِ تَوَّابًا﴾ [يونس: 22]. وقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغْتُمُ الْبَرَّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: 65] فأجابهم عند ضرورتهم ووقوع إخلاصهم ، مع علمه أنهم يعودون إلى شركهم وكفرهم . وقال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِ دَعَاؤُ اللَّهِ تَخْلُصِينَ لَهُ الَّذِينَ﴾ [العنكبوت: 65] فيجيب المضطر لموضع اضطرابه وإخلاصه).

قلت: وهذا تفسير رائع من الإمام القرطبي رحمه الله لآفاق هذه الآية الكريمة ، وقد حفلت السنة العطرة ببدايع جوامع الكلم في ذلك .

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد بإسناد صحيح عن أبي تيممة الهُجيمي ، عن رجل من بَلْهَجِيم قال: [قلت: يا رسول الله ، إلامَ تدعُو ؟ قال: أدعو إلى الله وحده ، الذي إن مَسَّكَ ضَرٌّْ فدعوته كشفَ عنكَ ، والذي إن أَضَلَلْتَ بأرضي قَفَر فدعوته رَدَّ عليك ، والذي إن أَصَابَتْكَ سَنَةٌ فدعوته أَنبَتَ لك . قال: قلت: أَوْصِنِي . قال: لا تَسْبَنَ

أحداً ، ولا تَزْهَدَنَّ في المعروف ، ولو أن تلقى أخاك وأنت مُنْبَسِطٌ إليه وجهك ، ولو إن تُفْرِغَ من دلوكَ في إناء المُسْتَقِي ، واتَّزِرَ إلى نصف الساق ، فإن أبيت فإلى الكعبيين . وإياك وإسبال الإزار فإن إسبال الإزار من المخيلة ، وإن الله لا يحب المخيلة⁽¹⁾ .

الحديث الثاني : أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن ابن عباس : أن نبيَّ الله ﷺ كان يقول عند الكرب : [لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله ربُّ العرش العظيم ، لا إله إلا الله ربُّ السماوات وربُّ الأرض ربُّ العرش الكريم]⁽²⁾ .

الحديث الثالث : أخرج الإمام أحمد في المسند ، بسند صحيح ، عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : [ما أصاب أحداً قط هم ولا حزن فقال : اللهم إني عبدك وابن عبدك ، وابن أمتك ، ناصيتي بيدك ، ماض في حكمك ، عدل في قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك ، سميت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن ربيع قلبي ، ونور صدري ، وجلاء حزني ، وذهاب همي ، إلا أذهب الله همه وحزنه وأبدله مكانه فرجاً . قيل يا رسول الله ألا نتعلمها ؟ قال : بلى ، ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها]⁽³⁾ .

الحديث الرابع : يروي الترمذي بسند صحيح عن سعد ، عن النبي ﷺ قال : [دعوةُ ذي النون إذ دعا ربه وهو في بطن الحوت : لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ، فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب له]⁽⁴⁾ .

وله شاهد رواه الحاكم بلفظ : [ألا أخبركم بشيء إذا نزل برجل منكم كَرْبٌ ، أو بلاء ، من أمر الدنيا دعا به ففُرج عنه ؟ دعاء ذي النون : لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين] .

وقوله : ﴿ وَيَجْعَلْكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ﴾ . أي : قوماً يخلف بعضهم بعضاً ، جيلاً بعد جيل وقرناً بعد قرن . وقال الكلبي : (خلفاً من الكفار ينزلون أرضهم ، وطاعة الله بعد كفرهم) .

(1) حديث صحيح . أخرجه أحمد في المسند (5/64) من حديث أبي تيمية ، وإسناده صحيح على شرطهما ، وجهالة الصحابي لا تضر .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم (2730) ، كتاب الذكر والدعاء . باب دعاء الكرب .

(3) حديث صحيح . أخرجه أحمد (1/391) ، (1/452) ، وأبو يعلى (5297) ، والحاكم (1/509) .

(4) حديث صحيح . أخرجه الترمذي في السنن - حديث رقم - (3505) . انظر صحيح سنن الترمذي

(2785) ، وللشاهد بعده - صحيح الجامع - حديث رقم - (2602) .

وقوله: ﴿أَإِلَهُ مَعَ اللَّهِ﴾ - توبيخ وتقريع. أي: أبعد كل ما ذكر تعبدون مع الله غيره. وهو الإله الحق الأحد الصمد المتفرد بالخلق والتدبير والإماتة والإحياء وكشف الضر وجلب الخير وبعث الأمل.

وقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾. قال ابن جرير: (يقول: تذكر أقليلًا من عظمة الله وأياديه عندكم تذكرون، وتعتبرون حجج الله عليكم يسيراً، فلذلك أشركتم بالله غيره في عبادته).

وقوله: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾.

قال ابن جريج: (والظلمات في البر، ضلاله الطريق، والبحر، ضلاله طريقه وموجه وما يكون فيه).

والمقصود: مَنْ يهديكم إلى سبيل النجاة إذا تهتم في البر، أو ضللتكم في ظلمات البحر وبين تلاطم أمواجه. أليس الله تعالى الذي جعل لكم من الدلائل السماوية والأرضية ما يرشدكم بها إذا أشرفتم على الضياع والهلاك.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 - قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَنَّا بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: 16].

2 - وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الأنعام: 97].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: (وقد أخبر سبحانه في كتابه من منافع النجوم، فإنه يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، وأخبر أنها زينة للسماء الدنيا، وأخبر أن الشياطين تُرجم بالنجوم).

وقوله: ﴿وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيحَ بِشْرًا يَكُ يَدَى رَحْمَتِهِ﴾.

قال ابن جريج: (يقول: والذي يرسل الرياح نُشْرًا⁽¹⁾ لموتان الأرض بين يدي رحمته، يعني: قدام الغيث الذي يحيي موات الأرض). قال ابن كثير: (أي: بين يدي السحاب الذي فيه مطر، يغيث به عباده المجدين الآزليين⁽²⁾ القنطين).

(1) قراءة نافع «نُشْرًا». وأما قراءة حفص «بُشْرًا».

(2) الأزل: الضيق والشدة، وتآزل: ضاق صدره.

وقوله: ﴿أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ تَعْلَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ .

توبيخ آخر ، وتقريع بعد تقريع . أي أإله مع الله يفعل ذلك ويعينه عليه ﴿تَعْلَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ من دونه .

وقوله: ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ .

قال القرطبي: (كانوا يقرّون أنه الخالق الرازق ، فالزهمم الإعادة ، أي إذا قدر على الابتداء فمن ضرورته القدرة على الإعادة ، وهو أهون عليه) .

وقوله: ﴿أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ﴾ . أي: يخلق ويرزق ويحيي ويميت ويبعث للحساب والنشور ؟

وقوله: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ . أي: قل لهم - يا محمد - قدموا حجبتكم إن كان لديكم ما يدل أن أحداً سوى الله يفعل شيئاً من ذلك ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعواكم وزعمكم !! .

وهو تحدّ للمشرّكين ، وقد علّم أنهم فارغون من الدليل والحجة ، وما لهم إلا اتباع سبيل الآباء وتعظيم أعراف الجاهلية .

وفي التنزيل نحو ذلك :

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [الكافرون: 117] .

وفي صحيح البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ قال :

[مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله تعالى: لا يعلم أحد ما يكون في غد إلا الله تعالى ، ولا يعلم أحد ما يكون في الأرحام إلا الله تعالى ، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله تعالى ، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله تعالى ، ولا يدري أحد متى يجيء المطر إلا الله تعالى] ⁽¹⁾ .

65 - 75 . قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا

يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿١٥﴾ بَلْ أَدْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4697) ، كتاب التفسير ، وانظر (1039) ، (7379) كذلك .

عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذْ كُنَّا تَرِبًا وَءَابَاؤُنَا إِنَّا الْمَخْرُجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفٌ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٧٥﴾ .

في هذه الآيات: انفراد الله تعالى بعلم الغيب ، وجهل الكفار بالحق وشكهم في الآخرة ، وتحذيرهم نزول نعمة الله بهم كما نزل بالأمر قبلهم ، وتسليية للنبي ﷺ عما يلقاه من استهزاء قومه ومكرهم .

فقوله تعالى: ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ .

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لسائلك من المشركين عن الساعة متى هي قائمة ﴿ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ ﴾ الذي قد استأثر الله بعلمه ، وحجب عنه خلقه غيره ، والساعة من ذلك ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ يقول: وما يدري من في السماوات والأرض من خلقه متى هم مبعوثون من قبورهم لقيام الساعة).

وقوله: ﴿ إِلَّا اللَّهُ ﴾ استثناء منقطع ، أي: إن الله وحده هو المتفرد بعلم الغيب لا شريك له .

والخطاب وإن كان لمشركي مكة فهو عام لجميع الخلق أن يعلموا أن ربهم عز وجل قد أحاط بالغيب وحده ، ولم يطلع أحداً من خلقه على شيء منه إلا بما شاء .

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 - قال تعالى: ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ [الأنعام: 59] .

2 - وقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مِمَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان: 34] .

ومن صحيح السنة المطهرة في آفاق هذه الآية أحاديث :

الحديث الأول: روى مسلم في صحيحه عن الشعبي ، عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ : [كنت مُتَكِنًا عند عائشة فقالت : يا أبا عائشة ! ثلاثٌ من تكَلَّمَ بواحدةٍ منهن فقد أعظمَ على الله الفرية ، قلتُ ما هُنَّ ؟ قالت : مَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ رَأَى رَبَّهُ فقد أعظمَ على الله الفرية . . . قالت : ومن زعم أن رسول الله ﷺ كَتَمَ شيئاً من كتاب الله فقد أعظمَ على الله الفرية ، والله يقول : ﴿ يَأْتِيهَا الرُّسُولُ يَلْفِغُ مَّا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنَّ لَكَ تَفَعَّلَ فَمَا بَلَغَتْ رِسَالَتُهُ ﴾ [المائدة : 67] . قالت : ومن زعم أنه يُخْبِرُ بما يكون في غَدٍ فقد أعظمَ على الله الفرية . والله يقول : ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾]⁽¹⁾ .

الحديث الثاني: أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن أبي هريرة قال: [كان رسول الله ﷺ يوماً بارزاً للناس . فأتاه رجل فقال: يا رسول الله ! متى الساعة ؟ فقال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل . ولكن سأخبرك عن أشراطها . إذا ولدت الأمة ربتها ، فذاك من أشراطها ، وإذا كانت الحفأة العرأة رؤوس الناس ، فذاك من أشراطها . وإذا تناول رعاء الغنم في البنيان ، فذاك من أشراطها . في خمس لا يعلمهن إلا الله . فتلا رسول الله ﷺ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ﴾ [الآية]⁽²⁾ .

قال قتادة : (إنما جعل الله هذه النجوم لثلاث خصال : جعلها زينة للسماء ، وجعلها يهتدى بها ، وجعلها رجوماً فمّن تعاطى فيها غير ذلك فقد قال برأيه ، وأخطأ حَظَّهُ ، وأضاع نصيبه ، وتكلّف ما لا عِلْمَ له به . وإنّ ناساً جهلةً بأمر بالله ، قد أحدثوا من هذه النجوم كهانة : من أعرَسَ بِنَجْمٍ كذا وكذا ، كان كذا وكذا . ومن سافرَ بِنَجْمٍ كذا وكذا ، كان كذا وكذا . ومن وُلِدَ بِنَجْمٍ كذا وكذا ، كان كذا وكذا ، ولعمري⁽³⁾ ما من نجم إلا يُولد به الأحمر والأسود ، والقصير والطويل ، والحسن والدميم ، وما عِلْمُ هذا النجم

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم (177) ، كتاب الإيمان ، في حديث طويل هذا معظمه وأهمه .

(2) حديث صحيح . أخرجه ابن ماجة (64) ، (4044) . وانظر صحيح سنن ابن ماجة (3268) .

(3) قلت : هذا الحلف لا ينبغي ، والصواب لعمر الله ، وإنما كان منه نحوه في الجاهلية . والأثر رواه ابن أبي حاتم . وذكره ابن كثير في التفسير وقال : وهو كلام جليل متين صحيح .

وهذه الدابة وهذا الطير بشيء من الغيب ! وقضى الله تعالى أنه : ﴿لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ .

وقوله : ﴿بَلِ أَدْرَكَ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ .

قرأه قراء مكة : ﴿بَلِ أَدْرَكَ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ . والتقدير : هل أدرك علمهم علم الآخرة .

وقراه قراء الكوفة : ﴿بَلِ أَدْرَكَ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ . والتقدير : أي لم يدرك .

ومن أقوال المفسرين في ذلك :

أ - على القراءة الأولى :

1 - عن ابن عباس : ﴿بَلِ أَدْرَكَ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ يقول : غاب علمهم .

2 - وقال مجاهد : ﴿بَلِ أَدْرَكَ عَلَيْهِمْ﴾ قال : أم أدرك علمهم من أين يدرك علمهم .

3 - وقال قتادة : ﴿بَلِ أَدْرَكَ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ ، يعني بِجَهْلِهِمْ رَبَّهُمْ ، يقول : لم يَنْفُذْ لهم إلى الآخرة علم .

4 - وقال عطاء عن ابن عباس : ﴿بَلِ أَدْرَكَ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ حين لم ينفع العلم .

والمقصود : أن علمهم إنما يدرك ويكمل يوم القيامة حيث لا ينفعهم ذلك كما قال تعالى : ﴿أَسْتَعِيبُهُمْ وَأَبْصُرُ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [مريم : 38] . وقد جاء في قراءة الحسن : ﴿بَلِ أَدْرَكَ عَلَيْهِمْ﴾ قال : (اضمحل علمهم في الدنيا حين عاينوا الآخرة) .

ب - على القراءة الثانية :

1 - عن أبي حمزة ، عن ابن عباس : ﴿بَلِ أَدْرَكَ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ : أي لم يدرك .

2 - قال ابن زيد : (يقول : ضل علمهم في الآخرة فليس لهم فيها علم ، ﴿هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾) .

وفي الحديث السابق : «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل» - أي تساوى في العجز عن درك ذلك علم السائل والمسؤول .

والخلاصة : أن المعنى حسب القراءتين المشهورتين يقتضي انتهاء علمهم وعجزهم عن معرفة وقت قيام الساعة ، وكثير منهم يوقنون بها يوم حدوثها فيعلمون أنها حق .

وقوله: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾.

أي: بل الكافرون شاكون بوقوعها غير مصدقين بحدوثها بعد فنائهم. ﴿بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾. قال ابن كثير: (أي: في عَمَاةٍ وجهل كبير في أمرها وشأنها).

قال الزمخشري: (وهو العمى، وأن يكون مثل البهيمة قد عكف همه على بطنه وفرجه، لا يُخْطِرُ بباله حقاً ولا باطلاً، ولا يفكر في عاقبة. وقد جعل الآخرة مبدأ عماهم ومنشأه. فلذلك عداه بـ «من» دون «عن» لأن الكفر بالعاقبة والجزاء، هو الذي جعلهم كالبهائم لا يتدبرون ولا يتبصرون).

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذْ كُنَّا تَرَاوَاءَ أَبَاؤُنَا أَيْنَا الْمُخْرَجُونَ﴾.

إخبار من الله تعالى عن استبعاد منكري البعث إعادة الله أجسامهم بعد صيرورتها تراباً وإخراجهم من قبورهم بعد فنائهم للبعث والحساب والقصاص.

وقوله: ﴿لَقَدْ وَعَدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ﴾. قال ابن جرير: (يقول: لقد وعدنا هذا من قبل محمد، واعدون وعدوا ذلك آبائنا، فلم نر لذلك حقيقة، ولم نتبين له صحة).

وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأُولِينَ﴾. قال القاسمي: (أي أحاديثهم وأكاذيبهم التي سطرورها بعبارة مموّهة).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾.

أي: قل يا محمد لهؤلاء المكذبين بالمعاد: الدليل عليه هلاك الأمم المكذبة به وبالوحي قبلكم، ونجاة رسلهم والمؤمنين معهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾.

أي: ولا تحزن - يا محمد - على إدبار هؤلاء المشركين عنك وتكذيبهم لما جئت به، ولا يضيق صدرك من مكرهم، فإن الله سينصرك عليهم وسيخذلهم.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدْفٌ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾.

أي: ويقول المشركون المكذبون بالبعث والمعاد - لك يا محمد -: فمتى حصول هذا الوعد الذي تعدنا إياه ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيما تعدوننا به. قل لهم - يا محمد -: عسى أن يكون قد اقترب لكم بعض الذي تستعجلون. قال مجاهد: (ردف: أرف).

وقال أيضاً: (ردف: أعجل لكم). وقال الضحاك: ﴿رَدَفَ لَكُمْ﴾ اقترَب لكم).

وعن ابن جريج: ﴿رَدَفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ قال: من العذاب).

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

أي: وإن نعم الله على الناس لا يحصيها أحد منهم ، ومع ذلك أكثرهم يجحدون فضله ويهملون شكره. قال القرطبي: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ في تأخير العقوبة وإدراك الرزق ، ﴿وَكَيِّنَ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ فضله ونعمه).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 - قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ [سبأ: 13].

2 - وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: 78].

وفي صحيح البخاري عن أبي موسى رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [ليس أحدٌ - أو ليس شيءٌ - أَصْبَرَ على أذى سَمِعَهُ من الله ، إنهم ليدعون له ولداً ، وإنه ليعافيهـم ويرزقهم]⁽¹⁾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَعَلَّمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾. أي: يعلم السرائر والضمائر ، كما يعلم العلانية من ذلك والظواهر. قال ابن جريج: ﴿مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ قال: (السر).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 - قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: 19].

2 - وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَفْشِفُونَ شِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [هود: 5].

3 - وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ يُدَاتِ الصُّدُورُ﴾ [الزمر: 7].

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: [كتب الله مقادير

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (6099) ، كتاب الأدب ، باب الصبر في الأذى.

الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة. وكان عرشه على الماء⁽¹⁾.

وفي معجم الطبراني بسند صحيح عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: [فَرَعَ اللهُ عز وجل إلى كل عبد من خمس: من أجله ورزقه وأثره ومضجعه وشقي أو سعيد]⁽²⁾.
وله شاهد عن ابن عساكر بسند جيد من حديث أنس بلفظ: [فَرَعَ اللهُ من أربع: من الخلق والخلق والرزق والأجل].

وقوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ غَابَتْ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾.

قال ابن عباس: (يقول: ما من شيء في السماء والأرض سر ولا علانية إلا يعلمه).

76 - 81. قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ^(٧٦) وَإِنَّهُمْ لَهْدَى وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ^(٧٧) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ^(٧٨) فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ^(٧٩) إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمِعُ الْأَصْمَ الدُّعَاءَ إِذَا وَلُوا مَدْبِرِينَ ^(٨٠) وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعَمَى إِنَّ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ^(٨١).

في هذه الآيات: ثناء الله تعالى على هذا القرآن ، وعلى حكمه - جلّت عظمته - بين الأنام ، وأمره نبيه ﷺ بالتوكل عليه للثبات على الحق المبين ، وتقريره له أنه لا يسمع الموتى أو الصم ولا يهدي العمي وإنما الهداية من الله للمؤمنين .

فقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

قال النسفي: (أي يبين لهم. قال: فإنهم اختلفوا في المسيح فتحزّبوا فيه أحزاباً ووقع بينهم التناكر في أشياء كثيرة حتى لعن بعضهم بعضاً ، وقد نزل القرآن ببيان ما اختلفوا فيه لو أنصفوا وأخذوا به وأسلموا ، يريد اليهود والنصارى).

(1) حديث صحيح. رواه مسلم (51/8) في القدر. باب: كتب المقادير قبل الخلق. وانظر مختصر صحيح مسلم - حديث رقم - (1841).

(2) حديث صحيح. أخرجه الطبراني وغيره. انظر صحيح الجامع (4077) - (4078) ، وكذلك (4079) للشاهد بعده. وانظر تفصيل البحث في كتابي: أصل الدين والإيمان (806/2 - 814).

والمقصود: أن هذا القرآن وسط عدل بين افتراء اليهود وغلو النصارى ، فعيسى عليه الصلاة والسلام عبدٌ من عباد الله وأنبيائه ورسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وفي التنزيل نحو ذلك :

1 - قال تعالى: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الزخرف: 59].

2 - وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ [مريم: 34].

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس: سَمِعَ عَمْرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ عَلَى الْمِنْبَرِ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: [لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطَرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ⁽¹⁾].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ .

أي: وإن هذا القرآن هدى لقلوب المؤمنين ورحمة لمن صدق به وعمل بأمره .

قال القرطبي: (خصَّ المؤمنين لأنهم المتفعون به) .

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ .

أي: إن ربك - يا محمد - يقضي بين المختلفين من بني إسرائيل بحكمه فيهم ، فيجازي المحسن بإحسانه ، والمبطل بجزائه . قال القاسمي: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ﴾ أي بين من آمن بالقرآن ومن كفر به ، بعدله وحكمته ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أي فلا يردّ قضاؤه ، الغالب في انتقامه من المبطلين ﴿الْعَلِيمُ﴾ أي بالفصل بينهم وبين المحققين) .

وقوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ .

أي: ففوض أمرك - يا محمد - إلى الله العظيم ، فإنك أنت على سبيل الحق المبين .

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ .

أي: إنك يا محمد لا تسمع الكفار فهم كالموتى لا حسّ لهم ولا عقل ، بسبب إعراضهم عن التدبر ، كذلك هم بمنزلة الصم عن فهم المواعظ وسماع ما ينفعهم . قال

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (3445) ، كتاب أحاديث الأنبياء . وانظر (6830) كذلك .

القرطبي: (فإذا دعوا إلى الخير أعرضوا وولّوا كأنهم لا يسمعون ، نظيره: ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَى﴾ [البقرة: 18]).

قلت: والآية نص في عدم سماع الأموات ، وما حصل من كلام النبي ﷺ لقتلى المشركين يوم بدر خاص به ﷺ. واستنكار عمر يدل على هذا الأصل.

ففي صحيح البخاري من حديث أنس بن مالك عن أبي طلحة: [أن نبي الله ﷺ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش فقتلوا في طوي من أطواء بدر خبيث مُحْبِث ، وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرضة ثلاث ليالٍ ، فلما كان بِدْرَ اليوم الثالث أَمَرَ بِراحلته فَشَدَّ عليها رَحْلها إِلَّا لِبَعْضِ حاجته ، حتى قام على شفة الرَكِي فجعل يُناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: يا فلان بن فلان ، ويا فلان بن فلان ، أيسرُكم أنكم أطعتم الله ورسوله ؟ فإننا قد وَجَدْنَا ما وعدنا ربنا حقاً ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ قال: فقال عمر: يا رسول الله ، ما تُكَلِّمُ من أجسادٍ لا أرواحَ لها ، فقال رسول الله ﷺ: والذي نفسُ محمد بيده ، ما أنتم بأسمعَ لما أقولُ منهم. قال قتادة: أخياهم الله ، حتى أسمعهم قوله تويخاً وتصغيراً ونقمةً وحسرةً وندماً⁽¹⁾.

وقوله: ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ﴾.

أي: وما أنت - يا محمد - بهادي من عمي عن الحق وغرق في الكفر ، فليس بوسعك خلق الإيمان في قلوبهم.

وقوله: ﴿إِنْ تَشِيعُ إِلَّا مَنْ يَوْمُنَا يَتَيْنَانَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

قال ابن كثير: (أي: إنما يستجيب لك من هو سميعٌ بصيرٌ ، السميعُ والبصرُ النافعُ في القلبِ والبصيرة الخاضعُ لله ، ولما جاء عنه على السنة الرسل عليهم السلام).

قلت: فمن عمي عن الحق وصم عن سماع حججه وبيانه فقد اختار البقاء في ظلمة الخلق الأولى التي خلق الله عباده فيها.

فقد أخرج الإمام أحمد في مسنده ، وابن حبان في صحيحه ، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ أنه قال: [إن الله تعالى خلق خلقه في ظلمة ، ثم ألقى عليهم من نوره ، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ، ومن أخطأه ضلَّ⁽²⁾].

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3976) ، كتاب المغازي ، وانظر صحيح مسلم (2875).

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد (2/176) ، (2/197) ، وأخرجه ابن حبان (1812) ، والحاكم (30/1) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1076).

والظلمة: هي ظلمة الطباع والجهل والأهواء والخضوع للغرائز والشهوات.
والنور: هو نور الوحي ونور السنة ، نور النبوة والرسالات. نور الفطرة والميثاق مع الله ، الذي أخذه سبحانه على عباده بنعمان وهو واد إلى جنب عرفات.

82. قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ .

في هذه الآية: ذكر الدابة التي تخرج في آخر الزمان تخاطب الناس عند فسادهم وتبديلهم الدين الحق ، وانتشار المنكر بينهم ، فتنة لهم ، وعلامة من علامات اقتراب الساعة.

ومن أقوال المفسرين في ذلك:

1 - عن مجاهد: ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ ﴾ قال: حق عليهم. أو قال: حق العذاب).

2 - وعن قتادة: (القول: الغضب). وقال عطية العوفي ، عن ابن عمر: (هو حين لا يأمرؤن بمعروف ولا ينهون عن منكر). وروي عن علي رضي الله عنه قال: (تكلمهم كلاماً ، أي: تخاطبهم مخاطبة).

3 - وعن ابن عباس: ﴿ تُكَلِّمُهُمْ ﴾ تحدثهم). قال: (كلامها تنبئهم) ﴿ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ ، واختاره ابن جرير.

وفي صحيح السنة العطرة من ذكر الدابة أحاديث:

الحديث الأول: روى مسلم في صحيحه عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: [أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة ونحن نتذاكر أمر الساعة فقال: لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها ، والدخان ، والدابة ، وخروج يأجوج ، وخروج عيسى بن مريم ، والدجال ، وثلاثة خسوف: خسف بالمغرب ، وخسف بالمشرق ، وخسف بجزيرة العرب ، ونار تخرج من قعر عدن تسوق - أو تحشر - الناس ، تبيت معهم حيث باتوا ، وتقبل معهم حيث قالوا⁽¹⁾].

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (2901) ، وأخرجه أحمد في المسند (6/3) ، (7/3).

الحديث الثاني: روى مسلم في الصحيح عن عبد الله بن عمرو قال: حفظت من رسول الله ﷺ حديثاً لم أنسه بعد: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [إِنَّ أَوَّلَ الْآيَاتِ خُرُوجاً طُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ، وَخُرُوجَ الدَّابَّةِ عَلَى النَّاسِ ضُحَا ، وَأَيْتُهُمَا مَا كَانَتْ قَبْلَ صَاحِبَتِهَا ، فَالْآخِرَىٰ عَلَىٰ إِثْرِهَا قَرِيباً] ⁽¹⁾.

الحديث الثالث: أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن أنس بن مالك ، عن رسول الله ﷺ قال: [بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سِتّاً: طُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ، وَالذُّخَانَ ، وَدَابَّةَ الْأَرْضِ ، وَالذَّجَالَ ، وَخَوِصَّةَ أَحَدِكُمْ ، وَأَمْرَ الْعَامَةِ] ⁽²⁾.

والمقصود: المبادرة بصلاح الأعمال لمواجهة هذه الفتن. «وخويصة أحدكم»: يريد حادثة الموت التي تخص كل إنسان. وهي تصغير خاصة. وصغرت لاحتقارها في جانب ما بعدها من البعث والعرض والحساب وغير ذلك.

«وأمر العامة»: أي بادروا بالاشتغال بالأعمال الصالحات ، قبل أن يتوجه إليكم أمر العامة والرياسة ، فيشغلكم عن العلم وصلاح الأعمال.

83 - 86. قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَخْشِرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يَكْذِبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ ^(٨٣) حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهُ قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا عَلِمًا أَمَّا ذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ^(٨٤) وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴾ ^(٨٥) أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنَا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ^(٨٦).

في هذه الآيات: ذُكِرَ مشهد حشر الأمم يوم القيامة زمرة زمرة من المكذبين ، حتى إذا اجتمعت أفواج الناس حسب راياتهم وما كانوا يعبدون ، قال الله لهم: أكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي أَمَّا ذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ، فوجب السخط والغضب من الله عليهم بما كانوا يكذبون ، ألم يروا كيف أنعم الله عليهم بالليل ليسكنوا فيه والنهار لينتشروا فيه ولكن أكثرهم لا يؤمنون.

فعن مجاهد: ﴿ وَيَوْمَ نَخْشِرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا ﴾ قال: زمرة زمرة. وعن ابن عباس:

(1) حديث صحيح. انظر مختصر صحيح مسلم (2053) ، وكتابي: أصل الدين والإيمان (2/ 1063) لمزيد من التفصيل في أمر الدابة وعلامات الساعة وأشراتها.

(2) حسن صحيح. أخرجه ابن ماجة (4056) ، كتاب الفتن. انظر صحيح ابن ماجة (3279) ، باب الآيات ، والحديث أخرجه مسلم (8/ 208) ، وأحمد (2/ 324) ، والحاكم (2/ 511).

﴿مَنْ يُكَذِّبْ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ قال: يقول: فهم يدفعون). وقال ابن زيد: (يساقون). وقال قتادة: (وَرَعَةً تَرُدُّ أَوْلَهُمْ عَلَى آخِرِهِمْ).

والمقصود: إخبار عن يوم القيامة وحشر الظالمين المكذبين بآيات الله للسؤال والتوبيخ والتفريع والتصغير والتحقيق ثم صلي النار جزاء بما كانوا يكسبون.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 - قال تعالى: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ رُجِعَتْ﴾ [التكوير: 7].

2 - وقال تعالى: ﴿أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ ٢٧ ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ ٢٨ ﴿وَقَفُّهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ [الصافات: 22 - 24].

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة مرفوعاً: [يجمع الله الناس يوم القيامة ، فيقول: مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئاً فَلْيَتَّبِعْهُ ، فَيَتَّبِعُ مَنْ يَعْبُدُ الشَّمْسَ الشَّمْسَ ، وَيَتَّبِعُ مَنْ يَعْبُدُ الْقَمَرَ الْقَمَرَ ، وَيَتَّبِعُ مَنْ يَعْبُدُ الطَّوَاغِيتَ الطَّوَاغِيتَ ، وَتَبْقَى هَذِهِ الْأُمَّةُ فِيهَا مَنَافِقُوهَا . .] الحديث⁽¹⁾.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَازَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

أي: حتى إذا اجتمعت أفواج الناس وجماعاتهم حسب آياتهم وما كانوا يعبدون من دون الله قال الله لهم: ﴿أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي﴾ التي أنزلتها على رسلي ، وأقمتها دلالة على توحيدى وإفرادى بالعبادة والتعظيم. ﴿وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا عِلْمًا﴾. قال القرطبي: (أي بطلانها حتى تعرضوا عنها ، بل كذبتهم جاهلين غير مستدلين. ﴿أَمَازَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ تَعْمَلُونَ﴾ تفريع وتوبيخ ، أي ماذا كنتم تعملون حين لم تبحثوا عنها ولم تفكروا بما فيها).

وقوله تعالى: ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ﴾.

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: ووجب السخط والغضب من الله على المكذبين بآياته ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾ يعني بتكذيبهم بآيات الله ، يوم يحشرون ﴿فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ﴾ يقول: فهم لا ينطقون بحجة يدفعون بها عن أنفسهم عظيم ما حلّ بهم ووقع عليهم من القول).

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (182) ، كتاب الإيمان ، باب معرفة طريق الرؤية.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلِيلَ لَيْسَكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

تنبيه على قدرته التامة ، وهيمنته العامة ، وعظيم سلطانه وجبروته .

قال ابن كثير: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلِيلَ لَيْسَكُنُوا فِيهِ﴾ أي: فيه ظلام تسكن بسببه حركاتهم وتهادئ أنفاسهم ، ويستريحون من نصب التعب في نهارهم. ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ ، أي: منيراً مشرقاً ، فبسبب ذلك يتصرفون في المعاش والمكاسب ، والأسفار والتجارات ، وغير ذلك من شؤونهم التي يحتاجون إليها ، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

87 - 90. قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوِّهٍ دَاخِرِينَ﴾ (٨٧) وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَقَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (٨٨) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُمْ مِّنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (٨٩) وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٠).

في هذه الآيات: تصويرُ الله الأحداث التي تسبق القيام بين يديه للحساب ، من نفخة الفزع وحركة الجبال وهي تمر مر السحاب ، ثم توضع الحسنات والسيئات على الميزان ليكون بعد ذلك الثواب والعقاب .

والنفخ في الصور على ثلاثة أنواع:

الأولى: نفخة الفزع . كما قال جل ثناؤه: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [النمل: 87]. أي: واذكر يا محمد أو ذكرهم يوم ينفخ في الصور فيفزعون من الخوف والحزن .

الثانية: نفخة الصعق . كما قال جل ذكره في سورة الزمر: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر: 68].

يروى البخاري عن ابن عباس: [قال في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي النُّفُورِ﴾ الصور. و﴿الرَّاحَةِ﴾: النفخة الأولى. و﴿الرَّادَةِ﴾: الثانية]⁽¹⁾.

والثالثة: نفخة القيام لرب العالمين. كما قال سبحانه في تنمة آية الزمر: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: 68].

فبنفخة الصعق يموت الأحياء من أهل السماوات والأرض إلا من استثنى الله ، ثم يقبض سبحانه أرواح الباقيين حتى يكون آخر من يموت ملك الموت ، وينفرد الحي القيوم الذي كان أولاً وهو الباقي آخراً بالديمومة والبقاء ، ويقول: «لمن الملك اليوم ، لمن الملك اليوم» ثم يجيب نفسه بنفسه سبحانه فيقول: ﴿لِلَّهِ الْوَلَدُ الْقَهَّارُ﴾ أنا الذي كنت وحدي ، وقد قهرت كل شيء ، وحكمت بالفناء على كل شيء . ثم يحيي أول من يحيي إسرافيل ويأمره أن ينفخ في الصور نفخة أخرى وهي النفخة الثالثة نفخة البعث والقيام لرب العالمين ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾.

والصور قرن ينفخ فيه إسرافيل. قال مجاهد: (كهية البوق). وقيل هو البوق بلغة أهل اليمن. وقد جاءت السنة الصحيحة بتفصيل تلك الأحداث في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [إِنِّي مِنْ أَوَّلِ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ بَعْدَ النُّفْخَةِ الْآخِرَةِ ، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَىٰ مُتَعَلِّقٌ بِالْعَرْشِ ، فَلَا أَدْرِي أَكُذِّبُ أَمْ لَا] ⁽²⁾.

وفي رواية لمسلم: [فإذا موسى أخذ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدري أحوسب بصعقته يوم الطور أو بعث قبلي]. وفي لفظ: [فلا أدري أفارق قبلي أم جوزي بصعقة يوم الطور].

قال أهل العلم: (والصعق لتجلي الله لعباده إذا جاء لفصل القضاء ، فموسى إن كان لم يصعق معهم يكون قد جوزي بصعقة يوم تجلي ربه للجبل فجعله دكاً).

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

- (1) حديث صحيح. رواه البخاري في ترجمة باب. انظر تخريج المشكاة (5529) ، وانظر كتابي: أصل الدين والإيمان (2/ 725 - 728) - النفخ في الصور والقيام.
- (2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4813) ، كتاب التفسير ، ورواه مسلم (7/ 100 - 101) ، وانظر مختصر صحيح مسلم (1612) ، وكتابي: أصل الدين والإيمان (2/ 728).

[ما بين النفختين أربعون. قالوا: يا أبا هريرة أربعون يوماً؟ قال: أبيت⁽¹⁾. قالوا: أربعون شهراً؟ قال: أبيت. قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيت. ثم يُنزلُ الله من السماء ماء فينبتون كما ينبتُ البقل. قال: وليس من الإنسان شيء لا يبلُ إلا عظماً واحداً وهو عَجَبُ الذنب⁽²⁾ ومنه يركب الخلق يوم القيامة]⁽³⁾.

الحديث الثالث: أخرج الإمام مسلم في صحيحه ، والإمام أحمد في مسنده ، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: [يخرج الدجال في أمي فيمكث فيهم أربعين لا أدري أربعين يوماً أو أربعين شهراً أو أربعين عاماً أو أربعين ليلة ، فيبعث الله تعالى عيسى بن مريم عليهما الصلاة والسلام كأنه عروة بن مسعود الثقفي فيظهر فيهلكه الله تعالى. (وفي رواية: فيطلبه فيهلكه). ثم يلبث الناس بعده سنين سبعاً ليس بين اثنين عداوة ، ثم يرسل الله تعالى ريحاً باردة من قبل الشام فلا يبقى أحد في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته حتى لو أن أحداً دخل في كبد جبل لدخلت عليه. ويبقى شرار الناس في خفة الطير⁽⁴⁾ وأحلام السباع⁽⁵⁾ ، لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً. قال: فيتمثل لهم الشيطان فيقول: ألا تستجيبيون؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان فيعبدونها ، وهم في ذلك دائرة أرزاقهم حسن عيشهم ، ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتاً ورفع ليتاً - أي: أمال صفحة عنقه - وأول من يسمعه رجل يلوط حوضه - أي: يصلحه ويطينه - فيصعق ، ثم لا يبقى أحد إلا صعق ، ثم يرسل الله تعالى مطراً كأنه الطل فتنبت منه أجساد الناس ، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون. ثم يقال: أيها الناس ، هلموا إلى ربكم ﴿وَقَفُّوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ ثم يقال: أخرجوا بعث النار ، فيقال كم؟ فيقال: من كل ألف تسع مئة وتسعة وتسعين ، فيومئذ تبعث الولدان شبيهاً ، ويومئذ يكشف عن ساق]⁽⁶⁾.

وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾. قال أبو هريرة: «هم الشهداء» - رواه ابن جرير.

- (1) أي: امتنعت عن الجواب لأنني ما أدري ما الصواب.
- (2) عجب الذنب: هو العظم بين الألتين أسفل الصلب.
- (3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4814) ، كتاب التفسير ، وأخرجه مسلم (141/2955).
- (4) المراد سرعتهم للشروع والشهوات والفساد والإفساد كسرعة الطير.
- (5) المراد بذلك العدوان والظلم كالسباع الضارية العادية.
- (6) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2940) ، وأحمد (166/2) ، وأخرجه النسائي في «الكبرى» (11629) ، وأخرجه ابن حبان في صحيحه (7353).

فإنهم أحياء عند ربهم يرزقون. قال النسفي: ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾: إلا من ثبت الله قلبه من الملائكة، قالوا: هم جبريل وميكائيل وإسرافيل، وملك الموت عليهم السلام. وقيل: الشهداء. وقيل: الحور، وخزنة النار، وحملة العرش، وعن جابر رضي الله عنه: منهم موسى عليه السلام لأنه صعد مرة).

قلت: وكل ما سبق محتمل في التأويل، والله تعالى أعلم بمن يستثني.

وقوله: ﴿وَكُلُّ أُنثَىٰ ذَخِيرَةٍ﴾. قال ابن عباس: (يقول: صاغرين).

قال ابن زيد: (الداخر: الصاغر الراغم. قال: لأن المرء الذي يفرع إذا فرع إنما همته الهرب من الأمر الذي فرع منه، قال: فلما نُفخ في الصور فزعوا، فلم يكن لهم من الله منجى).

وقد قرأته بعض قراء الأمصار بالمد ﴿وكل آتوه﴾، وقرأ ﴿أَتَوْهُ﴾ والمعنى واحد، أي جاؤوه طائعين صاغرين لم يتخلف منهم أحد.

وقوله: ﴿وَرَى الْجِبَالِ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾.

قال ابن عباس: ﴿تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ يقول: قائمة، وهي تسير سيراً حثيثاً).

وقال القتيبي: (وذلك أن الجبال تُجمع وتُسَيَّر، فهي في رؤية العين كالقائمة وهي تسير).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1- قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ۚ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ [الطور: 9 - 10].

2- وقال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۖ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۚ لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: 105 - 107].

3- وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تُسِيرُ الْجِبَالُ وَتَرَىٰ الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: 47].

4- وقال تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبا: 20].

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود قال: [جاء خبرٌ من اليهود إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد! إن الله يُنْصِلُ السماوات يوم القيامة على أصبع، والأرضين على أصبع، والجبال والشجر على أصبع، والماء والثرى على أصبع، وسائر الخلق على أصبع، ثم يهزّهن، فيقول: أنا الملك، أنا الله، فضحك رسول الله ﷺ تعجباً مما قال الخبرُ تصديقاً له، ثم قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ

الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتِ مَطْوِيَّتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿[الزمر: 67]﴾⁽¹⁾.

وقوله: ﴿صُنِعَ اللَّهُ الْذِي أَنْفَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾. قال ابن عباس: (يقول: أحسن كل شيء خلقه وأوثقه). وقال أيضاً: (أحكم كل شيء).

وقوله: ﴿إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾. قال قتادة: (إن الله ذو علم وخبرة بما يفعل عباده من خير وشر وطاعة له ومعصية، وهو مجازي جميعهم على جميع ذلك على الخير والخير، وعلى الشر الشر نظيره).

وقوله: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾.

قال ابن عباس: (من جاء بلا إله إلا الله). وقال مجاهد: (كلمة الإخلاص).

والخلاصة: من جاء بالعمل الصالح على منهج التوحيد فله بالحسنة خير منها إلى عشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة. كما قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: 160].

وفي صحيح مسلم عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ - فيما يروي عن ربه عز وجل - قال: [إن الله كتب الحسنات والسيئات، ثم بين ذلك، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمَلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِائَةٍ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ] الحديث⁽²⁾.

وقوله: ﴿وَهُمْ مِنْ فَرْعٍ يَوْمِئِذٍ آمِنُونَ﴾.

قال القاسمي: (أي لا يعترهم ذلك الفرع الهائل. وقرئ ﴿فَرْعٍ يَوْمِئِذٍ﴾ بالإضافة وكسر الميم وفتحها. وفرع منوناً وفتح الميم، على أنه ظرف لـ ﴿آمِنُونَ﴾ أو المحذوف هو صفة للفرع. والتونين في ﴿يَوْمِئِذٍ﴾ عوض عن جملة محذوفة، أي يوم إذ جاؤوا بالحسنة).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 - قال تعالى: ﴿لَا يَخْزِيهِمُ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ وَنَلَقْنَاهُمُ الْمَلَكَةَ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: 103].

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4811)، ومسلم (2786)، وانظر تفصيل بحث: النفخ في الصور والقيام - في كتابي: أصل الدين والإيمان (2/ 725 - 730).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه (131)، كتاب الإيمان، وانظر الحديث (129) كذلك.

2 - وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الْوَعْدِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: 37].

3 - وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرًا مِّنْ يَّاتِي ءَامِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [فصلت: 40].

أخرج أبو نعيم في «الحلية»، وعبد الله بن المبارك في «الزهد» بسند حسن في الشواهد، عن شداد بن أوس، أن رسول الله ﷺ قال: [قال الله عز وجل: وعزتي لا أجمع لعبدي أمينين ولا خوفين، إن هو أمني في الدنيا أخفته يوم أجمع فيه عبادي، وإن هو خافني في الدنيا أمنت يوم أجمع فيه عبادي] (1).

وقوله: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾. قال ابن عباس: (الشرك).

وعن قتادة: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ قال: الإخلاص، ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ قال: (الشرك).

قال ابن كثير: (أي: مَنْ لقي الله مُسِيئًا لا حَسَنَةً له، أو: قد رَجَحَتْ سَيِّئَاتُهُ عَلَى حَسَنَاتِهِ، كُلُّ بِحَسَبِهِ. ولهذا قال تعالى: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾).

وفي الصحيحين عن عائشة أن النبي ﷺ قال: [ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك. قلت: أوليس يقول الله: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا بَاسِرًا﴾ فقال: إنما ذلك العرض، ولكن من نوقش في الحساب يهلك] (2).

91 - 93. قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّتِي حَرَّمَهَا وَلِلَّهِ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَتُوبَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلْ لِحَمْدِ اللَّهِ سُبْحَانَ عَائِيهِ فَنَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

في هذه الآيات: إعلامُ النبي ﷺ قومه أنه أمر بإفراد الله رب هذه البلدة التي حرّمها بالعبادة والتعظيم، وتلاوة القرآن وإقامة الحجة على الناس أجمعين، وحمد الله الذي

(1) حسن لغيره. أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (98/6)، وأخرجه عبد الله بن المبارك في «الزهد» برقم (157)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (742).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4939)، وأخرجه مسلم (2876)، وغيرهما.

بيده عجائب الآيات يريها خلقه ليؤمنوا به وما هو بغافل عما يعملون .

فقوله : ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا ﴾ . قال قتادة : (يعني مكة) .

وإضافة الربوبية إلى البلدة على سبيل التشريف لها كقوله تعالى : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَلَدِ ﴾ [الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ] [قريش : 3 - 4] .

قال ابن جرير : ﴿ الَّذِي حَرَّمَهَا ﴾ على خلقه أن يسفكوا فيها دمًا حراماً ، أو يظلموا فيها أحداً ، أو يصاد صيدها ، أو يختلئ خلاها دون الأوثان التي تعبدونها أيها المشركون) .

وفي الصحيحين عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال في خطبته عام الفتح : [لا هجرة ، ولكن جهاد ونية ، وإذا استنفرتم فانفروا ، فإن هذا بلدٌ حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض ، وهو حرام بحُرمة الله إلى يوم القيامة ، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي ، ولا يحل لي إلا ساعة من نهار ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لا يُعَصَّدُ شوكُهُ ولا يُنْقَرُ صيدهُ ، ولا يُلْتَقَطُ لِقَطْعَتُهُ ، إلا من عَرَفَهَا ، ولا يُخْتَلَى خَلَاها ، إلا الإذخر] (1) .

وقوله : ﴿ وَلَمْ كُلُّ شَيْءٍ ﴾ . قال ابن كثير : (من باب عطف العام على الخاص ، أي : هو ربُّ هذه البلدة ، وربُّ كلِّ شيء ومليكه لا إله إلا هو) .

وقوله : ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ . قال القرطبي : (أي من المنقادين لأمره ، الموحدن له) .

وقوله : ﴿ وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ ﴾ . أي : وأمرت أن أقرأ القرآن وأرتله وأتدبره ، وأن أتلوه على الناس لأبلغهم .

وقوله : ﴿ فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴾ .

قال النسفي : ﴿ فَمَنْ أَهْتَدَىٰ ﴾ باتباعه إياي فيما أنا بصده من توحيد الله ونفي الشركاء عنه والدخول في الملة الحنيفية واتباع ما أنزل عليّ من الوحي ﴿ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ﴾ فممنعة اهتدائه راجعة إليه لا إليّ ﴿ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴾ أي : ومن ضل ولم يتبعني فلا عليّ وما أنا إلا رسول منذر وما على الرسول إلا البلاغ المبين) .

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (1834) ، كتاب جزاء الصيد ، وأخرجه مسلم (1864) نحوه ، كتاب الإمارة ، والإذخر : نبات طيب الرائحة .

وقوله: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾.

قال مجاهد: (في أنفسكم ، وفي السماء والأرض والرزق).

والمعنى: قل - يا محمد - لمكذبي البعث والمعاد والوحي من قومك: الحمد لله على نعمته الكبرى - نعمة الهداية للحق الذي أنتم عنها عمون - ، وسيريكُم ربكم آيات انتقامه وسخطه فتعرفونها ، كما يريكُم آيات وحدانيته ودلائل قدرته فتكرونها.

وقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

أي: وما ربك - يا محمد - بغافل عن شيء من أعمال عباده ، بل هو شهيد على كل ما يصدر منهم ، جل جلاله ، ولا إله إلا هو.

وفي صحيح مسلم من حديث أبي ذر مرفوعاً إلى النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل: [قال الله تعالى: يا عبادي: إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكُم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه] (1).

تم تفسير سورة النمل

بعون الله وتوفيقه ، وواسع منه وكرمه



(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح (8/ 17) ، وأخرجه أحمد في المسند (5/ 160).

دروس ونتائج وأحكام

- 1- إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج .
- 2- إن الله عز وجل لا ينام ، ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه . أي : يبسط العطاء أو يُقْتَره بعدله وحكمته .
- 3- إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها .
- 4- ما أنعم الله على عبد نعمة فقال الحمد لله ، إلا كان الذي أعطاه أفضل مما أخذ .
- 5- ﴿أَوْزَعْنِي﴾ : ألهمني وحرطني . والعرب تقول : أوزعه بالشيء أغراه به . واستوزعته الله شكره فأوزعني أي استلهمته فألهمني .
- 6- القادة في الإسلام يحرصون على إقامة العدل والانضباط ، والتأكد من جاهزية الجنود والعمال ، وحسن أدائهم لوظائفهم .
- 7- الخبء : كل ما هو مخبوء ، من نبات ومعادن وأرزاق ومخلوقات لا يعلم ذلك إلا الله .
- 8- الكرسي موضع القدمين ، والعرش لا يقدر أحد قدره .
- 9- نهى النبي ﷺ عن قتل أربع من الدواب : النملة والنحلة والهُدُودِ والضُرَد .
- 10- الملوك الفجار إذا دخلوا قرية أفسدوها ، وجعلوا أعزة أهلها أذلة .
- 11- فضل العلم خير من فضل العبادات ، وخير دينكم الورع .
- 12- الإسرائيليات والأحاديث الموضوعة المكذوبة أساءت لشرف النبوة .
- 13- الطيرة شرك ، وما منا إلا ، ولكن الله يذهب بالتوكل .

- 14 - إذا أراد الله بعبده الخير عَجَّلَ له العقوبة في الدنيا ، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه ذنبه حتى يُوافي به يوم القيامة .
- 15 - أَحَبُّ الكلام إلى الله تعالى : سبحان الله وبحمده .
- 16 - ليس أَحَدٌ أَصْبَرَ على أذى سمعه من الله ، إنهم ليدعون له ولدًا ، وإنه ليعافيهم ويرزقهم .
- 17 - إن الله تعالى خلق خلقه في ظلمة ، ثم ألقى عليهم من نوره ، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ، ومن أخطأه ضلَّ .
- 18 - إِنَّ أول الآيات خروجاَ طلوع الشمس من مَغْرِبها ، وخروج الدابة على الناس ضحا .
- 19 - النفخ في الصور على ثلاثة أنواع : أ - نفخة الفزع . ب - نفخة الصعق . ج - نفخة القيام لرب العالمين .
- 20 - الناقور : الصور . والرافعة : النفخة الأولى . والرادفة : الثانية .
- 21 - الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف أو أكثر ، والسيئة بمثلها .
- 22 - ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك . فمن نوقش في الحساب يهلك .
- 23 - البلد الحرام لا يعضدُ شوكة ولا يُتَفَرَّ صيده ولا يلتقطُ لقطته .
- 24 - أَمَرَ رسول الله ﷺ بتلاوة القرآن وتدبره وتبليغه ، وهو أمر لأُمَّته بعده .
- 25 - من وجد يوم الحساب خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه .



28



وهي سورة في غالبها مكية ، وعدد آياتها (88)

روى أحمد في المسند بسند رجاله ثقات عن معد يكرب قال : [أتينا عبد الله فسألناه أن يقرأ علينا ﴿طَسَمَ﴾ المئين ، فقال : ما هي معي ، ولكن عليكم مَنْ أَخَذَهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : خَبَابُ بن الأرت . قال : فأتينا خَبَابَ بن الأرت ، فقرأها علينا ، رضي الله عَنْهُ⁽¹⁾ .

موضوع السورة

تقرير الله تعالى بالقصاص الحق
سنته في نصر المؤمنين وإهلاك الكافرين

- منهاج السورة -

- 1 - انتصار الله للقرآن ، وخبر موسى عليه السلام ، مع الطاغية فرعون أمكر اللثام .
- 2 - تقريرُ الله تعالى جعل الغلبة والقوة للمستضعفين المؤمنين ، ليكونوا هم الوارثين ، وليري الطغاة منهم ما كانوا يحذرون .

(1) رجاله ثقات . أخرجه أحمد (3980) ، والطبراني (3614) ، وقال الهيثمي في «المجمع» (84 / 7) :
ورجاله ثقات . وأورده الحافظ ابن كثير في مقدمة هذه السورة .

- 3 - قصة إرضاع موسى ، والتقاط آل فرعون التابوت ، ليربى موسى في بيت الطاغية بإذن الله الذي يمكر بالمجرمين من حيث لا يشعرون .
- 4 - تثبيت الله تعالى أم موسى ، وتحريمه المراضع حتى أرجعه سبحانه إلى أمه .
- 5 - رعاية الله موسى ، وإعطاؤه العلم والحكمة ، ودخول موسى المدينة ووقوفه جانب الرجل من شيعته ، وشعور موسى بالخوف من تبعة قتله القبطي ، واستصراخ الرجل به ثانية ، والنصيحة له بالخروج وتوجهه إلى مدين .
- 6 - قصة موسى والمرأتين وسقايته لهما ، ودعوة والد الفتاتين له وتزويجه إحداهما .
- 7 - انقضاء المدة في خدمة موسى والد زوجته ، ومسيره إلى مصر وتكليم الله له ، وإظهار الآيات له لتعينه في مهمته إلى فرعون ، وشُدَّ عضده بأخيه .
- 8 - جحود فرعون وقومه الآيات ، وإهلاك الله فرعون والطغاة ، ولعنهم في الدنيا والآخرة .
- 9 - إنزال التوراة ، وإهلاك فرعون ، أخبار تصدق نبوة محمد ﷺ .
- 10 - مطالبة المشركين بالآيات والمعجزات ، وكفرهم بالوحي واتباعهم الأهواء .
- 11 - مضاعفة الأجر لمؤمني أهل الكتاب ، آمنوا بنبيهم ثم آمنوا بمحمد ، - عليه وعلى الأنبياء والرسل الصلاة والسلام - .
- 12 - أمر الهداية لله ، والحرم الأمنُ نعمة الله على قريش ، وإهلاك القرى الظالم أهلها سنة الله في العالمين .
- 13 - بهجة الدنيا وزينتها إلى فناء ، والدار الآخرة هي الحيوان لو كانوا يعلمون ، والمجرمون يساقون يوم القيامة ليكونوا من المحضرين ، ويقال لهم ماذا أجبت المرسلين ، فعميت عليهم الأنبياء ولم ينبجُ إلا من كان من المؤمنين التائبين .
- 14 - كمال علم الله تعالى ونفاذ مشيئته ، فهو الحكمُ وله الحكمُ وإليه ترجعون .
- 15 - امتنان الله تعالى على عباده نعمة تقليب الليل والنهار ولعلمهم يشكرون .
- 16 - إثبات خزي المشركين يوم يناديهم ربهم تبارك وتعالى ليخرجوا شركاءه الذين كانوا يزعمون . وخروج الرسول من كل أمة ليشهد عليها وضل عن المشركين ما كانوا يفترون .

- 17 - قصة قارون وغروره ، واستخدامه الأموال للفساد ، وخسف الله به الأرض ، وجعله عبرة لمن يعتبر .
- 18 - تكريماً لله المؤمنين في الجنة لقيامهم على منهاج النبوة ، ومحاربتهم الفساد والطغاة في الأرض ، وتضاعف الحسنات لهم .
- 19 - إثبات المعاد إلى الله ليجزى نبيه ﷺ أجر المجاهدين الصابرين ، والله تعالى هو أعلم بالمهتدين .
- 20 - هذا القرآنُ نعمة الله الكبرى على النبي والمؤمنين ، وفيه الهدى وبه الثبات على الحق إلى يوم الدين .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

1 - 6. قوله تعالى: ﴿طَسَمَ ۖ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۚ﴾ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يَذِخُّ أبنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣﴾ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٤﴾ وَنُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرَى فِرْعَوْنَ وَهَمْلَانَ حُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٥﴾﴾.

في هذه الآيات: انتصاراً من الله تعالى لهذا الكتاب المبين ، فيه خبر موسى عليه السلام مع فرعون الطاغية الذي كان من المفسدين ، وفيه تأكيد إرادته سبحانه تمكين المستضعفين في الأرض من المؤمنين ، لِيُرِيَ الطغاة منهم ما كانوا يحذرون.

فقوله تعالى: ﴿طَسَمَ﴾. شأن الحروف المقطعة أوائل جميع السور تفيد الإعجاز وتحدي الثقلين أن يأتوا بمثل هذا القرآن أو سورة منه ، مع أنه مركب من مثل هذه الأحرف التي يتخاطب العرب بها:

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾. انتصار لهذا القرآن العظيم ، الواضح في آياته ، الكاشف عن العلوم العالية التي فيها سر السعادة في الدنيا والنجاة في الآخرة. قال قتادة: (﴿مبين﴾ يعني مبين والله بركته ورشده وهداه).

وقوله تعالى: ﴿نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

أي: نقرأ عليك - يا محمد - ونقص في هذا القرآن من خبر موسى - عليه السلام - مع الطاغية فرعون ، ليفيد بذلك أهل الإيمان بالله وسننه وأيامه.

قال قتادة: (يقول: في هذا القرآن نبؤهم).

وقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾. قال السدي: (يقول: تجبر في الأرض). وقال قتادة: (بغى في الأرض).

وقوله: ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾. قال مجاهد: (فرقاً). وقال: (فرَّقَ بينهم). قال ابن زيد: (الشيعة: الفرق).

والمقصود: قَسَمَهُمْ طوائف وأصنافاً ليستعملهم في أمور دولته وخدمة مصالحه.

وقوله: ﴿يَسْتَضِعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُدَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾.

قال قتادة: (يستعبد طائفة منهم ، ويدبح طائفة ، ويقتل طائفة ، ويستحي طائفة). قال ابن كثير: ﴿يَسْتَضِعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾، يعني بني إسرائيل. وكانوا في ذلك الوقت خيار أهل زمانهم. هذا وقد سُلِّطَ عليهم هذا الملك الجبار العنيد يستعملهم في أحسن الأعمال ، ويكُدُّهم ليلاً ونهاراً في أشغاله وأشغال رعيته ، ويقتل مع هذا أبناءهم ويستحي نساءهم ، إهانة لهم واحتقاراً ، وخَوْفاً مِنْ أَنْ يُوجَدَ منهم الغلام الذي كان قد تخوَّف هو وأهل مَمْلَكَتِهِ مِنْ أَنْ يُوجَدَ منهم غلامٌ يكون سبب هلاكه وذهاب دولته على يديه. وكانت القبط قد تَلَقَّوا هذا من بني إسرائيل فيما كانوا يَكْذُرُونَهُ من قول إبراهيم الخليل ، حينَ وَرَدَ الديار المصرية ، وَجَرَى لَهُ مَعَ جَبَّارِهَا ما جَرَى ، حين أخذ سارة لِيَتَّخِذَهَا جاريةً ، فصانها الله منه ، ومنعها منه بقدرته وسلطانِه. فبشَّر إبراهيم - عليه السلام - ولده أنه سَيُولَدُ مِنْ صُلْبِهِ وَذُرِّيَّتِهِ مَنْ يكون هلاك مِصْرَ على يديه ، فكانت القبط تتحدَّث بهذا عند فِرْعَوْنَ ، فاحترز فِرْعَوْنُ مِنْ ذَلِكَ ، وأمر بِقَتْلِ ذُكُورِ بني إسرائيل. ولن ينفع حَذَرٌ مِنْ قَدَرٍ ، لأنَّ أجل الله إذا جاء لا يُؤَخَّرُ ، ولكل أجل كتاب).

وقوله تعالى: ﴿وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِيكَ اسْتَضِعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾. أي: ونريد أن نفضل على المؤمنين الذين استضعفوا من بني إسرائيل ونحدث الشوكة لهم.

قال قتادة: (بنو إسرائيل ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً﴾ أي: ولاية الأمر ﴿وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾: أي: يرثون الأرض بعد فرعون وقومه).

وقوله: ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾. قال ابن جرير: (يقول: ونوطي لهم في أرض الشام ومصر).

وقوله: ﴿وَبَرِئَ فِرْعَوْنُ وَهَمَنَ وَجُنُودُهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ .

قال النسفي: (أي يرون منهم ما حذروه من ذهاب ملكهم وهلاكهم على يد مولود منهم).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 - قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمِغْرِبَهَا أَلَيْ بُنَرَكْنَا فِيهَا وَقَمْتُ لَكَ رَبُّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَقِيَّةِ إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: 137].

2 - وقال تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَ كَانُوا فِيهَا فٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [الدخان: 25 - 28].

3 - وقال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَقِيَّةَ إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: 57 - 59].

قلت: وهذه الآيات الكريمة تحمل بشارات النصر والظفر لطائفة الحق والإيمان على مدار الزمان ، وتحمل الويل والدمار وبشائر الهلاك للطغاة والعتاة الذين يستهزئون بالحق ويكيدون لدين الله وأوليائه .

7 - 9. قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ

فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَالْقِطْعَةُ ۖ آلَ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خٰطِئِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾ .

في هذه الآيات: وَحِيَّ الله تعالى إلى أم موسى إرضاعه ثم إلقاءه في البحر ليرجع إليها بإذن الله وليكون من المرسلين . والتقاط آل فرعون التابوت ليربى موسى في بيت فرعون بإذن الله وهم لا يشعرون .

فعن قتادة: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ﴾ وحياً جاءها من الله ، فقذف في قلبها ، وليس

بوحى نبوة أن أرضعي موسى ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي﴾ الآية).

وعن السدي قال: (أمر فرعون أن يذبح من وُلِدَ من بني إسرائيل سنة ، ويتركوا سنة ، فلما كان في السنة التي يذبحون فيها حملت بموسى ، فلما أرادت وضعه ، حزنت من شأنه ، فأوحى الله إليها ، أن أرضعيه فإذا خفتِ عليه فألقيه في اليم).

وفي التفاسير أن فرعون لما أكثر من قتل ذكور بني إسرائيل خافت القبط أن يقتني بني إسرائيل فيتحملون هم الأعمال الشاقة ، فالمحوا لفرعون ذلك ، فأمر بقتل الولدان عاماً وتركهم عاماً ، فولد هارون - عليه السلام - في السنة التي يتركون فيها ، وولد موسى - عليه السلام - في السنة التي يقتلون فيها الولدان. وكانت دار أمه على حافة النيل ، فاتخذت تابوتاً ومهدت فيه مهداً ، وجعلت ترضع ولدها ، فإذا دخل عليها من تخافه جعلته في ذلك التابوت وسيرته في البحر ، وربطته بحبل عندها .

فنسيت يوماً ربطه فذهب مع الماء حتى مرّ بدار فرعون فاحتملته الجواري إلى امرأة فرعون ، وألقى الله عليه محبة فأفنت زوجها أنه قرّة عين ، وكان لم يولد لها ولدٌ منه .
وعن السدي: ﴿فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ قال: هو البحر ، وهو النيل).

وقوله: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي﴾. قال ابن زيد: (لا تخافي عليه البحر ، ولا تحزني لفراقه ﴿إِنَّا رَأَوُوهُ إِلَافًا﴾).

قال ابن جرير: (يقول: لا تخافي على ولدك من فرعون وجنده أن يقتلوه ، ولا تحزني لفراقه).

وقوله: ﴿إِنَّا رَأَوُوهُ إِلَافًا﴾. أي: لتكوني أنت ترضعيه .

وقوله: ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾. قال ابن إسحاق: (وباعثوه رسولا إلى هذا الطاغية ، وجاعلو هلاكه ونجاة بني إسرائيل مما هم فيه من البلاء على يديه).

وقوله: ﴿فَالْنِّفْطَةُ مَالٌ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾. أي: ليقضي الله بالتقاطهم ما كتب عليهم من الخزي. قال القرطبي: (لما كان التقاطهم إياه يؤدي إلى كونه لهم عدواً وحزناً ، فاللام في ﴿لِيَكُونَ﴾ لام العاقبة ولا م الصيرورة⁽¹⁾).

قال ابن كثير: (ولكن إذا نظر إلى معنى السياق فإنه تبقى اللام للتعليل ، لأن معناه

(1) وكذلك قال محمد بن إسحاق: (اللام هنا لام العاقبة لا لام التعليل).

أن الله - تعالى - قَيَّضَهُمْ لالتقاطِهِ ليجعلهُ لهم عدواً وحرزاً فيكون أبلغ في إبطال حذرهم منه).

وقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَنَّ وَخُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾. أي: كانوا بربهم آثمين.

قال النسفي: (أي كانوا مذنبين فعاقبهم الله بأن ربى عدوهم ومن هو سبب هلاكهم على أيديهم).

وقوله: ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْسُوهُ عَنِّي أَنْ يَنْفَعَنَّا أَوْ تَتَّخِذُمُ وَلَدًا﴾.

قال قتادة: (ألقيت عليه رحمته حين أبصرته).

والمقصود: أن آسية بنت مزاحم - امرأة فرعون - شرعت تحبب الطفل إلى زوجها فرعون لئلا يفكر بقتله وذبحه ، فقالت له: هو قرّة عين لي ولك ، وربما انتفعنا باتخاذِهِ ولداً حيث ليس لنا ولد.

وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾. قال قتادة: (وهم لا يشعرون أن هلكتهم على يديه ، وفي زمانه). وقال ابن إسحاق: (يقول الله: وهم لا يشعرون أي بما هو كائن بما أراد الله به).

10 - 13. قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَرَجًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ

بِهِ لَوْلَا أَنَّ رَبَّنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتِ لِأُخْتِهِ قُصِّيهٖ فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصْحُوتُ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلَنَعْلَمَ أَنَّكَ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَلَئِنْ أَكْثَرْتَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾.

في هذه الآيات: تثبيتُ الله تعالى أم موسى وإنزال الصبر والطمأنينة على قلبها لتكون من المؤمنين. وتحريمُ الله المراضع عليه حتى عملوا بنصيحة أُختِهِ برده إلى أمِّه وهم لا يشعرون.

فَقُولَهُ: ﴿وَأَصْبَحَ قُودُ أُمِّ مُوسَىٰ قَرْعًا﴾.

قال ابن عباس: (فارغاً من كل شيء إلا من هم موسى). قال: (لا تذكر إلا موسى). وقال مجاهد: ﴿قَرْعًا﴾ من كل شيء غير ذكر موسى).

وقوله: ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ﴾ قال قتادة: (أي لتبدي به أنه ابنها من شدة وجدها). والمقصود: أي: إن كادت من شدة حزنها وأسفها لتظهر أنه ذهب لها ولد ، وتعلن بحالها ، لولا تثبيت الله لها وتصبرها .

وهو قوله: ﴿لَوْلَا أَنْ رَّبَّنَا عَلَّٰلِهَا لَنُكُونَنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

قال القاسمي: (أي: لولا أن ألهمناها الصبر . ومعنى ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ من المصدقين بوعد الله).

وقوله: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيَّةٌ﴾ . قال مجاهد: (اتبعي أثره كيف يصنع به).

أي: أمرت أم موسى ابنتها - وكانت كبيرة تعي ما يجري حولها - أن تتبع أثر ابنها في نواحي البلد . وفي لغة العرب: قصصت آثار القوم: إذا اتبعت آثارهم .

وقوله: ﴿فَبَصَّرْتَهُ بِهٖ عَنْ جُنُبٍ﴾ . قال ابن عباس: (عن جانب). وقال مجاهد: (عن بُعد). وقال قتادة: (يقول: بصرت به وهي محاذيته لم تأته). وقال: (جعلت تنظر إليه وكأنها لا تُريده).

قال ابن كثير: (وذلك أنه لما استقر موسى عليه السلام بدار فرعون ، وأحبته امرأة الملك ، واستطلقت منه ، عَرَضُوا عَلَيْهِ المراضع التي في دارهم ، فلم يقبل منها ثدياً ، وأبى أن يقبل شيئاً من ذلك . فخرجوا به إلى السوق لَعَلَّهُمْ يجدون امرأة تصلح لرضاعته ، فلما رأته بأيديهم عرفته . ولم تُظهر ذلك ولم يشعروا بها).

وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ . قال قتادة: (أنها أخته ، قال: جعلت تنظر إليه كأنها لا تُريده). وقال ابن إسحاق: (أي: لا يعرفون أنها منه بسبيل). وقال مجاهد: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ قال: آل فرعون).

وقوله: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ﴾ . أي: تحريماً قديماً ليمنن الله على أمه بتسكين نفسها وتطمين قلبها حين لا يقبل إلا ثديها . قال مجاهد: (لا يقبل ثدي امرأة حتى يرجع إلى أمه).

قال السدي: (أرادوا له المرضعات ، فلم يأخذ من أحد من النساء ، وجعل النساء

يطلبين ذلك ليتزلن عند فرعون في الرضاع ، فأبى أن يأخذ).

وقوله: ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَمْ نَنصَحُوا﴾.

قال النسفي: ﴿فَقَالَتْ﴾ أخته وقد دخلت بين المراضع ورأته لا يقبل ثدياً ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ أرشدكم ﴿عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ﴾ أي موسى ﴿لَكُمْ وَهُمْ لَمْ نَنصَحُوا﴾.

قال ابن جريج: ﴿وَهُمْ لَمْ نَنصَحُوا﴾: هم للملك ناصحون). وقال ابن إسحاق: ﴿وَهُمْ لَمْ نَنصَحُوا﴾ أي لمتزلته عندكم ، وحرصكم على مسرة الملك ، قالوا: هاتي).

وقوله: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾.

قال قتادة: (ووعدها أنه رآه إليها وجاعله من المرسلين ، ففعل الله ذلك بها).

وقوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أي: ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن وعد الله حق ، ولا يعلمون أن قضاءه في شؤون عباده ليس إلا في خير ، وأن أهل الإيمان منهم يرعاهم سبحانه برحمته وعنايته.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 - قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 216].

2 - وقال تعالى: ﴿فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَنَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 19].

3 - وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ﴾ [الروم: 6 - 7].

ومن صحيح السنة العطرة في ذلك أحاديث:

الحديث الأول: روى أحمد في المسند ، ومسلم في الصحيح - نحوه - عن صهيب قال: [بينما رسول الله ﷺ قاعد مع أصحابه إذ ضحك ، فقال: ألا تسألوني مم أضحك؟ قالوا: يا رسول الله! ومم تضحك؟ قال: عجبْتُ لأمر المؤمن ، إنَّ أمره كله خير ، إن

أصابه ما يحب حمد الله وكان له خير ، وإن أصابه ما يكره فصبر كان له خير ، وليس كل أحد أمره كله خير إلا المؤمن⁽¹⁾.

الحديث الثاني: روى عبد الله بن أحمد في مسند أبيه ، وكذلك أبو يعلى بسند صحيح عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: [عجباً للمؤمن لا يقضي الله له شيئاً إلا كان خيراً له]⁽²⁾.

الحديث الثالث: أخرج البيهقي والطيالسي بسند صحيح من حديث سعد بن أبي وقاص مرفوعاً: [عجبت للمسلم إذا أصابته مصيبة احتسب وصبر ، وإذا أصابه خير حمد الله وشكر ، إن المسلم يؤجر في كل شيء حتى في اللقمة يرفعها إلى فيه]⁽³⁾.

14 - 17. قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُم وَاسْتَوَىٰءَ أَيْبَنَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ١٤ ودَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَةِهُ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغْنَىٰ الَّذِي مِّنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِّنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالِ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ١٥ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّكَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ١٦ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَن أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ١٧.

في هذه الآيات: رعاية الله تعالى موسى عليه السلام ، وإعطاؤه العلم والحكمة جزاء الإحسان ، ودخول موسى المدينة ووقوفه بجانب الرجل من شيعته ليكسر خصمه فيقتله ، ثم يندم ويستغفر ويعترف بذنبه ، ونعمة الله عليه ، ويعاهد الله تعالى ألا يكون ظهيراً للمجرمين .

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (16/6) ، والدارمي (318/2) ، وسنده صحيح على شرط مسلم ، وقد أخرجه في «صحيحه» (227/8) نحوه. وانظر السلسلة الصحيحة (147).

(2) حديث صحيح. رواه عبد الله بن أحمد في مسند أبيه (24/5) ، وأبو يعلى (200/2) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة - حديث رقم - (148).

(3) إسناده صحيح. أخرجه الطيالسي (211) ، والبيهقي من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه. انظر صحيح الجامع الصغير - حديث رقم - (3881).

فقوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾.

قال ابن جرير: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ﴾ موسى. ﴿أَشُدَّهُ﴾ ، يعني حان شدة بدنه وقواه ، وانتهى ذلك منه). قال مجاهد: ﴿ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾: الفقه والعقل والعمل قبل النبوة). وقال ابن إسحاق: (أتاه الله حكماً وعِلماً: فقهاً في دينه ودين آبائه ، وعِلماً بما في دينه وشرائعه وحدوده). وقيل: النبوة.

قلت: والراجح أنه أوتي عند استوائه واشتداد قوته ما يمهد لاستقبال النبوة والرسالة.

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾.

قال الزجاج: (جعل الله تعالى إتياء العلم والحكمة مجازاة على الإحسان لأنهما يؤديان إلى الجنة التي هي جزاء المحسنين).

وقوله: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾. أي: من غير أن يشعروا بدخوله.

قال النسفي: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ﴾ أي مصر ﴿عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ حال من الفاعل ، أي مختفياً ، وهو ما بين العشاءين أو وقت القائلة يعني انتصاف النهار. وقيل: لما شبَّ وعقل أخذ يتكلم بالحق وينكر عليهم فأخافوه ، فلا يدخل المدينة إلا على تغفل).

وقوله: ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَةِ هَٰذَا وَمِنَ الْآخَرَةِ﴾.

قال قتادة: (أما الذي من شيعته فمن بني إسرائيل ، وأما الذي من عدوه فقبطي من آل فرعون).

وقال ابن إسحاق: ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ﴾ مسلم ، وهذا من أهل دين فرعون كافر).

وقوله: ﴿فَاسْتَعْتَضَ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِّنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾.

قال ابن إسحاق: (وكان موسى قد أوتي بسطة في الخلق وشدة في البطش ، فغضب بعدوهما فنازعه ﴿فَوَكَرَهُ مُوسَى﴾ وكزة قتله منها وهو لا يريد قتله).

قال مجاهد: ﴿فَوَكَرَهُ مُوسَى﴾: بجمع كفه). قال ابن كثير: (فاستغاث الإسرائيلي بموسى عليه السلام ، ووجد موسى فرصةً ، وهَيَّ غفلة الناس ، فَعَمَدَ إلى القبطي ﴿فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ قال: أي: كان فيها حقه فمات).

وقوله: ﴿ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴾ .

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: قال موسى حين قتل القتيل: هذا القتل من تسبب الشيطان لي بأن هَيَّجَ غضبي حتى ضربتُ هذا فهلك من ضربتي ، ﴿ إِنَّهُ عَدُوٌّ ﴾ يقول: إن الشيطان عدو لابن آدم ﴿ مُضِلٌّ ﴾ له عن سبيل الرشاد بتزيينه له القبيح من الأعمال ، وتحسينه ذلك له ﴿ مُبِينٌ ﴾ يعني أنه يبين عداوته لهم قديماً ، وإضلاله إياهم).

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّكَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ .

قال ابن جريج: (قوله ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ﴾ قال: بقتلي ، من أجل أنه لا ينبغي لنبي أن يقتل حتى يؤمر ، ولم يؤمر). قال قتادة: (عرف المخرج ، فقال: ﴿ ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ﴾).

قلت: وهذا هو المخرج دوماً من ألم اجتراح الذنوب أن يهرع العبد إلى ربه تعالى متذللاً له بالتوبة والاستغفار راجياً رحمته ومغفرته وتجاوز الزلل والصفح والستر ، وقد وعد الله تعالى عباده إذا أختبوا إليه بالمغفرة والرحمة .

وفي التنزيل نحو ذلك :

1 - قال تعالى: ﴿ فَلَنَقْیَ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَلَبَّيْكَ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: 37].

2 - وقال تعالى - في تفصيل تلك الكلمات -: ﴿ قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف: 23].

3 - وقال تعالى: ﴿ إِنَّكَ الْذِيكَ أَتَقْوَا إِذَا مَسَّهُمْ طَلِيفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: 201].

ومن صحيح السنة المطهرة في آفاق هذه الآية أحاديث :

الحديث الأول: أخرج مسلم في صحيحه عن أبي أيوب مرفوعاً: [لو أنكم لم تكن لكم ذنوب يغفرها الله لكم ، لجاء الله بقوم لهم ذنوب يغفرها لهم]⁽¹⁾.

وله شاهد عند البزار من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً بلفظ: [لو لم تُذنبوا لذهب الله بكم ، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم].

الحديث الثاني: أخرج الطبراني بإسناد حسن عن أبي سعيد الأنصاري رضي الله

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (8/94)، وانظر للشاهد: «مجمع الزوائد» (10/215).

عَنْهُ ، عن النبي ﷺ قال : [الندم توبة والتائب من الذنب كمن لا ذنب له] (1).

الحديث الثالث: أخرج الترمذي بسند صحيح عن أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [قال الله تبارك وتعالى: يا ابن آدم إِنَّكَ ما دعوتني وَرَجَوْتني غَفَرْتُ لك ، على ما كان فيك ولا أبالي. يا ابنَ آدمَ لو بَلَغْتَ ذنوبُكَ عَنانَ السماءِ ثم استغفرتني غَفَرْتُ لك ولا أبالي. يا ابنَ آدمَ إِنَّكَ لو أَتَيْتَني بِقُرَابِ الأرضِ خطايا ثم لقيتني لا تَشْرِكُ بي شيئاً لَأَتَيْتَكَ بِقُرَابِها مَغْفِرَةً] (2).

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَفْعَمْتُ عَلَىٰ فَلَن أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ ﴾.

أي: قال موسى مقبلاً على ربه متواضعاً بين يديه بعد اجتراح الذنب: رب بما آتيتني من العلم والحكمة والجاه والعزة والقوة فلن أكون معيناً لأعدائك أو مقوياً لهم ، بل ولياً للمؤمنين من غير تفریط ولا ظلم.

قال قتادة: (يقول: فلن أعين بعدها ظالماً على فجره).

18 - 19. قوله تعالى: ﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرُمُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِحُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴾ (١٨) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمْوَسَّى أَرِيدُ أَنْ نقتُلَكَ كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ (١٩).

في هذه الآيات: شعور موسى عليه السلام بالخوف من تبعة قتله القبطي ، واستصراخ صاحبه مرة أخرى به على قبطي آخر ، وظنُّ الإسرائيلي أن موسى يهجم عليه ليقنتله هو بدل القبطي.

فقوله: ﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ ﴾. قال ابن عباس: (خائفاً من قتله النفس ، يترقب أن يؤخذ).

وقوله: ﴿ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرُمُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِحُهُ ﴾. قال السدي: (يقول: يستغيثه).

(1) حديث حسن. أخرجه الطبراني بإسناد حسن. انظر صحيح الجامع الصغير (6679).

(2) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في السنن (3789). وانظر صحيح سنن الترمذي (2805).

قال قتادة: (الاستنصار والاستصراخ واحد). وقال عكرمة: (الذي استنصره: هو الذي استصرخه).

والمقصود: بينما موسى عليه الصلاة والسلام يمشي خائفاً من مغبة قتل القبطي بالأمس، يتلفت ويتوقع ما يمكن أن يكون، إذ مرّ ببعض الطرق بذلك الإسرائيلي يقاتل قبطياً آخر فاستصرخه فقال له موسى: ﴿إِنَّكَ لَنَوَيْ مُيِّنٌ﴾. أي شديد الغواية، كثير الوقوع في المآزق والشُرور. قال ابن إسحاق: (فأصبح موسى غادياً الغد، وإذا صاحبه بالأمس معانق رجلاً آخر من عدوه، فقال له موسى: ﴿إِنَّكَ لَنَوَيْ مُيِّنٌ﴾ أمس رجلاً، واليوم آخر؟).

وقوله: ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمْوَسَّىٰ أَرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾.

قال ابن كثير: (ثم عزم على البطش بذلك القبطي، فاعتقد الإسرائيلي لِحَوْرِهِ وَضَعْفِهِ وَذِلَّتِهِ أَنْ موسى إنما يُرِيدُ قَصْدَهُ لَمَّا سَمِعَهُ يَقُولُ ذَلِكَ، فقال يدفع عن نفسه: ﴿يَمْوَسَّىٰ أَرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾. وذلك لأنه لم يعلم به إلا هو وموسى عليه السلام، فلما سَمِعَهَا ذَلِكَ القبطي لَقَفَهَا مِنْ فَمِهِ، ثم ذهب بها إلى باب فرعون فآلقها عندهم، فعَلِمَ بِذَلِكَ، فاشتدَّ حَتْفُهُ، وعَزَمَ على قتل موسى، فطلبوه وَبَعَثُوا وَرَاءَهُ لِيُخْضِرُوهُ لَذَلِكَ).

وقوله: ﴿إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ﴾. قال قتادة: (إن الجبابة هكذا، تقتل النفس بغير النفس). وقال ابن جريج: (تلك سيرة الجبابة أن تقتل النفس بغير النفس).

وقوله: ﴿وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾. قال ابن إسحاق: (أي: ما هكذا يكون الإصلاح). وقال ابن جريج: (يقول: ما تريد أن تكون ممن يعمل في الأرض بما فيه صلاح أهلها، من طاعة الله).

20 - 22. قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَمْوَسَّىٰ ابْنَ

الْأَمْلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيُقْتَلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ

رَبِّ يَحْيَى مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ .

في هذه الآيات: تحذيرُ رجل - من شيعة موسى - موسى عليه السلام من مكر القوم به ، ناصحاً له بالخروج من المدينة ، وخروج موسى على خوفٍ يرجو ربّه النجاة من القوم الظالمين ، وتوجّهه إلى مدين بإذن الله السميع العليم .

فقوله: ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَمْوَسَىٰ ابْنَ الْكَلَّا يَأْتَمُرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ۚ ﴾ .

قال ابن عباس: (فأرسل فرعون الذّباحين لقتل موسى ، فأخذوا الطريق الأعظم ، وهم لا يخافون أن يفوتهم ، وكان رجل من شيعة موسى في أقصى المدينة ، فاختصر طريقاً قريباً ، حتى سبقهم إلى موسى ، فأخبره الخبر). قال ابن كثير: (وصفه بالرجوليّة لأنه خالف الطريق ، فسلك طريقاً أقرب من طريق الذين بُعثوا وراءه ، فسبق إلى موسى ، فقال له: يا موسى ، ﴿ ابْنَ الْكَلَّا يَأْتَمُرُونَ بِكَ ۚ ﴾ ، أي: يتشاورون فيكَ ﴿ لِيَقْتُلُوكَ فَأَخْرِجْ ﴾ ، أي: من البلد ، ﴿ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾).

وقوله: ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ قال قتادة: (خائفاً من قتله النفس يترقب الطلب). وقال ابن زيد: (يتربص مخافة الطلب).

وقوله: ﴿ قَالَ رَبِّ يَحْيَىٰ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ . قال ابن إسحاق: (ذكر لي أنه خرج على وجهه خائفاً يترقب ما يدري أي وجه يسلك ، وهو يقول: ﴿ رَبِّ يَحْيَىٰ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾).

وقوله: ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ ﴾ . قال ابن عباس: (خرج ولم يكن له علم بالطريق إلا حسن الظن بربه).

ومدين: قرية لم تكن في سلطان فرعون ، بينها وبين مصر مسيرة ثمانية أيام .

وقوله: ﴿ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ . قال مجاهد: (الطريق إلى مدين).

وقال قتادة: (قصد السبيل). وقال الحسن: (الطريق المستقيم).

23 - 28. قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ

يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصَدَرَ

الرِّعَاءَ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّكَ أَبَى يَدْعُوكَ لِجِزْيِكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَبَوْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَأْتِيكِ اسْتِجْرَةٌ ابْنٌ خَيْرٌ مَنِ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حَبِجٌّ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ .

في هذه الآيات: قصة موسى عليه السلام والمرأتين وسقايته لهما ، ودعوة والد الفتاتين موسى إلى بيته وتزويجه إحداهما .

فقوله: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ﴾ .

قال السدي: (يقول: كثرة من الناس يسقون). وقال ابن إسحاق: (وقع إلى أمة من الناس يسقون بمدين أهل نعم وشاء).

والمقصود: لما وصل موسى عليه السلام إلى مدين وورد بئراً فيها كانت ترده رعاء الشاء ، وجد جماعة من الناس قائمين على ذلك الماء يسقون مواشيهم ونعمهم .

وقوله: ﴿ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ . الذود: الطرد والدفع. قال ابن عباس: (تحبسان). وقال السدي: (تحبسان غنهما). والمقصود: تحبسان غنهما لثلاثا تختلط مع غنم القوم .

قال النسفي: (تطردان غنهما عن الماء ، لأن على الماء من هو أقوى منهما فلا تتمكنان من السقي ، أو لثلاثا تختلط أغنامهما بأغنامهم).

وقوله: ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ . قال ابن عباس: (قال لهما: ﴿ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ معترلتين لا تسقيان مع الناس).

أي: لما رآهما موسى عليه الصلاة والسلام رقب لهما وتوجه إليهما مستخبراً عن شأنهما لماذا لا تردان مع هؤلاء؟

وقوله: ﴿قَالَتَا لَا سَقَىٰ حَتَّىٰ يُصَدِّرَ الزَّعَاكُ﴾. قال ابن إسحاق: (امرأتان لا نستطيع أن نزاحم الرجال). وقال ابن عباس: (أي: لا نستطيع أن نسقي حتى يسقي الناس، ثم نتبع فضلاتهم). قال ابن جريج: (تنتظران تسقيان من فضول ما في الحياض حياض الرعاء).

وقوله: ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾. قال ابن إسحاق: (لا يقدر أن يمس ذلك من نفسه، ولا يسقي ماشيته فنحن ننتظر الناس حتى إذا فرغوا أسقينا ثم انصرفنا).
وقوله: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾.

قال مجاهد: (فتح لهما عن بئر حجراً على فيها، فسقى لهما منها). قال شريح: (انتهى إلى حجر لا يرفعه إلا عشرة رجال، فرفعه وحده).

قال السدي: (رحمهما موسى حين ﴿قَالَتَا لَا سَقَىٰ حَتَّىٰ يُصَدِّرَ الزَّعَاكُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ فأتى إلى البئر فاقتلع صخرة على البئر كان النفر من أهل مدين يجتمعون عليها، حتى يرفعوها، فسقى لهما موسى دلوأ فأروتا غنهما، فرجعتا سريعاً، وكانتا إنما تسقيان من فضول الحياض).

وعن ابن إسحاق، قال: (أخذ دلوهما موسى، ثم تقدّم إلى السقاء بفضل قوته، فزاحم القوم على الماء حتى أخرهم عنه، ثم سقى لهما).

قال أبو بكر بن أبي شيبة: حدثنا عبيد الله، أنبأنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون الأودي، عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: (أن موسى - عليه السلام - لما ورد ماء مدين، وجد عليه أمة من الناس يسقون، قال: فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر، ولا يطيق رفعها إلا عشرة رجال، فإذا هو بامرأتين تذودان، قال: ما خطبكما؟ فحدثتاه، فأتى الحجر فرفعه، ثم لم يستق إلا ذنوباً واحداً حتى رويت الغنم⁽¹⁾).

وقوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.

قال ابن عباس: (انصرف موسى إلى شجرة، فاستظل بظلها، ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا﴾

(1) رواه ابن أبي شيبة من طريق عمرو بن ميمون. وذكره الحافظ ابن كثير في «التفسير» - سورة القصص - آية (24). وقال: إسناده صحيح.

أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾). قال ابن عطاء: (نظر من العبودية إلى الربوبية وتكلم بلسان الافتقار ، لما ورد على سره من الأنوار).

قلت: وقد أكثر المفسرون هنا من روايات لا تقوم بها الحجة فصرخوا الآية إلى حاجة موسى إلى الطعام وليس له دراهم وقد اشتد عليه الجوع. والأولى أن يكون قال ذلك تواضعاً لله وعظمته أن أعطاه ما أعطاه من القوة والعلم ، وصرف عنه طلب أهل الظلم ، ورعاه منذ طفولته إلى أن أوصله إلى مضارب هؤلاء القوم ، وهو الآن يطمع في خير ربه من أسباب القوة والمال والنجاة والعناية بشكلها الأعم.

وقوله: ﴿جَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى أَسْتَحْيَاءٍ﴾.

في الكلام محذوف ، والتقدير: فذهبتا مسرعتين إلى أبيهما على غير عادتهما ، فأخبرناه عن روعة هذا الرجل الذي سقى لهما ، فأمر إحداهما أن تذهب وتدعوه له.

فجاءته تمشي على استحياء. أي: مَشْيَ الحرائر. قال النسفي: (أي: مستحية، وهذا دليل كمال إيمانها وشرف عنصرها لأنها كانت تدعوه إلى ضيافتها ، ولم تعلم أيجيبها أم لا ، فأنته مستحية قد استترت بكم درعها).

وجملة: ﴿عَلَى أَسْتَحْيَاءٍ﴾ في محل نصب حال. أي جاءته مستحية.

وروى ابن جرير بسنده عن ضرار بن عبد الله بن أبي الهذيل عن عمر رضي الله عنه قال: (مسترة بكم درعها ، أو بكم قميصها). أو قال: (واضعة يدها على وجهها مسترة). وذرغ المرأة: قميصها - والمذرعة: ثوب لا يكون إلا من صوف.

وروى ابن أبي حاتم بإسناد صحيح عن عمرو بن ميمون قال: قال عمر - رضي الله عنه -: (جاءت تمشي على استحياء ، قائلة بثوبها ، على وجهها ، ليست يسلف من النساء ، خراجة ولاجة⁽¹⁾).

وقوله: ﴿قَالَتْ إِنَّكَ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾.

قال ابن كثير: (وهذا تأدب في العبارة ، لم تطلبه طلباً مطلقاً لئلا يؤهم ربة ، بل قالت: ﴿إِنَّكَ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ ، يعني: لِيُسَبِّحَكَ وَيُكافِئَكَ عَلَى سَقْيِكَ لَنَا).

(1) ذكره الحافظ ابن كثير وقال: هذا إسناد صحيح. قال الجوهرى: السلف من الرجال: الجسور. ومن النساء: الجريئة السليطة ، ومن النوق: الشديدة.

وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَبَوْتُ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

أي: فلما أقبل إليه وقابله وأخبره أمره وسبب خروجه من بلده ، طمأنه الرجل الصالح⁽¹⁾ بأن لا سلطان لفرعون في هذه القرية - مدين - وقد أصبحت بإذن الله ناجياً من مكر القوم الظالمين .

وقوله تعالى: ﴿قَالَتْ لِأَحَدُهُمَا يَتَأَتِيكِ اسْتِجْرَةٌ إِيَّاكَ خَيْرٌ مِّنْ اسْتِجْرَةِ الْقَوِيِّ الْأَمِينِ﴾.

أي: قالت إحداهما - قيل هي التي أرسلها أبوها لتأتي بموسى - يا أبت: استعمله ليرعى ماشيتك وشؤونك ، فإنه القوي على ذلك الأمين فيما ولي واستودع لا تخشى منه خيانة .

قال ابن عباس: (فأحفظته الغيرة أن قال: وما يدريك ما قوته ، وأمانته؟ قالت: أما قوته ، فما رأيت منه حين سقى لنا ، لم أر رجلاً قط أقوى في ذلك السقي منه - وفي رواية غيره قالت: إنه رفع الصخرة التي لا يطيق حملها إلا عشرة رجال - وأما أمانته ، فإنه نظر حين أقبلت إليه وشخصت له ، فلما علم أنني امرأة صوب رأسه فلم يرفعه ، ولم ينظر إلي حتى بلغته رسالتك ، ثم قال: امشي خلفي وانعتي لي الطريق ، ولم يفعل ذلك إلا وهو أمين ، فسري عن أبيها وصدقها وظن به الذي قالت).

وفي رواية: قال ابن عباس: (إن موسى لما سقى لهما ، ورأت قوته ، وحرك حجراً على الركبة ، لم يستطعه ثلاثون رجلاً ، فأزاله عن الركبة ، وانطلق مع الجارية حين دعته ، فقال لها: امشي خلفي وأنا أمامك ، كراهية أن يرى شيئاً من خلفها مما حرّم الله أن ينظر إليه).

وفي الأثر عن عبد الله بن مسعود قال: (أفرسُ الناس ثلاثة: أبو بكر حين تفرّس في عمر ، وصاحب يوسف حين قال: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ ، وصاحبة موسى حين قالت: ﴿يَتَأْتِيكِ اسْتِجْرَةٌ إِيَّاكَ خَيْرٌ مِّنْ اسْتِجْرَةِ الْقَوِيِّ الْأَمِينِ﴾).

وقوله: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ﴾.

أي: قال الشيخ الصالح لموسى - عليه السلام - إنني أرغبُ بتزويجك إحدى ابنتي

(1) أكثر المفسرون هنا من اعتبار الرجل والد الفتاتين أنه شعيب عليه الصلاة والسلام ، ولا دليل عندهم تقوم به الحجة ، وإنما الراجح أنه رجل صالح في ذلك الزمان في تلك القرية .

هاتين مقابل أن ترعى غنمي وتكون لي أجيراً ثمانين سنين ، فإن رأيت زيادة ستين تطوعاً منك فالأمر إليك .

وقوله : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ﴾ . قال ابن كثير : (أي : لا أشاقك ، ولا أؤذيكَ ، ولا أماريك) . وقال ابن جرير : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ﴾ باشتراط الثمانين الحجج عشراً عليك) . قلت : والراجح الأول ، فهو أعم وأشمل ، أي : وما أبتغي في معاملتك إيذاء ومشقة وضرراً يلحق بك .

وقوله : ﴿ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ قال ابن إسحاق : (أي في حسن الصحبة والوفاء بما قلت) . قال النسفي : (ويجوز أن يراد الصلاح على العموم ويدخل تحته حسن المعاملة ، والمراد باشتراطه مشيئة الله فيما وعد من الصلاح الاتكال على توفيقه فيه ومعونته لأنه إن شاء فعل وإن لم يشأ لم يفعل ذلك) .

قلت : وجعل المهر فائدة ترجع على الأب في التزويج خاص بهذه القصة وشرع لمن قبلنا ، وإلا فالمهر حق المرأة مقابل استحلال فرجها .

قال تعالى : ﴿ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ فِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَاكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا ﴾ [النساء : 4] .

وفي الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه : [أن عبد الرحمن بن عوف جاء إلى رسول الله ﷺ وبه أثر صفرة ، فسأله رسول الله ﷺ فأخبره أنه تزوج امرأة من الأنصار ، قال : كم سقت إليها؟ قال : زنة نواة من ذهب . قال رسول الله ﷺ : أولم ولو بشاة⁽¹⁾ .

وفي الصحيحين والسنن الأربعة عن سهل بن سعد قال : [إني لفي القوم عند رسول الله ﷺ إذ قامت امرأة فقالت : يا رسول الله إنها قد وهبت نفسها لك ، فرأيها رأيك . فلم يجبه شيئاً . ثم قامت فقالت : يا رسول الله إنها قد وهبت نفسها لك ، فرأيها رأيك . ثم قامت الثالثة فقالت : يا رسول الله إنها قد وهبت نفسها لك ، فرأيها رأيك . فقام رجل فقال : يا رسول الله ، أنكحنيها ، قال : هل عندك من شيء؟ قال : لا . قال : اذهب فاطلب ولو خاتماً من حديد ، فذهب وطلب ، ثم جاء فقال : ما وجدت شيئاً ولا خاتماً من حديد .

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (5153) ، ومسلم (1427) ، وأبو داود (2095) ، والترمذي (1100) ، وابن ماجه (1907) ، وأخرجه النسائي (119) .

قال: هل معك من القرآن شيء؟ قال: معي سورة كذا وسورة كذا. قال: اذهب فقد أنكحتكها بما معك من القرآن⁽¹⁾.

فالصداق حق المرأة على الرجل ، وهو ملك لها ، لا يحل لأحد أباً كان أو غيره أن يأخذ منه شيئاً إلا إذا طابت المرأة نفسها بهذا الأخذ.

وقوله: ﴿ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَةَ عَلَيَّ ﴾.

أي: قال موسى لوالد زوجته: الأمر على ما قلت ، فقد رضيت بالزواج بابنتك مقابل أنك استأجرتني على ثمان سنين ، فإن تَبَرَّعْتُ بستين فأكملتها عشراً ، فذاك إليّ ، ولا حرج عليّ في اختيار أقلهما وأكون قد برئت من العهد.

وقوله: ﴿ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾. قال مجاهد: (شاهد على قول موسى وختنه).

قال ابن جرير: (يقول: والله على ما أوجب كل واحد منا لصاحبه على نفسه بهذا القول ، شاهد وحفيظ).

أخرج أبو يعلى وابن جرير والحاكم بسند يتقوى بكثرة طرقه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: [سألت جبريل: أيّ الأجلين قضى موسى عليه السلام؟ قال: أكملهما وأتمهما]⁽²⁾.

وله شاهد عند البزار من حديث أبي ذر: [أن النبي ﷺ سُئِلَ: أيّ الأجلين قضى موسى؟ قال: أوفاهما وأبرهما].

29 - 32. قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٦١﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5149) ، ومسلم (1425) ، واللفظ للبخاري ، وأخرجه أبو داود (2097) ، والترمذي (1121) ، وابن ماجه (1889) ، مختصراً ، وأخرجه النسائي (123).

(2) حسن بمجموع طرقه وشواهد ، أخرجه أبو يعلى (634/2) ، وابن جرير (44/20) ، والحاكم (407/2) ، وانظر للشاهد ما أخرجه البزار (2244) ، والطبراني في «الصغير» (815) ، والحديث أورده الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (1880).

الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْوِسَ إِنْ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تُهْتَزُّ كَانَهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمْوِسَ أَقْبَلَ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴿٣١﴾ أَسَلَّكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذُنُوكَ بُرْهَنَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ ﴿٣٢﴾ .

في هذه الآيات: انقضاء المدة في خدمة موسى والد زوجته ، ومسيره في طريق العودة إلى مصر ، وتكليم الله له عند النار التي استأنس بها في الليل أثناء الطريق ، وإظهار الله تعالى له الآيات التي تعينه في مهمته إلى فرعون وملئه .

فقوله: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ ﴾ . قال ابن عباس: (أتمهما وأخيرهما) . وقال: (قضى موسى آخر الأجلين) . وقد مضى حديث ابن عباس وأبي ذر في ذلك .

وقوله: ﴿ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ﴾ . قال ابن جرير: (شاخصاً بهم إلى منزله من مصر) .

وقوله: ﴿ ءَأَنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي ءَأَسِسْتُ نَارًا ﴾ . قال قتادة: (أي أحسست ناراً) . أي: أبصر موسى في طريقه وأحس ناراً فقال لأهله: تمهلوا وانتظروا ، إني أبصرتُ ناراً .

قال ابن كثير: (كان موسى قد اشتاق إلى بلاده وأهله ، فعزم على زيارتهم في خفية من فرعون وقومه ، فتحمل بأهله وما كان معه من الغنم التي وهبها له صهره ، فسلك بهم في ليلة مظلمة باردة ، فنزل منزلاً ، فجعل كلما أوري زنده لا يضيء شيئاً ، فتعجب من ذلك ، فبينما هو كذلك إذ ﴿ ءَأَنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا ﴾ ، أي: رأى ناراً تضيء له على بُعد ، ﴿ قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي ءَأَسِسْتُ نَارًا ﴾ ، أي: حتى أذهب إليها ، ﴿ لَعَلِّي ءَاتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ . وذلك لأنه كان قد أضل الطريق ، ﴿ أَوْ جَذَوْقٍ مِنَ النَّارِ ﴾ ، أي: قطعة منها ، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ ، أي: تندفون بها من البرد) .

وعن ابن عباس: ﴿ أَوْ جَذَوْقٍ مِنَ النَّارِ ﴾ يقول: (شهاب) . قال قتادة: (والجذوة: أصل شجرة فيها نار) . قال: ﴿ أَوْ جَذَوْقٍ ﴾: أو شعلة من النار) .

وقوله: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ . قال ابن جرير: (يقول: لعلكم تسخنون بها من البرد ، وكان في شتاء) .

وقوله: ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ ﴾ .
 أي: فلما وصل إليها نودي موسى من جانب الوادي مما يلي الجبل عن يمينه من ناحية الغرب ، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْتَ إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ ﴾ [القصص: 44].

قال ابن كثير: (فهذا مما يرشد إلى أن موسى قصد النار إلى جهة القبلة ، والجبل الغربي عن يمينه ، والنار وجدها تضطرب في شجرة خضراء في لحف الجبل مما يلي الوادي ، فوقف باهتاً في أمرها ، فناداه ربه: ﴿ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ ﴾).

وقوله: ﴿ أَنْ يَمْوِسَّىٰ إِيَّاكَ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

أي: إنما يتوجه إليك الخطاب يا موسى من الله تعالى رب العالمين ، رب كل شيء ومليكه ، لا إله إلا هو ، الإله الحق ، ليس كمثله شيء وله صفات الكمال والجمال .

وقوله: ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ . أمر من الله تعالى لموسى عليه السلام بإلقاء عصاه التي في يده ، ليريه تعالى فيها آية تناسب مقام التكليم ، ومفاجأة هذا الأمر العظيم .

وقوله: ﴿ فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ . الجان واحد الجنان ، وهو نوع عظيم من الحيات . والمقصود: فالتقى موسى عصاه فصارت حية تسعى ، فلما رآها تضطرب وتتحرك كالجان من الحيات ولَّى موسى هارباً منها ومن هول ما رأى . قال قتادة: ﴿ وَلَّى مُدْبِرًا ﴾ فاراً منها ، ﴿ وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ يقول: ولم يرجع على عقبه . أو قال: (لم يلتفت من الفرق) . وقال السدي: (لم ينتظر) .

وقوله: ﴿ يَمْوِسَّىٰ أَقْبَلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِينَ ﴾ . أي: ناداه ربه مطمئناً له ليرجع . قال النسفي: (أي أمنت من أن ينالك مكروه من الحية) .

وقوله: ﴿ أَسْلَكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرُّجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ .

أي: أدخل يدك في جيب قميصك تخرج بيضاء لها شعاع كشعاع الشمس من غير برص ولا أذى . قال الحسن: (فخرجت كأنها المصباح ، فأيقن موسى أنه لقي ربه) .

وقوله: ﴿ وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ ﴾ . قال ابن عباس: (يدك) .

وقوله: ﴿ مِنْ الرُّهْبِ ﴾ . قال مجاهد: (الفرق) . وقال قتادة: (أي من الرعب) .

قلت: والمقصود: واضمم يدك إلى صدرك - يا موسى - يذهب عنك ما وجدته من

الفرع والخوف من الحية. ثم هي آية لك كلما شعرت بخوف أو فزع أثناء مسيرك في مواجهة فرعون وطغيانه هو وجنوده ، ولذلك قال جل ذكره بعدها: ﴿فَذَلِكُمْ بُرْهَانُنَا مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾. أي خارجين عن طاعة ربهم.

وعن السدي: ﴿فَذَلِكُمْ بُرْهَانُنَا مِنْ رَبِّكَ﴾: العصا واليد آيتان).

وقال مجاهد: ﴿فَذَلِكُمْ بُرْهَانُنَا مِنْ رَبِّكَ﴾: تبيانان من ربك).

33 - 35. قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي مَنَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ ٢٣ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ٢٤ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيْنٰتِنَا إِنَّمَا وَمِنِ اتَّبَعَكُمَا الْغٰلِبُونَ ٢٥﴾.

في هذه الآيات: توجه موسى عليه الصلاة والسلام إلى ربه عز وجل حين أمره بالذهاب إلى فرعون في مصر - وكان قد خرج فراراً من أذاه وبطشه - بما يجد من خوف من ذلك على حياته بعد قتله القبطي منهم. فلما علم أمر الله له بذلك وتوليه له سألته الاستعانة بأخيه هارون ، حيث هو أفصح في التعبير منه ، بسبب عقدة اللسان القديمة عند موسى ، فأنسه الله تعالى وجعل هارون وزيراً له ومقوياً لأمره وكتب لهما الحماية من بطش فرعون والغلبة بآياته وإبلاغ رسالته.

قال ابن جرير: ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾: فأخاف إن أتيتهم فلم أبن عن نفسي بحجة أن يقتلوني لأن في لساني عقدة ، ولا أبين معها ما أريد من الكلام). قال ابن كثير: (وذلك أن موسى - عليه السلام - كان في لسانه لُثْغَةٌ بسبب ما كان تناول تلك الجَمْرَةِ ، حين خَبَّرَ بينها وبين التمرة أو الدُرَّةَ ، فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه ، فحصل فيه شدة في التعبير ، ولهذا قال: ﴿وَأَحْلَلْ عَقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾ ٢٧ يَقْفَهُوا قَوْلِي ٢٨ وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ٢٩ هَارُونُ أَخِي ٣٠ أَشَدُّ بِهِ أَزْرَى ٣١ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ٣٢﴾ [طه: 27 - 32].

وقوله: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾. أي أحسن بياناً وإعراباً عما يريدُ بيانه وتبليغه.

وقوله: ﴿فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾. أي: عوناً يصدقني ويدعمُ حجتي ويبين لهم

مفهوم خطابي. قال ابن إسحاق: (أي يبين لهم عني ما أكلهم به ، فإنه يفهم ما لا يفهمون).

وقال ابن زيد: ﴿يُصَدِّقُنِي﴾: لأن الاثنين أحرى أن يصدقا من واحد).

وعن قتادة: ﴿رَدَّاءُ يُصَدِّقُنِي﴾ أي عوناً. قال ابن عباس: (كي يصدقني). أو قال: (يقول كيما يصدقني). والردء في كلام العرب: هو العون.

وقوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾.

قال ابن جرير: (يقول: إني أخاف أن لا يصدقوني على قولي لهم إني أرسلت إليكم).

وقوله: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾.

العضد من الإنسان: الساعد ، وهو ما بين الكتف والمرفق ، وَعَضَدُهُ أي أعانه ، فكني عن الإعانة بقوة الساعد. والمعاضدة المعاونة. والعضد في كلام العرب فيه لغات أربع: العَضْدُ ، والعَضْدُ ، والعَضْدُ ، والعَضْدُ. ذكره الرازي.

والمقصود: أجاب الله تعالى سؤال موسى عليه السلام بأن سنقوي أمرك ، ونُعزِّج جانبك بأخيك ، الذي سألت له أن يكون نبياً معك.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 - قال تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى﴾ [طه: 36].

2 - وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم: 53].

وقوله: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمْ سُلْطَانًا﴾. قال مجاهد: (حجة). قال النسفي: (غلبة وتسلطاً وهيبة في قلوب الأعداء).

وقوله: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّنٍ﴾. أي: فلا يصلون إليكما بالأذى ، وإنما تمتنعان منهم بإبلاغكما آيات الله وحجته البالغة.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 - قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَحْشَوْنَ اللَّهَ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: 39].

2- وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا بَلَغَتْ رِسَالَتُهُ وَاللَّهُ يَعِصُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: 67].

فتبليغُ آيات الله وهديه وهدى رسوله ﷺ فيه عناية الله ورعايته وتوفيقه.

أخرج الترمذي بإسناد حسن عن عائشة قالت: [كان النبي ﷺ يُحَرِّسُ حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَاللَّهُ يَعِصُكَ مِنَ النَّاسِ﴾. فَأَخْرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَأْسَهُ مِنَ الْقَبَةِ، فَقَالَ لَهُمْ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ انصرفوا، فقد عصمني الله⁽¹⁾.

وقوله: ﴿أَنْتُمْ وَمَنْ أَتَبَعَكُمْ أَفَلَا تُفْلِحُونَ﴾.

قال الأخفش: (بآياتنا). واختاره ابن جرير، والتقدير: أنتم ومن اتبعكما الغالبون بآياتنا. فالباء في قوله: ﴿يَأْتِيَنَّكَ﴾ من صلة غالبون. قال المهدوي: (وفي هذا تقديم الصلة على الموصول).

والمقصود الأعم: أنتم - يا موسى وهارون - ومن تابِعكما على الحق ومنهج النبوة ستحفلون بالنصر والتأييد والغلبة على عدوكم.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1- قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبَ بِنَا وَأَرْسَلْنَاكَ اللَّهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: 21].

2- وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ [غافر: 51].

قلت: وهذه البشارة بالنصر والتمكين لفئة الحق على منهاج النبوة قد بُثَّتْ إلى أمة نبينا المصطفى ﷺ في أحاديث:

الحديث الأول: روى مسلم في صحيحه عن جابر بن سمرة مرفوعاً: [لا يزال هذا الدين عزيزاً منيعاً إلى اثني عشر خليفة. كلهم من قريش]⁽²⁾.

الحديث الثاني: روى مسلم عن جابر بن عبد الله يقول: سمعت النبي ﷺ يقول: [لا تزال طائفة من أمتي يُقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة. قال: فينزل عيسى]

(1) حديث حسن. انظر صحيح سنن الترمذي (2440)، وكتابي: السيرة النبوية (523/1).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1821) ح (9) - كتاب الإمامة. باب الناس تبع لقريش، والخلافة في قريش. وانظر كذلك ح (5)، ح (6)، ح (7)، ح (8).

ابن مريم ﷺ فيقول أميرهم: تعال صل لنا ، فيقول: لا ، إن بعضكم على بعض أمراء ، تكرمة الله هذه الأمة⁽¹⁾.

الحديث الثالث: أخرج أبو يعلى والبخاري في مسنديهما ، وابن المبارك في «الزهد» عن العباس بن عبد المطلب قال: قال رسول الله ﷺ: [يظهر هذا الدين حتى يجاوز البحار ، وحتى تخاض بالخيول في سبيل الله] الحديث⁽²⁾.

36 - 42. قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُمْ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي الْفَيْفَ عَلَى الطَّيْنِ فَاَجْعَلْ لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطْلُعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَأَسْتَكْبَرُ هُوَ وَجُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُم إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يَدْعُونَ إِلَى التَّكْوِينِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ .

في هذه الآيات: جحود فرعون وقومه الآيات التي جاء به موسى عليه الصلاة والسلام ، واستكبار فرعون ومطالبته الناس بصرف الطاعة والألوهية له ، وإهلاك الله له ولجنده وتسليطه عذاب القبر عليهم إلى يوم الدين ، ولعنهم على ألسنة الخلق في الدنيا ثم هم يوم القيامة من المقبوحين .

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم (156) ، كتاب الإيمان ، باب: نزول عيسى بن مريم حاكماً بشريعة نبينا محمد ﷺ ، وإكرام الله هذه الأمة زادها الله شرفاً .

(2) حسن في مجموع الطرق والشواهد . أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (450/152) ، وأخرجه أبو يعلى (6698/56/12) ، وأخرجه البخاري: (174/99/1) ، وانظر السلسلة الصحيحة (3230) .

فقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرَى﴾.

قال القرطبي: ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ أي ظاهرات واضحات. ﴿قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرَى﴾ (مكذوب مختلق). والمقصود: لما عرض موسى حجج الله تعالى البالغات ، والمعجزات الباهرات بين يدي فرعون وملئه وحوصروا بدلالة الحق ، لجؤوا إلى الاتهام بالسحر واستخدام المكر والحيلة.

وقوله: ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾. قال الشهاب: (وهذا إما تعمد للكذب وعناد بإنكار النبوات ، وإن كان عهد يوسف قريباً منهم. أو لأنهم لم يؤمنوا به أيضاً).

والمقصود: محاولة من فرعون وملئه إنكار دعوة موسى إليهم إلى عبادة الله وحده ، ونبذ الشرك والكفر الذي هم عليه ، وذلك بادعاء غرابة ما يدعوههم إليه وأنه لم يكن في أسلافهم وآبائهم الذين مضوا قبلهم.

وقوله: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَن تَكُونُ لَّمْ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾.

أي: قال موسى لفرعون: إن ربي - يا فرعون أعلم من المحق منا من المُنْبَطِل ، الذي غَرَّ قومه وأضل أتباعه وأهلك جنوده أم الذي قَرَّب إليهم طريق الهداية والنجاة ، وجاءهم بالآيات البينات؟! قال المهاييمي: (معناه: كفى دليلاً على كونها آيات ، أنها خوارق لم يسبق لها نظير. مع أن ما جئت به هدى. والساحر لا يدعو في العموم إلى هدى. فإن لم تعترفوا بكونه هدى ، فربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ، ويعلم ذلك بالعاقبة ، فإن الله يحسن عاقبة أهل الهدى لا محالة).

قال النسفي: (والمراد بالدار الدنيا ، وعاقبتها أن يختم للعبد بالرحمة والرضوان وتلقي الملائكة بالبشرى والغفران).

وقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يَفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾. أي: إن الله عزيز حكيم ، لا يرسل الكاذبين ، ولا ينبيء السحرة المشعوذين ، وقد كتب الخسارة على الظالمين.

وقوله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرٍ﴾.

هو انهزام قبيح من فرعون أمام حجة الحق البالغة ، ولجوء إلى بسط التسلط والجبروت ، والاستفادة من تخويف الناس بالبطش والرعب لاستعادة الأبهة الكاذبة. قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: وقال فرعون لأشراف قومه وسادتهم ﴿يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ﴾

مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرٍ ﴿٣٦﴾ فتعبدوه ، وتصدقوا قول موسى فيما جاءكم به من أن لكم وله رباً غيري ومعبوداً سواي).

وقوله: ﴿٣٧﴾ فَأَوْفِدِي يَهَنَّمُنَّ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطْلُعَ إِلَهَ إِلَهٍ مُوسَى ﴿٣٨﴾ .

أي: أَمَرَ فرعونُ وزيرَهُ هامان أن يعمل له صرحاً من الآجر ليرتفع عليه فينظر إلى إله موسى في الأعلى. قال القاسمي: ﴿٣٧﴾ فَأَوْفِدِي يَهَنَّمُنَّ عَلَى الطِّينِ ﴿٣٨﴾ أي ناراً ، فأتخذ منه آجراً). قال الزمخشري: ﴿٣٩﴾ صَرْحاً أي قصراً رفيعاً إلى السماء).

وقوله: ﴿٤٠﴾ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤١﴾ . أي في قوله إن ثم رباً غيري .

وفي التنزيل نحو ذلك :

1 - قال تعالى: ﴿٤٢﴾ قَالَ لَيْنَ اتَّخَذَتِ الْهَآغِرَى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٤٣﴾ [الشعراء: 29].

2 - وقال تعالى: ﴿٤٤﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهَنَّمُنَّ ابْنِي لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٤٥﴾ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِباً ﴿٤٦﴾ [غافر: 36 - 37].

قال الإمام الجويني أبو محمد والد إمام الحرمين: (وهذا يدل على أن موسى أخبره بأن ربه تعالى فوق السماء ، ولهذا قال: وإني لأظنه كاذباً)⁽¹⁾.

قلت: ومن ثم فمن شك أن الله في السماء اليوم ، فقد تشبه بطريقة فرعون .

وقوله تعالى: ﴿٤٧﴾ وَأَسْتَكَبرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ يَغْيِرُ الْحَقَّ وَظَنُوا أَنَّهُمْ إِلَٰهًا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٨﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٩﴾ .

أي: أَصَرَ فرعون وجنوده الذين معه على الطغيان والكفر بآيات الله وحجج الحق تعدياً وعتواً على ربهم وحسبوا أنهم بعد مماتهم لا يبعثون ولا يحاسبون. فركبوا أهواءهم وتمردوا على بارئهم وضيّعوا فرصة عمرهم في الإخبات لله العظيم ، والإنابة إليه ليصفح عن جرائمهم وهو التواب الرحيم ، فأخذهم الله جميعاً فأهلكهم غرقاً في البحر في صورة من الخزي والذل ، فانظر - يا محمد - كيف كان مآل القوم الظالمين ، وقصّ خبرهم على قومك لعلهم يختاروا غير هذه النهاية القبيحة .

أخرج الترمذي بسند صحيح عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: [أنه ذكر أن جبريلَ

(1) انظر: «مختصر العلو» - الذهبي - ص (80). وكتابي: أصل الدين والإيمان (1/ 175).

جَعَلَ يَدُسُّ فِي فِي فِرْعَوْنَ الطِّينَ ، خشية أن يقول : لا إله إلا الله فيرحمه الله ، أو خشية أن يَرَحِمَهُ⁽¹⁾.

وله شاهد عنده عنه أن النبي ﷺ قال : [لما أغرق الله فرعون قال : آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ . فقال جبرئيل : يا محمد لو رأيتني وأنا آخِذٌ مِنْ حَالِ الْبَحْرِ وَأَدُسُّهُ فِي فِيهِ مَخَافَةً أَنْ تُذَرِكُهُ الرَّحْمَةَ].

وقوله : ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يَذْعَبُونَ إِلَى الْأَنْكَارِ﴾ . قال ابن كثير : (أي : لمن سَلَكَ وراءهم وأخذ بطريقتهم ، في تكذيب الرُّسُل وتعطيل الصانع).

والمقصود : تركهم الله تعالى في الأرض مثلاً لأهل العتو والبغي والكفر ليصيروا إلى ما صاروا إليه .

وقوله : ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ .

أي ولَّى زمن الاستعلاء بالنصرة في الدنيا من الجنود والقادة والوزراء والأتباع ، ولم يبق إلا الخزي في الدار الآخرة . ليجتمع عليهم سوء النهاية في الدنيا موصولاً بسوء المصير يوم القيامة .

وقوله : ﴿وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ .

أي : جعل الله لعنتهم ولعنة ملكهم الطاغية فرعون تمضي على ألسنة المؤمنين في هذه الحياة الدنيا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وقوله : ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ . قال أبو عبيدة وابن كيسان : (أي : من المهلكين الممقوتين) . قال قتادة : (لعنوا في الدنيا والآخرة . هو كقوله : ﴿وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ السُّوءُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [هود : 99] .

والمقصود : أنهم يكونون يوم الحساب في أسوأ حال ، وأشقى مآل ، والعياذ بالله الكبير المتعال .

43 - 47 . قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا

الْقُرُونِ الْأُولَى بِصَافِرٍ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ

(1) صحيح الإسناد . أخرجه الترمذي في التفسير (3321) - سورة يونس . - انظر : صحيح سنن الترمذي (2484) ، وكذلك (2483) للشاهد به .

الْعَرَبِ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَا أَن نُّصِيبَهُمْ مُصِيبَةً يَمَّا قَدَّمْتَ أَيْدِيَهُمْ لَفَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ .

في هذه الآيات: إخبارُ الله تعالى عن إنعامه على موسى ﷺ بإنزال التوراة بعد إهلاكه فرعون لتكون هدى ورحمة لقوم يتذكرون. وإثبات نبوة محمد ﷺ لمنكريها أمام هذا الإخبار بالغيوب الماضية التي لا تكون إلا بالوحي الكريم.

فقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾.

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره ، ولقد آتينا موسى التوراة من بعد ما أهلكنا الأمم التي كانت قبله ، كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين).

وقال ابن كثير: (يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله موسى الكليم - عليه من ربه الصلاة والتسليم - من إنزال التوراة عليه بعد ما أهلك فرعون وملأه).

وقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾ يعني أنه بعد إنزال التوراة لم يُعَذَّبْ أُمَّةٌ بعامة ، بل أمر المؤمنين أن يقاتلوا أعداء الله من المشركين ، كما قال: ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْمِغَاطَةِ ﴿١﴾ فَمَصَّوْرَ سُلُوفٍ رَّبِّهِمْ فَآخَذَهُمْ آخِذَةً رَّابِيَةً﴾ [الحاقة: 9 - 10].

قلت: والذي ذهب إليه ابن كثير متوافق مع الحديث الصحيح الوارد في هذه الآية.

فقد أخرج الحاكم والبخاري بسند صحيح عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً: [ما أهلك الله قوماً ، ولا قرناً ، ولا أمةً ، ولا أهل قرية منذ أنزل التوراة على وجه الأرض بعداب من السماء ، غير أهل القرية التي مُسِخَتْ قِرْدَةً ، ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا

مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ
يَتَذَكَّرُونَ ﴿١﴾.

وقوله: ﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

قال النسفي: ﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾ حال من الكتاب ، والبصيرة نور القلب الذي يبصر به الرشد والسعادة ، كما أن البصر نور العين الذي يبصر به الأجساد . يريد آتيانه التوراة أنواراً للقلوب لأنها كانت عمياً لا تستبصر ولا تعرف حقاً من باطل ﴿وَهُدًى﴾ وإرشاداً لأنهم كانوا يخطون في ضلال ، ﴿وَرَحْمَةً﴾ لمن اتبعها لأنهم إذا عملوا بها وصلوا إلى نيل الرحمة ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يتعظون .

وقوله: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْفَرِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ﴾.

قال قتادة: ﴿وَمَا كُنْتَ﴾ يا محمد ﴿بِجَانِبِ الْفَرِيِّ﴾ يقول: بجانب غربي الجبل ﴿إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ﴾.

قال القرطبي: ﴿إِذْ كَلَفْنَاهُ أَمْرَنَا وَنَهَيْنَا ، وَالزَّمَانَةَ عَهْدَنَا﴾.

والمقصود: إثبات نبوة محمد ﷺ لمنكريها من قومه أمام هذا الإخبار بالغيوب الماضية التي لا يمكن برهانها إلا بالوحي من الله عز وجل .

وقوله: ﴿وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ . أي: وما كنت لذلك من الشاهدين .

وقوله: ﴿وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا﴾ . قال القاسمي: (أي بين زمانك وزمان موسى) .

وقوله: ﴿فَطَاوَلْ عَلَيْهِمُ الْمُعْمرُ﴾ . أي طالت فترة انقطاع الوحي ، وعمّ الظلم والجهل والبغي ، فاقتضت حكمته سبحانه استئناف النبوة فبعثك يا محمد بهذا الوحي .

قال النسفي: ﴿فَطَاوَلْ عَلَيْهِمُ الْمُعْمرُ﴾ أي طالت أعمارهم وفترت النبوة ، وكادت الأخبار تخفى ، واندرست العلوم ، ووقع التحريف في كثير منها ، فأرسلناك مجدداً لتلك الأخبار ، مبيناً ما وقع فيه التحريف ، وأعطيناك العلم بقصص الأنبياء وقصة موسى).

(1) حديث صحيح . أخرجه الحاكم (2/ 408) ، والبخاري (2248 - الكشف) ، وكذلك ابن جرير في «التفسير» (50/ 20) من طرق ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (2258) .

وقوله: ﴿وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾.

قال ابن زيد: (الثاوي: المقيم). ﴿تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾. يقول: تقرأ عليهم كتابنا ﴿وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾. يقول: لم تشهد شيئاً من ذلك يا محمد، ولكننا كنا نحنُ نفعل ذلك ونرسل الرسل).

والمقصود: نحن - يا محمد - أوحينا إليك خبر أهل مدين مع نبيهم شعيب عليه الصلاة والسلام، ولم تكن أنت مقيماً بينهم حين أَخْبَرْتَ قومك عنهم، بل قَصَصْتُهُ عليهم مِنْ خَبَرِ هذا الوحي العظيم، فليعتبر قومك بهذا على برهان نبوتك.

وقوله: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾. أي: إذ نادينا موسى لحمل الأمانة وأخذ الكتاب بقوة.

قال القرطبي: (أي كما لم تحضر جانب المكان الغربي إذ أرسل الله موسى إلى فرعون، فكذلك لم تحضر جانب الطور إذ نادينا موسى لما أتى الميقات مع السبعين). ويبدو أن هذه الآية تخصيص لعموم الآية التي قبلها: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْفَرِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ﴾.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 - قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَتِيَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الشعراء: 10].

2 - وقال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِاللَّوَاءِ الْمَقْدَسِ طُوًى﴾ [النازعات: 15 - 16].

3 - وقال تعالى: ﴿وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَفَرَّغَتْهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: 52].

وقوله: ﴿وَلَكِن رَّحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

قال مجاهد: (كان رحمة من ربك النبوة). وقال ابن زيد: ﴿وَلَكِن رَّحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ قال: الذي أنزلنا عليك من القرآن ﴿لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ قال النسفي: (في زمان الفترة بينك وبين عيسى وهو خمس مئة وخمسون سنة).

والمقصود: إنما بعثناك - يا محمد - بهذا القرآن رحمة لقومك بعد فتور النبوات،

لتنقذ أمتك بهذا الوحي المُنْبِتِ لصدقك بما فيه من صحيح الأخبار عن الأمم قبلك ،
لعلهم ينتفعون بالذكرى وينجون في الآخرة .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنُنَبِّئَ عَآيَاتِنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

أي : إنما بعثناك - يا محمد - بالرسالة إلى قومك لإقامة الحجة عليهم إذاراً وإنذاراً ، فإذا نزل بهم أمر الله بعقاب أو مصيبة كان ذلك بما قدمت أيديهم ، سنة الله تعالى في جميع الأمم .

وفي التنزيل نحو ذلك :

1 - قال تعالى : ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [النساء : 165] .

2 - وقال تعالى : ﴿ يَأْهَلُ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [المائدة : 19] .

3 - وقال تعالى : ﴿ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ [الأنعام : 156 - 157] .

وفي صحيح البخاري عن أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ : [مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمًا فَقَالَ : رَأَيْتُ الْجَيْشَ بَعَيْنِي ، وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ ، فَالْنَّجَاءُ النَّجَاءُ . فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ فَأَذْلَجُوا عَلَى مَهْلِهِمْ فَنَجَّوْا ، وَكَذَّبَتْهُ طَائِفَةٌ فَصَبَّحَهُمُ الْجَيْشُ فَاجْتَنَحَهُمْ] ⁽¹⁾ . وفي رواية : [فذلك مثل من أطاعني فأتبع ما جئت به ، ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من الحق] ⁽²⁾ .

48 - 51 . قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (6482) - كتاب الرقاق . باب الانتهاء عن المعاصي .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (7283) - كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة . باب : الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ ، في ختام نحو الحديث السابق .

كَفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَاتَّقُوا يَكْتِبُ مَن عِنْدَ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِمَّنَّمَا اتَّبَعَهُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَن أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ .

في هذه الآيات : مطالبة المشركين بالآيات والمعجزات وقد كفروا بما أوتي موسى من قبل وكانوا ظالمين . فقل لهم - يا محمد - : فهلاً أنيتم بكتاب من عند الله بعد كفركم بهذين الكتابين . فإن لم يفعلوا فاعلم - يا محمد - أن القوم إنما يتبعون أهواءهم فهم في غيهم يعمهون .

فقوله : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ ﴾ .

قال مجاهد : (يهود تأمر قريشاً أن تسأل محمداً مثل ما أوتي موسى ، يقول الله لمحمد ﷺ : قل لقريش يقولوا لهم : أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل) .

قلت : وقد يكون ذلك التعنت من قريش على سبيل العناد ، يريدون تقليد الأمم السالفة قبلهم في طلب الآيات ، مع أن الإيمان بالله وصدق وخيه لا يحتاج إلى الخوارق لإثباته ، فهو حجة بنفسه ، فهم يطلبون مثل ما أوتي موسى من الآيات الكثيرة : كالعصا واليد ، والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، وفلق البحر وتظليل الغمام ، وإنزال المن والسلوى ، فأجابهم الله تعالى بقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ ﴾ . قال ابن كثير : (أي : أولم يكفر البشر بما أوتي موسى من تلك الآيات العظيمة) .

وقوله : ﴿ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا ﴾ . قال مجاهد : (يعني موسى وهارون عليهما السلام) . و ﴿ تَظَاهَرَا ﴾ أي تعاونا وتناصروا وصدق كل منهما الآخر .

وعن ابن عباس : (﴿ قالوا ساحران تظاهرا ﴾ يعني موسى ومحمد ﷺ) . وفي رواية عنه : (يعنون التوراة والقرآن) . قال السدي : (يعني صدق كل واحد منهما الآخر) .

قلت : والبيان الإلهي يحتمل ما سبق من التأويل ، وأما من أدخل في التأويل : عيسى عليه السلام والإنجيل فقد أبعد لعدم ورود ذلك في السياق .

وقوله : ﴿ وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ ﴾ . أي : إنا بكل واحد منهما كافرون .

قال مجاهد: (قال يهود أيضاً: نكفر بما أوتي محمد أيضاً).

قال النسفي: (وقيل: إن أهل مكة كفروا بمحمد عليه السلام وبالقرآن فقد كفروا بموسى والتوراة، وقالوا في موسى ومحمد: ساحران تظاهرا، أو في التوراة والقرآن: سحران تظاهرا).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ فَأَتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

قال ابن زيد: (فقال الله: اتوني ﴿يَكْتَلِبُ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا﴾ من هذين الكتابين، الذي بعث به موسى، والذي بعث به محمد ﷺ).

والمقصود: قل - يا محمد - لكفار قومك، أما وقد كفرتم بهذين الكتابين فاتوا بكتاب من عند الله هو أهدىٰ منهما أتبعه ليكون ذلك عذراً لكم في الكفر عند ربكم إن كنتم صادقين في أنهما سحران.

وقوله: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾.

قال القرطبي: (﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ يا محمد أن يأتوا بكتاب من عند الله ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي آراء قلوبهم وما يستحسنونه ويحببه لهم الشيطان، وأنه لا حجة لهم).

وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾.

أي: لا أحد أضل وأبعد سبيلاً ممن مضىٰ خلف هواه بغير حجة من كتاب الله وهديه.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾. قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: إن الله لا يوفق لإصابة الحق وسبيل الرشد القوم الذين خالفوا أمر الله وتركوا طاعته، وكذبوا رسوله، وبدلوا عهده، واتبعوا أهواء أنفسهم إيثاراً منهم لطاعة الشيطان على طاعة ربهم).

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾. قال سفيان بن عيينة: (وصلنا: بيننا). وقال مجاهد: (فصلنا لهم القول). وقال قتادة: (وصل الله لهم القول في هذا القرآن، يخبرهم كيف صنع بمن مضىٰ، وكيف هو صانع، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾).

والمقصود: ولقد وصلنا - يا محمد - هذا الحق إلى قريش ليكون عليهم حجة وبياناً
مبيناً.

أخرج الطبراني في «الكبير» ، وابن جرير في التفسير ، بسند صحيح عن يحيى بن جعدة ، عن رِفَاعَةَ الْقُرَظِيِّ ، قال : [نزلت هذه الآية في عشرة أنا أحدهم : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَمَّا لَهُمْ يَنْذَرُوكِ ﴾] (1) .

ورواه ابن جرير من طريق آخر - بعد روايته عن ابن عباس : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَاهُمْ أَقْوَلًا لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ قال يعني محمداً ﷺ - ثم قال ابن جرير : (فكأن ابن عباس أراد بقوله يعني محمداً ، لعلهم يتذكرون عهد الله في محمد إليهم ، فيقرؤون بنبوته ويصدقونه) .

52 - 55. قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتَبَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ وَإِذَا يُنَادِي عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ ؕ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَأَعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْنِئُ الْجَهْلِيلَ ﴿٥٥﴾ .

في هذه الآيات: ثناء الله تعالى على المؤمنين من أهل الكتاب آمنوا بنبئهم وآمنوا بمحمد صلوات الله وسلامه عليهما وعلى المرسلين أجمعين ، فأولئك يؤتون أجرهم مرتين ، ثم هم يدفعون بحسنات أفعالهم سيئاتهم ومما رزقهم ربهم ينفقون ، ويعرضون عن اللغو وأماكنه وعن مصاحبة الجاهلين .

فَقُولْهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾.

قال ابن عباس: (يعني من آمن بمحمد ﷺ من أهل الكتاب). وقال مجاهد: (هم مُسْلِمَةُ أهل الكتاب).

والمقصود: إخبار عن العلماء الأولياء من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالقرآن كما آمنوا بكتابهم.

(1) إسناده صحيح. أخرجه ابن جرير في «التفسير» (27504)، (27505)، وكذلك ذكره الهيثمي في «المجمع»، وقال: رواه الطبراني في «الكبير» ورجاله ثقات. وانظر: «الصحيح المسند من أسباب النزول» - الوادعي - سورة القصص - آية (51).

وقوله: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ﴾.

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: وإذا يُتْلَىٰ هذا القرآن على الذين آتيناهم الكتاب من قبل نزول هذا القرآن ﴿قَالُوا آمَنَّا بِهِ﴾ يقول: يقولون: صدقنا به ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا﴾ يعني من عند ربنا نزل).

وقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾. قال ابن زيد: (على دين عيسى). والمقصود قولهم: إنه من قبل هذا القرآن كنا مسلمين. أي: مُؤَخِّدِينَ مخلصين لله مستجيبين له.

وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرُهُمْ مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾.

قال ابن زيد: (فلما جاء النبي ﷺ أسلموا ، فكان لهم أجرهم مرتين: بما صبروا أول مرة ، ودخلوا مع النبي ﷺ في الإسلام). قال ابن كثير: (أي: هؤلاء المتصفون بهذه الصفة الذين آمنوا بالكتاب الأول ثم بالثاني ﴿يُؤْتَوْنَ أَجْرُهُمْ مَّرَّتَيْنِ﴾ بإيمانهم بالرسول الأول ثم الثاني. ولهذا قال: ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ ، أي: على اتباع الحق ، فَإِنَّ تَجَشُّمَ مثل هذا شديد على النفوس). وقال القرطبي: (﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ عام في صبرهم على ملتهم ، ثم على هذه وعلى الأذى الذي يلقيه من الكفار وغير ذلك).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 - قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: 199].

2 - وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَلَيْسَ لَكُم مَّا أُوتُوا مِنْ قَبْلِهِمْ أَجْرٌ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [البقرة: 121].

3 - وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: 107 - 108].

4 - وقال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةَ لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَفْسُكَ إِلَىٰ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَتَلُوا نَبِيَّكَ وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٧﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: 82 - 83].

5 - وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: 4].

وفي الصحيحين والمسند والسنن عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، أنَّ رسول الله ﷺ قال : [ثلاثة يُؤتون أجرهم مرتين : رجلٌ من أهل الكتاب آمنَ بِنبيِّه وأدركَ النبي ﷺ فآمنَ به واتبَعَه وصدَّقَه فله أجران ، وعَبْدٌ مَمْلُوكٌ أَدَّى حَقَّ الله تعالى عليه وحق سيِّده فله أجران ، ورجل كانت له أمةٌ فغذاها فأحسنَ عِذاءها ، ثم أَدَّبَهَا فَأَحْسَنَ أَدَبَهَا ، ثم أعتَقَهَا وتزوَّجَهَا ، فله أجران] (1).

وقوله : ﴿ وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ﴾ . قال مجاهد : (يقول : ويدفعون بحسنات أفعالهم التي يفعلونها سيئاتهم) . وقال النسفي : (يدفعون بالطاعة المعصية أو بالحلم الأذى) .

وقوله : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ . قال مجاهد : (في طاعة الله ، إما في جهاد في سبيل الله ، وإما في صدقة على محتاج ، أو في صلة رحم) .

وقوله : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ﴾ . قال القاسمي : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ ﴾ أي من الجهال . وهو كل ما حقه أن يلغى ويترك ، من العبث وغيره ﴿ أَعْرَضُوا عَنْهُ ﴾ أي تكريماً للنفس عن ملابس الأدياء ، وتشريفاً للسمع عن سقط باطلهم) .

وقوله : ﴿ وَقَالُوا لَنَّا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ . أي بطريق التوديع والمشاركة والترفع عن النزول إلى سوية الجاهلين . قال النسفي : ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أمان منا لكم بأن نقابل لغوكم بمثله) .

وقوله : ﴿ لَا تَبْنِئِ الْجَنَهِلِينَ ﴾ .

قال الحسن : (كلمة حلم من المؤمنين ﴿ لَا تَبْنِئِ الْجَنَهِلِينَ ﴾ أي لا نريد مخالطتهم وصحبتهم ، ولا نريد مجازاتهم بالباطل على باطلهم) .

وفي التنزيل نحو ذلك :

1 - قال تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ [الفرقان : 63] .

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (97) ، (3011) ، (3446) ، وأخرجه مسلم (154) - كتاب الإيمان - واللفظ له ، وأخرجه أبو داود (2053) ، والترمذي (1116) ، والنسائي (115/6) ، وابن ماجه (1956) ، وأخرجه أحمد (4/395) ، وابن حبان (227) .

2 - وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان:

[72].

وفي جامع الترمذي بإسناد حسن عن عبد الله بن مسعود ، عن النبي ﷺ قال: [ليس المؤمن بالطعان ، ولا اللعان ولا الفاحش ، ولا البذي]⁽¹⁾.

56 - 59. قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُخْطِفُ مِنْ أََرْضِنَا أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِئَ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ قَبْلِكَ مَعِيشَتَهَا فَبِئْسَ الْمَسْكَنُ لَمْ تَسْكَنْ مِنْ بَعْدِهَا إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ ﴿٥٩﴾.

في هذه الآيات: إعلامُ الله تعالى نبيه ﷺ أن أمر الهداية بيده سبحانه فهو أعلم بالمستحقين. وامتنانٌ منه - جلّ ذكره - على قریش نعمة الحرَم الآمن يجيئ إليه الرزق من جميع الأمصار بإذن الله رب العالمين. وإخبارٌ منه - تعالى - عن سنته في إهلاك القرى إذا فسد أهلها وكانوا ظالمين.

فقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾.

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿إِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ هدايته ، ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ أن يهديه من خلقه ، بتوفيقه للإيمان به وبرسوله).

وقوله: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾. قال مجاهد: (لمن قدر له أن يهتدي). أو قال: (بمن قدر له الهدى والضلالة).

قلت: والآية في مفهومها عامة بحق جميع الخلق ، فإن التوفيق للهداية بيد الله سبحانه الذي اطلع على قلوب عباده ، وهو أعلم بالشاكرين.

(1) حديث حسن. أخرجه الترمذي (1978) ، وأخرجه أحمد (3839) ، والحاكم (12/1).

وأما سبب نزولها فقد صحَّ الخبر عن رسول الله ﷺ أنها نزلت في عمه أبي طالب ، واسمه عبد مناف ، الذي كان يحوطه وينصره ، ويغضب له ويقوم في صفه ، ويحبه حباً شديداً طبعياً لا شرعياً .

ففي الصحيحين عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال : [لما حَضَرْتُ أبا طالب الوفاة ، جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل ، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة .

فقال رسول الله ﷺ : يا عم قل لا إله إلا الله ، كلمة أشهد لك بها عند الله .

فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية : يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعيد له تلك المقالة حتى قال أبو طالب آخِرَ ما كلمهم : هو على ملة عبد المطلب ، وأبى أن يقول لا إله إلا الله . فقال رسول الله ﷺ : أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عَنكَ . فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ [التوبة : 113] ، وأنزل الله تعالى في أبي طالب فقال لرسول الله ﷺ : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ ⁽¹⁾ .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : [قال رسول الله ﷺ لِعَمِّهِ ، عند الموت « قل : لا إله إلا الله ، أشهد لك بها يوم القيامة » . فأبى . قال : فَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ الآية] ⁽²⁾ .

وفي رواية : [قال : لولا أن يُعَيِّرَنِي قريش - يقولون : إنما حَمَلُهُ عَلَى ذَلِكَ الْجَزْعِ - لَأَفْرَزْتُ بِهَا عَيْنَكَ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾] .

والخلاصة : لما احتضر أبو طالب دعاه النبي ﷺ إلى الإيمان ، فسبق القدر فيه ، واختطف من يده ، ومات على الكفر والله الحكمة التامة .

لقد شبَّ أبو طالب على أفكار الجاهلية التي رسخت في قلبه وعقله ، وعلى التعلق بالعصية وتقليد الآباء الذي شغل على أمثاله حياتهم ، فما تمكن من تغييرها وهو شيخ كبير ، وقد حضره أقرانه عند احتضاره ، ففُضِيَ وأبى أن يقول لا إله إلا الله .

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (1360) ، (3884) ، وأخرجه مسلم (24) واللفظ له ، وأخرجه النسائي (90/4) ، وأحمد (433/5) ، وأخرجه ابن حبان (982) .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم (25) كتاب الإيمان ، ح (41) ، وانظر للرواية بعده ح (42) ، وكذلك سنن الترمذي (3188) .

أخرج الإمام أحمد في المسند ، بإسناد صحيح عن علي رضي الله عنه قال : [لما توفي أبو طالب ، أتيت النبي ﷺ فقلت : إِنَّ عَمَّكَ الشَّيْخَ الضَّالَّ قَدْ مَاتَ ، فَمِنْ يَوَارِيهِ؟ قال : اذهب فواره ، ثم لا تحدث شيئاً حتى تأتيني . فقال : إنه مات مشركاً ، فقال : اذهب فواره . قال : فواريتُهُ ثم أتيتُهُ ، قال : اذهب فاغتسل ثم لا تحدث شيئاً حتى تأتيني ، قال : فاغتسلت ، ثم أتيتُهُ ، قال : فدعا لي بدعوات ما يسرني أن لي بها حُمْر النِّعَمِ وسودها ، قال : وكان علي إذا غسل الميت اغتسل] (1).

لقد أفقد موت أبي طالب رسول الله ﷺ سنداً كبيراً ، فلم يعد بنو هاشم مستعدين لتقديم الحماية نفسها ، وتناولت قريش ، وقد خفف الله عن أبي طالب قسطاً كبيراً من العذاب يوم القيامة بسبب مساندته لرسول الله ﷺ.

يروى البخاري في صحيحه عن العباس بن عبد المطلب : [أنه قال للنبي ﷺ : ما أغنيت عن عمك؟ فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال : هو في ضحضاح من نار ، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار] (2).

وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري أنه سمع النبي ﷺ - وذكر عنده عمه - فقال : [لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة . فيجعل في ضحضاح من النار تبلغ كعبيه] (3).

وفي صحيح الإمام مسلم عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : [أهون أهل النار عذاباً أبو طالب ، وهو متعل بنعلين من نار ، يغلي منهما دماغه] (4).

وفي لفظ : [أهونُ أهل النار عذاباً يوم القيامة رجل ، يوضع في أخصص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه] .

وقوله : ﴿ وَقَالُوا إِنَّا نَتَّبِعُ الْهُدَى مَعَكَ نَنْخَطِفُ مِنْ أَرْضِنَا ﴾ .

قال ابن عباس : (هم أناس من قريش قالوا لمحمد : إن نتبعك يتخطفنا الناس ، فقال الله : ﴿ أَوَلَمْ نُمْكِّنْ لَهُمْ حَرَمَاءَ مَنَايَجِي إِلَى ثَمَرَاتِ كُلِّ شَيْءٍ ﴾) .

- (1) حديث صحيح . أخرجه أحمد في المسند برقم (807) ، وأخرجه أبو داود في السنن (2/70) ، وصححه الألباني في : «أحكام الجنائز» - ص (134) .
- (2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (3883) ، وانظر كذلك : «فتح الباري» (7/194) .
- (3) حديث صحيح . أخرجه البخاري في صحيحه (3885) ، وأخرجه مسلم في الصحيح (210) .
- (4) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح - حديث رقم (212) - كتاب الإيمان ، من حديث ابن عباس ، وانظر كذلك - حديث رقم - (213) للفظ بعده .

والمقصود: محاولة بعض كفار قريش اعتذارهم للنبي ﷺ عن اتباع هذا الوحي الذي هو الدين الحق بَتَخَوُّفِهِمْ من تأليب قبائل العرب عليهم ، واستهدافهم بالمحاربة والأذى فأثبت الله تعالى كذبهم في ما اعتذروا به ، وبطلان استدلالهم .

فقال: ﴿أَوَلَمْ تُمْكِنَ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ . قال ابن عباس: (ثمرات الأرض).

قال قتادة: (أولم يكونوا آمنين في حرمهم لا يغزون فيه ولا يخافون ، يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثمرات كل شيء).

قال ابن زيد: (آمنكم به . قال: هي مكة ، وهم قريش).

قال ابن كثير: (يعني هذا الذي اعتذروا به كَذِبٌ وباطل ، لأن الله تعالى جعلهم في بلد أمين ، وَحَرَمٍ مُّعَظَّمٍ آمِنٍ مِنْهُ وَضِعَ ، فكيف يكونُ هذا الحرم آمناً لهم في حال كفرهم وشركهم ، ولا يكون آمناً لهم وقد أسلموا وتابَعُوا الحق؟! وقوله تعالى: ﴿يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ، أي: من سائر الثمار مما حوله من الطائف وغيره ، وكذلك المتاجر والأمتعة).

وقوله: ﴿رِزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ . أي: هذه النعم العظيمة من الأمن والرزق إنما كانت رزقاً من عندنا ، ولكن أكثر هؤلاء المشركين يجهلون نعمة الله عليهم ولا يقومون بما يجب عليهم من شكرها .

وقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ .

قال ابن زيد: (البطر: أشرُّ أهل الغفلة وأهل الباطل والركوب لمعاصي الله).

وقال الزجاج: (البطر الطغيان بالنعمة).

وفي التنزيل نحو ذلك:

قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِسَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [النحل: 112 - 113].

أخرج البيهقي في «شعب الإيمان» بسند صحيح لغيره عن عائشة مرفوعاً: [إذا ظهر

السوء في الأرض أنزل الله عز وجل بأسه بأهل الأرض ، وإن كان فيهم صالحون ، يصيبهم ما أصاب الناس ، ثم يرجعون إلى رحمة الله] (1).

وأخرج الطبراني بسند صحيح عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال : [إذا ظهر الزُّنا والزُّبا في قرية ، فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله] (2).

وقوله : ﴿ فَلَئِكَ مَسَكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .

قال ابن عباس : (لم يسكنها إلا المسافر أو مازَّ الطريق يوماً أو ساعة) .

قال القرطبي : (أي لم تسكن بعد إهلاك أهلها إلا قليلاً من المساكن وأكثرها خراب) .

وقوله : ﴿ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾ .

أي : دثرت ديارهم وعادت كما كانت قبل سُكنائهم فيها ، لا مالك لها إلا الله ، الذي له ميراث السماوات والأرض .

وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَنْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾ .

قال النسفي : (﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى ﴾ في كل وقت ﴿ حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ ﴾ أي في القرية التي هي أمها أي أصلها ومعظمها ﴿ رَسُولًا ﴾ لإلزام الحجة وقطع المعذرة . أو وما كان في حكم الله وسابق قضائه أن يهلك القرى في الأرض حتى يبعث في أم القرى - يعني مكة لأن الأرض دحيت من تحتها - رسولاً ، يعني محمداً عليه السلام ﴿ يَنْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾ أي القرآن) .

وقوله : ﴿ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾ .

قال ابن عباس : (قال الله : لم يهلك قرية بإيمان ، ولكنه يهلك القرى بظلم إذا ظلم أهلها ، ولو كانت قرية آمنت لم يهلكوا مع من هلك ، ولكنهم كذبوا وظلموا ، فبذلك أهلکوا) .

60 - 61 . قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَوْتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا وَمَا

(1) صحيح لغيره . أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (2/441/2) ، وأبو نعيم في «الحلية» (218/10) ، وأحمد في المسند (294/6) . وانظر السلسلة الصحيحة (1372) .

(2) حديث صحيح . أخرجه الطبراني والحاكم . انظر صحيح الجامع الصغير - حديث رقم - (692) .

عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ .

في هذه الآيات : إعلامُ الله تعالى عن فناء بهجة الحياة الدنيا وزينتها وأن ما عنده خير وأبقى للذاكرين . وتأكيدهُ أن وعدهُ المؤمنين في الدار الآخرة ليس كهذه الزينة الزائلة من يد المفسرين ، ثم يكون صاحبها بأيدي الملائكة يُساق إلى الحساب في الأذلين .

فقوله تعالى : ﴿ وَمَا أُوْتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ . أي : إن كل ما في هذه الدنيا من زينة وبهجة ومتاع إنما هو مما يتمتع ويتزين به أياماً قلائل ، ثم تنقضي بالموت أو الزوال ، وأما ما عند الله مما أعدّه لعباده الصالحين في جنات الخلود فهو دائم لا محيد عنه ولا انقطاع ، ولا يشوبه مُنْغَصَصٌ أو خوف أو قلق .

وفي التنزيل نحو ذلك :

- 1 - قال تعالى : ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل : 96] .
 - 2 - وقال تعالى : ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴾ [الرعد : 26] .
 - 3 - وقال تعالى : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٦١﴾ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ [الأعلى : 16 - 17] .
 - 4 - وقال تعالى : ﴿ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران : 198] .
- ومن صحيح السنة المطهرة في آفاق هذه الآية أحاديث :

الحديث الأول : أخرجه الترمذي والحاكم بسند صحيح عن عبد الله بن مسعود قال : [اضطجع رسول الله ﷺ على حصير فأثر في جنبه ، فلما استيقظ جعلت أمسح جنبه ، فقلت : يا رسول الله ألا أذنننا حتى نبسط لك على الحصير شيئاً؟ فقال رسول الله ﷺ : ما لي وللدنيا؟! ما أنا والدنيا؟! إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب ظلّ تحت شجرة ثم راح وتركها⁽¹⁾ .

الحديث الثاني : أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن قيس بن أبي حازم ، قال : سمعتُ

(1) حديث حسن صحيح . أخرجه الترمذي (2/60) ، والحاكم (4/310) ، وابن ماجة (2/526) ، وأحمد (1/391 - 441) ، وانظر السلسلة الصحيحة (439) .

المُسْتَوْدَ ، أَخَا بَنِي فِهْرٍ ، يَقُولُ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : [مَا مِثْلُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ ، إِلَّا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إَصْبَعَهُ فِي الْيَمِّ . فَلْيَنْظُرْ بِمَ يَرْجِعُ]⁽¹⁾ .

الحديث الثالث: أخرج ابن حبان والحاكم وأحمد بسند صحيح لغيره ، عن ابن عباس: [أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهِ عُمَرُ وَهُوَ عَلَى حَصِيرٍ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ فَقَالَ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ لَوْ اتَّخَذْتَ فِرَاشاً أَوْثَرَ مِنْ هَذَا ؟ فَقَالَ : مَا لِي وَلِلدُّنْيَا ؟! مَا مِثْلِي وَمِثْلُ الدُّنْيَا إِلَّا كَرَائِبِ سَارٍ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ ، فَاسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا]⁽²⁾ .

الحديث الرابع: أخرج ابن ماجه بسند صحيح عن سهل بن سعد قال: [كنا مع رسول الله ﷺ بذِي الْحُلَيْفَةِ . فَإِذَا هُوَ بِشَاةٍ مِيتَةٍ شَائِلَةٍ بِرِجْلَيْهَا . فَقَالَ : أَتَرَوْنَ هَذِهِ هَيْئَةً عَلَى صَاحِبِهَا ؟ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ! لِلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ ، مِنْ هَذِهِ عَلَى صَاحِبِهَا . وَلَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَرِزُنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ ، مَا سَقَى كَافِراً مِنْهَا قَطْرَةً أَبَداً]⁽³⁾ .

الحديث الخامس: أخرج الإمام مسلم في الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [مَنْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ يَنْعَمُ لَا يَبْأَسُ ، لَا تَبْلَى ثِيَابُهُ وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُ]⁽⁴⁾ .

والخلاصة: الآية السابقة تخبر عن حقارة هذه الحياة الدنيا ، وما فيها من الزينة الدنيئة والزهرة الفانية ، وعدم الاستقرار بالنسبة لاستقرار نعيم الآخرة ودوام بهجته وزهرته وزينته . وقوله: ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ . أي: أفلا يعقل من يعظمُ أمر هذه الدنيا ومتاعها فوق أمر الآخرة .

وقوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ . أي: هل يستوي المؤمن الموعود جزيل الثواب على الإيمان والعمل الصالح بالكافر الممتع أياماً قلائل في هذه الحياة الدنيا ثم يحضر يوم القيامة إلى العذاب الأليم .

قال قتادة: (المؤمن سمع كتاب الله فصدق به وآمن بما وعد الله فيه ﴿ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ

(1) حديث صحيح . أخرجه ابن ماجه في السنن (4108) - كتاب الزهد ، باب مثل الدنيا انظر صحيح سنن ابن ماجه (3316) ، وأصله في صحيح مسلم .

(2) حديث صحيح . أخرجه ابن حبان (2526) ، والحاكم (309 / 4 - 310) ، وأحمد (301 / 1) ، ورواه البيهقي كما في «الترغيب» (4 / 114) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (440) .

(3) حديث صحيح . أخرجه ابن ماجه (4110) - كتاب الزهد . انظر صحيح ابن ماجه (3318) .

(4) حديث صحيح . رواه مسلم في الصحيح (2836) - كتاب الجنة ونعيمها . باب في دوام نعيم أهل الجنة ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

الْحَيَوةِ الدُّنْيَا ﴿٦٢﴾ هو هذا الكافر ، ليس والله كالمؤمن ﴿٦٣﴾ ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦٤﴾ أي في عذاب الله .
وقال مجاهد : ﴿٦٥﴾ ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦٦﴾ : من المعذبين .

62 - 67. قوله تعالى: ﴿٦٢﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٤﴾ وَقِيلَ أَذْعَوْا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٥﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٦﴾ فَعِمِيتَ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٦٧﴾ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٦٨﴾ .

في هذه الآيات: تصويرُ الله تعالى الخزي وذل المشهد يوم القيامة على المشركين ، وقد حيل بينهم وبين ما يشتهون ونودوا ماذا أجبتهم المرسلين ، فعميت عليهم الأنباء ولم ينج يومئذ إلا من كان من المؤمنين التائبين .

فقوله تعالى: ﴿٦٩﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٠﴾ .

تقريع وتهديد ، وتوبيخ وتنديد ، بالمشركين الذين عبدوا الأوثان والأنداد والطواغيت في الدنيا من دون الله . قال القرطبي: (أي ينادي الله يوم القيامة هؤلاء المشركين ﴿٧١﴾ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ ﴿٧٢﴾ بزعمكم أنهم ينصرونكم ويشفعون لكم) .

وقوله: ﴿٧٣﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ﴿٧٤﴾ . يعني الشياطين والطواغيت والرؤساء .

وقوله: ﴿٧٥﴾ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا كَمَا غَوَيْنَا ﴿٧٦﴾ . قال قتادة: (هم الشياطين) .

قال القاسمي: ﴿٧٧﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ﴿٧٨﴾ أي وجب وثبت مقتضاه . وهو لحوق الوعيد بهم . والمراد بهم ، رؤساء الضلال ، وقادة الكفر والفساد ﴿٧٩﴾ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا ﴿٨٠﴾ أي أضللناهم . ﴿٨١﴾ أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ﴿٨٢﴾ أي أضللناهم بالسوسة والتسويل ، كما ضللنا باختيارنا ، وإيثار ما يفنى على ما يبقى) .

وقوله: ﴿٨٣﴾ تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ ﴿٨٤﴾ . قال النسفي: (منهم ومما اختاروه من الكفر) .

وقوله: ﴿٨٥﴾ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٨٦﴾ . أي لم يكونوا يعبدوننا . فشهدوا عليهم أنهم

أغروهم فمضوا خلفهم واتبعوهم وعظّموهم ، ثم تبرؤوا من عبادتهم وتنصّلوا من أفعالهم .

وفي التنزيل نحو ذلك :

1 - قال تعالى : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴾ (A1) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ [مریم : 81 - 82] .

2 - وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ ﴾ (B1) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ [الأحقاف : 5 - 6] .

3 - وقال تعالى : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴾ (C1) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَدْرِي مَا كُنَّا كَرَّةً فَتَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسْرَتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ [البقرة : 166 - 167] .

4 - وقال تعالى : - يحكي كلام الخليل لقومه - ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَنًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمُ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ [العنكبوت : 25] .

ومن صحيح السنة المطهرة في آفاق هذه الآية أحاديث ، منها :

الحديث الأول : روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : [قال الله تبارك وتعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، مَنْ عَمَلَ عَمَلًا شَرَكَ فِيهِ معي غيري ، تَرَكْتُهُ وَشِرْكُهُ] ⁽¹⁾ .

الحديث الثاني : أخرج الترمذي بسند حسن عن أبي سعيد بن أبي فضالة الأنصاري - وكان من الصحابة - قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : [إذا جمع الله الناسَ ليوم القيامةَ ليوم لا ريبَ فيه ، نادى منادٍ : مَنْ كَانَ أَشْرَكَ فِي عَمَلٍ عَمِلَهُ اللَّهُ أَحَدًا ، فليطلب ثوابه مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ أَغْنَى الشُّرَكَاءَ عَنِ الشُّرْكِ] ⁽²⁾ .

الحديث الثالث : أخرج ابن ماجه بسند صحيح عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم (2985) - كتاب الزهد ، باب تحريم الرياء .

(2) حديث حسن . أخرجه الترمذي (3374) - في التفسير ، انظر صحيح سنن الترمذي (2521) ، وأخرجه ابن ماجه في السنن (4203) - كتاب الزهد ، باب : الرياء والسمعة .

قال: [قال الله عز وجل: أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، فمن عمل لي عملاً أشرك فيه غيري ، فأنا منه بريء. وهو للذي أشرك]⁽¹⁾.

وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾.

أي: وقيل نادوا شركاءكم اليوم ليخلصوكم من هذا المأزق وينقذوكم مما أنتم قادمون عليه من العذاب ، فدعوهم كما كانوا يدعونهم في الدنيا فلم يجيبوهم ، وعاینوا العذاب وودّوا أنهم كانوا في الدنيا مهتدين للحق متبعين سبيل الرسل .

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾.

قال ابن جريج: (قال: بلا إله إلا الله ، التوحيد).

قال ابن كثير: (النداء الأول عن سؤال التوحيد ، وهذا فيه إثبات النبوات: ماذا كان جوابكم للمرسلين إليكم؟ وكيف كان حالكم معهم؟).

قلت: وكُلُّ مَنْ مات بعد خاتم النبیین ، محمد عليه وعلى المرسلين أفضل الصلاة والتسليم ، فإنه يُسأل عنه صراحة إذا نزل في قبره بعد سؤاله عن التوحيد: عن ربه ودينه. وفي ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج أحمد وأبو داود والحاكم بسند صحيح من حديث البراء مرفوعاً قال: [فِيَاتِهِ مَلَكَانِ شَدِيدَا الْإِنْتِهَارِ ، فَيَنْتَهَرَانِهِ وَيَجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّي اللَّهُ ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِي الْإِسْلَامُ ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بَعَثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فَيَقُولَانِ لَهُ: وَمَا عَمَلُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ ، فَأَمَنْتُ بِهِ ، وَصَدَقْتُ]⁽²⁾.

وأما الفاجر والكافر: [فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهُ ، هَاهُ - لَا أَدْرِي ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهُ هَاهُ - لَا أَدْرِي ، فَيَقُولَانِ: فَمَا تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي بَعَثَ فِيكُمْ؟ فَلَا يَهْتَدِي لِاسْمِهِ ، فَيَقَالُ: مُحَمَّدٌ! فَيَقُولُ: هَاهُ هَاهُ لَا أَدْرِي ، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ ذَاكَ! فَيَقَالُ: لَا دَرِيْتَ وَلَا تَلَوْتَ].

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجه في السنن (4202) - كتاب الزهد. الباب السابق. وانظر صحيح سنن ابن ماجه - حديث رقم - (3387).

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد (4/287) ، وأبو داود (2/281) ، والنسائي (1/282) ، وابن ماجه (1/469) ، والحاكم (1/37-40) ، وانظر: «أحكام الجنائز» (159).

الحديث الثاني: أخرج الترمذي بسند حسن من حديث أبي هريرة مرفوعاً: [إذا قُبِرَ الميتُ أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما المنكر ، وللآخر النكير ، فيقولان: ما كنت تقولُ في هذا الرجل؟ فيقول: ما كانَ يقول: هو عبد الله ورسوله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول] (1).

قال: [وإن كان منافقاً قال: سمعتُ الناس يقولون قولاً فقلتُ مثلهُ ، لا أدري].

وفي لفظ عند ابن ماجة: [فيقال له: ما هذا الرجل؟ فيقول: سمعتُ الناس يقولون قولاً فقلتُ].

الحديث الثالث: أخرج ابن ماجة بسند صحيح من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [فيجلس الرجل الصالح في قبره ، غيرَ فزع ولا مَشْعُوف - الشعف: شدة الفزع - ثم يقال له: فيمَ كنت؟ فيقول: كنتُ في الإسلام ، فيقالُ له: ما هذا الرجل؟ فيقول: محمد رسول الله ﷺ جاءنا بالبينات من عند الله فصدقناه ، فيقالُ له: هل رأيتَ الله؟ فيقول: ما ينبغي لأحدٍ أن يرى الله] (2).

والخلاصة: يُسأل الرجل في قبره عن رسول الله ﷺ بعد أن يُسأل عن أصول دينه: معرفة الله ودينه وبعض الصفات الموافقة لمنهج التوحيد.

ورحم الله القائل:

<p>فَوَاحِرَّ قَلْبِي مِنْ جَهْلٍ مُسَوِّدٍ إِذَا قُلْتُ قَوْلَ الْمُصْطَفَى هُوَ مَذْهَبِي يُرَى أَنَّهُا دَعْوَى اجْتِهَادٍ صَحِيحَةٍ فَسَلُّهُ أَقْوَلُ اللَّهِ مَاذَا أَجَبْتُمْ أَيَسْأَلُهُمْ مَاذَا أَجَبْتُمْ مُلُوكُكُمْ أَمْ اللَّهُ يَوْمَ الْحِشْرِ يَمْتَحِنُ الْوَرَى وَهَلْ يُسْأَلُ الْإِنْسَانُ عَنْ غَيْرِ أَحْمَدٍ وَهَلْ قَوْلُهُ يَا رَبِّ قَلَّدْتُ غَيْرَهُ</p>	<p>بِهِ يُقْتَدَى فِي جَهْلِهِ لَشَقَائِهِ مَتَى صَحَّ عِنْدِي لَمْ أَقْلُ بِسَوَائِهِ فَوَاعَجِبْ أَمِنْ جَهْلِهِ وَجَفَائِهِ لَمَنْ هُوَ يَوْمَ الْحِشْرِ عِنْدَ نَدَائِهِ وَمَا عَظَّمَ الْإِنْسَانُ مِنْ رُؤْسَائِهِ بِمَاذَا أَجَابُوا الرُّسُلَ مِنْ أَنْبِيَائِهِ إِذَا مَا ثَوَى فِي الرِّمَسِ تَحْتَ ثَرَائِهِ لَدَى اللَّهِ عُذْرٌ يَوْمَ فَصْلِ قَضَائِهِ</p>
--	--

(1) حديث حسن أخرجه الترمذي (2/ 163) ، وابن أبي عاصم في «السنة» (864) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة - حديث رقم - (1391).

(2) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة في السنن (4268) ، وانظر صحيح الجامع الصغير (1964).

وقوله تعالى: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾.

قال ابن جريج ، عن مجاهد: (بالأنساب . وقيل معنى ذلك: فعميت عليهم الحجج يومئذ فسكتوا ، فهم لا يتساءلون في حال سكوتهم).

وعن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد: ((فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ)) قال: لا يتساءلون بالأنساب ، ولا يتماثلون بالقرباب ، إنهم كانوا في الدنيا إذا التقوا تساءلوا وتماثلوا).

قال الشهاب: ((فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ)) - فيه استعارة تصريحية تبعية استعير العمى لعدم الاهتداء . فهم لا يهتدون للأنباء . ثم قلب للمبالغة . فجعل الأنباء لا تهتدي إليهم . وضمن معنى الخفاء . فعدي بـ ﴿على﴾ . ففيه أنواع من البلاغة: الاستعارة والقلب والتضمين).

قال النسفي: (خفيت عليهم الحجج أو الأخبار . وقيل: خفي عليهم الجواب فلم يدروا بماذا يجيبون إذ لم يكن عندهم جواب ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ لا يسأل بعضهم بعضاً عن العذر والحجة رجاء أن يكون عنده عذر وحجة ، لأنهم يتساوون في العجز عن الجواب).

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَغَسَّاقٌ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾.

أي: فأما من تدارك نفسه في هذه الدنيا من المشركين فأتاب فأناب إلى الله وأخلص له الألوهية وأفرده بالعبادة والتعظيم ، وعدّل ما فاته بالعمل الصالح ، فهو بإذن الله من الناجين المُنَجِّحين المدركين رجاءهم السعادة والخلود في جنات النعيم .

68 - 70 . قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ

سُبْحَنَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

في هذه الآيات: كمال علم الله ونفاد إرادته ومشيتته في خلقه وأكثرهم يشركون . وهو سبحانه يعلم ما تخفي صدورهم وما يعلنون ، وهو الله الإله الحق الأحد الصمد الحَكَمُ وإليه يرجعون .

فقوله: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾.

قال ابن عباس: (والمعنى: وربك يخلق ما يشاء من خلقه ويختار منهم من يشاء لطاعته).

وقال يحيى بن سلام: (وربك يخلق ما يشاء من خلقه ويختار من يشاء لنبوته).

والآية بعمومها إخبار من الله تعالى أنه المنفرد بالخلق والاختيار ، فلا منازع لأمره ولا معقب لحكمه فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

وقوله: ﴿مَا كَانَتْ لَهُمْ أَلْحِيَّةٌ﴾ . قال النسفي: (ما لنفي اختيار الخلق تقريراً لاختيار الحق). والمقصود: ليس لهم أن يختاروا على الله شيئاً ما ، وله الخيرة عليهم .

واختار ابن جرير أن «ما» بمعنى الذي ، واستفاد من ذلك طائفة من المعتزلة على وجوب مراعاة الأصلح . أي: ويختار الذي لهم فيه خيرة . والراجح أنها نافية . قال ابن كثير: (نفي على أصح القولين . فإن المقام في بيان انفراده تعالى بالخلق والتقدير والاختيار ، وأنه لا نظير له في ذلك).

وقوله: ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ وَتَكَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ . تنزيه لله وتقديس وتمجيد ، فهو المنفرد بالخلق والتدبير ، لا ما يشرك به المشركون من الأنداد والأوثان والطواغيت .

وقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ .

تمدح له سبحانه بأنه عالم الغيب والشهادة لا يخفى عليه شيء ، وأنه يعلم ما تخفيه صدور عباده وما يعلنونه بجوارحهم .

كقوله جل ذكره: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَأَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: 10] .

وكقوله جل ثناؤه: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: 19] .

وقوله: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ . تقرير للالوهية بعد إثبات تفرده بخصائص الربوبية .

أي: فكما أنه وحده يخلق ويختار فهو الرب العظيم لا رب سواه ، فكَذَلِكَ هو الإله الحق المستحق للعبادة لا إله غيره .

والآية تقرير للمشركين الذين هم مقهورون بربوبيته عز وجل ، والتي كان ينبغي أن تقتضي منهم إفراده تعالى بالعبادة والتعظيم .

وقوله: ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ﴾. قال القرطبي: (جميع المحامد إنما تجب له).

أي: فهو المحمود أولاً وآخرأ لكمال عدله وحكمته جل ثناؤه.

وقوله: ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾. أي: لا حكم إلا له ، والمرجع للفصل إنما هو بين يديه .

قال ابن جرير: (يقول: وله القضاء بين خلقه ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يقول: وإليه تردون من بعد مماتكم ، فيقضي بينكم بالحق).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1- قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقُضُ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: 57].

2- وقال تعالى: ﴿أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر: 46].

وفي صحيح سنن أبي داود والنسائي عن هاني بن يزيد ، عن النبي ﷺ قال: [إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَكَمُ ، وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ] (1).

71 - 73. قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الَّتِيلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بَلِيلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (٧٢) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ الَّتِيلَ وَالنَّهَارَ لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٧٣).

في هذه الآيات: امتناناً الله تعالى على عباده نعمة تقليب الليل والنهار وتعاقبهما ، فإنه تعالى لو شاء استمرار الليل على عباده دون انقطاع لوقع الضرر بمصالحهم ، ولستمت نفوسهم ، ولأظلمت آمالهم. ولو شاء استمرار النهار عليهم دون انقطاع لحصل الضرر بأبدانهم ، ولوقع الملل والضجر من تتابع أشغالهم.

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن (4955) ، وكذلك النسائي. انظر صحيح سنن أبي داود - حديث رقم - (4145) ، وصحيح الجامع (1841).

ولكنه سبحانه وتعالى عاقب الليل والنهار عليهم ليتشربوا في نهارهم بالأسفار والترحال ، والحركات والأشغال ، وليسكنوا في ليلهم من تعب الحركة والانتقال ، ولعالمهم بذلك أن يكونوا من الشاكرين .

فقوله : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ﴾ . قال ابن عباس : (يقول : دائماً) . وقال مجاهد : (قوله : ﴿ سَرْمَدًا ﴾ دائماً لا ينقطع) .

وقوله : ﴿ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَائٍ ﴾ . أي : قل - يا محمد - لهؤلاء المشركين : كيف يكون حالكم لو تابع الله تعالى عليكم الليل دون انقطاع ، من معبود يقدر أن يأتيكم بضياء النهار إلا الله المعبود الحق .

وقوله : ﴿ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ . قال ابن جرير : (يقول أفلا ترفعون ذلك سمعكم ، وتفكرون فيه فتعظون ، وتعلمون أن ربكم هو الذي يأتي بالليل ويذهب بالنهار إذا شاء ، وإذا شاء أتى بالنهار وذهب بالليل ، فينعم باختلافهما كذلك عليكم) .

وقال القرطبي : ﴿ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ (سماع فهم وقبول) .

وقوله : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بَلِيلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ﴾ . قال ابن جرير : (فتستقرون وتهدؤون فيه) .

وقوله : ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ . قال القرطبي : (ما أنتم فيه من الخطأ في عبادة غيره ، فإذا أقررتم بأنه لا يقدر على إيتاء الليل والنهار غيره فلم تشركون به) .

قال النسفي : (قرن بالضياء ﴿ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ لأن السمع يدرك ما لا يدركه البصر من ذكر منافعه ووصف فوائده ، وقرن بالليل ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ لأن غيرك يبصر من منفعة الظلام ما تبصره أنت من السكون ونحوه) .

وقوله : ﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ . هو من باب اللف والنشر .

أي : ومن رحمته بكم أيها الناس خالف بين الليل والنهار ، فجعل الليل ظلاماً تسكنون فيه وترتاحون من عناء السعي وتعب التصرف ، وجعل النهار ضياءً ليناسب انتشاركم في الأسفار والترحال ، والحركات والأشغال .

وقوله : ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ . قال ابن كثير : (أي : تشكرون الله بأنواع العبادات في الليل والنهار . ومن فاته شيء بالليل استدركه بالنهار ، أو بالنهار استدركه بالليل) .

وفي التنزيل نحو ذلك :

1 - قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنۢ أَرَادَ أَنۢ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ۝ ﴾ [الفرقان : 62].

2 - وقال تعالى : ﴿ وَسَيَحۡبِطُ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ الشَّمۡسِ وَقَبۡلَ الْغُرُوبِ ۝ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَيَحۡبِطُهُ ۝ وَأَدۡبَرَ الشُّجُودَ ۝ ﴾ [ق : 39 - 40].

3 - وقال تعالى : ﴿ وَسَيَحۡبِطُ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ الشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَا ۝ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَيَحۡبِطُ ۝ وَأَطۡرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَى ۝ ﴾ [طه : 130].

وفي صحيح مسلم عن أبي موسى ، عن النبي ﷺ قال : [إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَسْطُ يَدُهُ بِاللَّيْلِ ، لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ ، وَيَسْطُ يَدُهُ بِالنَّهَارِ ، لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا] (1).

74 - 75. قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِیَ الَّذِینَ كُنتُمۡ تَزْعُمُونَ ۝ وَنَزَعْنَا مِنۢ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِیدًا فَنَقُلَّنَا هَآئِذَا بُرۡهَنَكُمۡ فَعَلِمُوا۟ أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ یَفۡتُرُونَ ۝ ﴾ .

في هذه الآيات : إثبات خزي المشركين يوم يناديهم ربهم تبارك وتعالى ليُخرجوا له شركاءَهُ الذين كانوا يزعمون . وخروجُ الرسول من كل أمةٍ ليشهد عليها وضل عن المشركين ما كانوا يفترون .

فقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِیَ الَّذِینَ كُنتُمۡ تَزْعُمُونَ ۝ ﴾ .

توبيخ آخر وتقريع وزيادة خزي . يناديهم الرب تبارك وتعالى على رؤوس الأشهاد مطالباً لهم بإخراج شركائه الذين صرفوا لهم العبادة والأموال .

قال النسفي : (كرر التوبيخ لاتخاذ الشركاء ليؤذن أن لا شيء أجلب لغضب الله من الإشراف به ، كما لا شيء أدخل في مرضاته من توحيده).

(1) حديث صحيح . رواه مسلم في الصحيح (2759) ، كتاب التوبة ، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة ، من حديث أبي موسى رضي الله عنه .

وقوله: ﴿وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾. قال مجاهد: (رسولاً). وقال قتادة: (وشهيداً: نبياً، يشهد عليها أنه قد بلغ رسالة ربه). وهذا كقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: 41].

وقوله: ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾. قال مجاهد: (حجتكم لما كنتم تعبدون وتقولون).

وقوله: ﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾. قال القرطبي: (أي علموا صدق ما جاءت به الأنبياء).

وقال القاسمي: ﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾ أي في الألوهية، لا يشاركه فيها أحد).

وقوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَأْكَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

أي: وغاب عنهم واضمحل ما كانوا يشركون، وما كانوا يتخرصون ويكذبون على ربهم، فلم ينفعوهم ولم يشفعوا لهم كما كانوا يزعمون ويظنون.

76 - 82. قوله تعالى: ﴿إِنَّ قُرُونًا كَانَتْ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَاهُ مِنَ الْكُتُبِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ دُئُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قُرُونُ إِنَّهُمْ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُفْلِحُهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ

تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَاثُرُ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ
لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَانَهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾ .

في هذه الآيات : قصة قارون - صاحب الأموال العظيمة - الذي كان من المفسدين ، وكان يتمنى ما عنده كل من حوله ولم ينج من فتنة ذلك إلا من كان من أهل العلم الراسخين . فخرج على قومه مستكبراً متزيناً بالعجب والغرور حتى خسف الله به الأرض ليكون عبرة للمعتبرين .

فقوله : ﴿ إِنَّا قَرَأْنَا كِتَابَكَ مِنْ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ فَبَعَثْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ - فيه تأويلان :

1 - قال القاسمي : (أي من شاكلتهم في الكفر والطغيان . وقوم موسى ، جماعته الذين أرسل إليهم ، وهم القبط وطاغيتهم فرعون ﴿ فَبَعَثْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ أي بالكبر والاستطالة عليهم ، لما غلب عليهم الحرص ومحبة الدنيا ، لغروره وتعززه برؤية زينة نفسه) .

2 - قال النسفي : (كان إسرائيلياً ابن عم لموسى) . قال : وكان يسمى المُنُورَ لِحُسْنِ صوته ، وكان أقرأ بني إسرائيل للتوراة ولكنه نافع كما نافع السامري ﴿ فَبَعَثْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ من البغي وهو الظلم ، قيل : ملكه فرعون على بني إسرائيل فظلمهم ، أو من البغي الكبر ، تكبر عليهم بكثرة ماله وولده ، أو زاد عليهم في الثياب شبراً) .

قلت : وقيل غير ذلك ، وأهمها ما سبق . والعبرة أنه كان قريباً من قوم موسى دون يقين راسخ بالله تعالى وتدير أمور خلقه وشؤونهم ، فأتاه المنصب والمال فكانت فتنته فيهما التي أفسدت عليه مصيره ، وجعله الله تعالى عبرة لمن يعتبر .

وقوله : ﴿ وَءَايَنَّهُ مِنَ الْكُؤُوزِ مَا إِن مَفَاتِحَهُ لَنُؤُوا بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ ﴾ .

أي : وآتاه الله من وفرة الأموال ما تحتاج العصبة لتنهض بمفاتيح خزائنه .

قال ابن كثير : (﴿ وَءَايَنَّهُ مِنَ الْكُؤُوزِ ﴾ أي : الأموال . ﴿ مَا إِن مَفَاتِحَهُ لَنُؤُوا بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ ﴾ ، أي : لثقل حملها الفئام من الناس لكثرتها) .

قلت : وأصل تنوء - في لغة العرب - من نوأ . وناء فلان بِالْحِمْلِ إذا نهَضَ بِهِ مُثْقَلًا . قال الرازي : (وناء به الحِمْلُ أَثْقَلَهُ ، ومنه قوله تعالى : ﴿ لَنُؤُوا بِالْعُصْبَةِ ﴾ أي لَتَنِيءُ الْعُصْبَةُ بِثِقَلِهَا) .

وقد ورد في التفاسير هنا من المبالغات الكثيرة في وصف تلك المفاتيح دون دليل

صحيح تقوم به الحجة ، فنكتفي بمجمل التنزيل ودلالته البليغة دون خوض فيما لا فائدة منه .

وقوله : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ .

أي : أرشده صالحو قومه أن لا تبطر فيما وهبك الله من هذه الأموال الكثيرة ، فإن الله تعالى لا يحب أهل البطر والكبر والغرور .

قال ابن عباس : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ : يعني المرحين . وقال مجاهد : (يعني الأشرين البطرين ، الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم) .

فالفرح هنا بمعنى العجب والغرور ، والكبر الذي يدفع إلى الظلم والشرور .

قال مجاهد : (هو فرح البغي) .

أخرج ابن عدي والعقيلي بسند حسن لغيره عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : [لو لم تكونوا تذبون خشيت عليكم أكثر من ذلك : العجب] ⁽¹⁾ .

ورواه البيهقي بسند حسن عن أنس كذلك بلفظ : [لو لم تكونوا تذبون ، لخفت عليكم ما هو أكبر من ذلك ، العجب العجب] .

وقوله : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ .

قال ابن كثير : (أي : استعمل ما وهبك الله من هذا المال الجزيل والنعمة الطائلة في طاعة ربك والتقرب إليه بأنواع القربات التي تحصل لك الثواب في الدار الآخرة . ﴿ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ ، أي : ما أباح الله فيها من المأكول والمشرب والملابس والمساكين والمنائح ، فإن لربك عليك حقاً ، ولنفسك عليك حقاً ، ولأهلك عليك حقاً ، ولزورك ⁽²⁾ عليك حقاً ، فات كل ذي حق حقه) .

وقوله : ﴿ وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ .

قال النسفي : ﴿ وَأَحْسِنْ ﴾ إلى عباد الله ﴿ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ . أو : أحسن بشورك وطاعتك لخالق الأنام كما أحسن إليك بالإنعام) .

(1) حديث حسن . أخرجه العقيلي (171) ، وابن عدي (164/1) ، والقضاعي في «مسند الشهاب» (117/1) ، وحسنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (658) ، ورواه البيهقي وغيره . وانظر صحيح الجامع (5179) للرواية الثانية .

(2) ولزورك : أي زوارك الذين يزورونك .

وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾. قال القرطبي: (أي لا تعمل بالمعاصي).

وقال ابن جرير: (يقول: ولا تلتمس ما حرّم الله عليك من البغي على قومك. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ يقول: إن الله لا يحب بؤساء البغي والمعاصي).

وقوله: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾. قال قتادة: (على خبر عندي).

وقال ابن زيد: (قال: لولا رضا الله عني ومعرفته بفضلي ما أعطاني هذا).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 - قال تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا نَحْمًا إِذَا حَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الزمر: 49] أي: على علم من الله بي وباستحقاقي وفضلي.

2 - وقال تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَذْقَنَهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لِيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ [فصلت: 50].

وإنما هذه فتنة واستدراج من الله تعالى للمغرورين والمستكبرين يعقبها النعمة وحلول العذاب.

فقد أخرج الإمام أحمد في المسند ، وابن جرير في «التفسير» بسند صحيح عن عقبة ابن عامر مرفوعاً: [إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج. ثم تلا: ﴿فَلَمَّا دُسُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾⁽¹⁾].

وقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾.

أي: لو كان الله يعطي الأموال والقوة كُلَّ من يحب ، لما أهلك أرباب الأموال وأصحاب القوة عبر الزمان. قال ابن كثير: (أي: قد كان من هو أكثر منه مالاً وما كان ذلك عن محبة منا له ، وقد أهلكهم الله مع ذلك بكفرهم وعدم شكرهم ، ولهذا قال: ﴿وَلَا يَسْتَلْ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ ، أي: لكثرة ذنوبهم).

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (4/ 145) ، وابن جرير في «التفسير» (7/ 115) ، وقال الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (4/ 115): «رواه أحمد والطبراني والبيهقي في «الشعب» بسند حسن». وانظر السلسلة الصحيحة (414).

وقوله: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ - فيه أقوال متقاربة متكاملة:

1 - قال الحسن: (أي لا يسألون سؤال استعتاب كما قال: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [النحل: 84]. ﴿فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت: 24]. وإنما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ لقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: 92].

2 - قال مجاهد: (لا تسأل الملائكة غداً عن المجرمين ، فإنهم يعرفون بسيماهم ، فإنهم يحشرون سود الوجوه زرق العيون).

3 - وقال قتادة: (لا يسأل المجرمون عن ذنوبهم لظهورها وكثرتها ، بل يدخلون النار بلا حساب).

4 - وقيل: لا يسأل مجرمو هذه الأمة عن ذنوب الأمم الخالية الذين عذبوا في الدنيا.

وقيل: أهلك من أهلك من القرون على علم منه بذنوبهم فلم يحتج إلى مسألتهم عن ذنوبهم. ذكره القرطبي.

وقوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَبِئْسَ لَنَا مَثَلٌ مَّا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾.

قال ابن كثير: (يقول تعالى مخبراً عن قارون: أنه خرج ذات يوم على قومه في زينة عظيمة ، وتَجَمَّلَ بِهَا ، مِنْ مَرَاقِبَ وَمَلَابِسَ عَلَيْهِ وَعَلَى خَدَمِهِ وَحَشَمِهِ ، فلما رآه مَنْ يَرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَمِيلُ إِلَى زُخْرُفِهَا وَزِينَتِهَا تَمَنَّوْا أَنْ لَوْ كَانَ لَهُمْ مِثْلُ الَّذِي أُعْطِيَ ، يَبِئْسَ لَنَا مَثَلٌ مَّا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ، أي: ذو حظ وافر من الدنيا. فلما سمع مقالتهم أهل العلم النافع قالوا لهم: ﴿وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ ، أي: جزاء الله لعباده المؤمنين الصالحين في الدار الآخرة خير مما ترون ، كما في الحديث الصحيح: [يقول الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، واقروا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: 17].

قلت: وقد امتلأت كتب التفاسير بروايات لا تقوم بها الحجة في وصف الزينة التي خرج بها قارون على قومه بأشكالها وألوانها وأعدادها وغير ذلك مما لا حاجة إلى معرفته ، وإنما يكفينا العبرة بإجمال القرآن ، وأنها زينة عظيمة بهرت العيون وشغلت

القلوب ، ولكنها كانت في موضع غرور وكبر ، فكان مآلها التدمير والهلاك .

وقد أحسن الحافظ ابن كثير رحمه الله بتجاوز تلك الروايات والإتيان بكلام جامع مفيد كما سبق ، في حين أكثر مُعْظَمُ المفسرين من تلك الروايات .

وقوله : ﴿ وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الْأَصْكَرُونَ ﴾ . إمّا من تمام كلام أهل العلم ، أو هو كلام مستأنف . قال ابن جرير : (يعني بذلك : الذين صبروا عن طلب زينة الحياة الدنيا ، وآثروا ما عند الله من جزيل ثوابه على صالحات الأعمال على لذات الدنيا وشهواتها ، فجدّوا في طاعة الله ، ورفضوا الحياة الدنيا) .

وفي التنزيل نحو ذلك :

1 - قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر : 10] .

2 - وقال تعالى : ﴿ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة : 153] .

وفي جامع الترمذي بسند حسن عن أنس ، قال النبي ﷺ : [إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَى ، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ] ⁽¹⁾ .

وفي سنن الترمذي كذلك بإسناد حسن من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : [ما يزالُ البلاءُ بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله تعالى وما عليه خطيئة] ⁽²⁾ .

وقوله : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِمُ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ ﴾ .

هو إخبار عن نهاية الكبر والخيلاء ، والبطر والغرور وسبيل الأشقياء . فقد خسف الله بقارون وبداره التي فيها أمواله ومتاعه وزينته الأرض .

أخرج البخاري ومسلم عن الزُّهري ، قال : أخبرني سالمٌ : أنَّ ابن عمر حَدَّثَهُ أَنَّ

(1) حديث حسن . أخرجه الترمذي (2398) وقال : حديث حسن . وانظر سنن ابن ماجه (4024) من حديث أبي سعيد الخدري ، والحديث حسن في الشواهد .

(2) رواه الترمذي في السنن - حديث رقم - (2401) ، وقال حديث حسن صحيح . وإسناده حسن .

النبي ﷺ قال: [بينما رجلٌ يجرُّ إزارَهُ من الخِيَلَاءِ خُسِفَ بِهِ فهو يتجَلَّجَلُ في الأرضِ إلى يومِ القيامةِ] ⁽¹⁾.

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة يقول: قال النبي ﷺ - أو قال أبو القاسم ﷺ -: [بينما رجلٌ يمشي في حُلَّةٍ تُعْجِبُهُ نَفْسُهُ ، مُرْجَلٌ جُمْتُهُ ، إِذْ خَسَفَ اللَّهُ بِهِ ، فهو يتجَلَّجَلُ إلى يومِ القيامةِ] ⁽²⁾.

وقوله: ﴿فَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾.

أي: فلم يكن له جند يستنجد بهم ، ولا فئة يرجع إليهم ، يلتمس منهم النجدة والنصر ، ولا كان هو ممن ينتصر من الله إذ أنزل عليه سخطه وأحلَّ به نقمته .

قال قتادة: ﴿فَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ﴾ أي جند ينصرونه ، وما عنده منعة يمتنع بها من الله).

وقوله: ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَآئُ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾.

قال قتادة: ﴿وَيَكَآئُ﴾ ألم تر أنه). وفي رواية: (أولا يعلم أنه). وقيل: ﴿ويكأن﴾: معناها: «ويلك اعلم أن». وقيل: «وي» للتعجب أو التنبيه ، وكأنَّ: بمعنى أحسب وأظن .

والمقصود: فلما رأى الذين تمنوا زينة قارون بالأمس ما حلَّ به من سخط الله ونقمته علموا أن المال ليس بدالٍّ على رضا الله عن صاحبه ، فإنه تعالى قد يعطي المال استدراجاً لعصاة عباده ، فهو الذي يُضَيِّقُ ويوسِّعُ ، ويخففُ ويرفعُ ، ويعطي ويمنع ، وإنما يقسم الأرزاق بين عباده بحكمته جل ثناؤه .

أخرج الإسماعيلي في «المعجم» بسند صحيح عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: [إنَّ الله قَسَمَ بينكم أخلاقكم كما قَسَمَ بينكم أرزاقكم ، وإنَّ الله يعطي الدنيا من يحبُّ ومن لا يحبُّ ، ولا يعطي الإيمان إلا من أحبَّ ، فمن ضنَّ بالمال أن ينفقه ، وخافَ

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (3485) ، كتاب أحاديث الأنبياء ، وكذلك (7590) ، كتاب اللباس ، ورواه مسلم (2088) من حديث أبي هريرة بنحوه .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (5789) ، كتاب اللباس . باب من جرَّ ثوبَهُ من الخِيَلَاءِ .

العدو أن يجاهدهُ ، وهابَ الليل أن يكابذهُ ، فليكثر من قول: سبحان الله ، والحمدُ لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر⁽¹⁾ .

وقوله: ﴿لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾ .

أي: لولا لطف الله ورحمته بنا لخسف بنا كما خسف بقارون الذي تمنينا مثل حاله بالأمس .

وقوله: ﴿وَيَكَاذِبُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ . قال ابن جرير: (يقول: ألم تعلم أنه لا يفلح الكافرون ، فتُنَجِّح طلباتهم) .

قال ابن كثير: (يعنون أنه كان كافراً ، ولا يفلح الكافرون عند الله ، لا في الدنيا ولا في الآخرة) .

83 - 84. قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾⁽²⁾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِمَّا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾⁽³⁾ .

في هذه الآيات: إعدادُ الله تعالى في الجنة منازل لأهل كرامته الذي كانوا على منهاج النبوة ولم يكونوا من المفسرين . وتضاعف الحسنات للمؤمنين ولا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون .

فقوله: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ .

قال عكرمة: (العلو: التجبر) . وقال سعيد بن جبير: (العلو: البغي) .

وقال سفيان الثوري: (العلو في الأرض: التكبر بغير حق . والفساد: أخذُ المال بغير حق) . وقال ابن جريج: ﴿لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ﴾ ، تعظماً وتجبراً ، ﴿وَلَا فَسَادًا﴾: عملاً بالمعاصي) .

والمقصود: إنّ الله تعالى أعدّ النعيم المقيم في دار الخلود لعباده الصالحين ،

(1) حديث صحيح في الشواهد . أخرجه الإسماعيلي في «المعجم» (1/114) ، وانظر مستدرك الحاكم (33/1) ، ومعجم الطبراني «الكبير» (8990) ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (2714) ، وذكر الألباني أنه موقوف في حكم المرفوع ، وأورد له بعض الشواهد المرفوعة .

المؤمنين المتواضعين، المخبتين المتذللين لأمره وشرعه، الذين يريدون إعلاء كلمته في الأرض والحكم بشريعته، ولا يبغيون ظملاً ولا تكبراً، ولا تجبراً ولا نشراً للمعاصي والآثام.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 - قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء: 18 - 19].

2 - وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْنِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: 15 - 16].

3 - وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ [مريم: 63].

ومن صحيح السنة العطرة في آفاق هذه الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» بسند حسن لغيره عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال: [ما من آدمي إلا في رأسه حكمة بيد ملك، فإذا تواضع قيل للملك: ارفع حكمته، وإذا تكبر قيل للملك: ضع حكمته] (1).

قلت: والحكمة: موضع أعلى الناصية، كما هو معروف في كلام العرب.

الحديث الثاني: أخرجه مسلم وأبو داود وابن ماجه من حديث عياض بن حمار، عن النبي ﷺ أنه قال: [إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَقْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ] (2).

الحديث الثالث: خرّج مسلم في الصحيح عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال:

(1) حسن لشواهده. أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (1/182/3) من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنه، وقال الهيثمي في «المجمع» (82/8): «رواه الطبراني وإسناده حسن». وقال المنذري في «الترغيب» (16/4): «رواه الطبراني، والبخاري بنحوه من حديث أبي هريرة، وإسنادهما حسن». وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (538).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2865) ح (64)، كتاب الجنة ونعيمها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار. ورواه أبو داود (4895)، وابن ماجه (4214).

[لا يدخل الجنة مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ. قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا ، وَنَعْلُهُ حَسَنَةً. قَالَ: إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ ، الْكِبَرُ: بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمَطُ النَّاسِ] ⁽¹⁾.

وقوله: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾. قال قتادة: (أي: الجنة للمتقين).

والمقصود: إن غاية السرور والرضا وحسن الختام وحسن الاستقبال يوم القيامة إنما هو لأهل التقوى في جنات النعيم المقيم.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

قال قتادة: (﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾. أي: له منها حظٌ خير ، والحسنة: الإخلاص ، والسيئة: الشرك).

قال ابن كثير: (﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ أي: يوم القيامة ﴿فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾: أي ثوابُ الله خير من حسنة العبد ، فكيف والله يضاعفه أضعافاً كثيرة ، وهذا مقامُ الفضل . ثم قال: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: 90] ، وهذا مقامُ الفضلِ العَدْلِ).

وفي التنزيل نحو ذلك:

قال تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: 160].

وفي صحيح مسلم عن ابن عباس عن رسول الله - ﷺ - فيما يرويه عن ربه عز وجل ، قال: [إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ، ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً ، فَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمَلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِثَّةٍ ضَعْفٍ إِلَى أضعاف كثيرة ، وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً ، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمَلَهَا ، كَتَبَهَا اللَّهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً] ⁽²⁾.

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (91) ، كتاب الإيمان ، باب تحريم الكبر وبيانه .

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (131) ، كتاب الإيمان . باب إذا همَّ العبد بحسنة كتبت ، وإذا همَّ بسيئة لم تكتب . وانظر كذلك الحديث (130) .

وفي رواية : [ولا يَهْلِكُ على الله إلا هالكٌ].

85 - 88. قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَأَدْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾] .

في هذه الآيات : إثبات المعاد إلى الله ليجزي نبيه ﷺ أجر المجاهدين الصابرين ، والله تعالى أعلم بعباده المهتدين ممن كان في ضلال مبين . وإعلام الله تعالى نبيه رحمته به بإنزال هذا القرآن ليثبتته على الحق ولئلا يكون ظهيراً للكافرين ، أو يزل في فتنه أهل الشرك والهووى فله الحكم وإليه جميع الخلق يرجعون .

فقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ ﴾ . قال مجاهد : (الذي أعطاك القرآن) .

أي : إن الذي أنزل عليك القرآن - يا محمد - وافترض عليك أداءه إلى الناس ﴿ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾ - وهو يوم القيامة ، فسائلك عما استرعاك من أعباء النبوة .

وقوله : ﴿ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾ فيه أقوال كثيرة :

1 - قال ابن عباس : ﴿ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾ : إلى مَعْدِنِكَ من الجنة . أو قال : (إلى الجنة) . وقال أبو سعيد الخدري : (معاده آخرته الجنة) .

2 - قال أبو مالك : (إلى الجنة ليسألك عن القرآن) .

3 - وقال مجاهد : ﴿ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾ قال : يجيء بك يوم القيامة) .

4 - وعن الحسن : (إي والله ، إن له لمعاداً يبعثه الله يوم القيامة ، ويدخله الجنة) .

5 - وعن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : ﴿ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾ قال : (إلى الموت) .

6 - روى البخاري عن عكرمة ، عن ابن عباس : ﴿ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾ قال : (إلى مكة) . وقال : (يقول : لَرَأْدُكَ إِلَى مكة ، كما أخرجك منها) . قال مجاهد : (إلى مولدك بمكة) .

قلت: والجمع ممكن بين هذه الأقوال: فإن الله تعالى افترض على رسوله ﷺ إبلاغ هذا القرآن الذي أنزله عليه، ثم هو سبحانه نصره على طغاة مكة حتى فتحها بعدما أخرجوه منها، ثم إنه تعالى قبضه إليه ثم إن الموعد بين يديه، ليشبهه على جهاده وقيامه بأعباء النبوة في جنة عرضها السماوات والأرض، هو خير من يدخلها ويستقر فيها.

وقوله: ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

أي: قل - يا محمد - لمن كذبك من قومك وأصر على مخالفتك، ولمن مضى على منهاجهم في الكفر: إن ربي هو أعلم بالمهتدي الذي هو على سبيل الهدى، وإذا سلكه نجا، ومن هو على منهاج الغي والضلال، يمضي على سبيل العمى، ويجور عن طريق الهدى.

وقوله: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَرْجُونَ أَن يُنْفِقَ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾.

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: وما كنت ترجو يا محمد أن ينزل عليك هذا القرآن، فتعلم الأنبياء والأخبار عن الماضين قبلك، والحادثة بعدك، مما لم يكن بعد، مما لم تشهد ولا تشهد، ثم تتلو ذلك على قومك من قريش، إلا أن ربك رحمك، فأنزله عليك، فقوله: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ استثناء منقطع).

وقوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ﴾.

قال ابن كثير: (أي: إنما أنزل الوحي عليك من الله من رحمته بك وبالعباد بسببك فإذا منحك بهذه النعمة العظيمة ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا﴾ أي: معيلاً. ﴿لِّلْكَافِرِينَ﴾، ولكن فارقه ونابذهم وخالفهم).

وقوله: ﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ ءَايَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ﴾. قال القرطبي: (يعني أقوالهم وكذبهم وأذاهم، ولا تلتفت نحوهم وامض لأمرك وشأنك).

والمقصود: لا تلتفت يا محمد إلى محاولات مكرة قومك في تكذيبك وصد الناس عنك، بل امض مستعيناً بربك، فإن الله ناصرك ومؤيدك.

وقوله: ﴿وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾. أي: إلى توحيده وإفراده بالعبادة والتعظيم.

وقوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. قال ابن جرير: (يقول: ولا تترك الدعاء إلى ربك، وتبليغ المشركين رسالته، فتكون ممن فعل فعل المشركين بمعصيته ربه، وخلافه أمره).

وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾.

قال ابن عباس: (الخطاب في الظاهر للنبي ﷺ والمراد أهل دينه).

وقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾. أي: لا معبود تصلح له العبادة إلا الله جل ثناؤه.

وقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾. فيه أكثر من تأويل:

التأويل الأول: كل شيء هالك إلا هو.

قال ابن كثير: (إخباراً بأنه الدائم الباقي الحي القيوم، الذي تموت الخلائق ولا يموث، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿الرحمن: 26 - 27﴾، فعبر بالوجه عن الذات، وهكذا قولنا ها هنا: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾، أي: إلا إياه).

التأويل الثاني: كل شيء هالك إلا ما ابتغي به وجهه.

قال مجاهد: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ أي: إلا ما أريد به وجهه).

قال البخاري في كتاب التفسير من صحيحه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾: إلا مُلْكُهُ، ويُقال: إلا ما أريد به وجهه الله).

التأويل الثالث: فيه إثبات صفة الوجه لله تعالى.

والتقدير: كل شيء هالك إلا الله الذي له الوجه الكريم.

قال البيهقي: (تكرر ذكر الوجه في القرآن والسنة الصحيحة وهو في بعضها صفة ذات، كقوله ﷺ: «إلا رداء الكبرياء على وجهه». وفي بعضها بمعنى من أجل، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نَطَعُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ﴾. وفي بعضها بمعنى الرضى كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِهِ الْأَعْلَى﴾).

قلت: ولا منافاة بين هذه الأقوال، فإنه يفنى كل شيء إلا الله ذو الوجه الكريم، وتبقى الباقيات الصالحات التي قصد بها وجهه جل ثناؤه. وكذلك تحمل الآيات والأحاديث على إثبات تلك الصفة له جل ذكره - صفة الوجه - وعلى المعاني الطيبة الأخرى.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1- قال تعالى: ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: 27].

2- وقال تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾ [البقرة: 272].

3- وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُطْعَمُونَ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا تَرْبُدُ مِنْكَ جَزَاءٌ وَلَا شُكْرًا﴾ [الإنسان: 9].

وفي صحيح مسلم عن أبي موسى قال: [قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَنَامُ ، وَلَا يَنَبِّغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ ، حِجَابُهُ النُّورُ ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ⁽¹⁾].

فهذا الحديث العظيم ، فيه إثبات كثير من صفاته جل ذكره ، كصفة الوجه ، وصفة البصر ، وصفة خفض القسط ورفع ، وصفة القيومية على عباده فهو سبحانه لا ينام لكمال حياته وقيوميته ، وصفات أخرى جلية يمكن استنباطها من هذا النص النبوي الكريم.

وقوله: ﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾. قال النسفي: (القضاء في خلقه). وقال القاسمي: (أي القضاء النافذ في الخلق).

قلت: والمقصود ، أَنَّ الله تعالى له الملك والتصرف فهو الحاكم الذي سُلِّمَ له الحكم وَرُذِّدَ إليه .

كما في التنزيل :

1- قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصِّلِينَ﴾ [الأنعام: 57].

2- وقال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: 50].

3- وقال تعالى: ﴿أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر: 46].

وقد ثبت في السنة الصحيحة أن من أسمائه الحسنی: «الْحَكَمَ» .

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (179)، وأخرجه الطيالسي (491)، وأحمد (4/395)، ورواه ابن ماجة (195)، وابن حبان (266) من حديث أبي موسى.

ففي صحيح سنن أبي داود والنسائي عن هانئ بن يزيد ، عن النبي ﷺ قال : [إن الله هو الحَكَمُ ، وإليه الحُكْمُ]⁽¹⁾ .
 وقوله : ﴿وَالَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ . أي : إليه تردون يوم معادكم ، فيقضي بينكم بالعدل ، فيثيب مؤمنكم ويعاقب كافرکم .

تمّ تفسير سورة القصص
 بعون الله وتوفيقه ، وواسع منه وكرمه



(1) حديث صحيح . أخرجه أبو داود في السنن (4955) ، وانظر صحيح سنن أبي داود (4145) ، وأخرجه النسائي وغيره . انظر صحيح الجامع (1841) ، وكذلك «إرواء الغليل» (2682) .

دروس ونتائج وأحكام

- 1- هل تنصرون إلا بضعفائكم ، بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم .
- 2 - مكر الله بالطغاة من حيث لا يشعرون ، ورعاية الله المجاهدين من أوليائه الصالحين ، وجعله تعالى العاقبة للمتقين .
- 3- عجباً للمؤمن لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له .
- 4- الندم توبة ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له .
- 5- مقام العبودية يقتضي التذلل إلى الله والاعتراف له تعالى بالافتقار .
- 6- الصداق حق المرأة على الرجل ، وهو ملك لها ، ولا يحل لأحد التصرف فيه .
- 7- قضى موسى عليه السلام أوفى الأجلين وأكملهما وأتمهما وأبرهما .
- 8 - لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة ، ويظهر هذا الدين حتى يجاوز البحار ، وحتى تخاض بالخيال في سبيل الله .
- 9- جعل جبريل يدسّ الطين في فم فرعون خشية أن تدركه الرحمة .
- 10 - ما أهلك الله قوماً ، ولا قرناً ، ولا أمةً ، ولا أهل قرية ، منذ أنزل التوراة على وجه الأرض بعذاب من السماء غير أهل القرية التي مسخت قرده .
- 11 - مَنْ آمَنَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ بِنَبِيِّهِ وَأَدْرَكَ النَّبِيَّ ﷺ فَأَمَّنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ وَصَدَقَهُ فَلَهُ أَجْرَانِ .
- 12 - أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة رجل ، يوضع في أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه .
- 13 - إذا ظهر السوء في الأرض أنزل الله عز وجل بأسه بأهل الأرض .

- 14 - لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً قطرة ماء . ومن يدخل الجنة ينعم لا يئأس ، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه .
- 15 - قال الله تبارك وتعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، مَنْ عمل عملاً أشرك فيه معي غيري ، تركته وشركه .
- 16 - يُسألُ العبد في قبره عن أصول دينه : من ربك ؟ ما دينك ؟ ما كنتَ تقول في هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ هل رأيت الله ؟
- 17 - إن الله تعالى هو الحَكَمُ وإليه الحُكْم .
- 18 - إِنَّ الله عَزَّ وجلَّ يبسط يده بالليل ليتوب مُسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مُسيء الليل ، حتى تطلع الشمس من مغربها .
- 19 - إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم وأموالكم ، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم .
- 20 - بينما رجل يجرُّ إِزاره من الخيلاء خُسِفَ بِهِ فهو يتجلجلُ في الأرض إلى يوم القيامة .
- 21 - ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله تعالى وما عليه خطيئة .
- 22 - إن الله جميل يحب الجمال ، الكبير : بطرُ الحق وغمَطُ الناس .
- 23 - من هم بالحسنة فلم يعملها كتبت حسنة فإن عملها كتبها الله عز وجل عنده عشر حسنات إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة . ولا يهلك على الله إلا هالك .
- 24 - حجاب الله تعالى النور ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه .
- 25 - إثبات صفة الوجه لله ، وصفة البصر ، وصفة خفض القسط ورفع ، وصفة القيومية ، فهو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم .

29



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (69)

موضوع السورة

الشرك ووهن أهله في الدارين
كوهن بيت العنكبوت لو كانوا يعلمون
والنصر والعاقبة للمحسنين والمجاهدين

- منهاج السورة -

- 1 - سنة الله في اختبار المؤمنين ، لبيان الصادقين وكشف المنافقين .
- 2 - بيان سبيل النجاة المتضمن للإيمان والجهاد والعمل الصالح ، والله يجزي المحسنين .
- 3 - الوصية ببر الوالدين والإحسان إليهما ، وترك طاعتهما في المعصية ، والإخبار بما أعد الله في الجنة لعباده الصالحين .
- 4 - سقوط كثير من الناس في الفتن ، وسلوك المنافقين عند الغنائم ، والله تعالى أعلم بالمؤمنين الصادقين والمنافقين الكاذبين .
- 5 - استهتار الكافرين بحمل الأوزار ، وسيحملون أوزاراً مع أوزارهم ، وليسألن عما كانوا يفترون .

- 6 - إرسال الله تعالى نبيّه نوحاً ﷺ ، ومكنه فيهم طيلة ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله ، وهم يصرون على الكفر حتى أخذهم الطوفان وهم ظالمون ، وأنجى الله برحمته المؤمنين .
- 7 - دعوة إبراهيم ﷺ قومه ، وتحذيره لهم مغبة الشرك ومصير الأمم الهالكة .
- 8 - احتجاج الله تعالى على منكري المعاد والبعث ، ودعوتهم للنظر في بدء الخلق .
- 9 - مكر الكفار بإبراهيم ، ونجاته من النار بإذن الله ، وتحذيره لهم الإصرار على الكفر .
- 10 - تصديق لوط وهجرته وإبراهيم - عليهما الصلاة والسلام - إلى الله العزيز الحكيم ، وإكرامه تعالى إبراهيم بإسحاق ويعقوب وجعله النبوة في ذريته وهو في الآخرة من الصالحين .
- 11 - تحذير لوط قومه مغبة الإصرار على الفاحشة التي ما سبقهم إليها أحد من العالمين ، واستعجال القوم العذاب حتى لجأ لوط إلى الله طالباً النصر على القوم المفسدين .
- 12 - بث الملائكة البشري لإبراهيم عليه السلام بولد صالح وبإهلاك القوم الظالمين . ووصول الرسل إلى لوط ﷺ وخوفه عليهم حتى بشروه بهلاك القوم المفسدين .
- 13 - قصة شعيب وقومه ، وخبر الأمم الكثيرة : كعاد وثمود وقارون وفرعون وهامان ، وقصة إهلاكهم بالصيحة أو الخسف أو الريح أو الطوفان .
- 14 - تمثيل تعلق المشركين بألهتهم كالمعلق بشبكة العنكبوت لا تفيد شيئاً .
- 15 - خلق الله السماوات والأرض بالحق ، ودعوته الرسول والمؤمنين لتلاوة الوحي وإقام الصلاة ، ولذكر الله أكبر ، والله عليم بما يصنعون .
- 16 - الدعوة لمجادلة أهل الكتاب بالحسن ، وهذا القرآن آيات بينات في صدور أهل العلم ، وهو أكبر معجزة في الأرض إلى قيام الساعة .
- 17 - استعجال المشركين العذاب ، والعذاب قريباً سيغطيهم من فوقهم ومن تحتهم .
- 18 - النصيحة بالهجرة إلى دار الإيمان ، فكل نفس ذائقة الموت ، ثم إلى الله ترجعون .
- 19 - المؤمنون العاملون للصالحات يسكنون الغرف يوم القيامة ، تجري من تحتها الأنهار ثواباً لهم مقابل صبرهم وحسن توكلهم .

- 20- ما من دابة ممن لا يستطيع ادخار رزقه لغد إلا والله رازقها وإياكم .
- 21- إقرار المشركين أن الله تعالى خالق السماوات والأرض ومسخر الشمس والقمر ثم هم يشركون .
- 22- بسطُ الله تعالى الرزق وتضييقه بحكمته ، والكفار مقرّون أنه - تعالى - المنزل للماء من السماء ليحيي به الأرض الميتة ثم هم به يعدلون .
- 23- إعلامُ الله تعالى بغرور هذه الحياة الدنيا ، وأن العيش عيش الآخرة .
- 24- إخلاص المشركين الدعاء لله عند الهلاك في البحر ، وامتنان الله عليهم بنعمة الحرم الآمن .
- 25- جعل الله في جهنم مثوى للمتكبرين ، وكتب الهداية والنصر للمجاهدين ، وإنه تعالى لَمَعَ المحسنين .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

1 - 7. قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ ١ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ٢ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْفِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ٣ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٤ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ٥ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ٦﴾ .

في هذه الآيات: تقريرُ الله تعالى سنته في اختبار المؤمنين وكشف الصادق من الكاذب وفضح المنافقين . وإخباره - جلّت صفاته - عن سبيل النجاة المتضمن الإيمان والجهاد والعمل الصالح والله يجزي المحسنين .

فقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ . استفهام هذه الحروف المقطعة ، والتي تقتضي الإعجاز لهذا القرآن العظيم المؤلف من جنس هذه الأحرف ، ومع ذلك فالخلق عاجزون عن معارضته بمثله .

وقوله تعالى: ﴿أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ . استفهام إنكار ، والمقصود: أظنّ الناس أن يدعوا الإيمان دون أن يحصل لهم من ربهم اختبار يبين صدق دعواهم . قال مجاهد: ﴿ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ قال: يَبْتَلُونَ في أنفسهم وأموالهم . وقال قتادة: ﴿وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾: أي لا يَبْتَلُونَ .

وفي التنزيل نحو ذلك :

1 - قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الضَّالِّينَ﴾ [آل عمران : 142] .

2 - وقال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَكْمِلُنَّ الْبَاسَاءَ وَالضَّرَاءَ وَوَرِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: 214].

3 - وقال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوَنَّكُمْ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد: 31].

ومن صحيح السنة المطهرة في آفاق هذه الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج ابن ماجة والحاكم بسند صحيح من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً: [أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الصالحون ، إن كان أحدهم ليتلى بالفقر ، حتى ما يجد أحدهم إلا العباءة التي يحويها ، وإن كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء]⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد في المسند بسند حسن عن أبي عبيدة بن حذيفة عن عمته فاطمة أنها قالت: [أتينا رسول الله ﷺ ، نعوذه في نسائه ، فإذا سقاء معلق نحوه يقطر ماؤه عليه من شدة ما يجد من حر الحمى ، قلنا: يا رسول الله لو دعوت الله فشفاك . فقال رسول الله ﷺ: إن من أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم]⁽²⁾.

الحديث الثالث: أخرج الترمذي وابن ماجة وابن حبان بسند جيد عن مصعب بن سعد عن أبيه قال: قلت لرسول الله ﷺ: أي الناس أشد بلاء؟ قال: فقال: [أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل ، يتلى الرجل على حسب (وفي رواية: قدر) دينه ، فإن كان دينه صلباً اشتد بلاؤه ، وإن كان في دينه رقة ، ابتلي على حسب دينه ، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة]⁽³⁾.

الحديث الرابع: أخرج الترمذي وابن ماجة بإسناد حسن عن أنس عن النبي ﷺ قال:

- (1) حديث صحيح . أخرجه ابن ماجة (4024) ، والحاكم (307/4) ، وابن سعد (2/208).
- (2) حديث حسن . أخرجه أحمد (6/369) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (145).
- (3) حديث صحيح . أخرجه الترمذي (64/2) ، وابن ماجة (4023) ، والدارمي (2/320) ، والطحاوي (3/61) ، وابن حبان (699) ، والحاكم (40/1 - 41) ، وأحمد (1/172) ، وسنده جيد رجاله كلهم ثقات معظمهم رجال الشيخين .

[إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ ، وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا ، وَمَنْ سَخَطَ فَلَهُ السَّخَطُ] (1).

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ .
أي: ولقد اخترنا الذين مضوا من الأمم قبل أمتك - يا محمد - ، وَلَيُظْهِرَنَّ اللَّهُ صِدْقَ الصَّادِقِينَ وَكَذِبَ الْكَاذِبِينَ .

قال مجاهد: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ : ابتلينا الذين من قبلهم).

والعلم هنا بمعنى الإظهار. قال ابن عباس: («إلا لنعلم»: إلا لنرى). وكذلك الآيات المشابهة ، فإن الله عليم بما كان ويكون وسيكون وما لن يكون كيف لو كان يكون. قال ابن كثير: (وذلك أن الرؤية إنما تتعلق بالموجود ، والعلم أعم من الرؤية ، فإنه يتعلق بالمعدوم والموجود). وقال القرطبي: (ولكن القصد قصد وقوع العلم بما يجازي عليه).

قال ابن عطاء: (يتبين صدق العبد من كذبه في أوقات الرخاء والبلاء ، فمن شكر في أيام الرخاء وصبر في أيام البلاء فهو من الصادقين ، ومن بطر في أيام الرخاء وجزع في أيام البلاء فهو من الكاذبين).

وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْفِهُنَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ .

أي: أم ظنَّ الذين يجترحون السيئات أن يفوتونا فَيَفْزُوا من الفِتْنَةِ والبلاء ، والامتحان في الشدة والرخاء ، كلا فإن من ورائهم العقوبة والنكال ، وَوُرُودُ أَسْوَأِ الْأَحْوَالِ .

قال قتادة: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ أي: الشرك). وقال مجاهد: ﴿أَنْ يَسْفِهُنَا﴾ : أن يعجزونا). وقال القاسمي: ﴿أَنْ يَسْفِهُنَا﴾ أي يفوتونا ، فلا نقدر على مجازاتهم بمساوئ أعمالهم ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي بشس الذي يحكمونه حكمهم).

وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ .

أي: من كان يرجو الله عند لقائه ، ويطمع في ثوابه ، والنجاة من عذابه ، فإن أجل الله الذي أجله لبعث عباده وإكرام أوليائه لَاتٍ قريباً ، وهو السميع لدعاء عباده

ورجائهم ، العليم بصدق إيمانهم من كذب توجههم . فليبادر الصادق إلى إثبات صدقه بالإيمان والعمل الصالح .

وقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ .

قال النسفي: ﴿ وَمَنْ جَاهَدَ ﴾ نفسه بالصبر على طاعة الله ، أو الشيطان بدفع وساوسه ، أو الكفار ﴿ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ﴾ لأن منفعة ذلك ترجع إليها . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ وعن طاعتهم ومجاهدتهم وإنما أمر ونهى رحمة لعباده .

وقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

قال القرطبي: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي: صدقوا ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ أي: لنعطئنها عنهم بالمغفرة لهم ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي بأحسن أعمالهم وهو الطاعات .

قلت: ويشمل هذا من كان في الجاهلية ثم أحسن في الإسلام . فقد أخرج الحاكم بسند حسن عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [لَيَتَمَنَّيَنَّ أَقْوَامٌ لَوْ أَكْثَرُوا مِنَ السَّيِّئَاتِ ، قالوا: بِمَ يا رسول الله؟ قال: الذين بدَّلَ الله سيئاتهم حسنات] (1) .

8 - 9 . قوله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ۝ ﴾ .

في هذه الآيات: وصية الله الإنسان ببر الوالدين والإحسان إليهما وترك طاعتهما في معصيته ولكن مصاحبتهما بالمعروف والله عليم بالمتقين . وإخباره تعالى عن جميل ما أعد في الجنة لعباده الصالحين .

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن مصعب بن سعد عن أبيه أنه نزلت فيه آيات من القرآن قال: [حلفت أم سعد ألا تكلمه أبداً حتى يكفر بدينه ولا تأكل ولا تشرب . قالت: زعمت أن الله وصاك بوالديك وأنا أمك وأنا أمرك بهذا . قال: مكثت ثلاثاً حتى

(1) حديث حسن . أخرجه الحاكم (4/ 252) ، بإسناد حسن . وانظر السلسلة الصحيحة (2177) .

غشي عليها من الجهد ، فقام ابن لها يقال له عمارة فسقاها فجعلت تدعو على سعد ،
فأنزل الله عز وجل في القرآن هذه الآية : ﴿ وَصَيْنَا الْإِنْسَانَ بُولَدِيهِ حُسْنًا ﴾ [العنكبوت : 8] ،
﴿ وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾
[لقمان : 15] ⁽¹⁾ .

فالآية أمرٌ من الله تعالى عباده بالإحسان إلى الوالدين بعد أمره جلّ ثناؤه بإحسان
العبادة إليه ، وإفراده بالتعظيم والاستعداد للوقوف بين يديه ، فإن برّ الوالدين من أحسن
الأعمال ، فهما سبب وجوده ، وهما ينبع العطف والحنان عليه ، فالوالد بالإنفاق ،
والوالدة بالإشفاق ، وقد ربط الله تعالى برّهما ببره ، وعلّق هذا الرحم بعرضه ،
فالإحسان إليهما واجب كبير ، والإساءة إليهما شر مستطير ، فإن أمراه بشارك أو كفر فلا
يتابعهما ولكن يصاحبهما بالمعروف .

وفي التنزيل نحو ذلك :

1 - قال تعالى : ﴿ وَفَصَّيْنَا رَبِّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ
الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَمْرًا وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ [الأعراف : 23 - 24] .

2 - وقال تعالى : ﴿ وَوَصَيْنَا الْإِنْسَانَ بُولَدِيهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفَصَّلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ
أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَىٰ الْمَصِيرِ ﴾ [لقمان : 14] .

3 - وقال تعالى : ﴿ وَوَصَيْنَا الْإِنْسَانَ بُولَدِيهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ
وَفَصَّلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾ [الأحقاف : 15] .

ومن كنوز السنة الصحيحة في ذلك أحاديث :

الحديث الأول : روى مسلم في صحيحه عن أسماء قالت : [قلت : يا رسول الله ! إن
أمي قدمت عليّ ، وهي راغبة - أو راهبة - أفأصليها؟ قال : نعم] .

وفي رواية : قالت أسماء بنت أبي بكر : [قلت : يا رسول الله ! قدمت عليّ أمي وهي
مُشْرِكَةٌ ، في عهد قريش إذ ⁽²⁾ عاهدتهم ، فاستفتيتُ رسولَ الله ﷺ ، قلت :

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم (1748) - كتاب فضائل الصحابة ، باب في فضل سعد بن

أبي وقاص ، رضي الله عنه ، في أثناء حديث طويل .

(2) قال الحافظ ابن حجر : (أرادت بذلك ما بين الحديبية والفتح ، أي مدة عهد قريش) .

يا رسول الله! قَدِمْتُ عَلَى أُمِّي وهي رَاغِبَةٌ ، أَفَأَصِلُ أُمِّي؟ قال: نعم ، صِلِي أُمَّكَ⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: [سألت النبي ﷺ: أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى؟ قال: الصَّلَاةُ عَلَى وَجْهِهَا. قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قال: بِرُّ الْوَالِدَيْنِ. قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قال: الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ]⁽²⁾.

الحديث الثالث: روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [لَا يَجْزِي وَلَدٌ وَالِدًا إِلَّا أَنْ يَجِدَهُ مَمْلُوكًا ، فَيَشْتَرِيَهُ ، فَيُعْتِقَهُ]⁽³⁾.

وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ.

أي: المرجع والمآل إليه تعالى فيجازي عباده بأعمالهم ، فالذين صدقوه الإيمان وأكدوا ذلك بالعمل الصالح سيدخلهم سبحانه في كرامة عباده الصالحين .

وفي الآية فائدة جليلة ، فإنه تعالى عطف العمل الصالح على بر الوالدين ، وكأن المقصود أن أفضل ذلك العمل بعد الإيمان بالله هو مباشرة رضى الوالدين ، فهو طريق السعادة في الدارين .

أخرج البخاري في «الأدب المفرد» بإسناد صحيح عن ابن عباس ، أَنَّهُ أَتَاهُ رَجُلٌ فَقَالَ: [إِنِّي خَطَبْتُ امْرَأَةً فَأَبَتْ أَنْ تَنْكِحَنِي ، وَخَطَبْتُهَا غَيْرِي فَأَحَبَّتْ أَنْ تَنْكِحَهُ ، فَعِزْتُ عَلَيْهَا فَقَتَلْتُهَا ، فَهَلْ لِي مِنْ تَوْبَةٍ؟ قال: أُمَّكَ حَيَّةٌ؟ قال: لا ، قال: ثُبَّ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَتَقَرَّبْ إِلَيْهِ مَا اسْتَطَعْتَ . قال عطاء بن يسار: فَذَهَبْتُ فَسَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ: لِمَ سَأَلْتَهُ عَنْ حَيَاةِ أُمِّهِ؟ فَقَالَ: إِنِّي لَا أَعْلَمُ عَمَلًا أَقْرَبُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ بَرِّ الْوَالِدَةِ]⁽⁴⁾.

ثم روى في باب: «لين الكلام لوالديه» - عن طَيْسَلَةَ بْنِ مَيَّاسٍ قَالَ: [كُنْتُ فِي النَّجْدَاتِ⁽⁵⁾ ، فَأَصَبْتُ ذَنْبًا لَا أَرَاهَا إِلَّا مِنَ الْكِبَاثِرِ ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَابْنِ عَمْرِو قَالَ: مَا هِيَ؟ قُلْتُ: كَذَا وَكَذَا. قَالَ: لَيْسَتْ هَذِهِ مِنَ الْكِبَاثِرِ ، هُنَّ تَسْعُ: الْإِشْرَاقُ بِاللَّهِ ، وَقَتْلُ

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1003) - كتاب الزكاة ، باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين والزوج والأولاد والوالدين ، ولو كانوا مشركين. ح (49) ، ح (50).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (336/10) ، وأخرجه مسلم في الصحيح (85).

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1510) ، وأبو داود (5137) ، والترمذي (1907).

(4) حديث صحيح. أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (4) - باب بر الأم. وسنده صحيح.

(5) النَّجْدَات: أصحاب نجدة بن عامر الخارجي ، وهم قومٌ من الحرورية.

نسمة ، والفرار من الزحف ، وقذف المحصنة ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، وإلحاد في المسجد ، والذي يستسخر⁽¹⁾ ، وبكاء الوالدين من العقوق. قال لي ابن عمر: أتفرق⁽²⁾ من النار وتحب أن تدخل الجنة؟ قلت: إي ، والله! قال: أحبي والدك؟ قلت: عندي أمي. قال: فوالله! لو ألت لها الكلام وأطعمتها الطعام لتدخلن الجنة ما اجتنبت الكبائر⁽³⁾.

وفي مسند الإمام أحمد والطيالسي بسند صحيح عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [الوالد أوسط أبواب الجنة]⁽⁴⁾.

10 - 11. قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾﴾.

في هذه الآيات: سقوط كثير من الناس عند هبوب رياح الفتن مع الساقطين ، فإذا كان الرخاء والنصر وتدقق النعم طالبوا إشراكهم في الغنائم ليكونوا من الفرحين. والله تعالى هو أعلم بالمؤمنين الصادقين والمنافقين الكاذبين.

فقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾. قال ابن عباس: (فتنته أن يرتد عن دين الله إذا أُوذِيَ في الله). وقال مجاهد: (أناس يؤمنون بألستهم ، فإذا أصابهم بلاء من الله أو مصيبة في أنفسهم افتتنوا ، فجعلوا ذلك في الدنيا كعذاب الله في الآخرة).

والآية إخبار عن قوم يدعون بالإيمان بألستهم ، فإذا جاءت الفتن والمحن سقطوا وانتكسوا ورجعوا إلى الكفر والضياع.

(1) يستسخر: الاستسخر من السخرية واللمز.

(2) أتفرق من النار: الفَرَق ، الخوف والفرع.

(3) حديث صحيح. انظر: «صحيح الأدب المفرد» - (6) ، باب لين الكلام لوالديه.

(4) صحيح الإسناد. أخرجه أحمد (5/196) ، وابن ماجه (2089) ، والحاكم (4/152) ، والطيالسي

في «مسنده» (981) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة - حديث رقم - (913).

كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج: 11].

أخرج ابن جرير ورجاله ثقات عن ابن عباس قال: [كان قوم من أهل مكة أسلموا وكانوا يستخفون بالإسلام ، فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم ، فأصيب بعضهم وقتل بعض . فقال المسلمون: كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأكرهوا فاستغفروا لهم ، فنزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ أَلْمَلِكُكُمْ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ﴾ [النساء: 97] إلى آخر الآية . قال: وكتب إلى من بقي بمكة من المسلمين هذه الآية لا عذر لهم قال: فخرجوا فلحقهم المشركون فأعطوهم الفتنة فنزلت هذه الآية: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةً لِلنَّاسِ كَذَّابٍ فَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ إلى آخر الآية . فكتب المسلمون إليهم بذلك فخرجوا وأيسوا من كل خير ، ثم نزلت فيهم: ﴿ثُمَّ إِنَّكَ رَبُّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنَّا بَعْدَ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّكَ رَبُّكَ مِن بَعْدِهَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [النحل: 110] فكتبوا إليهم بذلك إن الله قد جعل لكم مخرجاً فخرجوا فأدركهم المشركون فقاتلوهم ثم نجا من نجا وقتل من قتل⁽¹⁾.

وقوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ .

أي: ولئن جاء نصر من ربك - يا محمد - لأهل الإيمان وفتح ومغانم ، ليقولن هؤلاء لكم: إنا كنا معكم ننصركم على أعدائكم ، ونحن إخوانكم في الدين . أو ليس الله بأعلم بما تخفيه قلوبهم وما تكنه صدورهم!!

وفي التنزيل نحو ذلك:

- قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَرْتَابُونَ بَيْنَهُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ تَكُن مَّعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ تَسْتَحِذْ عَلَيْنَا وَنَمْنَعَكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: 141].

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [تَعَسَّ عَبْدُ الدُّيْنَارِ وَعَبْدُ الدَّرْهِمِ وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَّ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ ، تَعَسَّ وَانْتَكَسَ ، وَإِذَا شَيْكَ فَلَا انْتَقَشَ ، طَوْبَى لِعَبْدٍ أَخَذَ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَشْعَثَ

(1) أخرجه ابن جرير في «التفسير» (27706) - وقال الهيثمي رجاله رجال الصحيح ، غير محمد بن شريك هو ثقة . وانظر: «الصحيح المسند من أسباب النزول» - الوادعي - النحل (110).

رأسه ، مُغْبَرَّةٌ قدماءه ، إن كان في الحِرَاسَةِ كان في الحِرَاسَةِ ، وإن كان في السَّاقَةِ كان في السَّاقَةِ . [الحديث (1)] .

وقوله تعالى: ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴾ .

أي : ولَيَمِيزَنَّ الله أوليائه وحزبه أهل الإيمان و الثبات على الحق بالابتلاء في السَّراء والضراء ، وكذلك لَيَمِيزَنَّ أهل النفاق بالمحن والاختبار والابتلاء . فإنه بالاختبار يَتَمِيز هؤلاء من هؤلاء ، وَبِغَيْرِ ذَلِكَ فَالادِّعَاءُ سَهْلٌ وَأَكْثَرُ النَّاسِ يَزْعُمُونَ وَيَدَّعُونَ .

وفي التنزيل نحو ذلك :

1 - قال تعالى: ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف : 103] .

2 - وقال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوَنَّكُمْ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد : 31] .

3 - وقال تعالى: ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ [آل عمران : 179] .

وفي صحيح مسلم عن حذيفة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : [تُعْرَضُ الْفِتْنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُوداً عُوداً ، فَأَيُّ قَلْبٍ أَشْرَبَهَا نُكِبَتْ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِبَتْ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيضَاءُ ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ ، عَلَى أَبْيَضٍ مِثْلِ الصَّفَا ، فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ . وَالْآخِرُ أَسْوَدُ مُزْبَاداً كَالْكُوزِ مُجْحِئاً لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفاً وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلَّا مَا أَشْرَبَ مِنْ هَوَاهُ] (2) .

12 - 13 . قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا

وَلْنَحْمِلَ خَطَايَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (2887) - كتاب الجهاد والسير . باب الحراسة في الغزو في سبيل الله . وانظر كذلك (2886) من الباب نفسه .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم (144) - كتاب الإيمان ، باب رفع الأمانة والإيمان من بعض القلوب وعرض الفتن على القلوب . ورواه كذلك في كتاب الفتن في أثناء حديث أطول .

وَلِيَحْمِلَ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ .

في هذه الآيات: استهتأ الكافرين بحمل الذنوب وسيعلمون مغبة ما يستهزئون. إنهم سيعملون يوم القيامة أوزارهم وأوزار من أضلوا وليسألن يومئذ كما كانوا يفترون. فقله: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ ﴾ .

قال مجاهد: (قول كفار قريش بمكة لمن آمن منهم. يقول: قالوا: لا نبعث نحن ولا أنتم ، فاتبعونا إن كان عليكم شيء فهو علينا).

وقال الضحاك: (هم القادة من الكفار ، قالوا لمن آمن من الأتباع: اتركوا دين محمد واتبعوا ديننا).

والمقصود: أن كفار قريش أرادوا إغراء من آمن منهم واتبع سبيل الهدى بالرجوع إلى دين الآباء الذي كانوا عليه ، ويزعمون أن ذلك في رقابهم وهم يتحملون تبعته.

وقوله: ﴿ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ . تكذيب من الله تعالى لهم. فإنه لا يحمل أحد وزر أحد ، ولا يستطيع أحد أن يقف يوم القيامة ويقول: عليّ فلان.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 - قال تعالى: ﴿ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمِلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ [فاطر: 18].

2 - وقال تعالى: ﴿ وَلَا يَسْتَلْ حِمِيًّا حَمِيمًا ﴾ يَصْرُوهُمْ ﴿ [المعارج: 10 - 11].

3 - وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣١﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٢﴾ وَصَاحِبِيهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٣﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس: 34 - 37].

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة قال: [قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله عز وجل: ﴿ وَأَنْذَرُ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: 214] قال: يا معشر قريش اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً ، ويا صفية عمّة رسول الله لا أغني

عنك من الله شيئاً ، ويا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئاً⁽¹⁾ .

وقوله : ﴿ وَلِيَحْمِلُوا أَنْفَالَهُمْ وَأَنْفَالًا مَعَ أَنْفَالِهِمْ ﴾ .

إثبات لحملِ توابع إضلالهم ، فإنهم يحملون أوزار أنفسهم ، ثم يُضاف عليهم أوزار الذين أضلوهم ، وتوابع انتشار إفسادهم في الأرض .

فعن قتادة : ﴿ وَلِيَحْمِلُوا أَنْفَالَهُمْ ﴾ أي : أوزارهم ﴿ وَأَنْفَالًا مَعَ أَنْفَالِهِمْ ﴾ يقول : أوزار من أضلوا .

وفي التنزيل نحو ذلك : قال تعالى : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلِيسَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴾ [النحل : 25] .

ومن صحيح السنة المطهرة في آفاق هذا المفهوم أحاديث :

الحديث الأول : أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : [لَا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا ، إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا ، لَأَنَّهُ كَانَ أَوَّلَ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ]⁽²⁾ .

الحديث الثاني : أخرج الإمام مسلم أيضاً عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : [مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى ، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً ، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئاً]⁽³⁾ .

الحديث الثالث : أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني . حدثني أبي ، عن جدِّي ، أن رسول الله ﷺ قال : [مَنْ أَحْيَا سُنَّةً مِنْ سُنَنِي فَعَمِلَ بِهَا النَّاسُ ، كَانَ لَهُ مِثْلُ أُجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا لَا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً . وَمَنْ ابْتَدَعَ

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في صحيحه - حديث رقم - (4771) - كتاب التفسير . وانظر صحيح مسلم - حديث رقم - (204) - كتاب الإيمان .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح - حديث رقم - (1677) - كتاب القسامة والمحاربين ، باب بيان إثم من سَنَّ القتل ، وفي لفظ آخر لآخر الحديث : «لأنه سَنَّ الْقَتْلَ» .

(3) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح - حديث رقم - (2674) - كتاب العلم ، وأخرجه أبو داود (4609) ، وابن ماجة في السنن (206) . وانظر صحيح أبي داود (3853) - كتاب السنة .

بِدْعَةٍ فَعْمَلْ بِهَا ، كَانَ عَلَيْهِ أَوْزَارٌ مِّنْ عَمَلٍ بِهَا لَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِ مَنْ عَمِلَ بِهَا شَيْئاً⁽¹⁾ .
وقوله : ﴿ وَلَيَسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ .

قال ابن جرير : (وليسألن يوم القيامة عما كانوا يكذبونهم في الدنيا بوعدهم إياهم الأباطيل ، وقيلهم لهم : اتبعوا سييلنا ولنحمل خطاياكم فيفترون الكذب بذلك) .

14 - 15 . قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ ١٤ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّفِينَةَ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿ ١٥ ﴾ .

في هذه الآيات : إرسال الله تعالى نبيه نوحاً ﷺ إلى قومه لينذرهم طيلة ألف سنة إلا خمسين عاماً وهم يصرون على كفرهم حتى أخذهم الطوفان وهم ظالمون . وكتب الله النجاة في السفينة للمؤمنين وجعلها آية للعالمين .

فقوله : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ .

تسلياً من الله تعالى لرسوله ﷺ عما يلقاه من أذى قومه وتكذيبهم ، فهذا نوح - عليه الصلاة والسلام - قبله مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى عبادة الله وحده ، ونبذ ما هم عليه من الجاهلية والوثنية والكبر ، ثم ما آمن معه إلا قليل .

قال ابن عباس : (بُعِثَ نُوحٌ وَهُوَ لِأَرْبَعِينَ سَنَةً ، وَلَبِثَ فِي قَوْمِهِ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ، وَعَاشَ بَعْدَ الطُّوفَانِ سِتِينَ عَامًا ، حَتَّى كَثُرَ النَّاسُ وَفُشُوا) .

فإنه قد كثر الجهل وانتشر الشرك فبيل بعثة نوح ﷺ ، وَبَعْدَ الْعَهْدِ بِالنُّبُوَّةِ عَلَى النَّاسِ بَعْدَ آدَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، فَاحْتَاجَ الْأَمْرَ لِجِهَادٍ طَوِيلٍ فِي طَرِيقِ دَعْوَةِ النَّاسِ وَمَحَاوَلَةِ إِنْقَاذِهِمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ .

أخرج الحاكم بسند صحيح عن أبي أمامة مرفوعاً إلى النبي ﷺ قال : [كان بين آدم ونوح عشرة قرون ، وبين نوح وإبراهيم عشرة قرون]⁽²⁾ .

(1) حديث صحيح . أخرجه ابن ماجه (209) - باب من أحيا سنة قد أميتت . انظر صحيح ابن ماجه - حديث رقم - (173) . وكذلك (170) ، (171) ، (172) من الباب قبله .

(2) حديث صحيح . أخرجه الحاكم (262/2) ، والطبراني في «المعجم الكبير» (8/139 - 140) ، =

وقوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾. قال الضحاك: (الطوفان: الغرق). وقال قتادة: (هو الماء الذي أرسل عليهم).

والمعنى: كانت نهاية إصرار القوم على كفرهم وظلمهم أنفسهم أن أغرقهم الله تعالى بالطوفان ليكونوا عبرة لمن بعدهم.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾.

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: فأنجينا نوحاً وأصحاب سفينة، وهم الذين حملهم في سفينة من ولده وأزواجهم. يقول: وجعلنا السفينة التي أنجيناه وأصحابه فيها عبرة وعظة للعالمين، وحجة عليهم).

16 - 18. قوله تعالى: ﴿وإِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوتُنَا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾﴾.

في هذه الآيات: دعوة إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - قومه إلى إفراد الله تعالى بالعبادة والتعظيم، وتحذيره لهم مغبة شركهم ومصير الأمم الهالكة قبلهم وما على الرسول إلا البلاغ المبين.

فقوله تعالى: ﴿وإِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

أي: واذكر أيضاً يا محمد إبراهيم الخليل إذ أنذر قومه وحذرهم مغبة الشرك بالله، وأمرهم بإفراد الله تعالى بالعبادة والتعظيم. قال النسفي: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من الكفر ﴿إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. إن كان لكم علم بما هو خير لكم مما هو شر لكم).

وقوله: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوتُنَا﴾. أي: أصناماً. قاله قتادة.

وقوله: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ - فيه أقوال متقاربة:

1 - قال ابن عباس: (يقول: تصنعون كذباً). وقال مجاهد: (يقول: تقولون كذباً).

2 - وقال عطاء عن ابن عباس: (تنتحون تصورون إفكاً). وقال قتادة: (أي: تصنعون أصناماً).

3 - وقال ابن زيد: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ الأوثان التي ينحتونها بأيديهم).

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾.

قال القرطبي: (أي: اصرفوا رغبتكم في أرزاقكم إلى الله ، فإياه فاسألوه وحده دون غيره).

وقوله: ﴿وَأَعْبُدُوهُ وَأَشْكُرُوا اللَّهَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

قال ابن جرير: ﴿وَأَعْبُدُوهُ﴾ يقول: وذلوا له ﴿وَأَشْكُرُوا اللَّهَ﴾ على رزقه إياكم ، ونعمه التي أنعمها عليكم . إلى الله تردون من بعد مماتكم ، فيسألکم عما أنتم عليه من عبادتكم غيره وأنتم عباده وخلقه ، وفي نعمه تتقبلون ، ورزقه تأكلون).

وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾.

هو من تمام كلام إبراهيم الخليل ﷺ لقومه كما هو ظاهر من السياق ، وفي الآية تعزية من الله تعالى لرسوله ﷺ عما يلقاه من تكذيب قومه وعنادهم . فإنه على الرسول البلاغ ، وعلى الله الحساب .

19 - 23. قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ

ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ

مِنْ وَلِيِّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَايَأَتِ اللَّهُ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَكْسِبُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ .

في هذه الآيات: احتجاجُ الله تعالى على منكري المعاد والبعث للحساب ، ودعوتهم للنظر في بدء الخلق والاستعداد للرحيل والنشأة بعد ذلك من القبور للجزاء ونيل الثواب أو العقاب .

فعن قتادة: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ قال: بالبعث بعد الموت). والآية إخبار من الله تعالى عن إرشاد الخليل إبراهيم - عليه السلام - قومه إلى إثبات المعاد بما يروونه من آيات المقدرة له تعالى. قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: أو لم يروا كيف يستأنف الله خلق الأشياء طفلاً صغيراً ، ثم غلاماً يافعاً ، ثم رجلاً مجتمعاً ، ثم كهلاً. وقوله: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ يقول: ثم هو يعيده من بعد فنائه وبلاه ، كما بدأه أول مرة خلقاً جديداً ، لا يتعذر عليه ذلك ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ سهل كما كان يسيراً عليه إبداءه).

وقوله: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾. قال قتادة: (خلق السماوات والأرض).

وقوله: ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾. قال ابن عباس: (هي الحياة بعد الموت وهو النشور).

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. أي: إنه تعالى قادر على إنشاء خلقه بعد إفنائهم ، وعلى غير ذلك فلا يعجزه شيء .

وقوله تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ .

قال النسفي: ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ بالخذلان ﴿وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ﴾ بالهداية ، أو بالحرص والقناعة ، أو بسوء الخلق وحسنه ، أو بالإعراض عن الله وبالإقبال عليه ، أو بمتابعة البدع وبملازمة السنة ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ تردون وترجعون).

وفي سنن أبي داود وابن ماجه من حديث زيد بن ثابت مرفوعاً: [إن الله لو عذب

أهل سَمَواته وأهل أرضه لعَذْبهم وهو غير ظالم لهم ، ولو رحمهم كانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم⁽¹⁾ .

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ .

أي: هو القاهر سبحانه لأهل سماواته وأهل أرضه ، وكل شيء فقير إليه ، محتاج إلى رحمته ، وما لكم أيها الناس من دون الله من ناصر ولا معين إن أنزل به نقمته ، وأحلّ بكم عذابه .

وقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَكُونُ مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

قال القرطبي: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ ﴾ أي: بالقرآن ، أو بما نصب من الأدلة والأعلام . ﴿ أُولَئِكَ يَكُونُ مِنْ رَحْمَتِي ﴾ أي: من الجنة ، ونسب اليأس إليهم والمعنى أويسوا . وهذه الآيات اعتراض من الله تعالى تذكيراً وتحذيراً لأهل مكة .

24 - 25. قوله تعالى: ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ وقال إِنَّمَا أَخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴾ .

في هذه الآيات: عودة إلى قصة خطاب إبراهيم عليه السلام مع قومه ، فإنهم لما عجزوا عن مواجهة حجج الحق البالغة لجؤوا إلى استخدام الجاه والقوة والسطوة ، فأنجاه الله من النار ومن مكربهم ، وقد حذرهم إبراهيم مغبة شركهم ، والخزي يوم القيامة إذا ركبوا الهوى ومضوا على إصرارهم وكفرهم .

(1) إسناده قوي. أخرج أبو داود (4699) - في القدر ، وابن ماجه (77) ، وأحمد (182/5) ، (189/5) ، وابن حبان (727) ، والبيهقي (204/10) ، وانظر صحيح أبي داود (3932) .

فقوله: ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ﴾.

كقوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا لَمُبْتَلَيْنَا فَالْقُوْهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٥٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ [الصافات: 97 - 98].

قال النسفي: (قال بعضهم لبعض ، أو قاله واحد منهم وكان الباقون راضين فكانوا جميعاً في حكم القائلين فاتفقوا على تحريقه ﴿فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ﴾ حين قذفوه فيها). وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

أي: إن في إنجاء الله إبراهيم من لهب النار وسعيرها ، وجعلها عليه برداً وسلاماً ، لأدلة وحججاً لقوم يصدقون بالحجج والأدلة إذا رأوا وعينوا. وإن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون بقدرة الله على خرق العادات والسنن فيزيدهم ذلك إيماناً وتسليماً.

وقوله: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾. قال ابن جرير: (أي: تتحابون على عبادتها ، وتتوادون على خدمتها ، فتتواصلون عليها). وهذا على قراءة ﴿مودة﴾ بالنصب على أنه مفعول له. وأما على قراءة الرفع ﴿مودة﴾ فالمعنى: إنما اتخذتم هذا لتحصل لكم المودة في الدنيا فقط. والمقصود متقارب ، والقراءتان مشهورتان.

وقوله: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾.

أي: ثم يوم القيامة تنقلب عليكم هذه المودة لتصبح هذه الصداقة بَغْضَةً وشنائاً ، ثم تتجاحدون ما كان بينكم ويبرأ بعضكم من بعض ، ويلعن بعضكم بعضاً. قال قتادة: (صارت كُلُّ خُلَّةٍ في الدنيا عداوة على أهلها يوم القيامة إلا خُلَّةَ المتقين).

قال القاسمي: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي: تتجاحدون ما كان بينكم ، ويلعن الأتباع المتبوعين ، والمتبوعون الأتباع).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1- قال تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: 67].

2- وقال تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: 38].

3- وقال هنا: ﴿وَمَا وَكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّصِيرِينَ﴾. أي: ما لكم من منقذين

يحولون بينكم وبين عذاب الله الذي كتبه عليكم ، أنتم ومن كنتم معه على منهاج الوثنية وتعظيم غير الله .

أخرج الحاكم بإسناد صحيح عن عبد الله بن قيس أن رسول الله ﷺ قال : [إِنَّ أَهْلَ النَّارِ لَيَبْكُونَ ، حَتَّىٰ لَوْ أُجْرِيَتِ الشُّفُنُ فِي دُمُوعِهِمْ ، لَجَرَتْ ، وَإِنَّهُمْ لَيَبْكُونَ الدَّمَ - يعني - مكان الدمع] (1) .

وله شاهد عن ابن ماجة وابن أبي الدنيا بسند صحيح لغيره عن أنس بن مالك مرفوعاً بلفظ : [يُرْسَلُ الْبُكَاءُ عَلَى أَهْلِ النَّارِ فَيَبْكُونَ حَتَّىٰ تَنْقَطِعَ الدُّمُوعُ ، ثُمَّ يَبْكُونَ الدَّمَ حَتَّىٰ يَصِيرَ فِي وُجُوهِهِمْ كَهَيْئَةِ الْأَخْدُودِ ، لَوْ أُرْسِلَتْ فِيهِ السُّفُنُ لَجَرَتْ] (2) .

26 - 27. قوله تعالى : ﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ﴿ ٢٦ ﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿ ٢٧ ﴾ .

في هذه الآيات : تصديق لوط وهجرته وإبراهيم - عليهما الصلاة والسلام - إلى الله العزيز الحكيم . وإكرامه تعالى إبراهيم بإسحاق ويعقوب وجعله النبوة في ذريته وهو في الآخرة من الصالحين .

فقوله : ﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ ﴾ . قال ابن عباس : (صدق لوط) .

وقوله : ﴿ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي ﴾ . قال ابن عباس : (هو إبراهيم) .

قال قتادة : (هاجرا جميعاً من كوثي ، وهي من سواد الكوفة إلى الشام) .

وقال ابن زيد : (كانت هجرته إلى الشام) .

أخرج أبو داود والحاكم بسند حسن في الشواهد عن عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعاً : [سَتَكُونُ هِجْرَةٌ بَعْدَ هِجْرَةٍ ، فَخِيَارُ أَهْلِ الْأَرْضِ أَلْزَمُهُمْ مُهَاجَرَةُ إِبْرَاهِيمَ ، وَيَبْقَىٰ

(1) حديث صحيح . أخرجه الحاكم (4/ 605) وقال : «حديث صحيح الإسناد» ، ووافقه الذهبي .

(2) صحيح لغيره . أخرجه ابن ماجة (4324) ، وابن أبي الدنيا في «صفة النار» (ق 1/ 12) . وأخرجه الخطيب (283/ 11) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1679) .

في الأرض شِراؤ أهلها ، تلفظهم أرضوهم ، تقدّرهم نفسُ الله ، وتحشّرهم النار مع القردة والخنازير⁽¹⁾.

ووجه الجمع بين قول إبراهيم لسارة: «ليس على وجه الأرض مؤمن غيرك وغيري ، فأنت أختي في الدين» - حين عرض لها الطاغية ، وإيمان لوط في ذلك الزمان أن المراد - والله أعلم - ليس على وجه الأرض زوجان على الإسلام غيري وغيرك ، أو المقصود ليس على وجه تلك الأرض التي مرّا عليها ، أو المراد ذلك على التغليب ، وإلا فإن لوطاً عليه الصلاة والسلام آمن به من قومه ، وهاجر معه إلى بلاد الشام ، ثم أرسله الله في حياة الخليل إلى أهل «سَدُوم» وإقليمها ، فكان من أمرهم انتشار تلك الفاحشة الخبيثة حتى قلب الله عليهم قريتهم وجعل عاليها سافلها .

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ . أي: العزيز في نصرته رسله والمؤمنين ، وفي انتقامه من أعدائه المجرمين ، الحكيم في أقواله وأفعاله وقدره وشرعه .

وقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ .

إخبار عن هديته - تعالى - الكبرى لإبراهيم عليه الصلاة والسلام ، لما فارق قومه واعتزلهم في عبادتهم ، فأكرمهم في غربته أن جعل النبوة في ذريته ، والكتب المنزلة ترافق بعثتهم . كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَوْهُمْ وَمَا يعبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكَلَّ جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم: 49] .

وفي صحيح البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ أنه قال: [الكريمُ ابنُ الكريم ابنِ الكريم ابنِ يوسف بنُ يعقوب بنِ إسحاق بنِ إبراهيم عليهم السلام]⁽²⁾.

والخلاصة: إن شجرة الأنبياء جميعها تنبعث في أصلها من إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، فجميع أنبياء بني إسرائيل من سلالة يعقوب بنِ إسحاق بنِ إبراهيم ، حتى

(1) حديث حسن في الشواهد. أخرجه أبو داود (388/1 - جهاد) ، والحاكم (486/4 - 487) ، وأحمد (84/2) ، (198/2 - 199) ، وعبد الرزاق (20790/376/11) ، وكذلك أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (6/54 - 66) . وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (3203) .

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3382) - كتاب أحاديث الأنبياء ، وانظر كذلك (3390) ، وكذلك (4688) - كتاب التفسير ، ورواه مسلم وغيره من أهل السنن .

كان آخرهم عيسى بن مريم - الذي بشر بخاتم النبيين محمد ﷺ ، وهو الوحيد من سلالة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام - وجميع الكتب التوراة والإنجيل والزبور والفرقان رافقت تلك الذرية المباركة . فالمراد بقوله : ﴿وَالْكِتَابُ﴾ جنس ذلك ، أي : من الكتب المشار إليها .

وقوله : ﴿وَعَاتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾ . قال مجاهد : (الثناء) . وقال ابن عباس : (الولد الصالح والثناء) . أو قال : (الذكر الحسن) . وقال عكرمة : (أجره في الدنيا أن كل ملة تتولاه ، وهو عند الله من الصالحين) .

وعن قتادة : ﴿وَعَاتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾ قال : عافية وعملاً صالحاً ، وثناء حسناً ، فلست بلاق أحداً من الملل إلا يرى إبراهيم ويتولاه) .

والخلاصة : لقد أبقي الله تعالى لإبراهيم - عليه السلام - الثناء الحسن في الأرض ، والصلاة عليه إلى آخر الدهر ، ومحبة أهل الملل له ، واستمرار الذرية الصالحة في عقبه . وقوله : ﴿وَلَنَنُفِثُ فِي الْآخِرَةِ لِمَنِ الصَّالِحِينَ﴾ . قال الحسن : (أي من أهل الجنة) .

قال ابن جرير : ﴿إِنَّهُ﴾ مع ذلك ﴿فِي الْآخِرَةِ لِمَنِ الصَّالِحِينَ﴾ فله هناك أيضاً جزاء الصالحين ، غير منتقص حظّه بما أعطي في الدنيا من الأجر على بلائه في الله ، عمّا له عنده في الآخرة) .

28 - 30 . قوله تعالى : ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَيِنَّكُمْ لَأَتَاوَتِ الرِّجَالَ وَتَقَاطَعُونَ السَّكَبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾ .

في هذه الآيات : يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ : واذكر يا محمد لوطاً إذ حذر قومه مغبة الفاحشة التي كانوا عليها من إتيان الذكور دون النساء ولم يسبقهم إليها أحد من العالمين ، ومقابلة قومه له بالكذب والإصرار واستعجال العذاب حتى لجأ إلى الله طالباً النصر على القوم المفسدين .

فقوله تعالى: ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأَتُونَ الْفَحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ .

قال عمرو بن دينار: (ما نزا ذكراً على ذكر حتى كان قوم لوط).

وقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَأَتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ .

أي: إنهم جمعوا بين منكرات كثيرة ، من كفر بالله وتكذيب لرسوله ، وقطع للطرق على المسافرين يتترونها للفاحشة ويقتلونهم ويأخذون أموالهم ، ويفعلون ما لا يليق فعله في مجالسهم من مجاهرة بالمنكر وتضارط وتضاحك خبيث وتكشُّف مشين .

فعن ابن زيد: ﴿وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ﴾ قال: السبيل: الطريق . المسافر إذا مرَّ بهم ، وهو ابن السبيل قطعوا به ، وعملوا به ذلك العمل الخبيث).

وعن عكرمة: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ قال: كانوا يؤذون أهل الطريق يحذفون من مرَّ بهم). وقال مجاهد: (كان يجمع بعضهم بعضاً في المجالس). وقال ابن زيد: (ناديهم المجالس ، والمنكر: عملهم الخبيث الذي كانوا يعملونه ، كانوا يعترضون بالراكب فيأخذونه ويركبونه). وذكر ابن جرير بسنده عن عروة بن الزبير ، عن عائشة في قوله: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ قال: (الضراط). قيل: كانوا يتضارطون ويضحكون.

قلت: والآية بعمومها تشمل جميع أنواع المنكرات التي ذُكرت ، وغير ذلك مما لم يُذكر ، وتدلُّ أنَّ قوم لوط جمعوا من الخبائث ألواناً شتى وأصروا عليها متكبرين مستهزئين بالعذاب مطالبين به تهكماً ، وهو قوله: ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ .

لجوء صحيح من لوط ﷺ إلى ربه حين استعصى عليه قومه ، وأصروا على بغيهم وكفرهم وفجورهم ، فاستنصر ربه عز وجل عليهم .

31 - 35. قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا

أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنْ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنْ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَاتُنَّ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ

رُسِّلْنَا لُوطًا سَيِّئًا بِهِمْ وَضَافٍ بِهِمْ ذُرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ
إِلَّا أُمْرَاتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا
مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾

في هذه الآيات: بثُّ الملائكة البشري لإبراهيم عليه السلام بولد صالح وبإهلاك
القوم الظالمين ، ووصول الرسل إلى لوط وضيقة وخوفه عليهم حتى بشَّروه بهلاك
القوم المفسدين ، لتبقى قصتهم آية لقوم يعقلون .

فقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّا
أَهْلُهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ .

أي: جمعوا له بين البشارة بولد صالح وبين إهلاك قوم لوط الذين أصروا على الظلم
من كفر ومعصية .

قال ابن كثير: (لما استنصرَ لوطٌ - عليه السلام - الله عليهم ، بعثَ الله لِنُصْرَتِهِ
ملائكةً فَمَرُّوا على إبراهيم - عليه السلام - في هيئة أضياف ، فجاءهم بما ينبغي
للضيْفِ ، فلما رأى أنه لا هِمةَ لهم إلى الطعام نَكِرَهُمْ وأوجسَ منهم خيفة ، فَشَرَعُوا
يؤانسونه وَيُشِيرُونَهُ بوجود ولدٍ صالح من امرأته سارة - وكانت حاضرة - فتعجَّبت من
ذلك . قال: فلما جاءت إبراهيم البُشْرَى ، وأخبروه بأنهم أُرْسِلُوا لهلاك قوم لوط ، أخذ
يدافعُ لعلمهم يُنظرون ، لعل الله أن يهديهم . ولما قالوا: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ
الْقَرْيَةِ﴾ ، ﴿قَالَ إِنَّكَ فِيهَا لُوطٌ قَالُوا تَحْزَنْ أَعَلَمْ يَمَن فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَاتُهُ
كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ ، أي: من الهالكين ، لأنها كانت ثَمَالِيَهُمْ على كُفْرِهِمْ وَبَغْيِهِمْ
وَدُبْرِهِمْ).

وقوله: ﴿وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سَيِّئًا بِهِمْ وَضَافٍ بِهِمْ ذُرْعًا﴾ .

قال قتادة: (ضاق ذرعه بضيافتهم لما علم من خُبث فعل قومه). أو قال:
﴿وَضَافٍ بِهِمْ ذُرْعًا﴾ بالضيافة مخافة عليهم مما يعلم من شرِّ قومه).

والمقصود: أنه لما سارت الملائكة من عند إبراهيم متوجهين إلى لوط - عليهما
السلام - وَرَدُّوا عليه في صورة شبابٍ حسان فلما رآهم اغْتَمَّ بأمرهم فإن أضافهم خشي

عليهم مكر قومه ، وإن لم يصفهم خاف عليهم اعتداءهم ، ولم يعرف حقيقة أمرهم بعد .

وقوله : ﴿ وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرَانِكَ كَأَنَّ مِنَ الْفَعِيرِ ﴾ .

قال ابن جرير : (يقول تعالى ذكره : قالت الرسل للوط : لا تخف علينا أن يصل إلينا قومك ، ولا تحزن مما أخبرناك من أننا مهلكوهم . وذلك أن الرسل قالت له : ﴿ يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ ﴾ [هود : 81] . ﴿ إِنَّا مُنْجُوكَ ﴾ من العذاب الذي هو نازل بقومك ﴿ وَأَهْلَكَ ﴾ يقول : ومنجو أهلك معك ﴿ إِلَّا أَمْرَانِكَ ﴾ فإنها هالكة فيمن يهلك من قومها ، كانت من الباقيين الذين طالت أعمارهم) .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ .

أي : إنا منزلون - يا لوط - على أهل هذه القرية - سدوم - عذاباً من السماء بما كانوا يستهترون بركوبهم الفواحش وإصرارهم عليها .

لقد اقتلع جبريل عليه السلام قراهم من قرار الأرض فرفعها إلى عنان السماء ثم قلبها عليهم . وأتبعهم الله حجارة من سجيل منضود . مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

قال مجاهد : (عبرة) . وقال قتادة : (هي الحجارة التي أمطرت عليهم) .

قال القاسمي : ﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ يعني قصتها العجيبة ، أو آثارها الخربة) .

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ كُنْتُمْ لَكُرُوفٍ عَلَىٰ مُصْبِحٍ ﴿١٣٧﴾ وَإِلَيْكَ أَفْلا تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات : 137 -

[138] .

36 - 40 . قوله تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَتَقَوَّمُ عِبْدُوا اللَّهَ

وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ

الرَّحْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمٍ ﴿١٣٧﴾ وَعَادَا وَنِمُودَا وَقَدْ بَيَّنَّ لَكُمْ

مِّن مَّسْكِينِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَغْوَيْنَهُمْ فَصَدَّاهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقُتِرُوا وَفِرْعَوْنُ وَهَامَنْ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَافِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ .

في هذه الآيات: خبرُ شعيب ﷺ وقومه ودعوتهم لعبادة الله والاستعداد لليوم الآخر وترك الفساد في الأرض ، وإصرارهم حتى أخذتهم الرجفة فأصبحوا جائعين . وخبر عاد وثمود وقارون وفرعون وهامان وغيرهم من الأمم الباغية الذين سلط الله عليهم ألوان العذاب وما كانوا سابقين .

فقوله: ﴿وَالِإِى مَدِينَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَنْقُومُوا عِبَادُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ .

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: وأرسلت إلى مدين أخاهم شعيباً ، فقال لهم: يا قوم اعبدوا الله وحده ، وذللوا له بالطاعة ، واخضعوا له بالعبادة ، ﴿وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ يقول: وارجوا بعبادتكم إياي جزاء اليوم الآخر وذلك يوم القيامة) .

وقال بعضهم: ﴿وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾: واخشوا اليوم الآخر). وقيل: ﴿وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ أي صدقوا به فإن القوم كانوا ينكرونه) .

وقوله: ﴿وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ .

العُتُوُّ والعِيُّ أشد الفساد . والمقصود: نهيمهم عن السعي في الأرض بالفساد والبغي والإفساد . وذلك أنهم كانوا ينقصون المكيال والميزان ، ويقطعون الطريق على الناس ، هذا مع كفرهم بالله ورسوله .

وقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ﴾ .

قال قتادة: ﴿جِثِيمِينَ﴾: أي ميتين). وقال غيره: (قد ألقي بعضهم على بعض) .

قال ابن كثير: (فأهلكهم الله بِرَجْفَةٍ عظيمة زلزلت عليهم بلادهم ، وصيحة أخرجت القلوب من حناجرها ، وعذاب يوم الظلة الذي أزهق الأرواح من مُسْتَقَرِّهَا ، إنه كان عذاب يوم عظيم) .

وقوله: ﴿وَعَادَا وَثُمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ﴾.

أي: واذكروا كذلك - أيها القوم - مصير عاد وثمود ومآل مساكنهم إلى الدمار والخراب. وذلك أن عاداً - قوم هود - كانوا يسكنون الأحقاف ، وهي قرية قريبة من حضرموت بلاد اليمن ، وثمود - قوم صالح - كانوا يسكنون الحِجْرَ قريباً من وادي القرى. وكانت العرب تعرف مساكنهما جيداً ، فهم يَمْرُون على آثار ديارهم كثيراً أثناء الأسفار والترحال ، فذكرهم الله تعالى بما يشاهدونه من تلك البقايا من الأطلال.

وقوله: ﴿وَزَيَّنَّا لَهُمُ الشَّيْطَانَ أَعْمَالَهُمْ﴾. قال القرطبي: (أي أعمالهم الخسيسة فحسبوا ربيعة). والمقصود: حَسَّنَ لهم الشيطان ما كانوا عليه من الكفر والمعاصي.

وقوله: ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾.

أي: فأزاحهم الشيطان بتزيينه لهم الكفر والآثام عن سبيل الله القويم ، وطريق الحق المتين ، وكانوا في ضلالتهم مستبصرين ، فهم مُعْجَبُونَ ببغيهم يحسبون أنهم على هدى وصواب وهم على الضلال المبين.

ففي قوله: ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ قولان متكاملان في المعنى:

1 - قال ابن عباس: ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ يقول: كانوا مستبصرين في دينهم). وقال مجاهد: ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ في الضلالة). وقال قتادة: ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ في ضلالتهم مُعْجَبِينَ بها).

2 - قال الفراء: (كانوا عقلاء ذوي بصائر فلم تنفعهم بصائرهم). وقال النسفي: ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ عقلاء متمكنين من النظر وتمييز الحق من الباطل ولكنهم لم يفعلوا).

وقوله: ﴿وَقَرَّبُوا وَفِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَأَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾.

أي: وكذلك اذكر يا محمد - وذُكِّر قومك - أمر قارون صاحب الأموال الجزيلة ومفاتيح الكنوز الثقيلة ، وأمر فرعون ملك مصر في زمان موسى ووزيره هامان ، وكانا - من القبط - على الكفر بالله ورسوله ، جاءهم موسى بالبينات من الأدلة الواضحات ، فاستكبروا في الأرض وأبوا الإيمان بالله الواحد الأحد ، فَدَكَّهم العذاب وما كانوا سابقينا بأنفسهم فيفوتونا ، بل كنا مقتدرين عليهم. قال القاسمي: ﴿وَمَا كَانُوا

سَيَقِينُ ﴿٤١﴾ أي: فائتين لله سبحانه ، بل لحقهم عذابه فدمرهم تدميراً .

وقوله: ﴿ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا ﴾ .

قال ابن عباس: ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ﴾ قوم لوط). أي: أمطر الله عليهم حجارة من سجيل منضود. قال ابن جرير: (والعرب تسمي الريح العاصف التي فيها الحصى الصغار أو الثلج أو البرد والجليد حاصباً).

وعن ابن جريج ، عن ابن عباس: ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ﴾ قال: ثمود). وقال قتادة: (قوم شعيب). ولا شك أن ثمود ومدين قد أخذتهم الصيحة فيشملهما الإخبار.

وعن ابن عباس قال: ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ ﴾ قارون ، ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا ﴾ يعني قوم نوح وفرعون وقومه).

والخلاصة: لقد أخذ الله جميع هؤلاء الأقوام بذنوبهم ، فكانت عقوبة كل منهم بما يناسب ظلمهم ، فقوم عاد طغوا وقالوا من أشد منا قوة؟ فأزاحتهم ريح عاتية محملة بالحصباء ترفع الرجل منهم عالياً ثم تنكسه على رأسه فتشدخه ، فيبقى بدنأ بلا رأس كأنهم أعجاز نخل منقعر . وثمرود الذين عقروا الناقة وعتوا وتهددوا نبي الله صالحاً ومن آمن معه بأن يخرجوهم ويرجموهم ، فجاءتهم صيحة أخدمت أصواتهم وحركاتهم . وقارون الذي مشى متبخرأ ، فرحاً بالمال متكبراً ، فخسف الله به وبداره الأرض ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة .

وفرعون الطاغية الذي ادعى الربوبية وملك البلاد والأنهار والبحار ، فسلب الله عليه مياه اليم فأغرقه وجنوده ، وأبقاه عبرة لمن جاء بعده .

وقوله: ﴿ وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ .

قال القرطبي: (لأنه أنذرهم وأمهلهم وبعث إليهم الرسل وأزاح العذر).

43- 41. قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ

الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ

الْحَكِيمِ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ .

في هذه الآيات: تمثيلٌ بديع لحال المشركين في تَعَلُّقِهِم بِالْهَتَمِ التي لا تضر ولا تنفع فهم كالمتمتع بشبكة خيوط العنكبوت لو كانوا يعلمون. وهذه الأمثال يضربها الله للناس وما يعقلها إلا العالمون.

قال ابن عباس: (قوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أُولِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ أَخَذَتْ يَتًا﴾ .. إلى آخر الآية ، قال: ذلك مثل ضربه الله لمن عبد غيره ، إن مثله كمثل بيت العنكبوت). قال ابن جرير: (﴿وَأَنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ﴾ أي: أضعف البيوت). ﴿لَيْتَ الْعَنْكَبُوتِ﴾. قال الضحاك: (ضرب مثلاً لضعف آلهتهم ووهنها فشبها ببيت العنكبوت). وقال قتادة: (هذا مثل ضربه الله للمشرك ، مثل إلهه الذي يدعوه من دون الله كمثل بيت العنكبوت واهن ضعيف لا ينفعه).

وقال ابن زيد: (هذا مثل ضربه الله ، لا يغني أولياؤهم عنهم شيئاً كما لا يغني العنكبوت بيتها هذا). قال القرطبي: (﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾: أي لو علموا أن عبادة الأوثان كاتخاذ بيت العنكبوت التي لا تغني عنهم شيئاً ، وأن هذا مثلهم لما عبدوها ، لا أنهم يعلمون أن بيت العنكبوت ضعيف).

والمقصود: أن اتخاذ المشركين آلهة من دون الله وتعظيم الطواغيت يرجون نصرهم ورزقهم ويستغيثون بهم في النائبات والشدائد ، إنما هم في ذلك كمن يتعلق للنجاة ببيت العنكبوت لا يجدي عنه شيئاً لضعفه ووهنه .

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ .

تجهيلٌ للكفار حين عبدوا من دون الله جماداً لا علم له ولا قدرة ، وتركوا عبادة الله الواحد القادر القاهر الأحد . فالله تعالى يعلم عجز آلهتهم التي يدعون من دونه ، وهو ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب الذي يقهر كل الأوثان والطواغيت ومن عظمها ، الحكيم في تدبير شؤون خلقه وإمهال المشركين إلى حين .

وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ .

أي: وهذه الأمثال البديعة التي يضربها الله تعالى للناس إنما هي ليتدبروا أمرهم قبل فوات الأوان ، فيفردوه تعالى بالعبادة والتعظيم ، وإنما يعي آفاق هذه الأشباه والنظائر والحكم الراسخون في العلم والإيمان .

قال النسفي: (كان سفهاء قريش وجهلهم يقولون: إن رب محمد يضرب المثل بالذباب والعنكبوت ويضحكون من ذلك ، فلذلك قال: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ به وبأسمائه وصفاته ، أي: لا يعقل صحتها وحسنها ولا يفهم فائدتها إلا هم ، لأن الأمثال والتشبيهات إنما هي الطرق إلى المعاني المستورة حتى تبرزها وتصورها للأفهام). وعن عمرو بن مرة قال: (ما مررت بآية من كتاب الله لا أعرفها ، إلا أحزني. لأنني سمعت الله تعالى يقول: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾).

44 - 45. قوله تعالى: ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أنزل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلوة إن الصلوة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون ﴿٤٥﴾.

في هذه الآيات: خلق الله السماوات والأرض بالحق ، ودعوته تعالى رسوله ﷺ والمؤمنين لتلاوة الوحي وإقام الصلاة ، فهي تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولذكر الله أكبر ، والله يعلم جميع شؤون عباده وأعمالهم .

فقوله: ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾. أي: محققاً ، أراد بخلقه ذلك الجِدِّ والعمل ، لا اللهو والعبث والكسل. قال النسفي: (يعني لم يخلقهما باطلاً بل لحكمة ، وهي أن تكونا مساكن عباده ، وعبرة للمعتبرين منهم ، ودلائل على عظم قدرته).

وفي التنزيل نحو ذلك :

1 - قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِينَ﴾ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُمْ لَاتَّخَذْتَهُ مِنْ لَدُنَّا إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿[الأنبياء: 16 - 18]﴾.

2 - وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَبِخَيْرِ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: 31].

ومن صحيح السنة العطرة في آفاق ذلك أحاديث ، منها :

الحديث الأول: أخرج ابن ماجة بسند حسن عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ:

[إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ ، وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ . إِنَّ السَّمَاءَ أُطَّتْ ⁽¹⁾ وَحَقٌّ لَهَا أَنْ تَنْطُ . مَا فِيهَا مَوْضِعٌ أَزْبَعَ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِداً لِّلَّهِ . وَاللَّهُ ! لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ ، لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً . وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشَاتِ . وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعْدَاتِ تَجَارُونَ إِلَى اللَّهِ] ⁽²⁾ .

الحديث الثاني : يروي ابن ماجة في كتاب الزهد بإسناد حسن عن عبد الله بن ضمرة السلولي ، قال : حدثنا أبو هريرة ، قال : سمعت رسول الله ﷺ وهو يقول : [الدنيا مَلْعُونَةٌ . مَلْعُونٌ مَا فِيهَا ، إِلَّا ذَكَرَ اللَّهَ وَمَا وَالَاهُ ، أَوْ عَالِماً أَوْ مُتَعَلِّماً] ⁽³⁾ .

وقوله : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ . أي : لدلالة بينة أنه تعالى الإله الحق المستحق للعبادة دون ما سواه .

وقوله : ﴿أَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ .

أمر من الله سبحانه لرسوله ﷺ والمؤمنين بقراءة القرآن وتبليغه والقيام بأوامره ومقتضى ما فيه من الحق .

وقوله : ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ - أمر من الله تعالى نبيه والمؤمنين بإقام الصلاة بحدودها وأركانها وواجباتها ، وما يجب لها من إتمام الوضوء والتطهر .

وقوله : ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ .

قال ابن عباس : (يقول : في الصلاة منتهى ومزدجر عن معاصي الله) .

أخرج الإمام أحمد في المسند ، ورجاله رجال الصحيح عن أبي هريرة قال : [جاء رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ : إِنَّ فُلَانًا يُصَلِّي بِاللَّيْلِ فَإِذَا أَصْبَحَ سَرَقَ ! فَقَالَ : إِنَّهُ سَيَنْهَاهُ مَا تَقُولُ] ⁽⁴⁾ .

(1) الأُطِيط : صوت الأفتاب ، وأُطِيط الإبل أصواتها وحنينها ، والمقصود سُمِعَ صوت ثقل الملائكة وكثرتها وازدحامها كصوت الحركة على السقف من الخشب .

(2) حديث حسن . أخرجه ابن ماجة في السنن (4190) - كتاب الزهد ، باب الحزن والبكاء . وانظر صحيح سنن ابن ماجة - حديث رقم - (3378) .

(3) إسناده حسن . أخرجه ابن ماجة (4112) - في السنن - كتاب الزهد . باب مثل الدنيا . وانظر صحيح سنن ابن ماجة (3320) ، وتخريج المشكاة (5176) .

(4) حديث صحيح . أخرجه أحمد (447/2) ، والبزار كما في «المجمع» (258/2) ، وقال الهيثمي : ورجاله رجال الصحيح . وله رواية للبزار من طريق جابر ، ورجاله ثقات .

قلت: وأما حديث أكثر من ذكره هنا المفسرون: «مَنْ لَمْ تَنْهَ صَلَاتُهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ لَمْ يَزِدْ بِهَا مِنْ اللَّهِ إِلَّا بُعْدًا» - فهو ضعيف. أخرجه الطبراني وفي سنده ليث بن أبي سليم قد اختلط. وكذلك حديث: «لا صلاة لمن لم يطع الصلاة» - فهو ضعيف جداً - أخرجه ابن جرير في التفسير ، وفيه جويبر متروك متهم ، فتنبه .

والمقصود: أَنَّ إقبال العبد على الله في صلاته بصدق يورثه تعظيم أوامره واجتناب نواهيه ، فلا بد أن تأمره صلاته بترك الفحشاء والمنكر .

وقوله: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ . أي: منهاج الذكر أكبر شيء وأجله ، والذي في الصلاة جزء منه ، وإنما ذكْرُهُ تعالى فوق كل أمر .

ومن أقوال المفسرين في ذلك :

1 - قال ابن عون الأنصاري: (إذا كنت في صلاة فأنت في معروف ، وقد حَجَزْتَكَ عن الفحشاء والمنكر ، والذي أنت فيه من ذكر الله أكبر) .

2 - قال ابن عباس: (يقول: ولذكر الله لعباده أكبر إذا ذكروه من ذكرهم إياه) . أو قال: (ولذكر الله إياكم برحمته أكبر من ذكركم إياه بطاعته) .

3 - وقال ابن عطاء: (ذِكْرُ اللَّهِ لَكُمْ أكبر من ذكركم له الآن ، لأن ذكره بلا علة وذكركم مشوب بالعلل والأمانى ، ولأن ذكره لا يفنى وذكركم لا يبقى) .

4 - وقال سلمان: (ذكر الله أكبر من كل شيء وأفضل) .

5 - وقيل: ذكر الله أكبر من أن تحويه أفهامكم وعقولكم .

6 - وقيل: ذكر الله أكبر من تلقي معه معصية . أو ذكر الله أكبر عن الفحشاء والمنكر من غيره .

قلت: والراجح عندي إطلاق اللفظ على حاله ، فهو إضافة لأنه يشمل كل ما ذكر ، إلا أنه يفيد في تأصيل مفهوم عظيم ، وهو أن ذكره تعالى أعلى من كل شيء ، بل هو غاية كل عمل صالح . قال تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ .

فقد أخرج الترمذي بسند صحيح عن أبي الدرداء قال: قال النبي ﷺ: [أَلَا أُبَيِّنُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِكِكُمْ وَأَرْفَعُهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ

وَالْوَرِقِ ، وَخَيْرٌ لَّكُمْ مَنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟ قَالُوا: بلى ، قال : ذِكْرُ اللَّهِ⁽¹⁾ .

قال معاذ بن جبل : (ما شيء أنجى من عذاب الله ، من ذكر الله) .

فذكر الله تعالى أعلى من الجهاد في سبيل الله الذي هو ذروة سنام الإسلام ، لأن الجهاد إنما شرع لإعلاء كلمة الله والحكم بمنهاجه ، فَذِكْرُهُ تعالى وكلامه وصفاته وأسماءه فوق كل شيء .

وقد جاء في آفاق منهج الذكر أحاديث جليلة ، منها :

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري قال : [خرج معاوية إلى المسجد فقال: ما يجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله ، قال: الله ما أجلسكم إلا ذاك؟ قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذاك ، قال: أما إنني لم أستحلفكم تهمه لكم ، وما كان أحد بمنزلي من رسول الله ﷺ ، أقل حديثاً عنه مني: إن رسول الله ﷺ ، خرج على حلقة من أصحابه ، فقال: ما يجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله ونحمده ، لما هدانا للإسلام ، ومن علينا به . فقال: الله . ما أجلسكم إلا ذاك . قالوا: الله ما أجلسنا إلا ذاك . قال: أما أتني لم أستحلفكم لتهمه لكم ، إنه أتاني جبرئيل وأخبرني: أن الله يُباهي بكم الملائكة]⁽²⁾ .

الحديث الثاني: أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن عبد الله بن بسر ، أن أعرابياً قال لرسول الله ﷺ: إن شرائع الإسلام قد كثرت علي . فأنبئتني منها بشيء أتشبث به . قال : [لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله عز وجل]⁽³⁾ .

الحديث الثالث: روى مسلم والترمذي وابن ماجة عن الأغر أبي مسلم: أنه شهد على أبي هريرة ، وأبي سعيد الخدري ، أنهما شهدا على رسول الله ﷺ أنه قال : [ما من

(1) حديث صحيح . أخرجه الترمذي (3617) - أبواب الدعوات ، وكذلك ابن ماجة (3790) - في فضل الذكر ، وانظر صحيح سنن الترمذي (2688) .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم (72/8) ، ورواه الترمذي (3619) - أبواب الدعوات ، باب ما جاء في القوم يجلسون فيذكرون الله ما لهم من الفضل . انظر صحيح سنن الترمذي (2690) .

(3) حديث صحيح . أخرجه ابن ماجة (2793) - في فضل الذكر . والترمذي (3615) - أبواب الدعوات . باب فضل الذكر . انظر صحيح سنن الترمذي (2687) ، وصحيح ابن ماجة (3060) .

قوم يذكرون الله إلا حَقَّتْ بهم الملائكةُ ، وَغَشِيَتْهم الرحمةُ ، ونزلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله فيمن عنده⁽¹⁾ .

منهاج الذكر كما جاء في الوحيين : القرآن والسنة الصحيحة :

وهنا فائدة جلية : لما أفادت الآية السابقة أن ذكر الله أجل الأعمال ، كان من الواجب على العباد الاعتناء بآداب ذكرهم لله تعالى ولزومهم لهدي نبيه ﷺ ومنهاجه في ذلك :

أ - مجالس الذكر هي مجالس العلم .

جاء في «المدخل» لابن الحاج «1/ 86 - 87» : (قال علماؤنا - رحمهم الله - : الذكر والمجالس المذكورة في هذه الأحاديث مجالس العلم ، وهي مجالس الحلال والحرام ، هل يجوز أو لا يجوز ، كيف يتوضأ ، وما يجب عليه ، ويسن ويستحب ، ويكره ويمنع ، وكيف يصلي ، وكيف ينكح ، وكيف يبيع ويشترى ، إلى غير ذلك ، حتى الحركات والسكنات ، والنطق والصمت) .

وجاء فيه «1/ 89 - 90» : (وقد قالت عائشة رضي الله عنها : «كم من قارئ يقرأ القرآن والقرآن يلعنه ، يقرأ : ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود : 18] وهو ظالم) .

وقد قال ابن بطال⁽²⁾ في شرح البخاري عن العلماء أنهم قالوا : (الأحاديث الواردة عن النبي ﷺ يحتاج فيها إلى معرفة تلقي الصحابة رضي الله عنهم لها . كيف تلقوها عن صاحب الشريعة ﷺ فإنهم أعرف بالمقال ، وأفقه بالحال) .

ب - عدم رفع الصوت عند الذكر .

قال تعالى : ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف : 205] .

قال قيس بن عباد⁽³⁾ : (كان أصحاب رسول الله ﷺ يكرهون رفع الصوت عند

(1) حديث صحيح . رواه مسلم (72/ 8) ، وابن ماجه (418/ 2) ، وانظر صحيح سنن ابن ماجه (3058) ، وصحيح سنن الترمذي (2689) .

(2) هو علي بن خلف بن عبد الملك بن بطال أبو الحسن القرطبي عالم بالحديث شرح صحيح البخاري . توفي سنة (449 هـ) رحمه الله تعالى .

(3) هو قيس بن عباد الضبعي أبو عبد الله البصري ، ثقة مخضرم . مات بعد الثمانين - رحمه الله تعالى - .

الذكر). وممن روى كراهة رفع الصوت عند قراءة القرآن: سعيد بن جبير ، وسعيد بن المسيب ، والحسن وابن سيرين والنخعي ، وكرهه مالك بن أنس ، وأحمد بن حنبل .

روى مالك في الصلاة ، باب العمل في القراءة ، من حديث البياضي رضي الله عنه مرفوعاً - أنه خرج النبي ﷺ على أصحابه رضي الله عنهم وهم يرفعون أصواتهم بالقرآن ، فكره ذلك وقال : [لا يجهر بعضكم على بعض بالقرآن]⁽¹⁾ .

وله شاهد عند أبي داود في السنن ، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : [اعتكف رسول الله ﷺ في المسجد ، فسمعهم يجهرون بالقراءة ، فكشف السُّرَّ وقال : ألا كلكم مناج ربه فلا يؤذِن بعضكم بعضاً ، ولا يرفع بعضكم على بعض في القراءة]⁽²⁾ .

وفي صحيح البخاري عن أبي موسى الأشعري قال : لما غزا رسول الله ﷺ خيبر أشرف الناس على واد ، فرفعوا أصواتهم بالتكبير : الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله . فقال رسول الله ﷺ : [ارْبِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ إِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِباً . إِنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيعاً قَرِيباً وَهُوَ مَعَكُمْ]⁽³⁾ .

ج - عدم الاجتماع على صوت واحد في الذكر .

قال ابن وهب : قلت لمالك رحمه الله : أرأيت القوم يجتمعون فيقرؤون جميعاً سورة واحدة حتى يختموها؟ فأنكر ذلك وعابه وقال : (ليس هكذا كان يصنع الناس إنما كان يقرأ الرجل على الآخر يعرضه)⁽⁴⁾ .

ثم ذكر حديث : «لا يجهر بعضكم على بعض بالقرآن» . وقال : (ومحال في حقهم أن يكون ﷺ نهاهم عن رفع الصوت بالقرآن فيجتمعون للذكر رافعين أصواتهم به) .

ثم قال : (وأما قوله ﷺ : «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله تعالى يتلون كتاب الله

(1) أخرجه مالك في «الصلاة» - باب العمل في القراءة (80/1) - حديث رقم - (29) .

(2) رواه أبو داود (1332) - في الصلاة ، باب رفع الصوت بالقراءة في صلاة الليل ، ورواه البيهقي في «شعب الإيمان» (543/2) رقم (2658) . وسنده صحيح .

(3) حديث صحيح . أخرجه البخاري في صحيحه - حديث رقم - (4202) - كتاب المغازي . باب غزوة خيبر . وانظر كذلك (2992) .

(4) انظر : «المدخل» لابن الحاج (91/1) ، وكتاب : «إنارة الفكر بما هو الحق في كيفية الذكر» - البقاعي (ت : 885 هـ) (ص 36) .

ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة . . .». فالدراسة المذكورة تشعرك بأنهم لم يجتمعوا على التلاوة صوتاً واحداً متراسلين ، لأن المدارس إما أن تكون تلقيناً ، أو عرضاً ، وهذا هو المروي عنهم).

وقوله : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ .

أي والله يعلم أحوالكم وصفة عبادتكم وموافقتها لمنهاج النبوة أو انحرافها ، كما يعلم جميع أعمالكم وشؤونكم .

46 - 49. قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجِدُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا يَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (٤٦) وَكَذَلِكَ أُنزِلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابُ فَالَّذِينَ ءَانَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّ بِيَمِينِكَ إِذَا لَا تَرَاتِبَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَبْنِتُ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴾ (٤٩) .

في هذه الآيات : الدعوة لمجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن ، والتصريح بالإيمان بهذا القرآن وما قبله من الكتب ، وتوحيد الله الإله الحق منزل الكتاب بالحق وما يجحد به إلا الكافرون . إنك - يا محمد - لو كنت قارئاً كاتباً في قومك ثم جئتهم بهذا القرآن لاتهمك بأخذه من الكتب المبطلون . وإنما هذا القرآن آيات بينات في صدور أهل العلم وما يجحد بآيات الله إلا الظالمون .

فقوله : ﴿ وَلَا تَجِدُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا يَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ .

قال مجاهد : (هي محكمة ، فيجوز مجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن على معنى الدعاء لهم إلى الله عز وجل ، والتنبيه على حججه وآياته ، رجاء إجابتهم إلى الإيمان ، لا على طريق الإغلاظ والمخاشنة). وقيل منسوخة بآية السيف ، فلهم الإسلام أو السيف أو الجزية . قلت : والراجح قول مجاهد ، فإن الآية عامة في ملاطفة المعتدلين من أهل الكتاب بالجميل من القول ، رجاء إسلامهم واتباعهم هدي النبي محمد ﷺ .